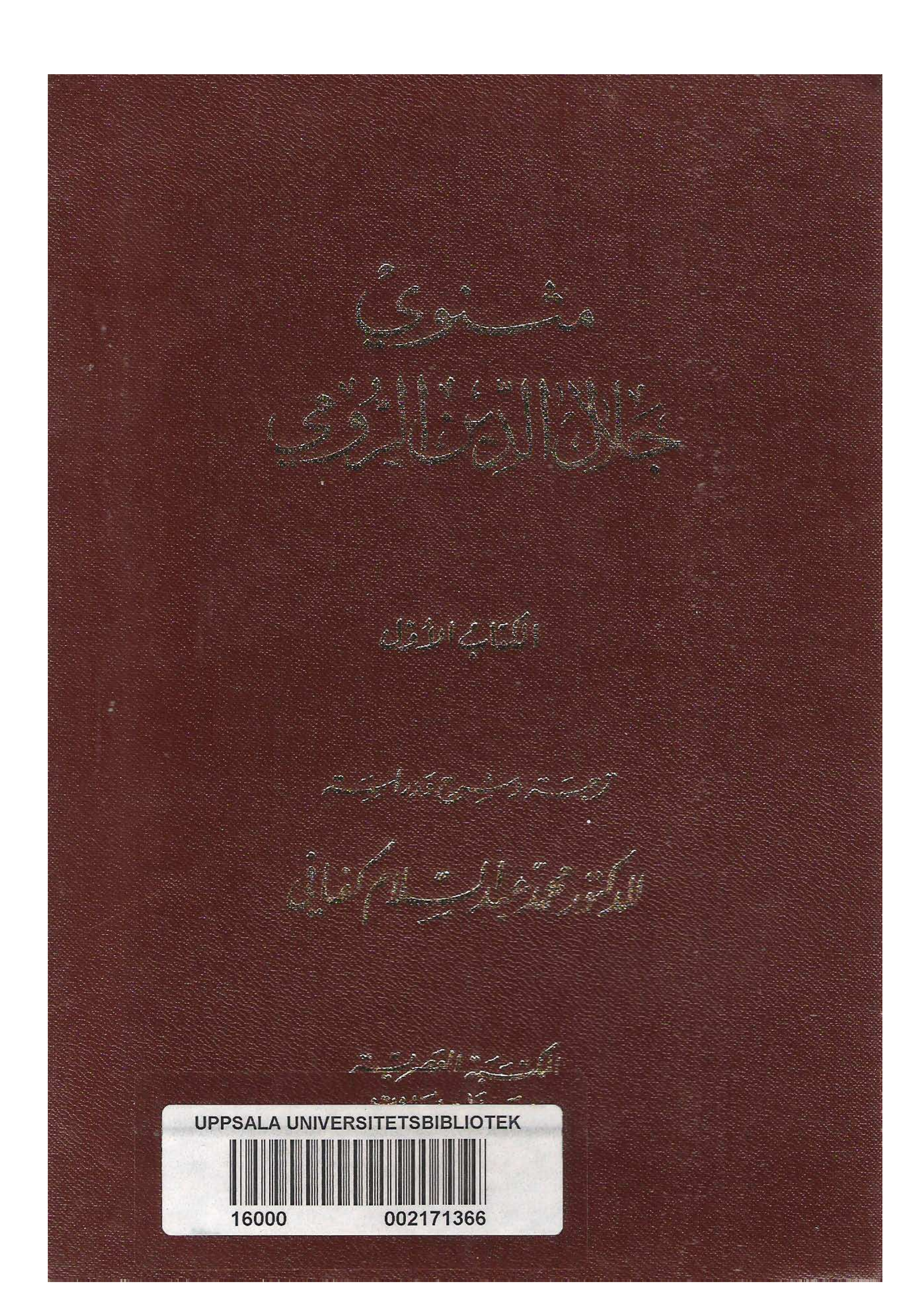

مثنوي
جلال الدين الرومي
الكتاب الأول
ترجمه وشرحه ودرسه
الدكتور محمد عبد السلام كفافي
المكتبة العصرية

مثنوي

جلال الدين الرومي

مثنوي

جلال الدين الرومي

شاعر الصوفية الأكبر

الكتاب الأول

ترجمة وشرح ودراسة

للدكتور محمد عبد السلام كفافي

أستاذ آداب الأمم الإسلامية بجامعة القاهرة
الأستاذ المنتدب بجامعة بيروت العربية

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى

الناشـــر

المكتبة العصرية

صيدا — بيروت

١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل نفس صافية كريمـــة

تنشد الحق والخـــير والجمـــال .

تصدير

يسعدني أن أقدم للقراء والباحثين العرب الكتاب الأول من المثنوي لشاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومي . لقد بدأت أعرف أعمال هذا الشاعر العظيم منذ مدة تزيد على العشرين عاماً حينما كنت لا أزال بعدُ طالباً بمعهد اللغات الشرقية (الذي كان معهداً عالياً ملحقاً بكلية الآداب، جامعة القاهرة) . وفي تلك الأعوام ، التي كانت مسرحاً لحرب ضروس شملت أقطار الأرض ، كنت أجد عند هذا الشاعر من الحكمة الروحية ، وجمال الفكر والفن ، ما يؤنس النفس ويمتع العقل . وكثيراً ما كنت أصحب المثنوي معي إلى الريف المصري حيث اعتدت — إبان تلك السنين — أن أقضي فترة قصيرة من الصيف في ضيعة صغيرة بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة (في شمال الدلتا) ، كان يملكها جدي لوالدتي ، الشيخ عبد السلام الدواخلي . وكان الشيخ — رحمه الله — من علماء الأزهر القدامى ، الذين كانوا يدرسون العلم ثم يعودون إلى قراهم مبتعدين عن الوظائف ، متخذين من العلم ترفاً عقلياً . وكنت آنس إليه بعد فقد الوالد، كما كان هو يسعد برفقتي ، ويحرص على أن يجعل منها مجالاً للدرس والتأمل .

في هذا الجو الهادىء كنت أقرأ المثنوي مستعيناً على فهمه بكتاب « المنهج القوي لطلاب المثنوي » . وكان جمال الريف وهدوءه ، ونخيله وأنسامه ، وآفاقه الرحبة ، وحقوله الخضراء ، وأشجار التوت المورقة الوارفة الظلال ، مما يعين على حسن التذوق ، وفهم بعض ما احتواه المثنوي من رائع الحكمة ، وعميق الفكر .

ودأبت على الرجوع إلى المثنوي أثناء إقامتي للدراسة في لندن (١٩٤٦ —

١٩٥٠) ، ثم حين عدت إلى مصر لأعمل بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ومنذ بدأت أمارس التعليم الجامعي لم يمض عام واحد من غير أن أقرأ مع طـــلابي بعض نصوص من المثنوي أو أتخذ من جـــلال الدين وشعره موضوعـــاً لبعض محاضراتي .

وفي عـام ١٩٦٠ بدأت أترجم المثنوي إلى العربية ثم رأيت أن أضع له شروحاً توضح معانيه . وهأنذا أقدم القسم الأول من هذا العمل ، آمـلاً أن أتبعه ببقية الأقسام .

وقد حرصت في ترجمتي وشرحي على الوضوح وسهولة العبـارة ، وأعددت للكتاب من الفهارس والكشافات ما آمل أن يجعله ميسور الفـــائدة للباحثين والدارسين .

محمد كفافي

فهرس المحتويات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

شروح ودراسات

فهارس الكتاب

المقدمة

جلال الدين الرومي

شاعر الصوفية الأكبر

— ١ —

جلال الدين محمد[١] بن محمد البلخي ثم القونوي ، المعروف بالرومي (٦٠٤ — ٦٧٢ ه) ، أحد شعراء الإنسانية الأفذاذ ، وعلم شامخ من أعلام الفكر ورواده الذين جادت بهم حضارتنا الإسلامية الزاهرة ، فأسهمت بتراثه الفكري والفني في إغناء تراث البشرية جمعاء .

لقد كان هذا الشاعر صوفياً ، اختار التصوف سبيلاً في حياته العملية ، واختاره فلسفة ووحياً لفكره وفنه الرفيع . وقد امتزجت حياته الفكرية بحياته العملية بصورة جعلت تصوفه مزيجاً من الفلسفة والحكمة العملية .

ليس تصوف شاعرنا من ذلك النوع السلبي الذي يدع الحياة وما فيها ، ويدعو إلى هجرها والفناء عنها فناء كاملاً ، ويعدّها شراً تورطت فيه البشرية ،

(١) كنت قد ألقيت هذا البحث في جامعة بيروت العربية ضمن نطاق موسمها الثقافي الثالث « ١٩٦٢ — ١٩٦٣ » . وقد رأيت ضمه إلى هذه الترجمة — بعد إدخال تعديلات قليلة عليه — ليكون مقدمة لها ، وتعم بذلك فائدته .

بل هو تصوف بنّاء ، يستمد عناصره من الإنسان ، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية ، ويحاول أن يرسم له المثل العليـــا في الفكر والعمل . ُيعنى بالحياة التي يحياها البشر ، كما ُيعني بالمصير الذي يطمحون إليه ويتوقعونه بعد مفارقة هذه الحياة . وليس شاعرنا مبدع هـــذا الاتجاه في التصوف ، ولكنّه أفصح الألسنة في التعبير عنه ، وألمع العقول في إبداع فلسفته وابتكار أفكاره .

ولا بدّ لنا في تقديم هذا البحث من كلمة عن حياة الشاعر وعصره . لقد كـُتِب عن حياة جلال الدين كتابات كثيرة ، ولكنّ الحقائق التي ُتستخلص ، من هذه الكتابات قليلة إلى حدّ بعيد . نقرأ في سيرة هذا الشاعر أخباراً عن معجزات وخوارق تمّت على يده ، ونطلع على صور لإنسان طاقته ومستواه فوق البشر العادّيين . ومثل هذه الكتابات أوحى بها حبّ أتباعـه له ، وتقديسهم لذكراه ، وتعظيمهم لشخصه ، بصورة أخذت تنمو مع الأيام . فلنقتصر هنا على ذكر الحقائق التي يمكننا أن نستخلصها عن حياة الشاعر ، معرضين عن أحاديث الخوارق والمعجزات وما صحبها من مبالغات . وقد وردت ترجمة الشاعر في منظومة بعنوان « ولد نامه » نظمها ابنه سلطان ولد ، وفي كتاب « مناقب العارفـــين » للأفلاكي ، وكان هذا تلميذاً لعارف حفيد جـلال الدين . كما وردت في كتب متأخرة عن ذلك ، منها كتاب « نفحـــات الأنس » للشاعر المتصوف عبد الرحمن الجامي و « تذكرت الشعراء » لدولت شاه .

وُلد جلال الدين في مدينة بلخ يوم ٦ ربيع الأول ٦٠٤ هـ (سبتمبر ١٢٠٧) . وقد ُلقـّب بالرومي نسبة إلى أرض الروم (بلاد الأناضول) حيث قضى معظم حياته . كان أبوه محمد بن الحسين الخطيبي ، وكان يدعى بهاء الدين ولد . وقد انتسب جلال الدين من ناحية الأب إلى أبي بكر الصديق ، ومن ناحية الأم إلى أُسرة خوارزم شاه التي كانت تحكم اقليم ما وراء النهر ، وتسيطر على بقاع أُخرى من العالم الإسلامي ، حين

بدأت غارات المغول على الشرق الاسلامي في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . كان أبو الشاعر عالماً دينياً من أتباع المذهب الحنفيّ . والظاهر أنّه أحرز مكانة مرموقة حتى لُقّب بسلطان العلماء . وقد هاجم الفلاسفة والمتكلمين في زمنه ، ولعلّ هذا هو السبب فيما رُوى من اختلافه مع المفكر العربي فخر الدين الرازي الذي كان معاصراً له ، وكان من نزلاء بلخ . وقد اضطر بهاء الدين وَلَد إلى أن يترك هذه المدينة مصطحباً أُسرته عام ٦٠٩ هـ . والروايات في بيان أسباب ذلك متعدّدة ، منها أنّه اختلف مع حاكم البلاد ، ولكنّ الأغلب هو أنّه ترك موطنه حين شعر بقرب هجوم المغول . وكان جلال الدين حين ذاك لا يزال في الخامسة من عمره . وأخذت الأسرة تنتقل من مدينة إلى أُخرى . وفي نيسابور التقت بالشاعر الصوفيّ الكبير فريد الدين العطار ، الذي تذكر الروايات أنّه أخذ الطفل جلال الدين بين ذراعيه ، وأهداه نسخة من منظومته « أسرار نامه » ، كما تنبأ له ببلوغ المرتبة العليا في التصوف . ومن هناك ذهبت هذه الأسرة إلى بغداد ثم إلى مكة . وانتقلت بعد ذلك إلى ملطيّة حيث أقامت أربع سنين ، وبعد ذلك ذهبت إلى لارندا (قرمان الآن) ، حيث أقامت سبع سنين ، ثم تركت لارندا إلى قونية حيث استقر بشاعرنا المقام . وكانت قونية عاصمة للسلطان علاء الدين السلجوقي الذي كان من سلاجقة آسيا الصغرى . وقد توفي أبو الشاعر في هذه المدينة عام ٦٢٨ هـ .

تلقّى الشاعر تعليمه في أوّل الأمر على أبيه ، ثم على أحد أصدقاء أبيه ، وكان يدعى برهان الدين محقّق الترمذيّ . ومما روى أنه ذهب إلى الشام بناء على نصح أستاذه برهان الدين ، وأنه أقام سنوات . وكان في دمشق حينذاك الصوفيّ الكبير محيي الدين بن عربي . ولا تذكر هذه الرواية أن جلال الدين لقي ابن عربي ، كما أنّ شعر جلال الدين لا يشير إلى شيء من ذلك . وكذلك زيارة جلال الدين لدمشق وإقامته بها سنين

طويلة ليست من الأمور التي نعلم شيئاً واضحاً عن تفاصيلها .

تولّى جلال الدين التدريس في مدينة قونية بعد وفـاة أستاذه برهان الدين محقّق سنة ٦٣٨ هـ . وهناك حظي بعطف سلطانها السلجوقيّ . وقد بقي مقيماً في قونية ، لا يفارقها إلا ليعود إليها ، وهناك تجمّع حوله عدد من التلاميذ والمريدين . ولم يكن جلال الدين حينذاك يشتغل بنظم الشعر ، كما أنّه لم يُؤثر عنه اتباع طريق الصوفيّة الذي عُرف به فيما تلا ذلك من الأيام ، وأصبح يمثّل علماً من أكبر أعلامه .

لقد ظهرت عبقريّة الرومي كشاعر في فترة كان قد بلغ فيها مرحلة متقدّمة من النضج الفكري والنفسيّ . ولكنّ العجيب في تلك العبقريّة أنّها جعلت إنتاجه العقليّ بعد أن قارب الأربعين يختلف اختلافاً كليّاً عن إنتاجه السابق على ذلك . لقد كان واعظاً وعُدّ من الفقهاء الأحناف ، فأصبح صوفيّاً فنّاناً شاعراً ، وحكيماً أخلاقياً وفيلسوفاً إنسانياً .

كيف حدث كل هذا ؟ إنّ المصادر تصوّر لنا هذا الانتقال بأنّه كان فجائياً ، نشأ من التقاء الشاعر بصوفيّ كثير التجوال كان يُدعى شمس الدين التبريزي . حقّاً لقد كان لهذا الرجل أعمقُ الأثر في نفس جلال الدين . ولكنّ وقوع الإنقلاب في حياة الرومي لا يمكن أن يحدث بتلك الصورة المفاجئة . فلا بدّ أنّ الرومي كان ميالاً إلى التصوف ، نزّاعاً إلى ذلك التأمل الروحيّ العميق . وأنّه بعد التقائه بذلك الصوفي وجـد نفسه ، وأدرك حقيقته ، فانطلق في الطريق الذي كان مقدّراً له أن يخلّد اسمه على الأيام ، ويضعه في مصافّ الخالدين من شعراء العالم ومفكّريه .

ذكر الرومي هذا التحوّل في إحدى رباعيّاته فقال :

« عندما اشتعلت نيران الحبّ في صدري ،

أحرق لهيبها كلّ ما كان في قلبي .
فازدريت العقل الدقيق والمدرسة والكتاب ،
وعملت على اكتساب صناعة الشعر ، وتعلّمت النظم . »

إنّ لقاء الرومي والتبريزي يمثّل أهمّ نقطة فيما شهدناه من تطوّر روحيّ عميق عند هذا الشاعر . لقد تمّ هذا اللقاء بين الشاعر والتبريزي في عام ٦٤٢ هـ ، بمدينة قونية . كان شمس الدين صوفيّاً متجولاً بلغ الستين من عمره ، وقد جاء به تجواله إلى تلك المدينة . وما كاد جلال الدين يلتقي به حتى وجد فيه الإنسان الكامل ، والمثل الأعلى لما يمكن أن يطمح إليه البشر . وتذكر تراجم الشاعر أنّه أخذ شمس الدين إلى داره وأنّهما بقيا معاً لا يفترقان مدة عام أو عامين . وليس يعلم أحد ماذا تمّ في هذ اللقاء ، ولكنّ المؤرخين متفقون على أنّ الروميّ قد تحوّل بعده إلى إنسان آخر ، اختلفت كلّ أحواله عما كانت عليه من قبل . وكتب التراجم لا تقدّم لنا معلومات واضحة عن التبريزي هذا ، فأصله غير معروف على وجه اليقين . ولقد وصفه البعض بأنّه كان شبه أمّيّ ، ولكنّه كان يتسم دائماً بالحماس الروحيّ العظيم في حديثه ، وبأنّه كان ذا أثر بالغ في نفوس من استمعوا إليه .

وكان المفروض أنّ هذا الصوفيّ قد مضى دون أن يخلف أثراً يُذكر ، ولكنّ الباحثين عثروا أخيراً على نصّ منسوب إليه ، لم يُنشر بعد ، عنوانه « المقالات »[١] .

والمحقّق ـ على أية حال ـ أنّ التبريزي قد أثّر في حياة شاعرنا أعمق الأثر إلى حدّ أنّه صرفه عن تلاميذه صرفاً كاملاً ، وجعله يُعرض عن

---

(١) Arberry : Classical Persian Literature, P. 217 .

الوعظ ، وينصرف إلى حياة التأمل الصوفيّ ، وينطلق في التعبير عن حياته الجديدة بفيض غامر من الشعر بلغ أسمى درجات العبقريّة .

ولقد حقد تلاميذ الرومي على ذلك الدخيل الذي صرف عنهم أستاذهم ، وهاجموه ، فما كان منه إلا أن سافر خفية إلى دمشق . فحزن جلال الدين وابتأس لافتراقه عن هذا الصديق الروحيّ ، ونظم كثيراً من شعره الوجدانيّ في فترة الفراق تلك ، ولم ينقذه من شجونه إلا إبنه سلطان ولد ، الذي ذهب إلى دمشق وعاد بشمس الدين . وقد ذُكر أنّ تلاميذ الرومي هاجموا التبريزي من جديد فرحل للمرة الثانية ؛ وأنّ الرومي عمل من جديد لإعادته . ولكنّه اختفى نهائيّاً عام ٦٤٥ هـ . قيل في تفسير هذا الإختفاء إنّ تلاميذ الرومي قد قتلوه . وقد تألم الرومي كثيراً لفقد صديقه ، وهتف من أعماق قلبه قائلاً :

« من ذا الذي قال إنّ شمس الروح الخالدة قد ماتت ؟
ومن الذي تجرّأ على القول بأنّ شمس الأمل قد تولّت ؟
إنّ هذا ليس إلا عدوّاً للشمس وقف تحت سقف
وعصب كلتا عينيه ثم صاح : ها هي الشمس تموت » .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لصداقة الرومي والتبريزي حصيلة شعريّة هائلة جادت بها عبقريّة الرومي . فقد نظم ديواناً كاملاً سمّاه « ديوان شمس تبريز » ذكرى لصديقه وموجّهه الروحيّ شمس الدين التبريزيّ . ولم يقف الشاعر عند حدّ نسبة هذا العمل الأدبيّ في إجماله إلى صديقه ، بل إنّه نسب أكثر غزليات هذا الديوان إلى صديقه بوضع اسمه في تخلص كل منها . (والتخلص في الغزل الفارسيّ هو أن يذكر الشاعر اسمه الأدبيّ في البيت الأخير من الغزل) . أما القليل من

الغزليّات الذي خرج فيه عن ذلك فقد تخلّص فيه الشاعر باسم أدبي اتخذه لنفسه هو « خاموش » . ويُقال إنّ جلال الدين أنشأ طريقته الصوفيّة — التي عُرفت فيما بعد بالطريقة المولويّة — ذكرى لأستاذه شمس الدين .

وكما تأثّر جلال الدين بأستاذه التبريزيّ ، تأثّر على النحو ذاته ببعض تلاميذه ومريديه . فقد أنست روحه إلى تلميذه صلاح الدين زركوب (الصائغ) . وحينما توفي هذا في عام ٦٥٧ هـ . تحوّل حبّ جلال الدين إلى تلميذه حسن حسام الدين (٦٢٢ — ٦٨٣ هـ .) الذي خلفه في رئاسة الطريقة المولويّة بعد وفاته . وقد نُسِب إلى حسام الدين هذا الفضلُ في حثّ أستاذه على نظم المثنوي . وقد كان له خير عون إبّان عمله الشاقّ ، فقد كان يكتب ما يمليه عليه الشاعر ، ثم يعود فيقرؤه عليه ، وأحياناً ينشده بصوته الجميل . وكم قضيا من ليال طوال في هذا العمل الشاق الذي استغرق سنين طويلة . وقد ذكر جلال الدين تلميذه حسام الدين في المقدّمة العامة للمثنوي ، وأثنى عليه وعلى أسرته كما ذكره في أوائل أجزاء المثنوي جميعاً ما عدا الجزء الأول ، وامتدحه بأرفع العبارات .

لم تشتمل كتب التراجم — رغم وفرة ما كتبته عن جلال الدين — على حقائق أكثر من تلك التي ذكرتها . والذي يمكن أن نذكره إلى جانب تلك الحقائق أنّ الشاعر عاش حياة قديس ، يعلّم ويرشد ، ويحضر مجالس السماع والطرب — وقد أحاط به عدد كبير من التلاميذ والمريدين — إلى أن توفي عند غروب الشمس في الخامس من جمادي الثانية عام ٦٧٢ هـ . ولقي بعد موته من التكريم ما لقي في حياته ، فقد بُني له ضريح أُقيمت فوقه قبّة عرفت بالقبة الخضراء ، أُضيف إليها بعد انتهائها مبان أُخرى ، وأُنفق على ذلك ألوف الدراهم . كما أوقفت على الضريح أوقاف للسدنة ولقراء المثنوي .

ومن الطريف أنّ الرحالة ابن بطوطـه مرّ بقونيه بعد وفاة الشاعر بنحو ستين عاماً وكتب عنه ما يلي :

« وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر ، وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون بإسمه فيقال لهم الجلاليّـة ... وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد . يُذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيهاً مدرّساً يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونيه ، فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلوى وعلى رأسه طبق منها ، وهي مقطّعة يبيع القطعة منها بفلس ، فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : « هات طبقك . » فأخذ الحلوانيّ قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها ، فخرج الحلوانيّ ، ولم يُطعم أحـداً سوى الشيخ ، فخرج الشيخ في إتباعـه وترك التدريس ، فأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقرّاً ، ثم إنّه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلّق (المزدوج) الذي لا يُفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألّفوا منه كتاباً سمّوه المثنوي . وأهـل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ، ويعلمّونه ويقرأونـه بزواياهم في ليالي الجمعات »[1] .

ورغم الطابع الخرافيّ لتلك القصّة فإنهّا تؤيّد الحقائق من وجوه أهمها ما يـلي :

أولاً : غموض قصّة الرومي مـع التبريزي منذ وقت مبكّر .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

ثانياً : انتقال الشاعر الفجائيّ من التدريس إلى الشعر وانطلاق قريحته بالشعر بصورة ملحوظة .

ثالثاً : تعظيم الشاعر بعد وفاته وإقامـــة زاوية كبيرة على ضريحه يُقدّم فيها الطعام للواردين .

رابعاً : اشتهار المثنوي وتعظيمه منذ وقت مبكر .

خامساً: إطلاق إسم الجلاليّـــة على أتباع الرومي في ذلك الوقت ، واشتهار الشاعر بلقب « مولانا » الذي اشتقّ منه فيما بعـد إسم أتباع جـــلال الدين ، فأصبحوا يُعرفون بالمولوّية حتى زماننا هذا .

أما زمن الشاعر فيُعدّ عصراً من أقسى ما مرّ على البشرية من عصور . لقد عاش الشاعر في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وهو القرن الذي شهد غـــارات المغول المدّمرة على العالم الإسلاميّ . فقد انطلقت جحافلهم تدكّ معالم الحضارة وتبيد صروح المدنيّة بصورة لم يُعرف لها مثيل من قبـل . وتعكس لنا كتب التـــاريخ الشرقيّ والغربيّ على السواء أصداء هذه المأساة المروّعة . ولا يكاد يختلف أسلوب ابن الأثير المؤرّخ العربيّ الذي عاصر تلك الحوادث عن أسلوب المؤرّخ الإنجليزي ماتيو باريس Matthew Paris [1] الذي كتب في ذات الوقت تقريباً ، ووصف غارات المغول بأسلوب يتفجّر منه الرعب .

والجدير بالذكر هنا أنّ الشاعر عاش قريباً من مسرح تلك الحوادث ،

---

(١) ماتيو باريس راهب إنجليزي له كتابات كثيرة سجل بها حوادث التـــاريخ الأوروبي بين عامي ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ على طريقة الحوليات . وتعد كتاباته من أهم المصادر لدراسة تلك الحقبة من تاريخ أوروبا .

ومع ذلك وجد في نفسه تلك الطاقة الهائلة على الإنتاج الأدبيّ ، وبقي رغم تلك الحوادث الوحشيّة مؤمناً بالإنسان ، وبأصله الإلهيّ ، ناظراً إلى البشرية كلها نظرة الحنان والعطف ، مسخّراً كلّ ملكاته للنهوض بها من كبوتها ، وتخليصها من ذلك المصير الذي انتهت إليه .

- ٢ -

ما الآثار الأدبية التي تركها جلال الدين ؟

إن آثار هـذا الشاعر تنقسم إلى قسمين ، قسم منثور ، وقسم منظـوم .

أما القسم المنثور فعلى الرغم من أهميّته لدراسة الشاعر ، فإنّه لم يكن المجال الذي تجلّت فيه عبقريّته . ويتكوّن إنتـاجه النثريّ من ثلاثة مؤلفات ، أوّلها يدعى المجالس السبعة ، وهو مواعظ وخطب من ذلك النوع المعروف . والظاهر أنها أُثرت عنه في فترة حياته الأولى قبل أن يعتنق التصوف فكراً وعملاً . وثانيها مجموعة من الرسائل كتبهـا إلى أقاربه وأصـدقائه . وأما ثالثهـا فكتاب يدعى « فيه مـا فيه » ، ويشتمل على أحاديث جلال الدين ومحاضراته التي كان يلقيها على تلاميذه ومريديه في تلك المجالس الخاصّة التي كانت تجمعهم . وبطبيعة الحـال لم يكن جلال الدين هو الذي جمع نصوص هذا الكتاب ، وإنما هو من جمع أحد أبنائه أو مريديه .

الجانب الهام من إنتاج جلال الدين هو شعره . وهو الجانب الذي يعنينا

في هـذا البحث . وقد ذكرت من قبل أنّ هـذا الإنتـاج بلغ نحو سبعين ألف بيت . فإذا كانت هـذه الكثرة مقرونـة بالإجادة فمعنى هذا أنّ شاعرنا قد انطلقت شاعريّته بفيض غامر من الشعر قلما أُتيـح لشاعر آخر في أيّ زمان أو بأية لغة . ومع ذلك فشاعرنا لم يبدأ نظم الشعر إلا حين شارف الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد عاش حتى بلغ من العمر ثمانية وستين عاماً .

إنّ تراث جلال الدين الشعريّ ينقسم من حيث الشكل إلى ثلاثـة أقسام هي الديوان الذي سُمّي بديوان شمس تـبريز ، والرباعيّـات والمثنوي .

فأما الديوان فيشتمل في أكثره على غزليات صوفيّـة يبلغ عددها نحو ٣٥٠٠ غزلاً نظمت في بحور عديدة ، كما يضمُّ أيضاً ملمّعات تركيّـة وعربيّـة ويونانيّـة ، وقصائد وترجيعات فارسيّـة . ويبلغ عدد أبياته ـ في أقدم النسخ الخطيّـة المعروفة نحو ٤٣ ألف بيت ، وذلك حسب إحصاء قام به أستاذ إيرانيّ معاصر كرّس أكثر أبحـاثه لدراسة الروميّ ، هو الأستاذ بديع الزمان فروزانفر [١] .

أما الرباعيّـات فيُنسب إلى شاعرنا منها ١٦٥٩ رباعيّاً عدد أبياتها ٣٣١٨ ، حسب إحصاء فروزانفر [٢] . وبعض هذه الرباعيّـات قد يُشكّ في نسبته إلى الشاعر ، ولكنّ الكثير منها يمكن أن يُعدّ بحقّ من إنتاجه ، لما يتجلى فيه من مطابقته لتفكيره وأسلوبه .

---

(١) أنظر مقاله عن جلال الدين في مجلة الدراسات الأدبية « السنة الأولى ـ العدد الرابـع ، شتاء ١٩٦٠ » ص ٦٢ . « يصدرهـا قسم اللغة الفارسية وآدابها بالجامعة اللبنانية » .

(٢) نفس المصدر .

أما الأثر الثالث فهو المثنوي : وكلمة المثنوي تعني ذلك النظم الذي يُعرف بالمزدوج في العربيّة ، وهو يعتمد في التقفية على توحيد القافية بين شطري كل بيت من أبيات المنظومة . فكل بيت من الأبيات تكون له قافيته المستقلّة ، وبهذا تتحرّر المنظومة من القافية الموحّدة التي طالما عاقت شعراء العرب عن نظم المطوّلات . فهذا التعدّد في القوافي هو الذي مكّن شعراء الفرس من نظم الملاحم المطوّلة على الأوزان العربية ، والإنطلاق بها إلى أبعد مدى أرادوه . وقد سمّى جلال الدين كتابه هذا « المثنوي » . وينقسم هذا الكتاب إلى ستة مجلدات تضم نحواً من خمسة وعشرين ألف بيت . ولا تتصل تسمية الكتاب بموضوعه وإنما بشكل قوافيه ، فهي تسمية شكلية بحتة .

والإيرانيون يعظمون هذا الكتاب إلى أبعد الحدود . وقد بالغوا في تعظيمه حتى سمّوه « قرآن بهلوي » أي قرآن الفارسية . يقول جلال الدين في مقدمته العربية :

« هذا كتاب المثنوي ؛ وهو أصول أصول أصول الدين ، في كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح .. وهو جِنان الجَنان ، ذو العيون والأغصان .... الأبرار فيه يأكلون ويشربون ، والأحرار فيه يفرحون ويطربون ؛ وهو كنيل مصر شراب للصابرين ، وحسرة على آل فرعون والكافرين . »[1]

كتاب المثنوي هذا يعد أثراً من الآثار الأدبية الخالدة ، يرتفع فيه

(١) أنظر المقدمة العربية للمثنوي .

الشعر إلى مستوى عالمي فذّ . وإذا أردنا أن نحدّد موضوعاً لهـذه المنظومة المطوّلة ، وجدنا أنّ ذلك من الأمور العسيرة . إنّ موضوعه الوجود كلّه بصفة عامة ، والإنسان والحياة بصفة خاصّة . وكلّ جزء من الأجزاء الستة لهذه المنظومة يشتمل على نيف وأربعـة آلاف بيت . والمثنوي كله مبنيّ حول مجموعة من القصص ، ولكنّ رواية القصص في هذه المنظومة لا تُقصد لذاتها ، وإنما هي لبيان مقاصد فلسفيّة ، أو لأهداف تعليميّة . فالشاعر يبدأ القصّة فلا يكاد يروي أولى وقائعها حتى يستطرد منها للتحدّث في حكمة هذه الواقعة ، فيذكر الآيات القرآنيّة ويفسّرها ، وقد يذكر الأحاديث ، ويظل يبني عليها الآراء والحكم . ثم يعود بعد ذلك إلى القصّة ليستأنف روايتها ، ويظلّ يعالجها على هذا النحو حتى ينتهي منها . وإذا رجعنا إلى حديث الإحصاءات وجدنا أنّ مؤلّفاً هندياً يدعى تلمذ حسين يذكر في كتاب ألفه يُدعى « مرآة المثنوي » أنّ الرومي قد عالج في المثنوي ١٢٨١ موضوعا .

الكُتّابُ من أبناء الشرق مولعون بأن ينسبوا إلى جلال الدين أنه عالج في ملحمته هذه جميع المعـارف ، وتناول بالبحث كل العلوم . ولست أُحبّ أن أمضي في تلك السبيل فأخلط بين ثقافة الشاعر التي تنعكس في إنتاجه الفنيّ ، وبين اعتباره صاحب علم بجميع المعارف ، يُقرأ لكي تُلتمس عنده هذه العلوم المختلفة . فالشاعر لو ذكر الكيمياء أو سواها فليس معنى هذا أنّه أراد أن يفيد دارس الكيمياء في هـذا العلم ، وإنما هو يستخدم كل ثقافته التي وعاها في خدمة فنّه ، وإرساء أُسس تعاليمه العرفانيّة . ولذلك فإني أميل إلى اعتبار المثنوي أثراً فنياً قبل كل شيء ، ومصدراً للاطلاع على القيم الإنسانيّة والخلقيّة التي انبثقت من الحضارة الإسلامية . والشاعر يستخدم القصص في إيضاح آرائه — كما ذكرنا — ويفسر الآيات القرآنيّة ، ويذكر الأحاديث النبويّة ، ويقتبس

الحكمة منها ، ويتوسّع في بيان مدلولاتهـــا . وهو في كل ذلك شاعر أصيل ، نلمس عنـده الإحساس الصادق ، والعاطفة الجيّاشة ، والعقل المعلّم ، والنفس الصافية التي تستطيع أن تبثّ الصفاء في نفوس الآخرين وتشيع فيها البهجة ، وتصحبها معها في رفق وأناة في دروب من التأمّل العميق ، وآفاق من الفكر الرفيـع ، تعينها على تحقيق حياة أسمى ، والطموح الى غايات أعلى من تلك الغايات المادّية التي يعنو لهـا البشر في هذه الحياة .

ولكنّ طريقة الشاعر في معالجة هـذه الموضوعـــات قد خلت من الترتيب الدقيق ، فهو ينتقل من موضوع الى موضوع ، ومن مقصد الى مقصد ، دون منهج محدّد يتبعه في ذلك الإنتقال . ومع ذلك فقـــد عكف باحث ألماني يدعى جوستاف ريشتر Gustav Richter على المثنوي ، واستطاع أن يبين أنّ كلّ جزء من أجزائه يمثل وحدة فنية متكاملة ، وأنّ ما يبدو فيه من انطلاق على غير نظام موضوعيّ محدّد ليس هو الواقع ، وإنما هناك ارتباط فنيّ دقيق في التنقل من موضوع الى آخر . وقد ذهب الى ذلك أيضاً الأستاذ نيكولسون الذي عكف على ترجمـة المثنويّ ودراسته خمسة وعشرين عاماً[١] .

ومهما يكن الأمر فإن هذا التنقل بين الموضوعات لا يعني أن الشاعر لا يعالج الموضوع الواحد بصورة فنيّة مـترابطة . فنحن نستطيـع أن نستخرج من المثنوي موضوعات كثيرة تناولها الشاعر تناولاً فنيّاً بارعاً ، واستطاع أن يقدمهـــا لنا في هيكل فنيّ متكامل العناصر ، مترابط الأجزاء ، تجمعه وحدة فنيّة أكيدة .

---

(١) Arberry : Classical Persian Literature, P. 236.

- ٣ -

الفنّ عند جلال الدين

ليس من المستطاع أن أحيط بفنّ هذا الشاعر العملاق في مثل هذا البحث . ولكن حسبي أن أذكر بعض الحقائق التي تعين الدارس على تذوّق هذا الفنّ ، والإلمام ببعض خصائصه . لقد امتاز شعر جلال الدين بميزات فنيّة عديدة أهمّها ما يلي :

أولاً : روعة الصور البيانيّة التي عبر بها الشاعر عن أفكاره . فهو يستطيع أن يُجسّد الأفكار ، فيجعلنا نشعر بالمعنويّات كأنها محسوسات نكاد نلمسها . كما أنّه يستطيع في سهولة ويسر أن ينطلق من المحسوسات إلى المعنويّات . وهو يمزج بين الطبيعة والحياة والنفس الإنسانيّة في صور متكاملة تجمع عمق التأمل إلى روعة التصوير . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

يتحدّث الشاعر في بعض من أبيات المثنوي عن تجدّد الدنيا في كل لحظة ثم ينتقل من ذلك إلى دعوة الإنسان لتأمّل نفسه وما يطرأ عليها من تغيّر مستمرّ . يقول :

« في كلّ لحظة يارب قافلة وراءها قافلة تسير من العدم إلى الوجود .

ففي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة
الى بحار الموت .
بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين وينوح على الخضرة في البستان .
وثانيةً يجيء الأمر من سيّد الأرض فيقول للعدم :
« ردّ ما أكلت !
أيها الموت الأسود ! ردّ ما أكلت من زروع وأعشاب وورق
وحشائش . »
فيا أخي ! إجعل عقلك معك لحظة واحدة ! إنّ بك في كل
لحظة خريفاً وربيعاً !
وانظر بستان قلبك أخضر ريّان نضراً ، حافلاً ببراعم الورد
والسرو والياسمين . » (١)

فلنتأمل هنا كيف بدأ الشاعر من فكرة عامة هي تغيّر الدنيا في كل لحظة ، وضرب لذلك مثلاً بالربيع والخريف ، ثم صورهما بصور بيانيّة جميلة ، وانتقل من ذلك الى دعوة الإنسان لتأمل نفسه ، والنظر الى ما يطرأ عليها من ازدهار يشبه الربيع أو انكماش يشبه الخريف .

وفي صورة أخرى يصوّر الإنسان وما يتعرض له من مغريات الحياة فيقول :

« ربّاه ! إنّ أمامنا مائة ألف من الشباك والحبّ ، ونحن
كالطيور الحريصة الجياع !
ففي كل لحظة نقع في شرَك جديد ، حتى ولو كان كل منا
بازاً أو عنقاء !

---

(١) المثنوي ، ج ١ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٢ - ١٨٩٧ .

وأنت - يامن لا حاجة بك الينا - تخلّصنا في كل لحظة ،
ولكننا نعود فنقع في حبائل أخرى !
فنحن نضع القمح في هذا المخزن ، بيد أننا لا نكاد نجمع القمح حتى نفقده[1] .
وليس ينتهي بنا التفكير آخر الأمر أن هذا الخلل الذي يقع بالقمح جاء من مكر الفأر .
فمنذ أن صنع الفأر جُحراً في مخزننا ، خرّب بخداعه هذا المخزن .
فاعملي أيتها النفس أولاً على دفع شرّ الفأر ، ثم اجتهدي في جمع القمح !
فلو لم يكن في مخزننا فأرٌ سارق فأين محصول أعمالنا طيلة أربعين عاماً . »[2]

فالقمح في هذه الصورة يرمز إلى ما يحصّله الإنسان من أعمال صالحة ، وأما الفأر فيرمز إلى الشيطان الذي يجد سبيله إلى تلك الأعمال فينتقص منها .

وتتجلى مقدرة الشاعر على التصوير البياني فيما يسوقه من الصور المتلاحقة لبيان موقف من المواقف أو حال من الأحوال . يقول مثلاً عن القياس الفاسد وكيف أنه يجعل الناس يقيسون الأمور على ظاهرها لا على جوهرها وحقيقتها :

« فقد ادّعى (هؤلاء) أنّهم مساوون للأنبياء ، وظنوا أنفسهم

(١) القمح هنا رمز للأعمال الصالحة . والشاعر يقول هنا إنه يجمع الأعمال الصالحة ولكن هذه الأعمال تذهب بها السيئات .
(٢) المثنوي ، ج ١ ، ٣٧٤ - ٣٨٠ ، ٣٨٢ .

مثل الأولياء
وقالوا : أنظروا ! إننا بشرٌ وهم بشر . ونحن وإياهم أسارى للنوم والطعام !
ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .
فالنحـــل كلها تأكل من مـكان واحد ، ولكن يجيء من بعضها اللدغ ، ومن بعضها الآخر يأتي العسل .
ومن القصب نوعان يشربان من ماء واحد ، ولكنّ أحدهما خال والآخر (حافل) بالسكّر .
فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشباه ، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً !
فهذا يأكل فتتولد منه القذارة ، وذاك يأكل فيصبح كله نوراً إلهيّاً !
وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذاك يأكل فيفيض منه عشق الأحد .
وهذه أرض طيّبة ، وتلك مالحة رديئة ، وهذا ملك طاهر وذاك شيطان ووحش ضار .
فلو تشابهت الصورتان فهذا جائز ، فالماء الملح والماء العذب شبيهان في الصفاء !
وليس يدري الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه، فهو الذي يميّز الماء العذب من الماء الملح . » (١)

والشاعر يتحدث عن الجسم والروح ، ويقارن بين إحساس الجسم وإحساس الروح فيقول :

« إنّ حسّ الدنيا سُلّم لهذا العالم ، وأما حسّ الدين فهو

(١) المثنوي ، ج١ ، ٢٦٥ - ٢٦٨ ، ٢٧٠ - ٢٧٦ .

سلّم السماء !
فاطلبْ صحة حسّ الدنيا من الطبيب ، والتمسْ صحة حسّ الدين عند الحبيب .
وصحة حس الدنيا تجيء من سلامة البدن . وأما صحة حسّ الدين فتأتي من خرابه .
فطريق الروح يخرّب الجسم ، ولكنه يعود فيعمره بعد هذا التخريب .
فهو كمن خرّب داراً من أجل كنز الذهب ، ثم زادها عمراناً بذلك الكنز ذاته .
أو كمن قطع الماء وطهّر مجرى النهر ، ثم عاد فأجرى ماء الشرب فيه .
أو كمن هدم القلعة وأخذها من الكفار ، ثم أقام على أرضها مائة برج وسدّ . »[١]

وهكذا ترى الشاعر لا يكاد يذكر فكرة من الأفكار حتى يؤيدها بعشرات الصور التي تتلاحق في روعة وجمال ، فتزيد الفكرة وضوحاً ، وتؤّيدها وتقوّيها .

ثانياً : موسيقي الشعر : كان جلال الدين يجيد العزف على بعض الآلات الموسيقيّة ، وهو الذي توّسع بإدخال الموسيقى في مجالس الصوفية . وقد اقترن الشعر عنده بالموسيقى ، فكثيراً ما نظمه في مجلس السماع ، وكثيراً ما سمعه مقترناً بالإنشاد والأنغام . وقد تجلى أثر هذا الإحساس الموسيقي في شعره . فقد استطاع أن ينظم غزليات الديوان على أوزان عديدة بلغت خمسة وخمسين وزناً[٢] ، بعضها كان من الأوزان المهجورة .

---

(١) المثنوي ، جا ، ٣٠٣ – ٣٠٨ ، ٣١٠ .
(٢) أنظر ما قاله فروزانفر في عبارة اقتبسها منه علي دشتي في كتابه « سيري در ديوان شمس » ، ص ١٦ ، ١٧

ومثل هذا التوسع في الأوزان ، والتنوع في الأنغام ، لا يُرى له مثيل عند غيره من الشعراء لا في الفارسية ولا في غيرها من لغات الأمم الإسلامية .

وقد استطاع أن يجعل الأوزان المهجورة – بمقدرته الفنية – جميلة الوقع سائغة الأنغام . كما استطاع أن يوفّر الموسيقى لشعره بوسائل عديدة ، وأحياناً كان يختتم الأبيات بمقاطع صوتيّة لا معنى لها ولكنها ذات تأثير موسيقي ، ووقع جميل في السمع[1] . وقد شهدنا في العصر الحديث من حاول اصطناع ذلك في الشعر العربي كوسيلة للتجديد في موسيقاه .

ثالثاً : للشاعر مقدرة عجيبة على أن يتناول الموضوع المطروق فيجعل منه موضوعاً جديداً وكأنه يعرضه على القارىء لأول مرة . لقد كان ينظم القصة المعروفة فيدخلها بفنّه ضمن نطاق إبداعه ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

إن المثنوي يشتمل على بضع مئات من القصص . وقد استطاع الباحثون من أمثال نيكولسون وفرزانفر أن يردّوا هذه القصص في – في أغلب الأحوال – إلى أصول قديمة[2] . ولكننا إذا نظرنا إلى تلك الحكايات – كما وردت في مصادرها الأصلية – ثم نظرنا إليها عند الرومي ، وجدنا أنها قد تحوّلت تحولاً كاملاً ، وتغيرت معالمها ، وأصبحت حافلة بالمعاني الرائعة التي لم تخطر على بال مؤلف القصّة . ولنبيّن هذا يمكننا أن نذكر على سبيل المثال قصة صغيرة من القصص

(١) أنظر أيضاً الفصل القيم الذي كتبه علي دشتي عن « موسيقى ديوان شمس » في كتابه « سيري در ديوان شمس » . طهران ، ١٣٣٦ .

(٢) استطاع فروزانفر أن يرد ٢٦٤ قصة من بين ٢٧٥ وردت في المثنوي إلى أصول سابقة على الرومي في كتابه : « مآخذ قصص وتمثيلات مثنوي » ، طهران ، ١٩٥٤ .

المعروفة تناولها الرومي بطريقته فخلق منها عملاً فنياً ضخماً . تلك هي قصة « الأرنب التي صرعت الأسد » . وقد وردت بذه القصة في كليلة ودمنة[1] واستغرقت روايتها بضعة أسطر ، وخلاصتها أن أسداً كان يعيش بالقرب من أحد المروج ذات المـاء والعشب الكثير ، وأن ذلك المرج كان مرتعاً لكثير من الوحوش ، تعيش فيه مستمتعة بمائه وعشبه ، ولكن الأسد كان يفسد عليهـا عيشها بمهاجمتها لاقتنص غـذائه . وقد رأت هذه الوحوش أن تخلص من شرّ الأسد بأن تدم له كل يوم دابة يأكلها ، على أن يسكن الأسد عن مهاجمتها . وكانت هـذه الدابّة التي تُرسل إلى الأسد تُختار بطريق الإقتراع . وذات يو وقعت القرعة على أرنب ليذهب إلى الأسد ، فلم يرد الذهاب ، وأخذيعمل الحيلة للقضاء على الأسد ، فتأخر عن الموعد الذي اعتاد الأسد أنتلقى فيه فريسته ، ثم ذهب إلى الأسد بعد ذلك ، وأخبره بأنه تأخر لأ أسداً آخر اعترض طريقه ، وأخذ منه غذاء الملك ، وكان أرنباً آخرسميناً أرسله إليـه الوحوش ، ودعـا الأسد إلى أن يطهّر الطريق من.لك الأسـد الدخيل حتى يصله طعامه دون تأخر . فطلب الأسد من الأنب أن يـدّله على مكان ذلك العدوّ ، فأخذه الأرنب إلى بئر تطلّع فا فرأى خياله فظنه عدوّه ، فوثب إليه ليقاتلة فغرق في البئر وخلصتلوحوش من شرّه .

لقد أخذ الرومي هذه القصة القصيرة ، فجعلها ,راً لألوان رائعـة من الحوار ، وهيكلاً أدار حوله مناقشات ممتعـة : السعي والتوكل ، والقضاء والقدر ، وغير ذلك من المسائل . ويمكننا نذكر الآن – على سبيل المثال – بعض جوانب هـذه القصة كما صوّر الرومي . ولنبدأ بذكر الحوار الذي دار بين الوحوش وبين الأسد – ذهبت إليه تطلب منه الأمان لقاء الحصول على رزق يومي يُرسل إليه

---

(١) كليلة ودمنة » ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، المطبعة الأميرية لقاهرة ، ١٩٣١ .

« قالت جملة الوحوش : أيها الحكيم العالم ! دع الحذر فليس يُغني عن قدر[1] .

إنّ في الحذر الحيرة البالغة والشرّ ، فاذهب وتوكل على الله ، فالتوكل خير . ولا تضربْ بقبضتك القضاء أيها العنيف الحادّ ، حتى لا يلتحم القضاء في صراع معك .

فالمرء يجب أن يكون ميتاً أمام الحق ، وإلا جاءتة الضربة من ربّ الفلق .

فقال الأسد : « إذا كان التوكل هو المرشد الصادق ، فإنّ الإفادة من الأسباب سنّة النبيّ .

فقد نادى الرسول بأعلى صوته أن اعقل بعيرك وتوكل على الله.[2]

واستمع إلى مغزى قول القائل (الكاسب حبيب الله) ، ولا تكن بتوكلك متراخياً عن الأسباب والوسائل . »

فقالت الوحوش : « اعلم أن الكسب من ضعف الخلق ، وأنّه لقمة مزوّرة على قدر الخلق .

فليس هناك كسب أحسن من التوكل ، وأيّ شيء أحبّ الى الله من التسليم .

فكم يفرّ المرء من بلاء ليقع في بلاء آخر ، وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنّين !

لقد احتال الإنسان فكانت حيلته شركاً وقع هو فيه ، وكان موته فيما حسب أنه حياته !

فقد أوصد الباب والعدوُّ في منزله ، وإنّ حيلة فرعون لم تكن إلا قصّة من هذا النوع .

---

(١) المثنوي ، ج ١ ، ٩٠٨ وما يليه .

(٢) إشارة إلى قول الرسول عليه السلام . « اعقلها وتوكل » .

فهذا الحقود قد قتل ألوف الأطفال ، بينما كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله !

إنّ بصرنا يعاني الكثير من العلل ، فاذهب وأفْنِ بصرك في بصر الحبيب .

. . . .

فأرواح البشر كانت – قبل أن تُخلق الأيدي والأرجل – تحلّق بوفائها في جوّ الصفاء .

وعندما قُيّدت الأرواح بأمره تعالى : « اهبطوا » ، صــارت أسيرة الغضب والحرص والرضى .

إنّا عيال الله نطلب منه اللبن . وقد قال الرسول : « الخلق عيال الله . »

فذلك الإله الذي ينزل الغيث من السماء قادر على أن يمنحنا الخبز رحمةً منه وإشفاقاً . »

فقال الأسد : « نعم ! ولكنّ رب العباد وضع سلّماً أمام أقدامنا ، فالواجب أن نصعد هذا السلم درجة درجة نحو القمة ، وأمّــا القول بالجبر فإنه طمع ساذج .

إنّ لك ساقين فكيف تجعل من نفسك إنساناً أعرج ؟ وإنّ لك يدين فكيف تُخفي أصابعك ؟

فالسيد عنــدما يضع الفأس في يد عبده ، يتّضح مراده دون حاجة إلى القول .

. . . .

فإذا توكلت على الله فتوكل عليه في عملك . ألقِ البـذور ثم توكل على الخالق الجبار . »

فارتفع صوت الوحوش جميعاً قائلين : « ما لهؤلاء الحريصين الذين زرعوا الأسباب — وهم ألوف مؤلّفة من الرجال والنساء — ظلوا محرومين من مواتاة الزمن ؟ .

فقد مرت آلاف القرون منذ بدء العالم ، وكان كل منها يفغر مائة فم كفم التنّين .

. . . .

فلم يحقق لهم ذلك الصيد والعمل إلا ما قُسم لهم منذ الأزل ! لقد فشلوا جميعاً في التدبير والعمل ، وبقي قضاء الله وأحكامه . »

فقال الأسد : « نعم ، ولكنْ انظروا إلى الجهود التي بذلها الأنبياء والمؤمنون !

لقد بارك الله جهودهم وما لاقوه فيها من حرّ وبرد .

فجاءت تدابيرهم في جملة الأحوال لطيفة ، وكل ما جاء من لطيف فهو لطيف .

فاجتهد أيها السيّد ما استطعت في اتّباع طريق الأنبياء والأولياء . »

وهكذا يمضي هذا الحوار بين الأسد والوحوش ويمضي كلٌ من المتناظرين في تأييد رأيه بالأمثال والحكايات إلى أن ترجح كفة السعي والجهد على التوكل والتراخي .

رابعاً : كانت لجلال الدين مقدرة فائقة في فنّ الحوار . فهو لا يكاد

يطرق موضوعاً من الموضوعات حتى يعالجه في حوار يبيّن به وجهات النظر المختلفة ، وينتهي منه إلى الرأي الذي يريد بيانه . وقد بلغت مقدرته في الحوار مستوى رائعاً . وإني أعتقد أنّ الكثير من محـاوراته في المثنوي يرقى إلى مستويات الأدب التمثيلي . والحوار الذي ذكرته الآن يقدم لنا مثالاً للحوار الفلسفيّ الذي حفل به المثنوي . وهناك ألوان من الحوار ذات طابع واقعيّ ، نجـد الشاعر فيهـا يُجري الحوار على مستوى المتناظرين ، فيكتب على لسانهم ما يلائم عقولهم ، وبهـذا يقترب الحوار – إلى حد بعيد – من الواقعية التي تزيده قوة وتأثيراً . ويمكننا أن نقتبس بعض الأبيات من حوار جرى في إحدى المشاجرات بين رجل فقير وزوجته الجاهلة ، تلوم المرأة زوجها على فقره فيقول لها :

« إن الزوجين يجب أن يكون كل منهما على مثال الآخر . ألا فلتتأملي زوجين من الأحذية أو النعال !

فلو أنّ واحداً من النعلين ضاق بقدمك ، فـلا نفع لهذين النعليْن عندك .

وهل بين مصراعي الباب واحـد صغير وآخر كبير ؟ أم هل رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب ؟

وليس يستقيم على ظهر البعير زوجان من الحقائب ، إحداهما صغيرة والأخرى كاملة الإتّساع .

إنني أسير بقلب قويّ نحو القناعة ، فما لك أنت تسيرين نحو الشناعة ؟ »[1]

فنحن نرى في هذا الحديث كيف أن الشاعر قد جعله على المستوى

---

(١) المثنوي ، جـ ١ ، ٢٣٠٩ – ٢٣١٣ .

الذي ينبغي أن يكون عليه حين يُوَجَّه إلى إمرأة جاهلة .

خامساً : الشاعر قد استطاع – في كثير من الأحيان – أن يجعل من الأمور البسيطة التي تمر تحت أعيننا موضوعاً للشعر . فشعره يتناول الحياة بكلّ جوانبها ، وعبقريته الفنية تستطيع أن ترفع بعض الموضوعات من مستواها التافه إلى مستويات فنية تجعلها جديرة بأن تقرأ ، وتثير التأمل في النفس . وليس هذا بغريب على مثل هذا الفنان الأصيل . كما أنّنا لسنا بحاجة إلى أن نبرّر مثل هذا التصرّف من الناحية الفنيّة ، فالمصوّر مثلاً كثيراً ما يتخذ من الأمور التافهة موضوعاً للوحاته ، فيرتفع بها إلى مستوى الفنّ و ويفرض على الأعين الحسّاسة تأمّلها ، وعلى العقول تلقيها والتأثر بها . ومن أمثلة ذلك ما كتبه الشاعر عن البقول وهي تُطهى في القدر ، يصوّرها جلال الدين متوثبة من ألم النار ، تخاطب المرأة التي تقوم بالطهي ، معاتبة لها ، فتنهرها المرأة قائلة :

« إنني أغليك بالنار لا لأني أكرهك ، ولكن لأنّي أريد أن أجعلك سائغة الطعم[1] .
فتصبحين بذلك غذاء يختلط بروح الحياة . فمثل هذا العذاب لا يهبط بك .

. . . .

لقد فُصلتِ عن بستان الأرض ، وستصبحين بذلك طعاماً يدخل جسم الحيّ .
فيغدو غذاء وحيوية وفكراً . لقد كنتِ عصارة نباتيّة ، والآن

(١) المثنوي ، جـ ٣ ، ٤١٥٩ ...

تصبحين من أُسد الغاب .

. . . .

لقد كنتِ جزءاً من السحاب والشمس والكواكب ، والآن
تصبحين نَـفَـسـاً وحركة وحديثاً وفكراً ! » .

فهنا نرى كيف اتخذ الشاعر من مثل هذا العمل المعتاد ، طهي بعض البقول ، موضوعاً ينطلق منه بصورة رمزية إلى تلك المعـاني . وكثيرةٌ هي الأمور البسيطة التي استخدمها الشاعر على هـــذا النحو فرفعها من مكانها المتواضع في الحياة إلى مقام الفكر المتأمّل

سادساً : تكثر في المثنوي الحـكم والأمثال التي يصوغها الشاعر من وحي تعاليمه الأخلاقية ، أو فلسفته الصوفية ، فتزيد شعره قوّةً في التأثير ، فالحكمة في موضعها تزيد المعنى قوّةً ووضوحاً ، وتجعل الشعر قادراً على النفاذ إلى النفس والتأثير فيها . ومثل هذا كان ضرورياً بالنسبة لشعره التعليميّ الهادف . ولا أريد أن أذكر هنا شيئاً من أمثال الشاعر أو حكمه ، لأنّ القليل في هـــذا المجال لا يدل على الكثير ، والذي يُقال في موضوع لا يمكن أن يدلّ على ما يقال من حكم في شتّى الموضوعات ، ومختلف المناسبات .

سابعاً : نجح الشاعر إلى أبعد الحدود في استخدام السخرية والتهكم لتحقيق أهدافه الفنيّة أو التعليمية . وقد استطـــاع أن يرسم بالشعر لوحات تشبه لوحات « الـكاريكاتير » : وفي الأبيات التالية يمكننا أن نرى كيف سخر من قصار النظر :

« كانت ذبابة على عود قش فوق بول حمار ، وقد رفعت رأسها

كربّان السفينة !

وقالت : « إنّي أسمّيها بحراً وسفينة ، وهذا ما استغرق فكري فترة من الزمن !

فانظر هذا البحر وتلك السفينة ، وأنا فوقها الربّان البارع الحصيف الرأي ! »

فكانت هذه الذبابة تسيّر سفينتها على صفحة البحر ، وقد بدا لها هذا القدر ماء لا يُحدّ .

لقد كان هذا الماء يبدو بلا حدود بالنسبة لها ، ومن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته ؟

إن عالمها يمتد إلى المدى الذي يدركه بصرها ، فعلى قدر العين يكون مدى بحرها . »[1]

ثامناً : الشاعر متنوّع الأساليب ، وقد هدته سليقته إلى نظم الشعر بصور وأساليب متباينة تتلاءم مع عديدٍ من المذاهب الفنيّة التي ظهرت خلال القرون . فعنده الشعر الذي يمكن أن يُعد واقعيّاً ، وعنده الشعر العاطفيّ المثاليّ ، وعنده الشعر الرمزيّ ، بل عنده شعر اللاوعي. ومن الجدير بالذكر هنا أن الصوفيّة هم أول من قال بأدب اللاوعي : فقد أثر عن الكثيرين منهم نظم الشعر في حالات الوجد الصوفيّ ، حالات الفناء عن الذات ، التي كانوا يخرجون فيها عن العقل الواعي . ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن الصوفيّة — بقولهم بالوحي والكشف — قد فتحوا السبيل أمام ألوان جديدة من التفكير في طبيعة الأدب والفن ، بعد أن ظلت فكرة المحاكاة التي قال بها أرسطو مسيطرة على مفاهيم النقد الأدبيّ قروناً عديدة . وقد سبقوا بذلك فرانسيس بيكون الذي صنّف

(١) المثنوي ، ج ١ ، ١٠٨٢ — ١٠٨٧ .

المعرفة البشريّة على أساس ملكات إنسانيّة ثلاث هي العقل والذاكرة والخيال ، وجعل الخيال مصدر الشعر فكان ذلك خروجاً على مذهب المحاكاة الأرسطيّ .

وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا مثالاً لشعر الوجد الصوفيّ عند جلال الدين ، وهو الذي يمكن أن يُعدّ من شعر اللاوعي . قال في ديوان شمس تبريز :

« هذه الدار التي لاتفتر فيها الألحان ، سل ربّها أيّ دار هذه ؟ إن كانت الكعبة فما صورة الصنم هذه ؟ وإن كانت دير المجوس فما هذا النور الإلهي ؟

في هذه الدار كنز يضيق به العالم ، وإنما هذه الدار وهذا السيّد (رب الدار) فعل وذريعة .

لا تَضع على الدار يداً فما هي إلاّ طلسم ، ولا تُكلّم السيد فقد أفنى الليل سُكراً .

تراب هذه الدار وقمامتها مسك وعنبر وعطر . كل سطحها وبابها شعر وألحان . فمن وجد سبيلاً فيها فهو سلطان الأرض وسليمان الزمان .

أيها السيد ! أطلّ علينا من الشرفة ، فإن في خدك الجميل أمارة من الإقبال .

أقسم بروحك أن ماعدا رؤية وجهك ، ولو كان ملك العالم ، خيال وخرافة .

تحيّر البستان أي ورق وأي زهر ! وولهت الطير أي شبك وأي حَبّ !

هذا سيّد الفلك كالزُهرة والقمر ، وهـذي دار العشق لا حدّ لها ولا نهاية . »[1]

- ٤ -

موضوعات الرومي

إذا أردنا أن نقسم شعر جلال الدين على أساس مضمونه ، وجَدنا أنه ينقسم إلى قسمين متميزين ، الأول منهما شعر وجدانيّ فلسفيّ يتنـاول معاني الصوفيّـة ، من حديث عن المحبّة الإلهية ، والوجد ، والنفس الإنسانية ، وأصلها الإلهيّ ، وحنينها إلى ذلك الأصل الذي انفصلت عنه ، ولمحات عن وحدة الوجود لا كمسألة فلسفيّـة ولكن كموضوع ذوقي (فهو في هذه الناحية يختلف اختلافاً كبيراً عن محيي الدين بن عربي) . والشاعر في هذا اللون الوجدانيّ محلـّق دائماً في آفاق العالم الروحي ، لا يكاد يمس الحياة المادّية إلا ليبيّـن تفاهتها واتضاعها إذا قيست بحياة الروح ، وما تنطوي عليه من المبـاهج ، وما تُضمره للانسان من سعادة أبديـّة قوامها الكمال والخلود .

أما القسم الثاني من شعره فشعرٌ إنسانيّ أخلاقيّ ، تناول في جانب كبير منه الإنسان ، وبيّـن أهمـّيته في هذا الكون ، ورسم المثل العليـا للحياة الإنسانية في هذا العالم . وهو في هذا اللون من الشعر معلم أكثر منه فيلسوف ، يترك الرمز في كثير من الأحوال ، ويستخدم القصص والأمثال لبيان الآراء التي يدعو إليها . وفلسفته الخلقيـّة قائمة على دعوة الإنسان لتحقيق الكمال في هذه الحياة ، وهي ترسم للإنسانية الوسائل

(١) ترجمة هـذه القطعة لعبد الوهاب عزام . أنظر فصول من المثنـوي ، ص ٢٦ ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

العمليّة التي يراها الشاعر مؤدّية إلى ذلك .

وشعر الديوان يكاد يكون من ذلك النوع الوجدانيّ الفلسفيّ ، أما المثنوي فتختلط فيه الفلسفة والحكمة بالشعر الخلقيّ التعلميّ على ذلك النحو الذي ذكرناه .

وبطبيعة الحال اختلف أسلوب الشاعر في شعره الوجدانيّ عنه في شعره التعليميّ . فهو في شعره الوجدانيّ يبدو جياش العاطفة ، عنيف الإحساس . يعبّر عن مغامراته الروحية بقوّة وحرارة . ونحن نراه في هذا اللون من الشعر يعرض علينا فلسفة الصوفية بطريقة تبدو جديدة كل الجدة ، مختلفة كل الإختلاف عن كل ما عُرف من شعر صوفيّ إسلامي ، سواء منه ما كان بالعربية أو الفارسية أو التركية . لقد تناول في كثير من غزلياته موضوعات التصوف تناولاً مباشراً ، وعالجها بأصالة فنيّة جعلت شعره يختلف اختلافاً بعيداً عما كتبه غيره من شعراء الصوفيّة . وبينما نجد شاعراً كابن الفارض يُغرق معانيه في سيل لا ينقطع من المحسنات اللفظيّة ، نجد شاعرنا متحرراً في أسلوبه من تلك المحسنات ، منطلقاً بعباراته إلى آفاق لا تُحدّ ، لا تكاد عباراته تحمل من شحنات معانيه إلا القدر الضروري الذى يثير الخيال ويستحثّه إلى ملاحقة الشاعر في آفاقه العالية .

لننظر مثلاً إلى قوله عن المحبة الإلهية :

« إنّ الروح التي ليس شعارها الحبّ الحقيقيّ
من الخير ألا توجد ، فليس وجودها سوى عار !
كن ثملاً بالحب ، فإن الوجود كلّه محبة .
وبدون التعامل مع الحب فلا سبيل إلى الحبيب .
يقولون ما الحبّ ؟ قل هو ترك الإرادة !

ومن لم يتخلـّص من إرادته فلا إرادة له .
إنّ المحبّ ملك والعالمين نثارٌ عند قدميه !
والملك لا يلتفت قط إلى ماهو مُلقى عند قدميه .
إن المحبة والمحبّ باقيان إلى الأبد ،
فلا تربط قلبك بسواهما لأنه عرض زائل .
إلى متى تعانق هذا المحبوب الميـّت(١) ؟
عانق الروح وإن كانت لا حدود لها .
فالأزهار التي تتولد في الربيع تموت في الخريف .
وبستان المحبة لا مدد له من الربيع .
وتلك الورود التي يجيء بها الربيع مقترنةٌ بالأشواك
كما أن خمر العصير لا تخلو من ُخمار .
فلا ترتعد فوق حصان الجسد ، وسر مسرعاً على قدميك !
فإنّ الله يهب جناحين لمن تخلـّى عن حصان الجسد . »

فهو في هذا الغزل يتحدث عن المحبة الإلهية على أنها جوهرالوجود ، وأن كلّ ما سواها عرض زائل ، ويشبّه الجسد بحصان جامح ركبت متنه الروح ، ويدعو الإنسان للسيطرة على هذا الجسد والقضاء على رغائبه الجامحة ، لتستطيع الروح الإنطلاق غير مكبلة بنزعاته وأهوائه .

وهو يخاطب قلبه المتعلق بالهيكل الجسمي ، الخاضع لأهوائه ، ويلومه على هذا التعلق في إحدى غزلياته فيقول :

(١) المحبوب الميت هنا يرمز للدنيا الفانية ، والعناق رمز التمسك بها .

« أيها القلب ! لماذا أنت أسيرٌ لهذا الهيكل الترابيّ الزائل ؟
ألا فلتنطلق خارج تلك الحظيرة ، فإنك طائر من عالم الروح .
إنك رفيق خلوة الدلال ، والمقيم وراء ستر الأسرار
فكيف تجعل مقامك في هذا القرار الفاني ؟
انظر إلى حالك واخرج منها وارتحل
من حبس عالم الصورة إلى مروج المعاني
إنك طائر العالم القدسيّ ، نديم المجلس الأنسيّ
فمن الحيف أن تظلّ باقياً بهذا المقام . »

ومقصود الشاعر بهذا الكلام دعوة قلبه إلى أن يتفكر ويتأمل ، وينطلق محلّقاً في عالم المعاني ، ولا يبقى مجرد عضو محصور في هذا الجسد وطبيعته ، المادية المحدودة .

وفي الغزل الصوفيّ يناجي الشاعر محبوبه :

« أيها الحبيب ! إني لم أر طرباً في الكونين بدونك .
لقد رأيت كثيراً من العجائب ، ولكني لم أر عجباً مثلك !
يقولون إنّ الإحتراق بالنار نصيب الكافر .
ولم أر محروماً من نارك سوى أبي لهب .
ولكم وضعتُ أذن الروح على نافذة القلب
فسمعت كلاماً كثيراً ولكني لم أر شفتين . »

كما يناجيه في غزل آخر بقوله :

« يا من أنت في ساعة الألم راحةٌ لنفسي !
ويا من أنت في مرارة الفقر كنزٌ لروحي !

إن ما لا يحمله الوهم ولا يبصره الفهم
يصل إلى روحي منك لأنك قِبلتي .
ففي ركعات الصلاة يكون خيالك أيها الملك
واجباً ولازماً لي لزوم السبع المثاني » .

ويصوّر سعيه إلى المحبوب في غزل على طريقة السؤال والجواب، وهي طريقة فارسيّة في النظم ، قوامها الحوار الذي يُستخدم لعرض الفكرة المقصودة .

« قال : من بالباب ؟ قلت : عبدك الوضيع .
قال فأيّ شأن لك ؟ قلت : أقرئُك السلام أيها العظيم .
قال فإلى متى تلاحقني ؟ قلت ؟ حتى تدعوني !
قال : فإلى متى تجيش ؟ قلت : حتى القيامة !
لقد أقمتُ دعوى الحبّ وأقسمت على ذلك ،
أني قد أضعتُ في سبيله الملك والشهامة !
قال : إنّ القاضي يريد شاهداً على الدعوى .
قلت : إنّ شاهدى دمعي ودليلي شحوبُ وجهي !
قال : إنّ الشاهد مُجرّح ، فعيناك مذنبتان .
قلت : بجلال عدلك إنهما من العدول ولا غرامة عليهما !
قال : فعلى أيّ شيء عزمت ؟ قلت على الوفاء والمحبة .
قال : فماذا تريد مني ؟ قلت : لطفك الشامل .
قال : فمن كان رفيقك ؟ قلت خيالك أيها الملك !
قال : فماذا دعاك إلى هنا ؟ قلت : أريجُ كأسك !
قال : فأيّ مكان أفضل ؟ قلت : قصر قيصر .

قال : فماذا رأيت هناك ؟ قلت : مائة كرامة !
قال : فلماذا هو خال ؟ قلت خوف قاطع الطريق .
قال : فمن قاطع الطريق ؟ قلت : إنّه الملامة .
قال : فأين الأمان ؟ قلت : إنّه في الزهد والتقوى .
قال : فما الزهد ؟ قلت : إنّه طريق السلامة » .

وفي إحدى غزليّاته يتحدث عن الإتحاد مع المحبوب ، ويصوّر لنا تلك الأفكار التي قالها غيره من الصوفيّة ، ولكن بصورة شاعريّة رائعة تحرك القلب ، وتجعلنا نرى ذلك المعنى من أبعاد أخرى ، وكأننا نسمعه من الشاعر لأول مرة . قال :

« ما أسعد تلك اللحظة حين نجلس في الإيوان أنا وأنت !
نبدو نقشين وصورتين ولكنّنا روح واحدة أنا وأنت !
إنّ لون البستان وشدو الطيور يهبنا ماء الحياة ،
في تلك اللحظة التي نذهب فيها إلى البستان أنا وأنت !
وتُقبل نجوم الفلك رانيةً إلينا بأبصارها
فنجلو القمر نفسه لتلك الأفلاك أنا وأنت !
أنا وأنت ، بدون أنا وأنت ، نبلغ بالذوق غاية الإتحاد .
فنسعد ونستريح من خرافات الفرقة إلي أنا وأنت !
وسيأكل الحسد قلوب طيور الفلك ، ذات الألوان الباهرة .
حينما تشاهدنا نضحك جذلين على تلك الصورة أنا وأنت ! »

وقد حفل المثنوي أيضاً بقطع عالجت موضوع الإنسان ، وأصله الإلهي ، وكيف أن نفسه في حنين دائم إلى ذلك الأصل الذي جاءت منه ، وأنها تعاني في ذلك العالم الماديّ الذي احتبست فيه . والمثنوي

يبدأ بالحديث عن الناى ، ويصف نغماته بأنها حنين إلى منبته الذي قُطع منه ، قبل أن تتناوله يـد البشر فتشكّل منه تلك الآلة الموسيقية .
وما الناي هنا إلا رمز للنفس البشرية ، وما منبت الغـــاب إلا رمز لأصل تلك النفس ، وعالمها الأول ، وما حنين الناي إلا رمز لحنين تلك النفس البشرية إلى أصلها .

يقول الشاعر :

« استمع للناي كيف يقصّ حكايته ، فهو يشكو آلام الفراق (قائلاً):
إنني منذ قُطعت من منبت الغاب ، والناس جميعاً يبكون لبكائي !
إنني أنشد صدراً مزّقه الفراق ، حتى أشرح له ألم الإشتياق .
فكلّ إنسان أقام بعيداً عن أصله ، يظلّ يبحث عن زمان وصـــله .
لقد أصبحتُ أنوح في كل مجتمع وناد ، وصرت قريناً للبائسين والسعداء .
وقد ظنّ كلّ إنسان أنه قد أصبح لي رفيقاً ، ولكنّ أحداً لم ينقّب عما كمن في باطني من الأسرار !
وليس سرّي ببعيد عن نواحي ، ولكن أنّى لعين ذلك النور ، أو لأذن ذلك السمع الذي به تُدرك الأسرار[١] » .

ويصوِّر فكرة الوحي أو الكشف والإلهـام ، وهي السبيل الوحيد للمعرفة اليقينية عند الصوفية ، فيقول :
« فخذ نوره من آدم إن شئت أو منه إن أردت ، وخذ الخمر من

(١) المثنوي ، جـ ١ ، ١ — ٧

الإبريق إن شئت ، أو من الكأس إن أردت !
فإن هذه الكأس وثيقة القربى بالإبريق .
فيا أيتها الكأس المباركة ، ليس هناك من هو سعيد مثلك !
ولقد قال المصطفى : طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى لمن رأى من رآني .
فحين يقتبس السراجُ نور الشمعة ، فكل من رآه رأى الشمعة يقينـــاً !
فلو انتقل النور على هذا النحو خلال مائة سراج ، فرؤية آخر سراج ملاقاةٌ للأصل[1] » .

كما يصوّر فناء الروح الإنساني في الخالق بأسلوب تعليميّ فيقول :

فالسيل حين وصل إلى البحر صار بحراً ، والحبة حين وصلت إلى الحقل صارت حصاداً .
والخبز – حين تعلّق بالكائن الحيّ – ، أصبح وهو الميّت حيّاً عالماً !
والشمع والحطب – عندما صارا فداءً للنـــار – أصبحت ذاتهما المظلمة أنواراً !
فما أسعد ذلك الرجل الذي تخلّص من ذاته ، وأصبح متحـداً مع الوجودِ الحيّ[2] » .

ومع أن جلال الدين كغيره من الصوفية – لا يحفل بالمباحث الكلامية ، ولا يراها موصلة إلى معرفة يقينيّة[3] ، فقد تناول في شعره جوانب من

---

(١) نفس المصدر ، ١٩٤٤ – ١٩٤٨ .
(٢) المثنوي ، جـ ١ ، ١٥٣١ – ٣٣ ، ٣٥ . (٣) نفس المصدر ، ١٥٠٠ – ١٥٠٦ .

المسائل الكلامية التي طال عليها الخلاف كمشكلة الجبر والإختيار ، وغيرها من المشكلات . لقد نظم الشعر عن الجبر والاختيار في عدة مواضع من المثنوي ، وأكد حرية إرادة الانسان ، ومسؤوليته عن أعماله .

ففي الجزء الخامس من المثنوي أكد في حوار حول القضاء والقدر بين مسلم ومجوسي أنّ الإنسان حرّ الإرادة ، وأنه لولا حرية إرادته لما كانت كل هذه الأوامر والنواهي التي حفل بها القرآن . فليس من المعقول أن هذه الأوامر والنواهي وجهت إلى أحجار ، ولولا حرية الإرادة لما كان لك أن تلوم لصاً سطا على منزلك[1] . وعلى هذا النحو يمضي في تأييد حرية الإرادة . ولكن ليس معنى هذا أن الشاعر كان معتزليّ المذهب ، فقد انتقد المعتزلة بأن مذهبهم مذهب حسيّ بحت[2]، وذكر في أكثر من موضع أنّه سنّي المذهب . قال : « إن السنة هي أسلم الطرق ، والجماعة هم خير رفقاء الطريق »[3] .

وتأكيد الشاعر لحرية إرادة الإنسان يتمشى مع تأكيده لأهمية الانسان في هذا الكون . ولا أريد أن أكرّر هنا ما سبق أن ذكرته عن الفلسفة الإنسانيّة لهذا الشاعر[4] .

---

(١) المثنوي ، جـ ٥ ، ٢٩١٢ وما يليه .

(٢) المثنوي ، جـ٢ ، ٦١ ، ٦٢ (٣) المثنوي ، جـ ٤ ، ٤٩٥

(٤) انظر : محمد كفافي : إتجاهات إنسانية في شعر الصوفية – (محاضرات الموسم الثقافي الثاني لجامعة بيروت العربية .)

- ٥ -

أمّا الشعر التعليميّ لهذا الشاعر فكان مجالاً رحباً تجلّت فيه عبقريته. لقد استعان فيه بثقافته الواسعة ، وفهمه العميق لمعارف أهل زمانه. إن هذا الشعر يكشف عن خبرته بالنفس البشرية ، ومقدرته على سبر أغوارها ، وتصوير نوازعها الخيّرة والشرّيرة على السواء. لننظر مثلاً إلى حديثه عن الملق ، وأثره في نفس من يتقبله من الناس ، قال :

« إنّ الجسم على شكل القفص ، وقد أصبح بخداع الداخلين والخارجين شوكة تخز الروح[1] .

فهذا يقول له : « إنّني سأكون صفيّك » ، وذاك يقول له : « لا . بل أنا شريكك . »

وهذا يقول له : « ليس لك نظير في الوجود ، سواء في الجمال أو الفضل أو الإحسان والجود . »

وهذا يقول له : « إنك صاحب العالمين ، وكلّ أرواحنا عيال على روحك . »

فحين يرى الخلق سُكارى ذاته ، يفقد من الكبر سلطانه على نفسه ،

---

(١) المثنوي ، جـ ١ ، ١٨٤٩ وما يليه .

وهو لا يدري أنّ الشيطان قد أسقط آلافاً مثله في ماء النهر![1]

إنّ ملق الدنيا ونفاقها لقمة حلوة المذاق ، ولكنها مليئة بالنار ، فأقلل من تناولها !

ولا تقل : « متى كنت أبتلع هـذا المديح ؟ إنه يتحدث عن طمع ، وأنا واقف على أمره ! ».

فلو أنّ مادحك هجاك أمام الملأ فإن قلبك يحترق أياماً بلهيب هذا الهجاء .

ومع أنك تدري أنه قال هذا لحرمانه ، وأنّ طمعه في عطائك جعله مُغرضاً ،

فإنّ أثر هذا يبقى في نفسك ، وإنك لتلقى التجربة ذاتها في المديح !

فإن أثره أيضاً يبقى معك أيّاماً ، ويصبح مصدراً لتكبّر الروح وانخداعها .

ولكنّ المدح لا يظهر لك لأنه حلو ، أما القدح فيظهر لك لأنه قبيح مرّ .

فمن كثرة المديح أصبح فرعون طاغياً ، فكن متواضع النفس ليّن الجانب ولا تتجبّر !

وإلا فإنه حين لا يبقى لك لطف ولا جمال ، يقع منك الملال في نفوس أصحابك .

فهذه الجماعة التي كانت تتملّقك ، تقول عنك حين رؤياك : « إنك الشيطان ! »

---

(١) خدع آلافاً مثله حتى أهلكهم .

والجميع يقولون حين يرونك بالباب : « هـــذا ميّت نهض من
قبره ! »

هذا مثال واحد من مئات الأمثلة التي عالج فيهـــا أمراض المجتمع الإنسانيّ على هذا النحو البارع .

وخلاصة القول أنّ جلال الدين لم يكن فيلسوفاً فحسب ، وإنمـــا كان حكيماً عملياً . لقد تقبل الحياة وتفاعل معها ، وعدّهـــا واقعاً لا شك فيه ، وأوجب العمل فيها . يقول :

« إن الدنيا تتجدّد في كل لحظة ونحن لا نُحِسُّ بتجددها ،
وهي باقية على هيئتها الظاهرة .
والعمر وإن بدا مستمراً في الجسد ، فإنه يتجدد في كل لحظة
كما يتجدد ماء النهر » .
وهو مؤمن بالإنسان وبمسؤوليته الذاتية على النحو الذي بيّنّاه .

مؤمن بالعلم ومكانه في هذه الحياة ، متفائــل في نظرته إلى مستقبل البشرية رغم أنّه عاش في عصر من أظلم عصورها .

وحتى العشق الصوفيّ عند جلال الدين كان وسيلة من وسائل البعث الروحي . وفي ذلك يقول :

« فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحلّلة بالفناء . عودوا من العدم
بنداء الحبيب ! [١] » .

ولقد ُقدّر لرسالته الروحيّة أن تستمر خلال القرون . لقد عاشت

(١) نفس المصدر ، ١٩٣٥ .

تعاليمه في نفوس أتباعه من رجال الطريقة المولوية في تركيا العثمانية والشام ومصر . وكان لرئيس المولوية في تركيا العثمانية مكان مرموق ، فهو الذي كان يقلّد سلاطين الدولة العثمانية سيف جدّهم عثمان ، وهو عندهم رمز القوّة والسلطان .

واشتهر المثنوي في شرق العالم الاسلاميّ ، وانتشرت تعاليمه ، وتناوله الدارسون والشراح من كافة هذه الشعوب الاسلاميّة ، وظهرت له في كلّ أقطارهم شروح وترجمات . وعظم شأن جلال الدين بين أبناء تلك الشعوب ، واحتلّ بينهم المنزلة التي هو جدير بها كمعلم روحيّ كبير .

كما قُدّر لأفكاره وآرائه أن تجد سبيلها من جديد إلى الفكر الإسلاميّ الحديث ، على يد الشاعر الهندي الكبير محمد إقبال ، الذي كان له الفضل الأكبر في وضع الأسس الروحية لدولة الباكستان . لقد اعترف إقبال في مواضع عديدة من منظوماته بفضل جلال الدين عليه في بناء فلسفته . ومن أمثلة ذلك ما قاله في مقدمة منظومته الفارسيّة « أسرار خودي » (أي اسرار الذات) . وفي هذه المنظومة تحول العشق الصوفيّ عند إقبال إلى عشق للأمل والمثل الأعلى[1]. وتقوم فلسفة إقبال على إيجابية روحيّة ، تؤمن بهذه الحياة ، وتعدُّها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وتهاجم السلبيّة التي قال بها بعض الصوفيّة المسلمين . فالقيم الروحيّة — في راي إقبال — تعصم الإنسان من الوقوع في قبضة المادية ، وتبعده عن المصير الذي انحدر إليه العالم في العصر الحديث .

ولقد قُوبل أدب جلال الدين عند كل من عرفوه بما هو جدير به من

---

(١) عبد الوهاب عزام . محمد إقبال ، ص ٦٩ — ٧١ ، ٧٧ . القاهرة ، ١٩٥٤ .

التقدير والإعجاب . فأمّا أهل المشرق فقد مجّدوه على صورة لم يسبق لها مثال . وقد يدهش بعضنا إذا علم أن شاعراً إسلاميّا كبيراً كعبد الرحمن الجامي قد وصفه بقوله : « إنه لم يكن نبيّاً ولكنه أوتي الكتاب » . وقد نُشر المثنوي وشُرح مرات عديدة بمختلف لغات الأمم الإسلامية .

أمّا أهل الغرب فقد أُعجبوا به إعجاباً شديداً ، ونشروا عنه الكثير من الأعمال العلمية باللغات الأوروبية المختلفة سواء منها ما هو ترجمة لبعض أعماله أو دراسة لها . وأعظم من ساهم في تلك الدراسات مستشرقو الإنجليز . ومن أعلامهم الكبار الاستاذ نيكولسون الذي قضى في دراسة جلال الدين ثلاثين عاماً من عمره ، منها خمسة وعشرون عاماً قضاها في نشر المثنوى وإعداد ترجمة إنجليزية له ، أتبعها بشروح قيّمة وتعليقات . ولقد عبّر عن رأيه في جلال الدين — بعد ثلاثين عاماً من الاشتغال به — بأن طول الصحبة لأعمال هذا الشاعر ، والألفة بها ، لم تزده إلا تقديراً لها ، وأن ما وصفه به قبل ذلك بثلاثين عاماً — من أنه أعظم شعراء الصوفيّة على الإطلاق ليس بالوصف الذي يوفيه حقه . يقول : « وإلا فأين لنا أن نرى صورة شاملة للوجود بأكمله منطلقة أمامنا خلال الزمن ، مستمرّة إلى الأبد ؟ إن هذا الشعر إلى جانب طابعه الصوفيّ قد انطوى على ثروة من السخريّة والتهكم ، والمواقف التي تثير الرثاء ، وصور رسمتها يدُ صناع ما مست شيئاً الا كشفت حقيقة جوهره[1] » .

أمّا آربري — أستاذ الدراسات العربيّة والشرقيّة بجامعة كيمبردج —

(١) Arberry : Classical Persian Literature, P.241 .

فقد خلف أستاذة نيكولسون في الاهتمام بأعمال جلال الدين ، ونشر عنه في السنوات الأخيرة بضعة كتب منها الترجمة ومنها الدراسة . وقد أدرجت بعض ترجمات آربري لجلال الدين ضمن قوائم اليونسكو التي تمثل روائع الآداب الإنسانية(١) .

وخلاصة القول أن جلال الدين في الوقت الحاضر - بإجماع الدارسين من أهل الشرق والغرب (٢) - يُعـــدّ بلا شك أعظم شعراء الصوفيّة في كلّ زمان ومكان ، وواحداً من شعراء الإنسانيّة الافذاذ .



(١) انظر كتابه . Tales from the Masnavi. London, 1961

(٢) لخص محمد خلف الله في مقال له بعنوان (جلال الدين الرومي في نظر الباحثين) بعض آراء مفكري الغرب في شعر جلال الدين وفلسفته . انظر . محمد خلف الله . دراسات في الأدب الإسلامي ، ص ١٢٨ - ١٣٥ . القاهرة ، ١٩٤٧ .

المثنوي
شروحه وترجماته

- ١ -

إنّ المثنوي قد ولد مكتمل الحياة والأثر . لقد كان الشاعر يُمليه على تلميذه حسن حسام الدين . وأغلب الظنّ أنّه كان يُلقي ما يتمّ نظمه منه على التلاميذ والمريدين المقرّبين . فلهجة الخطاب واضحة فيه ، والحوار غالب عليه . والشعر قد نُظِم لهؤلاء المريدين خاصّة ، ليكون على حدّ تعبيرهم « مرجعاً لأصحاب الطريقة » . ولما كانت الطريقة تعني السلوك والسيرة في الحياة ، فقد جاء المثنوي مهتمّا غاية الاهتمام بالحياة والأحياء . ومن هنا رنّتْ جوانبُه بتلك الأنغام الأصيلة التي تستهوي القلوب .

لغةُ التعبير في المثنوي تغلب عليها البساطة ، والبعد عن التكلّف . والفكرة قد تعمق إلى أبعد حدود العمق ، ومع ذلك تستهوي النفوس بما يُضرب لها من أمثال قريبة من واقع الحياة ، وصروفها وخطوبها ، أو مباهجها وأفراحها .

والمثالية هي اللهجة الغالبة على هذه الملحمة الإنسانية ، وهي المقياس ، والحكم الفيصل في كل المواقف . فالصوفيّة هم الملوك . وجوهرهم النقيّ هو مقياس ذلك . وتجردهم من علائق المادة وطغيان الأهواء هو الذي أهّلهم لذلك . ولا بد في هذا من الصدق والإخلاص ، ولا اعتبار للمظهر . وكم بالمثنوي من صرخة في وجه الظالمين ، قد تجيء في صورة الإنذار الواضح ، وقد تجيء في صورة من السخرية اللاذعة ، التي لا تقلّ في تأثيرها عن أسلوب القوّة والانذار . وكم فيه من فضيلة أبدع تصويرها . وكم فيه من كشف عن الرذائل الكامنة في النفس ، بأسلوب الخبير بالنفس الانسانيّة المطلع على كوامن أسرارها ، ومستتر خلجاتها .

أما الشخصيّات التي يستعين بها في تصوير كل هذه الأفكار ، فمنها الملوك والسلاطين ، ومنها الخلفاء ، ومنها الدراويش والشحاذون ، ومنها الأنبياء والأولياء ، ومنها الكفرة والعصاة والمجرمون ، ومنها التجار الأمناء ، ومنها المحتالون ، والمدلّسون . يكاد القارىء يقابل فيه كل أنموذج من النماذج البشريّة ، ويشهد الانسانَ في مثاليّته أو في تهاويه وانهياره ، وقد صوّرته يد فنّان أصيل . وكل مشهد وقعت عليه عينه ، جعل منه مصدراً لوحي الشعر ، وموضوعاً لإبداعه . نقابل في المثنوي النبيّ بين قومه ، والمليك بين رعاياه ، والقاضي ، واللص ، والمحتال ، والغنيّ ، والمتسوّل ؛ نرى ساكن القصر في بذخه ، والبؤساء في شقائهم . نرى شوارع المدن وما كانت تعجّ به من ضروب السعي في طلب الرزق سواء منه ما كان شريفاً أو غير شريف .

نرى الحكيم والأبله ، والمتعفّف والنهم . والخلاصة أننا نشهد في المثنوي مجتمعاً حيّاً ، أفراده موزعون بين الفضيلة والرذيلة ، والكمال والنقص ، والمثالية المترفعة ، والواقع المظلم المرير .

إننا نلقى في المثنوي شاعراً سبحت روحه في آفاق الجمال ، سواء منه ما يُرى ومالا يُرى ، ومع ذلك نراه واعياً لكل ما يدور حوله في هذه الحياة خبيراً بدروبها ومسالكها ، لا يكاد يخفى عليه شي من معارف أهل زمانه .

ولقد ظفر المثنوي منذ بداية ظهوره بما هو جدير به من العناية . لقد كان يصادف آذاناً صاغية حين يهتف به صاحبه ، أو من يرويه عنه . وكلام ابن بطوطة – الذي سبق أن نقلناه – ينبىء بشيء من ذلك ، ويبيّن كيف أن المريدين كانوا يتبعون الشاعر ويكتبون ما يهتف به من الشعر ، وكيف أنهم صنعوا من ذلك الشعر كتاباً سمّوه « المثنوي » وأن المثنويّ كان موضع الاعتبار بين سكان « تلك البلاد » ، وكيف أنهم كانوا يقرأونه في أيام الجمعات . وكذلك تضمنت الأوقاف التي أوقفت على ضريح الشاعر ما ينصّ على الانفاق منها على قراء المثنوي . فالشاعر قد امتدّ أثره إلى مجتمعه إبّان حياته ، وتعاظم هذا الأثر بعد وفاته . وهذا يفسّر لنا تلك البساطة التي اتسمت بها لغة المثنوى – في أكثر الأحيان – تلك البساطة التي تخاطب القلب وتنفذ إلى أعماق الضمير .

والشاعر يشير في مقدّمته المنثورة إلى إدراكه لأثر المثنوي على مستمعيه سواء منهم من تلقّاه بالمحبّة والقبول ، أو من وقف منه موقف الرفض والعناد حين قال : « الأبرار فيه يأكلون ويشربون ، والأحرار منه يفرحون ويطربون ، وهو كنيل مصر ، شرابٌ للصابرين ، وحسرةٌ على آل فرعون والكافرين[1] » . كما نشير الى خاصة أخرى لا تخفى على من قرأ المثنوي وتذوّق معانيه ، هي ذلك التفاؤل الذي يغمر أجواءه ، ويشيع

---

(١) انظر مقدمة المؤلف .

في جنباته . ولقد صدق حين قال في وصفه . « وإنه لشفاء الصدور وجلاء الأحزان[1] » .

- ٢ -

كنا قد أشرنا من قبل – في الكلمة الموجزة التي ذكرنا بها المثنوي بين أعمال جلال الدين – إلى أنّه يتكون من ستة أجزاء [2] ، يبلغ عدد أبياتها في طبعة نيكولسون – التي اتخذناها أساساً لهذه الترجمة – ٢٥٦٣٢ بيتاً . وهناك طبعات أخرى صدرت عن ايران والهند تزيد عن ذلك بمئات الأبيات . وقد ذكر دولتشاه – « صاحب تذكرت الشعراء » – في ترجمته لجلال الدين أنّ أبيات المثنوي تبلغ ٤٨٠٠٠ ألف بيت . ولسنا نعرف إن كان هذا الكاتب قد اطلع على نسخة تضمّ كل هذا العدد ، أو أنه مجرد عدّ تقريبيّ . وليس من شكّ أن النصّ قد أضيفت إليه إضافات على يد نُسّاخه العديدين .

أما سبب نظم المثنوي فيرجع – فيما يُروى – إلى أنّ حسام الدين چلبي طلب من أستاذه جلال الدين أن ينظم عملاً على غرار حديقة الحقيقة لسنائي أو منطق الطير للعطار ، يكون مرجعاً لأتباع الطريقة . والمعروف أن الشاعر بدأ نظم المثنوي حوالي عام ٦٥٧ هـ . وتمّ نظم الجزء الأول بين عامي ٦٥٧ – ٦٦٠ .

وأعقب ذلك فترةُ عامين من التوّقف . ثم استؤنف العمل من جديد

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر ص ١٣ من المقدمة .

عام ٦٦٢ هـ[1] . ولم ينقطع الشاعر عن النظم حتى وصل إلى نهاية الجزء السادس في صورته الحاليّة .

والجزء السادس والأخير من المثنوي ينتهي بقصّة لم تصل إلى نهايتها . ومعنى ذلك أنّ الشاعر كان يعتزم أن يمضي في النظم إلى أبعد مما فعل . لكنّه كان قد نصّ في بداية الجزء السادس على أنّه آخر أجزاء المثنوي ، حين قال :

« يا حياة القلب ! يا حسام الدين ! إنّ الميل لشديد لنظم القسم السادس .

. . . .

فها أنذا أُحضر هديّة ترضيك ، بإتمام القسم السادس من المثنوي .

ها أنذا أحمل إليك أيّها المعنويّ قسماً سادساً ، به يتمّ المثنوي » .

هذا النقص الذي يبدو في نهاية الجزء السادس — والذي تنمُّ عنه تلك القصّة التي لم تكتمل — لم يكن بسبب الوفاة . فقد عاش جلال الدين بضع سنوات بعد الفراغ من منظومته الخالدة . ولعلّه بتركه خاتمة الكتاب مفتوحة ، كان ينوي استئناف النظم ، حين تسمح بذلك الظروف ، فلم يُتح له ذلك لسبب ، أو لآخر . أو لعلّه كان يرمز بذلك إلى أن حديث الروح لا ينتهي ، وهو ما دأب على ذكره في أشعاره وأقواله .

وقد نُسب إلى جلال الدين جزء سابع من المثنوي . ويُنسب إظهار هذا الجزء إلى أحد شُرّاح المثنوي المشهورين وهو اسماعيل الأنقروي المولوي (ت ١٠٤٢) . فقد اشترى في عام ١٠٣٥ هـ نسخة من المثنوي ، أُرِّخ نسخُها بعام ٨١٤ هـ ، تتكوّن من سبعة أجزاء ، وأنّه — بمطالعة الجزء

---

(١) ذكر الشاعر هذا التاريخ في البيت السابع من الجزء الثاني من المثنوي .

السابع – اقتنع بأنّه من « أنفاس المولوي ، صاحب المثنوي » ولم يَشك أنّه من كلامه . وقد شرح هذا المجلد السابع ، وذكر صاحبُ كشف الظنون أنّه بدأ شرحه بقوله : « الحمد لله الذي جعل المثنوي المعنوي مثل السموات السبع .. الخ » . كما ذكر أيضاً أنّ إظهار هذا الجزء السابع قد جُوبه بإنكار أهل الطريقة واعتراضهم ، وأنّ اسماعيل الأنقروي قد اشتبك معهم في جدال عنيف حول هذا الأمر ، ناسباً إنكارهم ذلك إلى حسدهم وجهلهم[1] .

هذا الاعتراض الذي أثاره أتباع الطريقة هو – في الواقع – أقربُ إلى الصواب بالنسبة لهذا الموضوع . وهو ما تؤيّده الدراسة الفاحصة الناقدة لشعر هذا الجزء . وقد حلّل فروزانفر أبياتاً منه ، وبَيَّن ذيوع الأخطاء فيها بصورة بلغت – على حدّ تعبيره – درجةً « يخجل منها أطفال المدارس[2] » .

فلو صحّ تأريخ النسخة – التي أشار إليها حاجي خليفة ، وذكر أنّها كانت تشتمل على سبعة أجزاء – بعام ٨١٤ ، فإنّ هذا يبيّن لنا كيف كان نُسّاخ المثنوي يضيفون إلى النصّ الأصليّ خلال القرون .

---

(١) انظر : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ، ١٥٨٨ . استنبول عام ١٩٤٣ .

(٢) أحوال وزندگاني مولانا ، ص ١٥٩ .

- ٣ -

كان من الطبيعي أن تتعدّد نسخ المثنوي منذ بداية عهده ، نظراً لحاجة أتباع جلال الدين ومريديه إليه ، وحرص القادرين منهم على اقتنائه . ولولا طوله وارتفاع نفقات نسخه ، لكان من الممكن أن تصل إلينا نسخ أكثر مما حفظته لنا الأيام .

وقد اجتذب المثنوي خلال العصور كثيراً من الباحثين، الذين درسوه ، وقام بعضهم بشرحه أو ترجمته .

فهناك شروح فارسيّة عديدة تضم المكتبات الشهيرة نسخاً مخطوطة منها . ومن أقدم هذه الشروح الفارسيّة «كنوز الحقائق ورموز الدقائق» لكمال الدين حسين بن حسن الخوارزمي الكبروي (ت ٨٤٠ أو ٨٤٥ ﻫ) . وللمؤلف أيضاً عن المثنوي كتاب « جواهر الأسرار وزواهر الأنوار » ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة التي كانت تُدعى بمكتبة وزارة الهند[١] بلندن (تحت رقم ١٠٩٨ مخطوطات فارسيّة) .

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أشخاصاً آخرين ممن اهتموا بشرح أبيات من المثنوي أو منتخبات منه . فمن هؤلاء علاء الدين علي بن محمد الشهير بمصنفك (ت ٨٧٥ﻫ) الذي شرح أبياتاً مختارة منه ، وحسين بن علي

(١) أصبحت هذه الوزارة تعرف بعد استقلال الهند بوزارة العلاقات بين دول الكومنولث .

الكاشف الواعظ البيهقي (ت ٩١٠ هـ) ، صاحب اللباب المعنوي في انتخاب المثنوي . كما ذكر كثيراً غير هؤلاء ، وفاته ذكرُ بعض الشارحين .

ولكنّ الأتراك كانوا ذوي باع أطول في شرح المثنوي وترجمته ، وذلك لأسباب أهمّها أنّ جلال الدين عاش في بلادهم ، ونشأت طريقته بينهم ، فكانوا أعمق تأثراً به . كما أنّهم – بحكم اللغة – غرباء عن الفارسيّة ، فكانوا أحوج إلى الشروح من الفرس . وهناك قائمة طويلة بالشُرّاح والمترجمين الأتراك ، وردت في « كشف الظنون » . ومن أهم هؤلاء الشراح شمعي (ت حوالي ١٠٠٠ هـ) ، واسماعيل الأنقروي (ت ١٠٤٢ هـ) [١]

وبعد زمان حاجي خليفة ظهرت للمثنوي ترجمات وشروح تركيّة أخرى ، ومن أهمّها ترجمة منظومة باللغة التركيّة لمحمد نحيفي بن سليمان ابن عبد الرحمن (ت ١١٥١ هـ) . كما ظهرت « ترجمة وشرح المثنوي الشريف » لعابدين باشا حاكم أنقرة (المولود عام ١٢٥٩ هـ) وبها شرح مفصل للمجلّد الأوّل .

وذكر حاجي خليفة أيضاً ألواناً من الجهود التي بُذلت لدراسة جوانب من المثنوي ، منها « أزهار المثنوي وأنوار المعنوي » وهو شرحٌ لمشكلات المثنوي بالتركيّة « ذكر فيه واضعه أنّه شرح الديباجة أولاً ، ثم شرح ما في كلّ مجلّد من الألفاظ العربيّة ، على الحروف ، ثم شرح الألفاظ الفارسيّة على الحروف أيضاً[٢] » .

كما اهتم اسماعيل الأنقروي صاحب شرح المثنوي – الذي تقدّم ذكره –

---

(١) أنظر قائمة الشروح الفارسية ، والترجمات والشروح التركية التي ذكرها حاجي خليفة بكشف الظنون ، جـ ٢ ، عمود ١٥٨٧ – استنبول ، ١٩٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، عمود ١٥٨٨ .

يجمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوّية والأبيات العربيّة ، وبعض الألفاظ التركيّة الغامضة ، في كتاب أسماه « جامع الآيات »[1].

وصدرت عن الهند شروحٌ فارسيّة متعدّدة للمثنوي .

ومن هذه الشروح ما هو مطبوع ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً .

وبعض هذه الشروح قد اهتمّ بكشف غوامض المثنوي ، مثل مكاشفات رضوي ، الذي ألّفه مولوي محمد رضا عام ١٠٨٤ هـ ، وطُبع في لكنو عام ١٨٧٧ .

وهناك أيضاً شرحُ المثنوي لعبد العلي محمد بن نظام الدين اللكنوي ، من رجال القرن الماضي ، وقد لُقّب ببحر العلوم . وطبع شرحه للمثنوي في لكنو عام ١٨٧٦ ، وفي بمباي عام ١٨٧٧ .

وتُرجم المثنوي نظماً إلى الهندوستانية ، ونشر في لكنو عام ١٨٨٩ بعنوان « پيراهن يوسفي » أما المترجم فهو محمد يوسف علي شاه .

وأسهم العرب أيضاً في هذا اللون من الشروح التقليديّة ، فأصدر يوسف بن أحمد المولوي (من رجال القرن التاسع عشر) شرحاً عربيّاً على غرار الشروح التركيّة ، أسماه « المنهج القوي لطلاب المثنوي » . ولسنا نعرف شيئاً عن حياة هذا الشارح . وقد وصف يوسف بن أحمد نفسه بأنّه كان خادماً للدراويش في زاوية بيشكْطاش ، وهي قرية على البوسفور ، من لواحق استنبول ، وأنّ بعض فقراء المولويّة من أهل الشام « طلب منه شرحاً للمثنوي ، وأنْ يكون باللسان العربي كي ينتفع به السُلاك من أبناء العرب ، لأنّه يحصل لهم بقراءة شروحه التركيّة النصب[2] » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المنهج القوي لطلاب المثنوي ، جـ ١ ، ص ١ ، بولاق ، ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢ .

ولقد وجدت الدراسات العلمية والنقدية الحديثة سبيلها إلى المثنوي . وكان المستشرقون هم السابقين إلى ذلك . فظهرت سلسلة من الأعمال ، أهمها ما يلي :

١ — ترجمة ألمانية لثُلُث المجلد الأول من المثنوي مع شروح لمعانيه الصوفيّة ، أعدّها جورج روزن[١] ، ونُشرت بليبزج عام ١٨٤٩ . والترجمة بنثر مسجوع لا يلتزم حرفيّة المعنى ، ولكنّه يُحسن أداءه بصورة إجمالية . وقد أعاد نشر هذه الترجمة ف . روزن ، وهو ابن المترجم جورج روزن ، وذلك في مدينة ليبزج ، عام ١٩١٣ . كما أضاف إليها مقدمة بقلمه .

٢ — ترجمة المجلد الأول من المثنوي شعراً إلى الانجليزية . وقد أعدّ هذه الترجمة سيرجيمس ردهاوس[٢] . وقد نشر مع هذه الترجمة ، ترجمة لمختارات من كتاب « مناقب العارفين » للأفلاكي ، وهو من أقدم الكتب التي تناولت حياة جلال الدين . وهذه الترجمة ليست على درجة كبيرة من الدقة ، كما أنّ النظم يتسم بشيء من التكلّف . ومع ذلك ، فهي جهد قيِّم في تاريخ هذه الدراسة ، ويزيد من قيمته ترجمة النصوص المنتخبة من كتاب مناقب العارفين . وقد نشرت هذه الترجمة في لندن عام ١٨٨١ .

---

(1) George Rosen .
(2) Sir James W. Redhouse .

٣ - ترجمة لمختارات من المثنوي بأجزائه الستة ، إلى اللغة الإنجليزية ، أعدهـا هوينفيلد[1] . وقد كان هوينفيلد أوّل من قدّم للقارىء الإنجليزي - بهذا المجلد - تحليلا لمحتويات المثنوي . كما بلغ عدد الأبيات التي انتخبها وترجمها حوالي ٣٥٠٠ بيت . وهي ترجمة قد صيغت في نثر يتسم بالفخامة . ونشر هذا العمل في لندن عام ١٨٨٧ ثم أعيد نشره عام ١٨٩٨ .

٤ - ترجمة المجلد الثاني من المثنوي نثراً إلى الإنجليزية ، مع شرح له .

وقد قام بهذا العمل المستشرق الإنجليزي ويلسون[2] وتتسم ترجمة ويلسون بالأمانة والدقة والحرص على مطابقة النص . وقد نُشرت هذه الترجمة بلندن ، عام ١٩١٠ .

٥ - الترجمة الكاملة للمثنويّ بأجزائه الستة ، إلى اللغة الإنجليزية ، التي أعدّها المستشرق الإنجليزي رينولد نيكولسون[3] . وقد بُنيت هذه الترجمة على نصّ محقّق أعدّه المترجم ونشره . كما أُلحق بالترجمة مجلّدان يشتملان على ما رأى الأستاذ أن يلحقه بها من شروح وتعليقات . وقد بلغت المجلّدات المشتملة على النصّ وترجمته وشروحه ثمانية مجلّدات ، نُشرت في سلسلة جب التذكاريّة ، بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٤٠ . والمعروف أنّ هذا العالم الجليل قد قضى في هذا العمل خمسة وعشرين عاماً كاملا ، فجاء مثالاً رائعاً للجهد الدائب ، والصبر على مصاعب العمل ، والإخلاص للعلم والحقيقة . ومع كل هذا فإنّ المثنوي لا يزال بحاجة إلى مزيد من البحث والتدقيق .

وكان الأستاذ نيكولسون - في مطلع حياته العلميّة - قد نشر ترجمة لمختارات من ديوان جلال الدين ، المعروف بديوان شمس تبريز ،

---

(1) E. H. Whinfield .
(2) C. E. Wilson .
(3) Reynold A. Nicholson .

وألحق بها شروحاً [١] ، فدلّ بذلك على اهتمام مُبكّر بأعمال جـلال الدين ، كما نَشر بعض قصص مختارة من المثنوي في كتابه (قصص ذات مغزى صوفيّ [٢]) . ونُشر له بعد وفاته كتابٌ يضمّ مختارات من مختلف أعمال جلال الدين الشعريّة [٣] . كذلك تناول نيكولسون بدراساته جلال الدين فيما نشر من مؤلفات عن التصوّف .

٥ – ترجمةٌ إنجليزية لقصص المثنوي ، أعدّها آرثر جون آربري ، وقد نشرت بلندن في مجلدين بين عامي ١٩٦١ ، ١٩٦٣ [٤] . وهي ترجمة علميّة دقيقة ، وفي ذات الوقت مُيَسّرة للقارىء العاديّ . ولهذا فقد أُدرجت ضمن مجموعة الكتب التي تنشرهـا مؤسسة اليونسكو للتعريف بآداب الأمم المختلفة (Unesco Collection of Representative Works) .

ولقد تابع آربري أعمال أستاذه نيكولسون بكفاءة وأصالة وعمق . وتجلى اهتمامه بجلال الدين في أعمال علميّة أخرى . فقد نشر في عـام ١٩٤٩ ترجمة انجليزية لمختارات من رباعيات جـلال الدين . وفي عـام ١٩٦١ أسهم بعمل آخر في دراسة جلال الدين وذلك بإصداره ترجمـة علميّة أمينة لكتاب « فيه ما فيه [٥] » ، وهو الذي يتضمّن محاضرات جلال الدين ، التي كان يتحدّث بها إلى تلاميذه ومريديه .

كما خصّ جلال الدين بفصل ممتع في كتابه عن الأدب الفارسي [٦] .

---

(1) R. Nicholson : Selected Poems from the Divani Shamsi Tabriz. Cambridge, 1898.
(2) Tales of Mystic Meaning, London , 1931 .
(3) Rumi, Poet and Mystic, London , 1950 .
(4) A . J . Arberry : Tales from the Mathnavi ; More Tales from the Mathnavi.
(5) Discourses of Rumi , London , 1961 .
(6) Classical Persian Literature , London , 1958 .

- ٥ -

إلى جانب هذه الترجمات والدراسات، ظهرت باللغات الأوروبية أبحاث عديدة عن جلال الدين . فقد تناولته بالدرس كتُبُ الأدب الفارسيّ العامّة ، ومن أهمّها كتاب التاريخ الأدبيّ لفارس ، للأستاذ إدوارد براون[١] . كما نشرت عنه مقالات في الموسوعات الكبيرة بمختلف اللغـــات . ونخص بالذكر منها ، دائرة المعـــارف الإسلامية[٢] ، ودائرة معارف الديانات والأخلاق[٣] ودائرة المعارف البريطانية .[٤]

كما خُصّ جلال الدين بمؤلفات بالألمانيّة والإنجليزيّة لغير من ذكرناهم من الباحثين والعلماء ، نذكر منها ما يلي :

١ – جلال الدين الرومي ، لهادلاند ديفز[٥] . وقد نُشر بلندن عام ١٩٠٧ ضمن مجموعة « الصوفيّة من الفرس » وكانت جزءاً من سلسلة تصدر بعنوانٍ جامع هو « حكمة الشرق » . وخير ما في هذا الكتاب هو عرضه لبعض نماذج مترجمة من شعر جلال الدين يمكن أن ينتفع بها القارىء العاديّ .

(1) E. G. Browne : Literary History of Persia .
(2) Encyclopedia of Islam .
(3) Encyclopedia of Religions and Ethics .
(4) Encyclopedia Britanica .
(5) Hadland Davis : The Persian Mystics . Jalalud-Din Rumi. London, 1907 .

٢ – الشاعر الصوفيّ جلال الدين الرومي للمستشرق الألماني جوستاف ريشتر[1] ، وهو من الأعمال المهمة في دراسة جلال الدين .

٣ – بدأ جلال الدين يجد سبيله إلى الموسيقى الأوروبية . فقد ألف الموسيقار البولنـــدي زيمانوفسكي Szymanowski (١٨٨٢ – ١٩٣٧) سيمفونيته الثالثة عام ١٩١٦ وأسماها « أغنية الليل[2] » . والحركة الثانية والثالثة من هذه السيمفونية بها غناء يقوم به مغنّ من طبقة تينور Tenor ومعه جوقة . أما النصوص التي تُغنّى فهي مختارات مترجمـة من شعر جلال الدين .

ولقد بدأ أهل المشرق في الأزمنة الحديثة ينتبهون إلى تراثهم الحضاري الزاهر . وقد خُصّ جلال الدين بنصيب من عناية الباحثين في مختلف البلاد الإسلاميّة فنُشِر المثنوي مرات عديدة في الهند وإيران ومصر . كما ظهرت طبعات لأعمال جلال الدين الأخرى ، كالديوان ، وفيه ما فيه .

وصدرتْ المؤلفاتُ عن جلال الدين في مختلف هذه الدول . وكان للأساتذة الإيرانيّين في السنوات الأخيرة جهد مذكور . ويأتي في مقدّمة هؤلاء الأستاذ بديع الزمان فروزانفر ، الذي خصّ جلال الدين بأعمال عديدة أهمّها :

١ – رساله در تحقيق أحوال وزندگاني مولانا جلال الدين (رسالة في تحقيق أحوال وحياة مولانا جلال الدين) . وقد نشرت لأول مرة بطهران عام ١٣١٥ (١٩٣٧) ، ثم أعيد نشرها عام ١٣٣٣ (١٩٥٥) . وهي عمل قيّم أسهم في إيضاح حياة الشاعر .

٢ – مآخذ قصص وتمثيلات مثنوي (مآخذ قصص المثنوي وتمثيلاته)

---

(1) Richter, G. : Persiens Mystiker Dschelal-eddin Rumi . Breslau , 1933 .
(2) Song of the Night , (op. 16), 1916 .

وهو – كما يدلّ عليه عنوانــه – يتعلق بموضوع مهم بالنسبة لدارسي المثنوي ، هو بيـــان مصادر القصص التي استخدمهـا الشاعر . وقد نشر بطهران عام ١٩٥٤ .

٣ – خلاصهء مثنوي ، وهو مختارات من المجلدين الأول والثاني من المثنوي ، نُشرت بهذا العنوان ، ومعها بعض الشروح . ويبلغ عدد الأبيات المختارة في هذه الخلاصة ٢١٠٨ أبيات . وقد نشرت بطهران عام ١٣٢١ (١٩٤٣) .

وأصدر موسى نثري كتاباً بعنوان نثر وشرح مثنوي مولانا جلال الدين . وهو كما يدل عليه عنوانه يهدف إلى التعبير بالنثر عن معاني الأبيات . وهذا الشرح الفارسي الموجز لا يكاد يتجاوز التعبير عن هذه المعاني ، لكنه يعتبر من الجهود القيمة التي بذلها الدارسون المحدثون . وقد صدر المجـــلد الأول منه عام ١٣٢٧ (١٩٤٩) . واكتملت الآن جميع المجلدات .

وقد بدأ صادق گوهرين يصدر عملاً ، لو اكتمل ، لأصبح ذا قيمـة كبيرة في دراسة المثنوي . ذلك الكتاب هو « فرهنگ لغات وتعبيرات مثنوي » (معجم مفردات وتعبيرات المثنوي) . والمجلّد الذي نُشر يضم حرف الألف ، وقد صدر ضمن مطبوعات جامعة طهران ، عام ١٩٥٩ .

ومن الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة كتاب للأستاذ علي دشتي بعنوان « سيري در ديوان شمس » ، ويتّسم بعمق التـــذوّق الفني لأشعار الديوان . فقد صوّر المؤلّف بأسلوب الناقد الفنّان بعض جوانب الروعة والإبداع الفنّي في ديوان شمس تبريز .

هذا بعض ما وصلني في السنوات الأخيرة من أعمال الباحثين الإيرانيين .

وممـــا صدر بالباكستان عن جلال الدين كتابان باللغة الانجليزية ، أولهما لخليفة عبد الحكيم بعنوان « ما وراء الطبيعة عند الرومي »[١] .

---

(1) Abdul - Hakim , Khalife : The Mytaphysics of Rumi , Lahore 1932 .

وثانيهما لأفضل إقبال بعنوان « حياة الرومي وفكره »[1] .

(٦)

لم يكن من أهدافنا قط أن نعدّ سجلاً كاملاً بما كتب عن الشاعر أو تُرجم من أعماله . وكل ما أردته بذكر هذه الأعمال أن أنوّه ببعض الجهود التي أسهم بها الباحثون في دراسة هذا الشاعر .

ولعل الوقت قد حان لعرض الجهود ، التي أسهم بها العرب في دراسة جلال الدين .

تتجلّى هذه الجهود – في بادىء الأمر – في إصدار طبعات لشروح أو ترجمات للمثنوي صدرت في القاهرة إبان القرن التاسع عشر .

فقد نشرت مطبعة بولاق في عام ١٢٥١ ﻫ (١٨٣٥) شرح المثنوي بالتركيّة ، المعروف بفاتح الأبيات ، لإسماعيل الأنقروي (ت ١٠٤٢ ﻫ) .

ثم نشرت في عام ١٢٦٨ ﻫ (١٨٥١) نصّ المثنوي ومعه ترجمته المنظومة بالتركيّة لمحمد نحيفي بن سليمان بن عبد الرحمن (ت ١١٥١ ﻫ) ، وتعدّ هذه الطبعة من أجمل طبعات المثنوي .

وفي عام ١٢٨٩ ﻫ (١٨٧٢) طبع في القاهرة شرح المثنوي بالعربية ، المعروف بالمنهج القوي لطلاب المثنوي ، ليوسف بن أحمد المولوي .

---

(1) Iqbal, Afdal : The Life and Thought of Rumi, Lahore, 1956 .

وهذا الشرح هو أول إسهام عربيّ في دراسة المثنوي . ويتبع فيه طريقة الشُرّاح القدماء ، فيُعني بالمغزى الصوفيّ للشعر ، قبل عنايته بأي ناحية أخرى . فالكتاب بالنسبة إليه منظومة في معاني التصوف . وعبارة الشارح تتسم بالركّة ، التي كانت من خواصّ أساليب الكتابة العربيّة في زمانه . لكنّ العمل بدون شكّ جهد عظيم ، بُني على جهود من سبق من الشُرّاح الأتراك ، وخاصّة إسماعيل الأنقروي . وقد رجعت إليه في مواضع عديدة لتتبّع الأحاديث النبويّة التي أشار إليها الشاعر في أبياته ، كما أنّه يعين على تفهّم كثير من الأمور التي تتصل بحياة المولويّة وعاداتهم ، وذلك بحكم انتمائه إليهم . وهو فوق كل ذلك رائدٌ في هذا الميدان .

وفي السنوات الأخيرة بدأ أديب عراقي يقيم في إيران ، هو عبد العزيز الجواهري (صاحب الجواهر) يصدر في طهران ترجمة منظومة للمثنوي باللغة العربية[1] . ومع تقديري للجهد الكبير الذي بذله هذا الأديب الشاعر ، إلا أنّني أرى أنّ عرض فنّ جلال الدين وأفكاره لا يمكن أن يتحقّق بترجمته شعراً ، مهما أوتي المترجم من مقدرة على النظم . ورغم ذلك فإنّي أرحب بهذا العمل كمجهود جادّ في خدمة المثنوي . وقد كانت جامعة طهران صاحبة الفضل في إصدار هذا العمل . ووصلني منه حتى الآن المجلدان الأول والثاني .

وكان أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزّام من أقدر الباحثين العرب على فهم المثنوي وتذوّقه . وكان له الفضل الأوّل في توجيه انتباهي إلى المثنوي . فقد كنّا ندرس آداب الأمم الإسلامية في المعهد العالي للغات الشرقيّة وآدابها بجامعة القاهرة ، بين عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٦ . وكان الأستاذ يفرض علينا قراءة مئات من الأبيات من المثنوي إبان عطلات الصيف . كما أنّه كثيراً ما كلّفني بأن أقرأ المثنوي وأشرحه

(١) صدرت هذه الترجمة بعنوان جواهر الآثار في ترجمة مثنوي مولانا خداوندگار .

أمامه ، وكان هذا باعثاً ومشجّعاً في تلك الفترة من حياتي الدراسية .

وكان للأستاذ عزّام — إلى جانب جهوده التعليميّة في هذا الميدان — فضل التعريف بجلال الدين عن طريق الصحافة الأدبيّة ، فكتب عنه في مجلّة الثقافة المصريّة سلسلة مقالات نُشرت في الأعداد (١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ من السنة الرابعة ، عام ١٩٤٢)[1].

وقد نشر الأستاذ بعد ذلك كتابا بعنوان « فصول من المثنوي » في عام ١٩٤٦ ، جمع فيه هذه المقالات التي سبق له نشُرها ، وجعلها مقدّمة لفصول ترجمها عن المثنوي . وهذه الفصول هي « قصة التاجر والببغاء » و « قصة الأسد والوحوش » من المجلد الأول ثم مقدمة الجزء الثالث من المثنوي . وترجمة القصة الأولى منظومة ، وقد قرن فيها الترجمة العربيّة بالنصّ الفارسيّ ، وبلغ عدد الأبيات المترجمة نحواً من ستمائة بيت .

كما نشر الاستاذ عزام فصلاً موجزاً في التعريف بجلال الدين في « قصة الأدب في العالم »[2] ، وضمّنه ترجمة منظومة لمقدمة المثنوي . وقد جرت الترجمة على هذا النحو :

استمع للناي غنّى وحكى	شفّه الوجد وهدراً فشكى
مذ نأى الغابُ وكان الوطنا	ملأ النـــاس أنيني شجنا
أين صـــدرٌ من فراق مُزّقا	كي أبثّ الوجد فيه حرقا
من تشرّده النوى من أصله	يبتغي الرُجعى لمغنى وصله
كلّ ناد قـــد رآني نادبا	كلّ قوم تخذوني صاحبا
ظنّ كلّ أنّني خير سمـير	ليس يدري أيّ سرّ في الضمير

(١) ص ٢٤١ — ٢٤٤ ، ٣٠٥ — ٣٠٧ ، ٣٣٧ — ٣٤٠ ، ٣٨٥ — ٣٨٦.

(٢) احمد أمين وزكي نجيب محمود : قصة الأدب في العالم ، جـ ١ ، ص ٤٩٠ — ٤٩٨ .

إنّ سرّي في أنيني قد ظهر   غير أنّ الأذن كلّت والبصر[١]

ونشر الأستاذ محمد خلف الله أحمد مقالاً عن جلال الدين في مجلة الثقافة لخّص فيه بعض آراء مفكّري الغرب في شعر جلال الدين ، عن مقال لهيستي[٢] نشر في أحدى مجلات التصوف[٣] . ومما جاء بهذا المقال[٤] قوله « ولجلال الدين عبارات تشير إلى اعتقاده بتناسخ الأرواح .»[٥] ونحن لا نوافق على رأي هيستي لأنّه أخذٌ بظاهر بعض النصوص التي لا تعني مثل هذا المعنى .

وكان مقال خلف الله باعثاً على نشر مقال آخر بمجلة الثقافة بعنوان « مولانا جلال الدين في ميزان التاريخ والعقيدة[٦] » كتبه عبد العزيز جنكيزخان التركستاني ، حرص فيه على بيان انتساب جلال الدين إلى العنصر التركيّ ، وإن اتخذ الفارسيّة لغة لأعماله الفنيّة والفكريّة ، وردّ فيه على نسبة القول بالتناسخ إلى جلال الدين . وبيّن فيه للقراء كيف أنّ جلال الدين – وإن لم يكن ذائع الشهرة في الوطن العربيّ – قد بلغ في الأقطار الإسلامية الأخرى أرفع الدرجات ، وأنّ آثاره تُدرس في المكانة الثالثة بعد القرآن والصحيحين . ومما كتبه حينذاك قوله : « أذكر أنّني في تركستان كنت أتلقى شرح المثنوي على يد قاضي القضاة العلامة داملا محمود الكاشغري في جمع حاشد من كبار الطلبة تنتظم حلقتهم بعد صلاة الفجر ، وكذلك رأيت هذه المكانة عندما وصلتُ إلى ربوع الهند وتبيّنتُ أنّ القيمة الأدبيّة والعلميّة بلغت بالمثنوي إلى حدّ ألا يقوم بتدريسه سوى كبار العلماء[٧] » .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .   (٢) Hastie

(٣) The Sufi Quarterly

(٤) أعاد خلف الله نشر هذا المقال في كتابه : دراسات في الأدب الإسلامي . القاهرة ١٩٤٧ .   (٥) ص ١٣٠ من المصدر السابق .

(٦) العدد ١٦٠ ، يناير سنة ١٩٤٢ ،

(٧) المصدر السابق ، مجلة الثقافة ، السنة الرابعة ، ص ٨٩ .

ولقد قمتُ منذ عام ١٩٤٦ بشيء من التعريف بجـلال الدين . فقد دعيت لإلقاء سلسلة من الأحاديث الأدبية من محطة الاذاعة العربية بلندن – وذلك إبان التحاقي بجامعة لندن في الأعوام ١٩٤٦ – ١٩٥٠ – فجعلت جلال الدين موضوعاً لأحد هذه الأحاديث [١] .

كما ألقيت عن الشاعر بحثاً في الموسم الثقافيّ الثالث لجـامعة بيروت العربية ، في عام ١٩٦٣ [٢] .

وكان جلال الدين دائماً موضوعاً مهماً من موضوعات محاضراتي الجامعيّة منذ بدأت أمارس التعليم الجامعيّ ، بانضمامي إلى هيئة التدريس بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٠ ، حتى اليوم .

---

(١) نشر هذا الحديث في مجلة « المستمع العربي » ، العدد الثامن من السنة التاسعة .
(٢) نشر مع مختارات مترجمة من شعر جلال الدين ، بيروت ، ١٩٦٣ .

- ٧ -

هذه الترجمة

بقيتْ كلمةٌ عن المنهج الذي اتُّبع في هذه الترجمة ، والشرح الملحق بها ، ويتلخّص فيما يلي :

١ — اتُّخذ النصّ الفارسيّ في طبعة نيكولسون أساساً لهذه الترجمة نظراً لأنه من أصحّ النصوص المنشورة للمثنوي . وقد اعتمد الأستاذ المحقق في إعداده على مخطوطات قديمة للمثنوي . كما أن طريقة طباعته وتوفره في دور الكتب ، وسهولة الحصول عليه في هذه الأيام ، كلها من الأمور التي تزيد ترجيح هذه الطبعة على سواها ، ومع ذلك فقد كنت أقارن نصّ طبعة نيكولسون بغيره من النصوص المطبوعة ، وفضّلت في بعض المواضع ما جاء في إحدى هذه الطبعات على نصّ نيكولسون ، ونبّهت إلى ذلك .

٢ — الترجمة مرقّمة بذات الترقيم المتّبع في نصّ طبعة نيكولسون .

٣ — روعي في الترجمة مطابقة النصّ إلى أبعد حدّ ممكن . وكان الموقف أحياناً يقتضي إضافة كلمة أو كلمات ، فكنتُ أجعل ما أُضيفه بين قوسين ، أو أعبّر عن المعنى بشيء قليل من التصرف ، وأنصُّ في الحاشية على المعنى الحرفيّ .

٤ — اختلف فهمي للنصّ في أحيان كثيرة عن فهم سواي . وقد أثبتُّ ترجمتي بالصورة التي اعتقدتُ أنها الصواب ، وذلك بدون مقارنةٍ لها مع ما يختلف عنها من ترجمات الآخرين . فدراسة بيت واحد بهذا الأسلوب المقارن قد تستغرق صفحات عديـدة ، ما أغنانا عن إضافتها لهذا العمل .

٥ — جعلت الشرح موجزاً — على قدر الإمكان — ومرتبطاً بالنصّ ارتباطاً مباشراً ، مع الاهتمام بالتذوّق الفنيّ ، وبمقارنة فكر جلال الدين بفكر سواه ، حين يكون في ذلك جدوى للإيضاح وخدمة النص وابتعدت عن التأويلات البعيدة ، وتحميل النص ما لا يحتمل .

وبعدُ ، فهذه هي الخطوة الأولى من رحلة طويلة ، أرجو أنْ أصل إلى نهايتها . وما أسعدني بذلك لو أنني استطعت !

ولقد فكرت كثيراً قبل أن أقدم على هذا العمل ، نظراً لما يحتاج إليه من وقت وجهد . وساءلت نفسي ، أبقي في زماننـــا هذا مجال للمثنوي وأمثاله من الأعمال التي احتاج إبداعها إلى الزمن المديد ، كما أن دراستها أيضاً تحتاج إلى مثل هذا الزمن ؟ ولم أتردّدْ طويلا . وبدأت أحاول مراجعة الذين مضوا قبلي في تلك السبيل . فالأستاذ نيكولسون — حين نشر المجلد الأول من ترجمته — قدّم له بمقدمة تبيّن ضخامة المهمّة ، حين قال : « إذا قسنا المثنوي بمقاييس زماننا ، فهو منظومة بالغة الطول . إنّه يحوي من الأشعار قدر ما تحويه الإلياذة والأوديّسة معاً ، وضعف ما تحويه الكوميديا الإلهيّة . وهذه المقارنات تجعله يبدو أقصر مما هو عليه في الواقع ، ذلك لأنّ كل بيت من المثنوي يتكوّن من اثنين وعشرين مقطعاً صوتياً ، على حين يتراوح عدد المقاطع في الوزن السداسيّ

Hexameter بين ثلاثة عشر وسبعة عشر مقطعا[1] .. » هذا بالإضافة إلى الصعوبات الأخرى التي ترتبط بالطـــابع الرمزي لكثير من أجـزاء المثنوي ، وبمتابعة الشاعر في إشاراته الكثيرة لمعارف زمانه حول مختلف الموضوعات .

ومع هذا فإني أعتقد أنّ هذا العمل جدير بما يستغرقه من وقت وجهد . فجلال الدين شاعر إنسانيّ عظيم . وتراثه يُعدُّ قسماً مشرقاً من تراث عزيز علينا ، هو تراث حضارتنا الإسلامية الزاهرة . فلو أسهم هذا العمل في أن يُقدّم لأبناء الأمة العربيّـة ، ما يزيدهم إدراكاً لأبعاد حضارتهم فقد كوفىء سعيي بأكثر مما أطمح إليه ، والله هو الهادي والموفّـق .

بيروت في أول ديسمبر ١٩٦٥

محمـــد كفافي



---

(١) مقدمة الترجمة الإنجليزية للجزءين الأول والثاني من المثنوي .

المثنوي[1]

الكتاب الأول

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب المثنوي[1] وهو أصولُ أصول أصول الدين ، في كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح ، وهو جِنان الجَنان ، ذو العيون والأغصان ، منها عين تُسمَّى عند أبناء هذا السبيل سلسبيلا ، وعند أصحاب المقامات والكرامات خيرٌ مقاماً وأحسن مقيلا ، الأبرارُ فيه يأكلون ويشربون ، والأحرارُ منه يفرحون ويطربون ، وهو كنيل مصر شرابٌ للصابرين ، وحسرةٌ على آل فرعون والكافرين ، كما قال يُضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً ، وإنّه شفاء الصدور وجلاء الأحزان ، وكشّاف القرآن ، وسعة الأرزاق ، وتطييب الأخلاق ، بأيدي سفرة كرام بررة ، يمنعون أنْ لا يمسّه إلا المطهرون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والله يرصده ويرقبه ، وهو خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين ، وله ألقاب أخر لقبه الله تعالى ، واقتصرنا على هذا القليل ، والقليل يدل على الكثير ، والجرعة تدل على الغدير ، والحفنة تدل على البيدر الكبير ، يقول العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى محمد بن محمد بن الحسين البلخي تقبّل الله منه : اجتهدت في تطويل

---

(١) وضع جلال الدين هذه المقدمة باللغة العربية .

المنظوم المثنوي المشتمل على الغرايب والنوادر ، وغرر المقالات ، ودرر الدلالات ، وطريقة الزهّاد ، وحديقة العباد ، قصيرة المباني ، كثيرة المعاني لاستدعاء سيدي وسندي ، ومعتمدي ، ومكان الروح من جسدي ، وذخيرة يومي وغدي ، وهو الشيخ قدوة العارفين ، وإمام أهل الهدى واليقين ، مغيث الورى ، أمين القلوب والنهى ، وديعة الله بين خليقته ، وصفوته في بريته ، ووصاياه لنبيّه ، وخباياه عند صفيّه ، مفتاح خزائن العرش ، أمين كنوز الفرش ، أبو الفضائل حسام الحقّ والدين[1] حسن بن محمد بن الحسن المعروف بابن أخي ترك ، أبو يزيد [2] الوقت جنيد[3] الزمان ، صديق ابن صديق ابن الصديق رضي الله عنه وعنهم الأرموي[4] الأصل المنتسب إلى الشيخ المكرم[5] بما قال : أمسيت كردياً وأصبحت عربياً قدس الله روحه وأرواح أخلافه فنعم السلف ونعم الخلف ، له نسب ألقت الشمس عليه رداءها ، وحسب أرخت النجوم إليه أضواءها ، ولم يزل فناؤهم قبلة الإقبال يتوجه إليها

---

(١) حسن حسام الدين كان وقت نظم المثنوي أقرب تلاميذ جلال الدين إليه ، وقد كان جلال الدين يملي عليه المثنوي . والمعروف أن المثنوي لم يكتب قط بخط الشاعر ، بل كانت أول نسخه بخط حسام الدين . وقد أصبح حسام الدين شيخاً للطريقة المولوية بعد وفاة أستاذه جلال الدين عام ٦٧٢ هـ .

وكان نائباً لجلال الدين خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة الشاعر . وقد توفي حسن حسام الدين عام ٦٨٣ هـ .

(٢) هو أبو يزيد البسطامي ، أحد مشهوري الصوفية . توفى عام ٢٦٠ هـ .

(٣) الجنيد البغدادي كان أيضاً من مشهوري الصوفية ، وقد توفى عام ٢٩٧ هـ .

(٤) نسبة إلى مدينة أرمية التي تقع في إقليم آذربيجان .

(٥) ذكر شراح المثنوي أن الشيخ المقصود هنا ، والذي تنسب اليه العبارة المذكورة في النص هو الصوفيّ أبو الوفا بن عقيل الكردي . ويذكر الشعراني أنه كان معاصراً لعبد القادر الجيلاني (٤٧١ — ٥٦١ هـ) . أما العبارة المنسوبة إليه هنا فتشير إلى كرامة وقعت له ، خلاصتها أنه دعي لإلقاء خطبة وعظية ، ولم يكن يعرف العربية فنام ليلته داعياً ربّه متفكراً ، ورأى الرسول في المنام فأمره الرسول أن يجعل خطابه عن أسرار القرآن . وفي الصباح صعد المنبر وجري لسانه بالعربية . وقد نسبت مثل هذه الكرامة إلى غيره من الصوفية ، كما بيّن ذلك نيكولسون في تعليقاته .

بنو الولاة ، وكعبة الآمال يطوف بهـــا وفود العفاة ، ولا يزال كذلك ما طلع نجم وذرّ شارق ليكون معتصماً لأولي البصائر الربانيين الروحانيين السمائيين العرشيين النوريين السكوت النظّـار ، الغيب الحضّار ، الملوك تحت الأطمار ، أشراف القبـائل ، أصحاب الفضائل ، أنوار الدلائل ، آمين يارب العالمين ، وهـــذا دعاءٌ لا يردّ فإنّـه دعاء لأصناف البريّـة شامل ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على خير خلقه محمـد وآله الطيبين الطاهرين .



المثنوي[1]

١ استمع للناي كيف يقص حكايته . إنـه يشكو آلام الفراق .

(يقول) :

« إنـني منذ قُطعتُ من منبت الغاب ، والناس رجالاً ونساءً يبكون لبكائي .

إنـني أنشد صدراً مزّقه الفراق ، حتى أشرح له ألم الاشتياق .

فكل إنسان أقام بعيداً عن أصله ، يظلّ يبحث عن زمان وصله .

٥ لقد أصبحتُ في كل مجتمع نائحاً ، وصرت قريناً للبائسين والسعداء .

وقد ظنّ كلّ إنسان أنـه قد أصبح لي رفيقاً ، ولكنّ أحـداً لم يُنقّب عما كمن في باطني من الأسرار .

وليس سِرّي ببعيد عن نواحي ، ولكنْ أنـى لعين ذلك النورُ أو لأذن ذلك السمعُ الذي به تُدرك الأسرار ؟

وليس الجسم بمستور عن الروح ، ولا الروح بمستور عن الجسم ، ولكنّ رؤية الروح لم يُؤْذن بها لإنسان » .

إنّ صوت الناي هـذا نارٌ لا هواء ، فلا كان من لم تضطرم في قلبه مثل هذه النار .

١٠ وهذه النار التي حلّت في الناي هي نار العشق، كما أنّ الخمر تجيش بما استقرّ فيها من فورة العشق .

إنّ الناي نديم لكل من فرّقه الدهر عن حبيب ، وإنّ أنغامه قد مزّقت ما يغشّى أبصارنا من حُجُب .

مَنْ رأى مثل الناي سمّاً وترياقاً ؟ من رأى مثل الناي رفيقاً مشتاقاً ؟

إنّ الناي يروي لنا حديث الطريق الذي ملأته الدماء ، ويقصّ علينا قصص عشق المجنون .

وهذه الحكمة (التي يرويها) قد حُرّمت على من لا عقل له ، فليس هناك من يشتري بضاعة اللسان سوى الأذن .

١٥ لقد أصبحتْ أيامُنا متشابهاتٍ في الهموم ، وصارت الحرق والآلام ملازمة لهذه الأيام .

فإذا ذهبت الأيام فقل : « اذهبي ، فلا خوف لدينا (من ذهابك) ، ولتبق أنت يا من ليس لك نظير في الطهر والنقاء » .

كلّ من لم يكن من فصيلة السمك فإنه يشبع من الماء ، وكل من كان بلا رزق طال يومُه .

ولا يستطيع غرٌّ أنْ يدرك حال من أنضجتهم التجارب ، فلنقصر القول على ما قلناه ونكتف به .

أيها الولد ! إلام تظلّ أسير الذهب والفضة ؟ حطّم قيودك وتحرر منها .

٢٠ إنّك لو أردت أن تغترف البحر بكوز ، فهل يسع هذا الكوز أكثر مما يكفيك يوماً واحداً ؟

ومع هذا فإنّ عين الحريص (على الدنيا) لا تمتلىء (ولا يغمض لها جفن) ، وما يحفل الصدف بالدر إلا حين يغتمض .

وكلّ من تمزقت ثيابه من العشق ، فإنه يصبح طاهراً من الحرص ، ومن كلّ العيوب .

فلتَسْعَد أنت يا من عشقُه الجميل سرّ هيامنا ، ويا من هو الطبيب لكل ما نشكوه من علل .

يا من هو الدواء لغرورنا وكبريائنا ! يا من هو لنا مثل أفلاطون وجالينوس !

٢٥ إنّ العشق جعل جسم الأرض يعلو على الأفلاك ، فرقص الجبل وأضحى خفيف الحركة .

العشق حلّ في روح الطور أيّها العاشق ، فسكر الطور وخرّ موسى صعقا [١] .

آه لو كانت شفتاي تقترنان بشفتي حبيبي ، إذنْ لكنتُ كالناي أقول ما ينبغي قوله .

فكلّ من فرقه الدهر عن أهل لسانه ، يصبح بلا لسان حتى ولو سُمِع له مائة صوت !

وحين يذبل الورد وينقضي عهدُ بستانه ، لا يعود البلبل — بعد هذا — يروي لك قصة (أشجانه) .

٣٠ إن المعشوق هو الكلّ وأما العاشق فحجاب ، والمعشوق هو الحيّ وأما العاشق فميت .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : « فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً » . (٧ : ١٤٣) .

وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق ، فإنّه يبقى تعساً كطائر بلا جناح .

وكيف يكون لي عقل يدرك ما أمامي وما ورائي ، حينما لا يكون نور حبيبي أمامي وورائي ؟

إنّ العشق يقتضينا أن نبوح بهذا القول ، وإلا فكيف تكون المرآة ، إذا لم تعكس صور المرئيات ؟

أوَ تدري لِمَ أظلمت صفحة مرآتك ؟ إنّها أظلمت لأنّ الصدأ قد علاها ، ولم ينفصل عنها .

٣٥ فاستمعوا أيها الأحباب إلى هـــذه القصة ، فهي تنطوي بحقّ على نقد حالنا .

حكاية عشق ملك لاحدى الجواري وشراء الملك هذه الجارية

كان هناك ملك في سالف الزمان ، دان له ملكُ الدنيا وملكُ الدين .

وذاتَ يوم ركب هذا الملك مع خواصّه من أجل الصيد .

فرأى جارية على الطريق السلطاني ، فصارت روحه أسيرةً لهـــذه الجارية .

وحين وقع طير روحه في القفص ، دفع المال واشترى تلك الجارية .

٤٠ فلما اشتراها ، وقرّ بها عيناً ، أصابها القضاء بالمرض .

لقد كان لديه حمار لا سرج له ، فلما وجد السرج أكل الذئب الحمار !

وكان لديه إناءٌ ولكن لا سبيل له إلى الماء ، فلما وجد الماء انكسر الإناء !

فجمع الملك الأطباء من كل حدب وصوب ، وقال لهم : « إنّ روح كلينا في أيديكم .

فأما روحي فيسيرةٌ ، ولكنّ هذه الجارية روح روحي ، وأنا مريضٌ عليل وهي دوائي .

٤٥ فكل من أجرى علاجاً لروحي ، نال كنزي ودُرّي ومرجاني » .

فقالوا جميعاً له : « إنّنا سوف لا نبالي بأرواحنا ، وسوف نجمع أفهامنا ، ونتعاون معاً (لإدراك تلك الغاية) .

فكلّ واحد منا مسيحُ العالم ، ولكل ألم دواء عندنا » .

وكان من غرورهم أنْ لم يقولوا : « إن شاء الله » ، فأظهر لهم الله عجز البشر .

إنّ ترك « الاستثناء » [1] عندي قسوة ، ولست أعني به مجرّد القول الذي هو حالةٌ عارضة ، (لا يؤمن بها القلب) .

٥٠ فكم من متكلم لا يأتي في قوله بعبارة « الاستثناء » ومع هذا فروحه مقترنة بروح تلك العبارة .

فكل ما صنعوه من علاج ودواء ، كان يزيد من الألم ولا يتحقق معه الشفاء .

فأصبحت هذه الجارية من المرض في نحول الشعرة ، وكانت عينا الملك تفيضان كالنهر بالدموع الدامية .

وشاء القدر أن يزيد مزيج الخل والعسل [2] من الصفراء ، ويزيد

---

(١) الاستثناء هنا يُقصد به تعليق الإنسان إرادته على إرادة الله .

(٢) مزيج الخل والعسل كان يستخدم لمعالجة الصفراء .

زيت اللوز من يبوسة الجوف .

وسببت الهليلة [1] القبض للجارية — وهي التي تُحدث الإطلاق - وأصبح الماء يزيد من حرارتها كأنّه نفط .

كيف ظهر للملك عجز الحكماء عن معالجة الجارية ، وكيف توجه الملك إلى حضرة الله فرأى وليّاً في المنام

٥٥ ولما رأى الملك عجز هؤلاء الحكماء ، جرى عاريَ القدمين نحو المسجد .

ودخل المسجد واتجه نحو المحراب ، وابتلّ مكان السجود بما جرى من دمعه .

فلما أفاق من الغرق في لجة الفناء ، أطلق لساناً جميلاً بالمدح والثناء . (فقال) :

« يا من أقلّ عطائه ملكُ الدنيا ! ماذا أقول وأنت تعلم السر وأخفى ؟

يامن هو على الدوام ملجؤنا عند الحاجة ، إنّا ضللنا السبيل مرة أخرى [2] .

٦٠ ولكنّك أنت قد قلت : « إنّني أعرف سِرّك ، فسارع إلى إعلانه » .

فلما ارتفع الصياحُ من أعماق روحه ، جاش بحرُ الغطاء .

---

(١) دواء مسهل .

(٢) يقصد بضلال السبيل هنا اللجوء إلى غير الله .

وبينا هو يبكي غلبه النوم ، فرأى في النوم شيخاً يظهر أمامه .

وقال له الشيخ : « أيّها الملك ! أبشر فإن حاجتك سوف تُقضي ،
إذا جاءك في الغد رجلٌ غريب من عندنا .

فحينا يجيئك فهو حكيم حاذق ، فاعلم أنّه صادق ، لأنّه أمين صادق .

٦٥ فانظر السحّر المطلقَ في علاجه ! وتأمّل قدرةَ الحق في
مزاجه ! [١].

فلما طلع النهار وحان الموعد ، وبزغت الشمس من المشرق فاحترقت
النجوم .

كان الملك يجلس في البهو منتظراً ، ليرى (مصداق) ما أُظهر له
من السرّ .

فرأى شخصاً فاضلاً أصيلاً ، كان كأنّه شمس بين الظلال .

كان يقترب من بعيد كأنّه الهلال ، وكان لرّقته كأنّه غير موجود ،
فقد كان وجوده مثل الخيال .

٧٠ إنّ الخيال في الروح مثل العدم ، (ومع هذا) فلتنظر إلى
هذا العالم ، كيف أنّه يدور على الخيال !

فعلى الخيال يقوم ما بين الناس من صلح أو صراع ، ومن الخيال
ما يَعدّه الناس فخراً وما يعدونه عاراً .

ولكنّ هذه الخيالات التي هي حبائل للأولياء ، ليست إلا صورةً
للحسان في بستان الله .

وذلك الخيالُ — الذي رآه الملك في النوم — كان على الدوام يتجلّى

---

(١) المزاج هنا ما يمزجه الطبيب من مواد لصنع دوائه .

في طلعة ضيفه .

فتقدم الملك إلى مكان الحُجّاب ، ومثل أمام ذلك الضيف الذي جاء من الغيب .

٧٥ كان كلٌ منهما سبّاحاً عالمـاً : فاتصلت روحاهما دون رابطة مادّية [1] .

وقال له : « إنّك كنت معشوقي لا تلك الجارية ! لكنّ الأمور يُظهر بعضُها بعضاً في هذه الدنيا .

يا من أنت لي كالمصطفى وأنا كعمر ، هأنذا أربط حزامي وأقف أمامك للخدمة » .

الدعاء الى الله ولي التوفيق أن يوفقنا لرعاية الأدب في جميع الأحوال وبيان وخامة الأضرار التي تنجم عن فقدان الأدب

إنّا نرجو من الله أنْ يوفقنـا للأدب ، فإن من لا أدب له يبقى محروماً من لطف الربّ .

إنّ من لا أدب له لا يقتصر أذاه على نفسه ، وإنما هو يشعل النار في جميـع الآفاق .

٨٠ لقد كانت مـائدة تنزل من السماء بدون عناء ، وبدون بيـع أو شراء .

---

(١) المعنى الحرفي فاتصلت روحاهما دون خيط . وقد جاء في الحديث قول الرسول عليه السلام : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ولكنّ جماعةً من بين قوم موسى قالوا بوقاحة : « أين الثوم والعدس ؟ » .

فانقطع عنهم خبزُ السماء ومائدتها ، وبقي لهم عناء الزراعة والكدح بالفأس والمنجل .

ولكنْ عندما شفع عيسى لدى الحق ، أرسل لهم الخوان والغنيمة على الطبق .

فعاد أهل الوقاحة إلى ترك الأدب ، وتخاطفوا الطعام كالشحّاذين .

٨٥ فناداهم عيسى قائلاً : « إنّ هذه المائدة دائمة ، ولن ينقطع ورودها إلى الأرض » .

إنّ سوء الظن والحرص – أمام مائدة العظيم – كفر .

لقد أُغلق بابُ الرحمة على الناس من جرّاء هؤلاء الذين بدوا كالشّحاذين وقد أعماهم الحرص .

إنّ السحب لا تجيء إذا مُنعت الزكاة ، ومن الزنا يقع الوباء في جميع الجهات .

فكل ما أصابك من ظلمات وغم ليس إلا نتيجة للتبجح والتوقح .

٩٠ وكل من أبدى توقحاً في طريق الحبيب ، فهو قاطع طريق الناس ، ولا رجولة عنده .

فمن الأدب امتلأ بالنور الفلك ، ومن الأدب صارت العصمةُ والطهر صفات الملك .

ومن الوقاحة كان كسوف الشمس ، ومن الجرأة رُدّ عزازيلُ [١] عن الباب .

(١) عزازيل اسم إبليس قبل سقوطه والشاعر يريد هنا أنه رُدّ عن باب الله لتوقحه.

لقاء الملك للطبيب الالهيّ الذي بُشّر بلقائه في المنام

فتح الملك ذراعيه وعانق الضيف ، ووقع في قلبه وروحه إحساس كأنه العشق .

فأخذ يُقبّل يده وجبينه ، ويسأله عن المقام والطريق .

٩٥ وقاده – وهو يسائله – إلى صدر المجلس ، وقال : « لقد وجدت آخر الأمر كنزاً لقاءَ صبري » .

ثم قال : « يا هديّة الحقّ ويا دافع الحرج ! ويا من هو معنى (الصبر مفتاح الفرج) !

يا من لقاؤه جوابٌ لكلّ سؤال ! إنك قد حللت مشكلتي بدون قيل وقال !

إنك الترجمان لكلّ ما في قلوبنا ، وإنك الآخذ بيد من زلّت في الطين قدمه !

مرحباً يا مجتبى يا مرتضى　　إنْ تغب جاء القضا ضاق الفضا[1]

١٠٠ أنت مولى القوم من لا يشتهي　　قد رَدَى كـلّا لـئن لم ينته

كيف أدخل الملكُ الطبيبَ الى المريضة ليرى حالها

وحين انقضى هذا المجلس وانفضّ خوان الكرم ، أمسك بيده وقاده إلى مقر الحريم .

---

(١) هذا البيت والذي يليه عربيان في الأصل . ويلاحظ فيهما وفي غيرهما من الأبيات العربية في المثنوي أن مستوى ما ينظمه الشاعر بالعربية أقـلّ بكثير من مستوى شعره الفارسي .

وقصّ عليه قصّة المريضة ومرضها ، ثم أجلسه بعد ذلك أمام المريضة .

ففحص لون وجهها ، ونبضها وقارورتها ، واستمع إلى وصف عوارض مرضها وأسبابه .

وقال : « إنّ كلّ ما قدّموه من علاج لم يكن سبيلاً للشفاء ، بل هم قد زادوها مرضاً .

١٠٥ إنّهم لم يكونوا على علم بحال باطنها ، أعاذنا الله مما يفترون » .

لقد رأى العلّة وانكشف له ما كان خافياً ، ولكنه أخفى الأمر على السلطان ، ولم يقل شيئاً .

فلم تكن علتها من السوداء ولا الصفراء ، فإنّ رائحة كل حطب تظهر في دخانه .

لقد رأى من أنينها أنّها مريضةُ القلب ، وأنّ الجسم بخير ولكنها أسيرة القلب .

فإن العشق يظهر في أنين القلب ، وليس هناك مرض مثل مرض القلب .

١١٠ وإن علة العاشق لمتميّزة عن سائر العلل ، فالعشق هو أصطرلاب[1] أسرار الله .

وإذا كان العشق من هذا الجانب أو ذاك ، فإنه في عاقبة الأمر يهدينا إلى تلك الناحية .

وكل ما أقوله في شرح العشق وبيانه ، أخجل منه عندما أواجه العشق ذاته .

---

(١) آلة صغيرة كانت تستخدم لمراقبة مواقع الأجرام السماوية .

فإن كان تفسير اللسان ينير السبيل (لمعرفة الحقيقة) ، فإن العشق – بدون اللسان – أفصح من أيّ بيان .

فبينما القلم مندفعٌ في الكتابة ، إذا به ينشقّ على نفسه حين جاء إلى العشق !

١١٥ والعقلُ في شرح العشق مثل حمار نام في الوحل ، فالعشق نفسه هو الذي يشرح لنا العشق وفعله .

إن الشمس هي دليل الشمس ، فإذا كنت بحاجة إلى الإهتداء بها فلا تحوّل وجهك عنها .

وإنْ كان الظل يقدّم لك علامة لهذه الشمس ، فإنّ الشمس الخالدة[1] تُلقى عليك نوراً روحيّاً .

والظلّ مثل السمر يأتيك بالنوم ، وحين تطلع الشمس ينشقّ القمر .

وليس في هذه الدنيا غريبٌ مثل الشمس . وشمسُ الروح باقية لا أمس لها .

١٢٠ والشمس الظاهرة – وإن كانت فريدة – فإننا نستطيع أن نتصور مثيلاً لها .

أما شمس الروح التي خرجت من الأثير ، فليس لها في الذهن ولا في العالم الظاهريّ نظير .

وأين التصور الذي يتسع لذاتها حتى يكون من المستطاع تصوّر مثلها .

وحين جاء حديث وجه شمس الدين[2] حجبت شمسُ السماء الرابعة وجهها .

(١) شمس الروح الخالدة التي لا يمكن أن يعتريها ظل .

(٢) يقصد أستاذه وصديقه شمس الدين التبريزي .

وما دام اسمه قد ذُكر ، فقد وجب علينـــا أن نقوم بشرح رمزٍ من إنعامه .

١٢٥ فهذا الشذى قـــد جذب انتباه روحي ، إذ وجدت فيه رائحة قميص يوسف .

فبحقّ الصحبة (التي جمعتكما) سنين ، اذكر لنا حالاً من أحواله الطيّبة .

حتى تضحكَ الأرضُ والسماء (في نشوة) ، وتزداد قدرة العقل والروح والعين مائة مرة .

لا تكلّفني فإنّي في الفنا   كلّت أفهامي فلا أُحصي ثنا[1]

كلّ شيء قاله غـير المفيق   إن تكلّف أو تصلّف لا يليق[2]

١٣٠ وماذا أقول ، وليس فيّ عرق واع ، ليشرح حال ذلك الرفيق الذي لا ندّ له .

فدع شرح هذا الهجران ، وحديث القلب الدامي إلى وقت آخر .

قال أطعمني فإنّي جـــائع   واعتَجِلْ فالوقت سيف قاطع[3]

فالصوفيّ ابن الوقت أيها الرفيق ، وليس قولك « غداً » من شرط الطريق .

أم لعلك لست برجل صوفي ، فالنسيء يجعل الموجود كالعدم .

١٣٥ فقلت له إنّ الأفضـــل سترُ سر الحبيب ، فلتُصغ إلى المغزى

(١) و (٢) هذان البيتان عربيان في الأصل .
(٣) هذا البيت عربي الأصل .

الذي تنطوي عليه القصة .

وخير لنا أن يجيء سرّ الأحبة في حديث الآخرين .

فقال حدثني حديثاً مكشوفاً عارياً لا غلائل[1] فوقه ، يا أبا الفضائل !

وارفع النقاب وبح بالقول ، فإنـّي لا أخلو بالحبيبة وهي مرتدية قميصها .

قلتُ إنه لو ظهر عريان للعيان ، فلن تبقى أنت ولا جانباك ولا وسطك .

١٤٠ فلتكن ذا أمـــل ولكنْ قف عند حد في أمَلك ، فإنّ القشّة لا تستطيع أن تحتمل الجبل .

فهذه الشمس التي تضيء العالم لو اقتربت منه قليلاً لأحرقت كل ما فيه .

فلا تَبحثْ عن الفتنة والثورة وإراقة الدمـاء ، ولا تقل أكثر من هذا عن شمس تبريز .

فهذا الحديث لا آخر له ، فلتبدأ القول من جديد وتتمّ هذه القصة .

كيف طلب الوليّ من الملك أن يُتيح له الخلوة مع الجارية حتى يدرك مرضها

قال الحكيم : « أيها الملك أخلِ المنزل ، وأبعد الأقارب والأجانب .

١٤٥ ويجب ألا تكون في الدهلـــيز أذنٌ تسمع حتى أسأل هذه الجارية

---

(١) لم أجد في القاموس جمع غلالة بغلول وهي الكلمة التي استخدمها الشاعر في قوله ، « گفت مكشوف وبرهنه بي غلول » ولكن يحتمل أن الشاعر قد جمع غلالة على هذا النحو . والمعنى الذي ذكره القاموس لغلول هو « خيانة » . ولو فسر هـــذا اللفظ على هذا النحو لكانت الترجمة على النحو الآتي ، « فقال حدثني حديثاً مكشوفاً عارياً دون خيانة » .

عن أشياء » .

فبقيت الدار خالية ، ليس بها ديّار ، سوى الطبيب والمريضة .

وقال الطبيب بلطف ورقة للمريضة : « إلى أيّ بلدة تنتمين ؟ إنّ العلاج يختلف باختلاف البلاد .

ومن لك من الأقرباء في تلك المدينة ؟ وبمن لك قرب واتصال ؟ » .

ووضع يده على نبضها ، وأخذ يوجّه إليها السؤال بعد السؤال عن جور الدهر .

١٥٠ إنّ الإنسان إذا مـــا أصابت قدمه شوكة ، فإنّه يضع قدمه فوق ركبته .

ويظلّ يفتش بجدّ الإبرة عن رأس الشوكة ، فإذا لم يجدها يبلّلها بريقه .

فإذا كانت شوكة في القدم تسبِّب هذه الشدة ، فما بالك بشوكة في القلب ؟ ألا فلتُجِبْ !

ولو كان كل خسيس يرى الأشواك التي تصيب القلوب ، لما استطاعت الهموم أن تصيب إنساناً .

فإنه لو وضع شخص شوكة تحت ذيل حمار ، فإنّ الحمار لا يستطيع دفع ذلك ، فيقفز .

١٥٥ ويظل يقفز فتزداد الشوكة إيغالا ، فلا بد من عاقل لينتزعها .

ويظل الحمار – لشدة ألمه وتحرقه – يضرب الأرض بسيقانه للخلاص من تلك الشوكة ، فيجرح نفسه في مائة موضع .

وقد كان هذا الحكيمُ مقتلعُ الأشواك أستاذاً ، فمـــدّ يده وأخذ يفتش عن مكان الداء .

لقد ظل يستفسر بطريق الحكاية من هذه الجارية عن أحبتها .

فباحت للحكيم بقصص عن مقامها وسادتها ومدينتها وضواحيها .

١٦٠ فكان يُصغي إلى القصة التي ترويهـا بأذنيه ، بينما هو قد ألقى بانتباهه إلى نبضها ، وفحص ضرباته .

حتى إذا اضطرب نبضها عند ذكر اسمٍ (علم أنّ) صاحبه غاية روحها في هذا العالم .

فعدّدت أصدقاءها في بلدتها ، ثم ذكرت بعد هذا مدينة أخرى .

فسألهـا الحكيم : « كيف خرجت من مدينتك ؟ وفي أية بلدة طالت إقامتك ؟

فذكرتْ اسم مدينة ، ولكنّها مرّت بذكرها دون أن يتغير لونُ وجهها أو نبضُها .

١٦٥ وعادت تتحدّث عن السادة وعن البلاد واحدة إثر أخرى (ذاكرةً) الأماكن والخبز والملح .

وأخذت تحدّثه عن المدن واحدةً واحدةً ، وتروي له خبر المنازل منزلاً منزلاً ، فلم يضطرب لها عرق ، ولا اصفرّ وجه .

كان نبضها لا ينبىء بشيء عن سوء حالها ، حتى سألها عن سمرقند الحلوة كالسكر .

فاضطرب نبضها ، وأخذ وجهها يحمرّ ويصفرّ ، إذ أنهـا كانت قد فارقت صائغاً من سمرقند .

وعندما أدرك الحكيم هذا السرّ من المريضة ، عرف أصل الألم والبلاء .

١٧٠ وقال : « أين محلة هذا الصائغ ؟ فقالت : إنّه (يسكن) عند رأس الجسر بمحلة غاتفر » .

فقال الحكيم : « لقد عرفتُ السرّ في مرضك ، ولن ألبث حتى أظهر في علاجك منه ألوان السحر .

فاهنئي واطمئني ، وقرّي عيناً ، فإنّي صانع بك ما تصنعه الأمطار بالمروج .

ولسوف أحمل همّك فلا تغتمي ، فإنّي أكثر إشفاقاً عليك من مائة أب .

ولكنْ حذار أن تذيعي هذا السرّ لإنسان ، حتى ولو أكثر الملك سؤالك ، والاستفسار منك .

١٧٥ فإنّه إذا أصبح قلبُك مقبرةً لسرّك ، عجّل ذلك بتحقيق مرادك .

فقد قال الرسول : إنّ كلّ من أخفى سرّه سرعان ما يتحقق له مراده » [١] .

والبذور عندما تختفي تحت الأرض ، تصبح هي السرّ في اخضرار صفحة البستان .

وكيف كان الذهب والفضة ينضجان في المنجم لو لم يختفيا في جوف الثرى ؟

ولقد جعلتْ وعودُ الحكيم وألطافه هذه الجارية آمنة من الخوف .

١٨٠ فالوعود الصادقة تلقى قبولاً من القلب ، وأما الوعود الكاذبة [٢]

---

(١) نص الحديث النبوي الذي يقصده هو ، « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإنّ كلّ ذي نعمة محسود » .

(٢) المعنى الحرفي . فالوعود الحقيقية ... وأما الوعود المجازية .

فتبعث الهم في النفس .

ووعدُ أهلِ الكرم نقدٌ متداول ، وأما وعد اللئام فعناءٌ للروح .

كيف أدرك الولي مرض الجارية وعرض الأمر على الملك

بعد ذلك نهض الحكيم ، وتوجه إلى الملك ، وأخبره ببعض ما جرى .

وقال : « التدبير الآن هو أن نحضر هذا الرجل من أجل علاج هذا المرض .

فلتدعُ الصائغ من هذا البلد البعيد ، ولتدخل الغرور إلى نفسه بما تهبه من ذهب وخلع .

كيف أوفد الملك الرسل إلى سمرقند لاحضار الصائغ

١٨٥ فأرسل الملك إلى تلك الجهة رسولاً أو رسولين ، حاذقين من أهل الكفاية والعدل .

وجاء هذان الرسولان إلى سمرقند من أجلِ الصائغ الظريف الفاضل .

وقالا للصائغ : « أيها الأستاذ اللطيف الكامل المعرفة ! لقد ذاعت في المدائن صفاتك !

إنّ فلاناً الملك اختارك لتكون صائغاً عنده ، لأنّك رجل عظيم !

فإليك هذه الخلعة وهذا الذهب والفضّة ، وحينما تجيء إلى حضرته فسوف تصبح رفيقاً له ونديماً .

١٩٠ ورأى الصائغُ المال والخلع الكثيرة ، فاغترّ بها وفارق أهله وأبناءه .

ومضى الرجل إلى الطريق سعيداً ، وما عرف أنّ الملك قد قصد قتله .

فركب جواداً عربياً وأسرع به فرحاً ، فعلم (فيما بعد) أنّ خلعة كانت ثمناً لحياته[1] .

فيا من مضيت في سفرك وأنت تشعر بمائة رضى ، لقد سعيت بقدمك نحو سوء القضاء !

كان في خياله الملك والعز والعظمة ، فقال عزرائيل : « اذهب فسوف تنال ذلك حقاً ! » .

١٩٥ وعندما وصل من السفر هذا الرجل الغريب ، أحضره الطبيب أمام الملك .

لقد جيء به معزّزاً إلى الملك ، حتى يحترق أمام شمعة طراز[2] .

فلما رآه الملك ، بالغ في تعظيمه ، وأسلم إليه خزائن الذهب .

وقال الحكيم للملك : « أيها السلطان العظيم ! أنعم بتلك الجارية على هذا السيّد

حتى يحسُن حال الجارية في وصاله ، ويدفع ماءُ وصله تلك النار عنها ! »

٢٠٠ فوهب الملك الصائغ تلك الجارية الحسناء ، وجمع بين هذين اللذين كانا ينشدان الصحبة .

فلبثا يشبعان رغبتهما ستة أشهر ، حتى غدت تلك الفتاة في كامل صحتها .

---

(١) فتكشف له فيما بعد أنّ تلك الخلعة كانت ثمناً لحياته .

(٢) أي حتى يحترق أمام الجارية . ويقصد بالشمعة المرأة الطويلة الجميلة الباسمة وأما طراز فبلدة في تركستان شرقي نهر سيحون ، كانت مشتهرة بجمال سكانها .

وبعد هذا ، أعدّ الطبيب للصائغ شربة شربها ، فأخـــذ يضمحل أمام الجارية .

وعندما ذهب المرض بجماله ، لم تعد روح الجارية عليلة بهواه .

فلما أصبح دميماً قبيحاً أصفَرَ الوجه ، أخـذت نار قلبها تنطفىء رويداً رويداً [1] .

٢٠٥ إن العشق الذي لا يكون إلا من أجل نضارة اللون ليس بعشق ، وعاقبته سوء السمعة والعار !

فليته كان كله قبحاً ، حتى لا يجري عليه هذا الحـكم السيّء .

كان الدم ينهمر من عيني الصـائغ اللتين كانتا تفيضان كالنهر . إنّ وجهه غدا عدوّاً لروحه !

وهكذا كان جناح الطاووس عدوّاً له . وكم من ملك قتلته أبهته !

فقال الصائغ : « إنـّي أنا ذلك الغزال الذي أراق الصياد دمـه من أجل سُرّته !

٢١٠ بل إنـّي أنا ثعلب الصحراء الذي كمنـــوا له ، وقطعوا رأسه من أجل فرائه !

بل إنـّي ذلك الفيل الذي أراقت دمــه ضربة الصياد من أجل سنّه العاجي !

إنّ من قتلني من أجل ما هو دوني ، ليس يدري أنّ دمي لا يُهدر !

فاليوم عليّ وغد عليه ، وإلا فمتى كان دم مثلي يذهب هدراً ؟

---

(١) حرفياً . أخذ قلبها يبرد رويداً رويداً .

فالجدار إذا كان يلقي على الأرض ظلاً طويلاً فإنّ هذا الظل يرتد نحوه .

٢١٥ وهذا العالم جبل ، وأما أعمالنا فنداء ، ولا بد أن يعود إلينـا صدى ندائنا » .

قال هذا ، ولفظ النفس الأخير ، ومضى تحت التراب ، فتخلصت تلك الجارية من الألم والعشق .

ذلك لأنّ عشق الموتى لا دوام له ، فالميت ليس بعائد إلينا .

أما عشق الحيّ فيبدو للروح والعين في كلّ لحظة أنضر من الزهر !

فاختر لنفسك عشق ذلك الحيّ ، فإنّه باق ، وهو الذي يسقيك شراباً يزيد من قوة روحك .

٢٢٠ أختر عشق من وجد الأنبياء بعشقه القوة والمجد .

ولا تقل : « ليس لنا سبيل إلى ذلك الملك » فإنّ التعامل مـع الكرماء لا عسر فيه .

بيان أن قتل الصائغ وإعطاءه السم كان بإشارة إلهية وليس نتيجة لهوى النفس والتأمل الفاسد

إنّ قتل هذا الرجل بيد الحكيم لم يكن بدافع من طمع ولا وجل .

وهو لم يقتله مرضاة للملك ، وإنما قتله عندما جاءه أمر الله وإلهامه .

فإنّ قَطْعَ الخضر حلق الغلام لأمرٍ لا يدرك سرّه عامةُ الخلق .

٢٢٥ فكلّ من يتلقى من الله الوحي والجواب ، يكون كل ما يأمر به عين الصواب .

فالذي يهب الروح يجوز له أنْ يقتل ، وهذا الحكيم نائب عن الواهب ويده يد الله[1] .

فضع رأسك أمامه مثل إسماعيـــل ، وأسْلِمْ الروح على خنجره فرحاً ضاحكاً .

حتى تبقى روحك ضاحكة إلى الأبد مثل روح أحمد الطاهر (في حضرة) الأحد .

إنّ العشاق يشربون كؤوس الفرح حينما يقتلون بأيدي الملاح .

٢٣٠ والملك لم يُرِق هـــذا الدم من أجل شهوته ، فـدع عنك سوء الظنّ والجدل .

إنك تظن أنه صنع فعلاً آثماً ، ولكن متى كانت التصفية تدع غِشّاً فيما تنشد له حالة الصفاء[2] ؟ »

ولمثل تلك الحال كانت الرياضة ، وكانت المعامـــلة الخشنة ، فهي كالكور تنقـّي الفضّة مما علق بها من شوائب .

ومن أجلها كان الامتحان الذي يميِّز بين الطيِّب والخبيث ، فهو كالنار التي تُخلـِّص الذهب من الزبد !

ولو لم يكن فعله هذا من إلهام الإله ، لكان كلباً ضارياً لا ملكاً .

٢٣٥ (فهـــذا الملك) كان مُنَزّهـا عن الشهوة والحرص والهوى ،

---

(١) لعل في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى . « إن الذين يبايعونك إنمـــا يبايعون الله ورسوله » وكذلك إلى قوله تعالى « ومـــا رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أي متى كان مثل هذا الملك الذي بلغ حالة الصفاء يصنع فعلاً آثماً .

وقد صنع خيراً كان ظاهره الشرّ .

فإذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر ، فقد كان في عمله هذا مائة صواب[1] .

وقد خفي هذا على وهم موسى ، مع كلّ ما كان له من نور وفضل ، فلا تَطِرْ أنت بلا جناح .

(إنّ فعلة الملك تلك) وردة حمراء ، فلا تُسَمِّها دماً ! وهـذا الملك سكران بالحكمة فلا تقل إنه مجنون !

فإذا كان هذا الملك قد قصد بفعله هذا إراقة دم مسلم ، فأنا كافر لو ذكرت اسمه !

٢٤٠ فإنّ العرش يهتز إذا مُدح الشقيّ ، ويسوء بهذا المدح ظنّ التقى .

لقد كان ملكاً ، وكان واسع الإدراك . وقد كان من الخاصّة ، خاصّة الله .

وإنّ الشخص الذي يقتله ملك مثل هـذا ، يكون مآله الى الحظّ السعيد ، والجاه الرفيع .

فلو لم يكن الملك قد رأى أنّ نفع هـذا الرجل في قهره ، فكيف يكون هذا اللطف المطلق باحثاً عن القهر ؟

إنّ الطفل يرتعد أمام إبرة الحجام ، ولكن الأم المشفقة يسعدهـا مثل هذا الألم .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف حكاية عن الخضر : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (١٨ : ٧٩) .

٢٤٥ فهو يأخذ نصف حياة ، ويعطي بـــدلاً منه مائة حياة ، بل هو يعطي ما ليس يخطر لك في بال .

إنـّك تتخذ من نفسك مقياساً للأمور ، ولهذا وقعت بعيداً ، بعيداً ، فتعمّق في تأملـّك .

حكاية البقال والببغاء ، وإراقة الببغاء الزيت في الدكان

كان في سالف العصر بقال ، وكان له ببغاء حسن الصوت أخضر اللون متكلـّم .

وكان هذا الببغاء (يقف) على الدكان حارساً له ، ويحـدّث التجار جميعاً بلطيف المقال .

فقد كان ناطقاً في خطاب الآدميين ، كما كان حاذقاً في غناء الببغاوات .

٢٥٠ (وذات مرة) قفز من ناحية الدكان إلى ناحية أُخرى ، فأراق زجاجات زيت الورد .

وجاء صاحبه من ناحية المـــنزل ، وجلس على الدكان فارغ البال كأنه من السادة .

فرأى الدكان قد غمره الزيت ، وثيابه لزجة ، فضرب الببغاء على رأسه ، فصار أقرع من الضرب .

وامتنع الببغاء عن الكلام بضعة أيام ، فأصبح الرجل البقال يتأوه من الندم .

فكان يقتلع شعر لحيتـــه ويقول : « وا أسفاه ! إنّ شمس نعمتي أصبحت تحت السحاب .

٢٥٥ ليت يدي كانت قد كسرت في تلك اللحظة ! كيف ضربت هذا الحلو اللسان على رأسه ؟ » .

وجعل يعطي الهدايا لكل درويش لعلّه يسترد نطق طائره .

وبعد ثلاثة أيام من الحيرة والألم ، كان يجلس على الدكان كأنه يائس .

وكان يظهر للطائر كل لون من العجائب ، لعله يبدأ النطق من جديد .

(وفي تلك اللحظة) كان درويش عاري الرأس يمر ، وكان رأسه خالياً من الشعر كأنه ظهر طاس أو طست .

٢٦٠ فنطق الببغاء في ذلك الوقت وصاح بالدرويش : « يا فــــلان ! لماذا اختلطت أيّها الأقرع بأمثالك من القرع ؟ لعلك أرقت الزيت من الزجاجة » .

فأضحك قيا'سه الخلق ، إذ أنّه ظنّ نفسه مثل صاحب الدلق[1] .

فلا تتخذ من نفسك مقياساً لأحوال الطاهرين ، حتى ولو تشابهت في الكتابة كلمة « شير » بمعنى أسد و « شير » بمعنى لبن .

ولهذا السبب ضلّت جملة أهل العالم فقليل من النــاس من يعرف أبدال الحق .

٢٦٥ فقد ادّعوا أنّهم مساوون للأنبياء ، وظنّوا أنفسهم مثل الأولياء. وقــــالوا « : أنظروا ! إننا بشروهم بشر ، ونحن وإيّاهم أسارى للنوم والطعام » .

ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .

---

(١) الدلق هو الخرقة ، وصاحب الدلق هو الدرويش .

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد ، ولكن يجيء من بعضهـا اللدغ ومن بعضها الآخر يأتي العسل .

والغزلان نوعان كلاهما يأكل العشب ، ويشرب الماء ، ولكنّ أحدهما يجيء منه البعر ، ومن الآخر يأتي المسك المصفّى !

٢٧٠ ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد ، ولكنّ أحدهما خال ، والآخر (حافل) بالسكر .

فتأمّل مائة ألف من أمثال هذه الأشياء ، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً !

فهذا يأكل فتتولّـد منـــه القذارة ، وذاك يأكل فيصبح كلّـه نوراً إلهيّاً !

وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذاك يأكل فيفيض منه عشق الأحد !

وهذه أرض طيّـبة ، وتلك مالحة رديئة . وهذا ملك طاهر وذاك شيطان ووحش ضار .

٢٧٥ فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز ، فالماء الملح والماء العذب شبيهان في الصفاء !

وليس يدري الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه ، فهو الذي يعرف الماء العذب من الماء الملح .

(فمن النـــاس) من يقيس السحر بالمعجزة ، فيظن أنّ كليهما مبنيّ على المكر .

فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصى مثل عصاه .

لكنّ بين هذه العصى وتلك العصى فرقاً واسعاً ! وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم .

٢٨٠ فهذا العمل تشيّعه لعنة الله ، وذاك العمل تقابله رحمة الله .

إنّ الكفار – لمرائهم – ذوو طباع كطباع القردة . والطبع (السيء) آفة داخل الصدر .

فالقرد يفعل ما يفعله الناس ، ويحكي ما يراه منهم كلّ لحظة .

وهو يظنّ أنّه قام بما يقوم به الإنسان ، ومتى كان هذا العنيد يدرك الفرق ؟

فالإنسان (الفاضل) يعمل بأمر (الله) والقرد يعمل من أجل العناد .

فاحثُ التراب على رؤوس هؤلاء المعاندين .

٢٨٥ إنّ المنافق يلتقي مع المؤمن في الصلاة ، وذلك للنزاع والمنافسة ، وليس من أجل الضراعة !

ففي الصلاة والصيام والحج والزكاة (ترى) المؤمنين في (صراع) مع المنافقين (يتراوح) بين النصر والهزيمة .

وسوف يكون النصر في العاقبة للمؤمنين ، وتكون الهزيمة في الآخرة للمنافقين .

وإذا كان هذان الفريقان يلعبان معاً لعبة واحدة ، فإنّهما (مختلفان) معاً اختلاف المروزي[1] والرازي[2] .

فكل منهما يتجه إلى مقامه ، وكل منهما يمضي في السبيل التي تتفق مع اسمه .

٢٩٠ والمؤمن إذا وُصف بالإيمان سعدت روحه ، وإذا نُعت بالنفاق

(١) نسبة إلى مدينة مرو . (٢) نسبة إلى مدينة الريّ .

تأجّجت نار الغضب في نفسه .

واسم المؤمن محبوب لذاته ، وأما المنافق فاسمه بغيض لآفاته .

فحروف كلمة « مؤمن » ليست في حدّ ذاتها حروفاً مشرّفة ، ولفظ مؤمن ليس إلا وسيلة للتعريف بالمؤمن .

فإذا سمّيت المؤمن منافقاً ، فإنّ هذا الاسم الخسيس يلدغه في باطنه كأنّه عقرب .

ولو لم يكن هذا الاسم مشتقّاً من جهنم ، فلماذا يحسّ المرء فيه مذاق جهنم ؟

٢٩٥ وليس قبح هذا الاسم (نابعاً) من حروفه ، كما أنّ ملوحة ماء البحر ليست من الوعاء الذي يحتويه .

فالحرف كالوعاء والمعنى فيه كالماء ، وبحر المعاني عند الله الذي عنده أمّ الكتاب .

والبحر الملح والبحر العذب في هذه الدنيا بينهما برزخ لا يبغيان [1] .

واعلم أنّ كلا هذين البحرين ينبعان من أصل واحد ، فدعهما وامضِ حتى تدرك أصلهما .

ولن يفيدك الاعتبار في تميز الذهب الخالص من الذهب المشوب ما لم يكن لديك محكّ لذلك .

٣٠٠ وكلّ من وضع الله له محكّاً في روحه فإنّه يمحّص به كل يقين من الشكّ .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : «مرج البحرين يلتقيان برزخ لا يبغيان » . (٥٥ : ١٩) .

(فالانسان) الحيّ لو وقع في فمه قذى ، فإنّه لا يستريح حتى يلفظه .

فلو دخلت الفم وسط آلاف من اللقم قطعة صغيرة من القذى فإن حسّ الرجل الحيّ يتعقبها .

إنّ حسّ الدنيا سلّم لهذا العالم ، وأما حسّ الدين فهو سلّم السماء .

فاطلب صحة حسّ الدنيا من الطبيب ، والتمس صحة حسّ الدين عند الحبيب .

٣٠٥ وصحّة حسّ الدنيا تجيء من سلامة البدن ، وأما صحة حسّ الدين فتأتي من خرابه .

وإنّ طريق الروح يخرّب الجسم، ولكنّه يعود فيعمره بعد هذا التخريب .

(فهو كمن) خرب داراً من أجل كنز من الذهب ، ثم زادها عمراناً بذلك الكنز ذاته !

(أو كمن) قطع الماء وطهّر مجرى النهر ، ثم عاد فأجرى ماء الشرب فيه .

(أو كمن) شقّ الجلد وانتزع منه رأس الحربة ، فنما على الجرح بعد ذلك جلد جديد .

٣١٠ (أو كمن) هدم القلعة ، وأخذها من الكفار ، ثم أقام على أرضها مائة برج وسدّ .

ومن ذا الذي يصف صنيع من لا شبيه له ؟ إنّ ما قلته ليس إلا ما تمليه الضرورة !

فهو حيناً يظهر بتلك الصورة ، وحيناً بضدّها . فليس في أمور الدين إلا ما يبعث الحيرة .

وليست هذه الحيرة حيرة من يوليه ظهره ، وإنما هي حيرة المحبّ أمام الحبيب ، والغرق (في لجة حبّه) والسكر (بعشقه) .

فمن الناس من ولّى وجهه نحو الحبيب ، ومن الناس من ليس وجهه إلا وجه نفسه .

٣١٥ فانظر إلى وجه كلّ إنسان ، وكن منتبهاً ، فلعلّك تغدو من التأمل عارفاً بالوجوه .

ولما كان كثير من الأبالسة يظهرون في صورة الإنسان ، فليس يليق بالمرء أن يمدّ يده لكل يد .

ذلك لأنّ الصياد يصطنع الصفير ، لكي يوقع الطائر في حبائله .

فيسمع الطائر صوت أبناء جنسه . فيجيء من الهواء فيجد الشبكة والسكين .

إنّ الرجل اللئيم يسرق لغة الدراويش ليتلو على البسطاء أسطورة منها (يخدعهم بها) .

٣٢٠ وإن عمل الرجال لنور وحرارة ، وأما عمل الأخسّاء فاحتيال ووقاحة !

فقد يُصنع الأسدُ من الصوف لأجل التسول ، وقد خلع بعض الناس على مسيلمة لقب أحمد !

فبقى لمسيلمة لقب الكذّاب ، ودام لمحمد نعت أولي الألباب .

إنّ شراب الحق ختامه المسك المصفّى ، وأما الخمر فختامها النتن والعذاب .

حكاية ملك اليهود الذي كان يقتل النصارى بسبب تعصبه

كان لليهود في سالف الزمان ملك ظالم ، وكان عدواً لعيسى ، ومهلكاً للنصارى .

٣٢٥ وكان العهد عهد عيسى ، والدور دوره ، وليس عيسى إلا روح موسى وموسى روحه .

ولكنّ هذا الملك الأحول فرّق بين هذين الرفيقين الإلهيين في طريق الله .

لقد قال أستاذ (لتلميذ) أحول : « تقدّم واذهب ، واحضر من الغرفة تلك الزجاجة » .

فقال الأحول : « أيّا من هاتين الزجاجتين أحضر لك ؟ ألا فلتوضّح لي ذلك الأمر » .

فقال الأستاذ : « ليس هناك زجاجتان ، فاذهب ودع الحول ، ولا تشاهد الأشياء أكثر من حقيقتها » .

٣٣٠ فقال التلميذ : أيها الأستاذ ! لا توجّه هذا الطعن إليّ . فقال الأستاذ : « اكسر إحدى هاتين الزجاجتين » .

لقد كانت هناك زجاجة واحدة ، ظهرت في عينيه اثنتين ، فلما كسرها

لم تبق أمامه زجاجة أخرى .

فهو حين كسر تلك الزجاجة مضت الزجاجتان من أمام عينيـه .

وهكذا يصير المرء أحول من الهوى والغضب !

فالغضب والشهوة يجعلان الرجل أحول ، وهما يصرفان الروح عن استقامتها .

فإذا حلّ الغرض احتجب الفضل ، وغشى العين مائة حجاب من القلب .

٣٣٥ ومتى يميز القـــاضي بين الظالم والمظلوم إذا ترك الرشوة تستقرّ في قلبه ؟

لقد صار الملك من الحقد اليهودي أحول على تلك الصورة ، فالأمان يارب الأمان .

فقتل مائة ألف من المؤمنين المظلومين (قائلا) : « إنـّني أنا الملجأ والظهير لدين موسى » .

الوزير يعلّم الملك المكر

وكان لهـذا الملك وزير كافر مخادع ، كان يستطيـع أن يربط في الماء عُقداً !

فقال للملك : « إنّ النصارى يعملون للمحافظة على أرواحهم ، ولهذا فهم يخفون دينهم عن الملك .

٣٤٠ فلا تقتلهم ، فما في قتلهم فائدة ، فالدين لا رائحـــة له ، فلا هو مسك ولا هو عود !

فسرُّهم مطويّ في مائة غلاف ، وظاهرهم مثلك حين يكونون معك ، وأما باطنهم فعلى خلافك » .

فقال له الملك : « قل لي ما التدبير ؟ وما الحيلة في هـذا المكر وذلك التزوير ؟

حتى لا يبقى في هذا العالم نصرانيّ يتبـع هذا الدين في الظاهر أو في الخفاء » .

فقال الوزير : « أيها الملك ! اقطع أذنيّ ويديّ ، وشقّ أنفي بحكم مرّ (تصدره) .

٣٤٥ وبعد ذلك أوقفني تحت حبل المشنقة ، حتى يشفع لي أحد الشفعاء !
وليكن فعلك هـــذا في مكان عام ، على رأس طريق تتفرع منه الطرق إلى أربـع جهات .

وحينذاك أخرجني من حضرتك إلى مكان بعيد ، حتى أوقع بينهم الشرّ والفتنة .

خداع الوزير للنصارى

وسوف أقول لهم : « إنـّني في السرّ نصرانيّ . إنك تعرفني يا إلهي ! يا عالم الأسرار !

وقد علم الملك بإيماني ، فقصد بتعصبه أن يقضي على حياتي .

٣٥٠ لقـــد أردتُ أن أخفي ديني عن الملك ، فأظهرت أنني أدين بدينه .

ولكنّ الملك تنسم رائحة أسراري ، فأصبحت أقوالي أمامه موضع الشك والتهمة .

فقال لي : « إنّ قولك هذا كخبز به إبرة ، وإنّ بين قلبي وقلبك نافذة .

وقد اطلعت على (حقيقة) حالك من تلك النافذة ، فرأيت حالك ، فلم يعد يخدعني مقالك » .

ولو لم تكن روح عيسى ملجئي ، لقطعني الملك إرباً ، على طريقة اليهود .

٣٥٥ وإني – من أجل عيسى – أهب روحي ، وأقدّم رأسي ، فإني مدين له بمائة ألف من المنن .

ولست أبخل على عيسى بروحي ، ولكنّني ملم غاية الإلمام بدينه .

فأدركت أن من الحيف أنّ هذا الدين الطاهر يلقي الهلاك بين الجهلاء .

فالشكر لله ولعيسى ، إذ أصبحتُ لهذا الدين الحقّ هاديا .

ولقد خلصت من اليهود واليهوديّة ، حتى عقدت الزنّار حول وسطي .

٣٦٠ إن الدور دور عيسى أيها الناس ، فاستمعوا بأرواحكم إلى أسرار دينه » .

فصنع الملك بالوزير ما أشار به عليه ، وبقي الخلق في عجب لهذا الأمر .

ودفع به إلى النصارى ، فشرع الوزير بعد ذلك في الدعوة .

كيف تقبّل النصارى مكر الوزير

فاتجه إليه الآلاف من النصارى ، وأخذوا يجتمعون في داره .

فأوضح لهم في الخفاء سر الإنجيل والزنّار والصلاة . .

٣٦٥ فقد كان في الظاهر واعظ أحكام ، ولكنّه كان في الباطن صفيراً وفخّاً .

ولمثل تلك الحال التمس بعض الصحابة من الرسول أنْ يبين لهم مكر النفس التي هي كالغول .

فسألوه : «ماذا يختلط من الأغراض الخفيّة بالعبادات وبإخلاص الروح ؟»

ولم يستفسروا منه عن فضل الطاعة ، كما لم يسألوه عن مكان العيب الظاهر[1] .

فعرفوا منه كل دقائق مكر النفس ، كما يُعرف الوردُ من الكرفس .

٣٧٠ فكان أن أثار وعظه القلق والحيرة حتى في نفوس المتشدّدين من الصحابة .

متابعة النصارى للوزير

لقد تبعه النصارى بكلّ قلوبهم ، فما أعظم ما تكون قوة التقليد العام !

وغرسوا حبّه في صدورهم ، وكانوا يظنونه نائباً لعيسى !

---

(١) هذا ترجمة نص البيت كما ورد في طبعة نيكولسون . وهو يبدو غامضاً وسط البيت السابق عليه واللاحق له . وقد أورد نيكولسون في الحاشية رواية وردت في أحد المخطوطات القديمة يقرأ البيت فيها على النحو التالي :

فضل طاعت را بجستندي ازو عيب ظاهر را بجستندي كه كو

فتكون الترجمة : « لقد كانوا يستفسرون منه عن فضل الطاعة ، كما سألوه عن العيب الظاهر وأين يكون » .

وفي رأيي أن هذه الرواية أصدق وأبعد عن التحريف .

كان هذا الرجل في السرّ هو الدجّال الأعور اللعين ! يا إلهي ! إنّك للضارعين نعم المعين .

ربّاه ! إنّ أمامنا مائة ألف من الشِّباك والحبّ ، ونحن كالطيور الحريصة الجياع .

٣٧٥ فنحن في كلّ لحظة نقع في حبالة جديدة ، حتى ولو صار كلّ منا بازاً أو عنقاء .

وأنت – يا من لا حاجة بك إلينا – تخلّصنا في كل لحظة ، ولكننا نعود ، فنقع في حبائل أخرى .

فنحن نضع القمح في هذا المخزن ، بيد أننا لا نكاد نجمع القمح حتى نفقده .

وليس ينتهي بنا التفكر آخر الأمر إلى أن هذا الخلل ، الذي يقع بالقمح ، جاء من مكر الفأر !

فمنذ صنع الفأر جحراً في مخزننا ، خرّب بخداعه هذا المخزن .

٣٨٠ فاعملي أيتها النفس أولاً على دفع شر الفأر ، ثم اجتهدي – بعد ذلك – في جمع القمح .

واستمعي من أخبار صدر الصدور[1] إلى قوله : « لا صلاة إلا بحضور القلب » .

ولو لم يكن في مخزننا فأر سارق فأين قمح أعمالنا طوال أربعين عاماً ؟

ولِمَ لا يتجمع صدقنا كل يوم رويداً رويداً في مخزننا ؟

---

(١) محمد رسول الله .

فكم من شرر ينطلق من الحديـــد فيتقبّله ذلك القلب المحـــترق ويجتذبه[1] !

٣٨٥ ولكنّ في الظلمة لصّاً خفيّاً يضع إصبعه على تلك الشهب

فيطفؤها شهاباً شهاباً[2] ، حتى لا يشرق سراج من الفلك .

ولو أمسكت بأقدامنا آلاف الفخاخ ، فلا ضير علينا حين تكون أنت معنا .

فأنت في كل ليـــلة تطلق الأرواح من أسر الجسد ، وتقتلع ألواح (العقول الواعية) .

فتنطلق الأرواح كلّ ليلة من هذا القفص ، وتستريح من الحكم والقول والقصص .

٣٩٠ وفي الليل لا يشعر بالسجن نزلاؤه ، كما لا يحسّ أهـــل السلطان بسطوتهم !

وليس (عند النوم) همّ ، ولا تفكير في الخسارة ولا الربح ، وليس فيه خيال هذا الإنسان أو ذاك .

وتلك حال العارفين ، دون نوم ، وقد قال تعالى : « تحسبهم أيقاظاً

---

(٢٠١) إن احتكاك الأرواح الصادقة بعضها ببعض يولّد الشرر ، كما يتولّد الشرر من احتكاك الحديد والصخر . والقلب يتقبل الشرر الذي يتولد من تلك الاحتكاكات الروحية ، ويسعى إلى اجتذابه . لكنّ هذا الشرر لا يصل إليه ، لأنّ لصّاً خفيّاً كامناً في الظلام (هو الشهوات المادية ، والانصراف عن الروح والتعلق بما سواها) يطفىء ذلك الشرر ولا يمكنه من الوصول الى القلب ، فيكون سبباً في حرمان القلب من تلك الإشراقات الروحية .

وهم رقود »[1] فلا تكن منكرا .

فهم نائمون عن أحوال الدنيا بالنهار وبالليل ، وهم كالقلم في قبضة الرب.

فمن لا يرى القبضة عند الكتابة ، يظن الكتابة من حركة القلم .

٣٩٥ فتلك لمحة من حال العارف بيّنها (الله) ، وأما (عامة) الخلق فقد غلبهم النوم الحسّي .

فمضت نفوسهم في صحراء لا مثيل لها ، واستراحت أرواحهم وأبدانهم .

ولكنّك بالصفير تمدّ شباكك من جديد ، فتقودهم جميعاً إلى العدالة والقاضي[2] .

إن فالق الإصباح يعيدهم من تلك الديار إلى عالم الصورة ، كما يصنع إسرافيل[3] .

فيجعل للأرواح المنطلقة أجساماً ، ويجعل الأجسام من جـــديد حبالى بأرواحها .

٤٠٠ فهو (في النوم) يجعل جواد الروح عارياً من سرجه ، وهذا هو السر في قول القائل « النوم أخو الموت » .

ولـكي تَرجع هذه الأرواحُ من جديد عند طلوع النهار فإنّه يضع في أقدام جيادها وثاقاً طويلاً .

حتى يجرّها عند الصباح من ذلك المرج ، ويقتادها من مرعاها لتحمل

(١) سورة الكهف (١٨:١٨)

(٢) أي ترجعهم ثانية إلى عالم التكليف وتجعلهم من جديد مسئولين عن أعمالهم. والصفير هنا هو الصوت الذي يحدثه الصياد ليقود الطيور نحو الشباك .

(٣) هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم الحشر .

أعباءها من جديد .

فليت الله احتفظ بأرواحنا ، كما صنع بأهل الكهف ، أو كما حفظ سفينة نوح .

حتى يتخلّص من طوفان اليقظة والوعي ذلك الضمير وهـذه العين وتلك الأذن .

٤٠٥ وكثيرون هم أصحاب الكهف في هذه الدنيا ، وهم الآن إلى جانبك أو في مواجهتك .

فالغار معهم ، والرفيق يسامرهم ، ولكنّ الله ختم على بصرك وسمعك ، فأيّ جدوى لك من وجودهم ؟

قصة رؤية الخليفة لليـــلى

لقد قال الخليفة لليلى : « أأنتِ التي صار المجنون من أجلك ذاهل الفكر غويّا ؟

إنـّك لست أفضل من الحسان الأخريات ! » فقالت له ليلى : « صه فإنـّك لست المجنون » .

فكل من كان منتبهاً (للعالم الماديّ) ، فهو في غفوة (عن عالم الروح) ، ويقظته أسوأ من نومه .

٤١٠ وعندما لا تكون أرواحنا مستيقظة للحق ، فإنّ يقظتنا تكون مثل إغلاقنا الباب [1].

---

(١) يقصد سد الطريق أمام التأثيرات الإلهية .

والنفس كل يوم من لكز الخيال وضربه، ومن الضرّ والربح وخوف والزوال

لم يبق لها صفاء ولا لطف ولا بهاء، ولا طريق سفر نحو السماء .

وإن الذي يعقد أملاً على كل خيال ويناجيه، فهو إنسان قد استغرق في النوم .

فالشيطان يرى الحور في منامه، فيصبّ ماء شهوته على ذلك الوهم .

٤١٥ وهو إذ قد نثر بذور نسله بتلك التربة المالحة[١] يثوب إلى رشده وقد فرّ منه ذلك الخيال .

ويصيبه لذلك ألم في الرأس وتلوث في الجسد، فواهاً لتلك الصورة الظاهرة الخفية[٢] .

إن الطائر يحلّق في السماء وظله يجري على الأرض مرفرفاً كأنه طائر .

والأبله يسعى لصيد ذلك الظلّ، فيعدو وراءه حتى تنفد قواه .

فهو لا يدري أنه يطارد ظلاً لطائر الجوّ، ولا يعلم أين أصل هذا الظلّ .

٤٢٠ وهو يرمي بالسهام نحو هذا الظلّ حتى تفرغ جعبته لطول السعي والطلب .

وقد فرغت جعبة عمره فمضى العمر، وهلك (الصياد الأبله) من الجري سعياً وراء صيد الظلّ .

فلو كان ظلّ الله راعيه لخلّصه من الخيال وظلّه .

---

(١) أضاعها هباء .

(٢) أي صورة الحور التي تراءت له المنام بدون أن تكون لها حقيقة .

وليس ظلّ الله سوى عبد الله الذي يكون ميتاً بالنسبة لهذا العالم ، حيّاً بالله .

فسارعْ إلى التعلّق بذيله – دون أنْ يخامرك في ذلك ريب – حتى تنجو في آخر الزمان .

٤٢٥ والظلّ في قوله تعالى : « كيف مدّ الظل[١] » صورة أولياء الله ، وهذه هي الدليل المنبىء عن نور شمس الله .

فلا تمش في ذلك الوادي دون أن يرشدك هذا الدليل ، وقل « لا أحب الآفلين[٢] » مثلما قال الخليل .

دع الظلّ واقصد الشمس ، وتعلّق بذيل شمس تبريز[٣] .

وإذا لم تكن تعرف السبيل إلى هذا السور وذلك العرس فسل ضياء الحق حسام الدين .

فإذا أمسك الحسد بخناقك وأنت في الطريق (فاعلم) أن إبليس ذو غلوّ في الحسد .

٤٣٠ فهو من الحسد يزدري آدم ، وهو من الحسد يشنّ الحرب على السعادة .

وليس في الطريق عقبة أصعب من الحسد ، فما أسعد من لم يتّخذ منه رفيقاً !

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً » (الفرقان ، ٢٥ : ٤٥) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً فلما أفل قال لا أحب الآفلين » (الانعام ، ٦ : ٧٥) .

(٣) يقصد شمس الدين التبريزي .

واعلم أنّ هذا الجسد منزل الحسد ، ولهذا تلوّث ساكنوه بالحسد .

ومع أنّ الجسد منزل الحسد فإن الله طهّره وزكّاه .

وقوله تعالى : « طهِّرا بيتي[1] » بيانٌ لطهر الجسد ، فهو كنز النور وإن كان سرّه من التراب .

٤٣٥ فإن أنت سلّطت المكر والحسد على من كان بريئاً من الحسد فإن حسدك هذا يجلّل قلبك بالسواد .

فكن تراباً تحت أقدام رجال الله ، واحث التراب على رأس الحسد مثلما نفعل .

بيان حسد الوزير

لقد كانت طبيعة هذا الوزير الصغير من الحسد ، ولذلك ضحّى في سبيل الباطل بأذنيه وأنفه .

وكان أمله أن يسري سمه من إبرة الحسد إلى نفوس هؤلاء المساكين .

وإنّ من يجدع أنفه من جرّاء الحسد يجعل نفسه بدون أذن ولا أنف[2] .

٤٤٠ فالأنف هي التي تتنسم الأريج ، فيقودهـا ذلك الأريج إلى جانب الديار .

ومن لم يدركه الأريج فهو بلا أنف ، والأريج المقصود هنـا دينيّ لا دنيويّ .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين واركع السجود » . (البقرة ، ٢ : ١٢٥) .

(٢) يفقد الإدراك النفسيّ الى جانب فقدانه للادراك الحسي .

فاذا اشتمّ المرء الأرَج ، ولم يقم بالشكر عليـــه ، كان ذلك منه كفراً بالنعمة ، وصار كمن أكل أنفه .

فكـُنْ شاكراً ، وكـُنْ للشاكرين عبداً ، وكن في حضرتهم كالميت ولا تُبد حراكاً .

ولا تجعل ذخـيرتك من قطع الطريق كما فعل الوزير ، ولا تصرف الخلق عن الصلاة .

٤٤٥ إنّ ذلك الوزير الكافر صار ناصحاً في الدين ، فكان من مكره أن وضع الثوم في اللوزينج .

كيف فهم حذاق النصارى مكر الوزير

لقد كان كلّ صاحب ذوق يجد في قول هذا الوزير لذة مقترنة بالمرارة .

كان يقول كلاماً لطيفاً ممتزجاً بكلام خبيث ، فقد صبّ السم في شراب الورد .

كان في الظاهر يدعو الأرواح إلى الجدّ في السير على الطريق ، ولكنه كان يعود فيحثها على التراخي .

وهكذا ظاهر الفضّة ، فهو إن كان أبيض جديداً إلا أنه يلوّث بالسواد اليد والثياب .

٤٥٠ والنار ترى وجهها أحمر من الشرر ، ومع ذلك ، فانظر كيف ينشأ السواد من فعلها .

والبرق يبدو نوراً لمن نظر ، مع أنّ من طبيعته أن يخطف البصر .

فكل من لم يكن عارفاً صاحب ذوق (من النصارى) ، أصبح أسيراً لكلمات ذلك الوزير[1] .

ولقد ابتعد ذلك الوزير عن الملك ست سنين ، كان في أثنائها ملجأ لأتباع عيسى .

فأسلم له الخلق دينهم وقلوبهم ، وكانوا يبذلون الروح وفق أمره ، وطوع حكمه .

المراسلة في الخفاء بين الملك والوزير

٤٥٥ لقد جرت بين الملك وبين الوزير الرسائل ، وطمأنه الوزير في الخفاء .

فكتب الملك يقول : « لقد حان الوقت — أيّها العزيز — فسارع ، وطمئن خاطري » .

فأجاب الوزير قائلاً : « ها أنذا في هـذا العمل ، أيها الملك ! وإني لموقع الفتن في دين عيسى » .

بيان الأسباط الاثني عشر الذين تبعهم النصارى

لقد كان لقوم عيسى اثنا عشر أميراً يحكمونهم ويتولـّون أمورهم .

وكان كل فريق تابعاً لأميره ، وقد جعل منه الطمع عبداً لذلك الأمير .

٤٦٠ وهؤلاء الأمراء الإثنا عشر ، وأتباعهم صاروا عبيداً لذلك الوزير القبيح السمات .

---

(١) الترجمة الحرفية : « صارت كلمات ذلك الوزير طوقاً في عنقه » .

فكانوا جميعاً يثقون بقوله ، وكلهم كانوا يهتدون بسيره .

وكان كلّ أمير يرضى بأن يضحّي بالروح في التوّ واللحظة إذا طلب منه الوزير ذلك .

تخليط الوزير في أحكام الانجيل

فأعدّ طومارا باسم كل منهم وكتب في كلّ طومار خلاف ما كتب في الآخر .

فكان كل طومار ينطوي على أحكام تخالف ما جاء في غيره خلافاً يمتدّ من البداية إلى النهاية .

٤٦٥ ففي أحدها جعل طريق الرياضة والجوع ركناً للتوبة وشرطاً للرجوع .

وفي طومار آخر قال : « إنّه لا جدوى من الرياضة ، وإنّه لا نجاة في ذلك الطريق إلا بالجود » .

وفي طومار ثالث قال : « إنّ جوعك وجودك إشراك منك بمعبودك .

وكل ما جاوز التوكل والتسليم التام في حالي الغم والسرور فليس إلا مكراً وخداعاً » .

وفي طومار قال : « إنّ العبادة هي الواجب (المفروض على العبد) أما التفكر في التوكّل فهو تهمة » .

٤٧٠ وفي طومار قال : « إنه ليس المقصود بأوامر الله ونواهيه أن يتبعها الناس ، وإنما هي بيان لعجزنا وبرهان عليه !

فإذا ظهر لنا عجزنا عن اتباعها ، أدركنا — إذ ذاك — قدرة الحقّ » .

وفي طومار قال : « لا تنظر إلى عجزك ! إنّ هذا العجز كفران بالنعمة ، فاحذره !

وانظر إلى قدرتك ، فإنّ هذه القدرة من الله ، وهي نعمة منه جلّ شأنه » .

وفي طومار قال : « دعك من هاتين الصفتين (القدرة والعجز) فكلّ ما اتسع له البصر فإنّه وثن » .

٤٧٥ وفي طومار قال : « لا تطفىء شموع الإبصار ، فإنّ البصر هو الشمع الذي (ينير الطريق) للتأمل الباطنيّ .

وإذا أنت تركت النظر ، وتركت الخيال ، كنت كمن أطفأ في منتصف الليل شمع الوصال » .

وفي طومار قال : « لا تخفْ وأطفىء هذا البصر ، تَلق عوضاً عنه مائة ألف من المشاهد !

فأنت بإطفائك شموع البصر تقوّي شموع روحك وتصبح ليلاك — لاصطبارك عنها — مجنونة بك .

فكل من ترك الدنيا زُهداً فيها ، أقبلت عليه الدنيا رويداً رويداً » .

٤٨٠ وفي طومار قال : « إنّ ما وهبك إياه الحق جعلك تجد مذاقه حلواً عندما أوجده لك .

لقد يَسّر لك ما أعطاك فخذه ، وانعم به ولا تُلق بنفسك إلى الآلام ! »

وفي طومار قال : « دع عنك كلّ ما يتصل بنفسك ، فإنّ قبولك طبع نفسك أمر لا يجوز وشر .

فهناك طرق مختلفة أصبح من اليسير طرُقها ، وكلٌ غدا يعتزّ بملته

اعتزازه بروحه .

ولو كان السير في طريق الحق يسيراً ، لـكان كلٌّ يهودي ومجوسي عارفاً بالله » .

٤٨٥ وفي طومار قال : « إنّ (الطريق) الميسّر هو الذي تكون فيـــه حياة للقلب وغذاء للروح .

فكل ما يوافق طباعنا الحسّية – عندما يمضي – لا يترك محصولاً ولا ثمرة ، شأن الأرض المالحة .

وليس لذلك من حاصل سوى الندم ، ولا يجيء بيعـه بشيء سوى الخسارة .

وكل ما لم يكن مُيسّر العاقبة فاسمه إذن يكون معسّر العاقبة » .

فتعلـّم (كيف تميز بين) المُيَسّر والمُعَسّر ، وتأمل في عاقبة الأمر جمال كل منهما ! » .

٤٩٠ وفي طومار قال : « اطلب مرشداً ، فلن يتحقق لك إدراك العاقبة بما لك من حسب .

فجميع أنواع الملل رأت العاقبة (على هواها) ، فلا جرم أن أصبح أتباعها أسارى الزلل .

وليس إدراك العاقبة (يسيراً) كإدارة نول يدويّ ، وإلا فكيف وقع الخلاف بين الأديان ؟ » .

وفي طومار قال : « إنـّك أنت المرشد لأنك تعرف المرشد !

فكن رجلاً ولا تكن مُسخّراً لغيرك من الرجال ، وامضِ ، وكن رابط الجأش ، وتخلـّص من حيرتك » .

٤٩٥ وفي طومار قال : « إنّ تلك الكثرة التي نراها شيء واحد ، وكلّ من رآها شيئين فهو رجل صغير أحول » .

وفي طومار قال : « كيف تكون المائة واحدا ؟ إنّ من يتصور ذلك ليس إلا مجنوناً » .

فكل قول قاله ، كان مناقضاً لأقواله الأخرى ! وكيف تتفق (هذه الأقوال) ؟ أيكون السم والسكّر شيئاً واحداً ؟

فإنْ أنت لم تكن قد انتهيت من التمييز بين السمّ والسكّر ، فكيف تستطيع أنْ تتنسم عبير التفرد والوحدانية ؟

وهكذا كتب ذلك العدوّ لدين عيسى إثني عشر دفتراً من هذا النوع ، على تلك الوتيرة .

بيان أن هذا الخلاف إنما هو في صورة السير وليس في حقيقة الطريق

٥٠٠ إنّه لم يكن مدركاً لوحدة اللون عند عيسى ، ولم يكن يميل إلى ذلك المزاج (اللونيّ) الذي احتواه وعاؤه .

فمن ذلك الوعاء الصافي صُبغ ثوب ذو مائة لون ، فصار ذا لون واحد متجانس ، كأنه الضياء[1] ! .

وليست هذه الوحدة اللونية من النوع الذي يجلب الملال ، بل هي على مثال السمك وهو في الماء الزلال .

ومع أن الأرض اليابسة تشتمل على آلاف من الألوان ، فإن الأسماك

---

(١) الضوء يمكن تحليله إلى ألوان عديدة ومع ذلك يبدو لوناً واحداً .

في حرب دائمة مع الجفاف .

وما السمك وما البحر في ذلك المثل الذي ضربناه حتى نشبه بهما المليك عز وجل ؟

٥٠٥ ففي هـــذا الوجود مائة ألف بحر وسمكة ، تسجد أمام ذلك الإكرام والجود !

فـكم من غيث عطاء همى ، فأصبح البحر بذلك الغيث ينثر الدرّ .

وكم شمس كرم أشرقت ، فتعلـّم منها السحاب والبحر معنى الجود .

وشمس الحكمة قد ضربت أشعتُها التراب والطين ، فأصبحت الأرض تتقبل البذرة (وتنبتها) .

والأرض أمينة ، فكل مازرعته فيها تجني ثمرة من جنسه دون غش أو خديعة .

٥١٠ وقد أخذت الأرض أمانتها عن تلك الأمانة (العلوية) ، فقد أشرقت عليها شمس العدل (الإلهي) .

وما لم يجيء الربيع بعلامة من الحق فإن الأرض لا تذيع أسرارها .

فهذا الجواد الذي وهب الجماد تلك المعرفة ، وهذه الأمانة ، وذاك السداد

يجعل جوده الجماد خبيراً ، ويجعل قهره العاقل ضريراً .

إن روحي وقلبي لا طاقة لهما بذلك الجيَشان ، فمع من أتحدث وليس في هذا العالم أذن تسمع ؟

٥١٥ فالأذن – أينما كانت – تصبح (بفضله) عيناً ، والحصى – حيثما كان – يصير (بفضله) دُرّاً !

إنه الكيماويُّ الحقّ ! فما الكيمياء (بجانب كيميائه) ؟

وهو مانح المعجزات ، فما السحر (بجانب معجزاته) ؟

وهذا الثناء منـّي هو تركٌ للثناء ! فهو دليل على وجودي (المنفصل) ، ومثل هذا الوجود خطأ .

فأمام وجوده لا بد أن يكون (كل شيء عدما)

فما الوجود أمامه ؟ إنه أعمى تعس كئيب اللون ! [١] .

فلو لم يكن أعمى لانصهر أمامـــه ، ولأدرك حرارة تلك الشمس (الإلهية) .

٥٢٠ ولو لم يكن أزرق اللون في ثياب الحداد ، لما كان ذلك الجانب منه يبقى جامداً كالثلج .

بيان خسارة الوزير في هذا المكر

إنّ هذا الوزير كان جاهلاً غافلاً مثل الملك ، فـكان يوجّه ضرباته نحو القديم الذي لا خلاص منه .

نحو هذا الإله ، الذي له من القدرة ، ما يجعله يخلق بنفخة منه مائة عالم كعالمنا !

فهو يُظهر لعينك مائة عالم كعالمنا ، حينما يجعل تلك العين مبصرة بنوره . فإذا كان هذا العالم يبدو أمامك عظيماً لا أول له ولا آخر [٢] ،

---

(١) حرفياً : أزرق اللون .

(٢) ترجمنا كلمة «بي بن» بعبارة لا أول له ولا آخر ومعناها الأصلي لا قاع له ولا قرار .

فاعلم أنّه لا يساوي ذرة أمام قدرة الله .

٥٢٥ إنّ هذا العالم سجن لأرواحكم ، فتنبهوا ، وسيروا نحو تلك الناحية ، فهناك أرضكم الرحبة ![1] .

فهذا العالم محدود ، وتلك بلا حدود ، ولكنّ الظواهر المـــادية ، والصور ، تقف حائلاً أمام تصوركم ذلك المعنى .

لقد كانت لفرعون آلاف من الرماح ، ولكنّ موسى حطمها جميعاً بعصا واحدة !

وجالينوس كانت له في الطب آلاف من طرق العلاج ، وكلها — أمام عيسى وَنفَسه — لم تكن إلا خرافة !

وكانت هناك آلاف من دفاتر الشعر ، ولكنّها جميعاً باءت بالعـار ، أمام حرف من (النبيّ) الأميّ .

٥٣٠ فإذا لم يكن المرءُ خسيساً ، فكيف لا يموت أمام مثل هذا الإله الغالب ؟

فـكم من قلب راسخ كالجبل بدّده ، وكم من طائر ذكيّ علقـــه من قدميه [2].

إنّ الطريق (إلى الله) لا يكون بشحذ الفهم والخاطر ، فلن ينال

---

(١) الأرض الرحبة هنا ترجمة لكلمة « صحراء » في النّص . فنحن لا نظن أنه يقصد هنا الصحراء بمعناها الضيق وانما هو يعني فيما نعتقد الأرض الواسعة المنبسطة . ويتضح هذا المعنى أيضاً في الشطر الأول من البيت التالي وفيه يقول : «فهذا العالم محدود وتلك بلا حدود » .

(٢) يريد بهذا البيت أن الذكاء وسعة الحيلة لا يفيدان صاحبهما أمام الله ما لم يصحبهما الإيمان .

فضل الله سوى الكسير [1] .

فكم من كانزين للذهب والفضة – يحفرون الأرض سعياً وراء الكنوز – أصبحوا (أسارى) ذلك الخيال ، كأنهم لحية ثور !

فما الثور حتى تصبح لحية له ؟ وما الأرض حتى تصبح عشباً لها ؟

٥٣٥ لقد مسخ الله امرأة ، وجعل منها كوكب الزهرة عندما أصفرّ وجهها لفعلة سوء (اقترفتها) [2] .

فإذا كان مسخاً ما أصاب تلك المرأة – إذ أصبحت كوكب الزهرة – فماذا يكون تحول الإنسان إلى تراب وطين ، أيها العنيد ؟

إن الروح كانت تسمو بك إلى الأفق الأعلى ، ولكنّك اتجهت إلى الماء والطين في أسفل سافلين !

فمسخت نفسك بذلك التسفل ، و (خرجت) عن ذلك الوجود (الروحي) الذي تحسده العقول .

فانظر إلى المسخ الذي عانيته ، كيف يبدو بالغ الحطة ، إذا قورن بالمسخ الذي أصاب تلك المرأة .

٥٤٠ لقد اندفعت بجواد الهمة نحو النجوم ، ولم تدرك أنّ آدم سجدت

---

(١) ليس المقصود بالكسير هنا الذليل أمام الناس وإنما المقصود به العبد الخاضع أمام خالقه .

(٢) إشارة إلى قصة وردت في تفسير قوله تعالى : « ومــا كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين » .

يقال إن هذين الملكين صارا مثل البشر وركبت فيهما الشهوة ، فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على الشر والمعاصي ، ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما وقد حُكي هذا عن اليهود .

له الملائكة ! [1].

إنك ابن آدم آخر الأمر فإلى متى تظن الحطة شرفاً أيها الخلف السيء ؟

وإلام تقول : « لسوف أملك العالم ، وأجعل نفسي ملء الدنيا على الدوام » .

فلو امتلأ العالم بالثلج من أقصاه إلى أقصاه ، فإنّ حرارة الشمس تصهر ذلك الثلج كله بلفحة واحدة منها !

وإنّ شرارة واحدة من (رحمة) الله تمحو وزر هـــذا الوزير ، ومائة مثله ، بل ومائة ألف من أمثاله .

٥٤٥ إنه هو الذي يجعل من الوهم حكمة ، ويجعل من الماء المُسمّم شراباً (طهورا) .

وهو الذي يجعل الظنون يقيناً ، وينبت المحبة من أسباب العداوة والبغضاء !

وهو الذي رعى إبراهيم في النـــار ، وهو الذي يُحلّ الأمن في الروح محلّ الخوف !

وإني لحائر من إعدامه للأسباب والوسائل ،(وإخفائها عني) فأنا كالسوفسطائية في خيالاتي عنه (لست متحقـّقاً من شيء) .

كيف دبر الوزير مكراً آخر لاضلال هؤلاء القوم

لقد دبَّر هذا الوزير في ذهنه مكراً آخر ، فترك الوعظ وجلس في الخلوة .

---

(١) يعني أن الانسان أهم من كل ما يحيط به من مظاهر الوجود المادي حتى ولو كانت أفلاك السماء . فهو يعظم أموراً هو ذاته أهم منها .

٥٥٠ فألقى بنار الشوق في قلوب مريديه ، وكان مقامه في الخلوة أربعين أو خمسين يوماً .

فجُنّ الخلقُ لشوقهم إليه ، ولافتراقهم عن أحواله وأقواله وذوقه .

فكانوا يتضرعون إليه ويبكون ، وأما هو فقد انثنى ظهره من الرياضة في الخلوة .

فقالوا له : « ليس لنا نور بدونك . وكيف تكون أحوال الأعمى إذا حرم من عصاه ؟

فمن أجل إكرامك لنا ، وبحقّ الله ، لا تُبقنا مفترقين عنك أكثر من ذلك .

٥٥٥ فنحن كالأطفال ، وأنت لنا المربّي ، وظلّك وارف منبسط فوق رؤوسنا » .

فقال لهم : « إنّ روحي ليست بعيدة عن مريديّ ، ولكنّني لا أملك إذناً بالخروج ! »

فأقبل هؤلاء الأمراء للشفاعة ، وجاء أولئك المريدون في حالة سيئة .

وقالوا : « أيّ طالع سوء حاق بنا أيها الكريم ! لقد أصبحنا بدونك أيتاماً ، (محرومين) من قلوبنا ودينا .

إنك تقدم الأعذار ، ونحن من الألم تتصاعد زفراتنا الباردة ، من قلوبنا المحترقة .

٥٦٠ فقد اعتدنا على قولك الجميل ، واغتذينا من لبان حكمتك .

فبحق الإله لا تلتزم معنا هذه الجفوة ، واصنع الخير بنا اليوم ، ولا تؤجّله إلى الغد .

أفيرضى قلبك ، لمن منحوك قلوبهم ، أن يعودوا في النهـاية أصفار اليدين بدونك ؟

إنهم جميعا يتلوون (من الألم) ، كالسمك على اليابسة ، فارفع ذلك السدّ وأطلق الماء من النهر !

يا من ليس له في الدنيا نظير ! بحقّ الإله كن للخلق عوناً » .

كيف رفض الوزير طلب مريديه

٥٦٥ قال : « حذار يا أسارى القول والبيان ! يا من تنشدون الوعظ (المبنيّ على) حديث اللسان واستماع الأذن .

وضعوا القطن في أذن حسّكم الأسفـــل ، وحُلُّوا رباط الحس من أمام أعينكم .

إن أُذن الرأس حجاب لأذن الباطن ، فما لم تُصِمّ أُذن الحسّ بقيتْ أُذن الباطن صماء .

فلتخلّصوا أنفسكم من الحسّ والأذن والهواجس ، حتى تسمعوا نداء « ارجعي[1] » .

فما دمت مشغولاً في اليقظة بالقيل والقـال ، فكيف يتأتى لك أن تدرك نفحة من حديث المنام ؟

٥٧٠ إن قولنا وفعلنا هما السلوك الظاهر ، وأما السلوك الباطن فمكانه أعالي السماء .

فالحس لم ير إلا اليابس ، لأنه ولد من اليابس ، وأما عيسى الروح ، فقد مر بقدميه على الماء !

---

(١) نداء العودة إلى عالم الروح . وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية » . (٨٩ : ٢٧ ، ٢٨) .

فالجسم اليابس ، من شأنه أنْ يسير علـى اليابسة ، وأما الروح فمجراها في صميم البحر .

وما دمت قد قضيت عمرك في طرق اليابسة ، تارة في الجبل ، وتارة في البحر ، وأُخرى في الصحراء ،

فمن أين لك أن تجد ماء الحياة ، وأنّى لك أن تشق عباب بحر (الروح) ؟

٥٧٥ إنّ الموج الأرضي هو وهمنا وفهمنا وفكرنا ، وأمـا الموج المائيّ فهو المحو والسكر والفناء .

فإذا بقيت في سكر (ماديّ) ، فأنت بعيد عن السكر الروحي .

وإنْ ظللت ثملاً بالمادة ، فأنت أعمى عن كأس الروح !

إنّ قول الظاهر وحديثه مثل الغبار[1] ، فاجعل الصمت من طباعك برهة من الزمن ، وكن يقظاً » .

كيف كرّر المريدون دعوة الوزير إلى قطع الخلوة

فقالوا جميعاً . « أيُّها الحكيم الذي يتلمس الأعذار ! لا تلق إلينا بذلك الحديث الخادع القاسي .

ولا تـُحمِّل الدابة ما لا طاقة لها به ، واعهـد إلى الضعفاء بالعمل الذي يلائم قوتهم .

٥٨٠ فالحبّة التي يغتذي بها كل طائر ، تكون على قدر طاقته ، وإلا فمتى كان التين يصلح غذاء لكل الطيور ؟

---

(١) يذهب هباء .

وإذا أنت أعطيت الطفل الخبز بدلاً من اللبن فاعـلم أن الطفل المسكين سيقتله الخبز .

ولكنّ الطفل يطلب الخبز بنفسه ، عندما تنبت أسنانه .

والطائر الذي لم يكتمل بعد نمو جناحيه ، يصبح — حين يطير — لقمة لكل قطة ضارية .

فإذا ما اكتمل جناحاه ، طار وحده بلا تكلف ، وبدون صفير (قد يريد به) الخير أو الشرّ .

٥٨٥ إنّ نطقك يلزم الشيطان الصمت ، وحديثك يجعل من آذاننا عقولا !

فآذاننا عقول حين تحدثنا ، ويبسنا يظفر بالماء حينما تكون أنت البحر !

والأرض — ونحن معك — خير لنا من الفلك ، يا من أضاء بك الكون من السماك إلى السمك (١) !

وبدونك تغشانا الظلمـة ونحن في الفلك ! وما الفلك إلى جانبك أيها القمر ؟

إنّ صورة الرفعة تنتمي إلى الأفلاك ، وأما معنى الرفعة فينتمي إلى الروح الطاهر .

٥٩٠ وصورة الرفعة تتعلق بالأجسام ، والأجسام أمام الجوهر ليست إلا مجرد أسماء » .

كيف أجابهم الوزير بأنه لن يقطع خلوته

فقال (الوزير) : « أقصروا من جدالكم ، ودعوا النصح يجـد سبيله إلى أرواحكم وقلوبكم .

---

(١) في عقائد القدماء أن الأرض السابعة تحتها ثور يحمل الأرضين السبع وتحت الثور سمكة تحمل الثور وفوقه الأرضين .

فإذا كنتُ أميناً فالأمين لا يُتهم ، حتى ولو قلت لكم إن السماء هي الأرض..

وإذا كنت كاملاً فما إنكاركم هذا لكمالي؟ وإن لم أكن كذلك فما الداعي لمضايقتي وإيلامي[1].

إنني لن أخرج من هذه الخلوة ، ذلك لأنني مشغول بأحوال باطنية ! » .

اعتراض المريدين على الخلوة

٥٩٥ فقالوا جميعاً : « أيها الوزير ! إننا لسنا (لكمالك) منكرين ! وليس قولنا هذا مثل قول الغرباء .

إنّ دموع العين جارية لفراقك ، والآهات تتصاعد من صميم نفوسنا .

فالطفل لا ينازع مربيه ، ولكنه يبكي ، وإن لم يدرك شرّاً ولا خيراً .

فنحن كالعود وأنت العازف ، فالأنغام الحزينة ليست منا وإنما أنت صانعها .

ونحن كالناي ، ولكنّ أنغامنا منك . ونحن كالجبل ، ولكن الصدى (المتردّد) فينا رجعٌ لصوتك .

٦٠٠ بل نحن كقطع الشطرنج ، نمضي بين النصر والهزيمة ، ونصرنا وهزيمتنا منك أيها الطيّب الصفات !

فمن نحن حتى يكون لنا وجود بجانبك ؟ يا من أنت روحٌ لروحنا !

---

(١) المراد «لماذا تضايقونني وتؤلمونني بإصراركم على إخراجي من خلوتي ؟ » .

نحن ووجودنا عدم ، وأنت الوجود المطلق ، وقد اتخذ مظهر الفاني !
ونحن جميعاً أسود ، ولكنْ من النوع المصوّر على الأعلام ، وتلك يحركها الهواء في كل لحظة .
فحركاتها ظاهرة ، ولكن الهواء غير ظاهر ، فلا حُرمنا من (هذه القوة) التي لا تُرى .

٦٠٥ فهواؤنا[1] وكياننا من عطائك ، بل إنّ كلّ وجودنا من إيجادك !
لقد أبديت للعدم لذة الوجود ، وذلك (بعد أنْ) جعلت العـــدم عاشقاً لك !
فلا تحبس (عنا) لذة إنعامك ، ولا تمسك عنـا نقلك وخمرك وكأسك .
وإذا أنت حبستها ، فمن الذي يجرؤ على البحث عنها ؟ وهل للنقش من قوة أمام النقاش ؟
فلا تنظر إلينـــا ، ولا تسدّد بصرك نحونا ، ولكنْ انظر إلى كرمك وسخائك !

٦١٠ إننا لم يكن لنا وجود ، ولم تكن لنا مطالب ، ولكنّ لطفك أصغى إلى ما لم ننطق به (فأوجدنا) .
فالنقش يكون عاجزاً أمام النقاش والقلم ، كأنه الطفل في الرحم .
وجملة الخلق في بلاط الانتظـــار[2] عاجزون أمام القدرة كالوشي أمام الإبرة .
فتارة ترسم بالوشي صورة الشيطان ، وتارة صورة آدم ، وحينـــاً تصور السرور ، وحيناً تصور الحزن .
وليس لأحد قوة ، تجعله يحرّك يداً للدفاع ، ولا نطق ينبس بكلمة عن الضر والنفع .

---

(١) هواؤنا معناه القوة المحركة لنا .
(٢) بلاط الانتظار هو الدنيا .

٦١٥ فاقرأ في القرآن تفسير البيت (السابـق) ، فالله تعالى يقول :
« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[1] .
فإذا رمينا بسهم فليس اندفاع السهم منا ، فنحن القوس ، وأما الذي يلقي بالسهم فهو الله .
وليس ذلك قولاً بالجبر ، وإنما هو معنى الجبروت . وذكر الجبروت (جاء) لكي نستشعر الذلة .
وذُلّنا دليل اضطرارنا ، وأما خجلنا (من الآثام) فهو دليل اختيارنا .
ولو لم يكن هناك اختيار ، فما هذا الخجل (من الإثم) ؟ وما ذلك الأسف والتحرج والحياء ؟
٦٢٠ ولماذا يكون زجر الأساتذة للتلاميذ ؟ ولماذا ينصرف الخاطر عما استقر عليه من تدبير ؟
فإن قلت : « إنّ الغافل عن جبر الله يصير قمرُ الحق مختفياً وراء سحابة »[2] .
فإنّ لذلك جواباً مقنعاً ، لو استمعت إليه ، تركت الكفر ، وآمنت بالدين
إنّ الحسرة والذلّة تكونان في وقت المرض ، فذلك الوقتُ يكون كلّه يقظة (للضمير) .
فأنت حين يصيبك المرض ، تستغفر الله لجرمك .
٦٢٥ ويتجلى أمام عينيك قبح الإثم ، فتعـــتزم العودة إلى الطريق (السويّ) .
فتقسم وتعاهد (الله) أنّك - بعد هـذا - لن يكون لك من

(١) سورة الأنفال ، ٨ : ١٧ ، وفيها يخاطب الله الرسول بعد غزوة بدر .
(٢) يصير حجاباً للحقيقة الواضحة البينة .

عمل تختاره سوى الطاعة .

وبهذا يصحّ عندك ، أنّ المرض يمنحك الانتباه واليقظة ، فاعرف إذن هذا الأصل ، أيّها الباحث عن الأصول !

إنّ من كان ذا ألم تنسّم نفحة (من الغيب) .

فكل من زاد ألمه زادت يقظته ، وكلّ من ازداد معرفة زادت طلعته شحوباً .

٦٣٠ فإن كنت مـــدركاً لجبره ، فأين ذلّتك ؟ وأين مشاهدتك لأغلال جبروته ؟

وكيف للمقيد بالأغلال ، أن ينعم بالسرور ؟ ومتى كان أسير الحبس يمارس حريّته ؟

وإذا كنت ترى أنّ قدميك مُكبّلان بالأغلال ، وأنّ جند السلطان قد جلسوا لحراستك ،

فلا تتجبَّر بالتسلط على العاجزين ، فليس هذا طبـع العاجز ولا شيمته .

فإنْ كنت لا ترى جبره ، فلا تتحدّث عنه ، وإنْ كنت تراه فأين دليل ذلك ؟

٦٣٥ إنـّك لترى قدرة نفسك عياناً في كلّ عمل يكون لك ميل إليه .

ولكنـّك — عندما لا يكون العمل وفق ميلك وعلى مرادك — تصبح مُجبراً (وتقول) : « إنّ هذا من الله ! » .

إنّ الأنبياء مجبرون فيما يتعلق بأمور الدنيا ! وأما الكفار فمجبرون فيما يتصل بأمور الآخرة .

فالأنبياء مختارون لأمور العقبى ، وأما الكفار فالاختيار عندهم لأمور الدنيا .

ذلك لأنّ كلّ طائر يقتفي أثر جنسه ، تتقدمه روحه .

٦٤٠ ولما كان الكفار قد جاؤوا من جنس سجّين[١] فإنّ سجن الدنيا وافق هواهم[٢] .
وأما الأنبياء فإنهم إذ كانوا من جنس علـّيين[٣] فقد تساموا إلى علياء الروح والقلب .
إنّ هذا الكلام لا نهاية له ، فلنرجع إلى قصّتنا لنُتمّها .

كيف جعل الوزير أتباعه يائسين من تركه للخلوة

لقد صاح هذا الوزير من أعماقه (قائلا) : « أيّها المريدون ! اعلموا ذلك عنّي .
إنّ عيسى قد بعث اليّ برسالة (قال فيها) : افترق عن أصحابك وأقربائك .
٦٤٥ واتجه بوجهك إلى الحائط ، واجلس منفرداً ، واختر لنفسك الخلوة عن وجودك ! .
فبعد هذا الأمر ، لا قول عندي ، ولا شأن لي بالقيل والقال .
فالوداع أيّها الأحباب ، فإنّني ميّت ، وقد حملت متـــاعي إلى السماء الرابعة ،

---

(١) الكتاب الذي تُسجّل فيه أعمال الفجرة ، وقيل هو المكان الذي يحفظ به هذا الكتاب في جهنم . ويمكن أن تطلق الكلمة على الجحيم نفسه . وقد وردت في القرآن : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجّين ، وما أدراك ما سجّين » . (٨٣ : ٦ ، ٧)
(٢) في هذا البيت اقتباس من حديث للرسول قال فيه : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .
(٣) عليّون ، عكس سجّين . وقد وردت في قوله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليّون ، كتاب مرقوم » (٨٣ : ١٧ – ١٩) .

حتى لا أحـــترق كالحطب ، من العنــاء والعطب ، تحت الفلك
الناريّ [1] .
ولسوف أجلس بعد ذلك إلى جوار عيسى في أعالي السماء الرابعة .

كيف عهد الوزير بولاية عهده إلى كل أمير على انفراد

٦٥٠ وبعد ذلك دعا الأمراء واحداً واحـــداً ، وتحدث مع كلّ منهم
على انفراد .
وقال لكل منهم : « إنك النائب الحق للدين العيسويّ ! إنـّك
خليفتي !
وهؤلاء الأمراء الآخرون أتبـــاعك ! إن عيسى قد جعلهم جميعاً
أشياعاً لك !
فكلّ أمير خرج عن طاعتك فاقتله ، أو اجعله أسيراً !
ولكن لا تعلن هذا ، مادمت أنا حيّاً ، ولا تطلب تطلب تلك
الرياسة قبل موتي .
٦٥٥ ولا تُذع ذلك السرّ ما دمتُ على قيد الحياة ، ولا تطالب بالملك
والسيطرة .
وإليك هذا الطومار ، وأحكام المسيح ، فأفصِحْ بقراءتها واحداً
واحداً على أتباعه » .
وهكذا قال لكلّ أمير على انفراد : « إنــــه لا راعي سواك
لدين الله » .
وجعل كلا منهم عزيزاً ، وقال لكلّ واحد منهم ما قاله للآخر .

---

(١) السماء الرابعة مقر عيسى ، وهي أيضاً فلك الشمس ، فبصعوده إليها يخلص من العيش تحت فلكها الناريّ .

وأعطى كلّ أمير طوماراً . وكان مراده أن يوقع الفرقة بينهم .

٦٦٠ وكانت هذه الطوامير جميعاً مختلفة كاختلاف الحروف ، من الألف إلى الياء .

فكان حكم كلّ طومار ضدّ حكم الآخر ، وقد بيّنا من قبلُ ذلك التناقض .

كيف قتل الوزير نفسه في الخلوة

وبعد ذلك أغلق الوزير بابه أربعين يوماً أُخرى ، ثم قتل نفسه ، وخلص من وجوده .

وحينما علم الناس بموته ، قامت القيامة أمام قبره .

فتجمع على قبره الكثيرون من الناس ، وكانوا يقتلعون شعرهم ويمزّقون ثيابهم حزناً عليه .

٦٦٥ ولم يكن هناك — سوى الله — من يدري عدد هؤلاء الخلق ، من عرب وروم ، وأتراك وأكراد .

لقد وضعوا تراب قبره على رؤوسهم ، ورأوا في حزنهم عليه شفاء لأرواحهم !

وظلّ هؤلاء الناس على قبره شهراً ، جرت فيه من عيونهم الدموع الدامية .

كيف طلبت أمّة عيسى إلى الأمراء أن يبيّنوا مَنْ منهم وليُّ العهد

وبعد شهر قال الناس : « أيها الكبراء ، مَنْ من الأمراء عُيِّن مكانه ؟

حتى نعرفه إماماً من بعده ، ونضع أيدينا وأزمّتنا في يـده[1] .

٦٧٠ فإن كانت الشمسُ قد ولّت ، واكتوَينا (بفراقها) ، فما من حيلةٍ سوى أن نجعل مكانها سراجاً .

وإن كان الحبيب قد مضى من أمام أعيننا ، وحُرمنا وصاله ، فلا بدّ لنا من نائب عنه ، يكون تذكاراً لنا منه .

وإن كان الورد قد ذبل ، وُصوّح بستانُه ، فأين نجد شذى الورد إلا في ماء الورد ؟

وإذا كان الله لا يظهر للعيان ، فإنّ هؤلاء الأنبياء هم نُوّابُ الحقّ .

كلا ! إنني أخطأتُ القول ! فإنك إذا ظننتَ المُنيب والنـائب اثنين ، كان ذلك ظناً قبيحاً لا حسناً .

٦٧٥ فهما لن يظهرا لك اثنين إلا إذا كنت من عُبّاد الصورة . وأمـا من خلص من الصورة فهما واحد في نظره .

إنك عندمـا تنظر إلى الصورة ، يكون إبصارك بعينين . فتأمل النور الذي ينبع من العينين !

وليس بمستطاع أن يميّز المرء – على وجه اليقين – بـين نور كلّ عين من العينين ، حينما ينظر مستضيئاً بنورهما .

فإن أنت وضعت عشرة مصابيح في مكان واحد ، فقد يكون كلٌّ منها مختلفاً في صورته عن الآخر .

ولكنّك لا تستطيع أن تفرّق – بصورة قاطعة – بين نور كلّ منها إذا نظرتَ إلى نورها .

٦٨٠ وأنت إذا عددت مائة من ثمار التفاح أو السفرجل ، فإنّ هـذه لا تبقى مائة ، بل تصبح واحدة حين تعصرها .

فالمعاني لا تقبل القسمة والأعداد ، ولا تخضع للتجزئة والإفراد .

---

(١) نسلم إليه قيادنا .

إن اتحاد الحبيب بالأحباء جميل ، فتَشبّثْ بقدم المعنى ، فإن الصورة عنيدة قوّية .

واصهر تلك الصورة العنيدة ، وجاهد (في سبيل ذلك) حتى ترى الوحدانية تحتها كالكنز !

وإن أنت لم تصهرها ، صهرتها لك عنايةُ مَن فؤادي له عبد ومولى .

٦٨٥ إنه ليُظهر للقلوب ذاته ، ويحيك للدرويش خرقته .

لقد كنا منبسطين ، وكنا جميعاً جوهراً واحداً ولم تكن لنا في تلك الناحية رؤوس ولا أقدام .

لقد كنا جوهراً واحداً كالشمس ، وكنا كالماء لا عُقَد فينا ، ولنا الصفاء !

وعندما حلّ في الصورة ذلك النور الطيّب ، صار متعدداً كظلال إفريز القلعة !

فحطِّمْ ذلك الإفريز بالمنجنيق ، حتى يزول الفرق بين أفراد ذلك الفريق .

٦٩٠ ولولا تحرُّجي حتى لا ينزلق خاطرٌ (ضعيف) لساقني الجدل إلى شرح ذلك[١] .

فهذه الأفكار العميقة كالسيف الفولاذي الحادّ ، فإن لم يكن لديك درع[٢] فسارع إلى الهرب .

ولا تُواجه ذلك الصارم الفصّال بدون درع ، فإنّ السيف لا يَستحي من القطع !

ولهذا السبب أودعتُ سيفي غمده ، حتى لا يَقرأ قولي – على غير وجهه – مَن لا يحسن القراءة .

فلنَعُدْ الآن إلى القصة لنكملها ، وإلى وفاء هذا الجمع من الصلحاء .

٦٩٥ الذين قاموا من بعد وفاة ذلك الرئيس ، فطلبوا نائباً يقوم مقامه .

---

(١) ولولا خوفي من أن يسيء خاطرٌ ضعيفٌ فهمَ قولي لأطلتُ في شرح تلك المسائل .

(٢) إن لم يكن لك من إيمانك درع يقيك فسارع إلى الهرب .

كيف تنازع الأمراء على ولاية العهد

لقد جاء أمير من هؤلاء الأمراء وتقدم إلى أولئك القوم الأوفياء .
وقال : « انظروا ! إنني خليفة هذا الرجل ! إنني نائب عيسى في هذا الزمان !
انظروا إلى هذا الطومار ، فهو برهاني على أنَّ هذه النيابة هي لي من بعده » .
وجاء أمير آخر من الكمين ، فكان ادعـــاؤه الخلافة على ذلك الوجه نفسه .
٧٠٠ فهو أيضاً قد أخرج من تحت إبطه طومارا ، فثار بينهما غضب اليهود .
وتوالى الأمراء الآخرون فامتشقوا السيوف الملتمعة ، فـكان كلٌّ يحمل في يده سيفاً وطوماراً !
ودبَّ الصراع بينهم جميعاً كأنَّهم أفيالٌ سكرى .
فقـُتل الآلاف من رجال النصارى ، وكانت هناك تلالٌ من رؤوس القتلى !
وجرت الدماء ذات اليمين وذات الشمال كأنَّها السيل ، وارتفعت في الهواء جبال من غبار تلك الحرب !
٧٠٥ إنَّ بذور الفتنة التي كان الوزير قد غرسها أصبحت آفةً (تحصد) رؤوسهم .

لقد انكسر الجوز[1]، وكلّ ما كان ذا لُبّ منه فقد أصبح بعد القتل ذا روح طاهرة لطيفة .

إن وقوع القتل والموت على صورة الجسم كقَطْعِ الرمانِ والتفاح .

فكل ما كان منه حلواً أصبح شراب رمان ، وكل ما كان عفناً لم يعُدْ صوت (كسره) .

وكل ما كان ذا معنى تجلّى معناه ، وأما العفن فيفتضح أمره .

٧١٠ فاذهب ، واسع وراء المعنى ، يا عابد الصورة ! إن المعنى جناح لجسد الصورة .

والزم أهل المعنى حتى ينالك منهم العطاء ، وتصبح جواداً .

ولا خلاف أنّ الروح التي تخلو من المعنى ، تكون في الجسد كسيف خشبيّ في الغمد .

فما دام هذا السيف في غمده ، فهو ذو قيمة ، فإذا أُخرج منه ، فهو آلةٌ (لا تصلح إلا) وقوداً للنار .

فلا تحمل إلى الميدان سيفاً خشبياً ، وانظر في أول الأمر (إلى عُدّتك) حتى لا يسوء مآلك .

٧١٥ فإن كان السيف خشبيّاً فامض ، واطلب غيره ، وإن كان قاطعاً ، فتقدم إلى الامام طَرِباً .

إنّ السيف الحقّ مكانه خزانةُ أسلحةِ الأولياء ، ورؤية هؤلاء كيمياء لك .

« فالعالِمُ رحمة للعالمين » . هذا ما قالت به جملة العلماء .

وإن ابتعت رمانةً فاخترْها ضاحكةً (مُتفتحة) حتى ينبئك تفتّحُها عن حال حَبِّها !

فما أجمل ضحكها ! ذلك لأنّه يُظهر من خلال فمها قلبَها ،

---

(١) يريد بانكسار الجوز تحطم الأجسام من جرّاء ما وقع عليها من القتل .

كما يظهر اللؤلؤ في صندوق الروح .

٧٢٠ وما أقبح ضحك زهرة « اللاله » فإن فمها يكشف عن سواد قلبها .

إن ضحك الرمان يجعل البستان ضاحكاً ، وصحبة الرجال تجعلك من الرجال .

فإن كنت قطعة من الصخر أو المرمر ، صرت جوهراً لو اتصلت برجل ذي قلب .

فأشْرِبْ روحَكَ حُبّ هؤلاء الطاهرين ، ولا تُسْلِم قلبك إلا لحبّ هؤلاء السعداء القلوب .

ولا تمض في طريق اليأس ، ففي الكون آمال ! ولا تتجه نحو الظلمات ، ففي الكون شموس !

٧٢٥ إنّ القلب يقودك إلى جادّة أهل القلوب . وأما الجسم فيقودك إلى سجن الماء والطين .

فاجعل غذاء قلبك من (اتصـــالك) بأهل القلوب ، واذهب ، وانشد الإقبال عند أهل الإقبال .

تعظيم نعت المصطفى عليه السلام كان مذكوراً في الانجيـــل

إنّ اسم أحمد كان في الإنجيل ، (وكان نعته) أنه رأس الأنبياء وبحر الصفاء !

كان في الانجيل ذكرٌ لمحاسنـــه وشكله ، وكان فيه ذكر لغزوه وصومه وأكله .

وكانت هناك طائفة من النصارى ، عندما تصل إلى ذلك الاسم وذلك الخطاب ، فإنّها من أجل ثواب الله

٧٣٠ تُقبّل ذلك الاسم الشريف ، وتضع وجهها على ذلك الوصف اللطيف.

كان هذا الفريق من النصارى آمناً من الفتنة والخوف أثناء تلك الفتنة التي ذكرناها [1] .
لقد كانوا آمنين من شرّ الأمراء والوزير ، مستجيرين بالتجائهم إلى اسم أحمد .
وقد خلف من بعد هؤلاء ذرية كبيرة ، صار نورُ أحمد لها ناصرا ورفيقا .
وأما ذلك الفريق الآخر من النصارى ، فقد كان يستهين باسم أحمد .
٧٣٥ فحاق بهؤلاء الهوانُ والذلّ من فتن هذا الوزير ، الذي كان شؤماً في رأيه وتدبيره .
وأصاب الاضطرابُ دينَهم وأحكامهم بما جاءتهم به تلك الصحف المعوجة البيان .
إنّ اسم أحمد أفاض مثل ذلك العون ، فكان لنوره مثل تلك الرعاية .
فإذا كان اسم أحمد قد صار حصناً حصيناً ، فكيف تكون ذاتُ هذا الروح الأمين ؟

حكاية ملك يهوديّ آخر سعى للقضاء على دين عيسى

وبعد ما أُريق من دم لا مردّ له ، بما ثار من فتنة ذلك الوزير .
٧٤٠ قام ملك آخر من نسل ذلك اليهوديّ ، يعمل على إهلاك قوم عيسى .
وإذا كنت تريد خبراً عن ذلك الخروج اليهوديّ الآخر ، فاقرأ

(١) الفتنة التي نشأت من اختلاف الأمراء وحربهم بعد موت الوزير وهي من الوقائع التي ذكرها الشاعر في قصة ملك اليهود الذي اضطهد النصارى .

سورة « والسماء ذات البروج[1] » .
إنّ ذلك الملك الثاني سار على تلك السنّة السيئة التي ابتدعهـــا الملك الأوّل .
وكلّ من سنّ سنة خبيثة ، سعى إليه الذمّ في كل ساعة .
إن الطيّبين يذهبون وتبقى سننهم من بعدهم ، وأما اللئام فـــلا يبقى بعدهم سوى الظلم واللعنات .
٧٤٥ وكل من يولد من جنس هؤلاء الأشرار — حتى القيامة — فوجهته هؤلاء (الأقران[2]) .
فالبشر يجري في عروقهم هذا الماء الحلو أو ذلك المـاء الملح حتى يُنفخَ في الصور .
فالطيبون لهم ميراث من الماء الحلو ، وهو المقصود في قوله تعالى : « أورثنا الكتاب[3] » .
وإن ضراعـــة الطالبين[4] — لو تأملتَ — ليست إلا أشعة من شمس النبوّة .
والأشعة تدور مع الجواهر حيث كانت ، فالشعاع يتجه نحو الجانب الذي فيه الجوهر .

---

(١) يقصد سورة البروج ، وهي من السور المكية ، وقد وردت بها آيات ذكر المفسرون أنها تشير إلى عدوان ذي نواس ملك اليمن اليهوديّ على نصارى نجران وإهلاكهم بإلقائهم في النار . وهذه الآيات هي : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » . (٨٥ : ٣ — ٦) . أنظر أيضاً : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٧ ، (القاهرة ، ١٩٥٨) .

(٢) أمثاله من الأشرار .

(٣) في هذا البيت اقتباس من قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير» . (٣٥ : ٣١)

(٤) الذين ينشدون ربهم ويسعون إليه .

٧٥٠ ونور النافذة يدور بسرعة حول الدار ، وذلك لأن الشمس تمضي من برج إلى برج .
وكل من كان له ارتباط بأحد الكواكب ، فإنه يوافق كوكبه في الصفات .
فمن كان طالعه الزهرة فان ميله الكلي وعشقه وطلبه إنما هو للطرب .
ومن كان طالعُه المريخ فطبعُه إراقةُ الدماء ، فهو يبحث عن الحرب والخصومة والبهتان .
ووراء هذه الكواكب كواكبُ أخرى ، لا احتراق فيها ولا نحس .
٧٥٥ وتلك الكواكب تمضي في سماوات أخرى ، غير تلك السماوات السبع المعروفة .
وهي راسخة في وهج أنوار الله ، وليس بينها ارتباط ولا انفصال .
وكل من كان طالعُه تلك النجوم ، فان نفسه تحرق الكفار بالرجوم .
وليس غضب هذا كغضب من طالعه المريخ ، (الذي يكون) منقلب السلوك ، وطبعه يكون حيناً غالباً وآخر مغلوباً .
إن النور الغالب في مأمن النقص ، (لا يتطرق اليه) الغَسَقُ ، لأنه بين إصبعي نور الحق .
٧٦٠ ولقد نثر الحق ذلك النور على الأرواح ، ولكنّ السعداء وحدهم هم الذين رفعوا أطراف ثيابهم (لتلقّيه) .
فكلّ من وجد ذلك النثار من النور ، فقد حول وجهه عن غير الله .
وأما من لم يكن له حِجْرٌ مشْرَبٌ بالعشق ، فقد مضى بلا نصيب من ذلك النور المنثور .
إن الأجزاء لتتطلع إلى كلّها ، والبلابل تلعب مع الوردة لعبة العشق .

واللون الظـاهريّ يكون للثور ، أما الانسان ففتـّش في باطنه عن الألوان ، من أحمر وأصفر .

٧٦٥ والألوان الجميلة تجيء من وعاء الصفاء ، وأما لون الأشرار فمن ماء الجفاء الأسود .

واسم هذا اللون اللطيف صبغةُ الله[1] ، وأما ذلك اللون الكثيف فرائحته لعنةُ الله .

وكل ما جاء من البحر فإنـّه إلى البحر يعود ، وبهـذا يرجع من حيث أتى .

فمن قمم الجبال تمضي السيولُ المندفعة ، ومن أجسامنا تمضي الأرواحُ الممتزجةُ بالعشق .

كيف أشعل ملك اليهود ناراً ووضع بجوارها صنماً (وقال) : « إنّ كلّ من سجد لهذا الصنم نجا من النار »

والآن فتأمل هذا التدبير الذي ارتآه هذا اليهودي الضاري : إنـّه أقام إلى جانب النار صنماً .

٧٧٠ (وقال) : « من سجد لهذا الصنم نجا ، وأما من لم يسجد فإنـّه يجلس في قلب النار » .

فهذا الملك لما لم يُوقع بصنم النفس ما هو أهلٌ له من جزاء ، ولد من صنم نفسه صنمٌ آخر .

(١) قال تعالى في سورة البقرة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . (٢ : ١٣٧) .

إنّ أمّ الأصنام صنم نفسك ، ذلك لأنّ الصنم المادي ثعبان ، وأما صنم النفس فتنّين .

إنّ النفس كالحجر والحديد (معاً) ، بهما تُقدح النار ، والصنم هو الشرر ، وهذا الشرر يطفؤه الماء .

ولكنْ كيف للماء أن يطفىءَ الحجر والحديد ؟ [1] وكيف للإنسان مع هذين أن يجد الأمان ؟

٧٧٥ إنّ الصنم ماء أسود في كوز ، والنفس هي النبع الذي صدر منه هذا الماء .

وذلك الصنم المنحوت شبيهٌ بسيل أسود ، والنفس صانعةُ الأصنام عين ممتلئة بالماء يصدر منها السيل .

إنّ قطعة واحدة من الحجر تكسر مائة وعاء للماء ، ولكنّ ماء النبع يظلّ يفيض دون إبطاء .

فكسرُ الصنم أمر يسيرٌ بالغ اليسر ، وأما استسهال السيطرة على النفس فجهل وأيُّ جهل !

فإنْ كنت يابنيّ تبحث عن صورة النفس فاقرأ قصة جهنم ذات الأبواب السبعة .

٧٨٠ ففي كلّ لحظة للنفس مكر ، وكلّ مكر يغرق مائة فرعون مع أتباعهم .

فاهرب إلى إله موسى ، وإلى موسى ، ولا تُرِقْ ماء الإيمان بطبيعة فرعونية .

واربط يدك بالإله الأحد ، وبأحمد ، وتخلص يا أخي من « أبي جهل » البدن [2] .

---

(١) يقصد النار الكامنة فيهما .

(٢) تخلص من البدن الحسيّ المظلم الشبيه بأبي جهل . وأبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، وكان من الكفار الذين أظهروا للرسول عناداً وعداوة مريرة أثناء قيامه بالدعوة في مكة .

كيف بدأ طفل يتكلم في وسط النار ، ويحرّض الناس على إلقاء أنفسهم فيها

لقد أحضر هذا اليهوديّ امرأة وطفلها أمام ذلك الصنم ، وكانت النار مضطرمة .

وأخذ الطفل منها ، ورماه في النار ، فخافت المرأة وانتزعت قلبها من الإيمان .

٧٨٥ وأرادت أن تسجد أمام الصنم ، لكنّ الطفل صاح : « إني لم أمت .

فتعالي هنا يا أمّي فإنّني بخير ، وإن كان ظاهري أنّني وسط النار !

إنّ هذه النار حجاب للعين ، يمنع عنها الرؤية ، فها هي ذي الرحمة قد أطلّت من الخفاء[1] .

فتعالي يا أمّي ، وانظري برهان الحقّ . (أنظري) لتشاهدي سعادة أصفياء الحقّ !

تعالي وانظري الماء الذي يتبدّى لك ناراً ، ودعي هذا العالم الذي هو نار تبدو كالماء !

٧٩٠ تعالي وانظري أسرار إبراهيم الذي وجد في النار السرو والياسمين[2] .

لقد رأيتُ الموت ساعة مولدي منك ، وكان خوفي عظيماً إذ كنت أنفصل عنك .

---

(١) الترجمة الحرفية : فها هي ذي الرحمة قد رفعت رأسها من جيبها .

(٢) ذلك لأنّ إبراهيم ألقي في النار ولم يحترق ، بل كانت النار عليه برداً وسلاماً .

وعندما وُلدت ، خلصت من حبس ضيّق إلى عـــالم طيّب الهواء جميل الألوان !
وإنني الآن أرى العالم مثل الرحم ، بعد إذ رأيتُ في النار هذه السكينة .
لقد رأيتُ في هذه النار عالماً في كلّ ذرة منه نفَسُ عيسى (الذي يهب الحياة) .

٧٩٥ رأيت عالماً صورته العدم ، وجوهره الوجود ، وعالم الدنيا ظاهره الوجود ، ولكنّه لا ثبات له .
تعالي يا أمّي بحقّ الأمومة ، وانظري كيف أنّ هـــذه النار لا نارّية فيها !

أقبلي يا أمّي فقد أقبلت السعادة ، أقبلي يا أمّي ولا تدعي الحظّ يُفلت من يديك !
لقد رأيتِ قدرة ذلك الكلب (ملك اليهود) ، فتعالي وانظري قدرة لطف الله .
إنّني أسحب قدمك إلى هنـــا رحمة بك ، وإلا فإني في طرب (يصرفني) عن العناية بك .

٨٠٠ أقبلي ، وادعي الآخرين (للحضور) معك ، فإنّ الملك الحقّ قد أقام في النار الخُوان .
بل أقبِلوا أيها المؤمنون جميعاً ، فكلّ شيء سوى هذه العذوبة عذاب !
أقبلوا جميعاً مثل الفَراش ! أقبِلوا إلى ذلك الحظّ ، فهنـــا مائة ربيـــع ! » .
كان الطفل يصيح على تلك الوتيرة وسط الجمع ، فامتلأت قلوب الناس رهبةً وخوفاً .

فأخذ الخلق من رجال ونساء –دون وعي منهم – يلقون بأنفسهم في النار .

٨٠٥ لم يكن هناك مُوَكّل (يدفعهم) ولا جذبٌ (إلى النار) .
وإنما هو عشق الحبيب ، ذلك الذي يجعل كلّ مرّ حلو المذاق .
حتى أخذ أعوان الملك يمنعون الخلق (قائلين) : « لا تُلقوا بأنفسكم في النار ! » .
واسودّ من الخجل وجه ذلك اليهوديّ ، واعتراه من جرّاء ذلك الندمُ ، واعتلال القلب .
فقد أصبح الخلق بالإيمان أكثر عشقاً ، وصار عزمُهم على إفناء الجسم أكثر صدقاً !
فشكراً لله وحمداً ، فإنّ الشيطان قد وقع في حبائل مكره ، ورأى ذلك اللعين نفسه وقد اسودّ وجهُه .

٨١٠ لقد تجمّع فوق وجه ذلك الشيطان الخسيس كلّ ما كان يمسحه على وجوه الناس (من عار) .
وسرعان ما التأم كلّ ما مزقه من ثياب الخلق ، وأما هو فتشققت ثيابه [1] .

كيف التوى فم الرجل الذي ذكر محمداً عليه السلام بسخرٍ واستهزاء

لقد لوى فمه وذكر اسم محمد ساخراً ، فبقى فمه معوجاً !
فعاد وقال : « يا محمد ! اعف عني ، يا من ملكت ألطاف العلم اللدنيّ !

(١) أي سرعان ما سلم الخلق مما ألحقه بهم من فضائح وأما هو فافتضح أمره .

لقد كنت أسخر منك لجهلي ، وإني أنا المنسوبُ للسخرية، الجدير بها » .

٨١٥ إنّ الله — لو أراد أن يمزّق ستر إنسان — جعله يميل إلى الطعن في أهل الطهر .
وإنْ أراد أن يستر عيب إنسان ، وقاه الخوض فيما يقترفه أهل العيب .
وإن شاء أن يعاوننا جعلنا نميل إلى الحزن والشجى .
فما أهنأ العين التي تبكي من أجله ، وما أسعد القلب الذي يحترق في سبيله .
وكل بكاء عاقبتُه الضحك ، والبصير بالعواقب عبد مبارك .

٨٢٠ فأينما وُجـد الماء الجاري وُجدت الخضرة ، وحيثما وُجـد الدمع المنهمر وجدت الرحمة .
فكنْ مثـل الساقية باكياً مبتلَ العينين حتى تنبت الخضرةُ في رحاب روحك .
وإن أردت الدموع ، فرفقاً بمن تفيض منه الدموع . وإن أردت الرحمة ، فارحم الضعفاء .

كيف عاتب ملك اليهود النار

لقد اتجه الملك إلى النار وقال : « أيتها الحادة الطبع ! أين طبعك الذي من شأنه أن يحرق الدنيا ؟
كيف لا تحرقين ؟ وأين خصائصك ؟ أم هل انعكست نيّتك (لسوء) طالعنا ؟

٨٢٥ إنك لا ترحمين عابدك ، فكيف نجا منك من لا يعبدك ؟

ولم تكوني قطّ أيتها النار صابرة ، فكيف لا تحرقين ؟ ما شأنك ؟
ألم تعد لك قدرة ؟
عجباً لهـذه النار المشتعلة العالية ! كيف لا تحرق ؟ أفوق عيني
غشاوة ، أم على عقلي حجاب ؟
أصنع إنسانٌ بك السحر أو السيمياء ؟ أم أنّ طالعنا جعلك على
خلاف طبعك ؟ » .
فقالت النار : « إنّـني لم أتبدل ! أنا النار ! فادخل الآن فيّ لتشعر
بضرامي !

٨٣٠ وطبعي لم يتغيّر ولا عنصري ! أنا سيف الحق أقطع بإذنه !
إنّ كلاب التركمان تمرح وادعة على باب الخيمة أمام الضيوف .
ولكن إذا مرّ أمام الخيمة غريب الوجه ، تعرّض لحملة من الكلاب
تشبه حملة الأسود .
وأنا لست أقلّ طاعة من الكلب ، ولا الحقّ بأقلّ حياة من التركيّ » .
فإذا كانت نار طبعك تبعث الغمّ في نفسك ، فإنّـها تحرقك بأمر
مليك الدين .

٨٣٥ وإن كانت نار طبعك تبعث في نفسك السرور ، فإنّ مليك الدين
قد وضع فيها السرور .
وإذا أصابك الغمّ فاستغفر الله ، إنّ الغمّ جاءك بأمر الله فلا
تقف جامداً .
فهو إذا شاء صار الغم سروراً ، وأصبح القيد في القدمين حرية
وانطلاقاً !

فالهواء والتراب والماء والنار من عُبّاده ، وهـذه تبدو ميّتة لي
ولك ، وأما بالنسبة للحقّ فهي حيّـة .
والنار قائمة على الدوام أمام الحق ، تتلوى كالعاشق بالليل والنهار .

٨٤٠ فإذا ضربت الحديد بالحجر قفزت النار ، فهي تخرج منهما بأمر الله .
فلا تضربْ حديد الظلم بحجره ، فإنّ هذين ينجبان كما ينجب الرجل والمرأة .
والحجر والحديد يمثّلان السبب (المباشر) ، ولكن تطلّع أيّها الرجل الطيّب إلى ما أعلى من ذلك !
فإنّ هذا السبب قد أحدثه سبب آخر ، وإلا فبدون المسبِّب ، كيف يجيء السبب من تلقاء نفسه ؟
وهذه الأسباب التي تهدي الأنبياء ، أسمى من تلك الأسباب (الظاهرية) .
٨٤٥ والسبب (الروحيّ) يجعل السبب (الظاهريّ) عاملاً فعالاً في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى يجعله عاطلاً لا ثمرة له .
وهذا السبب الظاهري تألفه عقول (عامة البشر) ، وأما الأسباب (الروحيّة) فلا يألفها إلا الأنبياء .
وهذا السبب ما معناه بالعربيّة ؟ قل إنه رسن وأنّ هذا الرسن تدلّى في تلك البئر بفنّ (وتدبير) .
ودوران الفلك علة لهذا الرسن ، وإنه لخطأ ألا ترى مدير الفلك .
فحذار أن تنظر إلى حبال الأسباب في هذه الدنيا على أنّها من هذا الفلك الدائر الرأس .
٨٥٠ وإلا بقيت صفر الوفاض ، دائر الرأس كالفلك ، واحترقت لخلوّك من اللبّ ، كما يحترق خشبُ المرخ .
إنّ الهواء يصبح ناراً بأمر الحقّ ، وكلّ منهما سكران من خمر الحق .
وإنك لترى يا بنيّ — إذا أحسنت النظر — أنّ ماء الحلم ونار الغضب هما من الله .
ولو لم تكن روح الريح عارفة بالحقّ ، فكيف كانت تفرق بين (المؤمنين والكفار) من قوم عاد .

قصة الريح التي أهلكت قوم عاد في عهد هود

لقد رسم هود حول المؤمنين خطاً ، وكانت الريح ترقّ عندما تصل إلى هذا الخطّ .

٨٥٥ وأما جملة الخارجين عن هـذا الخطّ ، فكانت الريح تمزقهم إرباً في الهواء .

وهكذا كان شيبان الراعي ، يرسم خطاً حول قطيعه ،

وذلك حينما كان يذهب للصلاة يوم الجمعة ، حتى لا يجيء الذئب فيغير عليه .

فما كان ذئب يدخل تلك الدائرة (المرسومـــة) ، ولا كان حمل يخرج منها !

فكانت دائرةُ رجل الله قيداً لريح الحرص عند الذئب ، وعند الحمل .

٨٦٠ وهكذا تكون ريح الأجل مع العارفين ، إنها رقيقة طيبة كنسيم البستان[١] .

إنّ النـــار لم تنشب أنيابها في ابراهيم . وكيف كانت تنهشه وهو الذي اختاره الحقّ ؟

إنّ نار الشهوة لم تُصب أهـل الدين ، ولكنها هبطت بمن عداهم إلى قاع الثرى .

---

(١) فضلنا قراءة الشطر الثاني من هذا البيت : « نرم وخوش همچون نسيم بوستان » ، وهي التي وردت في النص الفارسي من المنهج القوي على قراءة نيكلسون :

« نرم وخوش همچون نسيم يوسفان » .

وموجُ البحر – إذ تدفق بأمر الله – ميَّز بين قوم موسى ، وبين أهل مصر .

والأرض – عندما جاءها الأمر – سحبت قارون بذهبه وعرشه إلى قاعها .

٨٦٥ والماء والطين – حينما ارتويا من أنفاس عيسى – انبثقت لهما قوادم وخوالف ، وأصبحا طائراً يحلق[1] .

وما تسبيحك إلا بخار الماء والطين ، وقد صار هذا طائر الجنة لما نفخ فيه القلب الصدوق .

ولقد رقص جبل الطور لما رأى نور موسى ، وأصبح صوفياً كاملاً ، وبرىء من النقص .

وأيّ عجب إذا صار الجبل صوفياً عزيزاً ، أو لم يُخلق جسمُ موسى أيضاً من قطعة طين ؟

سخرية ملك اليهود وإنكاره ورفضه نصح خواصه

لقد رأى ملك اليهود هذه العجائب – ومع هذا – لم يكن منه سوي السخرية والإنكار .

٨٧٠ فقال له الناصحون : « لا تجعل هذا الأمر يجاوز حدّه ، ولا تدفع بمركب العناد إلى مثل هذا المدى ! »

---

(١) إشارة إلى إحدى معجزات عيسى . فقد كان يصنع من الطين أشكالاً على هيئة الطير ثم ينفخ فيها فتصير طيراً . وقد ورد ذكر هذه المعجزة في أماكن عديدة من القرآن ومنها قوله تعالى في سورة آل عمران « ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » . (٣ : ٤٩) .

ولكنه قيّد أيدي الناصحين ، وألقى بهم في السجن ، فارتكب بذلك ظلماً فوق ظلم .

وعندما بلغ الأمر ذلك الحدّ جاءت صيحة تقول : مكانك أيها الكلب فقد جاء انتقامنا ! »

فارتفع لهيبُ النار بعد ذلك أربعين ذراعاً ، ثم طوقت هؤلاء اليهود وأحرقتهم .

لقد كان ابتداءُ أصلهم من النار ، وها هم قد انتهوا إلى أصلهم !

٨٧٥ إنّ هذا الفريق كان قد وُلد من النار ، وها هي ذي الأجزاء قد اتجهت إلى كلّها .

لقد كان هذا الفريق ناراً لهيبها يأكل المؤمنين ، وها هي ذي نارهم تأكل نفسها ، كما يحترق الهشيم !

وكلّ من كانت أمّه الهاوية أصبحت له الهاوية[1] زاوية وسكناً .

إنّ أمّ الولد دائمةُ البحث عنه ، والأصول طالبة لفروعها .

والماء إنْ احتبس في حوض ، جففته الريح ، لأنه من العناصر الأولى .

٨٨٠ فالريح تخلصه ، وتحمله إلى معدنه رويداً رويداً ، بينما أنت لا تبصر فعلها !

وعلى هذا النحو تستلب أنفاسنا أرواحنا رويداً رويداً من حبس هذه الدنيا .

فإليه يصعد أطيابُ الكلم   صاعداً منا إلى حيث علم[2]

ترتقي أنفاسنا بالمنتقي   مُتحَفاً منا إلى دار البقا

---

(١) الهاوية اسم لجهنم . قال تعالى في سورة القارعة : « وأما من خفّت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه ، نار حامية » (١٠١ : ٧ — ١١)

(٢) هذا البيت والأبيات الأربعة التي تليه من نظم جلال الدين بالعربية . ويتجلى بوضوح ضعف شعره العربيّ إذا قورن بشعره الفارسيّ .

ثم تأتينا مكافاةُ المقال ضِعْف ذاك رحمةً من ذي الجلال

٨٨٥ ثم يلجينا إلى أمثالها كي ينال العبدُ مما نالها

هكذا تعرجْ وتنزلْ دائماً ذا فلا زلت عليه قائماً

وتفسير ذلك [١] : إنّ هذا الجذب يجيء من ذلك الجانب الذي وقع فيه الشراب .

فكلّ قوم يتّجهون بأعينهم إلى ذلك الجانب ، الذي تحققت لهم فيه – ذات يوم – إحدى اللذّات .

ومن اليقين أن ذوق كلّ جنس يكون من جنسه ، وكذلك يكون ذوق الجزء من كله ، فتأمل !

٨٩٠ إلا ما من الأجناس قابلاً الاتّحاد بغيره ، فإنّه ، عندما يتحد بالغير ، يصبح من جنسه .

ومثال ذلك الماء والخبز ، لم يكونا من جنسنا ، فصارا من جنسنا وزادا في كياننا !

فالماء والخبز ليست لهما صورتنا الجنسية ، ومع هذا ، فلتعدّهما من جنسنا باعتبار مآلهما آخر الأمر !

وإذا كان لنا ميل لغير جنسنا فلعلّ ذلك لأنّه يشبه جنسنا .

وكلّ مشابهة (ظاهريّة) تكون عارية [٢] ، والعارية لا تبقى في عاقبة الأمر .

٨٩٥ فالطير مهما أعجبها الصفير ، تفزع وتفرّ ، إن لم تجد (صاحبه) من جنسها .

---

(١) حرفياً : والمعنى بالفارسية .....

(٢) العارية هنا الشيء المستعار والمراد أنّ كل مشابهة ظاهرية ليس لهـا حقيقة ثابتة ولا وجود ثابت .

والظمآن يعجبه السراب ، ولكنـه – حين يصل إليه – يهرب منه ، ويبحث عن الماء .
ومهما سعد المفلسون بالذهب الزائف ، فإنّ أمره (لامحالة) يفتضح في دار الضرب .
فحتى لا يصرفك الذهب الزائف عن الطريق ، وحتى لا يلقي بك الخيال المعوجّ في بئر (المهالك) ،
اطلب تلك القصة في كتـاب كليلة ودمنة ، وانشُد ما اشتملت عليه من عظة .

كيف دعا الوحوش الأسد إلى التوكل وترك السعي

٩٠٠ كانت طائفـة من الوحوش في واد طيّب ، وكانت دائمة الذعر من الأسد .
لقد أصبح هذا المرعى غير هنيء لجملة الوحوش ، لأنّ الأسد ، كثيراً ما خرج من مكمنة ، واختطفها .
فاحتالوا للأمر ، وجاءوا الأسد (قائلين) : « إننـّا سوف نشبعك دوماً بوظيفة (ثابتة) .
فلا تبغ صيداً بعد تلك الوظيفة حتى لا يصبح ذلك المرعى لنا مرّ المذاق » .

كيف أجاب الأسد الوحوش وذكر لها فائدة السعي

فقال الأسد : « أقبلُ إنْ رأيت منكم وفاء لا مكراً ، فكم بلوت المكر من زيد ومن بكر .

٩٠٥ فإنيّ ضحيّةُ فعل الناس ومكرهم ، إنيّ لديغُ الحية والعقرب !
ولكنّ إنسان نفسي ، الكامن في كياني ، أسوأ من كل النــاس في مكره وغدره .
ولقد سمعتْ أُذني قول الرسول : (لا يـــلدغ المؤمن من جحر مرتين) ، فاخترت هذا بقلبي وروحي » .

كيف رجّح الوحوش التوكل على السعي والاكتساب

فقالت جملة الوحوش : « أيّها الحكيم العالم ، دع الحذر فليس يُغني عن قدر .
إنّ في الحذر الحيرة البـالغة والشرّ ، فاذهب وتوكـّل على الله ، فالتوكـّل خير .
٩١٠ ولا تضرب بقبضتك القضاء — أيّها العنيف الحادّ — حتى لا يلتحم القضاء في صراع معك .
فالمرء يجب أن يكون ميّتا أمام حكم الحق ، وإلا جاءته الضربةُ من ربّ الفلق » .

كيف رجّح الأسدُ السعي والاكتساب على التوكـّل والتسليم

فقال الأسد : « إذا كان التوكـّل هو المرشد (الصادق) ، فإنّ (الإفادة) من الأسباب هي أيضاً سنة النبيّ .

فقد نادى الرسول بأعلى صوته : « اعقل فخذ بعيرك وتوكّل على الله » . [1]

واستمع إلى مغزى قول القائل : « الكاسب حبيب الله » ، ولا تكن بتوكّلك متراخياً عن الأسباب والوسائل !

كيف رجّحت الوحوش التوكّل على الاجتهاد

٩١٥ فقالت الوحوش للأسد : « أعلم أنّ الكسب من ضعف الخلق ، وأنه لقمة مزوّرة على قدر الحلق !

فليس هناك كسب أحسن من التوكل ، وأيُّ شيء أحبّ (إلى الله) من التسليم ؟

فكم يفر المرء من بلاء ليقع في بلاء آخر ! وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقي التنّين !

لقد احتال الانسان فكانتْ حيلته شركاً وقع فيه ، وكان موته فيما حسب أنه حياته !

فقد أوصد الباب والعدوّ في منزله ! وإنّ حيلة فرعون لم تكن إلا قصة من ذلك النوع .

٩٢٠ فهذا الحقود قد قتل أُلوف الأطفال ، بينما كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله !

---

(١) جاء في حديث مروي عن أنس بن مالك أنه قال : جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله أدعها وأتوكل ، فقال : أعقلها وتوكل . (الرسالة القشيرية ، ص ٧٦ ، مكتبة صبيح ، القاهرة ١٩٤٨) .

إنّ بصرنا يعاني الكثير من العلـــل ، فاذهب وأفنِ بصرك في بصر الحبيب !
فإذا أصبح إبصارُنا إبصارَه فما أجمل العوض ! إنك ببصره ، تجد كلّ أمل تتطلع إليه .
فالطفل ما لم يشتدّ ساعده ويقو على الجري ، فليس له من مركب سوى عنق أبيه .
فإذا ما أظهر الفضول ، واستخدم يديه ورجليه ، وقع في العناء والشقاء .
٩٢٥ إن أرواح البشر – قبل خلق الأيدي والأرجل – كانت – لوفائها – تحلق في جو الصفاء .
وعندما قُيّدت الأرواح بأمره تعالى : « اهبطوا[1] » ، صارت أسيرة الغضب والحرص والرضى .
إننا عيالُ الله ، نطلب منه اللبن . وقـــد قال(الرسول) : « الخلق عيال[2] الله » .
فذلك الإله الذي يُنزل الغيث من السماء ، قادر أن يمنحنا الخبز رحمة منه وإشفاقاً » .

كيف كرّر الأسد ترجيح السعي على التوكل

فقال الأسد : « نعم ! ولكنّ ربّ العباد وضع سلّماً أمام أقدامنا .
٩٣٠ فالواجب أنْ نصعد السُلّم درجة درجة نحو القمة . وأما القول

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ » . (٢ : ٣٦) . أو إلى قوله : « قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (٢ : ٣٨)
(٢) يقصد هنا الحديث الذي رواه ابن مسعود عن الرسول (ص) وفيه يقول : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

بالجبر هنا فإنّه طمع ساذج .

إنّ لك ساقين ، فكيف تجعل من نفسك إنساناً أعرج ؟ . وإن لك يدين ، فكيف تخفي أصابعك ؟

فالسيّد عندما يضع الفأس في يد عبده ، يتضح مرادُه دون حاجة إلى القول .

فاليدُ مثل الفأس ، إشارة منه إلينا (لنسعى) ، والتفكر في العقبي عباراتُه (الموجّهةُ إلينا) .

فإنْ جعلت إشاراته في قلبك ، ضحيت بروحك من أجل تحقيق ما أشار به .

٩٣٥ فإشاراته تمنحك الأسرار ، وتضع عنك وزرك ، وترفع قدرك .[١]

وإنّ حمل (أمانته) ليجعلنّك محمـــولاً إلى علّيين ، وإن تقبّل (أوامره) ليجعلنّك مقبولاً عنده .

وإذا قبلت أمره أصبحت ناطقاً (بأمره) ، وإن كنت تبغي الوصل أصبحت واصلاً من بعد ذلك (القبول) .

إن السعي لشكر نعمته لهو القدرة (والاختيار) ، وأما إنـكار النعمة فهو الجبر .

فشكرك على القدرة ، يزيد من قدرتك (وحرية إرادتك) ، وأما الجبر فيُخرج تلك النعمة من يديك .

٩٤٠ واعتقادك الجبر مثل النوم في الطريق ، فلا تنم ! وكن يقظاً حتى ترى الباب والصرح !

حذار أيها الجبريّ الذي لا يعتبر ! لا تنم إلا تحت هذه الشجرة المثمرة !

---

(١) الشطر الأول من هـــذا البيت كما ورد في طبعة نيكولسون هو : « بس اشارتهاي أسرارت دهد » ، وترجمته : « وإنه ليعطيك الكثير من علائم الأسرار » . ولكننا فضّلنا على هذا نصّ الشطر كما ورد في المنهج القوي . « پس إشارتهاش أسرارت دهد » .

فلسوف تهزّ الريح الغصون في كل لحظة فتُساقِطُ على النائم نُقلاً وزادا .
إن (اعتقاد) الجبر كالنوم بين قُطّاع الطرق ، وهل يجد الأمان
طائرٌ لم يكتمل جناحاه ؟
فإذا شمخت بأنفك (وتعاليت) على أوامره فأنت — لو تحقّقت
الأمر — امرأة وإن حسبت نفسك رجلا[1] .

٩٤٥ ويضيع منك ما لديك من عقل ، وما رأس بلا عقل سوى ذَنَب .
إن كفران النعمة شؤم وعار . إنه يلقي بصاحبه إلى قرار النار .
فإذا توكلت على الله فتوكل عليه في عملك ، ألق البذور ثم توكل
على الخالق الجبار .

كيف عاودت الوحوش ترجيح التوكل على الجهد

فعلا صوتُ الوحوش جميعاً قائلين للأسد : « ما هؤلاء الحريصين
الذين زرعوا الأسباب
وهم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء ـ ظلّوا محرومين من مواتاة الزمن ؟

٩٥٠ فقد مرّت آلاف القرون منذ بدء العالم ، وكان كل منها يفغر مائة
فم كفم التنيّن .
فهذا فريق من الأذكياء مكر مكراً كاد يقتلع الجبال من أساسها .
ووصف ذو الجلال مكرهم (بقوله) : « وإنْ كان مكرهم لتزول
منه الجبال[2] » .
فلم يحقق لهم ذلك الصيد والعمل إلا ما قُسم لهم منذ الأزل !

---

(١) في البيت جناس بين كلمتي « زني » بمعنى تضرب « وزني » بمعنى امرأة .
(٢) سورة ابراهيم ، ١٤ : ٤٦ .

لقد فشلوا جميعاً في التدبير والعمل ، وبقي قضاء الخالق وأحكامه .

٩٥٥ فيا نابه الذكر ! اعلم أنّ الكسب ليس سوى الذكر الحسن ! وأنت أيها الخبيث ! لا تحسبنّ الجهد إلا وهماً وهباء » .

كيف نظر عزرائيل إلى رجل ، وكيف فرّ ذلك الرجل إلى قصر سليمان ، وتقرير رجحان التوكّل على الجهد (وبيان) قلة فائدة الجهد

في ضحى أحد الأيام جاء رجل حرّ [1] إلى قصر سليمان ، واندفع إلى بهو عدالته .

لقد كان — من الهمّ — أصفر الوجه أزرق الشفاه . فقال له سليمان : « ما ذا بك أيها السيّد ؟ » .

فقال (الرجل) : « إنّ عزرائيل قد نظر إليّ نظرة مشحونةً بالغضب والبغضاء ! » .

فقال سليمان : « وما الذي تريده الآن ؟ سلني ! » فقـــال الرجل : « يا ملجأ روحي ! مر الريح

٩٦٠ أنْ تحملني من هنا إلى بلاد الهند ، فلعلّ عبدَك ينجو بروحه عندما يصل إلى تلك البلاد » .

فهكذا يفرّ الخلقُ من الفقر ، وهم — من جرّاء ذلك — لقمةٌ (في فم) الحرص والأمل !

فخوف الفقر يشبه الخوف في هذه القصّة ، وأما الحرصُ والسعي فيشبهان الهند .

فأمر سليمان الريح أن تسرع ، فتطير به فوق الماء إلى أقصى بلاد الهند .

---

(١) ترجمة « زاد مردي » . وفي نص المنهج القوي « ساده مردي » أي رجل غرّ .

وفي اليوم التالي – ساعة الديوان واللقاء – قال الملك سليمان لعزرائيل :
٩٦٥ أنظرتَ بغضبٍ إلى ذلك المُسلم ، لكي يشرُدَ بعيداً عن دياره ؟ ».
فقال عزرائيل : « متى نظرتُ إليه بغضب ؟ إنني نظرتُ إليه متعجِّباً عندما رأيته في الطريق !
فقد أمرني الحقّ أنْ أقبض اليوم روح ذلك الرجل في بلاد الهند .
فقلت متعجّباً : لو أنّ لهـذا الرجل مائةَ جناح ، فإنّ وصوله (اليوم) إلى الهند أمرٌ بعيد » .
فلتقس أمور الدنيا على ذلك ، ولتفتحْ عينيك وتتأملْ .
٩٧٠ فممن َنفرُّ ؟ أمن أنفسنا ؟ إنّ هذا لهو المحال ! وممن نختبىء ؟[1]
أمن الله ؟ ذلك عين الوبال !

الأسد يعود لِترجيح الجهد على التوكّل ، ويبيّن فوائد الجهـد

فقال الأسد : « نعم ! ولكن أنظروا أيضاً إلى الجهود التي بذلها الأنبياء والمؤمنون !
لقد بارك الله تعالى جهودهم ، وما لاقوه (فيها) من جفاء وحرّ وبرد.
فجاءت تدابيرُهم في جملة الأحوال لطيفةً ، وكلّ ما جاء من لطيف فهو لطيف .
لقد صادت شباكُهم طائرَ الفلك ، وتحققت لهم الزيادة في كل ما كان ينقصهم .
٩٧٥ فاجتهد أيها السيّد ما استطعت في اتباع طريق الأنبياء والأولياء .

(١) آثرنا ترجمة برابيم (من ربودن) على هذا النحو ، فالاختفاء أحد معانيها .

وليس الجهاد في مغالبة القضاء ، ذلك لأنّ القضاء هو الذي فرض علينا ذلك الغِلاب [1] .

وأكون كافراً لو أنّ السائر في طريق الإيمان والطاعة أحدث في أية لحظة ضرّا .

إنّك لست مكسور الرأس ، فلا تعصب رأسك ! وابذل جهدك يوماً أو يومين [2] ثم اضحك إلى الأبد !

ومن طلب الدنيا فقد أراد سوء المقام ، وأما من طلب العُقبى فقد تطلّع إلى صلاح الحال .

٩٨٠ إنّ المكر لِكَسْبِ الدنيا بارد (سقيم) ، أما المكر لتركها فوارد (مقبول) .

فالمكر يكون بإحداث حفرة في السجن (يهرب منها السجين) ، فمن سدّ مثل هذه الحفرة فمكره سقيم .

إنّ هذه الدنيا سجن نحن به سجناء ، فاحفر في ذلك السجن حفرة ، وخلّص نفسك .

فما هـــذه الدنيا ؟ إنّها الغفلة عن الله ، وليست قماشاً وفضة وميراثاً [3] ونساء .

وإنّ المال الذي تحمله من أجل الدين لهو نعم المال الصالح [4] كما قال الرسول .

٩٨٥ فالماء في السفينة هلاكٌ لها ، وأما تحت السفينة فهو سند لها .

---

(١) يريد أن يقول إن مغالبة القدر ليست جهاداً ، لأن الانسان لا يقوم بها بادئاً ، وإنما هي مفروضة عليه من القدر الذي يهاجمه ، فيحاول إذ ذاك أن يدفع عن نفسه غائلته .

(٢) ابذل جهدك في تلك الحياة القصيرة ثم اضحك الى الأبد في عالم الخلود .

(٣) في طبعة نيكولسون : « ني قماش ونقره وميزان وزن » . ولعل كلمة ميزان تحريف لميراث ، وفي طبعة المنهج القوي : « ني قماش ونقره وفرزند وزن» ، (وليست قماشاً وفضة وبنين ونساء) .

(٤) إشارة إلى قول الرسول ، عليه السلام : نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وما كان سليمان يلقّب نفسه إلا بالمسكين ، وذلك لأنّه صرف من من قلبه (الاعتزاز) بالمال والملك .

إنّ الكوز — إذا وُضعت في المياه الغامرة — تطفو فوق الماء لامتلاء جوفها بالهواء .

فإذا كان باطن المرء مليئاً بهواء المسكنة ، بقي ساكناً على صفحة ماء الدنيا .

ولو كانت الدنيا بأكملها ملكاً له ، فإن هـذا الملك يبدو عديم القيمة أمام عين قلبه .

٩٩٠ فأغلق فم قلبك واختم عليه ، ثم املأ قلبك بهواء الكبر المنبعث من عالم الملكوت الأعلى[١] .

فالجهد حقّ كما أنّ الدواء حقّ ، والمرض حقّ ، وما منكر الجهد إلا جاهد في إنـكار جهده » .

تقرير رُجحان الجهد على التوكل

ولقد ذكر كثيراً من البراهين على هـذا النحو ، حتى عجز هؤلاء الجبريون عن جوابه .

فالثعلبُ والغزال والأرنب وابن آوى تركوا القول بالجبر ، وانصرفوا عن الجدال .

وعقدوا العهود مع الأسد المفترس (مؤكـّدين) له أنـّه لن يضارّ من هذا الاتفاق .

---

(١) صحح نيكولسون نص هذا البيت في تعليقه عليه ، فهو يرى أن تقرأ عبارة « بادگير من لدن » بصورة أخرى هي «بادكبر من لدن». وهناك روايات أخرى لهذه العبارة هي « باد مهر من لدن » ، « باد علم من لدن » .

٩٩٥ وأنّ رزقه اليومي سيأتيه بدون عناء ، فلا تكون له حاجة بعد
إلى مزيد من الطلب .
فكل من كانت تقع عليه القرعة يوماً ، كان يقفز مسرعاً كالقرد
نحو ذلك الأسد .
وعندما جاء دورُ الأرنب ليتجرّع تلك الكأس ، صاح قائلاً : « أما
من نهاية لهذا الجور ؟ » .

كيف أنكر الوحوش على الأرنب تأخره في الذهاب إلى الأسد

فقالت له الوحوش : « إنّنا كثيراً ما ضحّينا بأنفسنا من أجل
العهد والوفاء .
فلا تجلب لنا سوء السمعة أيّها العنيد ! وأسرعْ بالذهاب ، حتى
لا يضيق صدر الأسد » .

جواب الأرنب للوحوش

١٠٠٠ فقال الأرنب : « أيّها الرفاق ! أمهلوني رويداً حتى تخلصوا بمكري
من هذا البلاء !
فتجد أرواحكُم الأمانَ بمكري ، ويبقى ذلك الأمان ميراثاً
في عقبكم .
فكلّ نبيّ كان يدعو أمّته – مثلما أدعوكم – حتى يخلّصها .
فهو الذي رأى في السماء طريق النجاة ، على حين ظلّ هذا الطريق

– في نظر الناس – منطوياً في الخفاء ، كأنه إنسان العين .
لقد رآه الناس صغيراً كإنسان العين ، ولكن لم يسلك أحدٌ منهم
سبيل التفكـّر في عظمة ذلك الإنسان الصغير » .

كيف اعترض الوحوش على كلام الأرنب

١٠٠٥ فقالت الوحوش : « أيّها الأرنب المغرور [١] . إنـّك أرنب فلا
تجاوز بنفسك حدّ طاقتها !
أيّ كلام دار بخلدك بدون أنْ يكون قد دار بخاطر من هم
أفضل منك ؟
أمصابٌ أنت بالعُجْب ؟ أم أنّ القضاء يلاحقنا ؟ وإلا فمتى كان
مثل هذا القول لائقاً بك ؟ » .

الأرنب يجيب طائفة الوحوش

فقال الأرنب : « أيها الصحاب ! إنّ الله ألهمني ، فوقع لضعيف
مثلي رأى قويّ !
ولقد علـّم الله النحل ما لا يتحقـّق علمه للأسد أو لحمار الوحش !
١٠١٠ فهي تصنع بيوتاً مليئة بالشهد ، وهذا باب من العلم فتحه الله لها !

---

(١) في نص المنهج القوي : « قوم گفتندش كه اي خرگوش زار » . ومن معاني زار « مغرور » ، « حقير » . أما طبعة نيكولسون فهي : « قوم گفتندش كه اي خرگوش دار » : والمعنى : « قالت الوحوش للأرنب : أصغ الينا أيها الحمار » .

وتلك الحيلةُ التي علـّمها الحقّ دودة الحرير ، أيعلم فيلٌ مثلها ؟
إن آدم – وهو المخلوق من الطين – تعلـّم العلم من الحقّ ، فأشرقت أنوارُ علمه في أعلى سماء[1] .
فحطـّم اسم الملائكة وعزّتها ، وأعمى بصيرة من خالجـه الشكُّ في الحقّ .
ولكنّ هذا الزاهد خلال آلاف السنين (إبليس) وضع خطاماً على فم ذلك العجل[2](آدم) .
١٠١٥ حتى لا يستطيع ارتشاف لبن علم الدين ، ولا يدور حول ذلك القصر المشيد[3] .
ولقد صارت علوم أهل الحسّ خطاماً في فم البشر ، فلم تدعهم يشربون لبان ذلك العلم (الروحانيّ) الرفيـع .
ولكنّ الله ألقى في سويداء القلب جوهرة ، لم يودع مثلهـــا في البحار ولا في الأفلاك .
فيا عابد الصورة ! إلام إعتدادك بالصورة ؟ إنّ روحك المجرّدة من الحقيقة لم تتحرّر منها !
فلو كانت الإنسانية بالصورة (وحدها) لتساوى أحمد وأبو جهل .
١٠٢٠ إن النقش على الحائط يكون على صورة الإنسان ، ولكنْ تأمل ! كم ينقص تلك الصورة من الصفات الآدمية !

---

(١) الترجمة الحرفية : في السماء السابعة . (٢) هذا بيت غامض في ظاهره . وقد اطلعت على شروح كثيرة له لم أقتنع بأيّ منها ، ذلك لأنها لا تتمشى مع المعـــاني الواردة في الأبيات التالية . ولا يتسع المقام هنا لمناقشة كل هذه الشروح وبيان خطئها .
(٣) واضح من هذا البيت أنّ الخطام الذي وضعه إبليس على فم آدم كناية عن إضلاله البشر بصرفه إياهم عن تذوق المعرفة الحقيقية وسلوك السبيل إليها ، والمعرفة الحقيقية هنا عبَّر عنهـــا بقوله (لبن علم الدين) . وأما القصر المشيد فهو مرتبة الكمال التي يطمح إليها الإنسان ، فالخطام يصرفه عن الدوران حولها لمحاولة الوصول اليها .

فهذه الصورة اللامعة ينقصهـــا الروح ، فاذهب وفتّش عن ذلك الجوهر النادر الوجود .

إنّ أسود العالم كلها قد انخفضت رؤوسها ، عندما أمدّ الله بعونه كلب أصحاب الكهف .

وأيّ ضرر قد حاق به من شكله القبيح ، ما دامت روحُه قد أصبحت غارقة في بحر النور ؟

وليست الأقلام لوصف الصورة ، فليس في الكتب إلا صفات مثل « عالم » و « عادل » .

١٠٢٥ ومثل تلك الصفات ليست إلا معاني مطلقة ، وإنّك لن تجدها في مكان ، لا أمامك ولا وراءك .

إنّها صفات تنفذ إلى الجسم من اللامكان ، ذلك لأنّ شمس الروح لا يسعها الفلك ! .

ذكر علم الأرنب ، وبيان فضيلة العلم ومنافعه

إنّ هذا الكلام لا نهاية له ، فتنبه وأصغ إلى قصة الأرنب .

وبع أذنك الحماريّة (الحسيّه) واشتر أذناً أخرى ، فإنّ أذن الحمار لا تفهم هذا القول !

ثم اذهب ، وتأمل تلك الحيل الثعلبية التي لعبها الأرنب ، وانظر مكر الأرنب وخطته لاصطياد الأسد !

١٠٣٠ إنّ العلم خاتم ملك سليمان ، فالعالم كلّه صورة والعلم هو الروح .

وبفضل العلم ، لم تبق لمخلوقات البحار ، ولا الجبال ، ولا الصحارى حيلة أمام الإنسان .

فالنمر والأسد يرهبانه ، فهما أمامه مثل الفأر ! وتمساح النهر من

خوفه (أصابته) الصفراء ، (وتملكه) الاضطراب !
ومن (خوف) الإنسان ، لجأت الجن والشياطين إلى السواحل ، واتّخذ كلّ منها مكاناً خفيّا .
وما أكثر ما اختفى من أعداء الإنسان ! فالعاقل من كان حذراً .

١٠٣٥ ففي الخفاء خلائق محتجبة ، منها الشرير ومنها الخيّر ، وهي في كلّ لحظة تدق القلب بضرباتها !
إنّك لو ذهبت للاغتسال في النهر ، أوقعت بك الضرّ شوكة في الماء .
فالشوكة تكون مختفية في قاع الماء ، ولكنّك تعلم بوجودها من وخزها .
وإنّ وخز أشواك الحيل والوساوس ليجيء من آلاف الأشخاص ، لا من شخص واحد [١] .
فاصبر حتى يتبدّل حسّك (الماديّ) ، [٢] فترى هذه الكائنات الخفيّة ، وتُحلّ المشكلة .

١٠٤٠ فإنّك حينذاك تعلم (حقيقة) من خالفت رأيهم ، وتدرك (كنه) من أوليتهم قيادك .

كيف عاودت جماعة الوحوش مطالبة الأرنب بالافصاح عن سرّ تفكيره

فقالت الوحوش – بعد ذلك – للأرنب : أيّها الأرنب الخفيف الحركة !

---

(١) يمكن أن يُقرأ الشطر الثاني من البيت : « ازهزاران حس بود نا يك حسه » . فيكون معنى البيت : « إنّ وخز أشواك الحيل والوساوس ليجيء من آلاف الأحاسيس لا من حس واحد » .

(٢) أي حتى يتبدل حسك المادي فتصبح ذا إحساس روحيّ نافذ .

أفصح لنا عما هو كامن في إدراكك .
يا من اشتبكت مع الأسد في صراع ، أَبِنْ لنا ذلك الرأي الذي فكّرت فيه !
إنّ الشورى تلهم الإدراك والفهم ، كما أنّ العقل يلقى العون من العقول الأخرى .
ولقد قال الرسول : يا مبرم الرأي ! شاور في الأمر ، « فالمستشار مؤتمن [1] » .

كيف أخفى الأرنب سره عن الوحوش

١٠٤٥ فقال الأرنب : « ليس كلّ سرّ مما تجوز إذاعته ، (ففي اللعب) قد قد ينقلب العدد الزوجي فردياً ، وقد يأتي الفرديّ زوجيّا [2] .
وإن أنت تنفست في وجه المرآة لتجلو صفحتها فسرعان ما تصبح مظلمة أمام أعيننا [3] .
فعليك بالإقلال من الحديث عن أمور ثلاثة (تلك هي) ذهابك ، وذهبك ، ومذهبك .
فكم لك من خصم أو عدوّ في كلّ من تلك الأمور ، يقف لك بالمرصاد عندما يعلم بأيّ منها !
فلو أخبرت بسرّك رجلا أو رجلين فوداعاً له ، فكلّ سرّ جاوز الإثنين شاع .

---

(١) جاء في الحديث قول الرسول (ص) : المستشار مؤتمن .
(٢) الأعداد هنا تشير إلى إحدى لعب العجم والمقصود أنه قد يقع ما ليس في الحسبان . (٣) الترجمة الحرفية : وإن أنت من أجل صفاء المرآة تنفست في وجهها فسرعان ما تصبح تلك المرآة مظلمة أمامنا .

١٠٥٠ ولو ربطت اثنين أو ثلاثة من الطير برباط واحـد ، بقيتْ على الأرض حبيسة الألم .

ولكنـّها تدير فيما بينها مشورة بالغة الخفاء ، يمتزج غموضها بما يخدع (من يلحظها) !

ولقد كان الرسول يُجري مشورته بطريقة مستترة ، فكان يجيب صحابه دون أن يذيـع سرّاً !

إنـّه كان يُعلن رأيه بكلام اتخـذ صورة المثل حتى يلتبس الأمر على الخصم ، فلا يعرف الرأس من القدم .

وكان يحصل على جوابه من خصمه ، بينما كان الخصم لا يدرك من سؤال الرسول سوى رائحته .

قصة مكر الأرنب

١٠٥٥ لقد تأخـّر الأرنب في الذهاب ساعة ، ثم مثل أمام الأسد المتحفـّز المخالب .

فكان من تأخـّر الأرنب في الذهاب ، ما جعل الأسد يمزّق الأرض ويزأر .

وقال : « لقد قلت إنّ عهد هؤلاء الأخساء عهدٌ فجّ واه ، لا يتحقق .

إنّ هراءهم قد أوقعني من فوق حماري [١] ؛ فإلام إلام يخدعني هذا الدهر ؟ »

فما أعجز الأمير ذا اللحية الواهية[٢] ! إنه لحماقته لا يرى ما وراءه ولا ما أمامه !

---

(١) قد خدعني . (٢) اللحية التي توحي بالحكـمـة دون أن يكون هناك عقل وحكمة عند صاحبها .

١٠٦٠ والطريق يبدو مستوياً ، على حين تكمن فيه الحفر ، والأسماء (كثيرة) ولكنّها تفتقر إلى المعنى .

إنّ الألفاظ والأسماء مثل الحبائل ، واللفظ الحلو هو الرمل الذي يتشرب ماء عمرنا .

وهناك رمل واحد يتفجر منه الماء ، رمل نادر الوجود ، فانطلق وفتّش عنه .

ومن طلب الحكمة أصبح منبع الحكمة ، وفرغ من التحصيل وأسبابه .

فاللوح الحافظ ، يصبح – (لطالب الحكمة) – لوحاً محفوظاً ، وعقله يغدو ذا حظّ من الروح .

١٠٦٥ إنّ العقل – (في أول الأمر) – يكون معلّماً للمرء ، ولكنّه – بعد ذلك – يصبح تلميذاً له .

العقل مثل جبريل ، يقول : « يا أحمد ! لو أنّني خطوت خطوة أخرى ، فسوف أحترق .

فدعني هنا ، وتقدّم وحدك ! إنّ هذا حدّي يا سلطان الروح ! »

وكلّ من بقي – لتراخيه وكسله – بلا شكر ولا صبر ، فهو يعلم أنّه يسير في طريق الجبر .

وكل من اتخذ الجبر مذهباً ، أمرضه الجبر ، ولازمه حتى يودعه في قبره .

١٠٧٠ ولقد قال الرسول : « إنّ من يتمارض يمرض حتى يموت كما ينطفىء السراج [١] » .

فما الجبر ؟ إنّه ربط لعضو قد كُسر ، أو وصل لعرق قد قطع [٢] .

فإذا لم تكن قدمك قد كُسِرتْ في تلك الطريق ، فممن تهزأ ؟

---

(١) إشارة إلى قوله عليه السلام : « لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا » .

(٢) هنا يسخر من الجبر وهو ضد حرية الإرادة فيستخدم الكلمة لهذه المعاني التي اشتمل عليها البيت .

ولماذا ربطت تلك القدم ؟

ومن يكسر قدمه في طريق الاجتهاد ، يصل إليه براق يمتطيه .

لقد كان حامل الدين ، فأصبح محمولاً ، وكان قابلا أمر الله فأصبح مقبولاً (عنده) .

١٠٧٥ كان – حتى ذلك الحين – يتلقى الأمر من الملك ، ثم أصبح حامل أمر الملك إلى الجيش .

وحتى ذلك الحين كانت الكواكب تؤثر فيه [١] ، ثم أصبح – بعد ذلك – أميراً للكواكب .

وإذا أُشكل الأمر عليك وأنت تتأمل هـذه الحقائق ، فأنت في شكٍّ من قوله تعالى : « انشقّ القمر [٢] » .

فجدِّد إيمانك (بحقّ) لا بقول اللسان ، يا من أيقظت هواك في الخفاء !

فطالما كان الهوى منتعشاً فلا انتعاش للإيمان ، فليس الهوى إلا قفل هذا الباب !

١٠٨٠ لقد أوّلت الكلمة البكر [٣] ، وكان الأولى بك أن تؤوّل نفسك ، وتدع تأويل الذكر .

إنّك تؤوّل القرآن على هواك ، ولذلك أصبح المعنى السَّنِيّ – بتأويلك – وضيعاً معوجاً .

---

(١) كان كالبشر العاديين خاضعاً لتأثير الكواكب ، ولكنه بعد أن خلص من سجن المادة خلص من تأثيرها وارتفع إلى المكانة التي تجعله أميراً عليها .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة القمر « اقتربت الساعة وانشق القمر » . (٥٤ : ١) . ومعنى ذلك ، إذا عددت هذه الأمور التي أحدثتك عنها من قبيل المحال ، فأنت في شك من المعجزات .

(٣) الطاهرة ، النقية .

زيف التأويل الركيك الذي قالت به الذبابة

كانت ذبابة على عود قش فوق بول حمار ، وقد رفعت رأسها كربّان السفينة !

وقالت : « إني أسمّيها بحراً وسفينة ! وهذا ما استغرق فكري مدة من الزمان !

فانظر هذا البحر وتلك السفينة ، وأنا (فوقها) الربان البارع الحصيف الرأي ! » .

١٠٨٥ فكانت هذه الذبابة تسيّر سفينتها على صفحة البحر ، وقد بدا لها هذا القدر ماء لا يحدّ .

لقد كان هذا البول يبدو بلا حدود بالنسبة لها ، ومن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته ؟

إنّ عالمها يمتد إلى المدى الذي يدركه بصرها ، فعلى قدر العين يكون مدى بحرها .

فصاحب التأويل الباطل مثل الذبابة وَهْمُه بول حمار ، وتصوّره قشّة .

ولو أنّ هذه الذبابة تركت التأويل ، ولزمت رأيها ، لصيّرها الجدّ السعيد عنقاء .

١٠٩٠ فمن يدرك هذه العبرة لا يكون ذبابة ، كما أنّ هذه الصورة لا تليق بروحه .

كيف غضب الأسد وزجر لتأخر الأرنب في الحضور

فمن هذا القبيل ذلك الأرنب الذي ضرب الأسد ! فمتى كانت روحه على قدر جسمه ؟

لقد كان الأسد يقول في حدة وغضب : « إنّ عدوّي قد حجب عينيّ عن طريق السعي والاجتهاد .

لقد كبّلني مكر هؤلاء المجبرين ، كما أنّ سيفهم الخشبيّ آلم جسمي .

فلن أصغي من بعدُ إلى هـذا الهراء ، فما هو إلا صوت الشياطين والغيلان .

١٠٩٥ فمزّقهم أيّها القلب ، ولا تتوان (في ذلك) ! مزّق جلودهم ، فما هم إلا جلود !

وما الجلد ؟ إنّه الكلام المزوّق ، الذي لا دوام له ، كأنّه الفقاقيع فوق الماء !

فاعلم أنّ الكلام مثل الجلد ، والمعنى لبابهُ ، وأنّه مثل الصورة ، وأما المعنى فمثل الروح .

والجلد هو الذي يستُر عيب اللباب الفاسد ، كما أنّه يحرص على أن يغطّي اللباب الطيّب .

وحينما يكون القلم هواء والدفتر ماء فسرعان ما يفنى كلّ ما تكتبه !

١١٠٠ فهذا نقش على الماء ، فلو نشدت له الدوام ، عدت (خائباً) تعضّ يديك .

والهواء في الإنسان ميوله ورغائبه ، فإذا تركت هواك، (صرت جديراً) برسالة الله .
وما أحلى رسائل الخالق ! إنّها خالدة من أوّلها إلى آخرها [١].
إنّ خُطَب الملوك تفنى ، كما يفنى سلطانهم ، ويخلد مجدُ الأنبياء كما تخلد أقوالهم .
ذلك لأنّ مجد الملوك من الهواء ، وأما مجد الأنبياء فمن مقـــام الكبرياء !
١١٠٥ وأسماء الملوك تُرفع من الدراهم بعد موت هؤلاء ، وأما اسم أحمد فيظلّ يُطبع فوقها إلى الأبد .
واسم أحمد هو اسم جميـع الأنبياء ، فعندما يصل العدد إلى المائة تكون التسعون معنا [٢].

عود إلى بيان مكر الأرنب

لقد تلكأ الأرنب في الذهاب طويلا ، وأخـــذ يدرّب نفسه على المكر الذي انتواه .
فمضى على الطريق – بعـــد طول الإبطاء – ليهمس في أذن الأسد بسرّ أو سرّين .
وكم من عوالم تصل إليها تجارة العقل ! وما أوسع المدى الذي تمتدّ إليه بحار الفكر !

---

(١) حرفياً : من رأسها إلى قدمها . (٢) لما كان محمد خاتم الأنبيـــاء كان ذكره متضمناً ذكر الأنبياء الذين سبقوه ، فهو مثل العدد اللاحق يتضمن مـــا سبقه من الأعداد .

١١١٠ وصوُرنا تتحرك مسرعة فوق ذلك البحر العـــذب [١] ، كأنّها
الكؤوس فوق سطح الماء .
وهي كالإناء [٢] تظل طافية ما لم تمتلىء ، فإنّ الإناء إذا امتلأ غرق
في الماء .
والعقل محتجب (عن العيان) ، وأما الظاهر فهو عالمٌ صورنا فيه
موج أو رذاذ (من بحر العقل) .
وكلما اتخذت الصورة وسيلة (إلى ذلك البحر) ، فإنّ البحر يلقي
بالصورة بعيداً عن وسيلتها ،
حتى لا يرى القلب من أعطاه السرّ ، كما لا يرى السهمُ من قذف به بعيداً.

١١١٥ (ومَثل من لا يرى كمثل) من يعتقد أنّ حصانه ضائع ، على حين
هو يحثّه بعناد على الإسراع في الطريق !
إنّ هـذا الرجل الكريم ، يظنّ حصانه ضائعاً ، مع أنّ حصانه
يمضي منطلقاً به كالريح !
فهو مُشتّت الفكر ، يبحث عنه منتحباً في كلّ مكان ، ويمضي
منقباً ، مستفسراً (عنه) من باب إلى باب .
(قائلاً) : « أين من سرق حصاني ؟ ومن يكون ؟ » (فيجيبه من
يقول) : « فما هذا الذي أنت ممتطيه أيها السيد ؟ »
« نعم هذا حصان ، ولكن أين الحصان ؟ » . « ألا فلتَثُبْ إلى
رشدك أيها الفارس الباحث عن حصانه ! »

١١٢٠ فالروحُ هكذا ، ظاهرة قريبة منا ، (لكنّها) غائبة (عن أعيننا).
فمثلها كمثل البطن ، يملؤه الماء ، على حين جفت الشفتان كحلق
الإبريق !

---

(١) بحر الفكر . (٢) حرفياً : الطست .

وكيف ترى الأحمر والأخضر والورديّ ، إذا لم تر النور قبل هذه الألوان الثلاثة ؟

فأما وقد ضاع عقلك في الألوان ، فقد أصبحتْ هذه الألوان حجاباً لك عن النور !

ولما كانت هذه الألوان تحتجب في الظلام ، فقد رأيتَ كيف أنّ إبصارك اللون ، كان مستمدّاً من النور .

فالألوان لا تُرى بدون النور الخارجيّ ، وهكذا لون الخيال في الباطن .

١١٢٥ والنور الخارجيّ (يجيء) من الشمس ومن السُها ، وأما النور الباطنيّ فمن انعكاس الأنوار العُلى .

والنور الذي في العين ليس إلا نور القلب ، فأنوار العيون حاصلةٌ من أنوار القلوب !

وأما النور الذي في القلب فهو نور الله . إنّه نورٌ خالص من نور العقل والحسّ ، منفصل عنهما .

إنّك لا ترى اللون بالليل ، لأنّه لا نور فيه ، كما أنّ النور قد قد تميّزَ أمامك بضدّه (الظلام) .

فرؤية النور تعقبها رؤية اللون ، وأنت سرعان ما تدرك ذلك بضدّ النور .

١١٣٠ ولقد خلق الله الألم والحزن ، حتى تتضح لك سعادة القلب بضدّها .

إنّ الخفايا تظهر للعين بأضدادها ، ولما كان الحقّ لا ضدّ له ، فهو محتجب (عن الأبصار) .

وكما أنّ النظر يقع على النور ، ثم على اللون ، فإنّ الضدّ يتميّز بضده ، كما يتميّز الروم من الزنج .

إنّك قد عرفت النور بضدّ النور ، فكل ضد يبيّن ضدّه في الصدور .

ولما كان نور الحق لا ضدّ له في الوجود ، حتى يمكن اتّضاحه لنا بهذا الضدّ ،

١١٣٥ فلا جرم أنّه ، « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار[1] » .

ألا فلتتأمل قصة موسى والجبل !

واعلم أنّ الصورة (تقفز) من المعنى كالأسد من الغابة ، أو كالصوت والكلام من الفكر .

فهذا الكلام وذلك الصوت انبعثا من الفكر ، وأنت لا تعلم أين بحر الفكر .

لكنّك حينما رأيت موج الكلام لطيفاً ، أدركت أنّ بحره هو أيضاً شريف .

ولما تدافعَ من المعرفة موجُ الفكر ، جعلتَ له صورة من الكلام والأصوات .

١١٤٠ فالصورةُ قد ولدت من الكلام ثم ماتت ، فعاد الموجُ من جديد إلى البحر .

إنّ الصورة قد خرجت من اللاصورة ، ثم عادت إلى من نحن إليه راجعون .

ففي كل لحظة لك موت ورجعة ! ولقد قال المصطفى : (الدنيا ساعة) .

وفكرنا سهمٌ من الله انطلق في الهواء ، فكيف يبقى في الهواء ؟ إنه يعود إلى الله .

إنّ الدنيا تتجدّد في كلّ لحظة ، ونحن لاندري بتجدّدها ، وهي

---

(١) سورة الأنعام ، ٦ : ١٠٣ .

باقية (على هيئتها الظاهريّة) !

١١٤٥ والعمر - وإنْ بـــدا مستمرّاً في الجسد - فإنّه يتجدّد على الدوام كما يتجدّد ماء النهر .

فهو لسرعته يتخذ صورة الاستمرار ، كالشرر المتطاير (من جمرة) تديرها يدٌ مسرعة .

فلو أنّك أدرت عوداً ملتهباً ، بدا للعين ناراً طويلة المدى .

وطول الزمان من سرعة صنعه ، فالسرعة هي التي تظهر روعة الصنع .

فإذا كان طالب هذا السرّ رجلاً واسع العلم (فقل له) : « عليك بحسام الدين ، فإنه كتاب رفيـــع ! »

كيف ذهب الأرنبُ إلى الأسد ، وكيف غضب عليه الأسد

١١٥٠ وبينما كان الأسد محتدماً غاضباً ثائراً ، رأى ذلك الأرنب قادماً نحوه من بعيد !

لقد كان يتقدم مسرعاً جسوراً ، غير هيّاب ، وقد بدا عليه الغضبُ والعنف ، وحدّة الطبــع ، وعبوس الوجه .

فالمجيء بانكسار مثارٌ للتهم ، وأما الجسارة ففيها دفع لكلّ الريب .

فلما دنا واقترب من الأعتاب ، صاح به الأسد : « هاأنت ذا أيّها الخسيس!

أنا من مزّق الثيران ، إرباً ، وعرك أذن الفيل القويّ !

١١٥٥ أيزدري مشيئتي[1] على هذا الوجه نصف أرنب مثلك ؟ »

---

(١) حرفياً : أيلقي بأمرنا فوق التراب ..

ألا فلتدع النوم ، وغفلة الأرانب ، ولتصغ – أيها الحمار – إلى زئير هذا الأسد [1] !

كيف اعتذر الأرنب

فقال الأرنب : « أماناً فإنّ لي عذراً ، لو أنّ عفوك الملكي يبسط لي يداً ! »

فقال الأسد : « أيّ عذر لك ؟ يالقصور هؤلاء البلهاء ! (ومع هذا) فهم في هذا الزمان يمثُلون أمام الملوك !

إنّـك طائر تأخّـر عن وقته ، والواجب قطع رأسك، فليس يجوز الإصغاء إلى عذر الأحمق .

١١٦٠ فعُذرُ الأحمق أقبحُ من ذنبه ، وعذر الجهلاء هو السم الذي يقتل المعرفـــة !

إنّ عذرك أيها الأرنب مجردٌ من الحكمـــة ، فأي أرنب أنا حتى تُدخِلـَه أذني ؟

فقال الأرنب : « أيها الملك ! هَبْ اعتباراً لمن لا اعتبار له ، واستمع إلى عذرِ مظلوم !

ولا تَدفعْ ضالاًّ عن طريقك ، ففي ذلك – على الخصوص – زكاة عن جاهك !

إنّ البحر الذي يُمدُّ كلّ الأنهار بمائه ، يحمل القمامـة على رأسه وعلى وجهه .

---

(١) يقول نيكولسون إنّ هذا البيت موجه إلى القارىء . ولكنّ السياق لا يمنع من أن يكون تتمة لحديث الأسد مع الأرنب .

١١٦٥ ولن ينتقص من البحر هـــذا الكرم ، فالبحر لا يزيد بالكرم ولا ينقص » .
فقال الأسد : « إني لذو كرم ، ولكني أضع الكرم في موضعه .
إني أقصّ لكلّ امرىء ثوبه على قدر قامته » .
فقال الأرنب : ألا فلتستمع إليّ ، فإن لم تجدني أهلاً للطفك فإني أُسلِم رأسي إلى تنّين عنفك !
لقد مضيتُ على الطريق وقت الإفطار ، وكنت متّجهاً مـــع رفيقي إلى الملك .
وكانت جماعة الوحوش قد أرسلتني إليك بصحبة أرنب آخر .
١١٧٠ فتصدّى لعبدك أسد في الطريق ، وهاجم الرفيقين المتجهين إليك .
فقلت له : « إننا من عبيد ملك الملوك ، إننا رفيقان صغيران في خدمة هذا البلاط » .
فقال : « ملك الملوك ؟ من هـــذا ؟ ألا فلتستحِ ، ولا تذكر أمامي كلّ خسيس !
فلسوف أمزّقك وأمزّق ملكك ، لو أنك ورفيقك تحولتما عن بابي » .
فقلت له : « ألا فلتُخلِ سبيلي ، حتى أرى وجـــه مليكي مرة أخرى ، وأحمل إليه خبراً منك » .
١١٧٥ فقال : « لتترك رفيقك رهينة عندي ، وإلا فإنك — في شرعتي — تكون الضحيّة .
وقد أطلنا الحديث معه فـلم يُجد نفعاً ، فأمسك برفيقي وتركني أمضي وحيداً .
وكان رفيقي يعدل ثلاثة مثلي ببدانته ، وكان (تفوقه) في اللطف والملاحة يعدل تفوقه في الجسم .
إن هذا الأسد قد سدّ أمامنا الطريق بعد اليوم ، فتقطّعت بذلك حبال عهودنا !

فاقطع الأمل من وظيفتك بعد اليوم ! إني أقول لك الحقّ ، والحق مر !

١١٨٠ فإذا كانت الوظيفةُ واجبةً لك فطهّر الطريق . هيّا ، أقبل ، وادفع (شرّ) هذا الجسور ! »

كيف استجاب الأسد للأرنب وسار معه

فقال الأسد : « باسم الله ، هيّا بنا إلى حيث يكون .
تقدّم أمامي إن كنت تقول الصدق، حتى أُعطيه ومائة من أمثاله جزاءهم!
فإنْ كان كلامُك هذا كذباً أنلتك جزاءك » .
فسار الأرنب أمامه كالدليل ، ليقوده نحو حبائله ،
نحو بئر كان قد حدّد مكانه ، بئرٍ عميق جعل منه فخّاً لروح الأسد .

١١٨٥ وتقدّم الإثنان نحو البئر . فهاك أرنباً كالماء تحت التبن !
إنّ الماء يحمل عود القشّ إلى السهل المنبسط ، ولكن عجباً كيف تحمل القشّةُ جبلاً ؟
لقد كانت شباك مكره هي الوهق الذي صاد الأسد ، فواعجباً لأرنب صاد أسداً !
إنّ موسى واحداً ، جرّ فرعون إلى نهر النيل مع جيشه وجمعه الكثيف .
ولقد شقّت بعوضةٌ أمّ رأس النمرود بنصف جناح ، غير مبالية بذاته .

١١٩٠ فتأمل حال من أصغى إلى قول العدوّ ، وجزاء من كان صديقاً للحسود !

حال فرعون الذي استمع إلى هامان ، وحال النمرود الذي أصغى إلى الشيطان .
فإذا كان العدوّ يخاطبك بأسلوب المودّة ، فاعلم أنّ حديثه شركٌ وإنْ جاء في صورة الحبّ !
وإنْ إعطاك العسل فاعلم أنّه سم ، وإن مس جسمك بلطف فاعلم أنّ ذلك (اللطف) قسوة وبغضاء .
إنّك — حين يقع القضاء — لا تُبصر الجلد (الظاهري) ، ولا تعرف العدوّ من الصديق .
١١٩٥ فإذا وقع هذا فلتشرع في الابتهال ، ولتأخذ نفسك بالتضرع والتسبيح والصيام .
ابتهل إلى الله (قائلاً) : « يا علام الغيوب ! لا تسحقنا بحَجَر من مكر السوء .
وإنْ كُنا قد أتينا فعل الكلاب ، فلا تُطلق علينا الأسد من مكمنه ، يا خالق الأسد !
ولا تجعل للماء العذب صورة النار ، ولا للنار صورة الماء !
إنّك حين تسكرنا بشراب قهرك ، تجعل للعدم صورة الوجود .
١٢٠٠ فما السكر ! إنّه حجاب للعين عن الإبصار ، فيظهر لها الحجرُ جوهراً ، والصوف عقيقا !
وما فقدان الوعي ؟ إنّه إبدال للحسّ ، فيبدو للعين خشب الطرفة صندلاً » .

قصة الهدهد وسليمان
في بيان أنه حين يقع القضاء
تُغلقُ العيونُ المبصرة

حينما ضرب مُخيّم سليمان ، مثلت أمامه الطيور طائعة .
لقد وجدته متكلماً بلسانها ، عارفاً بأسرارها ، فهرع كلٌّ منها للمثول أمامه بروحه .
وكلّ هذه الطيور تركت صفيرها ، وأصبحت أفصح من أخيك [1] في حضرة سليمان .
١٢٠٥ إنّ التشارك في اللسان قربى ورباط ، والمرء مع من لا يفهمونه مثل السجين !
وكم من هنديّ وتركيّ يتكلمان بلسان واحد ، وكم من تركيّين في لغتهما متباعدان !
فلسان الوفاق الروحيّ مختلفٌ عن (لسان القول) ، وتشابهُ القلوب خيرٌ من تشابه الألسن !
ففي القلب يقوم آلاف التراجمة (بنقل أحاسيسه) بدون نطق ولا إيماء ولا سجلّ .
فجملة الطير – بكل ما وعته من أسرار عن الفضائل والمعرفة والعمل –
١٢١٠ عرضت نفسها على سليمان ، وكلٌّ منها مدح نفسه في معرض القول .

---

(١) أي أفصح من الشاعر .

ولم يكن ذلك عن كبر ولا اعتداد بالنفس ، ولكنّ كلاً منها أراد أنْ يتقدم على غيره عنده [1].
فمن واجب العبد أن يُظهر طرفاً من فضائله لسيّده .
فإنْ وجد العار في أن يشتريه السيّد ، تظاهر بالمرض أو الشلل أو الصمم أو العرج .
وجاء دور الهدهد ، وحرفته ، وبيان صنعته ، وتفكيره .
١٢١٥ فقال : أيّها الملك ، إنني سأذكر فضيلة واحـــدة ، فضيلة صغيرة ، ولكنّ الخير في الإيجاز » .
فقال سليمان : « تكلّم لنرى ما هذه الفضيلة » . فقال الهـــدهد : عندما أكون في أوج الارتفاع ،
أنظر من ذلك الأوج بعين اليقين ، فأرى الماء في قاع الثرى ،
أين مكانه وما عمقه وما لونــه ، ومن أين يتفجر ، أمن التراب أم من الحجر .
فخذ معك في السفر ذلك العارف يا سليمان ، لاختيار موقع معسكرك » .
١٢٢٠ فقال سليمان : « ما أحسنك من رفيق ، في القفار التي تخلو من الماء العميق ! »

كيف طعن الغراب في دعوى الهدهد

وعندما سمع الغراب (كلام الهدهد) ، جـــاء حاسداً ، وقال لسليمان : « ما هذا الكلام المعوجّ القبيح ؟
إنه ليس من الأدب التفاخر أمام الملوك ، وخاصة إذا كان ذلك

(١) حرفياً : « ولكن لكي يفسح لها الطريق قبل (غيرها) » .

من جزاف القول الكذب المحال .
فلو كان للهدهد هذا النظر على الدوام ، فكيف لا يبصر الفخ تحت قبضة من التراب ؟
وكيف كان يقع في الشرك ؟ وكيف كان يصير يائساً في القفص ؟ »
١٢٢٥ فقال سليمان : « أيها الهدهد ! أصحيح أنه قد أصابك (كلّ) هذا الدوار من أوّل قدح ؟
فيا من شربت اللبن المخض ، كيف تتظاهر بالسكر ، وتلقي أمامي بجزاف القول وتكذب ؟ »

كيف ردّ الهدهد على طعن الغراب

فقال الهدهد : « لا تستمع – بحق الله – إلى قول العدوّ عني ، أنا المسكين المعدم !
فإنْ لم يصحّ هذا الذي أدّعيه ، فإني أضع رأسي أمامك ، فلتقطع عنقي هذا .
إنّ الغراب المنكر لحكم القضاء كافر ، ولو كانت له آلاف العقول ! »
١٢٣٠ فان كانت فيك كاف واحدة من (كلمة) « الكافرين » فإنك كالفرج محل للنتن والشهوة[1] .
« إنني أبصر الفخّ من الهواء ، إذا لم يحجب القضاء عين عقلي » .
وحينما يأتي القضاءُ ينام العلم ، ويغدو القمر أسود ، ويحجب الشمس .
فمتى كانت مثل هذة التعبئة[2] نادرة من القضاء ؟ اعلم أنّ من القضاء أنْ ينكر المرء القضاء !

(١) في البيت جناس بين كلمتي « كافران » (الكفار) ، (كاف ران) .
(٢) قد تكون كلمة « تعبئة » هنا تحريفاً لكلمة تعمية .

قصة آدم عليه السلام، وكيف أنّ القضاء حجب بصره عن مراعاة صريح النهي، وترك التأويل

إن أبا البشر آدم – أمير علم الأسماء [1] – كان كلّ عرق من عروقه
ينبض بآلاف العلوم!

١٢٣٥ إن روحه مُنحت علم كل شيء، كما وُجد، وكما يكون حتى النهاية.
فلم يتبدل قط لقب أطلقه، فكل ما نعته بالنشاط والسرعة لم
يصبح كسولاً متراخياً [2].
وقد عرف – في أول الأمر – من كان مآله إلى الإيمان، كما
تكشف له من كان مآله إلى الكفر.
فلتستمع إلى إسم كل شيء من عالِمٍ (بالأسماء)! استمع منه إلى
سرّ الرمز في قوله تعالى: «وعلّم آدم الأسماء كلها».
إن عندنا لكل شيء اسمه الظاهري، وأما سر هذا الاسم فلدى
الخالق.

١٢٤٠ فالخشبة التي كان يمسك بها موسى، كان اسمها – عنده – «عصا»
وأما عند الخالق فكان اسمها «حيّة».
وقد كان لعمر هنا (في الدنيا) اسم «عابد الأصنام» ولكن

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها». سورة البقرة (٢ : ٣١)
(٢) حرفياً: فكل ما أسماه نشطاً لم يصبح كسولاً.

اسم الايمان كان له من قبل أن يولد[1] .
فكل ما كان عندنا في عداد النطف ، كان ماثلاً أمام الحق كأنه معه[2].
لقد كانت هذه النطفةُ صورة في العدم ، ولكنها كانت موجودة أمام الحق بدون زيادة أو نقصان .
فالحاصل أن عاقبة أمرنا هي التي تمثل حقيقة اسمنا عند الخالق .
١٢٤٥ فهو يسمّي المرء بعاقبته ، لا بما يكون عارية مؤقتة .
إن عين آدم حين أبصرت بالنور الطاهر ، تجلت لها أرواح الأسماء وأسرارها .
وعندما أبصر الملائكة أنوارَ الحق في آدم خرّوا سُجّدا وسارعوا لتمجيده .
فهكذا آدم الذي أحمل اسمه ، ولو أنني مدحتُه حتى القيامة لما وفيته حقه .
لقد أدرك كل هذا ولكنه – حين وقع القضاء – أخطأ في إدراك نهي واحد .
١٢٥٠ فقد عجب ، أهذا النهي كان من أجل التحريم ، أم أنه كان قابلاً للتأويل ، ومجالاً للوهم .
وعندما رجح في قلبه التأويل ، سارع طبعه في حيرة نحو القمح .
فلما أصابت الشوكة قدم البستاني (آدم) ، وجد اللص (إبليس)

(١) حرفياً : ولكن اسمه كان « المؤمن » في « ألست » . وكلمة (ألست) تشير إلى قوله تعالى : وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » . الأعراف (٧ : ١٧١) .

(٢) حرفياً : فكل ما كان اسمه – عندنا – نطفة كان أمام الحق « إنك في هذه اللحظة معنا » ، والمعنى أن كل ما كان بالنسبة لنا مجرد بذرة لا نعرف ما يتولد منها ، كان ماثلاً بكيانه أمام الحق ، فهو الذي يعلم ما يؤول إليه كل شيء .

فرصته ، وسارع إلى حمل الثمار[١] .
وحينما خلص (آدم) من حيرته ، عـــاد إلى الطريق السوي ،
فوجد أن اللص قد سرق المتاع من دكانه .
فتأوه قائلاً : « ربنا ظلمنا أنفسنا[٢] » ، يعني أن الظلمة قد حلت ،
وضاع الطريق .
١٢٥٥ « فهذا القضاء سحابٌ يحجب وجه الشمس ، وهو يجعل الأسد
أو التنين مثل الفأر .
فإنْ كنتُ لا أرى الفخ عند نزول القضاء ، فلست وحدي الجاهل
في تلك الطريق[٣] » .
فمـــا أسعد من استمسك بالعمل الصالح ، وتخلى عن العنف ولزم
الضراعة .
فالقضاء إذا كان يغشاك بظلمة كالليل ، فإنـــه يأخذ بيدك في
عاقبة الامر .
والقضاء ، إذا قصد روحك مائة مرة ، فإنه أيضاً يهبك الروح
ويداويك .
١٢٦٠ إن هذا القضاء ، لو سد الطريق أمامك مائة مرة ، فإنه يضرب
لك مخيّماً فوق أعالي السماء !
فلتعلم أنه (الله) إنما يخيفك بكرمه ، وذلك لكي يـــنزلك في
ملكوت الأمان .

(١) حرفياً : البضاعة .
(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌ مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين » . (٧ : ٢١ ، ٢٢) .
(٣) عاد الشاعر إلى حديث الهدهد ، ودفاعه عن نفسه أمام سليمان . وقـــد اختتمه بهذين البيتين .

إن هذا الكلام لا نهاية له ، وها هو ذا قد طال ، فلتستمع الآن إلى قصة الأرنب والأسد .

كيف تخلف الأرنب وراء الأسد عندما اقترب من البئر

فعندما اقترب الأسد من البئر ، رأى أنّ هذا الأرنب قد تباطأ في الطريق وتخلّف .

فقال له : « لماذا توانيتَ في السير ؟ لا تتخلّفْ وأقبِلْ » .

١٢٦٥ فقال الأرنب : « وأين لي قدم (تسير) ، وقد ضاعت يداي وقدماي ، وارتعدت روحي ، وانخلع قلبي !

أفلا ترى لون وجهي (مصفراً) كالذهب ؟ إنّ لوني ينبئك بخبر عن باطني .

ولما كان الحق قد اعتبر السيما وسيلة للتعرف ، فقد بقيتْ عين العارف متعلّقة بالسيما[1] .

إنّ اللون والرائحة ينبئان كما ينبىء الجرس ، وكذلك ينبىء صهيلُ الفرس عن الفرس .

وصوت كل شيء يجيء بخبر عنه ، فبه تُميّز بين نهيق الحمار وصرير الباب .

---

(١) قال تعالى : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . الفتح (٤٨ : ٢٩) وقال : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » . الرحمن (٥٥ : ٤١) وقال : « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » . محمد (٤٧ : ٣٠) . وقال : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم » . الأعراف (٧ : ٤٨) ، وقال : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . الأعراف (٧ : ٤٦) ، وقال : « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » . البقرة (٢ : ٢٧٣) .

١٢٧٠ولقد قال الرسول في التمييز بين الناس : « المرء مخفي تحت لسانه[١] » .
إن لون الوجه ليخبر عن حال القلب ، فكن رحيماً بي، وأشرِبْ قلبك محبّتي .
فالوجه المحمرّ يضمر صوت الشكر ، وأمـــا الوجه المصفرّ فيضمر صوت الصبر والنكران .
ولقد وقع بي ما سلبني اليد والقدم ، بل ما سلبني لون وجهي وقوتي وسيماي ،
(وقع بي) ما يحطّم كل شيء أصابه ، ويقتلع كل شجرة من جذورها وأصلها .
١٢٧٥بل أصابني ما يميت الإنسان والحيوان والنبات والجماد .
وما هذه سوى أجزاء ، والـكلّيات من (صنعه) . إنّه هو الذي جعل اللون أصفر ، والرائحة فاسدة .
إنّ البستان لـيرتدي حلـّة (الخضرة) حيناً ، وحيناً يتعرّى ، وذلك ليكون العالم حيناً صابراً ، وحيناً شكوراً[٢] .
والشمس التي تشرق – وهي في لون النار – تصبح – في ساعـة أُخرى – منقلبة الرأس (نحو المغيب) .
والنجوم المشرقة في جوانب السماء الأربعة ، إنما هي – بين لحظة وأُخرى – مبتلاة بالاحتراق .
١٢٨٠والقمر الذي يتفوق على النجوم في الجمال ، غدا من مرض النحول وكأنه الخيال[٣] .
وهذه الأرض الساكنة الوقور ، تجعلها الزلزلةُ مرتعدة كاللهب .

(١) اقتباس من حديث شريف ، نصّه : « المرء مخفيّ تحت لسانه » .
(٢) إن اخضرار البستان ثم ذبوله يقدمان للعالم مثلا لتغير الأحوال حتى يكون في وقت الشدة صابراً ، وفي وقت الرخاء شكورا .
(٣) يشير إلى تناقص القمر يوماً بعد يوم حتى المحاق .

وكم في الدنيا من جبل جعله هذا البلاءُ المتوارث فتاتاً ورمالاً !
وهذا الهواء جاء مقترناً بالروح (والحياة) ، ولكنه — حين وقع القضاء — أصبح فاسداً عفناً .
والماء العذب الذي كان قريناً للروح ، أصبح في الغدير (الراكد) أصفر اللون ، مرّ المزاق معتكراً .
١٢٨٥ والنار المنتفخة برياح الغرور[1] تقضي بالموت عليها نفخة ريح واحدة .
واعلم أنّ حال البحر في اضطرابه وجيشانه ، إنما هو ناشيء من تغير عقله وتبدله .
والفلك الدوار الدائب على السعي والتنقيب ، ليس حاله إلا كحال أبنائه .
فهو حيناً في الحضيض ، وحيناً في الوسط ، وحيناً في الأوج ، وبه أفواجٌ وأفواج من (كواكب) السعد والنحس .
فيا أيها الجزئيّ الذي هو من كليات مختلطة ! لتكن ذاتك سبيلك لتفهّم حال كل موجود !
١٢٩٠ وإذا كانت الكليـــات معتلة سقيمة ، فكيف لا تكون جزئياتها مصفرة الوجوه ؟
وخاصة ذلك الجزئيّ الذي تجمعت به الأضداد ، واتحـد فيه الماء والتراب والنار والهواء .
فليس من عجب في أنْ تفرّ الشاة من الذئب ، وإنما العجب هو أنْ يتعلق قلب الشاة بالذئب .
إنّ الحياة تآلفٌ بين الأضداد ، وما الموت إلا قيام للحرب بينها !
ولقد ألّف لطفُ الحقّ بين الأسد وحمار الوحش ، هذين الضدين المتباعدين !
١٢٩٥ وإذا كان هـذا العالم مريضاً سجيناً ، فأيّ عجب يكون لو فني المريض ؟ »

(١) حرفياً : والنار التي تحمل في شواربها ريح (الغرور) .

فعلى هذا الوجه تحدّث الأرنب بالنصح إلى الأسد ، وقال : « إنّني قد تأخرت من جرّاء تلك القيود » .

كيف سأل الأسد الأرنب عن سبب تأخره

فقال الأسد : « اذكر لي سبباً خاصاً من أسباب العلّة ، فذلك ما أبتغيه » .

فقال الأرنب : « إنّ ذلك الأسد يسكن هذا البئر ، وهو – في هذه القلعة – آمن من الآفات .

فكلّ من كان عاقلاً اختار قاع البئر ، ذلك لأن صفاء القلب في الخلوة .

١٣٠٠ إنّ ظلمة البئر خير من ظلمات الخلق ، فما رفع رأسه قط من اقتفى أثر الخلق » .

فقال الأسد : « فلأقهرنّه بضرباتي ! ألا فلتُقدمْ ولتنظر ، أهذا الأسد حاضرٌ في البئر ؟ »

فقال الأرنب : « إنّني قد احترقتُ بتلك النار ، فلعلّك تقودني إلى جانبك ،

حتى أستطيع – بمؤازرتك – أنْ أفتح عينيّ وأنظر في البئر » .

كيف نظر الأسد في البئر ، ورأى صورته وصورة الأرنب في الماء

فعندما اقتاد الأسد الأرنب إلى جانبه ، جرى – في رعاية الأسد – نحو البئر .

١٣٠٥ فلما نظرا إلى الماء في البئر ، تجلى في الماء خيالٌ للأسد والأرنب .
فسرعان ما رأى الأسد خياله في الماء . (لقد كان) الخيال في هيئة أسد وإلى جانبه أرنب سمين .
فلما رأى الأسد خصمه في الماء ، ترك الأرنب ، واندفع إلى داخل البئر .
لقد وقع في البئر الذي كان قد حفره ، ذلك لأنّ ظلمه كان مُرتدّاً إلى رأسه .
إن الظلم قد أصبح للظالمين جُبّاً حالك الظلمة ، ولقد قال بهذا جملة العلماء .
١٣١٠ وكلّ من كان أكثر ظلماً ، كانت بئره أكثر هولاً ! إنّ العدل (الإلهيّ) قد أمر بأسوأ (العقاب) لأسوأ (الذنوب) .
فيا أيّها الذي يحفر بئراً من الظلم ! إنّك لتنصب لنفسك شركاً !
فلا تجعل نسيجك حول نفسك ، كما تفعل دودة الحرير ! إنّك تحفر البئر لنفسك ، فاحفرها بقدر !
ولا تكن موقناً بأنّ الضعفاء لا معين لهم . واتلُ من القرآن (قوله تعالى) : « إذا جاء نصر الله والفتح[1] » .
فلو أنّك كنت فيلاً يهرب منك خصمك ، فإنّ جزاءك (مذكور في قوله تعالى) : « وأرسل عليهم طيراً أبابيل » [2] .
١٣١٥ فلو طلب الأمان ضعيف من أهل الأرض ، لثار (لنجدته) جيش السماء .
وإنْ أنت عقرته بأسنانك ، وجللته بدمائه ، أصابك وجع الأسنان ، فماذا أنت فاعل ؟

(١) سورة النصر ، (١١٠ : ١) .
(٢) سورة الفيل ، (١٠٥ : ٢) .

لقد أبصر الأسد ذاته في البئر ، ولكنّه – لغضبه حينذاك – لم يعرف ذاته من عدوّه .
لقد رأى في صورته عدوّاً له ، فلا جرم أن سلّ على نفسه سيفاً !
فيا من تستمع إليّ ! كم من ظلم تراه في النـاس ، وما هو سوى طبعك ، وقد رُكّب فيهم .
١٣٢٠ ففيهم قد انعكس وجودك ، بنفاقك وظلمك وقبيح غفلتك .
إنّك أنت ذلك (الشرير) ، وإنك لتوجّه ذلك الطعن إلى نفسك ،
وإنّك لتلعن نفسك في هذه الساعة !
ولستَ تعاين هذا القبح في نفسك ، وإلا لناصبتها العداء بكل روحك !
إنّك لتحمل على نفسك – أيّها الرجل الغرّ – كما حمل هذا الأسد على نفسه .
فإذا ما وصلتَ إلى قرارة طبـع ذاتك ، علمت أن هـــذه الدناءة كانت منك !
١٣٢٥ لقد ظهر لهذا الأسد – في قاع البئر – أنّ صورة ذاته هي التي بدت له شخصاً آخر .
فكلّ من اقتلع لضعيف أسنانه ، سلك مسلك ذلك الأسد الذي أخطأ الإبصار .
فيا من أبصرت قبيح الخيال في وجه عمّك ! ليس عمك بقبيح ، بل إنّك أنت ذلك ، فلا تهرب من نفسك !
لقد رُوي عن الرسول أنّه قال : « المؤمن مرآة المؤمن » .
إنّك قد وضعت أمام عينيك زجاجة زرقاء ، ولهذا السبب بدا لك العالم أزرق اللون[1] .
١٣٣٠ فإنّ لم تكن أعمى فاعلم أنّ هذه الزرقة من نفسك .

(١) يشبه ما يقال اليوم عن المتشائم الذي « ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود » .

وَتحدّث بالسوء عن نفسك ، ولا تذكر – بعدُ – غيرك بالسوء .
فكيف كان الغيب يظهر عارياً أمام المؤمن ، لو لم يكن ينظر بنور الله ؟
وما دمتَ أنت تنظر بنار الله ، فإنك لم تميّز الخير من الشر .
فانثر الماء على النار رويداً رويدا – يا أبا الحزَن – حتى تغــدو نارُك نورا !
ياربنا أنزلْ على هذا العالم الماء الطهور ، حتى تصبح جملة ناره نورا !
١٣٣٥ إنّ ماء البحر كلّه رهن أمرك . والماء والنار – يا إلهي – مما تملك .
فإنْ تُرد تصبح النار ماء زلالاً ، وإن لم تُرد ، فإنْ المــاء أيضاً يصبح ناراً .
وهذا الطموحُ فينا إنما هو من إيجادك ، والخلاص من الظلم – ياربّ – من عطائك .
لقد وهبتنا هذا الطموح بدون طلب منا ، وأنعمت علينــا بهبات لا تُعدّ ولا تُحدّ .

كيف حمل الأرنب البُشرى إلى الوحوش بأن الأسد قد سقط في البئر

ولما سعد الأرنب بالخلاص ، أخذ يعدو نحو الوحوش حتى أدرك الفلاة .
١٣٤٠ فهو حين رأى الأسد في البئر قتيلاً تعسا ، مضى يرقص طرباً حتى (بلغ) المرج .
لقد كان يصفّق بيديه لنجاته من يد الموت ، وكان جذلاً يتمايل في الهواء كالغصون والأوراق .
إنّ الغصون والأوراق – حين تحررت من سجن التراب – رفعت رأسها ، وصارت نديمة للهواء .

والأوراق حين تفتقت عنها الغصون سارعت إلى قمم الأشجار .
فكانت كلّ ثمرة وكلّ ورقة ترانيم شكر لله يتغنى بها لسانُ الدوح .
١٣٤٥ (قائلا) : « إنّ ذا العطاء قد رعى أصلنا حتى استغلظت أشجارنا واستوت[1] » .
والأرواح المقيّدة بأسر الماء والطين ، تسعد قلوبها حين تخلص من الماء والطين .
وتغدو راقصة في هواء عشق الحقّ ، وتصبح بريئة من النقص مثل قرص البدر .
بل إنّ أجسامها لتغدو راقصة ، فلا تسل عن الأرواح ! لا تسل عما يحيط بها من ذلك كله !
إنّ أرنباً قد أقعد بالسجن أسداً ! ألا قبح الله أسداً عجز أمام أرنب .
١٣٥٠ والعجيب أنّه — وهو في مثل هذا العار — يريد أنْ يُلقّب بفخر الدين .
فيا أيّها الأسد المنفرد في قرارة هذا البئر ! إنّ نفسك الشبيهة بالأرنب قد أراقت دمك وشربته .
إنّ نفسك الشبيهة بالأرنب ترتعي في الصحراء ، وأنت هنا في قرارة بئر الكيف والعلّة .
لقد اندفع صياد الأسد[2] هذا نحو الوحوش (قائلا) : « أبشروا يا قوم إذ جاء البشير !
بشراكم ، بشراكم يا أهل المرح والسرور ! إنّ كلب الجحيم قد عاد إلى الجحيم !
١٣٥٥ بشراكم ، بشراكم ! فإنّ قهر الخالق قد اقتلع الأنياب من عدوّ أرواحكم .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : «ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » . سورة الفتح ، (٤٨ : ٢٨) .
(٢) الأرنب .

إنّ الذي حطّم بمخالبه الكثير من الرؤوس ، قد اكتسحته مكنسة الموت ، كما تُكتسح القذارة .

كيف التفّت جماعة الوحوش حول الأرنب وأثنت عليه

لقد اجتمعت جملة الوحوش في ذلك الزمان ، سعيدة ضاحكة ، سكرى ، جياشة بالطرب .
والتفّت حول الأرنب ، فكان في وسطها كالشمعة ، وسجدت له كل هذه الوحوش الصحراوية .
(وقالت) : « أأنت ملك سماويّ أم جنيّ ؟ لا ! بل أنت عزرائيل الأسود الضارية .
١٣٦٠ وأيّاً ما تكون ، فإنّ أرواحنا فداء لك . لقد انتصرت ، سَلمتْ يدك وساعدك .
إنّ الحقّ قد أجرى هذا الماء في نهرك ، فبارك الله يدك وساعدك .
ألا فلتحدّثنا ، كيف دبّرتَ حيلتك ؟ وكيف سحقت ذلك الشرير بمكرك ؟
حدّثنا ، فلعل قصّتك تصير علاجاً لنا ! وتكلّم ، فلعلها تصبح بلسماً لأرواحنا .
تكلم ، فإنّ ظلم ذلك الظالم أصاب أرواحنا بآلاف الجراح » .
١٣٦٥ فقال (الأرنب) : « لقد كان هذا بتأييد الله أيّها الكبراء ! وإلا فما شان أرنب في هذه الدنيا ؟
لقد وهبني القوة ، وأنار قلبي ، ونورُ القلب قد أمدّ بالقوة يديّ وقدميّ .
وما يجيء الفضل إلا من عند الله ، كما أنّ تبديل (الأحوال) أيضاً

يأتي من الحقّ .
والحقّ يظهر هذا التأييد — في أدوار مختلفة — لأهل الظنّ وأهل العيان.
فتنبّه ولا تفرح بملك وقتيّ ، ولا تدّعِ الحرية يا من أنت أسير الزمن المؤقت .

١٣٧٠ فكل من نُسِجَ مُلكُه مما هو أعلى من الزمن المؤقت قُرِعَتْ له الطبول فوق الكواكب السبع .
إنّ الملوك الباقين لفوق الزمن المؤقت ، فأرواحهم — على الدوام — تدور حول الساقي .
فلو قلتَ بترك هذا الشراب (الدنيويّ) يوماً أو يومين لغَمَرْتَ فمك بشراب الخلود .

تفسير « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »

أيها الكبراء ! لقد قتلنا عدوّنا الظاهري ، وبقي عدوّ أمرٌّ منه في باطننا !
وقتل هذا (العدو الباطنيّ) ليس من عمـــل العقل والحكمة ، فالأرنب لا يقدر على تسخير أسد الباطن .

١٣٧٥ إن هذه النفس جهنم ، وجهنم تنّين لا تنقص من قوته البحار .
إن جحيمها ليشربُ في التوّ سبعة أبحرٍ ، بدون أن ينقص ذلك من ضراوته التي تحرق الخلق .
والأحجار ، والكفرة ذوو القلوب المتحجّرة ، يدخلونها أذّلاء خجلين .
وهي لا تشبع من هذا الغذاء ، حتى يأتيها من الحق هذا النداء : قائلاً : « هل امتلأت فتقول هل من مزيد[1] » . فهذه هي النار ، وهذا لهيبُها وحريقها .

---

(١) سورة ق ، (٥٠ : ٣٠) .

١٣٨٠ لقد جعلت من العالم لقمة وابتلعته ، وظلت معدتها تصيح : « هل من مزيد ؟ » .

فإذا ما وضع الحق عليها قدمه من اللامكان ، أصبحت ساكنة بمشيئة الله[1] .

ولما كانت نفوسنا هـــذه أجزاء من جهنم ، فإن لهذه الأجزاء طبع الكلّ .

وهذه القدم التي تقتلها إنمـــا هي للحقّ . ومَنْ سواه يشد القوس (الذي يصميها) ؟

وليس يُركّبُ في القوس إلا السهم المستقيم . وقوس (النفس) ليس به إلا سهام معكوسة معوجة !

١٣٨٥ فكن مستقيماً كالسهم ، وانطلق من القوس ، فلا شكّ أنّ كلّ (سهم) مستقيم ينطلق من القوس .

فأما وقد رجعتُ من الحرب الظاهرة ، فإني قد اتجهت الآن إلى حرب الباطن .

لقد عدنا من الجهاد الأصغر ، وها نحن مع الرسول في الجهاد الأكبر .

وإني لألتمس من الله القوة والتوفيق ، (وما يحملني على) الفخار ، حتى أقتلع بإبرةٍ جبل قاف .

واعلم أنّ من اليسير على الأسد أن يمزّق الصفوف . ولكنّ الأسد (القويّ) هو ذلك الذي يتغلّب على نفسه .

(١) روى أنس عن الرسول أنه قال : « لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها ربّ العزّة قدمه فتقول قط قط وعزتك » .

كيف جاء رسولُ الروم إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وكيف رأى كراماته

١٣٩٠ إنّ رسولا من القيصر جاء إلى عمر بالمدينة بعد أنْ طوى الفلاة الشاسعة .

وقال : « أيها الخدم ! أين قصر الخليفة ، حتى أتجه إليه بحصاني ومتاعي ؟ »

فقال له القوم : « ليس لعمر قصر ، وإنما لعمر قصر الروح المضيء !

فهو وإن كان عظيم الشهرة بالإمارة ، فإنه كالدراويش لا يمتلك سوى كوخ !

فكيف تستطيع – أيها الأخ – أن تبصر قصره ، وقد نبتت شعرة في عين قلبك ؟

١٣٩٥ ألا فلتُنظّف عين قلبك من الشعر والعلل ، قبـــل أنْ تطمح إلى مشاهدة قصره .

فكلّ من كانت له روح تطهرت من الهوس ، سرعان ما يرى الحضرة والإيوان الطاهر .

فمحمدٌ حين خلص من النار والدخان ، كان وجهُ الله في كلّ ناحية اتجه إليها[1] .

فإذا كنتَ رفيقاً لوسواس الهوى الخبيث ، فكيف تدرك معنى : « ثمّ وجه الله[2] » ؟

---

(١) قال تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله » . سورة البقرة، ٢ : ١١٥

(٢) أنظر الآية في الحاشية السابقة .

وكلّ من فُتح له بابٌ في صدره ، فإنه يرى الشمس مشرقة في كلّ مدينة .

١٤٠٠ إنّ الحقّ — بين الآخرين — ظاهرٌ جليّ ، كالبدر بين النجوم .

فضع طرفي إصبعين فوق عينيك (وانظر) ! هل ترى من العالم شيئاً ؟

ألا فلتكن منصفاً !

فإنْ أنت لم تر هذا العالم ، فليس بعدم ! وما العيب إلا في إصبع نفسك التعسة .

فتنبّه ، وارفع إصبعك عن عينك ، ثم شاهد — بعد ذلك — ماتشاء .

إن قوم نوح قالوا لنوح : « أين الثواب ؟ » ، فقال « إنه من تلك الناحية التي حجبتموها بما استغشيتم من ثياب[1] .

١٤٠٥ لقد أحطتم وجوهكم ورؤوسكم بلفائف الثياب ، فلا جرم أنكم ذوو بصائر ، لكنها لا تبصر ؟

إن الإنسان بصر ، وأما ما عدا ذلك فجِلد ، والإبصارُ (الحقُ) هو مشاهدة الحبيب .

فإن لم تبصر العينُ الحبيبَ ، فخيرٌ لها أن تكون عمياء ! كما أنّ من الخير البعد عن الحبيب الفاني » .

فحين تَلَقّى رسول الروم بسمعه هذه الألفاظ النضرة ، زاد اشتياقه .

فأرسل البصر منقبّاً عن عمر ، وترك متاعه وحصانه للضياع .

١٤١٠ فمضى مقتفياً أثر ذلك الرجل العظيم ، في كلّ ناحية ، سائلاً عنه كالمجنون .

---

(١) حرفياً : إنه من ناحية : « واستغشوا ثيابهم » . وفي البيت إشارة إلى آية كريمة تتعلق بنوح وقومه وهي :« وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » .(٧١ : ٧) . فالثواب كان موجوداً بتلك الناحية التي أغلقوها أمام أنفسهم .

(قائلا) : « أمِثْلُ هذا الرجل يكون في الدنيا ؟ إنه — مثل الروح — محتجب عن الدنيا ! »
لقد بحث عنه ليكون له كالعبد ، والباحث لا بدّ واجد !
ورأته امرأة أعرابية دخيلا ، فقالت له : « أنظر ! إنّ عمر تحت تلك النخلة » .
لقد كان منفرداً عن الخلق تحت جـــذع النخلة ، فتأمل كيف نام ظلُّ الله في الظل .

كيف وجد رسولُ الروم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، نائماً تحت النخلة

١٤١٥ فجاء رسولُ الروم إلى ذلك المكان ، ووقف بعيداً ، فأبصر عمر ، فأخذته رجفة .
لقد وقعت بنفس هذا الرسول مهابةٌ لذلك النائم ، ونزلت بروحه حال طيّبة .
إنّ المحبة والمهابة ضدّان ، ولكنّه رأى هذين الضدين وقد اجتمعا في قلبه !
فقال ، محدّثاً نفسه : « إنني رأيت الملوك ، وكنت عظيماً أثيراً عند السلاطين .
فما أحسست بهيبةٍ للملوك أو خوف منهم ، فمـــا بال هيبة هذا الرجل قد سلبت لبي ؟
١٤٢٠ لقد دخلتُ غابةَ الأسود والأنمار ، فلم يتغيّر لذلك لونُ وجهي .
وكم اقتحمتُ الصفوفَ وخضت الحروب ، وصُلْتُ كالأسد ساعة الموقف الرهيب .

وكم تلقيتُ وسدَّدْتُ الضربات العظـــام ، وكنت (في ذلك) أقوى قلباً من الآخرين .

وهذا الرجل الأعزل النائم فوق الثرى ، قد ارتعد منه كل كياني ! فما هـــذا ؟

إن هذه الهيبة من الخالق ، وليست هيبة مخلوق ! إنها ليست هيبة هذا الرجل ، صاحب الدلق .

١٤٢٥ وكل من خاف الحق واختار التقوى ، تهابه الإنس والجن وكل من يراه » .

وبينما هذا الرسول يتفكر ، عقد يديه احتراماً ، وبعد ساعة ، هبّ عمر من النوم .

كيف سلم الرومي على أمير المؤمنين رضي الله عنه

فأدى التحية لعمر ثم سلم عليه . ولقد قال الرسول : « السلام ثم الكلام » .

فردّ عمر السلام ، ودعاه للاقتراب منه ، وأمنه ، وأجلسه أمامه .

إن عبارة : « لا تخافوا[1] » لهي نُزُل الخائفين ، وإنها الملائمة للخائف .

١٤٣٠ فكل من كان خائفاً أمن ، وسكن قلبه الجزع .

ولكن كيف تقول : « لا تخفْ » لمن لا يستشعر الخوف ؟ وأي درس تُعلّمه ، وليس محتاجاً للدرس ؟

لقد أسعد عمر ذلك القلب الهَلِع ، وعَمّر ذلك الخاطر الخرب .

وبعد هذا حدّثه بكلام دقيق ، وتكلّم عما اتصف به الحق — نعم

---

(١) لعله يريد هنا الإشارة إلى قوله تعالى : « إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا » . (فُصِّلت ، ٤١ : ٢٩) .

الرفيق – من صفات طاهرة ،
وعن ألطاف الحقّ بالأبدال ، وذلك ليعرف هذا الرومي المقاماتِ
والأحوال !

١٤٣٥ إنّ الحال مثل جلوة العروس المُزينة ، وأما المقـــامُ فهو الخلوة
بتلك العروس .
فالجلوة يشاهدها المَلك وغيرُ الملك أيضاً ، وأما وقت الخلوة ، فليس
هناك سوى الملك العزيز .
إنّ العروس تتجلى أمام العامة والخاصة ، ولكنّ الملك هو الذي
يكون مع العروس في الخلوة .
وما أكثر أهل الحـــال بين الصوفية ، ولكنّ أهل المقام منهم
قلة نادرة .
لقد ذكر عمر لرسول الروم منازل النفس ، كما ذكر له أسفار الروح.

١٤٤٠ والزمان الذي كان خالياً من الزمان ، ومقام القدس الذي كان (دائماً)
مبعث الإجلال .
والهواء الذي كانت عنقاء الروح قد شهدت به – من قبلُ – الطيران
والفتوح .
فكان كلّ تحليق لها أعظم من الآفاق ، وأكبر من الأمل ، ومن
نهم المشتاق .
فعمر حين وجد هذا الرجل صَديقاً ، وإنْ كانت له هيئة الأعداء ،
ووجد أنّ روحه تنشد الأسرار ،
كان الشيخ كاملاً والطالب مشتهياً ، وكان الفارس مسرعاً والجواد
ملكيّاً [1] .

---

(١) الشيخ الكامل هو عمر ، وأما الطالب فرسول الروم . والفارس أيضاً عمر وأما الجواد
الملكيّ المهذّب فهو رسول الروم .

١٤٤٥ لقد رأى المرشد أن ذلك الرجل قابل للإرشاد ، فغرس البذور الطيّبة في الأرض الطيّبة .

سؤال رسول الروم لأمير المؤمنين رضي الله عنه

قال الرجل : « يا أمير المؤمنين ! كيف نزلت الروح من الأعالي إلى الأرض ؟
وكيف دخل القفص ذلك الطائرُ الذي لا حدود له .
فقال عمر : لقد تلا عليها الحقّ رُقى وحكايات .
فحين يتلو رُقاه على العدم — الذي لا عين له ولا أذن — يصبح موّاجاً بالحركة .
وبرقاه تنطلق المعدوماتُ مسرعةً ثابتة الخطى نحو الوجود .
١٤٥٠ وحينما عاد فتلا رقاه على الموجود ، دفعه — بأمره — إلى العدم بسرعة حصانين .
لقد همس في أذن الورد فجعله يبتسم ، وتحدث إلى الحجر فجعل منه عقيق المنجم .
وتلا آية على الجسم فأصبح روحاً ، وكلّم الشمس فأصبحت وضّاءة لامعة .
ثم عاد فألقى في أذنها نكتة رهيبة ، فوقع على وجه الشمس مائة كسوف .
وأيّ قول ألقاه ذلك المتكلم في أذن السحاب ، فصبّ من أعينه الدموع كما تنصبُّ القِرَب ؟
١٤٥٥ وما الذي تلاه الحق على مسمع الأرض حتى صارت مراقبة ولزمت الصمت ؟

وكلّ من كان مبلبل الفكر في تردده ، فقد ألقى الحقّ في أذنه لغزاً مُعَمّى .

حتى يجعله أسير ظنّيْن ، (يحدّثُ نفسه قائلا) : « أأعمل بما قاله لي أم أعمل بضدّه ؟ » .

ومن الحقّ أيضاً يرجح لديه أحدُ الجانبين ، فيختار هـذا الجانب على ذاك ، في كنف الحقّ .

فإذا أردتَ ألا يقع في التردد عقلُ روحك ، فلا تَحشُ أذن الروح بهذا القطن .

١٤٦٠ حتى تفهم مُعَمّياته الغامضة ، وتدرك ما بطن من الرمز وما ظهر .

فتصبح أذن روحك محلاً للوحي . فما الوحي ؟ إنه كلام محتجب عن الحس .

فأذن الروح وعين الروح ليستا من هـذا الحسّ (الظاهريّ) ، أما أذن العقل وأذن الظنّ فهما مفلستان من ذلك الوحي .

إنّ كلمة «الجبر» جعلت عشقي بلا صبر[1] ، وجعلت الخالي من العشق حبيس الجبر [2] .

إنها تعني صحبة الحق ، لا الجبر (بمعناه الدارج) ! إنها البدر في تجلّيه ،

---

(١) ليس للصوفي العاشق إرادة منفصلة عن إرادة الخالق . إنه يسعى ليفني ذاته وإرادته في خالقه . وفي حـالة الاتحاد لا تكون هناك إرادتان منفصلتان ، إحداهما للخالق والأخرى للعبد ، فالجبر بالنسبة للصوفي هو الفناء في الحق . « والعشق الذي لا صبر له » هو الذي يمضي إلى أبعد الحدود والغايات .

(٢) الخالي من العشق هو الذي يقول بوجودٍ منفصل لذاته ، وبإرادة منفصلة ، وهذه الإرادة البشرية التي يدّعيها لن تكون شيئاً أمام إرادة الخالق . فهو بهـذا يكون حبيس الجبر لأنّ إرادته التي يدّعيها ضعيفة أمام إرادة الله ، وهو يتنصل من مسئوليته الشخصية عن أعماله ، على أساس أن كل ما يعمله مُمْلي عليه ، ولا مهرب له منه ، فهو حبيس فكرة الجبر التي يقول بها .

وليست سحايا يغطيه ! [1] .

١٤٦٥ فلو كان هـــذا جبراً ، فليس من ذلك الجبر العام ، ليس جبر (النفس) الأمّارة (بالسوء) المستبدّة [2].

إنّ الذين يعرفون الجبر[3] – يا بني – هم أولئك الذين فتح الله لهم بصراً في قلوبهم .

فانكشف لهم الغيب المقبل ، وتلاشى – عندهم – ذكر الماضي .

فالاختيار والجبر – عندهم – غيرهما عند الآخرين . إنّ القَطر في الأصداف جوهر .

فـكم خارج الأصـداف من قَطرة صغيرة أو كبيرة ، ولكنّها في الأصداف درة صغيرة أو كبيرة !

١٤٧٠ إنّ لهؤلاء القوم طبع نافجة الغزال ، فهم في الظاهر دَمٌ ، ولكنّ باطنهم مسك !

فلا تقل : « إن هذه المادة دم في ظاهرها ، فكيف تغدو مسكاً عندما تدخل نافجة الغزال ؟ »

ولا تقل : « إنّ هذا النحاس كان محتقراً في ظاهره ، فكيف يتخذ – في قلب الإكسير – طبيعة الجوهر ؟ [4] » .

إنّ الاختيار والجبر كانا عندك خيالاً ، ولكنّهما – عندما حلاّ فيهم – أصبحا نور الجلال !

---

(١) الجبر في رأي الصوفية ، هو وحدة الإرادة الناشئة من الاتحاد بالخالق ، فهو صحبة للحق واستنارة بنوره ، وليس فقدان إرادة أمام إرادته ولا انفصالا عنه .

(٢) ليس هذا الجبر بمعناه الصوفيّ شبيهاً بالجبر بمفهومه العام ، الذي تعتقد بـه النفس الأمارة بالسوء ، فترتكب الآثام ، وتنسبها إلى الخالق .

(٣) إن الذين تحققت لهم وحدة الإرادة مع الخالق فآمنوا بهذا « الجبر » الصوفي هم أولئك الذين أنار الله قلوبهم .

(٤) طبيعة المعدن الثمين .

فالخبز على المائدة هو ذلك الجماد ، ولكنّه في جسم الإنسان يصبح روحاً مبتهجة .

١٤٧٥ فهو لايتحول (عن طبيعته) في قلب المائدة ، ولكن الروح هي التي تحوّله (عنها) بمائها السلسبيل .

فهذه قوة الروح – أيها القارىء الواعي – فكيف تكون قوة روح الروح ؟

إنّ كتلة اللحم الآدمية ذات العقل والروح تشقّ الجبل والبحر والمنجم !

فقوة الروح التي تقتلع الجبل (تتجلّى) في شقّ الحجر ، وأما قوة روح الروح فمجلاها شقّ القمر[1] .

ولو أزاح القلب الغطاء عن وعاء الأسرار لهرعت الروح منطلقة نحو العرش[2].

كيف نسب آدم زلته إلى نفسه في قوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » [3] وكيف نسب إبليس جرمه إلى الله في قوله : « بما أغويتني » [4] .

١٤٨٠ أنظر إلى فعلنا وإلى فعل الله ، واعلم أنّ فعلنا موجود ، فذلك (أمرٌ) ظاهر .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . (القمر ، ٥٤ : ١) .

(٢) الترجمة الحرفية لهذا البيت هي : « ولو فتح القلب غطاء حافظة الأسرار لانطلقت الروح نحو العرش بسرعة الأتراك » . والمراد بسرعة الأتراك السرعة العظيمة لما اشتهر به هؤلاء من سرعة الغارة .

(٣) انظر حاشية البيت ١٤٨٩ .

(٤) انظر حاشية البيت ١٤٨٨ .

فلو لم يكن فعل الخلق واقعاً ، لما كان لك أنْ تقول لإنسان :
« لماذا فعلت هذا ؟ » .
إنّ خلق الحقّ هو الموجد لأفعالنا ، فأفعالنا إنما هي من آثار
خلق الله [1].
فالناطق[2] إما أنْ يرى الحرف أو المعنى ، وإلا فكيف يصبح في
لحظة واحدة محيطاً بعرضين .
فلو اتجه إلى المعنى غفل عن الحرف . فليست هناك عين ترى ما أمامها
وما وراءها في وقت واحد .
١٤٨٥ فأنت إذا نظرت أمامك ، فأنّى لك أن تبصر ما وراءك في الوقت
ذاته ؟ فلتعرف هذا !
فإذا كانت الروح لا تحيط علماً بالحرف والمعنى ، فكيف تكون
خالقة لكليهما ؟
يابنيّ ! إنّ الحق هو المحيط بكليهما ، فهو الذي لا يؤخّره عمل عن
عمل آخر .
لقد قال الشيطان : « بما أغويتني »[3] ، فهذا الشيطان الدنيء قد
أخفى فعله .

---

(١) هذا البيت والذي سبقه يعبران عن مذهب أبي الحسن الأشعري في الكسب .

(٢) الناطق هو المتكلم . يريد الشاعر بهذا البيت أن ينفي خلق الإنسان لأفعاله . فالإنسان الذي يكون عاجزاً عن إدراك لفظ ما يتكلم به ومعناه في ذات الوقت كيف يكون قادراً على الإحاطة بكل جوانب العمل الذي يعمله .

(٣) إشارة إلى قصة إبليس وطرده من الجنة لعصيانه أمر ربه ، وقد وردت في سورة الأعراف . قال تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أنْ تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرني إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » . (٧ : ١١ — ١٥) .

وقال آدم : « ربنا ظلمنا أنفسنا[1] » ، وهو — مثلنا — لم يكن غافلاً عن فعل الله .

١٤٩٠ وقد أخفى فعل الله في ذنبه — تأدباً — فجنى ثماراً لنسبته الذنب إلى نفسه .

وبعد التوبة قال له الله : « يا آدم ! ألم أخلق فيك هذا الجرم ، وتلك المحن ؟

ألم يكن هذا تقديري وقضائي ؟ فلماذا أخفيتَ ذلك وقت اعتذارك ؟ »

فقال آدم : « لقد خشيتك ، فلم أتخلّ عن الأدب » . فقال الله : « وإني أيضاً قد حفظتُ لك أدبك » .

فمن راعي الاحترام ظفر بالاحترام ، ومن أحضر السكر أكل اللوزينج .

١٤٩٥ فلمن تكون الطيبات ؟ إنهن للطيبين . فأسعد صديقك ، ولا تؤلمه ، ثم تأمل (نتيجة ذلك[2])

فيا أيها القلب ! إليك مثالاً تميّز به ، حتى تعرف الجبر من الاختيار :

اليد التي تهتزّ من الارتعاش ، واليد التي تهزّها أنت من مكانها .

فلتعلم أنّ الاهتزازين كليهما من خلق الله ، لكنه ليس من المستطاع قياسُ أحدهما على الآخر .

إنّك لتندم لأنك قد هززت يدك ، ولكنْ كيف يكون الرجل

---

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأعراف : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . (٧ : ٢٢) ، وقد وردت هذه الآية على لسان آدم وحواء بعد أن أضلهما الشيطان ، فأكلا من الشجرة المحرّمة .

(٢) الشطر الثاني لهذا البيت في المنهج القوي هو : « ياررا خوش كن مرنجان وببين » . وقد آثرنا هذه الرواية على ما يقابلها في طبعة نيكولسون وهي : « يارا بركش برنجان وببين » .

المرتعش نادماً ؟ [1] .

١٥٠٠فهذا بحث العقل ، فأيّ بحث هو يا صاحب الحيلة ؟ لعل ضعيفاً يهتدي به إلى هناك [2].

إنّ البحث العقلي – ولو كان دُرّاً ومرجاناً – يختلف عن البحث الروحي .

فالبحث الروحي له مقام آخر ، وخمر الروح لها قوام آخر .

فعندما كان البحث العقلي ملائماً ، كان عمر صفيّاً لأبي الحكم ! [3].

ولكن – حينما انطلق عمر من العقل نحو الروح – صار أبو الحكم أبا جهل في بحث تلك الأمور !

١٥٠٥فقد كان هذا كامل الحسّ ، كامل العقل ، ولكنّه – إذا نسب إلى الروح – كان جاهلاً .

فاعلم أن بحث العقل والحس متصل بالأثر أو السبب ، وأما بحث الروح فمتصل بالعجب أو بأعجب العجب .

لقد أشرق ضوء الروح – أيها المستضيء ! – فلم يعد هناك لازم وملزوم ، ولا ناف ومقتض .

ذلك لأنّ المبصر – الذي بزغ أمامه نور الله – ما أبعده عن الحاجة إلى دليل كالعصا .

---

(١) هذا البيت في طبعة نيكولسون لا يستقيم معناه إلا بوضع كلمة « هست » بدلا من كلمة « نيست » في الشطر الثاني منه أي بإبدال النفي بالاثبات . ويكون المعنى أن الانسان يندم على فعل يأتيه بإرادته وهو ما رمز له بهز اليد ، وأما الفعل الذي لا يد للانسان فيه – وهو ما رمز له بالارتعاش فليس مما يندم عليه . وهذا يتفق مع الروايات الأخرى لهذا البيت ، ومنها :

زآن پشيماني كه دادي لرزه اش مرتعش را چون پشيمان ديديش

والمعنى : « إنك نادم لأنك قد هززتها (اليد) ولكن متى رأيت المرتعش نادما ؟

(٢) أي إلى عالم الحقيقة .

(٣) هو أبو الحكم عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل .

تفسير « وهو معكم أينما كنتم [1] »

ها نحن أولاء قد عدنا إلى القصة [2] مرة أخرى . ومتى كنا قد خرجنا من تلك القصّة ؟

١٥١٠ إنّا لو أتينا إلى الجهل فهذا سجنه ، ولو جئنا إلى العلم فهذا إيوانه .

وإذا استسلمنا للكرى فإننا سكارى به ، وإذا صحونا فإنا طوع يديه .

وإذا بكينا فإننا سحابه المحمّل بالرزق ، وإذا ضحكنا ، فإنّنا حينذاك برقه .

ونحن – في الغضب والحرب – صدى لقهره ! ونحن – حين الصلح والصفح – صدى لحبّه !

فمن نحن في هذا العالم المعقّد ؟ إنّنا كالألف ، فماذا تملك الألِفُ (من الحركة) ؟ لا شيء قط [3] .

كيف سأل رسول الروم عمر – رضي الله عنه – عن سبب ابتلاء الأرواح بهذه الأجساد الحادثة من المـــاء والطين

١٥١٥ قال: « ياعمر ! أيّ حكمة كانت ، وأي سرّ وراء حبس تلك الروح الصافية في هذا المكان الكدر ؟

---

(١) سورة الحديد ،(٥٧ : ٤) .

(٢) قصة عمر ورسول الروم .

(٣) البشر في الدنيا ساكنون كأنهم حرف الألف. وأيّ حركة تكون للألِف ؟ لاشيء ، لأنها لا تقبل الحركات .

إنّ الماء الصافي قد أصبح في الطـــين محتجباً ، والروح الصافية أضحت أسيرة الأبدان » .
فقال عمر : إنك لتبحث بحثاً عميقاً ، وأنت (بذلك) تجعل معنى أسيراً لكلمة .
لقد حبست المعنى الحرّ (الطليق) ، (وبذلك) جعلت الهواء أسيراً للحروف .
وإنك قد فعلت ذلك لفائدة ، يا من أنت غافل عن الفائدة والجدوى[1] !
١٥٢٠ (فالله) الذي نبعتْ منه الفوائد ، كيف لا يبصر ما قد أبصرناه ؟
إنّ هناك آلاف الفوائد ، ولكن شتان بين كل منهـا وبين تلك الفائدة[2] .
فأنفاس نطقك — وهي جزء الأجزاء — جاءت ذات فائدة ، فكيف يكون الكلّ الجامع[3] خالياً منها ؟
إنك — وأنت الجزئيّ — تجد عملك ذا فائدة ، فكيف ترفع يدك لطعن الكلّ[4] ؟
فإنْ لم تكن للكلام فائدة فلا تقله ! وإنْ كانت له فـائدة فدعْ الاعتراض وكن شاكراً !
١٥٢٥ فشكر الله طوق في كل رقبة[5] ، وليس (من الشكر) الجدال وحموضة[6] الوجه .

---

(١) فائدة حبس الروح في البدن .
(٢) يقصد « بتلك الفائدة » الفائدة التي تتحقق من حبس الأرواح في الأجساد ، والترجمة الحرفية للبيت : « إن هناك آلاف الفوائد ، وكل منها أقل (قيمة) من هذه الفائدة بآلاف المرات » .
(٣) الكلّ الجامع للروح والجسد .
(٤) كيف تعترض على أعمال الخالق ، مع أنك ، وأنت الجزئي تجد أعمالك ذات جدوى .
(٥) واجب على كل إنسان . (٦) عبوس .

فلو كان الشكر لا يعدو حموضة الوجه ، لما استطاع أحدٌ أداءه مثل الخلّ .
ولو أُريد للخل أن يجد طريقه إلى الكبد ، فليُصبح « سركنكبين »[1] بممازجة الشهد !
إنّ المعنى في الشعر ليس له اتجاه محدّد ، إنه كحجر المقلاع ، لا ضابط له .

في بيان سرّ « من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف »

إن رسول الروم قد سكر بتلك الكأس أو الكأسين ، فلم تبق في ذاكرته رسالة ولا بلاغ !
١٥٣٠ لقد أصبح مُولـَّها بقدرة الله ، وقد جاء إلى هنا سفيراً فأصبح ملكاً !
فالسيل – عندما وصل إلى البحر – صار بحراً ! والحبّة – حينما وصلت إلى الحقل – صارت حصاداً !
والخبز حين تعلق بالكائن الحيّ ، أصبح – وهو الميت حيّاً عالماً !
والشمع والحطب عندما صارا فداء للنار ، أصبحت ذاتها المظلمة أنواراً !
وحجر الكحل عندما حلّ بالعيون ، أصبح إبصاراً ، وصار لها حارساً[2] .

---

(١) كلمة فارسية مكونة « سركه » بمعنى « خلّ » و « وانكبين » بمعنى عسل . وكانت تطلق على مزيج الخل والعسل الذي كان يستخدم لعلاج الصفراء .
(٢) صار للأعين واقياً من الأمراض .

١٥٣٥ فما أسعد ذلك الرجل الذي تخلّص من ذاته ، وأصبح متحداً مع
وجود حيّ !
وواهاً على ذلك الحي الذي جلس مع الميت . لقد أصبح ميتـــاً
وفرت منه الحياة !
فإنْ أنت فزعت إلى قرآن الحق فقد امتزجت بأرواح الأنبياء .
فالقرآن أحوال الأنبياء ، وهؤلاء أسماك بحر الكبرياء الطاهر .
فإذا قرأت القرآن وأنت غير متقبل (أحكامه) فافترض ، أنك
رأيت الأنبياء والأولياء .
١٥٤٠ وإن قرأت القصص متقبلاً لها ، فإنّ طائر روحك يعروه الضيق
في قفصه .
فالطائر الحبيس في القفص – حين لا يسعى إلى الخلاص – يكون
ذلك منه جهلاً .
إن الأرواح التي تحررت من أقفاصها إنما هي الأنبياء المرشدون الفضلاء .
فمن الخارج يأتيك صوتهم ، صوت الدين ، قائلاً : « هذا طريقك
للخلاص ... هذا .
إننا – بهذا – قد خلصنا من القفص الضيّق ، فليس سوى هذا
الطريق حيلة لهذا القفص » .
١٥٤٥ فلتجعل النفس عليلة حزينة شجيّة ، حتى تُمنح الخلاص من قيد الشهرة .
فاشتهار الخلق قيد محكمٌ . وهل يكون هذا القيد – على الطريق –
أوهنَ من قيد الحديد ؟

قصة التاجر الذي حمّله الببغاء رسالةً إلى ببغاوات الهند حينما ذهب للتجارة

كان هناك تاجر ، وكان للتاجر ببغاء ؛ ببغاء جميل محبوس في قفص .

وحينما استعد التاجر للسفر ، وكاد يبدأ الرحلة إلى بلاد الهند ،
توجّه بكرمه إلى كل غلام وكل جارية ، قائلاً : « ماذا أُحضر لك ؟
عجّل بإخباري ! »

١٥٥٠ فكلٌ منهم سأله حاجة ، فوعد هذا الرجل الطيّب بإجابتهم جميعاً .
ثم قال للببغاء : « أي هدية تريد ، حتى أحضرها لك من بلاد الهند ؟ »
فقال الببغاء : « إن هناك ببغاوات ، فإذا مـــا رأيتهم فخبّرهم
عن حالي !
(قائلاً) : إن فلاناً الببغاء – وهو المشتاق إليكم – حبيس عندي
بقضاء السماء .
إنه يهديكم السلام ، ويسألكم العدل ، ويلتمس منكم أن (تعلّموه)
الوسيلة والسبيل إلى الرشاد !

١٥٥٥ ويقول : أيليق أن أسلم الروح شوقاً إليكم ، وأموت هنا مفترقاً عنكم ؟
وهل يجوز أن أكون أسير القيد الثقيل ، وأنتم حيناً فوق المروج
وحيناً على الأشجار ؟
وهل يكون هكذا وفاء الأصدقاء ؟ أنا في هــذا الحبس ، وأنتم
في حديقة الورد ؟
ألا فلتذكروا – أيهـــا الكرام – ذلك الطائر الذليل ، بصبوح
بين المروج !
فما أسعد الخليل إذا ذكره خلانه – وخاصة – إذا (ربطهم)
حبّ ليلى والمجنون[١] !

١٥٦٠ فيا من تنادمون ملاحكم الفاتنات الحسان ! هأنذا أشرب أقــداحاً
قد حفلت بدمي .
ألا فلتشربوا قدحاً على ذكري ، إذا كنتم تريدون ان تؤدّوا حقي !

---

(١) حرفياً : خاصة أن هذه هي ليلى وهذا هو المجنون .

أو أريقوا جرعة على التراب – حين تشربون – على ذكر هــذا الطريح البائس .
عجباً أين هذا العهد ، وذلك الميثاق ؟ أين تلك الوعود التي فاهت بها شفاه حلوة كالسكر ؟
فإن كان فراق العبد لسوء خدمته ، فهذا مجازاة للمسيء بالسوء ، فما الفرق (بين السيد والعبد) ؟
١٥٦٥ فيا من تفعل السوء في غضبك وحربك ، وهما (منك) أكثر إطراباً من السماع ، وصوت الصنج !
ويا من جفاؤك أحلى من السعادة ، وانتقامك أحبّ من الروح !
إن هذه نارك ، فكيف يكون نورك ؟ وهذا مأتمك ، فكيف يكون عرسك ؟
وليس يدرك غورك أحد ، لما لك من لطف ، ولما لجورك من حلاوة .
وإني لأنوح ، وأخشى أن يصدّقني ، فينقص – بكرمه – من هذا الجور .
١٥٧٠ وإني لشديد العشق لقهره ولطفه ، فيا عجبا لعشقي هذين الضدين !
والله لو أني مضيت من هذا الشوك إلى البستان ، لأنوحنّ – من أجل هذا – كالبلبل » .
فما أعجب هذا البلبل الذي يفتح فمه ، ليأكل الشوك مع الورد .
ولكن أي بلبل هذا ؟ إنه عملاق ناريّ ! ومن العشق أصبح كل مرّ – في فمه – حلو المذاق !
إنه عاشق للكل ، بل إنه الكل ، فهو عاشق لذاته ، طالب عشق ذاته .

صفة أجنحة طيور العقول الالهية

١٥٧٥ وإن قصة ببغاء الروح لهي من هــذا القبيل ، فأين المرء الذي

يكون موضعاً لسر الطيور (الروحيّة) ؟
وأين ذلك الطائر الضعيف البريء، الذي تنطوي ذاته على سليمان وجيشه؟
فحين ينوح حزيناً – بدون شكر أو شكوى – تضجّ لنواحه السماوات السبع .
وتأتيه – في كل لحظة – مائة رسالة ورسول من الله . (وحين يقول) : « يارب » مرة ، فله من الله ستون « لبيك » .
وزلّته خير – عند الحقّ – من الطاعة ، وكل إيمانٍ ممزقٌ خَلِقٌ أمام كفره[1] !
١٥٨٠ويكون له في كلّ لحظة معراج خاصّ ، ويضع (الله) فوق تاجه مائة تاج خاصّ .
وصورته على الأرض ، وأما روحه ففي اللامكان ، ذلك اللامكان الذي هو فوق وهم السالكين .
وليس ذلك اللامكان الذي يتطرق إلى فهمك ، ويتولد لك خيال عنه في كلّ لحظة .
بل إن المكان واللامكان رهن حكمه ، كما تكون الأنهار الأربع طوع حكم ساكن الجنة .
فلتختصر شرح هذا ، ولتصرف وجهك عنه ، ولا تَفُهْ بكلمة فالله أعلم بالصواب .
١٥٨٥فها نحن أولاء نعود من هذا – أيها الأحباب – إلى الطائر والتاجر وبلاد الهند .
لقد قبل التاجر هذه الرسالة ، وأن يحمل من الببغاء السلام إلى أبناء جنسه .

---

(١) الكفر هنا ترك التقليد وإخفاء الطاعات ، وقد أثر عن الشبلي أنه قال : طوبى لمن مات في كفره .

كيف رأى التاجر ببغاوات الهند في البرية
وأبلغها رسالة ذلك الببغاء

وحين وصل التاجر إلى أقصى بلاد الهنـــد ، رأى عدداً من الببغاوات في البرية .

فأوقف مركبه ، وأبلغها هذا السلام وتلك الأمانة .

فارتعد بعنف واحد من هذه الببغاوات ، وسقط ، ومات ، وانقطعت أنفـــاسه !

١٥٩٠ فندم التاجر على الإدلاء بهذا الخـبر ، وقال : « لقد سعيت لهلاك ذي روح .

لعلّ هذا الطائر قريب لببغائي الصغير ، أو لعلهما جسدان وروح واحد !

فلماذا فعلتُ هذا ؟ لماذا أبلغت هذه الرسالة ؟ لقد أحرقتُ هذا المسكين بكلامي الفجّ .

إن هذا اللسان كالحجر وهو كالحديد أيضاً[1] ، وكل ما تناثر من اللسان مثل النار .

فلا تضرب الحجر بالحديد جُزافـاً ، حيناً لتنقل خبراً ، وحيناً لتتشدّق فخراً .

١٥٩٥ فالظلام مخيّم وحولك من كل جـــانب حقول القطن ، فكيف يكون الشرر بين القطن ؟

فما أظلم هؤلاء الناس الذين يغلقون عيونهم وبكلامهم يحرقون عالماً بأسره .

---

(١) ترجمة : (اين زبان چون سنگ وهم آهن وشست) وقد فضلنا « آهن » الواردة في رواية إحدى النسخ المخطوطة على « آتش » الواردة في طبعة نيكولسون لأنها أكثر اتفاقاً مع السياق .

إن كلمة واحدة قد تخرّب عالماً بأكمـــله ، وقد تجعل الثعالب الميّتة أُسوداً !

إن الأرواح في أصلها كنَفَس عيسى[1] ولكنها (وهي متجسّدة) يكون نَفَسُها تارة جُرحاً وأُخرى بلسماً .

فلو ارتفع حجاب (الأجساد) عن الأرواح لكان كلام كل روح كنفس المسيح .

١٦٠٠ فإذا أردت أن تقول كلاماً (حـــلواً) كالسكر ، فاصبر عن الحرص ، ولا تأكل هذه الحلوى !

إنّ الصبر غاية ما يشتهي الأذكياء ، وأما الحلوى فأمل الأطفال .

فكل من اعتصم بالصبر سما إلى السماء ، وكل من أكل الحلوى زاد تخلفاً .

تفسير قول فريد الدين العطار قدس الله سرّه :
« أيها الغافل ! إنك صاحب نفس حسيّة
فاحس الدماء وأنت تتمرغ في التراب !
أما صاحب القلب فلو شرب السمّ لأصبح هذا السم ترياقاً »

إن صاحب القلب لا يصاب بأذى ولو شرب السم القاتل عياناً .

ذلك لأنه وجـــد الصحة ، وخلص من الحِمْية ، أمـا الطالب المسكين فهو صريع الحُمّى .

١٦٠٥ ولقد قال الرسول : أيها الطالب المستفيد ! أفق ولا تعانـد قط مطلوباً[2] .

---

(١) أي تهب الحياة كنفس عيسى .

(٢) لم تقف على نص لهذا الحديث المنسوب إلى الرسول .

إن ذاتك منطوية على النمرود فلا تدخل النار ، وإن أردت دخولها فكن – قبل ذلك – إبراهيم .

وإن لم تكن سباحاً ولا بحاراً فـلا تُلق بنفسك في اليمّ غروراً واعتداداً .

إن (العارف) يأتي بالجوهر من قاع البحر ، ويستخلص النفـــع من الضرّ .

فالكامل لو أمسك بالتراب لأصبح ذهبـــاً ، والناقص لو أمسك بالذهب لأصبح تراباً .

١٦١٠ وحين يكون الرجل المستقيم مقبولاً لدى الحقّ ، فيده في (كل) الأمور يد الله .

وأما الجاهل فيده يد الشيطان ، لأنه أسير شباك التكلف والخداع .

فالجهل يمرّ أمام الكامل فيصبح علماً ، وأما العلم الذي يمرّ بالناقص فيصبح جهلاً .

وكل ما تناوله العليل أصبح علة ، وأما الكامل فلو تناول الكفر لأصبح ديناً .

فيا من تُنازل فارساً وأنت على قدميك ! إنك لن تنجو برأسك فتَوقّف !

كيف عظم السحرة موسى عليه السلام (حين قالوا) : « ماذا تأمر ؟ أتلقى عصاك قبلنا أم نلقي نحن ؟[1] »

١٦١٥ إنّ السحرة في عهد فرعون اللعين – حينما ناصبوا موسى العداء –

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين » ، (الأعراف ، ٧ : ١١٥) .

جعلوه مُقدّماً عليهم ، وقام هؤلاء السحرة بتكريمه .
ذلك لأنهم قالوا له : « إن الأمر لك ، فإذا أردت فألقِ عصاك قبلنـــا » .
فقال : « لا ! بل ألقوا أنتم أيها السحرة مكركم أمامنا » .
فهذا القـَدْرُ من التعظيم اشترى لهم الإيمان[1] ، لأنـه قطع أيديهم وأرجلهم عن المراء[2] .
١٦٢٠ فحينما عرف السحرة له حقه ، ضحوا بأيديهم وأرجلهم جزاء لذلك .
إن اللقمة والكلمة حلالٌ للكامل ، وأنت لست بكامل ، فلا تأكل والزم الصمت !
ولما كنت أذناً وهو لسان فإنـه ليس من جنسك ! وقد خاطب الله الآذان (بقوله) : « أنصتوا[3] » .
إنّ الطفل حين يولد ، يكون – في أول الأمر – رضيعاً ، ويبقى مدة من الزمن صامتاً وكله آذان .
فلا بدّ له من الصمت بعض الوقت حتى يتعلم الكلام .
١٦٢٥ فإنْ لم يكن أُذناً صاغية ، وظلّ يردّد أصوات الطفولة ، فإنـه يغدو أبكم هذا العالم .
إنّ الأصم بطبيعته – ذلك الذي ليست له منذ البداية أُذن – يكون أبكم ، فمتى كان مثله يجيش بالقول .
ولما كان السمع – في أول الأمر – لازمـاً للنطق ، فلتصل إلى

---

(١) إشارة إلى إيمان السحرة عندما رأوا معجزة موسى . قال تعالى : « وألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنـــا برب العالمين ، رب موسى وهرون » . (الأعراف ٧ : ١١٩ – ١٢١) . (٢) تفسير صوفي يشير إلى قول فرعون للسحرة ، حينا آمنوا بموسى : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خـــلاف » . (الأعراف ، ٧ : ١٢٣) . (٣) قال تعالى : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » . (الأعراف . ٧ : ٢٠٤) .

النطق عن طريق السمع .
ادخلوا الأبيات من أبوابهـــا واطلبوا الأغراض من أسبابها
والنطق الذي لا يكون متوقفاً على السمع إنما هو نطق الخـــالق الذي تنزّه عن الطمع .
١٦٣٠ إنه المبدع الذي لا يتبع أستاذاً ، وسند الجميع الذي لا يستند على شيء .
وكل من عداه — سواء في الصنع أو في الكلام — تابعٌ لأستاذ ، ومحتاجٌ إلى مثال .
فإن لم تكن غريباً عن هذا الكلام ، فالبس الدلق ، وأسكب الدمع في إحدى الخرائب .
ولما كان آدم قد نجا — بدموعـــه — من اللوم ، فإنّ الدموع السائلة دعاء التائب .
لقد هبط آدم إلى الأرض للبكاء ، ليكون منتحباً ، نائحاً حزيناً .
١٦٣٥ فهو قد نزل من الفردوس ومن أوج السماء السابعة إلى موضع صفّ النعال ، ملتمساً العذر .
فإذا كنت من ظهر آدم ومن صلبه ، فكن طالباً للعذر ، وكن أيضاً من شيعته !
واجعل من نار القلب ودمع العين نُقْــلاً ، فإن البستان لا يتفتح إلا بالسحاب والشمس .
وما الذي تعرفه أنت عن مذاق ماء المدامـــع ، وما أنت إلا عاشق للخبز كالعميان ؟
فلو أنك أخليت هذه الجعبة[1] من الخبز ، لجعلتهـــا مليئة بجواهر الجـــلال .
١٦٤٠ فلتفطم طفل روحك عن لبن الشيطان ، ثم اجعلها — بعد ذلك —

(١) يريد بالجعبة هنا البطن .

رفيقة للملائكة .
وإذا ما كنتَ مُظلماً ملولاً مكتئباً ، فاعلم أنك أخ في الرضاعة ، وقرين للشيطان اللعين .
إنّ اللقمة التي تزيد النور والكمال هي تلك التي تُنال من الكسب الحلال :
أما الزيت الذي يجيء فيطفىء سراجنا ، فسمّه ماء ، مادام يطفىء السراج .
فمن اللقمة الحلال يتولد العلم والحكمة ، ومن اللقمة الحلال ينبعث العشق والرقة .
١٦٤٥فإذا أحسست من لقمة بالحسد ، (ومِلْتَ) إلى الخداع ، وتولد لك منها الجهل والغفلة ، فاعلم أنها لقمة حرام !
وهل زرعت قط قمحاً فأثمر لك شعيراً ؟ أم هل رأيت فرساً أنجبت حماراً ؟
إن اللقمة هي البذرة والأفكار ثمرتها ؛ اللقمة هي البحر والأفكار جوهرها .
إن اللقمة الحلال في الفم يتولد منها الميل للعبادة ، والعزم على الذهاب إلى ذلك العالم[1] .

كيف روى التاجر للببغاء ما رآه من ببغاوات الهند

ولقد أتمّ هذا التاجر تجارته ، وعاد إلى منزله سعيداً قرير العين .
١٦٥٠وأحضر لكل غلام هدية ، كما أعطى كل جارية نصيباً[2] .

(١) عالم الروح . (٢) كلمة (نصيب) من بين معاني (نشان) .

فقال الببغاء : « وأين هديّتي ؟ ألا فلتحدثني بما قلتَه وما رأيتَه ! »
فقال التاجر : « لست فاعلاً ، فإني على ذلك نادم ! إنني أُقلّب
كفيّ ، وأعضّ بناني !
فلماذا حملتُ هذه الرسالة الفَجّةَ جزافاً . إن ذلك لجهلي وحماقتي ! »
فقال الببغاء : « أيها السيد ! على أيّ شيء أنت نادم ؟ وأيّ
شيء يقتضي هذا الغضب الشديد والحزن ؟ »
١٦٥٥ فقال التاجر : « لقد نقلت شكاياتك لجماعة من الببغاوات شبيهة بك .
فأحسّ ببغاء بألمك فانشقت مرارته ، وارتعد ومات .
فأصبحتُ نادماً . وما الذي كان (يقتضي) هذا القول ؟ ولكن
ما دمتُ قد قلتُه فما فائدة الندم ؟ »
فاعلم أن الكلمة التي قفزت فجأة من اللسان شبيهة بالسهم الذي
انطلق من القوس .
فهذا السهم لن يعود من طريقه يا بنيّ ! إن إيقاف السيل يجب
أن يكون عند منبعه .
١٦٦٠ فإذا انطلق من منبعه أغرق الدنيا . فلو أنه خرّب العالم فما
في ذلك عجب .
وفي الغيب آثار تُولّد الأفعال ، وهذه الأفعال المولّده ليست
طوع حكم الخلق .
فالله وحده يخلق كلّ هذه الأفعال المولّده ، وإن كانت تُنسب إلينا .
فزيد يُطيِّر سهماً تجاه عمرو ، فيصيب السهم عمراً كما (يُصاب) النمر .
فيتولد الألم من ذلك مدة عام ، والله هو الذي يخلق الآلام ، لا الناس .
١٦٦٥ فلو مات زيد الرامي — ساعة الرمي — من الوجل ، فإن الآلام
تظل تتولد في جسد عمرو حتى ينتهي أجله .
ولما كان عمرو قد مات من الأوجاع التي تولّدت (من السهم)
فسمّ زيدا الرامي — لهذا السبب — قتّالاً .

وانسب هذه الأوجاع إليه، وإن كانت كلها من صنع الخالق .
وهكذا الزرع والتنفس والصيد والجماع، كل ما تولد عنها إنما هو بقدرة الله .
والأولياء لهم قدرة من الله، فهم يردّون السهم المنطلق عن طريقه .
١٦٧٠ وحينما يصير الوليّ نادماً، فإنه يمنع النتائج المتولدة عن الأسباب[١]، بقدرة الله .
فهو بانفتاح باب (اللطف أمامه) - يجعل ما قيل كأنْ لم يُقل، فلا يقع من جرّائه ضرّ ولا أذى[٢] .
ويمحو الكلام من كل القلوب التي سمعته، ويخفي معالمه .
فإذا أردت - أيها السيد - برهاناً وحجة على ذلك، فلتقرأ (قوله تعالى) :
« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها[٣] » .
ولتقرأ كذلك آية : « أنسوكم ذكري[٤] »، واعلم أن لهم القدرة على وضع النسيان (في قلوب الناس) .
١٦٧٥ فهم - إذ كانوا قادرين على إحداث التذكر والنسيان - تحقّقت لهم السيطرة على جميع قلوب الخلق .
فإذا سدّ الولي أمامك طريق النظر، فليس في إمكانك أن تعمل شيئاً ولو كنت من أولي الفضل .

(١) حرفياً : « يغلق أمام الأسباب أبواب (النتائج) المتولدة » . والمعنى أن الولي إذا ندم على فعل سيء فإن هذا الندم يمنع النتائج التي تتولد عن هذا الفعل .
(٢) حرفياً : « فلا يحترق من جرائه سيخ ولا كباب » .
(٣) البقرة، (٢ : ١٠٦) . (٤) قال تعالى : « إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري » . (المؤمنون ، ٢٣ : ١٠٨ - ١٠٩) .

أخلتم أهل السمو سخرياً ؟ ألا فلتقرأ من القرآن«حتى أنسوكم ذكري[1]».
إن صاحب القرية ملك على الأجساد ، وأما صاحب القلب فملك على قلوبكم .
والعمل قد جاء – بلا شك – فرعاً للإبصار ، وعلى هذا فليس الإنسان إلا إنسان العين !
١٦٨٠ولست مكملاً القول في هذا ، فإن المنع يأتيني من أصحاب الصدارة .
ولما كان التذكر والنسيان في الخلق رهن إرادته ، كما أنه يستجيب إلى ضراعتهم[2] ،
فإن هذا (الخالق) العظيم يخلي قلوبهم كل مساء من مئات الآلاف من (خواطر) الخير والشر .

---

(١) إشارة ثانية إلى قوله تعالى : « فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون » . (المؤمنون ، ٢٣ : ١٠٩) . (٢) فسر صاحب المنهج القوي (جـ ١ ، ص ٣١٧ ، ٣١٨) قول الشاعر : (ولما كان التذكر والنسيان في الخلق رهن إرادته) بقوله : « وذاك الخليفة الأحسن مائة ألوف خواطر حسنة وقبيحة كل ليلة يفرغها وكل يوم يملؤها لأنه متصرف في قلوب النـاس بإرادة الله تعالى كما قال الشيخ الأكبر : يتجلى الحق لمرآة قلب الولي الكامل فيعكس الأنوار من قلبه إلى العالم فيكون باقياً محفوظاً بوصول ذلك الفيض إليها فلا يجسر أحد على فتح الخزائن الإلهية والتصرف فيها إلا بإذن هذا الكامل لأنه صاحب الاسم الأعظم ، ولا يخرج من الباطن إلى الظاهر معنى من المعاني إلا بحكمه ، ولا يدخل من الظاهر في الباطن شيء من الأشياء إلا بأمره ، وإن كان يجهله أحياناً عند غلبة البشرية عليه » . ويمكن أن نرجع ضمير (ويست) في البيت السابق إلى الخـالق جل وعلا لأجل تفهيم عوام الناس » . وقد ترجم نيكولسون هذا البيت والأبيات التي تليه على أن الضمير بها يعود إلى (الولي) ، متبعاً في ذلك التفسير الذي فضّله صاحب المنهج القوي . ورأينا أن الضمير هنا يعود على الله فقد اختتم الشاعر حديثه عن الأولياء في هذا المقام بقوله في البيت السابق : (ولست مكملاً القول في هذا ...) . والأمور التي تحدث عنها الشاعر في هذا البيت وما يليه من أبيات لا يمكن أن تُنسب إلى بشر ، حتى ولو كان المقصود من هذا البيت ما نقله صاحب المنهج القوي عن ابن عربي ، واتخذه أساساً لتفسيره .

بينما هو – في النهار – يملؤها من تلك الخواطر ، ويجعل تلك الأصداف حافلة بالدرر .

فتعرف تلك الأفكارُ السابقةُ – بالهداية – سبيلها إلى الأرواح .

١٦٨٥ فتعود إليك حرفتك وعملك حتى يفتحا أمامك باب الأسباب .

وليست تذهب حرفة الصائغ إلى الحداد ، ولا يصير طبع الرجل المهذب إلى رجل خسيس[1] .

فكما أنّ الحرف والأخلاق تعود إلى صاحبها كالمتاع يوم الحشر[2] ، كذلك تعود الحرف والأخلاق إلى صاحبها مسرعة بعد النوم .

فهذه الحرف والأخـــلاق في وقت الصبح تعود إلى مواضعها من الحسن والقبح[3] .

١٦٩٠ فهي كالحمام الزاجل يعود إلى مدينته بما يحمله إليها من البلاد .

كيف استمع الببغاء إلى ما فعلته الببغاوات ، وكيف مات في القفص ، وكيف بكاه صاحبه

حين استمع هذا الببغاء إلى ما فعله ببغاء الهند ، عرته هزة شديدة وسقط ومات وأصبح بارد الجسم .

فلما رآه التاجر طريحاً على هذا النحو ، قفز ورمى عمامته على الأرض .

---

(١) يريد بهذا البيت وما سبقه من أبيات أنّ الأفكار تفترق عن الأرواح ساعة النوم ، ولكنها تعود في الصباح فتلتحق بتلك الأرواح بهداية الله ، فالحِرَف والمعرفة بالصناعات تفارق أصحابها حين ينامون ، لكنهم عندما يستيقظون تعود إليهم حرفهم ومعارفهم التي تفتح أمامهم أبواب الأسباب . (٢) روي عن الرسول – عليه السلام – أنه قال : « تموتون كما تبعثون وتحشرون كما تموتون » . (٣) تعود الأخـــلاق الحسنة إلى أصحابها ويعود القبح إلى أصحابه .

واندفع التاجر وشقّ جيبه حين رأى الببغاء بهذا اللون ، وعلى تلك الحال .

وقال : « أيها الببغاء الجميل ذو الصوت الرخيم ! ماذا أصابك ؟ ولماذا أصبحت على تلك الحال ؟

١٦٩٥ فوا أسفاه يا طائري الحلو الغناء ! واأسفاه عليك يا صفيي ، وموضع سري .

وا أسفاه عليك يا طائري العذب الألحان ! يا راحي وروحي وروضي وريحاني !

فلو كان لسليمان طائر مثل هذا ، متى كان يُشغل بغيره من الطيور ؟

وا أسفاه على هذا الطائر الذي وجدته رخيصاً ، وسرعان ما حولت وجهي عن وجهه !

أيها اللسان ! إنك لي مصدر ضرّ كثير ، ولكن ما دمت أنت الناطق ، فماذا أقول لك ؟

١٧٠٠ أيها اللسان ! إنك أنت النار ، وأنت البيدر أيضاً ، فإلى متى تشعل هذه النار بهذا البيدر ؟

إنّ الروح تصرخ منك في الخفاء ، وإن كانت تعمل بكل ما تحدثها به !

أيها اللسان ! إنك كنز لا حدّ له ، كما أنك ألم لا علاج له !

إنك صفير وخداع للطيور ، وإن كنتَ — في الوقت ذاته — مؤنساً لوحشة الهجران !

فلكم تمنحني الأمان ، يا من لا أمان لك ! يا من شددت قوسك للانتقام مني .

١٧٠٥ فيا من أطرت مني طائري ! حسبُك ارتعاء في مراعي الظلم !

أجبني ، أو كن منصفاً ، أو اذكر لي ما يكون سبباً للسرور !

وا أسفاه على صبحي الذي كان يحرق الظلمات ! وا أسفاه على نوري الذي كان يتألق به النهار !

والأسفاه على طائري الذي كان مليح الطيران . لقد طار من نهاية حالي إلى بدايته[1] .

إن الجاهل عاشق للألم حتى الأبد ، فقم واقرأ من قوله تعالى ؟ « لا أقسم » حتى قوله « في كبد[2] » .

١٧١٠ لقد كنت مع وجهك خليّا من الكبد ، وكنت في نهـــرك نقيا من الزبد .

وهذه الآهات مبعثها خيال مشاهدة (المحبوب) ، وانفصالي عن وجودي الحق[3] .

إنها كانت غيرة الحق ، ولا حيلة لنا أمــــام الحق . وأين القلب الذي لم يمزّقه عشق الحق مائة قطعة ؟

وغيرة الحق هي أنه مغاير لكل شيء ، وأنه فوق كلّ بيان وضجيج ألفاظ .

والأسفاه ! ليت دمعي كان بحراً لأجعله نثاراً أمام محبوبي الجميل !

١٧١٥ إن ببغائي ، طائري الذكي ، ترجمان فكري وأسراري ،

قد أخبرني – منذ البداية – بكلّ ما يصيبني – ذات يوم – من عدل أو حيف ، لعلني أذكر !

والببغاء الذي يجيء من الوحي صوته ، والذي كان ابتداؤه قبل ابتداء الوجود ،

---

(١) يريد أن الطائر – بموته – عاد من عالم المـــادة إلى عالم الروح ، وبهذا طار من نهاية حال صاحبه في هذا العالم المادي إلى عالم الروح الذي كان بداية حال صاحبه .

(٢) قال تعالى : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان في كبد » . (البلد ، ٩٠ : ١ – ٣) .

(٣) ترجمنا هنا قول الشاعر « وجود نقد » بالوجود الحق غير الزائف .

هذا الببغاء مستتر في باطنك ، وقد شهدت خياله فوق هذا وذاك[1].
إنه يسلبك السرور ، (ومع هذا) فأنت مسرور بـه . وأنت تتقبل منه الظلم ، كأنما هو عدل .
١٧٢٠ فيا من كنت تحرق الروح من أجل الجسد ! إنك أحرقت الروح (وبها) أضأت الجسد .
أما أنا فقد احترقت (بالعشق) ، فهل يريد أحد جذوة (مني) كي يشعل القمامة بناري[2] .
وما دام الوقود هو الذي يكون متقبلاً للنار ، فخذ الوقود الذي يكون جذّاباً للهب !
فواأسفاه ! واأسفاه ! واأسفاه لأن مثل هذا القمر أصبح مختفياً وراء السحاب .
وكيف لي أن أنبس بكلمة ، ونار القلب قد اضطرمت ، وأسد الهجر قد أصبح هائجاً مفترساً .
١٧٢٥ فهذا الذي يكون – في يقظته – عنيفاً ثملا ، كيف يكون حاله ، حين يمسك بيده القدح ؟ .
فالأسد الهائج الذي خرج عن طبيعته ، يضيق به المرج المنبسط .
إنني أُفكر في القوافي وحبيبي يقول لي : « لا تفكر إلا في طلعتي » .
ألا فلتجلس ناعماً يا قافية تفكيري[3] ! إنك أنت قافية السعادة أمامي !
فما الألفاظ حتى تشغل بها فكرك ؟ ما الألفاظ ؟ إنهـا الأشواك المحيطة بالكرم .

---

(١) وقد شهدت خياله فيما أمامك وما حولك من مخلوقات العالم الماديّ .
(٢) هل يريد أحد أن يقبس نار العشق مني لتخلصه مما علق بـه من ماديات حقيرة . وقد عبر عن الماديات بكلمة « القمامة » احتقاراً لها ، كما ذكر أنّ التخلص منها لا يكون إلا بنار العشق التي تحرقها كما تحرق النار القمامة .
(٣) يا مصدر انسجام تفكيري وتوازنه .

١٧٣٠ فلأضربنّ الحرف بالصوت والكلام حتى أستطيع الحـــديث معك بدون تلك (الوسائل) الثلاث .
ولأفضينّ إليك بتلك الكلمة التي أخفيتهـا عن آدم ، يا من أنت (جُماع) أسرار العالم !
سأقول لك تلك الكلمة التي لم أقلها للخليل ، وأُحدثك بذلك الهمّ الذي لا يعرفه جبريل .
تلك الكلمة التي لم ينطق بها المسيح قطّ ، ولم يذكرها الله قطّ – غيرةً عليها – إلا لنا[1] .
وأي شيء تعنيه « ما[2] » في اللغة ؟ إنها للإثبات والنفي ، وأنا لست إثباتاً ، بل إنني نفي وبلا ذات !
١٧٣٥ لقد وجدت ذاتيتي في انعدام الذاتية ، ولهذا فقد نسجتُ ذاتيتي في اللاذاتية .
فجملةُ الملوك عبيد لرعاياهم ، وجميع الخلق فداءُ من يفديهم .
الملوك جميعاً ينحنون لمن ينحني لهم ، والخلق جميعـاً ثملون بحب سُكارى عشقهم .
والصياد يغدو صيداً للطيور حتى يباغتها ، فيجعلها صيداً له .
وقلوب المعشوقين أسيرة لمن فقدوا (في العشق) قلوبَهم ، وجملة المعشوقين صيد للعاشقين .
١٧٤٠ وكل من رأيته عاشقاً فاعلم أنه معشوق ، فإنه – نسبياً – هذا وذاك .
فإذا كان الظماءُ ينشدون من العالم الماء ، فإنّ الماء في العالم أيضاً ينشُد الظماء !

---

(١) ورد في المنهج القوي حديث عن الرسول يروي أنه عليـــه السلام قال : « إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولكن يغبطهم الأنبياء والشهداء لقربهم ومقعدهم من الله » . (٢) وردت في نهاية البيت السابق كلمة « ما » بمعنى نحن . وفي هذا البيت صرفها الشاعر عن معناها الفارسي إلى معانيها العربية فقال إنها للنفي وللإثبات .

فإنْ كنت عـــاشقاً فالزم الصمت ، وإنْ عرك لك أُذناً فكن (كلـّك) أذناً .

ولتُقِمْ سدّاً أمام السيل إذا فاض[1] ، وإلا فإنــه يحدث العار والخراب .

وماذا يضيرني لو يقع الخراب ؟ إنّ كنزاً ملكياً سيكون تحت الأنقاض !

١٧٤٥ إنّ غريق الحق يودّ لو يزداد غرقاً ، (على حين) تهبط روحه وتعلو مثل موج البحر .

فما الأفضل ؟ قاع البحر أم سطحه ؟ وما الأبهى ؟ سهم الحبيب أم درعه ؟

أيّها القلب ! إنـّك لتكون ممزقاً بالوساوس ، لو أنك فرقت بين الطرب والبلاء !

فإنْ كان لمرادك مذاق السكر ، أو ليس حرمانك من مرادك هو مراد الحبيب ؟

فكل نجم من نجومه ثمن لدم مائة هلال ، وإراقةُ دم العالم حلالٌ له .

١٧٥٠ ولقد أخذنا الأجر ، ونلنا ثمن الدماء ، ولهذا فقد سارعنــا إلى المخاطرة بأرراحنا .

آه ! إنّ حياة العاشقين في الموت ، وإنـّك لن تملك قلب الحبيب إلا بفقدان قلبك !

لقد سعيتُ إلى قلبه بمائة إعزاز وتدليل ، ولكنـّه — للدلِه — قدّم لي الأعذار .

قلت : « فما آخر هذا ؟ إنّ العقل والروح عريقا حبـّك ! » فقال : « دعني ! ولا تحدّثني بهذه الخرافة !

---

(١) كن مسيطراً على عواطفك ، ولا تدع لسانك ينطلق بالحديث عنها . وتجنب البوح بما قد يكشف لك من الأسرار .

أولست أعرف ما قد فكرت فيه ؟ فيا أيهـــا الثنوي الرؤية ،
كيف أبصرت الحبيب ؟

١٧٥٥ أيها الكبير الروح ! لقد رأيتني ذليلا ، لأنك شريتني بالثمن البخس !
وكل من اشترى بالثمن البخس باع بالثمن البخس ، فالطفل يعطي جوهرة لقاء قرص من الخبز ! »
إنني غريق عشق قد غرق فيه عشق الأوّلين والآخرين !
ولقد وصفته بإجمال ، ولم أفصّل في بيانه ، ولولا هذا لاحترقت الأفهام ، واحترق اللسان .
فحينا أقول « الشفة » فإنها تكون « شفة البحر[1] » ، وحين أقول « لا » فالمراد « إلا » .

١٧٦٠ وإني — من جرّاء ما أتذوق من حلاوة — جلستُ عابس الوجه ،
كما أني — لامتلائي بالقول — قد لزمتُ الصمت !
وذلك لتستتر حلاوتنا عن كلا العالمينْ وراء حجاب من عبوس الوجه .
وإني لأذكر سراً واحد من كل مائة سر لـَدُنيّ حتى لا يصل هذا الكلام إلى كل أذن .

تفسير قول الحكيم (سنائي)

« إن كل قول جعلك تتخلف عن الطريق يستوى فيه الكفر والايمان
وكل صورة جعلتك تقع بعيداً عن الحبيب يستوى فيها الحسن والقبح »

وفي معنى قوله — عليه الصلاة والسلام — :

« إن سعداً[2] لغيور ، وأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، ومن غيرته حرّم الفواحش ما ظهر منها ومـــا بطن »

إنّ العالم جاء غيوراً ، لأن الحقّ قد سبق هذا العالم في الغيرة .

---

(١) شاطيء البحر . (٢) سعد المذكور في الحديث هو سعد بن عبادة الصحابي المعروف .

فهو مثل الروح ، والعالم كالجسم ، والجسم يتقبل من الروح الحسن والقبيح .

١٧٦٥وكل من صار محرابُ صلاته عين (اليقين) ، فاعلم أنّ عودته إلى إيمان (العوام) شين !

إنّ كلّ من أصبح حافظاً لثياب الملك ، يكون اتجاره من أجل مليكه خسراناً عليه[1] .

وكل من أصبح جليساً للسلطان ، يكون جلوسه على باب السلطان عيباً وغبناً .

(وكل) من حظي بتقبيل يد الملك ، يكون اختياره تقبيل قدمه إثماً .

فإن كان وضع الرأس على قدم الملك إعظاماً له ، فإنه بالقياس إلى تقبيل اليد خطأ وزلل .

١٧٧٠إن الملك ليغار من ذلك الذي يختار الرائحة بعد أن يكون قد رأى الوجه .

ومَثَلُ غيرة الحقّ كمثل القمح ، وأما غيرة الناس فهي كالتبن .

واعلم أن أصل الغيرة من الله ، وأما غيرة الخلق فهي — بدون اشتباه — فرع من غيرة الحقّ .

وإني لتارك شرح هذا ، لأعبّر عن شكواي من جفاء ذلك الجميل ذي القلوب العشرة .

سأنوح لأن النواح يروقه ! إنّ النواح والحزن لما يجب له على العالمين !

١٧٧٥وكيف لا أنوح بمرارة من قصته (معي) ، حين لا أكون في حلقة سكاراه ؟

وكيف لا أنوح وأنا كالليل بدون صباحه ، وبدون وصال وجهه

(١) إن كل من وصل إلى مقام القرب ، يكون ابتعاده خسراناً عليه .

الذي يزيد النهار إشراقاً ؟

وإنّ مرارته لحلوة المذاق لروحي ، فروحي الفداء لذلك الحبيب الذي أضنى فؤادي !

أنا عاشق لضناي وألمي من أجل رضى مليكي الفرد !

لقد جعلت تراب الهمّ كحلاً لعينيّ ، حتى يمتلىء بحرا مقلتيّ بالجوهر !

١٧٨٠ فالدموع التي يريقها الخلق من أجله جواهر ، والخلق يظنونها دموعا !

وأنا أشكو من روح روحي ، ولكني لست (في الحقيقة) شاكياً بل ذاكر خبري !

القلب يقول : « إني قد تعبت منه » ، وأنا – من هـذا النفاق الواهي – كم ضحكت !

فعاملني بالحقّ ، يا فخر المحقين ! يا من أنت الصدر وأنا عتبة بابك !

وأين العتبة والصدر في (عالم) المعنى ؟ وأين « نحن » و « أنا » من ذلك الجانب الذي يكون فيه حبيبنا ؟

١٧٨٥ فيا من برئت روحك من « نحن » و « أنا ! » أيها الروح اللطيف في الرجال والنساء !

إنك الواحد حين يتحد الرجال والنساء ! وإنك الواحد حين تمحى الوحدات !

لقد صنعتَ « أنا » هذه و « نحن » حتى تلعب مع نفسك لعبة العبادة[1] .

حتى تصبح كلّ « أنا » و « أنت » روحاً واحداً ، وتغدو كلها فانية في الحبيب !

فكل هذا يكون ، فتعال يا صاحب الأمر ، يا من أنت منزّه عن « تعال » وعن (كل) الكلام[2] !

---

(١) حين يتم اتحاد الخلق بالخالق لا يبقى هناك مجال للعبادة .

(٢) قرئت « بيا » في الشطر الثاني من البيت « بيان » فيكون معنى الشطر : « يا من أنت منزه عن البيان والكلام » .

١٧٩٠ إنّ الجسم لا يستطيع إبصارك إلا مجسّماً ، فهو يستحضرك في الخيال ساخطاً أو راضياً .

فلا تقل إنّ القلب – وهو أسير السخط والرضى – جدير بتلك المشاهدة .

فذلك الذي يكون أسيراً للسخط والرضى ، إنما هو حيّ بهاتين العاريتين .

وأما بستان العشق الأخضر – الذي لا نهاية له – ففيه إلى جانب السخط والرضى ثمار كثيرة .

فالعشق أسمى من هاتين الحالتين[1] ، وهو ريّان أخضر بدون ربيع أو خريف !

١٧٩٥ فأدّ زكاة الوجه الجميل ، يا صاحب الوجه الجميل ! وأعِدْ لنا شرح حال الروح الممزق .

فإن نظرة من عين ذات غمز ودلال قد طبعت على القلب وسماً جديداً !

وقد أحللتُ له دمي لو أنه أراقه ! وكنت أقول : « حلال (لك دمي) » ، وهو يهرب مني .

وكم تصبّ من همّ على قلوب المحزونين ، حين تهرب من نواح أبناء التراب .

فيا من كل صبح لمع من المشرق وجدك كعين الشمس مشرقاً فياضاً !

١٨٠٠ كيف ألقيت المعاذير إلى المولّه بك ؟ يا من سُكّر شفتيك لا يُقَدَّر بثمن !

يا من أنت الروح الجديد لعالم عتيق ! استمع إلى صراخ جسم لا روح له ولا قلب !

---

(١) حالتا السخط والرضى .

ودع شرح (حال) الوردة بحقّ الله ! واشرح حال البلبل الذي افترق عن الوردة !

فليس اضطرابنـا من الحزن ولا من السرور ، وليست حكمتنا من الخيال ولا من الوهم .

بل إنّ لنا حالة أُخرى وتلك نادرة ، فلا تنكر ذلك ، فإن الله واسع المقدرة !

١٨٠٥ ولا تتخذ من حال الإنسان مقياساً للأمور ! ولا تجعل ركيزتك الجور والإحسان !

إنّ الجور والإحسان والألم والسرور كلها حادثة ، وكل المحـدثات تموت والحق وارثها .

لقد أطلّ الصبح ، يا من أنت للصبح ملجأ وظهير ! فالتمس لي العذر عند مخدومي حسام الدين !

إنك ملتمس العذر عند العقل الكلي وعنـد الروح . إنك روح الروح والتماع المرجان !

لقد أشرق الصبح ، ونحن من نورك في صبوح نحتسيهـا من خمر منصورك[1] .

١٨١٠ فإذا كان عطاؤك يجعلني على هذه الصورة ، فماذا تكون الخمر حتى تجلب لي الطرب[2] ؟

إن الخمر في جيشانها لتتكدّى جيشاننا ، وإنّ الفلك في دورانه ليتكدّى عقلنا[3] !

---

(١) المقصود حسين بن منصور الحلاج ، الصوفي المعروف الذي قتل عام ٣٠٩هـ .

(٢) فإذا كنتُ ثملا بعطائك على هذا النحو ، فماذا تكون الخمر وماذا يكون السكر بها ؟ وأيّ طرب تستطيع أن تجلبه ؟ (٣) إن الخمر في جيشانها ليست شيئاً أمام جيشان نفوسنا ، والفلك الدوار في تدبيره ليس شيئاً أمام حكمة عقولنا .

فالخمر أصبحت ثملة بنا لا نحن بها ! والجسم اتخذ وجوده منا ولم نتخذ وجودنا منه !
إننا كالنحل ، والأجسام كالشمع ! وقد صنعنا الجسم خليّة خليّة كما يُصنع الشمع .

عود إلى حكاية التاجر

إن هذا الحديث طويل ! فلتحدّثنا عن التاجر[1] لنرى ما صارت إليه أحوال هذا الرجل الطيّب .
١٨١٥ لقد كان هذا السيّد في نار وألم وحنين ، وكان يلفظ بمائة عبارة مفكّكة على هذا النحو :
فحينا يكون متناقضاً ، وحيناً رقيقاً ، وحيناً متضرعاً ، وحيناً يكون عاشق الحقيقة ، وحيناً عاشق المجاز !
فالرجل الغريق - وهو يكاد يلفظ الروح - يَنْقَضُّ بيده على كل قشّة .
وهو - لخوفه على حياته - يضرب بيده ورجله ، لعلّ أحداً يأخذ بيده في (هذا) الخطر .
والحبيب يعجبه هذا الهياج ، فكفاح اليائس خير من النوم .
١٨٢٠ فصاحب الملكوت ليس بلا عمل ، والشكوى من جانبه تكون عجباً ، فهو ليس بمريض[2] .

---

(١) يعود الشاعر هنا الى قصة التاجر الذي سافر إلى بلاد الهند .
(٢) هذا البيت من أغمض الأبيات عند الشراح . واعتقادي أنه إحدى الشطحات الصوفية . والمعنى هو أنه تعالى يعمل ليلا ونهاراً ، لا يتوقف عن العمل - ومع هذا - فإن الشكوى من هذا العمل المتواصل تكون عجباً ، فهي لا تحدث لأنه - جلّ شأنه - لا يكلّ .

من أجل هذا – يا بنيّ – قال الرحمن : « كل يوم هو في شأن[1] » .
ففي هذا الطريق ، لا تتوان عن النحت والصقل [2] ! ولا تفرغ لحظة واحدة حتى آخر أنفاسك !
وكن – حتى اللحظة الأخيرة – َنفَساً أخيراً (يتردد) ، لتكون موضع سرّ العناية (الإلهية) .
فكلّ روح – في رجل أو امرأة – بذلت جهدها ، فإنّ أُذن مليك الروح وعينه ترقبان ذلك[3] .

كيف رمى التاجر الببغاء خارج القفص وكيف طار الببغاء الميّت

١٨٢٥ وبعد ذلك ألقى به خـــارج القفص ، فطار الببغاء الصغير إلى دوحة عالية » .
وهكذا طار هذا الببغاء الميّت (بسرعة) كاندفاع شمس المشرق .
فحار التاجر في أمر هذا الطائر ، وأدرك – من دون خبر – أسراره .
فرفع وجهه إلى أعلا ، وقال : « أيها العندليب ! أعطنا نصيباً من بيان حالك !
ماذا صنعه الببغاء في الهنـد فتعلـّمْتَه ، ومكرت مكراً فأشعلتنا حزناً » .
١٨٣٠ فقال الببغاء : « إنه نصحني بفعله قائـــلاً : دع جمال صوتك ولطيف ودّك ،

(١) الرحمن ، (٥٥ : ٢٩) . (٢) لا تتوان عن السعي والتقدم .
(٣) حرفياً : فإن أذن مليك الروح وعينه على النافذة .

فإنّ صوتك هو الذي وضعك في الأسر » . وقد تظاهر بالموت ليُقدّم لي هذه النصيحة .
ومعناها : يا من أصبحتَ مُطرباً للعامة والخاصة ! لتُصبحْ ميّتاً حتى تظفر بالخلاص !
فحين تكون حبة تلتقطك الطيور ، وحين تكون برعمة تقطفك الأطفال .
فخبىء الحبة ، وكن كلّك شركاً ! وأخف البرعمة ، وكن في ظاهرك عشباً [1] !
١٨٣٥ فكل من عرض حُسْنَهُ في المزاد ، يتجه نحوه مائة قضاء سيّء .
فالحِيَلُ والأحقاد والحسد تنصبّ على رأسه كالماء من القرب .
فأعداؤه يمزّقونه غيرة منه ، وأصدقاؤه ينهبون أيام حياته .
ومن كان غافلاً عن الزرع والربيع ، أنى له أن يدرك قيمة الزمن ؟
فالواجب أنْ تفر إلى كنفٍ من لطف الحق ، فإنه يصبّ على الأرواح آلاف الألطاف .
١٨٤٠ وإذ ذاك تجد لك ملجأ ، فكيف يكون هذا الملجأ ؟ إنّ الماء والنار يصحبان كلاهما جيشاً لك !
أولم يصبح البحر صديقاً لنوح وموسى ؟ أولم يصبح عنيف القهر لأعدائهما ؟
أولم تكن النار قلعة لإبراهيم ، حتى صعّدت دخان (الحقد) من قلب النمرود ؟
أولم يَدْعُ الجبلُ إليه يحيي ، ويدفع عنه قاصديه برجم الحجارة ؟
وقال له : « يا يحيى ! تعال ، واهرب إليّ لأكون لك ملجأ من السيف القاطع ! »

---

(١) حرفياً : وكن عشباً فوق السطح .

كيف ودّع الببغاءُ التاجرَ وطار

١٨٤٥فأعطاه الببغاء نصيحة أو نصيحتين حافلتين بالمغزى ، وبعد ذلك
قرأ عليه سلام الفراق .
فقال له التاجر : « امض في أمان الله ! لقد أوضحتَ لي الآن
طريقاً جديداً » .
وحدّث السيد نفسه قائلا : « إنّ هذه النصيحة لي ، فلأسلكنّ
طريقه ، فإنه طريق واضح .
وكيف تكون روحي أقلّ (حكمة) من الببغاء ؟ إنّ الواجب
على الروح أنْ تسلك سبيل الرشاد .

مضرّة اشتهار المرء وتعظيم الخلق له

إنّ الجسم على شكل القفص ، وقد أصبح – بخداع الداخلين
والخارجين[1] – شوكة تخز الروح .
١٨٥٠فهذا يقول له : « إنني سأكون صفيّك » . وذاك يقول له : « لا ،
بل أنا شريكك » .
وهذا يقول له : « ليس لك نظير في الوجود ، سواء في الجمال

(١) المخالطون للمرء .

أو الفضل أو الإحسان أو الجود».

وهذا يقول له : « إنك صاحب العالمين ، وكلّ أرواحنا عيال على روحك ! »

فحين يرى الخلق سُكارى ذاته ، يفقد من الكبر سلطانه على نفسه .

وهو لا يدري أنّ الشيطان قد أوقع آلافاً مثله في ماء النهر[1] .

١٨٥٥ إنّ ملق الدنيا ونفاقها لقمة سائغة المذاق ، ولكنها مليئة بالنار ، فأقللْ من تناولها !

ونارُها مختفية ، ولكنّ مذاقها واضح ، ودخانها يصبح ظاهراً في نهاية الأمر .

ولا تَقُلْ : « متى كنت أبتلع هذا المديح ؟ إنه يتحدث عن طمع ، وأنا واقف على أمره » .

فلو أنّ مادحك هجاك أمام الملأ ، فإنّ قلبك يحترق أياماً بلهيب ذلك (الهجاء) .

ومع أنك تدري أنه قال هذا لحرمانه ، وأنّ طمعه فيك قد جعله مُغرضاً[2] .

١٨٦٠ فإنّ أثر هذا يبقى في نفسك ، وإنك لتلقى التجربة ذاتها في المديح .

فإنّ أثره أيضاً يبقى معك أياماً ، ويصبح مصدراً لتكبر الروح وانخداعها .

لكنّ المدح لا يظهر لك لأنه حلو ، أما القدح فيظهر لك قبيحاً لأنه مرّ .

(والهجاء) مثل المطبوخ[3] والحَبّ[4] ، تتناولها ، فيصيب الاضطراب والألم جوفك زمناً طويلاً .

فإن أكلت الحلوى فمذاقها وقتيّ ، وأثرها لا يدوم طويلاً كأثر تلك العقاقير .

---

(١) قد خدع آلافاً مثله وقادهم إلى الهلاك .

(٢) حرفياً :وأن طمعه فيك قد أصبح ضرراً لك . (٣) ، (٤) أدوية منظفة لأمعاء الإنسان .

١٨٦٥ ومع أنّ أثر الحلوى لا يـــدوم (في الظاهر) ، فهو يدوم في الخفاء ، ألا فلتعرف كل شيء بضدّه .

فالسُّكر – إذا دام – يولد أثره – بعد حين – دمّلا يتطلّب المبضع .

فمن كثرة المديح ، أصبح فرعون طاغيـاً ، فكن ذليل النفس ، ليّن الجانب ، ولا تتجبّر[1] !

فما استطعت فكن عبداً ، ولا تكن سلطـــاناً ! وتلقّ الضربات كالكرة ، ولا تكن صولجاناً !

وإلا ، فإنه – حين لا يبقى لك لطف ، ولا جمال – يقع منك الملال في نفوس خلانك .

١٨٧٠ فهذه الجماعة التي كانت تتملقك تقول لك ، حين رؤيتك : « إنك الشيطان » .

والجميع يقولون لك عندما يرونك بالباب : « هذا ميت قد نهض من قبره » .

(فشأنك كشأن) الأمرد ، يدعونه ربهم حتى يجعلوه بهذا النفاق سيء السمعة .

وحين ينبت في سوء السمعة شعرُ لحيته ، يحلّ العار بالشيطان لو فتش عنه !

إنّ الشيطان يدنو من الآدمي (لإيقاع) الشر ، لكنه لا يقترب منك لأنك أسوأ منه !

١٨٧٥ فحينما كنتَ إنساناً كان الشيطان يقتفي أثرك ، ويجري وراءك ليسقيك خمره .

---

(١) الشطر الثاني من هذا البيت عربي في الأصل ، وقد غيرنا لفظه ليساير السياق . ونصّ الشطر : « كن ذليل النفس هوناً لا تسد » .

ولما صرت متمكناً في طباع الشياطين ، فإنّ الشيطان يهرب منك يا من غدوت عديم الجدوى !
لقد كانوا يتعلقون بذيلك فيما مضى ، فلما أصبحتَ على تلك الحال فرّوا منك جميعاً .

تفسير ما شاء الله كان

لقد قلنا هذا الكلام كله ، ولكنا — في استعدادنا للرحيل — لسنا شيئاً قط بدون عناية الله .
فبدون عنايات الحقّ وخواص الحقّ يكون المَلَك أسود الصفحات .
١٨٨٠ فيا إلهي ! يا من فضلك مجيب الحاجات ! إنه لا يجوز ذكر أحد إلى جانبك .
لقد وهبتنا هذا القدر من الهداية ، وسترت الكثير من عيوبنا حتى هذه اللحظة .
فاجعل قطرة العلم التي منحتنا إياها تتصل ببحارك !
إنّ في روحي قطرة من العلم فخلّصها من الهوى ومن تراب الجسد !
وذلك قبل أن يخسفها هذا التراب ، وقبل أن تنسفها هذه الأهواء .
١٨٨٥ وإنْ كنت أنت القادر على أن تأخذها ، وتُخلّصها من (التراب والهواء) حين نسفها .
فالقطرة التي تقع في الهواء ، أو تسقط على التراب ، متى هربت من خزانة قدرتك[١] ؟
وإذا وقعتْ في العدم ، أو في مائة عدم ، فإنهـــا تجعل رأسها

(١) استفهام بمعنى النفي ، أي ما هربت قط .

قدماً حين تدعوها [1] .
وآلاف الأضداد يقتل بعضُها بعضاً ، ولكنّ حكمك يبعثها من جديد .
ففي كلّ لحظة – يا ربّ – قافلة وراءها قافلة ، تسير من العدم إلى الوجود !
١٨٩٠ أوليست جملة الأفكار والعقول – خاصة – تصير كلّ ليلة غرقى في بحر عميق ؟
أوليست هذه المَلَكات الإلهية ترفع كالأسماك رؤوسها في وقت الصباح ؟
وفي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة إلى بحار الموت !
بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين ، وينوح على الخضرة في البستان .
وثانية يجيء الأمر من سيد الأرض (فيقول) للعدم : « ردّ ما أكلت !
١٨٩٥ أيها الموت الأسود ! ردّ ما أكلت من زرع وأعشاب وورق وحشائش » .
فيا أخي ! اجعل عقلك معك لحظة واحدة ! إنّ بك في كلّ لحظة خريفاً وربيعاً !
وانظر بستان قلبك أخضر ريان نضراً ، حافلاً ببراعم الورد والسرو والياسمين !
قد احتجبت فيه الغصون وراء ما تكاثر من ورق ، واستتر السهل والقصر وراء ما كساه من أزهار !
وهذا الكلام المنبعث من العقل الكلّيّ إنْ هو إلا شذى هذا البستان والسرو والسنبل .
١٩٠٠ وهل تنسمت قط شذى الورد في مكان خلا من الورد ، أم هل

(١) تجيء طائعة تسعى على رأسها .

رأيت فورة الخمر ، حيث لا خمر ؟
والشذى هو دليلك وقائدك الذي يمضي بك إلى الخلد والكوثر .
والشذى دواء للعين يمنحها النور ، وقد تفتحت عينا يعقوب حين
تنسم شذى (يوسف) .
والرائحة النتنة تجلب ظلمة العين ، وقد كان شذى يوسف للعين شفاء .
فإنْ أنت لم تكن يوسف فكن يعقوب ، وكن مثله أليفاً للبكاء
والشجن !
١٩٠٥ واستمع إلى تلك النصيحة من الحكيم الغزنوي[1] ، حتى تشعر
بالجدّة في جسمك الهرم !
إنّ الدلال يقتضي أن يكون الوجه كالورد ، فإذا لم يكن لك
مثل هذا الوجه ، فلا تلزم سوء الطبع[2] .
فمن القبيح أن يتدلل وجه دميم ، وكم هو مضن أنْ يكون الألم
في عين عمياء !
فلا تتدلّل ولا تتمالح أمام يوسف ! ولا يكن منك سوى ضراعة
يعقوب وآهاته !
لقد كانت الضراعة هي معنى الموت عند الببغاء ، فاجعل نفسك
ميتاً بالضراعة والفقر !
١٩١٠ حتى يبعثك من الموت َنفَس عيسى ، ويجعلك مثله مباركاً سعيداً !
(وإلا) فكيف يغدو الحجر الصلد أخضر من الربيع ؟ ألا
فلتكن تراباً حتى ُتنبت الورد مختلف الألوان !
لقد ظللت السنين الطوال حجراً يجرح القلب ، فجرّب لحظة
واحدة أنْ تكون تراباً !

(١) هو الشاعر مجد الدين سنائي الغزنوي .
(٢) حرفياً : فلا تدر حول سوء الطبع .

قصة عازف الصنج الهرم الذي عزف على الصنج – ذات يوم وهو جائع – بين القبور احتساباً لله، في عهد عمر رضي الله عنه

أسمعت أنه كان – في عهد عمر – عازف للصنج مطرب بارع ؟
كان البلبل يغدو ثملا بصوته ، وكان الطرب – بإنشاده العذب – يصبح مائة طرب .
١٩١٥ وكانت أنفاسه تزين المجالس والمجامع ، وكان غناوءه يقيم القيامة !
لقد كان مثل إسرافيل ، الذي يُرجع صوته الأرواح – بفنّه – إلى أجساد الموتى .
أو كان مثل رسائل إسرافيل ، يَنبتُ بسماعها جناحان للفيل !
ولسوف يصبح إسرافيل – ذات يوم – صيحة تهب الروح لمن تحلّل (جسمه) مائة عام !
وللأنبياء أيضاً أنغام في باطنهم ، بها للطالبين حياة لا تُقَدّر بثمن .
١٩٢٠ وليست أذن الحسّ تسمع هذه الأنغام ، فإنّ أذن الحسّ نجسة من الظلم !
وليس يسمع نغم الجنّ آدميّ ، فإنّه جاهل بأسراره .
ومع أنّ نغم الجنّ من هذا العالم ، فإنّ نغم القلب أرفع من كلا النغمين[1] .
إنّ الجنّ والإنس سجناء ، وكلّهم سجين هذا الجهل !
فاقرأ في سورة الرحمن قوله (تعالى) : « يا معشر الجن والإنس

---

(١) نغم الإنس ونغم الجنّ .

إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان [1] » .
وافهم مغزى قوله : « إنْ استطعتم أنْ تنفذوا » .

١٩٢٥ إنّ أنغام باطن الأولياء تبادر بقولها : « يا أجزاء النفي و (العدم) ! تنبهوا وارفعوا رؤوسكم من « لا » النفي ، واخرجوا بها من هذا الخيال والوهم !
وأنتم أيها المنحلّون في (عالم) الكون والفساد ، إنّ أرواحكم الباقية لا تنمو ولا تولد » .
ولو أنني شدوت بطرف من هذه الأنغام ، لرفعت الأرواح رؤوسها من القبور .
فلتجعل أذنك قريبة منها ، فليست ببعيدة عنك ، ولكنّي لم يؤذن لي بنقلها إليك .

١٩٣٠ وتنبّه ! فإنّ الأولياء هم إسرافيل الزمن (الحاضر) ، فمنهم للموتى حياة وانتعاش !
فالأرواح الميتة في قبور الأجساد ، تقفز من أكفانها مستجيبة لندائهم !
وتقول : إنّ هذا النداء مختلف عن جميع النداءات ! إنّ البعث لهو فعل نداء الله !
لقد متنا وتحلّل كياننا كلّه ، وجاء نداء الحق فنهضنا جميعاً .
ونداء الحق يجيء محتجباً وبدون حجاب . إنّ الوهّاب هو الذي ألقى لمريم — في جيبها — العطاء .

١٩٣٥ فيا من (قلوبهم) تحت جلودهم متحلّلة بالفناء ! عودوا من العدم بنداء الحبيب ؟

---

(١) الرحمن ، (٥٥ : ٣٢)

فهذا صوت أطلقه المليك ، وإنْ كان قد خرج من فم عبد الله .

لقد قال له[1] الله : « إنّي لسانك وعينك ! إنّي حواسك ، ورضاك وغضبك[2] !

فاذهب فإنّك من قلت عنه : « بي يسمع وبي يبصر[3] » .

إنّك أنت السرّ ، فأيّ مكان للقول بأنّك صاحب السرّ !

فإنْ صرتَ — من وَلَهِكَ بالحقّ — « من كان لله » ، فإنّي أصبح لك ، « كان الله له » .

١٩٤٠ فحيناً أدعوك : « أنت » ، وحينا « أنا » ، ومهما أُقلْ فإنّي أنا الشمس المشرقة !

وحيثما أشرقتُ من مشكاةِ أنفاسي ، حُلّتْ مشكلاتُ العالم .

والظلمةُ التي لم تُبدّدها الشمس ، أصبحت بأنفاسنا مثل الضحى .

فهو بذاته عَلّم آدم الأسماء ، ثم كشف بآدم الأسماء للآخرين .

فخذ نوره من آدم إن شئت ، أو منه إنْ أردت ، وخذ الخمر من الإبريق إن شئت أو من الكأس إن أردت .

١٩٤٥ فإنّ الكأس ذات قربى وثيقة بالإبريق ، فيا أيتها الكأس المباركة ! ليس هناك من هو سعيد مثلك !

ولقد قال المصطفى : « طوبى لمن رآني (وآمن بي) ، وطوبى لمن رأى من رآني » .

فحين يقتبس السراجُ نورَ الشمعة ، فكل من رآه رأى الشمعة يقينا .

---

(١) للعبد المخلص . (٢) روى البخاري عن أبي هريرة أنه قال : « قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راويا عن ربّه : من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . (٣) أنظر نص الحديث في الحاشية السابقة .

فلو أنتقل النور على هذا النحو ، خلال مائة سراج ، فرؤية آخر سراج ملاقاة للأصل .
فاقتبس بروحك من النـــور الأول إنْ أردت ، أو اقتبس من الشمعدان إنْ شئت ، فليس هناك فرق (بين الحالين) .
١٩٥٠ وإذا شئتَ فانظر نور (الله) في سراج الآخرين ، وإنْ شئت فانظره في شموع الغابرين !

في بيان الحديث : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرّضوا لها[1] »

لقد قال الرسول : إنّ نفحات الحق تتسابق في هذه الأيام .
فأنصتوا وتنبّهوا لهذه الأوقات ، واغتنموا مثل هذه النفحات !
لقد جـاءت نفحةٌ فتطلّعت إليكم ومضت ، لقد وهبت الروح لكل من أرادت ثم تولّت .
وجاءت نفحة أُخرى فتنبّه لها ، حتى لا تتخلّف عن تلك أيضاً ، أيها الرفيق !
١٩٥٥ إن النفس النارية وَجدت فيها ما يطفىء نارها ! كما أحسّت منها الروح الميّتة بالحركة (تدبّ فيها) !
وهذه (الحركة) إنما هي نضارة شجرة طوبى واهتزازها ، وليست مثل الحركات الحيوانية .
(فهذه النفحة) لو وقعت في الأرض والسماء ، لانصهرت مرائرهما — في الحال — (رعباً) !

(١) شرح الغزالي هذا الحديث بقوله : « التعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة .. » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ٩) .

وذلك من خوف هذا النفس الذي لا نهاية له ، ألا فلتقرأ (قوله تعالى) : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أنْ يحملنها وأشفقن منها[1] » .
وإلا فكيف كان الاشفاق منها[2] ، لو لم يكن قلب الجبل قد أصبح دماً .

١٩٦٠ وبالأمس مدّت لي هذه (النفحة) يدهـا ، في صورة أُخرى ، فعرَضتْ لي بضعُ لقم سدّت (أمامي) الطريق .
إن لقمانياً[3] قد أصبح رهناً من أجل لقمة ! وهذا الوقت وقت لقمان[4] ، فلتذهبي أيتها اللقمة !
فوخز الأشواك هذا إنما هو من أجل لقمة ، ألا فلتخرجوا الشوك من كف لقمان !
(والحقيقة أنه) ليس في كفه شوك ، ولا خيال الشوك ، ولكنكم – لحرصكم – مجردون من التمييز .
فاعلم أنّ ما رأيته ثمرة إنما هو شوكة ، ذلك لأنك شديد الحرص[5] ، بالغ العمى !

١٩٦٥ إنّ روح لقمان لهي بستان الله ، فلماذا أصابت شوكة قدمها .
فهذا الوجود الذي يأكل الشوك شبيهةٌ بالجمل ، وقد ركب فوق هذا الجمل ابن للمصطفى[6] !

---

(١) الأحزاب ، (٣٣ : ٧١) . (٢) إشارة إلى قوله تعالى : « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ... » (٣) يريد باللقماني ، الروح الذي هو حكمة لقمان ومع ذلك فقد أصبح في البدن أسير لقمة ، فالإنسان في سعيه وراء المادة ينسى روحه ويهمله ، فكأنما هذا الروح أصبح في سجن الجسد رهيناً للمنافع المادية .
(٤) وهذا الوقت هو وقت الحكمة الروحية ، الذي لا مجال فيه لسيطرة المادة .
(٥) عبر عن الحرص بعبارة « نان كور » ومعناها « من أعماه الحرص على الخبز » .
(٦) المراد بالمصطفى الإنسان الكامل ، وفي هـذا البيت إشارة لاتصال الإنسان الكامل بهذا الكيان المادي الذي هو كالجمل يأكل الشوك .

أيها الجمل ! إنّ فوق ظهرك حملاً من الورد ، ومن نسيمه قد نبت فيك مائة بستان !

ولكن ميلك متّجه للشوك والرمال ، فأي ورد ستجنيه من شوك الرمال !

فيا من طوّفت من درب إلى درب وراء هذا الطلب ! إلام تقول : « أين هذا البستان ؟ أين ؟ .

١٩٧٠ فما دمتَ لم تخرج من قدمك هذه الشوكة ، فإبصارك مظلم ، فكيف تتجول ؟

إنّ الإنسان الذي لا تسعه الدنيا ، يحجبها عنه سنّ شوكة !

ولقد جاء المصطفى ليضع الوفاق ، فكان يقول : « كلميني يا حميراء كلميني ! » .

يا حميراء ! ضعي نعل (الجواد) في النار ، حتى يغدو هذا الجبل — من نعلك — ياقوتا[1] .

وكلمة « حميراء » هذه مؤنثة . وقد جعل هؤلاء العرب للروح اسماً مؤنثاً .

١٩٧٥ ولكن لا ضير على الروح من تأنيثها ، فليست مشتركة مع الرجال والنساء (في التذكير والتأنيث) .

إنها أسمى من المؤنث والمذكّر ، فليست هي هذه الروح التي

---

(١) من العادات التي كانت تتبع لبعث المحبة في قلب المحبوب أن يكتب اسم هذا المحبوب على نعل دابة ويوضع في النار حيث تقرأ عليه رقى وتعاويذ . كما أنه إذا أبق عبد كان اسمه يكتب على نعل دابة ويوضع هذا النعل في النار ليرجع العبد . ومعنى البيت أن الرسول طلب من زوجته عائشة أن تعمل على إثارة الحب في قلبه حتى يتملكه هذا الحب فيجعل الجسم المادي الذي هو كالجبل كنزا من المحبة الروحية الصافية التي هي كالياقوت .

تكون من الجفاف أو البلل[1] .
إنها ليست هذه الروح التى تنمو (بتناول) الخبز ، أو تكون
حيناً على هذا النحو وحيناً على ذاك .
فهي حلوة الصنع ، حلوة في ذاتها ، بل هي عين الحلاوة !
وليست هناك حلاوة إلا حلاوة (الباطن) أيها المرتشي[2] !
فحين يكون السكر مصدر حلاوتك ، فمن الجائز أن ينقطع عنك
السكر في وقت من الأوقات .
١٩٨٠ (ولكنك) حين تصبح — بعظيم وفائك — سكراً فأنّى للسكر
أنْ يفترق عن السكر[3] ؟
والعاشق حين يغتذي برحيق من ذاته ، فإنّ عقله يبقى — حينذاك —
ضائعاً وبلا رفيق[4] .
فالعقل الجزئيّ منكر للعشق ، وإنْ تظاهر بأنه من أصحاب السر !
إنه ذكيّ عالم ، ولكنه ليس منتفي (الذات) ، والمَلَك — إن
لم يكن منفيّ الذات — فهو شيطان !
إنه رفيق لنا في القول والفعل ، ولكنك حين تجيء إلى حكم
الحال (الباطني) فلا وجود له .
١٩٨٥ إنه لا شيء لأنه لم ينتقل من الوجود إلى العدم ، وهو إن لم يَلُذْ
بالنفي طوعاً — فما أكثر ما انتفى كرهاً !

---

(١) يريد بالروح التي تكون من الجفاف أو البلل الروح الحيوانية وتوصف بأنها « جسم لطيف » وبأنها تتولد من القلب وتحملها الشرايين إلى المخ . ولما كانت هذه الروح قد تولدت من أصل مادي فإنها تخضع لخواص المادة من يبس أو ميوعة أو حرارة أو برودة .

(٢) المرتشي هنا هو الذي يحصل على متع مادية تصرفه عن الطريق الروحي القويم .

(٣) الفضائل إذا أصبحت طبيعة للمرء فإنها لا تفارقه ، وكذلك الحلاوة طبيعة لا تفارق السكر .

(٤) لا بد للعاشق من الإلهام الإلهي لأنّ العقل وحده لا يستطيع هدايته إلى الحق .

إنّ الروح كال ، ونداؤها كال ، والمصطفى هو القائل : « أرحنا يا بلال !

يا بلال ! ارفع صوتك العذب (ريّان) من ذلك النفس الذي نفختُه في قلبك ،

من ذلك النفس الذي دهش له آدم ، وذهب بوعي أهل السماء .

ولقد طرب المصطفى لذلك الصوت الرخيم ! ففاتته الصلاة في ليلة السفر[1] .

١٩٩٠ فهو لم يرفع رأسه من ذلك النوم المبارك فأدّى في الضحى صلاة الصبح .

فقد كان في ليلة التعريس أمام تلك العروس ، وحظيت روحه بتقبيل يدها .

والعشق والروح كلاهما خفيّ مستتر ، فإن كنتُ قد سمّيتُه عروساً فلا تَعِبْ ذلك .

ولو أنّ الحبيب أمهلني لحظة واحدة لَلَزِمتُ الصمت (خشيةً) من ملاله .

لكنه يقول لي : « هلمّ تكلمّ ! فما في ذلك عيب ، فليس هذا سوى ما اقتضاه قضاء الغيب » .

١٩٩٥ وما العيب إلا (عند) من لا يرى سوى العيب ، وكيف ترى العيب الروح الطاهرة في عالم الغيب ؟

---

(١) روى البخاري عن أبي قتادة الحارث بن ربعي قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر مع أصحابه فناموا فما أيقظهم إلا حرّ الشمس فقال عليه السلام : « إنّ الله قبض أرواحكم وردّها عليكم حين شاء » . المنهج القوي ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

وروى ابن هشام أن المسلمين حين انصرفوا من خيبر ظافرين في العام السابع للهجرة توقفوا للراحة في الهزيع الأخير من الليل فناموا فما أيقظهم إلا حرّ الشمس وفاتتهم صلاة الفجر .

إنْ العيب قد انتسب إلى المخلوق الجهول ، (ولكنه) لا انتساب له إلى ربّ القبول .

والكفر – إذا نُسِبَ إلى الخالق – فهو حكمة[1] ، أما إذا نسب إلينا فهو آفة .

ولو كان هناك عيب واحد مع مائة حياة ، فهو على مثال القشة في سكر النبات .

فهما (القشة والسكر) يوزنان على السواء في الميزان لأن كليهما حلو مثل الجسم والروح .

٢٠٠٠ فليس من جزاف القول ما قاله الكبراء[2] : إنّ أجسام الطاهرين تكون صافية كأرواحهم .

فأقوالهم ونفوسهم وصورهم ، جاءت كلها روحاً مطلقاً ، بدون علامة ظاهرة .

وروح عدّوهم ليست إلا جسماً (مادّياً) صرفاً ، فهي لا تعدو أنْ تكون اسماً ، كالحجر الزائد في النرد .

وقد دفن بالتراب جسم هذا (العدوّ) وصار كله تراباً ، وأما جسم (الوليّ) فقد دفن في الملح وصار كله طاهراً .

فبهذا الملح صار محمد أملح[3] (الخلق) ، وبه صار حديثه الشهي أفصح (ما قيل) .

٢٠٠٥ وقد بقى هذا الملح في تركته ، وإنّ وارثيه معك ، فابحث عنهم !

لقد جلسوا أمامك ، ولكنْ أين منك الأمام ؟ إنهم أمام وجودك (الحقّ) فأين الروح التي تفكر فيما أمامها ؟

---

(١) ليس هناك عيب يمكن أن يعيب الخالق صاحب الكمال المطلق ، حتى ولو كان الكفر ، وهو أعظم الذنوب بالنسبة للبشر . (٢) ذوو المكانة الروحية الرفيعة . (٣) الشاعر هنا يلعب بلفظي ملح وملاحة .

فإذا ظننت نفسك مرتبطة « بالأمـام » و « بالخلف » ، فإنك أسير الجسم ، محرومٌ من الروح .

إن « تحت » و « فوق » و « أمـــام » و « وراء » أوصاف للجسم ، وأما الروح المشرقة بذاتها فلا اتجاه لها !

فافتح بصرك على النور المشعّ من المليك حتى لا تفكر مثل قصار النظـــر ،

٢٠١٠ فهؤلاء ليسوا إلا أسارى للهم والسرور ، فيا أيها العدم[١] ! أين من العدم « أمام » و « وراء » .

إنّ اليوم ممطر فامش حتى المساء ، فليس هذا المطر ماديّاً ، بل هو إمطار روحيّ من الله[٢] .

قصة عائشة – رضي الله عنها – وسؤالها المصطفى – عليه السلام – قائلة : إن السماء أمطرت اليوم عندما ذهبت إلى المقابر فلماذا لم تبتل ثيابك ؟

لقد ذهب المصطفى – ذات يوم – إلى المقابر ، ليشيّع جنـــازة رجل من أصحابه .

فسدّ بالتراب قبره . وأحيا بذرة (وجوده) تحت التراب[٣] .

---

(١) يا من عميت عن وجودك الحقّ ولم تدرك إلا وجودك الماديّ الزائل .

(٢) إنّ حياة الإنسان يومٌ ينتهي بالمساء وهو الموت ، والإنسان في هذا اليوم يمضي في طريقه نحو ربه ، والله يمطره بإلهامه الروحيّ ، فعليـــه أن يتعرض لهذا الإلهام ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

(٣) إنّ الموت بدء لحياة جديدة لا مكان فيها للجسم المادي .

فهذه الأشجار مثل نزلاء التراب ، رفعت أيديها من جوف الثرى !

٢٠١٥ وهي توّجه إلى الخلق مائة إشارة ، وتخاطب من له أذن (تعي) !

وبلسان أخضر ، ويد ممدودة ، تبوح بسرّ (من) ضمير الأرض .

فهي كالبطّ الذي غمر بالماء رءوسه[1] ، ولقد أصبحت كالطواويس وكانت كالغربان[2] .

فإن كان الله قد حبسها في زمن الشتاء ، فإنه (في الربيع) قد جعل هذه الغربان طواويس .

وإن كان الله قد أماتها في الشتاء ، فإنه قد أحياها بالربيع ووهبها الأوراق !

٢٠٢٠ إن المنكرين يقولون : « إنّ هذا وجود قديم ، فلماذا نربطه بربّ كريم ؟ »

وبينا هؤلاء في عماهم ، أنبت الحق في قلوب أحبّائه الرياض والبساتين !

فكل وردة عطرة في الباطن ، ناطقة مفصحة عن أسرار الكلّ .

وعطر هذه الورود — رغم أنف المنكرين — يطوّف بالعالم فيمزّق الحجب (عن الأبصار) !

والمنكرون أمام عطر هذا الورد كالجعلان[3] ، أو هم كالعقل الرقيق أمام صوت الطبل .

٢٠٢٥ إنهم يتظاهرون بالانشغال والاستغراق ، بينما هم يفرون بأبصارهم من هذا الإشراق ، وذلك البريق !

---

(١) الأشجار حجبت أصولها تحت التراب كالبط الذي غمر بالماء رءوسه .

(٢) الأشجار تصبح في الربيع زاهية الألوان كالطواويس بعد أن كانت في الشتاء مغبرّة سوداء كالغربان .

(٣) نوع من الحشرات يحوم حول المواضع القذرة ، تفقده الروائح الطيبة إحساسه ، على حين تحييه الروائح النتنة .

إنهم يفرّون بأبصارهم ، وليست لهم أبصار ، لأن البصر هو الذي يرى مكان الأمان .

وعندما عاد الرسول من المقابر ، توّجه إلى الصدّيقـــة ، وأصبح نجياً لسرّها .

فلما وقع بصر الصديقة على وجهه ، تقدمت نحوه ، ووضعت يدها عليه .

وتحسّست عمامته ، ووجهه وشعره ، ولمست جيبه وصدره وساعده .

٢٠٣٠ فقال الرسول : « عم تبحثين بتلك العجلة ؟ » ، فقالت : « لقد سقط المطر اليوم من السحاب ،

وهأنذا أتلمس ثيابك باحثة ، ومن عجب لا أراهـا مبتلة بالأمطار ! »

فقال : « أيّ خمار قد ألقيت على رأسك ؟ » ، فقالت « لقد جعلتُ رداءك هذا خماراً » .

فقال : « فلهذا السبب – أيتها الطاهرة الجيب – أظهر الله أمام عينيك أمطار الغيب !

فليست هذه الأمطار من سحابك[1] ، فهناك سحب أُخرى وسمـاء أُخرى » .

تفسير قول الحكيم[2]

« إنّ في عالم الروح سماوات تحكم سماء الدنيا
وفي طريق الروح مرتفعات ومنخفضات وجبال عالية وبحار »

٢٠٣٥ إنّ للغيب سحاباً آخر وماء آخر ، وله سماء غير تلك السماء وشمس غير تلك الشمس .

(١) من ذلك السحاب المادي الذي تبصرينه . (٢) المقصود سنائي الغزنوي .

وليست هذه تظهر إلا للخواص ، وأمـــا من عداهم فإنهم « في لبس من خلق جديد[1] » .

فهناك أمطار يزدهر بها النبات ، كما أنّ هناك أمطاراً تصوّحه .

فنفحات أمطار الربيع آية العجب ، وأمـــا أمطار الخريف فهي للبستان كالحُمّى !

فأمطار الربيع تغذّيه برفق ، وأمـا أمطار الخريف فتجعله معتلاً أصفر اللون .

٢٠٤٠ وهكذا البرد والريح والشمس ، فلتعلم أنها متفاوتة الآثار ، ولتُمسك بطرف الخيط[2] !

وفي الغيب أنواع من ذلك أيضاً ، فيها النفع والضرّ وفيهـا الربح والخسران .

وأنفاس الأبدال إنما هي من ذلك الربيع ، فهي تنبت الخضرة في القلوب والأرواح .

وإنها لتفعل بالمجدود الطالع ما تفعله أمطار الربيع بالأشجار !

فإنْ كانت في المكان شجرة ذابلة ، فلا تنسب عيبها إلى الرياح التي تبثّ الحياة .

٢٠٤٥ إنّ الرياح قد أدت عملها إذ هبّت ، فمن كان ذا روح آثرهـــا على روحه .

---

(١) قال تعالى : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » .
(سورة ق ، ٥٠ : ١٥)

(٢) لتضع يدك على السرّ .

في معنى الحديث : « اغتنموا برد الربيع فإنه يعمل بأبدانكم كما يعمل بأشجاركم ، واجتنبوا برد الخريف فانه يعمل بأبدانكم كما يعمل بأشجاركم »

قال الرسول : « أيها الصحاب ! تنبهوا ولا تحجبوا أبدانكم عن برد الربيع .
فإنه يفعل بأرواحكم ما يفعله الربيع بالأشجار .
أما برد الخريف فلتهربوا منه فإنه يفعل بأرواحكم فعله بالبساتين والكروم » .
وقد حمل الرواة هذا الحديث على ظاهره ، وقنعوا به على تلك الصورة .
٢٠٥٠ فهؤلاء كانوا جهلاء بالروح ، وقد أبصروا الجبل ولكنهم لم يبصروا المنجم في باطنه .
فذلك الخريف – عند الله – ليس إلا النفس والهوى ، وأما العقل والروح فهما عين الربيع والبقاء .
إنك صاحب عقل جزئيّ مستتر ، فلتبحث في الدنيا عن كامل العقل !
فعقلك الجزئيّ يكتسب الكليّة من عقله الكلّيّ ، وإن العقل الكلي لهو كالرسن للنفس (الجموح) .
فالتأويل هو أنّ الأنفاس الطاهرة مثل الربيع ، وهي حياة للأوراق والكروم .
٢٠٥٥ فلا تحجب بدنك عن أقوال الأولياء ، سواء منها ما رقّ أو

ما خشن ، فإنها دعامة لدينك .
فلو كان كلام (الوليّ) حاراً أو بارداً ، فتقبّله بقبول حسن ،
فإنك به تفرّ من البرد ومن الحرّ ومن السعير .
إنّ حرارته وبرودته إنما هما ربيع جديد للحياة ، وهما أصل
الصدق واليقين والخضوع .
وهو إذ كان حياة لبستان الروح ، وكان بحر قلبه حافلاً بتلك
الجواهر ،
فإنّ قلب العاقل تنتابه آلاف الهموم ، لو نقص من بستان القلب
عود خلال .

كيف سألت الصدّيقة المصطفى قائلة :
« ماذا كان سرّ أمطار اليوم ؟ »

٢٠٦٠ قالت الصدّيقة : « يا زبدة الوجود ! ماذا كانت الحكمة وراء
أمطار اليوم ؟
أكانت هذه أمطار الرحمة ، أم أنها كانت للتهديد ، (وبيان)
عدل الكبرياء ؟
أكانت هذه من الألطاف الربيعيّة ، أم أنها كانت خريفيّة حافلة
بالآفات ؟ »
فقال : « لقد كانت هذه لتسكين الهموم ، التي (أوقعتها)
المصائبُ على الجنس الآدميّ [١] » .

---

(١) المعنى أن هذه الأمطار الغيبية التي أبصرتها الصديقة لم تكن إلا نفحات من الرحمة الإلهية بعث بها الخالق لتسكين هموم البشر .

فلو أقام الآدمي على تلك النار زمناً ، لوقـع الكثير من الخراب
والضياع[1] ،
٢٠٦٥ولأصبح هذا العالم – في الحال – خرباً ، ولانطلقت نوازع الحرص
من نفوس البشر .
أيتها الروح ! إنّ الغفلة[2] إنما هي دعامة هذا العالم ، كما أن
اليقظة[3] آفة لهذه الدنيا .
فاليقظة إنما هي من العالم الآخر ، فحين تصبح لها الغلبة ، يتداعى
هذا العالم !
إنّ اليقظة هي الشمس وأمـا الحرص فهو الثلج[4] . اليقظة هي
الماء ، وأما هذا العالم فهو الوسخ[5] .
وإنا لتصلنا رشحات قليلة من ذلك العـالم (الروحيّ) ، حتى
لا يزجر الحرص والحسد في هذا العالم .
٢٠٧٠فلو زادت الرشحات من عالم الغيب لمـا بقي في هذا العالم فضل
ولا عيب[6] .
إنّ هذا (البحث) لا نهاية له ، فلنعد إلى البداية ، ولنرجـع
إلى قصة الرجل المطرب .

---

(١) حرفياً : النقصان . (٢) الغفلة عن هوان هذه الدنيا وعن جمـال العالم الروحي . (٣) اليقظـة الروحية . (٤) اليقظة تقضي على الحرص كما تذيب الشمس الثلوج . (٥) كذلك تزيل اليقظة الحرص كما يزيل الماء الوسخ .
(٦) لو غلب عالم الغيب على هذا العالم المادي لقضى على ما فيه من قيم ومقاييس أوحت بها للإنسان حياته في الدنيا .

بقية قصة عازف الصنج الهرم ، وبيان مغزاها

إنّ هذا المطرب الذي طربت له الدنيا ، والذي انبعثت من صوته الخيالات العجب ،

من – بشدوه – كان طائر القلب يحلّق ، ومن بصدى (نغماته) حار عقل الروح !

حينما مضى عليه الزمن وشاخ ، أصبح بازيّ روحه – من العجز – صيّاداً للبعوض .

٢٠٧٥ لقد تقوّس ظهره كظهره الإبريق ، وغدت حواجبه فوق عينيه ، كالحَبْل فوق دُبُر الدابـة .

وأصبح صوته اللطيف – الذي كان ينعش الروح – قبيحاً ، لا يرى أحدٌ أنه يستحق شيئاً .

وأنغامه التي كانت – ذات يوم – مثاراً لِحَسدِ الزهرة [١] صارت مثل نهيق حمار هرم .

وأيّ جميل لم يَغْدُ قبيحاً ؟ أم أي سقف لم يصبح مساوياً للأرض [٢] ؟

إلا الأصوات في صدور (الأولياء) الأعزاء [٣] ، وهؤلاء هم الذين يكون نفخ الصور من صدى أنفاسهم !

٢٠٨٠ فباطنهم هو الذي سكرت بـه البواطن ، وفناؤهم [٤] هو الذي استمد وجودُنا منه الوجود .

---

(١) من المعتقد قديماً أن الزهرة كانت امرأة وقع عليها المسخ فأصبحت نجماً . كما يصور شعراء الفرس هذا النجم مغنياً عازفاً . (٢) حرفياً : لم يصبح مفروشاً .
(٣) يستثني الشاعر هنا أصوات الأولياء من الحكم الذي ذكره في البيت السابق وهو أن كل جميـل يغدو قبيحاً . (٤) الفناء عن العالم المادي ، والخلاص من تأكيد الذات .

إن الوليّ هو كهرباء الفكر وكل صوت ! إنه لذة الإلهام والوحي والأسرار !

فهذا المطرب - حين شاخ وضعف - أصبح - لانعدام كسبه - رهين رغيف واحد .

فقال : « يا إلهي ! لقـــد أطلت عمري ومهلتي ، وأنعمت على خسيس بألطافك !

لقد اقترفتُ الآثام سبعين عاماً ، لكنك لم تحجب عني نوالك يوماً !

٢٠٨٥ فاليوم لا كسب لي ، وإني ضيفك ! وهأنـذا أضرب الصنج من أجلك ، فإني لك » .

ورفع الصنج بيده ، ومضى طالباً ربه ، واتجه - وهو يتأوه - إلى مقابر يثرب .

وقال : « إني أطلب من الله ثمن حرير (الأوتار) ، فهو الذي يتقبل برحمةٍ منه زائف النقد » .

لقد أطال العزف ثم مال برأسه باكياً ، فتوسد الصنج وسقط فوق أحد القبور !

فأخذه النوم ، وأفلت طائر روحـــه من الحبس ، فترك الصنج والعازف وانطلق .

٢٠٩٠ لقد تخلّص من البدن ، وألم الدنيا ، إلى عالم بسيط[1] ، وإلى ما للروح من سهوب فساح .

فهناك كانت روحه تتغنى بما اعتراها ، (قائلة) : « ليتني أُترك هنـــا !

فما أسعد روحي بهذا البستان وذلك الربيع ! إنهـا سكرى بهذا المرج ، وبرياض أزاهير الغيب .

---

(١) عالم روحي خالص وليس مركباً من الروح والمادة كعالم الدنيا .

فهأنذا أُسافر بلا رأس ولا قدم[1] ! وهأنذا أتذوق السكر بلا شفة ولا أسنان !
وهأنذا ألهو مع سكان السماء ، وقد خلصت ذاكرتي وفكري من آلام الدماغ !

٢٠٩٥ وهأنذا أرى عالماً (بأسره) وعيناي مغمضتان ! وهأنذا — بلا كف — أجتني الورود والرياحين ! » .
إنّ طائر الماء أصبح غريق بحر من العسل ، وأضحى نبع أيوب له شراباً ومغتسلاً [2] .
هذا الذي بمائه أصبح أيوب — من قمة الرأس إلى القدم — بريئاً من الآلام مثل نور المشرق !
فلو كان المثنوي في حجم الفلك ، لما اتسع لنصف مثقال من هذا (السرّ الإلهيّ) .
فإنّ هذه الأرض ، وتلك السماء — على سعتها — مزقتا قلبي إرباً بضيقها [3] !

٢١٠٠ وأما ذلك العالم الذي تجلى لي في المنام فقد أطلق برحابته قوادم جناحيّ وخوالفها .
فلو ظهر للعيان ذلك العالم واتضح سبيله ، لما بقي أحدٌ لحظةً واحدة في هذا العالم (الماديّ) .
لقد كان الأمر يأتيه (قائلاً) : « لا تكن طامعاً ! وما دامت الشوكة قد خرجت من قدمك فلتمش ! » .

---

(١) بلا رأس يدبر ولا قدم تسعى . (٢) قال تعالى : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » . (سورة ص ، ٣٨ : ٤٠ — ٤١) .
(٣) عاد الشاعر هنا إلى رواية حديث عازف الصنج .

لكن روحه كانت تمضي متأنية ، مستغرقـــة في فضاء رحمة الله وإحسانه .

كيف أمر الهاتف عمر – رضي الله عنه – في منامه قائلا : « أعط قدراً من ذهب بيت المال لذلك الرجل النائم في المقابر »

وفي ذلك الوقت أرسل الله إلى عمر نوماً لم يستطع أن يتمالك منه نفسه .

٢١٠٥ فاستولى عليه العجب (وقال) : « إنّ هذا ليس بمعهود ! لقد جاء من الغيب ، وليس أمراً غير مقصود » .

فوسد رأسه وأخذه النوم ، فرأى في المنام أنّ نداء جـــاءه من الحق ، سمعته روحه .

فذلك النداء هو أصل كل صيحة ، وكل صوت . إنه النداء (الحق) ، وكل ما عداه فهو صدى .

فالترك والكرد والفرس والعرب فهموا هذا النداء بدون (حاجة) إلى أُذن وشفة .

بل أي مكان للترك والعرب والزنج (هنا) ؟ إنّ هذا النداء قد فد فهمته الأخشاب والأحجار !

٢١١٠ ففي كل لحظة يجيء منه (نداءُ) « ألست[1] » ، فتتخذ الجواهر

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بـلى » . (الأعراف ، ٧ : ١٧١) . وتفسير الآية : واذكر إذ أخرج ربك من أصلاب بني آدم ذريتهم على ما يكونون عليه في حياتهم المقبلة جيلاً بعد جيل ، وأظهر لهم دلائل ألوهيته ، ووهبهم من العقول ما مكنهم من إدراكها ثم أشهدهم على أنفسهم بقوله : « ألست بربكم » فقالوا : « بلى » .

والأعراض صفة الوجود .

ولو لم تجب تلك بقولها : « بلى » فإنّ مجيئها من العدم إلى الوجود هو الجواب بالإيجاب .

ولكي تتبين ما قلته عن الإدراك عند الأحجار والأخشاب ، استمع جيداً إلى هذه القصة :

كيف ناح الجذع الحنّان حينما أقيم منبر للرسول عليه السلام ، وذلك لأن المسلمين – وقد ازداد عددهم – قالوا (للرسول) « إننا لا نرى وجهك المبارك حين تعظنا » . وكيف سمع الرسولُ وأصحابهُ نواح الجذع ، وكيف جرى الحديث بصريح العبارة بين المصطفى وبين الجذع[1]

لقد كان الجذع الحنّان ينوح – من جرّاء هجر الرسول – كأنه من أرباب العقول .

فقال الرسول : « ماذا تريد أيها الجذع ؟ » . فقال الجذع : « إن روحي قد أصبحت – بفراقك – دماً !

٢١١٥ لقد كنتُ مَسْنَداً لك ، فتخلّيت عني ، واتخذت لك مَسنداً فوق رأس المنبر » .

(١) اتفق البخاري وأبو داود في الرواية عن جابر قال : « كان النبي إذا خطب استند على جذع نخلة من سواري المسجد ، فلما صُنع له المنبر صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق ، فنزل عليه السلام حتى أخذها وضمها اليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت فقال عليه السلام : « بكت على ما كانت تسمع من الذكر » . (المنهج القوي ج ١ ، ص ٣٨٨) .

فقال الرسول : « أتود أن تصبح نخلةً يجتنى منها الشرقيُّ والغربيُّ الثمار ؟
أم تريد أن تغدوَ في هذا العالم سرواً ، فتبقى إلى الأبد ريّان نضراً ؟ »

فقال الجذع : « إنني أبتغي ما يدوم له البقاء ! » . فلتستمع (إلى ذلك) أيها الغافل !
ولا تكن أقلّ (إدراكاً) من الخشبة ! ولقد دَفَنَ الرسولُ ذلك الجذعَ تحت التراب حتى يُحشَرَ كالناس يوم القيامة .

٢١٢٠ حتى تعلم أنّ كلّ من دعاه الله (إليه) بقي مُنصرفاً عن كل مشاغل الدنيا .
فكل من كان له مع الله عمل وشؤون ، يجد سبيلاً إلى هناك (عالم الروح) ، وينصرف عن عمل (الدنيا) .
وأما من لم يكن ذا حظّ من الأسرار ، فأنى له أن يصدق نواح الجماد ؟

إنه يبدي الموافقة ، ولا يكون ذلك بقلبه ، بل من أجل الوفاق ، حتى لا يقال له إنه من أهل النفاق[1] .

ولو لم يكن بالدنيا من هم واقفون على « أمر كُنْ[2] » لكان هذا الكلام مردوداً .

٢١٢٥ فمئات الألوف من أهل التقليد والظاهر ، قد أوقعهم نصف وهم في الظنون[3] .

---

(١) حتى لا يتهم بأنه ينافق في دينه . (٢) « أمر كُنْ » هو مقدرة الخالق على الخلق . (٣) الشطر الثاني من هذا البيت في طبعة نيكولسون هو : « أفكند در قعر يك آسيبشان » . ولكننا اخترنا في ترجمتنا رواية أخرى لهذا الشطر وردت في المنهج القوي ، كما وردت في أقدم المخطوطات التي اعتمد عليها نيكولسون في طبعته وهي : « أفكند شان نيم وهمي دركمان » ، لأنها أكثر مجاراة لمعاني الأبيات التالية .

فكلّ ما لهم من تقليد واستدلال ، قائم على الظنّ ، وهكذا جملة قوادمِهم وخوالِفِهم[1] .

فهذا الشيطان الخسيس يثير الشبهة ، فينقلب كل هؤلاء العُمى فوق رؤوسهم .

إنّ هؤلاء الاستدلاليّين يسعون على ساق خشبية ، والساق الخشبية متعثرة واهية !

فهم على خلاف قطب الزمان ، صاحب البصيرة ، من تذهل من ثباته الجبال .

٢١٣٠ والعصا هي ساق الأعمى ، وهى معه حتى لا يتعثر بالحصا فينقلب على رأسه .

إنّ الفارس وسيلة الجيش إلى الظفر ، فمن مثله لأهل الدين ؟ إنّ (لهم) أربابَ البصر .

والعمي – وإن أبصروا الطريق بالعصيّ – فهم في رعاية الخلق المبصرين .

فلو لم يكن هناك مبصرون ، وملوك (روحيّون) ، لهلك جميع من في الدنيا من العميان !

فما يتأتى من العميان زرع ولا حصاد ، ولا عمارة ولا تجارة ولا ربح .

٢١٣٥ ولو لم يرحمك الله ، ويتفضل عليك ، لكسر لك عصا استدلالك .

فما هذه العصا ؟ إنها القياسات والأدلة ! ومن وهبها للناس ؟ إنه المبصر الجليل !

وما دامت هذه العصا قد أصبحت آلة للحرب والنزاع ، فلتحطمها ولتبددها[2] أيها الضرير !

---

(١) يريد بالقوادم والخوالف هنا الوسائل التي كانوا يستخدمونها في الوصول إلى الحقائق .

(٢) حرفياً : « فتلحطمها قِطَعاً أيها الضرير ! » .

لقد أعطاك هذه العصا لكي تتقدم بهـا (نحوه) ، فإذا بك في
غضبك تتهجم بها عليه .
فيا حلقة العميان ! ماذا أنتم فـاعلون ؟ ألا فلتحضروا بينكم
مبصراً هادياً .
٢١٤٠ولتعتصموا بحبل من وهبكم العصا ! ولتتأملوا ما لقيه آدم من العصيان !
ولتنظروا إلى معجزتيْ موسى وأحمد ، وكيف صارت العصا حيّة
أو جذعاً يعقل !
فمن العصا تنطلق الحيّة ، ومن الجذع ينطلق الحنين ، خمس مرات
– كل يوم – من أجل الدين[١] !
فلو لم يكن هذا الذوق غـير معقول ، فأية حاجة كانت لكل
هذه المعجزات ؟
فكل ما كان معقولاً يتقبله[٢] العقل ، بدون حـاجة إلى إظهار
المعجزات ولا الجدال .
٢١٤٥فمهما أبصرت هذا الطريق البكر غير معقول[٣] ، فانظر (كيف)
أنه مقبول لدى قلب كل مجدود الطالع .
فكما هربت الجن والوحوش إلى الجزر خوفاً من الإنسان وحسداً له ،
فإنّ المنكرين أخفوا رؤوسهم تحت العشب ، خوفاً من معجزات
الأنبيـاء !
وذلك ليعيشوا بالنفاق ، مشتهرين بالإسلام ، فلا تدري من يكونون .
فهم كالمزيفين ، يمسحون النقد الزائف بالفضة ، (ويضعون عليه)
اسم الملك .

---

(١) أي أنّ المعجزات التي تبرهن على الدين الحق لا تنقطع .
(٢) حرفياً : يأكله العقل . (٣) حرفياً : فانظر هذا الطريق البكر غير معقول وانظر ... والمعنى : إن كان نظرك يريك هـذا الطريق غير معقول فإنه مقبول لدى قلوب السعداء المهتدين .

٢١٥٠ فظاهر ألفاظهم التوحيد والشرع ، وأما باطنها فهو كالخبز الذي حوى حبوباً تصرع الإنسان .
إنّ المتفلسف لا قدرة له من أن ينطق بكلمة ، ولو نطق بها فإنّ الدين الحقّ يُفحمه !
فيده ورجله من الجماد ، وهما تطيعان كل ما تأمر به روحه .
ومع أنّ (المنكرين) تنطق ألسنتهم بالتُهَم ، فإن أيديهم وأرجلهم تشهد عليهم[1] .

إظهار معجزة الرسول – عليه السلام – بنطق الحصى في يد أبي جهل – عليه اللعنة – وكيف شهد الحصى بصدق محمد عليه السلام

لقد أطبق أبو جهل بكفه على بعض الحصى ، وقال : « يا أحمد ! عجّل ، وقل لي ماذا بكفي !
٢١٥٥ فإن كنتَ رسولاً (فلتخبرني) ما الذي اختفى بكفي ، ما دمت تعلم أسرار السماء » .
فقال الرسول : « وكيف تريد أن أخبرك ؟ أأقول لك ماذا تكون (هذه الأشياء) ، أم تقول لك هي أنني حقّ وصدق ؟ »
فقال أبو جهل : « إنّ الأمر الثاني أكثر غرابة (من الأول[2]) » .
فقال الرسول : « نعم ، ولكن الحق أقدر على ما فوق ذلك » .
فانطلقت كل حصاة في كفه – بدون تخلف – ناطقة بالشهادة .

---

(١) قال تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » . (يس ، ٣٦ : ٦٥) .
(٢) أمعن في غرابته .

وقالت « لا إله إلا الله » ، ونظمت جواهر « محمد رسول الله » .

٢١٦٠ فحين سمع أبو جهل هذا من الحصى ، رماه على الأرض غاضباً .

بقية قصة المطرب ، وكيف أن أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه – أبلغه الرسالة التي نطق بها الهاتف

فلتعد ولنستمع إلى حال المطرب ، فإنّ هذا المطرب أعياه الانتظار .

لقد هتف النداء بعمر (قائلاً) : « يا عمر ! خلّص عبدنا من الحاجة !

إنّ لنا عبداً ذا حظوة واحترام ، فجشّم قدميك التوجّه إلى المقابر .

يا عمر ! عجّل ، وخذ بيدك[1] سبعمائة دينار من بيت المال العام !

٢١٦٥ واحملها إليه (قائلاً) : « يا من أنت مختارنا ومصطفانا ! خذ هذا القدر الآن ، واعذرنا .

إنّ هذا القدر ثمن الحرير ، فأنفقه ! وحين ينفد ، عُدْ إلى هذا المكان ! »

فقفز عمر من هيبة هذا الصوت ، وشدّ حزامه للقيام بتلك الخدمة .

لقد اتجه عمر نحو المقابر مسرعاً ، باحثاً ، وقد تأبط كيساً .

ودار كثيراً حول المقابر ، فلم يجد هناك أحداً سوى هذا الشيخ .

٢١٧٠ فقال : « ليس هذا ! » ، وجرى مرة أُخرى فتعب ولم ير غير هذا الشيخ .

فقال : « لقد دعاني الحق (بقوله) : إنّ لنا عبداً صافياً مباركاً !

---

(١) حرفياً : وضع في يدك .

فمتى كان عازف الصنج من خواصّ الله ؟ ألا أيها السرّ الخفي !
ما أروعك وما أبهاك ! » .
ودار مرة أُخرى حول المقابر ، كما يدور أسد مفترس حول البرية .
فلما أيقن أن ليس هناك سوى هذا الشيخ قال : « إنّ في الظلمة
لكثيراً من القلوب النيّرة ! » .
٢١٧٥وجاء ، وجلس هناك في أدب جمّ ، وانتابته عطسة فقفز الشيخ .
ورأى عمر فتولاه العجب ، وهم بالمسير ، فأصاب الارتعاش بدنه .
فحدث نفسه قائلاً : « يا إلهي ! لقـــد التمست منك العطاء ،
(ولكن) ها هو ذا المحتسب قد وقع على مطرب شيخ ! » .
وحين وقع نظر عمر على وجه هذا الشيخ ، رآه خجلاً شاحباً .
فقال له عمر : « لا تخف ! ولا تهرب مني ! لقد جئتك ببشارة
من الحقّ .
٢١٨٠لقد أفاض الله في مدح صفاتك حتى جعل عمر عاشقاً لمحيّاك !
فاجلس أمامي ، ولا تهجرني ، حتى أحدثك بسرّ عن الإقبال !
إنّ الحق يسلّم عليك ويسألك : كيف أنت في ألمك وهمومك
التي لا تحدّ ؟
إليك بعض النقود (لتدفع) ثمن الحرير ، فأنفقهـا ، وعد ثانية
إلى هذا المكان ! » .
فلما سمع الشيخ هذا (الكلام) ارتجف ، وعضّ يده ، ومزق ثيابه
٢١٨٥وصاح : « أيها الإله الذي لا نظير له ! حسبك أنّ هـذا الشيخ
المسكين قد ذاب حياء ! »
ولما طال به البكاء ، وطغى عليه الألم ، قذف بالصنج على الأرض
فحطّمه .
وقال : « (سحقاً لك) ، أيها الصنج الذي كان لي حجاباً عن
الإله ! يا من كنت قاطع طريق يصدني عن سبيل المَلِك !

يا من شربت دمي سبعين عاماً ! يا من اسود وجهي ـ منك ـ
أمام ربّ الكمال !

فيا إلهي ! يا ربّ العطاء والوفاء ! رحمة بعمر تقضي في الجفاء (والعصيان) !

٢١٩٠ إنّ الحقّ وهبني عمراً ، وليس سواه يعرف قيمة اليوم الواحد منه .
ولقد أنفقت عمري لحظة لحظة ، ونفخته كله في النغم الخفيض والعالي .
آها فإني – لإمعاني الفكر بموسيقى العراق وأنغامه – لم تخطر ببالي لحظة الفراق المرّ .
وآهاً فإنّ طراوة مقام « زير افكند »[1] الصغير قد أذبلت زرع قلبي ، فمات القلب .
وآهاً فإني – (لانشغالي) بالأصوات الأربعة والعشرين – تركتني القافلة ، وانقضى النهار .

٢١٩٥ يا الهي ! إنني أستغيث بك من تلك (النفس) الضارعة إليك ! وما أطلب إنصافك إلا من تلك (النفس) الملتمسة إنصافك !
فما أنا واجد لنفسي الإنصاف إلا عنده ، فهو أقرب اليّ من نفسي .
إنّ هذه الأنانية تأتيني منه لحظة بعد لحظة ، ولهذا فإني لن أراه إلا حين تنقص هذه مني[2] .
فمثله كمثل الذي يعدّ لك الذهب . إنك لتتجه بنظرك إليه ، لا إلى نفسك .

---

(١) اسم لأحد الأنغام الموسيقية ومعناه النغمة الخفيضة أو نغمة القرار . (٢) إن عطاءه الذي يصل إليّ في كل لحظة يجعلني أنانياً ، إذ أنني أنظر إلى العطاء ، وأغفل عن الواهب ، مع أن الواجب أن أنظر إلى الوهاب قبل العطاء .

كيف حول عمر – رضي الله عنه – نظر المطرب عن مقام البكاء الذي هو وجود إلى مقام الاستغراق الذي هو فنـاء

فقال له عمر : « إنّ انتحابك هذا إنما هو أيضاً من آثار إحساسك بذاتـــك !

٢٢٠٠فطريق الواصل إلى الفناء طريق آخر ، كما أنّ الإحساس بالذات إثم آخر .

فالإحساس بالذات مبعثــه تذكر الماضي ، وماضيك ومستقبلك هما حجابُك عن الله !

فلتُشْعِلْ فيهما النار (وإلا) ، فإلى متى تظلّ مليئاً – منهما – بالعقد كأنك عود من الغاب ؟

فطالما كان الغاب معقداً فليس بشريك في الأسرار ، ولا هو بقرين لتلك الشفة ولا للنغم .

إنك حين تطوف (بالدنيا) ، فأنت متلبّس بطوافك ، فإذا جئت إلى دارك ، فأنت لا تزال مع إحساسك بذاتك[1] .

٢٢٠٥فيا من لم تع معارفك مانح المعرفة ! إن توبتك لأقبح من ذنبك !

---

(١) الطواف بالدنيا يشغل الإنسان بمـا يتيحه له من مشاهدات وصور تتملك حواسه حين مقابلتها ، وتظل مطبوعة في ذاكرته حـين يعود إلى داره ويخلو بنفسه ، فلا يكون في الخلوة مجال للتفكر الصوفي ، لأن الذهن يكون مملوءاً بخيالات الدنيا وصورها .

ويا من تنشد التوبة عن سالف حالك ! خبّرني ، متى تتوب عن هذه التوبة ؟

إنك حيناً تجعل صوت النغم الخفيض قِبْلةً لك ، وحيناً تقبّل دموع الأسى !

لقد تيقظت في باطن الشيخ نفسه ، حينما أصبح الفاروق مرآة لأسراره .

فصار كالروح لا بكاء له ولا ضحك ! لقد فارقته روحه (الحيوانية) وانبعثت فيه روح أخرى[1] .

٢٢١٠ واعترت باطنه في ذلك الوقت حيرة ، فخرج عن الأرض وعن السماء .

(فهذا) بحثٌ وطلبٌ وراء البحثِ والطلب ، وأنا لا أعرف (كيف أصفه) ، فإنْ عرفتَ فخبرني !

بل هو قول وحال وراء القول والحال ! (فهذا الشيخ) قد غرق في جمال ربّ الجلال .

وليس هذا بغرق يكون له منه خلاص ، فما من أحد يدري به سوى البحر .

---

(١) يفرق الصوفية بين الروح الحيواني والروح الإنساني الذي هو من أمر الله . يقول الغزالي في الرسالة اللدنية : « اعلم أن الله تعالى خلق الانسان من شيئين مختلفين أحدهما الجسم المظلم الكثيف ... والآخر هو النفس الجوهري المفرد المنير المدرك الفاعل المحرك المتمم للآلات والاجسام ... ولا أعني بالنفس القوة الطالبة للغذاء ، ولا القوة المحركة للشهوة والغضب ، ولا القوة الساكنة في القلب ، المولدة للحياة والمبرزة للحس والحركة من القلب إلى جميع الأعضاء ، فإن هذه القوة تسمى روحاً حيونياً ، والحسّ والحركة والشهوة والغضب من جنده ... وإنما أعني بالنفس ذلك الجوهر الكامل الفرد الذي ليس من شأنه إلا التذكر والتحفّظ والتفكّر والتمييز والرؤية ، ويقبل جميع العلوم ولا يملّ من قبول الصور المجرّدة المعراة عن المواد ... فالحكماء يسمّون هذا الجوهر النفس الناطقة » . (الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي ص ٢٣ . القاهرة ، ١٩٣٤) .

وما كان العقل الجزئي ليتحدث عن العقـــل الكلي ، لو لم يكن هناك دفع فوق دفع (للإفصاح)[1] !

٢٢١٥ فحينما يتوالى الدفع إثر الدفع ، يصل إلى هنا[2] موج ذلك البحر .

وإذ قد وصلت قصة الشيـخ وحاله إلى هنا ، فقد استتر الشيـخ وحاله وراء الحجاب .

لقد نفض الشيـخ ذيـله من القيل والقـال ، وبقي في فمنا نصف هذا المقال .

فمن أجل هـذا العيش ، وتلك العشرة ، ينبغي أن يقامر المرء بآلاف النفوس[3] !

فكن في اصطيادك بأجمة الروح بازاً ، وجازف بالروح كشمس هذا العالم !

٢٢٢٠ فهذه الشمس العالية تنثر الحياة (على الارض) ، وهي في كل لحظة تفرغ ثم تمتلىء .

فيا شمس المعنى ! انثري الروح ، وأظهري جديداً لهذا العالم الهرم !

إن النفس والروح تفيضان من الغيب إلى الوجود الآدميّ كالماء الجاري .

---

(١) إنّ هذا العقل الكلّي يريد أنْ يظهر الحقيقة عن طريق العقل الجزئيّ .

(٢) إلى الدنيا . (٣) إنّ هذا العيش الروحيّ يستحق من المرء أنْ يقامر من أجله بآلاف النفوس لا بمجرّد نفس واحدة يفنيها في سبيل هذا الخلود الروحي .

تفسير دعاء الملكين اللذين كانا – كل يوم – ينادیان في الأسواق قائلين : « اللهم أعطِ كلّ منفق خلفاً ، اللهم أعطِ كل ممسك تلفاً[1] » ، وبيان أن المنفق هو المجاهد في سبيل الله لا المسرف في طريق الهوى

قال الرسول : « إنّ ملكين ينادیان على الدوام نداء جميلاً لتقديم النصح .

قائلين : يا رب ! أشبــع المنفقين ، وعوّضهم عن كلّ درهم بعشرة آلاف .

٢٢٢٥ وأما الممسكون في هــذه الدنيا ، فلا تعطهم – يا ربّ – إلا ضرّاً وراءه ضرّ » .

ولكن كثيراً ما يكون الإمساك خيراً من الإنفاق ، فلا تعط مال الحق إلا بأمر الحقّ !

حتى تُعَوَّض عن ذلك بكنز لا حدّ له ، وحتى لا تكون في عداد الكافرين .

الذين كانوا يقدّمون الإبل قرابين لتصبح سيوفهم ماضيــة في (حرب) المصطفى[2] .

---

(١) اتفق البخاري ومسلم والنسائي في رواية هــذا الحديث ، وهو مروي عن أبي هريرة . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العبــاد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط كل منفق خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط كل ممسك تلفاً » .

(٢) الابيات من ٢٢٢٨ - ٢٢٣٣ تبدو مضطربة الترتيب من حيث تتابع المعاني وترابطها في نص طبعة نيكولسون . وقد فطن نيكولسون إلى ذلك واقترح ترتيبها بطريقة أخرى وفقاً لما ورد في إحدى النسخ الخطيّة التي اعتمد عليها . (أنظر تعليقاته على المجلد الأول ص ١٤٦) والترجمة وفق=

فالتمس أمر الحقّ عند أحد الواصلين ، فليس كل قلب يدرك أمر الحقّ .

٢٢٣٠ مثل الغلام الباغي الذي (أراد) أن يعدل فأعطى مال الملك لمن ثاروا عليه .

ففي القرآن إنذار لأهل الغفلة أن كل إنفاقهم يكون عليهم حسرة[1] .

وهذا الباغي ، ماذا زاده عدله وإنصافه عند الملك ؟ (لا شيء سوى) النفي والعار[2] .

إن رؤساء مكة – في حربهم للرسول – كانوا يقدمون القرابين ، آملين أن تقبل منهم .

ولهذا فإنّ المؤمن – لإحساسه بالخوف – يقول دائماً في صلاته : « اهدنا الصراط المستقيم » .

٢٢٣٥ إنّ الجود بالدرهم شيمة السخيّ ، وأما الجود بالروح فهو سخاء العاشق !

فإنْ قدّمتَ الخبز في سبيل الله ، أُعطيتَ الخبز ، وإنْ قدمتَ الروح في سبيل الله أُعطيتَ روحاً .

= هذا الترتيب تكون على الوجه الآتي :

« فالتمس أمر الحق عند أحد الواصلين ، فليس كل قلب يدرك أمر الحق .

ففي القرآن إنذار لأهل الغفلة أنّ كل أنفاقهم يكون عليهم حسرة .

إن رؤساء مكة – في حربهم للرسول – كانوا يقدمون القرابين آملين أن تُقبل منهم .

لقد كانوا يقدمون الإبل قرابين لتصبح سيوفهم ماضية في حرب المصطفي .

مثل الغلام الباغي الذي أراد أن يعدل فأعطي مال الملك لمن ثاروا عليه .

فهذا الباغي ماذا زاده عدله وإنصافه عند الملك ؟ (لا شيء سوى) النفي والعار » .

ومما هو جدير بالذكر أن نص « المنهج القوي لطلاب المثنوي» يتبع هذا الترتيب ذاته بالنسبة للابيات ٢٢٢٩ – ٢٢٣٣ .

(١) قال تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ». (الأنفال ، ٨ : ٣٦).(٢) حرفياً : النفي وسواد الوجه .

وإنْ أسقط الله الورق عن شجرة الغرب ، فإنه يمنحها رزق التعرّي من الورق[1] .
فإنْ لم يُبْقِ الجودُ مالاً في يدك ، فمتى كان فضل الله يجعلك تُداس بالأقدام ؟
فكلّ من يبذر البذور تصبح مخازنه خاوية ، ولكنّ مزرعته يكون فيها الخير .
٢٢٤٠ وأما ما ادُّخِر ، وبقي في المخازن ، فهو طعمةٌ للسوس والفيران والحوادث .
إنّ هذه الدنيا نفي ، فلتبحث عن الإثبات ! وصورتك صفر فلتبحث عن معناك !
وادفع إلى السيف هذا الروح المالح المرّ ، واشتر روحاً (حلواً) كالبحر العذب الزلال !
فإن لم تستطع اجتياز هذه العقبة ، فاستمع — ذات مرة — منّي إلى هذه القصّة :

قصة الخليفة الذي فاق — في زمانه — حاتم طي في الكرم ، ولم يكن له نظير

كان في سالف الأيام خليفة جعل حاتماً غلاماً لجوده .
٢٢٤٥ لقد نشر راية الكرم والجود ، ورفع الفقر والحاجة من الدنيا .
لقد كان بحراً للجوهر صافي العطاء ، وامتد جوده من جبل قاف إلى جبل قاف[2] .

---

(١) لا يتخلى عنها وهي عارية من الورق بل يظل يرزقها حتى تورق من جديد . (٢) أحاط بالعالم .

كان في عـالم التراب سحاباً وأمطاراً ؛ كان مَظْهَراً لِعطـاءِ الوهّـاب !
فعطاؤه زلزل البحر والمنجم ، وكم سعت قافـلة وراء قافلة إلى جـوده !
لقد كان بابه وصرحه قِبلةَ الحاجات ، وقد ذاعت بالجود شهرتُه في الدنيا .
٢٢٥٠ فبقي العجم والروم والترك والعرب في عجب من جوده وسخائه .
إنه كان ماء الحياة وبحر الكرم ، وقد أحيا (بجوده) العرب والعجم .

قصة الأعرابي الدرويش ، وما جرى بينه وبين زوجه من جراء الفقر والمسكنة

لقد خاطبت أعرابيّة زوجها - ذات ليـلة - وخرجت بالقول عن حدوده .
(فقالت) : « إننا نعـاني كلّ هذا الفقر والشقاء ، فجملةُ العـالم سعداء ، وأما نحن فأشقياء .
وليس خبزنا خبزاً ، فطعامنـا الألم والحسد ، وليس لنـا كوز ، فماؤنا دمع أعيننا .
٢٢٥٥ ورداؤنا بالنهـار حرارة الشمس ، وأما وسادنا ولحافنـا بالليل فمن نور القمر .
نظنُّ قرص القمر قرصاً من الخبز ، فنرفع أيدينا إلى السماء .
إن مسكنتنا عار للدراويش ، وما نهارنا وليلنا إلا تفكّر في الرزق .

وقد أصبح الأقرباء والغرباء يفرّون منا ، كما فر السامريّ من الناس[1] .

فلو طلبتُ من إنسان قبضة من العدس ، لقال : « اسكتي ، (جاءك) الطاعون والموت » .

٢٢٦٠ إنّ للعرب فخراً بالغزو والعطاء ، وأنت بين العرب مثل الخطأ في الكتابة !

وأيّ غزو (بوسعنا) ، وقد قُتِلنا بدون غزو ؟ لقد أذهلت رؤوسنا ضربةُ سيف العدم .

وأيّ عطاء (نقدّمه) ، ونحن في سؤال دائم ، نضرب عرق الذبابة في الهواء (لنشرب دمها) .

فلو نزل بي ضيف ، وطاوعت نفسي ، لعمدتُ إلى (سلب) دلقه حين ينام » .

كيف اغترّ المريدون المحتاجون بالمدّعين المزوّرين ، وكيف ظنّوهم شيوخاً أجلاء واصلين ، وكيف جهلوا الفرق بين النقل والتحقيق ، وبين المقيّد والمطلق

فمن أجل هذا ، قال الحكماء ، وما أحسن ما قالوا : « على المرء ألا ينزل ضيفاً إلا بالمحسنين » .

٢٢٦٥ أتكون مريداً وضيفاً لذلك الذي يسرق بخِسّةٍ كل ما تملك ؟

---

(١) قصة السامري وردت في سورة طه . والإشارة في هذا البيت إلى قوله تعالى : « قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامساس » . (سورة طه ، ٢٠ : ٩٦) .

إنّه ليس قويّاً فكيف يمنحك القوّة ؟ وما هو بمانحك النور بل جاعلُك مُظلِماً .
وهو إنْ لم يكن مضيئاً بذاته ، فكيف يقتبس الآخرون منه النور ؟
إنّه الأعمش الذي يداوي العيون ! وماذا يضع في أعين الناس سوى الصوف .
فهذه حالنا في الفقر والعناء ، فلا يغترّ بنا ضيف .
٢٢٧٠ فإن لم تكن قد شاهدت صورة قحط دام عشر سنين ، فافتح عينيك وانظر إلينا !
إنّ ظاهرنا كباطن المدّعي ، ففي باطنه ُظلمةٌ وإنْ شعّ لسانُه .
وهو لا رائحة به من الله ولا أثر ، (ومع هذا) فدعواه أكبر من دعوى شيث وأبي البشر .
ومع أنّ الشيطان نفسه لم يُظهر له صورتـه ، فهو يقول دائماً :
« إنني من الأبدال ، بل أعظمُ منهم » .
فكثيراً ما سرق لغة الدراويش ، حتى يُظنّ أنّه إنسان (من رجال الله) .
٢٢٧٥ فهو – في حديثه – يقلّلُ من شأن بايزيد[١] ، مع أن يزيد[٢] يرى في وجوده العار .
ومع أنّه محروم من خبز السماء ومائدتها ، ولم يلق الله أمامه بعَظْمَةٍ واحدة .
فهو ينادي : « هأنذا قد أعددتُ المائدة ! إنني نائبُ الحقّ ، أنا ابن خليفته !

(١) بايزيد البسطامي أحد مشهوري الصوفية ، (ت ٢٦٠ هـ) .
(٢) يزيد بن معاوية .

فاجتمعوا – أيها البسطاء الذين تتلوّون (جوعاً) – حتى تأكلوا ملء بطونكم من خوان جودي !

فمن الناس من دار سنين حول هذا الباب ، على موعد مع الغد ، ذلك الغد الذي ما كان ليجيء .

٢٢٨٠ فمن الضروري أنْ يمضي وقتٌ طويل ، حتى يتكشّفَ سرُّ الآدميّ ، كثيرُه وقليلُه .

وقد يكون تحت حائط البدن كنز ، وقد يكون هناك جُحْر حيّة أو نمل أو تنّين !

فإذا ما تبيّن للطالب أنّه لم يكن شيئاً ، يكون عمره قد انقضى[1] ، فما جدوى المعرفة ؟

في بيان أنّه قد يحدث نادراً أن مُريداً يعتقد اعتقاداً صادقاً بمدّع مزوِّر ، فيحسبه رجلا (من الصالحين) ، وعلى هذا الاعتقاد يصل إلى مقام لم يحلم به شيخه ، فلا يؤذيه الماء ولا النار بينما هما يؤذيان شيخه ، ولكنّ هذا قليل الحدوث

إنّ من النادر أنْ يجيءَ طالب له من الإشراق (الروحيّ) ما يجعل مثل هذا الكذب[2] نافعاً بالنسبة له .

فيصل بقصده الطيّب إلى منزلة رفيعة ، وقد ظنّ هذا (المدّعي) روحاً فإذا به جسد .

٢٢٨٥ فهو كمن تحرّى القِبْلة في أعماق الليل ، فلم يَهتدِ إليها ، ومع هذا صحّتْ صلاتُه .

---

(١) يحدث ذلك بعد فوات الأوان ، فلا يعرف حقيقة ذاته إلا في نهاية عمره .

(٢) الكذب هنا ادعاء الولاية من جانب المدّعي .

فهذا المدّعي يعاني قحط الروح في الخفاء ، ولكن الظاهر لنا أنّه يعاني قحط الخبز .
فلماذا نتستر على أنفسنا مثل هذا المدعي ؟ ولماذا نزهق أرواحنا من أجل شرف مزوّر ؟

كيف أمر الأعرابيّ امرأته بالصبر ، وكيف ذكر لها فضيلة الصبر والفقر

فقال الزوج ، (لامرأته) : « إلى متى تنشدين الدخل والحصاد ؟ ما الذي بقي من عمرك ؟ إنّ أكثره قد مضى !
إنّ العاقل لا ينظر إلى الزيادة ولا إلى النقصان ، لأنّ كليهما يمرّان كما يمرّ السيلُ (المندفع) .
٢٢٩٠ فسواء أكان السيلُ صافياً أم كان معتكر الوجه ، فلا تتحدثي عنه لحظة واحدة ، لأنّه لا يدوم .
ففي هذا العالم آلاف من الأحياء ، يحيون حياة طيبة لا هبوط فيها ولا صعود .
فالفاختة تترنم بشكر الله على الشجرة ، على حين أن قوت المساء غير مهيّأ لها .
والعندليب يحمد الله (قائلاً) : « أيْ مجيبَ (السائلين) ! إن اعتمادنا في الرزق عليك » .
والباز قد جعل يد الملك أمله وبشراه ، وقطع رجاءه من كلّ الرمم[1] .

(١) لم يعد يحفل بالرمم التي كان يتغذى بها ، وأصبح كل أمله أن يعيش فوق يد الملك ، بعد أن أصبح بازاً يستخدمه الملك في صيده .

٢٢٩٥وهكذا لو أخذت الأحياء ، من البعوضة إلى الفيل ، فإنهم جميعاً
عيال الله ، والحقّ نعم المعيل .
إنّ كلّ هذه الهموم التي في الصدور ، ليست إلا البخار والغبار
الصاعدَين من كياننا وهوائنا .
هذه الهموم التي تقتلعنا من أصولنا ، إنما هي لنا كالمنجل ،
(والتفكّر) بأن هذا (الأمر) جرى على هذا النحو أو ذاك
من وساوسنا .
فلتعلمي أنّ كلّ ألم إنما هو جزء من الموت ، ولتدفعي عن نفسك
جزء الموت ، لو كان إلى ذلك سبيل !
فما دمت غير مستطيعة الفرار من جزء الموت ، فاعلمي أنّ الموت
كلّه سوف ينصبّ على رأسك .
٢٣٠٠فإنْ كان جزءُ الموت قد طاب لك مذاقُه ، فاعلمى أنّ الله
سوف يجعله كلّه حلواً .
إنّ الآلام تجيء كرسول من الموت ، فلا تصرفي وجهك عن رسول
الموت ، أيّتها الحمقاء .
وكل من يذوق حلاوة الحياة ، يذوق مرارة الموت ! وكل من عبد
جسمه فما حمل روحاً !
فالأغنام تُقتاد من الصحراء ، فيقتلُ منها ما كان أضخم بدناً .
إنّ الليل قد تولّى ، وها هو ذا الصبح قد أقبل . فيا أيّتها الظلمة !
إلام تأخذين قصة الذهب من بدايتها ؟
٢٣٠٥لقد كنتِ شابةً ، وكنتِ (حينذاك) أكثر قناعة ، وقد أصبحت
طالبة للذهب ، وكنتِ من قبلُ ذهباً !
لقد كنت كرمةً عامرةً بالثمار ، فكيف أصبحتِ كاسِدة ؟ وكيف
غدوتِ فاسدة وقت نضج الثمار ؟
كان الواجب أن تُصبح فاكهتُك أكثر حلاوة ، لا أن تتراجع

إلى الوراء كصانعي الحبال .

إنك زوجتي ، والزوجة لا بد لها أن تتفق (مع الزوج) في الصفاء ، حتى تجيء الأمور وفق مصلحتها .

فالزوجان يجب أن يكون كلّ منهما على مثال الآخر . ألا فلتتأملي زوجين من الأحذية أو النعال[1] !

٢٣١٠ فلو أنّ واحداً من النعلين ضاق بقدمك ، فلا نفــع لهذين النعلين عنـــدك .

وهل بين مصراعي الباب واحدٌ صغير وآخر كبير ؟ أم هل رأيتِ ذئبة اقترنت بأسد الغاب ؟

وليس يستقيم فوق ظهر الجمل زوجان من الحقائب ، إحداهما صغيرة والأخرى كاملةُ الاتساع .

إنّني أسير بقلب قويّ نحو القناعـــة ، فلماذا تذهبين أنتِ نحو الشناعة ؟ »

فهذا الرجل القانع ظلّ — لموفور إخلاصه وتحمّسه — يحدّث امرأته على هذا المنوال حتى الصباح .

كيف نصحت المرأة زوجها (قائلة) : « لا تكثر من الحديث عن مكانتك ومقامك :

« لم تقولون مالا تفعلون[2] » . فمع أن هذا الكلام صحيح إلا أنك لم تبلغ مقام التوكل ،

وتحدّثك بما هو فوق مقامك وأعمالك ضارٌ بك ، « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون[3] »

---

(١) يلاحظ في هذا البيت والأبيات التالية أن الشاعر أجرى على لسان الأعرابي — في حديثه مع امرأته — أمثالاً بسيطة تلائم عقلها .

(٢) قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » . (الصف ، ٦١ : ٢) . (٣) (الصف ، ٦١ : ٣) .

٢٣١٥ فصاحت الأعرابية بزوجها : « يا من تُباهي بدينك ! إنني لن أبتلع خداعك أكثر من ذلك .
لا تُحدِّثني بترهات من ادّعائك ودعواك ! اذهب ، ولا تُخاطبني بكبر وغرور !
إلى متى تتحدث حديث الخيلاء والتصنع ؟ انظر إلى أمرك وحالك وكن ذا حياء !
إن الكبر قبيح ، ولكنه من الشحّاذين أقبح ، (فكبرُ الشحاذين) كالثوب المبلل في يوم بارد ممطر .
إلى متى هذا الادعاء والغرور والخيلاء[1] ، يا من بيتك مثل بيت العنكبوت .
٢٣٢٠ متى أنرتَ بالقناعة روحك ، وأنت لم تعرف من القناعة سوى اسمها !
لقد قال الرسول : « ما القناعة ؟ إنها كنز[2] » . وأنت لا تعرف الغُنم من الغُرم[3] .
ما القناعة إلا كنز الروح ، فلا تُفاخرْ بها يا من أنت غمٌّ وألمٌ لروحي .
فلا تدعُني زوجتك ، وأقلل من إظهـار المودّة[4] ! إنني قرينة الإنصاف ولستُ قرينة الدَغل .
وكيف تسيرُ مع الأمير ومع السيّد ، وأنت تضرب عرق الجرادة في الهواء .

---

(١) حرفياً : « بادوبروت » ، ومعنى « باد » الريح ويُعَبِّر الشاعر بها هنا عن الانتفاخ بالكبر ، و « بروت » وهو الشارب ويُعَبِّر به هنا عن اصطناع الشارب للتظاهر بالقوة والرجولة .
(٢) الحديث المنسوب إلى الرسول عليه السلام هو : « القناعة كنز لا يفنى » .
(٣) حرفياً : وأنت لا تعرف الكنز من الألم .
(٤) حرفياً : أقلل من الضرب على الإبط .

٢٣٢٥ إنك لفي صراع مع الكلاب على العِظام ، بـــل إنك لفي نواح مثل قصبة خالية الجوف .
فلا تنظرْ إليّ باحتقار وازدراء ، حتى لا أخبرك بما في عروقك[١] .
لقد رأيت عقلك أكبر من عقلي ، فكيف رأيتني ، أنا الصغيرة العقل ؟
فلا تتوثبْ عليّ مثل ذئب أحمق ، يا من يفوق انعـــدامُ العقل عارَ عقله !
فإنْ كان عقلك عقالاً للرجال ، فما هو بعقل ، بل هو ثعبان أو عقرب !
٢٣٣٠ فليكن الله خصماً لظلمك ومكرك ، ولينقشع عنا مكر عقلك .
إنك أنت الثعبان وأنت الساحر ، فوا عجبا ، إنك ماسك الحيّة وأنت الحيّة (في الوقت ذاته) يا عار العرب !
ولو عرف الغراب قبح ذاته ، لذاب كالثلج من الألم والحزن » .
إن ماسك الحيّات — وهو عدوّ لها — يتلو تعاويذه عليها ، كما أنها أيضاً تتلو عليه التعاويذ .
فلو لم تكن شباكه هي السحر الذي يسخّر الحيّات ، لما كان هو صيدا لسحر تلك الحيات .
٢٣٣٥ فصائد الحيّات — بسبب الحرص ، ومن أجل الكسب والعمل — لا يدرك — في ذلك الوقت[٢] — سحر الحيّة .
إنّ الحيّة تقول له : « أيها الساحر ! تنبّه ! إنك قـد أبصرت سحرك ، فانظر إلى سحري !
إنك لتخدعني باسم الحق ، حتى تصيبني بالفضيحة والاضطراب والأذى .
واسم الحق هو الذي قيّدني وليس احتيالك ! لقد اتخذت اسم الحق شركاً ، فالويل لك .

(١) حتى لا أبيّن لك حقيقة أمرك .
(٢) وقت اصطياد الحيّات .

ولسوف يُنصفني منك اسم الحق ، فقـــد أسلمتُ إلى اسم الحق نفسي وجسدي .

٢٣٤٠فإما أن يقطع شريان حياتك بضربة مني ، أو يحملك – مثلي – إلى السجن » .

وهكذا أسمعت هذه المرأة زوجها الشاب صحائف من خشن القول .

كيف نصح الرجل امرأته (قائلاً) : « لا تنظري إلى الفقراء باحتقار ولكن انظري إلى فعل الحق ، متفكرة بكماله ! ولا توجهي الطعن إلى الفقر والفقراء بخيال مسكنتك ، وتفكرك فيها »

فقال (الأعرابيّ) : أيتهـــا المرأة ! أأنت امرأة أم أنت أُم الأحزان ! إنّ الفقر فخري ، فلا تضربيني فوق رأسي .

إنّ المال والذهب هما للرأس كالقلنسوة ، وليس يلتجىء إلى القلنسوة إلا الأصلع .

وأما من كان ذا شعر جعد كثيف ، فهو أسعد حالاً بذهاب قلنسوته .

٢٣٤٥إنّ رجل الحق مثل العين ، ولهذا فإنّ انكشاف بصره خير من احتجابه .

وبائع العبيد حين يعرض للبيع عبداً (صحيح البدن) ، ينزع عنه الثياب التي تغطي العيوب .

فإنْ كان به عيب ، فمتى ينزع البائع عنه الثياب ؟ إنه يخدع المشتري بالثياب !

فهو يقول : « إنّ هـذا العبد يستحي من الحسن والقبيح ، ولو عرّيت بدنه لهرب منك » .

فهذا التاجر غارق في العيب إلى أُذنيه ، ولكنه يملك المـال ، والمال يُغطي العيوب .

٢٣٥٠ومن الطمع لا يرى الطامع عيبه ، وقـــد أصبحت الأطماع رباطاً يجمع القلوب .
إنّ الشحاذ لو قال كلمة مثل ذهب المنجم ، مـا وجدت سلعته سبيلاً إلى الدكان .
وأعمال الدراويش وراء فهمك ، فلا تنظري إلى فقرهم باحتقار !
ذلك لأن الدراويش فوق المُلك والمـــال ، ولهم رزق عظيم من لدُنْ ربّ الجلال .
إنّ الحق تعالى عادل ، ومتى كان أهل العدل يوقعون الظلم بالمساكين ؟
٢٣٥٥وهل يمنحون واحداً (من الناس) نعمة ومالاً ، ويضعون الآخر فوق النار ؟
ألا فلتحرق النار من ظن هذا الظن بالله خالق العالمين !
فهل (قولي) « الفقر فخري » من الجزاف والمجاز ؟ لا ، بل إنه آلاف من العزّ الخفيّ والاعتزاز !
إنّ غضبك جعلك تلقين عليّ السباب فأسميتني بصائد الإخوان ، وماسك الثعبان .
ولو أمسكتُ بثعبان فإنّني أخلع أنيابـه ، حتى أجعله في مأمن من أنْ يُدَّق رأسه .
٢٣٦٠فإنّ هذه الأنياب إنما هي عدوّ حياته ، وأنا — بهذا العلم — أجعل من العدوّ صديقاً .
إنّني لست أتلو تعاويذي طامعـــاً ، فلقد قلبت الأطماع رأساً على عقب[1] .
معاذ الله ! فليس لي طمع في الخلق ، وفي قلبي عالم من القناعة .
إنّك لتبصرين على هـــذا النحو ، وأنت فوق شجرة الكمثرى ،

(١) أوقفت حركتها وتخلصت من آثارها .

فلتنزلي من فوقها حتى لا يبقى لك هذا الظن[1] !
وأنت — حين تدورين ، ويصبح رأسك ذاهلاً — ترين المنزل دائراً ،
وليس ما يدور سواك !

في بيان أنّ حركة كلّ انسان إنما هي من المكان الذي هو فيه ، كما أنه يشاهد غيره من دائرة وجوده . فالزجاجة الزرقاء تظهر الشمس زرقاء ، والحمراء تظهرها حمراء ، فإذا خرجت الزجاجة عن اللون أصبحت بيضاء ، فتكون أصدق من كل الزجاجات الأخرى ، وتكون هي الحُجّةُ الصادقة

٢٣٦٥ لقد رأى أبو جهل أحمد فقال : « ما أقبحه شكلاً ذلك الذي
خرج من بني هاشم ! »
فقال له أحمد : « ذلك صدق ! لقد قلت الصدق ، وإن كنتَ
قد بالغت ! »

---

(١) يشير الشاعر هنا إلى قصة معروفة رواها هو ، في المجلد الرابع من المثنوي (٣٥٤٤ ، وما يليه) وخلاصتها أنّ امرأة أرادت أنْ تُقبّل عشيقها في حضرة زوجها فعمدت إلى حيلة فصعدت فوق شجرة الكمثرى بدعوى أنها أرادت أن تقطف بعض الثمار ، ثم نظرت من فوق إلى زوجها وأخذت تنتحب مدعية أنها تراه في موقف خليع عابث . ومهما حاول الرجل إقناعها بأنّ ما رأته كان وهما فإنها لم تبد اقتناعاً . وأخيراً دعاها إلى النزول وصعد هو الشجرة فلم يكد يفعل حتى دعت حبيبها وعانقته ، فلما احتج على ذلك زوجها قالت إن ما يراه لا يعدو ان يكون وهما كالذي رأته هي حينما كانت فوق الشجرة .

فيكون معنى قوله : « انزلي من شجرة الكمثرى » ، أنه يدعوها لتتخلص من أوهامها الباطلة .

ورأى الصدّيقُ أحمد فقال : « يا شمس (الروح) ! إنّك لستَ من الشرق ولا الغرب ، فتألّق مُشرقاً ! »
فقال أحمد : « لقد قلتَ الصدق ، أيّها العزيز ! يا من نجوت من هذه الدنيا التي لا تستحقّ شيئاً ! »
فقال الحاضرون : « أيّها الملك ! لماذا وصفتَ كلا من هذين الرجلين بقول الصدق ، مع أنّ كلا منهما تكلّم بما يضادّ قول الآخر ! »

٢٣٧٠ فقال الرسول : « إنّني مرآة صقلتها يدُ (القدرة الإلهيّة) ، فالترك والهنود يشاهدون في (حقيقة) كيانهم » .
فيا أيّتها المرأة[١] ! إنْ كنتِ تُبصرينني من الطامعين فارتفعي عن ذلك الجشع النسائيّ .
إنّ (حالي) تشبه الطمع ، وليست إلا رحمة ! فأين الطمع من تلك النعمة ؟
فاختبري الفقر يوماً أو يومين ، لتري في الفقر غنى مُضاعَفاً .
اصبري على الفقر ، ودعي هذا الملال ! فإنّ في الفقر نوراً من ذي الجلال !

٢٣٧٥ لا تنظري بمرارة[٢] ، وشاهدي آلاف الأنفس وقد أغرقتْها القناعة في بحر من العسل .
تأملي آلاف الأنفس التي تقاسي مرارة الحياة ، وقد امتزجت بشراب الورد مثل الورد .
فوا أسفاه ، أنّك لستِ واسعة الفهم ، فتظهر لك روحي مكنون قلبي !

---

(١) عاد الشاعر هنا إلى حديث الأعرابي وامرأته .

(٢) حرفياً : « لا تبيعي الخلّ » . عبّر عن إظهار المرأة تشاؤمها ببيع الخل .

فهذا الحديث لبن في ثدي الروح ، وهو لا يسيل طيِّباً بدون رضيـــع !
ولكن ، حين يصبحُ المستمعُ متعطِّشاً طالباً ، فإنّ الواعظ ينطق حتى ولو كان ميّتاً .
٢٣٨٠ فالمستمع ، إذا أصغى بنشاط وشغف ، فإنّ الأصم الأبكم ، يصبح ناطقاً بمائة لسان .
إنّ النساء يحتجبن وراء الأستار ، لو دخل غريب من بابي .
ولكن ، إذا دخل مَحْرم لا تضرّر منه ، فإنّ ذوات الحجاب يرفعن الحجب .
وكلُّ ما صُنِع جميـــلا رائعاً منمّقاً ، فإنما صُنِع من أجل العين المبصرة .
ومتى كانت الألحان – بوزنها الخفيض والعالي – من أجل أُذن صماء معدومة الحسّ ؟
٢٣٨٥ إنّ الله لم يجعل المسك طيّب الأنفاس عبثاً ، إنه خلقه للإحساس السليم ، وليس من أجل الأخشم[١] .
واقد خلق الله الأرض والسماء ، ونشر بينهما الكثير من النار والنور .
وجعل هذه الأرض للترابيّين ، وجعل السماء مسكن الأفلاكيّين .
إنّ الرجل الوضيع عدوّ للرفعة ! وكل مكان يُعرف الساعي إليه (بأعماله[٢]) .
أيتها المرأة المحجّبة ! هل نهضت قطّ يوماً ، واتخذت زينتك من أجل رجل أعمى ؟
٢٣٩٠ فلو أنني ملأتُ العالم بدرّ (الحكمة) المكنون ، ولم يكن هــذا الدرّ من نصيبك ، فماذا أصنع ؟

---

(١) الأخشم من فقد حاسة الشم .
(٢) إن طالب العالم الروحي يتضح بأعماله ، وكذلك طالب العالم المادي .

أيتها المرأة ! دعي العراك واتركي قطع الطريق[1] ، وإنْ لم تري هذا الرأي ، فاتركيني .
فأيّ مكان عندي للصراع حول ما هو حسن وما هو قبيح ، وإنّ قلبي ليفرّ حتى من المصالحات .
فإما أن تسكتي وإلا سكتُ أنا ، وتركتُ في هذه اللحظة منزلي وداري .

مراعاة المرأة زوجها واستغفارها إياه مما قالته

فلما رأت المرأة زوجها محتداً ثائراً ، أخذت تبكي ، والبكاء حيلة النساء .
٢٣٩٥ وقالت : « ما توهمت مثل ذلك منك[2] . لقد كان لي فيك أمل آخر » .
وجاءته المرأة من طريق إنكار وجودها فقالت : « إني أنا ترابك لا زوجتك .
إنّ جسمي وروحي وكل كياني لك ، والحكم والأمر كلاهما رهن إرادتك !
فإنْ كانت الفاقة قد جعلت قلبي يتخلى عن الصبر ، فما ذلك من أجل نفسي ، ولكن من أجلك .
لقد كنت الدواء لآلامي ، (ولهذا) لا أُريد أن تكون عديم الرزق .

---

(١) قطع سبيل التأمل .
(٢) حرفياً : « متى توهمتُ مثل ذلك منك ؟ » . والاستفهام هنا إنكاري .

٢٤٠٠ فبروحي وسري ، إن هذا لم يكن من أجل نفسي ، بل إن هذا النواح والحنين كان من أجلك .
إن ذاتي — والله — إنما هي من أجل ذاتك ، تتمنى في كل لحظة أن تموت قبلك .
فليت روحك — التي تفديها روحي — كانت واقفة على (ما أستتر) في ضمير روحي .
أما وقد أصبح ظنّك بي على هذا النحو ، فإني قد سئمت روحي وجسدي .
وإني لأحثو التراب على الفضة والذهب ، حينما تكون هكذا (غاضباً) مني ، يا سكن روحي !
٢٤٠٥ فهل تتبرأ مني إلى هذا الحد ، يا من جعلت مكانك روحي وقلبي ؟
فلتتبرأ مني ، فإنك على ذلك قدير ، وإن كانت الروح لتضرع إليك ألا تفعل .
تذكّر أيام كنت جميلة كالصنم ، وكنت أنت كعابد الصنم !
لقد أحرقتْ جاريتُك قلبها وفق مرادك ، فكلّ ما قلتَ عنه إنه « طبِخ » تقول هي « إنه احترق[1] » .
أنا طعامك[2] فلتطبخني كما تشاء ، وسواء لديّ أوجدتني سائغة مع الحامض أو مع الحلو !
٢٤١٠ لقد نطقتُ بالكفر وهأنذا قد رجعتُ إلى الإيمان ، وقد أقبلت بكل روحي مستسلمة لحكمك .
إنني لم أعرف طبعك الملكيّ فانطلقتُ بجوادي متوقحة أمامك .
أما وقد جعلت لي من عفوك سراجاً فقد تُبتُ وخلّيتُ العناد .
إني أضع أمامك السيف والكفن ، وأبسط لك عنقي فلتضربه !
لقد ذكرت كلاماً عن الفراق المرّ ، فافعل أي شيء تريد سوى هذا .

(١) المعنى أنها تبالغ في محبته . تقول : «إن كان قلبك قد نضج بالحب فقلبي قد احترق» .
(٢) حرفياً أنا إسفيناخك .

٢٤١٥ وإن فيك لمُلتمِساً لي العذر هو ضميرك ، وإنه في غيبتي لشفيع مستمرّ عندك .
إنّ خلقك هو شفيعي في قلبك ، وثقتي به هي التي جعلت قلبي يجنح إلى الجُرم .
فلترأفْ بي رأفة مستترة عن ذاتك[1] ، أيّهـا الغاضب ، يا من خُلُقُك أحلى من مائة منّ من العسل ! » .
وأخذتْ تتحدّثُ على هذا النسق بلطف وصراحـة ، وتملّكها البكاء أثناء الحديث .
فلما تجاوز البكاء والنواح حدّهما عند تلك التي كانت فاتنة بدون بكاء ،
٢٤٢٠ تجلّى من تلك الأمطار برق ألقى شرارة بقلب هـذا الرجل الوحيـد .
فتلك التي كان الرجلُ عبداً لوجهها الجميل ، كيف تكون إذا بدأت تُظهر خضوعها ؟
تلك التي يرتعـد قلبُك من كبرها ، كيف تَصيرُ حين تصبحُ باكيةً أمامك ؟
تلك التي يُدمي دلالُها قلبك وروحك ، كيف يكون الحالُ حين تأتيك ضارعة ؟
تلك التي تأسرنا بشباكٍ من جورها وجفائها ، ماذا يكون عذرُنا لو جاءت تلتمس العذر ؟
٢٤٢٥ إنّ الحقّ هو الذي زيّن للناس[2] (حبّ الشهوات من النساء

(١) يريد بالرأفة المستترة عن الذات تلك التي لا تصيب النفس بالغرور .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « زُيِّن للنـاس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متـاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ». (آل عمران ، ٣ : ١٤) .

والبنين) ، فكيف السبيل إلى الهرب مما زيّنه الحقّ ؟
فإذا كان الله قد خلق المرأة ليسكن إليها الرجل ، فكيف يستطيع آدم أنْ ينفصل عن حواء[1] ؟
فلو كان الرجلُ رستم بن زال ، أو كان أشجع من حمزة ، فإنه رهن أمر امرأته أسير لها .
(والرسول) الذي كان العالم أسير كلمته ، كان يقول : « كلميني يا حميراء » .
إنّ الماء يغلب النار بانطلاقه ، ولكنّ النار تجعله يغلي حين يكون منحصراً .

٢٤٣٠ فحينما يجيء القِدْرُ بين النار والماء ، أيها الملك[2] ، فإنّ النار تمحو الماء وتجعله هواء .
فإذا كان الرجل – في الظاهر – غالباً للمرأة كالماء (للنار) ، فإنّه في الباطن مغلوبٌ طالبٌ لها .
فالحبّ على هذا النحو صِفةٌ مميِّزة للإنسان ، وأما الحبّ عند الحيوان فناقصٌ ، وذلك لنقص الحيوان .

في بيان الخبر (الذي ينسب إلى الرسول أنّه قال) : « إنّهنّ يغلبن العاقل ، ويغلبهن الجاهل »

قال الرسول : « إنّ النساء يغلبن العقلاء وأصحاب القلوب .
أما الجهلاء فإنّهم يغلبون المرأة ، لأنّ حدّة الحيوان قد

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » . (الأعراف ، ٧ : ١٨٩) . (٢) يخاطب القارئ .

احتبست فيهم .

٢٤٣٥ إنّهم خالون من الرقة واللطف والوداد ، لأنّ الحيوانية غالبة على طبيعتهم .

فالمحبّة والرقة هما صفة الإنسانيّة ، وأمـــا الغضب والشهوة فهما صفة الحيوانيّة .

إنّ المرأة ليست بمعشوقة ، بل هي نور الحقّ ! فقل إنّها خالقة ، أو قل إنّها ليست بمخلوقة .

كيف سَلّم الرجل بما التمسته امرأته من طلب المعيشة ، وكيف عرف أنّ اعتراضها كان إشارة من الحقّ ، فكلّ عارف يدرك بعقله أنّ كلّ متحرّك له مُحَرّك

لقد ندم الرجل على قوله ، كما يندم الظالم — ساعـــة الموت — على ظلمه .

وقال : « كيف أصبحت خصماً لروح روحي ؟ وكيف أخذت أكيل الرَكْلَ لرأس روحي ؟

٢٤٤٠ إنّ القضاء — حين يجيء — يحجب البصر ، فلا تعرف عقولنا الرأس من القدم .

وحين ينصرف القضاء ، يأكل العقل نفسه (ندماً) ، فيمزّق حجابه ويشقّ جيبه !

لقد قال الرجل : « يا امرأتي إنّني نادم ! وإنْ كنتُ قد كفرتُ فهأنذا أعود إلى الإسلام .

إنّني أنا المسيء إليك ، فارحميني ! ولا تقتلعيني مرة واحدة من أصلي وأساسي !

إنّ الشيخ الكافر إذا ندم ، يصبح مسلماً ، حين يلتمس العذر .
٢٤٤٥ فالذات الإلهية كلها رحمة وكلها كرم ، وقد تساوى في عشقها الوجود والعدم .
والكفر والإيمان عاشقان لتلك الكبرياء ، والنحاس والفضة من عبيد تلك الكيمياء .

في بيان أن موسى وفرعون كان كلاهما مسخّراً للمشيئة الالهية كالترياق والسم ، والنور والظلمات ، وكيف ناجى فرعون الله في الخلوة حتى لا يتحطم غروره[1]

إنّ موسى وفرعون كانا سائرين (يقصدان) الحقيقة ، ولكن الظاهر أنّ موسى عرف الطريق ، وأما فرعون فقد ضلّ السبيل .
لقد كان موسى يتضرّع أمام الحقّ نهاراً ، وأما فرعون فكان يبكي في جنح الدجى !
(قائلاً) : « يا ربّ ! أيّ غلّ هذا الذي طوّق عنقي ؟ ولو لم يكن هذا الغلّ ، فمن ذا الذي كان يصفني بما أنا عليه الآن[2].
٢٤٥٠ فكما جعلتَ موسى منيراً ، جعلتني مظلماً كدراً .
وكما جعلتَ موسى قمريّ الطلعة ، جعلتَ قمر روحي أسود الوجه .
إن نجمي لم يكن خيراً من القمر ، فإذا وقع به الخسوف فما حيلتي ؟
فإذا كانت الطبول تُقرع لي كربّ وسلطان ، فإنّ الخلق يقرعون النحاس حين خسوف القمر .

(١) يريد أن فرعون ناجى الله في الخلوة حتى لا يتحطم غروره بإظهاره الخضوع لربه .
(٢) ولو لم يكن هذا الغل يقيدني ويفرض علي الظلم فمن ذا الذي كان يصفني بأني ذلك الفرعون الطاغية .

فهم يدقون الطاسات ويصخبون ، فيفضحون القمر بذلك الضجيج .

٢٤٥٥ إنني أنا فرعون الخلق ، فالويل لي من قرع ذلك الطـــاس الذي يسمعني دعاء « ربي الأعلى[١] » .

ونحن رفقاء في خـدمتك ، ولكن فأسك تشق الغصون النضرة في غابتك ، ثم تجعل غصناً منها ثابت الأصل ، وتترك آخر عاطلاً .

وليس للغصن قوة أمام الفأس ، فلم يَنجُ غصن قط من قبضتها .

فبحق تلك القدرة – التي هي فأسك – سدّد بكرمك أعمالنا المعوجّة .

٢٤٦٠ وعاد فرعون يحدّث نفسه قـائلاً : « عجباً ! ألم أقض الليل في دعاء الله ؟

إنني – في الخفاء – أكون متواضعاً متزناً ولكن كيف أصبح (على خلاف ذلك) حين أصل إلى موسى .

إن اللون يتحقق للذهب الزائف بعشر طبقـــات من التذهيب ، فكيف يصبح أمام النار أسود الوجه ؟

أوليس ذلك لأن قلبي وقالبي رهن حكمه ؟ إنه حيناً يجعلني لبّاً وحيناً يجعلني قشراً .

فأنا أغدو أخضر اللون حين يقول لي : « كن زرعاً ! » ، وأصفرُ حين يقول لي « كن قبيحاً ! »

٢٤٦٥ فهو حيناً يجعلني قمراً ، وحيناً يجعلني مظلماً . وأيّ شيء سوى ذلك يكون صنع الله ؟

إننا أمام صولجان حكمه النافذ نجري في المكان واللامكان .

---

(١) الويل لي من إعظام الناس لشأني وقرعهم الطبول إكباراً لي ، فإن ذلك علامة على زوال ملكي ، كما أن قرع الآنية النحاسية يكون حين خسوف القمر .

فحيناً أصبح اللالون أسيراً للون ، وقع موسى في حرب مع موسى[1] .
وحيناً تصل إلى اللالون[2] ، وهو ما كان لك (في أول الأمر) ،
فإنّ الوفاق يسود بين موسى وفرعون !
فلو خطر لك تساؤل حول هذه النكتة ، فمتى كان عالم اللون[3]
خالياً من القيل والقال ؟
٢٤٧٠ والعجيب أن هـــذا اللون قـد صدر من اللالون ، فكيف قام
اللون ليحارب اللالون ؟
فما دام الزيت قد خُلِق من الماء ، فلماذا وقع التضاد بين الماء والزيت ؟
وما دام الورد من الشوك ، والشوك من الورد ، فلمـــاذا هما في
حرب وخطوب ؟
فإما أنّ هذه ليست بحرب ، وإنما هي تَصَنّع لحكمة (مقصودة)
كمشاجرات باعة الحمير .
وإما أنها ليست هكذا ولا كذلك ، بل هي حيرة . إنها خرابة ،
ويجب أن يُبحث فيها عن الكنز[4] .
٢٤٧٥ وذلك الذي توهمته كنزاً جعلك — بتوهمك إياه — تُضيع الكنز
(الحقيقيّ) !
فلتعلم أن الأوهام والآراء كالمناطق العامرة ، والكنز لا يكون
في المناطق العامرة .
ففي المناطق العامرة يكون الوجود والصراع ، وإنّ الفناء ليرى
العار في مثل هذا الوجود !

(١) الأرواح قبل حلولها بالأجسام تكون متوافقة ولكنها حين تحل بالأجسام يقع الصراع بينها .
(٢) حين يخلص الروح من المادة فيصبح روحاً مجرّداً لا لون له .
(٣) العالم المادي .
(٤) إن الحيرة هي التي توصل الإنسان إلى اليقين ، كما أن الكنز يكون مدفوناً في الخرائب . فحيرة التأمل والتفكر هي الخرابة التي يُبحث فيها عن كنز اليقين .

وليس هذا لأنّ الوجود قد استغاث من الفناء ، بل إنّ الفناء هو الذي دفع (عن نفسه) هذا الوجود .
فلا تقل : « إنني هارب من الفناء ! » إن الفناء هو الذي يهرب منك عشرين مرة !
٢٤٨٠ إنه في الظاهر يدعوك إليه ، ولكنه في الباطن يُقصيك عنه بعصا الرد .
فاعلم – يا سليم القلب – أن عناد فرعون لموسى ، يمثل (حالة) نعلين معكوسين[1] .

سبب حرمان الأشقياء من العالمَيْن ، على مقتضى (قوله تعالى) : « خسر الدنيا والآخرة[2] »

عندما اعتقد حكيم صغير أن السماء بيضة ، وأن الأرض مثل صفارها ، سأله سائل : « وكيف تبقى هذه الأرض وسط محيط السماء ؟ »
فأجاب : « مثل قنديل معلّق في الهواء ، فهي لا تتحرك إلى أسفل ، ولا إلى أعلى » .
٢٤٨٥ وقال هذا الحكيم : « إنها باقية في الهواء بسبب جذب السماء من جهات ست .
فالسماء مثل قبّة صُبّتْ من المغناطيس ، وقد بقيت قطعة من الحديد معلقة في وسطها » .
وقال آخر : « ومتى كانت السماء الصافية تجتذب إليها الأرض المظلمة ؟

(١) أي نعلان يشير أثرهما إلى اتجاه مضاد لاتجاه الهدف . وقد كان بعض المحاربين يعكس اتجاه نعال فرسه ليضل من يقتفون أثره .
(٢) (سورة الحج ، ٢٢ : ١١) .

بل إنها تدفعها من جهات ست ، ولهذا فقد بقيت الأرض معلقة وسط العواصف » .

وهكذا تبقى أرواح الفراعنة في الضلال ، بدفع خواطر أهل الكمال .

٢٤٩٠ وبدفع هذا العالم وذاك العالم ، بقي هؤلاء الضالون بـــدون هذا ولا ذاك .

فإذا عصيت عبّاد ذي الجـــلال ، فاعلم أنهم — من وجودك — يعروهم الملال .

إن لديهم كهرباء ، لو أظهروها ، لأشاعوا الوله في قشّة وجودك .

فإذا ما أخفوا كهرباءهم ، فسرعان ما يجعلون تسليمك طغياناً .

(فحالك معهم) كمرتبة الحيوانيـــة ، التي هي أسيرة خاضعة لمرتبة الإنسانية !

٢٤٩٥ فاعلم — أيهـــا السيد — أن الإنسانية خاضعة لقبضة الأوليـاء ، (خضوع) الحيوان (للإنسان) .

لقد دعا أحمد جملة العالم عباداً له حين (قرأ عليهم قوله تعالى) :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله[1] » .

إن عقلك كالجمّال وأنت الجمـل ، وهو يقودك في كل سبيل وأنت رهن حكمه المرّ .

والأولياء هم عقل العقول ، والعقول — حتى النهاية — مثل الجمال .

فتأملها ملتمساً منها العبرة ! إن هناك دليلا واحـداً ومائة ألف نفس (تتبعه) .

٢٥٠٠ وما الدليل وما الجمّال ؟ ألا فلتوجد لك عيناً تبصر الشمس !

---

(١) (الزمر ، ٣٩ : ٥٣) . ومعنى البيت أن الرسول بقراءته هذه الآية على الناس كأنه قد سماهم عباده مجازاً على أساس أنه الناطق بلسان الحق . وهذا من باب التأويل الصوفي .

أوليس العالم يبقى بالليل موصداً ، ينتظر النهـــار الذي يتوقف (بزوغه) على الشمس ؟

فهاك شمساً قد احتجبت في ذرّة ، وأسداً ضارياً في جلد حمل .

وهاك بحراً مختفياً تحت التبن ، فحذار ! لا يلتبس عليـك الأمر فتضع فوق هذا التبن قدمك !

إن الاشتباه والظن في باطن (الطالب) رحمة من الحقّ للمرشد[1] .

٢٥٠٥ لقد جاء كل رسول منفرداً إلى هذه الدنيا . كان منفرداً ولكن كان له مائة عالم خفي .

فسحر بقدرته عالماً كبيراً ، بينما انطوى هو في هيكل صغير !

ولقد ظنّه البلهاء فرداً ضعيفاً ، ومتى كان ضعيفاً من أصبح نديم الملك ؟

لقد قال البلهاء إنه ليس أكثر من رجل . فالويـل لمن لم يتدبر العواقب .

كيف رأت عيون الحس صالحا وناقته حقيراً لا نصير له
وكيف أن الحق إذا أراد أن يهلك جيشاً أظهر
خصومه في نظره قلة حقيرة ، ولو كانت هذه القلة هي الغالبة .
(قال تعالى) : « ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[2] »

إن ناقة صالح كانت – في صورتها الظاهرة – ناقـة ، فكان من جهل هؤلاء القوم الحاقدين أن قطعوا ساقها (وعقروها) .

---

(١) ذلك لأن الطالب الذي يحترز ويتثبّت قبل أن يسلم نفسه إلى المرشد حري بألا يقع فريسة للأدعياء الكاذبين ، وخليق بأن يخلص في اتباع المرشد .
(٢) (الأنفال ، ٨ : ٤٤) .

٢٥١٠ فهم حين أصبحوا خصوماً لها على الماء ، أعماهم (الحرص) على الخبز والماء .
لقد كانت ناقة الله تشرب الماء من النبع ومن السحاب ، فحبس هؤلاء ماء الحق عن الحق .
فأصبحت ناقة صالح — مثل جسم الصالحين — كميناً لهلاك الطالحين .
(لترى) ماذا جلب (أمر الحق) : « ناقة الله وسقياها[1] »
على تلك الأمة من أحكام الموت والألم .
إن محتسب غضب الحق تقاضاهم مدينة كاملة دية لناقة واحدة[2] .
٢٥١٥ فروح (النبي) مثل صالح ، وجسمه كالناقة ، والروح في وصال وأما الجسم فهو أسير الفاقة .
إن روح صالح لم تكن قابلة للآفات ، فالضرب قد وقع على الناقة (الجسم) ولم يقع على الذات .
فليس أحد بمنتصر على قلوب الأنبياء ! وإيذاء (العدوّ) لهم إنما يقع على الصدف لا على الجوهر !
فروح صالح لم تكن قابلة للإيذاء ، ولا كان نور الله خاضعاً للكفار .
لقد اتصلت روحه بجسم ترابي ، حتى (يستطيعوا) إيذاءه ، ويروا الامتحان !
٢٥٢٠ وما كانوا مدركين أنّ إيذاء هذا إيذاء له (لله) ، فإن ماء هذا الإبريق متصل بماء النهر .
لقد علّق الله هذا (الروح) بجسم لكي يصبح ملجأ للعالمين .
فكن عبداً لناقة جسم الولي ، حتى تصبح رفيقاً لها في خدمة روح صالح .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها » . (الشمس ، ٩١ : ١٣) . وكان صالح قد توعد قومه بالعذاب إن هم تعرضوا للناقة وشربها .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها » . (الشمس ، ٩١ ، ١٤ — ١٥) .

لقد قال صالح : « أما وقد أحدثتم هذا الحسد ، فلسوف تأتيكم
بعد ثلاثة أيام نقمة الرب[1] !
فلسوف تأتيكم من الله – بعد ثلاثة أيام – آفة ذات علامات ثلاث .
٢٥٢٥ إنّ لون وجوهكم جميعاً سوف يتغيّر ، ويصبح هـذا اللون مختلفاً
في نظركم .
ففي اليوم الأول يكون لون وجوهكم كالزعفران ، وفي اليوم الثاني
يكون لون وجوهكم أحمر كالأرجوان .
وفي اليوم الثالث تصبح كل الوجوه سوداء ، وبعـــد ذلك يأتي
قهر الله .
فإذا أردتم مني علامة على هذا الوعيد ، فإن ولد الناقة قد جرى
نحو الجبل .
فإنْ استطعتم الإمساك به فهناك أمل (في النجاة) ، وإلا فإن
طير أملكم قد أفلت من الشباك[2] » .
٢٥٣٠ فلم يستطع أحد أن يلحق بولد الناقة ، فقد انطلق في الحال واختفى .
فقال صالح : « أرأيتم كيف أن القضاء قد أُبرم ، وكيف أن
خيال رجائكم قد ضُرب عنقه ! » .
فما ولد الناقة ؟ إنـــه خاطر (الوليّ) ، فعليكم أن تردّوه إلى
مكانه بالإحسان والبرّ .
فإنْ رضي قلبه ، نجوتم من ذلك العذاب ، وإلا فأنتم يائسون
تعضّون بنان الندم .
فحينما سمعوا هذا الوعيد المظلم ، ترقبوه وانتظروه .
٢٥٣٥ ففي اليوم الأوّل رأوا وجوههم قد اصفرّت ، فانطلقت من اليأس

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » . (هود ، ١١ : ٦٥) .
(٢) لم يبق أمامكم مجال للأمل .

آهاتهم العميقة .
وفي اليوم الثاني احمرّت وجوه الجميع ، فضاعت بذلك فرصة الأمل والتوبة .
وفي اليوم الثالث علا السواد وجوه الجميع ، فصدق حكم صالح بدون جدال .
وعندما رُدوا جميعاً إلى اليأس ، جثموا كما تجثم الطيور .
ولقد أنزل جبريل الأمين بيان هذا في القرآن (بقوله تعالى) :
« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين[1] » .

٢٥٤٠ فلتركع حينا يعلّمك الأولياء ، وحينا يخيفونك من مثل هـــذا الجثوم[2] .
لقد انتظرت (ثمود) ضربة القهر (الإلهي) ، فجاءهـــا القهر ومحا تلك المدينة !
وذهب صالح من خلوته نحو المدينة ، فرآها مغلّفة بالدخان واللهب .
وسمع النواح (يتردّد) من حطام (القوم) ، وكان النواح ظاهراً ، وأما النائحون فمختفون !
لقد سمع النواح من عظامهم ، وكانت دموع الندم تقطر من أرواحهم كالندى .

٢٥٤٥ لقد سمع صالح ذلك فأخذ يبكي ، وبدأ ينوح على النائحين .
وقال : « يا قوماً عاشوا بالباطل ! يا من أبكيتموني أمام الحق !
لقد قال لي الحق : « اصبر على جورهم ، وعظهم ، فلم يبق من مهلتهم زمن طويل » .
فقلت : « إنّ النصح قد أصبح حبيس الجفـــاء ، فلبن النصيحة

(١) (الأعراف ، ٧ : ٧٨) .
(٢) حينا يخيفونك من مثل هذا الجثوم الذي أصاب قوم صالح بعد أن لقوا عذاب الله .

لا ينهمر إلا بالمحبة والصفاء .
وإني — لكثرة مـا أوقعوا بي من جفاء — تجمّد في عروقي لبن النصيحة » .
٢٥٥٠فقال لي الحق : « إني لمنعم عليك بلطف ، وواضـع لك بلسماً على تلك الجراح » .
وها هو ذا الحق قد جعل قلبي صافياً كالسماء ، ومحـا جوركم من خاطري !
لقد كررتُ لكم النصح ، وذكرتُ لكم أمثالاً وكلاماً كالسكر .
واستنبطت لكم من السكر لبناً طازجاً ومزجت لكم الكلام باللبن والشهد .
فتحوّل هذا الكلام فيكم إلى ما يشبه السم ، لأنكم — من أصلكم وأساسكم — كنتم منزل السمّ .
٢٥٥٥وكيف أحزن الآن وقد انقلب الحزن على رأسه ؟ لقد كنتم لي غماً أيها القوم العصاة .
وهل ينوح أحد على موت الحزن ؟ أم هل يقتلع أحد شعر رأسه لو زال منه الجرح ؟ »
ثم التفت إلى نفسه وقال : « أيهـــا النائح ! إنّ هؤلاء القوم لا يستحقون نواحك » .
فاقرأ قوله تعالى : « فكيف آسى على قوم كافرين » قراءة مستقيمة ، ولا تلتفت إلى قراءتي المعوجّة[1] .

---

(١) (الأعراف ، ٧ : ٩٣) . وقد أورد الشاعر هذه الآية بمعناها في الشطر الثاني من البيت ، قال : « كيف آسى قل لقوم ظالمين » ، ووصف هذا بأنه قراءة معوجة للآية ، وطلب إلى القارىء أن يقرأها بلفظها . وغني عن البيان أنـه أورد الآية بمعناها لأن وزن الشعر لا يسمح بإيرادها نصاً .

ومرة ثانية وجد صالح الدموع في عينيه وقلبـــه ، وأشرقت في نفسه رحمة لا سبب لها .

٢٥٦٠ فأخذ يمطر الدموع بعد أن تولته الحيرة ، (وما دموعـه إلا) قطرة من الجود ، (تنهل) بلا سبب .

لقد كان عقله يقول له : « لماذا هذا البكاء ؟ وهل يجوز البكاء على مثل هؤلاء المستهزئين .

قل لي : على أي شيء تبـــكي ؟ أعلى فعلهم أم على جيش حقدهم المنحرف ؟

أم على قلوبهم المظلمة التى كساها الصدأ ؟ أم على ألسنتهم المسمومة كالثعابين ؟

أم على أنفاسهم وأسنانهم التي تليق بالغيـلان[1] ؟ أم على أفواههم وعيونهم وهي جحور العقارب ؟

٢٥٦٥ أم على حقدهم وسخريتهم واستهزائهم ؟ ألا فلتشكر ربك الذي حبسهم .

فأيديهم معوجة ، وأقدامهم معوجة ، وعيونهم معوجة ، وحبّهم معوج ، ورضاهم معوج ، وسخطهم معوج » .

إنهم — في سبيل التقليد ، (واتباعـــاً) لريات النقل — داسوا بأقدامهم جمال العقل ، (وهو) الشيخ المرشد[2] .

إنهم جميعاً لم يحرصوا على المرشد ، فأصبحوا (في الجهل) كحمار هرم ، ينافق كلٌ منهم عين الآخر وأذنه .

ولقد جاء الله بعباده من الجنة ، ليريهم من رُبواً للجحيم .

---

(١) ذكر صاحب المنهج القوي أن « سگسار » التي وردت في هذا البيت كلمة تدل على كائن خرافي هو « غول رأسه كرأس الكلب وفمه وشعره كالماعز وعيناه كالخنزير ووجهه أصفر وعيناه زرقاوان ، يسكن في جزيرة قالون » . (ج ١ ص ٤٦١) .

(٢) للشطر الثاني من البيت عدة زوايات ، من أفضلها « پانهاده برسراين پير عقل » والمعنى : « داسوا بأقدامهم رأس العقل ، ذلك الشيخ الحكيم » .

في معنى (قوله تعالى) :
« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان[1] »

٢٥٧٠تأمل كيف أن أهل النار وأهل الخلد اجتمعا معاً في دكان واحد
— ورغم ذلك — « بينهما برزخ لا يبغيان » .
لقد اختلط أهلُ النار بأهل النور ، ولكن جبل قاف قام بين الفريقين .
وهكذا اختلط الذهب والتراب في المنجم ، وبينهما (من الاختلاف) مائة صحراء ورباط .
وهكذا اختلط في العقد الدرّ والشَبَه ، كما اختلط الأضيافُ (بنُزُل) في إحدى الليالي .
إن نصف البحر حلو كالسكر ، طعمه حلو ، ولونه مضيء كالقمر .
٢٥٧٥وأما النصف الآخر فمرّ كسم الحيّة ، طعمه مرّ ، ولونه مظلم كالقار .
وكل منهما يصطدم بالآخر من أسفل ومن فوق ، على مثال الماء في البحر المتلاطم الأمواج .
وصورة هذا الصدام في الأجسام الضيّقة ، إنما هي من اختلاط الأرواح بالصلح أو بالحرب .
إن أمواج السلام تتدافع ، فتقتلع الأحقاد من الصدور .
(وكذلك تتدافع) أمواج الحرب على صورة أُخرى ، فتقذف بالمحبة إلى أسفل وإلى فوق .
٢٥٨٠والحب يجتذب أهل المرارة إلى الحلو ، لأن الرشد هو الأصل في كل محبة .

---

(١) (الرحمن ، ٥٥ ، ٢٠) .

وأما القهر فهو الذي يحمل أهل الحلاوة إلى المرارة . ومتى كان المر ملائماً للحلو ؟
والمر والحلو لا يظهران لهذا النظر الحسي ، بل هما يُبصران من نافذة إدراك العواقب .
إن العين البصيرة بالعواقب قادرة على رؤية الصواب ، وأما العين التي تبصر الحظيرة فهي غرور وخطأ[1] .
وكم من حلو (مذاقــه) كالسكر ، ولكنّ السمّ يكون مضمراً في سكّره .
٢٥٨٥ فكل من ازداد حذقة ، عرف هذا برائحته ، وغيره (يعرفه) حين يتناوله بين شفتيه وأسنانه .
فتردّه شفته قبل أنْ يصل إلى حلقه ، مع أنّ الشيطـان يصيح به ليأكله .
ولغير (هذين) لا يظهر إلا في الحلق ، ولغير هؤلاء لا يتضح إلا في البدن .
وآخر يصاب باحتراق منه وقت الحدث ، فخروجـه ينبؤه بخبر عن دخوله .
(ويظهر) على شخص بعـــد أيام وشهور ، وعلى غيره في جوف القبر بعد موته .
٢٥٩٠ ولو أنّ هذا أُمهل في قرارة قبره ، فلا بدّ أنْ يظهر عليه ذلك (السمّ) في يوم النشور .
وكلّ نبات وكلّ حلاوة في هذه الدنيا يقتضي مهلة واضحـة من دوران الزمن .

---

(١) في البيت جناس بين كلمتي آخر (بكسر الخاء) وآخر (بضمّها) . والأولى عربية وأما الثانية فمعناها حظيرة أو إصطبل .

فالعقيق – لكي يحصل على لونه وبريقه والتماعه – لا بدّ له أن يقضي السنين تحت أشعة الشمس .
والخضر تنضج في شهرين ، وأما الورد الأحمر فلا ينضج إلا في عام .
فهذا هو الذي تحدث الحقّ عنه في سورة الأنعام حين ذكر الأجل [١] .
٢٥٩٥ فإذا سمعت هذا فلتكن كلّك أذناً صاغية . إنه ماء الحياة ، فإنْ شربته فهنيئاً لك .
فسمّه ماء الحياة ، ولا تسمّه كلاماً ! وتأمل هذا الروح الجديد في جسمٍ من الحروف العتيقة .
ولتستمع إلى نكتة أخرى ، أيّها الرفيق ، نكتة مثل الروح ، بالغة الوضوح ، (ولكنّها) دقيقة (على الإدراك) .
إنّ السمّ والحية يكونان – في بعض المقامات – سائغيْن ، بتصاريف الله .
وما يكون في أحد المواضع سمّاً قد يكون في موضع آخر دواء ، وما يكون في أحد المقامات كفراً قد يكون في مقام آخر مباحاً .
٢٦٠٠ فمع أنّه في ذلك المكان يكون مضراً بالروح ، فإنه – حين يصل إلى هنا يصبح علاجاً لها .
إنّ الماء في العنب الفجّ يكون حامضاً ، ولكنّه يصبح حلواً طيّباً في العنب الناضج .
ثم يغدو في إبريق النبيذ مراً حراماً ، فإذا ما تحول إلى خلّ ، فهو نعم الإدام .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » . (الأنعام ، ٦ : ٢) .

في بيان أنّه لا يجوز للمريد أنْ يتجرّأ فيفعل ما يفعله الوليّ ،
فإن الحلوى لا تؤذي الطبيب بينما هي تؤذي المريض ،
والبرد والثلج لا يتلفان العنب الناضج بينما هما يتلفان العنب
الفج ، فالمريد لا يزال على الطريق ، ولم يصل بعد إلى
مقام : « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر[1] »

إنّ الوليّ لو شرب السمّ لصار شراباً هنيئــاً ، وأما الطالب فلو شرب السمّ لأظلم عقله .
لقد دعا سليمان ربّه بقوله : « ربّ اغفرلي ، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي[2] » .
ومعنى الآية : « يا ربّ ! لا تعط أحداً سواي هــذا الملك ولا تلك القدرة !

٢٦٠٥ ولا تؤثر غيري بمثل هذا اللطف والجود ! » وهــذا القول يشبه الحسد ، ولكنّه ليس كذلك .
فلتقرأ سرّ « لا ينبغي[3] » بروحك ، ولا تفهم سرّ « من بعدي[4] » على أنّه من بخل سليمان .
لكنّه رأى في الملك مائــة خطر ، فملك الدنيا كان دائماً خطراً على الحياة .
إنّه مصدر خوف على الرأس والقلب والدين ، وهو امتحان لنا ليس له من مثيل .

---

(١) (الفتح ، ٤٨ : ٢) . (٢) (ص ، ٣٨ : ٣٥) .
(٣) ، (٤) هاتان عبارتان من الآية الكريمة التي وردت على لسان سليمان ، والتي يوالي الشاعر تفسيرها في هـذا البيت وما يليه .

فالمرء يحتاج إلى همّة سليمان لكي ينجو من تلك الآلاف من الروائح والألوان[1] .

٢٦١٠وحتى سليمان ، مع هذه القوة التي كانت له ، كم خنقت أمواجُ ملكه أنفاسَه !
لقد كان يشعر بالشفقة على كلّ ملوك الدنيا ، حين يتراكم فوقه — من الملك — غبار الهمّ .
فشفع لهم قائلاً : « ربّ هبْ هذا الملك ، ولكنْ هبْ معه الكمال الذي منحتني إيّاه !
فكلّ من وهبته وتفضّلت عليه بهذا الكرم فهو سليمان ، وأنا أيضاً ذات هذا الرجل .
فهو لن يكون بعدي وإنما معي . ومن ذا الذي يكون معي ؟ إنّه أنا بلا منازع » .

٢٦١٥إنّ شرح هذا واجب عليّ ، ولكن هأنذا أعود إلى قصة الأعرابي وامرأته .

مغزى ما جرى بين الأعرابيّ وامرأته

إنّ الذي جرى بين الأعرابي وامرأته ، لذو مغزى يبحث عنه قلب المخلص .
لقد جاء — عن طريق النقل — ما جرى بينهما . فاعلم أنّ (في تلك القصة) مثلاً لنفسك وعقلك .

---

(١) المقصود بالروائح والألوان مباهج الدنيا ومفاتنها .

فهذه المرأة وهذا الرجل نَفْس وعقل ، وكلاهما ضروريّ لإظهار الخير من الشرّ .

إنّ هذين الواجبي الوجود في هذا العالم الترابيّ يتحاربان ويتنازعان إبّان النهار وفي الليل .

٢٦٢٠ إنّ المرأة تريد حاجة المنزل ، يعني الأبّهة[1] والخبز والخوان والجاه .

فالنَفْس مثل المرأة ، تنشد التراب[2] حينـاً ، وتنشد المجد حيناً آخر ، لكي تحقـّق مآربها .

وأما العقل فليس بمدرك لتلك الأفكار ، وليس في معذنـه غير خوف الله .

فإذا كان سرّ القصة هذه الحبّة وهذا الشرك[3] فاستمع الآن إلى صورة هذه القصة كلها !

فلو كان البيان المعنويّ كافياً ، لكان خلق العالم باطلاً عاطلاً !

٢٦٢٥ ولو أنّ المحبّة لم تكن إلا فكراً ومعنى ، فـلا (جدوى من) صورة صومك وصلاتك .

والهدايا التي يتبادلها الأحباب للتعبير عن محبّتهم ليست إلا صوراً .

ذلك لأنها تقدّم الدليل على المحبّة المحتجبة في الخفاء .

فالحسنات الظاهرة – أيّها الفاضل ! – شواهد على عواطف الحبّ المستـتر .

وشاهدك قد يكون صادقـاً في وقت ، وكاذباً في وقت آخر ، ومرة يكون ثملاً بالخمر ، وأخرى باللبن المخض .

٢٦٣٠ فشارب المخيض يتظاهر بالسكر ، فيصيح صياح السكارى ، ويتراءى مثقل الرأس .

---

(١) ماء الوجه في البيت كناية عن الأبّهة . (٢) تطلب المادة . (٣) فتنـة النفس للعقل .

فهذا المرائي (يغالي) في الصيام والصلاة ، حتى يُظنّ أنّه سكران بولائه (لربّه) !
وصفوة القول أنّ ظاهر الأفعال مختلف (عن باطنها) ، وجدوى (الظاهر) أنّه دليل على ما استتر (في الباطن) .
فيا ربّ ! هبنا ذلك التمييز – كما نريد – لنقدر على التمييز بين ما استقام من الأدلّة وما اعوجّ !
وهل تعلم متى يصبح الحسّ تمييزاً ؟ إنه كذلك حينما ينظر بنور الله ؟
٢٦٣٥ وإذا لم يكن الأثر (ظاهراً) فإنّ السبب يظهره ، ومثال ذلك القربى ، فهي مخبرة عن المحبّة .
وإذا حلّ نور الله في حواسّك ، فإنك لا تكون عبداً للأثر ولا للسبب .
فإذا ما أورت المحبّة شعلتها في الباطن ، عظم الإنسان ، إذ أنها تريح خاطره من الآثار .
فلا تكون له حاجة إلى علامات الحبّ ، ما دام الحبّ قد غمر بنوره أفقه .
ولهذا الكلام تفصيلات تكمله ، ففتّش أنت عنها ، والسلام .
٢٦٤٠ وأما من رأى ذلك المعنى في هذه الصورة ، فإنّ الصورة قريبة من المعنى ، بعيدة عنه !
إنّها في الدلالة مثل الماء والشجرة ، ولكنّك إذا اتجهت إلى الماهيّة فهما متباعدان غاية البعد[1] .
فلتقل بترك الماهيّات والخصائص ، ولتشرح لنا أحوال هذين المليحين[2] !

---

(١) إنهما في الدلالة متقاربان في الظاهر تقارب الماء من الشجرة التي يمر بباطنها ، ولكنهما متباعدان في الماهية كالبعد بين الماء والشجرة في ماهية كل منهما .
(٢) المليحان هنا هما الأعرابي وزوجه .

كيف وجّه الأعرابيّ قلبه لتحقيق ملتمس حبيبته ، وكيف أقسم أن ليس في تسليمه حيلة أو امتحان

قال الأعرابيّ : « الآن قد أقلعتُ عن الخــلاف ، والحكم لك ،
فلتسحبي السيف من غمده !
وإني لمطيع أمرك في كل ما تأمرين به ، ولن أنظر فيما قد ينجم عن ذلك من شر أو خير .

٢٦٤٥ لسوف أصبح في وجودك عدمـا ، فما دمتُ مُحباً فالحب يعمي ويصمّ ! »
فقالت الزوجـة : « يا للعجب ! أأنت حبيبي ؟ أم أنــك بحيلة تكشف سرّي ؟ » .
فقال الأعرابيّ : « والله عالمِ السرّ الخفيّ ، الذي خلق من التراب آدم صفيا ،
وفي جسم وهبه إياه ، حجمه ثلاثة أذرع ، أظهر كلّ ما كمن في الألواح والأرواح !
فعلّم آدمُ (الملائكة) — في البـدء — ما يكون إلى الأبد ، بما اقتبسه من علم إلهيّ [١] .

٢٦٥٠ فانتشت من تعليمه الملائكة ، ووجدت في تقديسه (لله) لوناً آخر من التقديس .
فتلك الكشوف التي جلاها آدم للملائكة ما كانت لتتسع لها رحابُ السموات الفساح .
لقد ضاقت عرصات السموات السبع أمام سعة مجال هـذا الروح الطـاهر .

---

(١) حرفياً : « بما علمه ربه من الأسماء » . إشارة إلى الآية الكريمة : « وعلم آدم الأسمـاء » . (البقرة ، ٢ : ٣١) .

ولقد روى الرسول عن الحق أنه قال (ما معناه) : « إنني لا يسعني وعاء العلوّ والانخفاض ،

ولا تسعني الأرض ولا السماء بل ولا العرش» ، فاعلم ذلك أيها العزيز !

٢٦٥٥« ولكنّ قلب المؤمن يتّسع لي ، فإذا كنت تبحث عني فاطلبني في قلوب المؤمنين[١] » .

قال أدخل في عبادي تلتقي جنّة من رؤيتي يا متقي[٢]

إن العرش على نوره واتساعه – حين رأى (روح) آدم – تخلى عن مكانه .

فما أعظم ضخامة العرش بذاته ! ولكنْ ما الصورة إذا جاء المعنى ؟

وقالت الملائكة لآدم : « لقد كانت لنا ألفة (بـك) وأنت في تراب الأرض !

٢٦٦٠فكم غرسنا بذور الخدمة في الأرض ، وكنا نعجب لتعلّقنا بها .

فماذا كان تعلقنا بهذا التراب ، ما دمنا نحن قد ُفطرنا من السماء ؟

وماذا كان إلفنا نحن الأنوار بالظلمات ؟ وكيف يستطيع النور أن يعيش مع الظلمات ؟

يا آدم ! إن شذاك كان مبعثاً لهذا الإلف ، ذلك لأنّ الأرض كانت لجسمك سدى ولحمة .

فمنها ُنسِجَ جسمُك الترابيّ ، وفيها نورك الطاهر .

٢٦٦٥فهذا النور الذي وجدته أرواحُنا في روحك ، كان في أول الأمر يشعّ من التراب .

لقد كنا في الأرض ، وكنا غافلين عنها ! كنا غافلين عن الكنز الذي اختبأ فيها !

---

(١) النص العربي للحديث القدسي هو : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي الورع » . (٢) هذا البيت عربيّ في الأصل .

وحينما أُمرنا بالسفر من هذا المقام ، صارت أفواهنا مرة من جرّاء هذا الانتقال .
فأخذنا نجادل قائلين : « يا ربّنا ! من ذا الذي سيحتلّ مكاننا ؟
أتبيــع نور تسبيحنا وتهليلنا من أجل قيل وقال ؟ »

٢٦٧٠ إن حكم الحقّ كان قد بسط لنا بساط (الرحمة) قائلاً : « تكلّموا وانطلقوا في الحديث !
وقولوا كلّ ما يرد على ألسنتكم من غير حذر ، كما (يفعل) الطفل الوحيد مع أبيه .
وماذا لو كانت أقوالـكم هذه غير لائقــة ؟ إن رحمتي لسابقة على غضبي .
ولكي أظهر لك هذا السبق – أيها الملك – أودعت فيك أسباباً للحيرة والشك .
وهكذا تتكلم ، بدون أن أحاسبــك على قولك . فلا يستطيــع منكرُ حلمي أنْ ينبس بكلمة !

٢٦٧٥ وإن مائة أب ومائة أم لتولد من حلمنا في كلّ لحظة ، ثم تختفي !
وما حلم هؤلاء إلا زبد من بحر حلمنا . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما البحر فدائم البقاء » .
فماذا أقول ؟ إن هذا الصدف[1] أمام هذا الدرّ[2] ليس إلا زبداً لزبد الزبد !
فبحقّ هذا الزبد ! بل بحقّ ذلك البحر الصافي ! إن قولي هــذا ليس امتحاناً ، وليس هراء[3] .
بل إنه من صميم الحبّ والصفاء والخضوع ! أقسم لك بمن إليه مآبي .

---

(١) حلم الانسان . (٢) حلم الله . (٣) الحديث هنا على لسان الأعرابي يخاطب امرأته .

٢٦٨٠ فإذا كان هذا الوله قد بدا لك امتحاناً ، فلتختبري هذا الامتحان لحظة واحدة .
واكشفي سرّك ، لكي ينكشف لك سرّي ، ومريني بكل ما أنا قادرٌ عليه .
وأزيحي الحجاب عن قلبك ، يتجلّ لك قلبي ، فأتقبل ما أنا قابل له !
كيف أعمل ؟ وأية حيلة في يدي ؟ ألا فلتنظري أيّ عبء تحتمله روحي [1] .

كيف عيّنت المرأة لزوجها طريق طلب الرزق وكيف تقبّل الرجل ذلك منها

فقالت المرأة : إنّ شمساً واحدة قد أشرقت فاكتسب النورَ منها عالمٌ بأسره .
٢٦٨٥ ونائب الرحمن ، خليفة الله ، به ازدهرت مدينة بغداد ، فكأنه الربيع .
فإذا اتصلت بهذا المَلِك ، أصبحت مَلِكاً ! (وإلا) ، فإلى متى تسعى وراء كلّ إدبار ؟
إنّ مجالسة السعداء مثل الكيمياء ! بل أين هي الكيمياء التي تشبه نظرة (إقبالهم) !
ولقد تلقى أبو بكر نظرة من الرسول ، وبالتصديق مرة واحدة أصبح صدّيقاً !

---

(١) تأملي المدى الذي يمكن أن تطيقه روحي في تحمل الأعباء ، ولا تكلفيني ما لا طاقة لي به .

فقال الزوج : « وكيف أصبح مقبولاً عند الملك ؟ وكيف أذهب إليه من غير حجة أتذرّع بها ؟

٢٦٩٠ فلا بدّ لي من ذريعة أو حيـــلة . وهل استقامت حرفة قطّ بدون آلة ؟

(إنّني) كالمجنون الذي سمع من شخص أنّ ليلى قد ألمّ بها مرض طفيف .

فقال : « أوّاه ! كيف أذهب إليها بدون عذر أتذرّع به ؟ وإذا تخلفت عن عيادتها فكيف يكون حالي ؟

ليتني كنت طبيباً حاذقاً كنت أمشي نحو ليلى سابقاً [١]

ولقد خاطبنا الحقُّ تعالى بقوله : قل تعالوا .. [٢] » ليكون إشارة لنا نتغلّب بها على حيائنا .

٢٦٩٥ ولو كان للوطواط بصر ووسيلة ، لطار بالنهار وحسن حاله .

فقالت الزوجة : « إنّ ملك الملوك حين ينزل إلى الميدان ، يصبح كل عجز آلة ووسيلة !

ذلك لأن الآلة إدّعاء و (تأكيد) للوجود الذاتيّ ، ونجاحُ (العمل) يتحقّق عند الافتقار والتواضع [٣] » .

فقال الأعرابي : « وكيف ألتمس الربح من انعدام وسائلي ، إذا لم أُظهر أنّني عديم الوسائل ؟

---

(١) هذا البيت عربيّ في الأصل . (٢) في البيت إشارة الى قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » (الأنعام ، ٦ : ١٥١) . ويريد الشاعر أن دعوة الله العباد للاستماع إلى قوله هي الإشارة التي تجعلهم يتغلّبون على الحياء الذي قد يستولي عليهم في حضرة الله .

(٣) ليس تأكيد الإنسان لذاته وأعماله وسيلة التقرب إلى الله عند الصوفيّة ، وإنما التقرّب عندهم بالتوكل على الله أي الإيمان بأنّه لا يتمّ أمر بدون إرادته ، فالتوكل عندهم يؤدي إلى إفناء الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية ، وهذا هو التواضع ، وهو الذي يؤدي إلى نجاح المقاصد ، لأنّ الإرادة الإلهية لا تهدف إلا إلى الخير .

فلا بدّ لي من شاهد (أمام الملك) على إفلاسي ، حتى يشفق عليّ في فاقتي .

٢٧٠٠ فلتكشفي لي عن شاهد غيرِ القيل والقال ، وظاهرِ الحـــال ، فلعله يستدر رحمة الملك الجليل .

فالشهادة – التي لا تزيد على الكلام والمظهر – كانت دائمـاً مجرحة عند ذلك القاضي الأكبر .

إنّه يريد ممن (يقف بساحته) أنْ يكون الصدق شاهـداً على حاله ، فيشعّ نورُه من غير (حاجة) لمقاله » .

كيف حمل الأعرابيّ إبريقاً مليئاً بماء المطر من قلب البادية إلى بغداد هدية إلى أمير المؤمنين ، ظانـّا أنّ تلك المدينة أيضاً تعاني قحطاً في الماء

فقالت المرأة : « إنّ الصدق أنّ الإنسان – بجهده – ينطلق من وجوده انطلاقاً كاملاً .

إن لدينا ماء مطر بالإبريق ، وهو ملكك ، ورأس مالك ووسيلتك.

٢٧٠٥ فاحمل هذا الإبريق وانطلق ! اتـّخذه هديّة ، وامثل أمام ملك المـــلوك !

وقل له : « إنـّنا لا نمتلك من الأسباب غـير هذا . وليس في المفازة شيء قط أحسن من الماء .

فمع أنّ خزائنه مليئة بالذهب والجوهر ، فإنـّه لا يجد ماء كهذا ، فهو نادر الوجود ! » .

فما هذا الكوز ؟ إنـّه جسدنا المحدود ، وبه ماء حواسنا الملح !

فيارّب ! تقبّل إبريقنا وكوزنا بفضلك (الذي يشير إليه قولك) :
«إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة [1] ».

٢٧١٠ إنّ لإبريقنا أنابيب ، هي الحواس الخمس ، (فيا ربّ) احفظ ماء إبريقنا من كلّ نجس !
حتى يكون لإبريقنا هذا منفذٌ إلى البحر ، وحتى يتخذ إبريقنا صفة البحر .

فإذا ما حملته هديّة إلى السلطان يراه نظيفاً ، ويكون له مشتريا .
فيصبح ماؤه بعد ذلك بلا حدود ، ويمتلىء من كوزنا مائة عالم !
ألا فلتغلق أنابيبه ، ولتملأه من وعاء (الحقيقة) . لقد أمرنا الحقّ أن نغضّ الأبصار عن الهوى [2] .

٢٧١٥ فانتفشت لحية الأعرابي بريح الغرور . فمن ذا الذي لديه مثل هذه الهدية ؟ إنها بحق لائقة بمثل هذا المليك !
ولم تدر الزوجة أن هناك على الطريق (في بغداد) نهراً مثل جيحون ، حلواً كالسكر .
يجري كالبحر في وسط المدينة ، وقد حفل بالزوارق وشباك الصيادين .
فلتذهب إلى السلطان ، ولتشهد أبهته وجلاله ، ولتجرب الإحساس (بالحقيقة في قوله) : « تجري من تحتها الأنهار [3] » .

---

(١) (سورة التوبة ، ٩ : ١١١). (٢) إشارة إلى قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إنّ الله خبير بما يصنعون » . (سورة النور ، ٣٤ : ٣٠) .

(٣) وردت هذه العبارة في كثير من آيات القرآن . ومنها قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . (سورة البروج ، ٨٥ : ١١) .

فما أحاسيسنا وإدراكاتنا – على مثل هذه الصورة (المادية) – إلا قطرة في تلك الأنهار .

كيف خاطت امرأة الأعرابي اللبد حول الابريق المليء بماء المطر ، وختمت عليه ، وذلك لفرط اعتقاد البدو (بندرة الماء)

٢٧٢٠ فقال الأعرابي : « نعم ، أغلقي فوهة الإبريق ، وحاذري ، فإن هذه الهدية ستجلب لنا الربح !
خيطي اللبد حول هذا الإبريق ، حتى يفطر الملك على هديتنا !
فليس في الآفاق كلها مثل هذا الماء ، وليس لماء مثل هذا الصفاء ! »
(وما قوله ذلك إلا) لأنه وأمثاله معتلون على الدوام ، وقد ذهب بنصف بصرهم شربهم الماء المالح المرّ .
فالطائر الذي يكون مسكنه عند الماء الملح ، أنى له أن يعرف مكان الماء الصافي ؟

٢٧٢٥ فيا من مقامك عند الغدير المالح ! أنى لك أن تعرف الشط[1] وجيحون والفرات ؟
ويا من لم تتخلص من ذلك النزل الفاني[2] ! ماذا تعرف عن المحو والسكر والانبساط ؟
ولو عرفت فعن طريق النقل عن أبيك وجدك ، فما هذه الأسماء أمامك إلا كحروف أبجد[3] .

(١) نهر شط العرب . (٢) عالم المادة . (٣) تنطق بها دون أن تفهمها .

فما أذيع النطق « بأبجد هوّز » عند جميع الأطفال ، وما أوضحه ! ولكن ما أبعد معناها (عن فهمهم) !

فحمل الأعرابي الإبريق ، وانطلق مسافراً ، وأخذ يجرّه في جنح الليل ، وأثناء النهار .

٢٧٣٠ لقد كان يرتعد (خوفاً) على الإبريق من آفات الدهر ، وها هو ذا قد نقله من الصحراء إلى المدينة !

وأما المرأة فقد بسطت سجادة الصلاة ضارعة ، وجعلت (دعاء) « ربّ سلّم » وردها في الصلاة .

(وفي ضراعتها كانت تقول) : « ربّ احفظ ماءنا من الأخساء ، واجعل هذا الجوهر يصل إلى ذلك البحر .

فزوجي وإن كان ذكيّاً ماكراً ، إلا أنّ آلاف الأعداء يتربصون بهذا الجوهر !

بل ماذا يكون الجوهر أمامه ؟ إنّ هذا ماء الكوثر ، وإنّ قطرة واحدة منه لهي أصل الجوهر !

٢٧٣٥ فبدعاء المرأة وضراعتها ، وباهتمام الرجل وتحمّله العبء الثقيل ، نقل الإبريق إلى دار الخلافة بدون تأخر ، وقد سلم من اللصوص ومن إيذاء الحجارة .

وهناك رأى الأعرابي بلاطاً مليئاً بالنِعَم ، وقد مدّ أهل الحاجة فيه شباكهم .

ففي كلّ لحظة كان يجيء من كلّ ناحية صاحبُ حاجة ، فإذا به قد وجد لدى هذا الباب الخلعة والعطاء .

لقد كان للكافر وللمؤمن ، وللقبيح والجميل ، وكأنه الشمس والمطر ، بل كأنه الفردوس !

٢٧٤٠ ورأى قوماً ذوي أبّهة في حضرة (الخليفة) ، وقوماً آخرين وقفوا منتظرين .

فالخاصة والعامّة من سليمان حتى النملة ، دبّت فيهم الحيــاة كالعالم عند نفخ الصور !
فأما أهل الصورة فقد رُصّعوا بالجواهر ، وأما أهل المعنى ، فقد وجدوا بحر المعنى .
وكم من عديم الهمّة أصبح ذا همّة ! وكم من صاحب همّة أصبــح ذا نعمة !

في بيان أنّه كما أنّ السائل عاشق للكرم وعاشق للكريم فانّ كرم الكريم أيضاً عاشق للسائل . فاذا كان السائل أكثر صبراً جاء الكريم إلى بابه ، وإذا كان الكريم أكثر صبراً جاء السائل الى بابه . ولكنّ صبر السائل كال ، وأما صبر الكريم فنقيصة

إنّ صيحة كانت تتردد (قائلة) « أيها الطالب تقدم ، فالجـــود محتاج إلى السائل ، كاحتياج السائل (الى الجود) » .
٢٧٤٥ إن الجود يطلب المساكين والضعاف ، كما تنشد الحسان المرآة الصافية .
فوجوه الحسان تحلو بتلك المرآة ، كما أنّ السائل يجلو وجه الإحسان .
ولهذا فقد خاطب الحقّ الرسول في (سورة) الضحى (بقوله) : « وأما السائل فلا تنهر[1] » .
فما دام السائل مرآة الجود ، فتنبّه ! إنّ التنفس في وجه المرآة مضرّ (بصفائها) .
فمن الكرام مَنْ جوده يظهر السائـــل ، ومنهم من ينعم على المساكين بمزيد العطاء .

---

(١) (سورة الضحى،٩٣ : ١٠).

٢٧٥٠فالسائلون إذن هم مرآة جود الحق ! وأما من هم مع الحقّ فإنهم
جود مطلق !
وأما من لم يكن من هذين (الفريقين) فهو ميّت ! إنّه ليس
من أهل هذا الباب ، وما هو إلا صورة فوق ستار !

الفرق بين من كان فقيراً إلى الله ظامئاً إليه ، وبين من كان فقيراً من الله ظامئاً إلى غيره

إنّ الدرويش بالصورة (لا بالحقيقة) غير جدير بالخبز ، فلا تُلق
العظَام إلى صورة الكلب !
فهذا فقير إلى اللقمة ، وليس فقيراً إلى الحقّ ! فلا تصُفّ
الصحاف أمام صورة ميّتة !
إنّ درويش الخبز ليس إلا سمكة برية . إنه على صورة السمكة ،
ولكنّه هارب من البحر !
٢٧٥٥إنّه طائر البيت لا عنقاء الهواء ! إنه يتغذّى باللقم ولا يغتذي
من الله .
إنه عاشق للحقّ من أجل النوال ، وليست روحه عاشقة
للحسن والجمال !
فإذا كان يتوهّم أنّه عاشق للذات ، فليست الذات توهماً للأسماء
والصفات .
إنّ الوهم يتولد من الأوصاف والحدود ، والحقّ ليس بمولود .
إنّه عاشق لتصوّراته وأوهامه ، فمتى يكون مثله من عُشّاق
ربّ المنن ؟
٢٧٦٠فلو كان عاشق الأوهام هذا صادقاً ، لقاده هذا المجاز إلى الحقيقة .

إنّ إيضاح هذا الكلام يتطلب شرحاً ، ولكنني خائف من الأفهام البالية !

فهذه الأفهام البالية ، القصيرة النظر ، تدخل في الأفكار مائة خيال باطل .

وليس كل إنسان بقادر على صدق السماع ، فالتين ليس غذاء لكل صغار الطير .

وخاصة ما كان من هذه الطير ميتاً متحللاً ، قد ملأه الخيال ، وهو أعمى البصيرة .

٢٧٦٥ وأيّ شأن لصورة السمكة بالبحر أو اليابسة ؟ وأي شأن للون الهندي بالصابون أو الأصباغ ؟

وإذا نقشت على الورق صورة حزينة ، فإن هذه الصورة لم تتلق درساً في الحزن ولا في السرور .

فهذه الصورة تكون حزينة ، ولكنها خالية من ذلك الحزن .

وقد تكون ضاحكة ولكن لا أثر لهذا عندها .

والذي سُطِّر في القلوب من هذا الحزن أو السرور الدينوي ليس إلا صورة (لا حياة فيها) أمام ذلك السرور أو الهمّ (الروحي) .

إن الصورة الضاحكة التي يجلوها لك النقش ، إنما هي من أجلك ، وذلك لكي يستقيم لك المعنى عن طريق تلك الصورة !

٢٧٧٠ وصور (الأجساد) داخل الحمام تكون — خارج غرفة خلع الثياب — شبيهة بالثياب .

فما دمتَ في الخارج فإنك ترى الثياب وحدها . فلتخلع ثيابك ولتدخل أيها الرفيق .

لأنه لا سبيل إلى الدخول مع ارتدائك الثياب : فالجسم جاهل بالروح ، والثياب لا علم لها بالجسم .

كيف تقدم نقباءُ الخليفة وحُجّابه
لاكرام الأعرابي وتقبل هديته

وحينما وصل الأعرابي من الصحراء النائية إلى باب دار الخلافة ،
تقدم النقبـاء إلى الأعرابي ، وبلطف ضمخوا جيبـه بكثير من
ماء الورد !

٢٧٧٥ وأدركوا حاجته بدون مقال ، فقد كان دأبهم العطاء قبل السؤال .
ثم قالوا له : « يا وجيه العرب ! من أي مـكان (أتيت) ؟
وكيف أنت بعد الطريق التعب ؟
فقال الأعرابي : « إنني وجيه لو أوليتموني وجوهكم ، ولست بذي
شأن لو نبذتموني وراء ظهوركم !
يا من تلوح في وجوهكم علائم العظمة ! يا من رواء مجدكم أبهى منّ
الذهب الجعفري !
يا من نظرة واحدة منكم (تعـدل) نظراتٍ (مِنْ سواكم) !
يا من نثار رؤيتكم الدنانير !

٢٧٨٠ يا من أصبحتم جميعاً تنظرون بنور الله ! يا من أقبلتم من عند الله
للجود والعطاء ،
لتلقوا بنظراتكم الكيميائية على نحاس أشخاص البشر !
إنني غريبٌ ، وقد قدمتُ من الصحراء . لقد أقبلتُ على أمـل
في لطف السلطان ،
مَنْ عبيرُ لطفه قد عمّ الصحارى ، فاتخـذت منه حباتُ الرمال
أرواحـاً !
لقد قدمت إلى هنا على أمل الدينار ، فلما وصلت أصبحتُ ثملاً بالرؤى !

٢٧٨٥ لقد انطلق شخصٌ نحو الخبّاز من أجل الخبز ، ولكنه جاد بالروح ،
عندما رأى حسن الخبّاز !

ومضى رجل إلى البستان يلتمس النزهة ، فأصبحت نزهتُه (مشاهدة) جمـــال البستاني !

(فمثلها) كمثلُ ذلك الأعرابي الذي سحب الماء من البئر ، فشرب ماء الحياة من طلعة يوسف[1] !

أو كمثل موسى الذي ذهب يلتمس ناراً ، فرأى ناراً (جعلته) ينجو من النار[2] .

لقد قفز عيسى ليخاص من أعدائــــه ، فحملته قفزته تلك إلى السماء الرابعة .

٢٧٩٠ولقد كانت سنبلة القمح فخاً لآدم ، فأصبح وجوده سنبلة (حوت بذور) البشرية .

والصقر يقصد الشباك من أجـــل الطعام ، فيجد ساعـد الملك والإقبال والمجد !

والطفل يلتحق بالكتّاب لكسب المعرفـــة ، وأمله طائر لطيف (يهديه له) أبوه .

وبعد الكتّاب صار هذا الطفل صدراً . لقد دفع (للمعـلم) عن كل شهر أجراً ، فأصبح بدراً .

ولقد خاض العباس الحرب حاقداً ، يبغي هزيمة الرسول ومقاومة الدين .

٢٧٩٥فأصبح للدين – حتى القيامة – وجهاً وظهراً ، فإنه هو وأبناؤه ولاة الخلافة !

وإني قد قصدتُ هذا الباب ملتمساً للعطاء ، فلم أكد أخطو إلى الدهليز حتى أصبحت صدراً !

(١) إشارة إلى قصة يوسف ، والتقاطه من البئر (سورة يوسف) .

(٢) إشارة إلي قوله تعالى : « وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » . (سورة طه ، ٢٠ : ٨ ، ٩) .

وقد جئت بالماء هدية لأنال الخبز ، فحملتني رائحة الخبز إلى صدر الجنان .
إنّ الخبز هو الذي أخرج آدم من الجنة ، وها هو ذا قد سما بي إلى الجنة .
لقد برئت كالملاك من الماء والخبز ، وهأنذا مثل الفلك أدور بلا غرض حول هذا الباب .
٢٨٠٠وليس في العالم ما يدور بلا غرض ، سوى أجسام العاشقين وأرواحهم .

في بيان أن عاشق الدنيا مثل عاشق جدار تشرق عليه الشمس ، وهو لا يجتهد ولا يسعى ليفهم أن هذا النور وذلك الرونق ليسا من الجدار ، وإنما هما من قرص الشمس في السماء الرابعة ، فلا جرم أن الجدار يملك عليه قلبه . وحينما يعود نور الشمس فيلتحق بالشمس[1] يبقى محروماً إلى الأبد ، « وحيل بينهم وبين ما يشتهون[2] »

إنّ عشاق الكل ليسوا بعشاق للجزء ، فإن من اشتاق إلى الجزء عجز عن الكلّ .
وإذا ما أصبح جزء عاشقاً لجزء ، فسرعان ما يعود المعشوق إلى كله .
(فهذا العاشق) قد صار سخرية لمن كان عبداً مملوكاً لغيره ، فكأنه غارق تشبّثت كفّاه بضعيف .
فليس هذا المعشوق بمالك أمره حتى يعنى بعاشقه ! وهل ينهض بواجب سيده ، أم ينهض بواجب العاشق ؟

(١) حينما تجمع الشمس أشعتها وتغرب . (٢) (سورة سبأ ، ٣٤ : ٥٤) .

مثل العرب : (إذا عشقت فاعشق الحرة
وإذا سرقت فاسرق الدرّة)

٢٨٠٥ من أجل هـــذا (الذي سنوضحه) أصبح (قولهم) « اعشق الحرة) مثلاً ، ولهذا أيضاً ذاع (قولهم) : « اسرق الدرة » .

فالعبد (المحبوب) قد عاد إلى سيده ، لقد رجـــع عبير الوردة إلى الوردة ، وبقى له الشوك .

وهكذا بقي بعيداً عن مطلوبة ، سعيه باطل وتعبـــه ضائع ، وقدماه داميتان !

إنه كالصياد الذي يتصيّد الظل ! فهل يصبح الظل من ممتلكاته ؟

أو كرجل أطبق كفه على ظلّ طائر ، على حين أن الطائر على غصن الشجرة قد حار (في أمر هذا الرجل) .

٢٨١٠ يقول : « عجباً ! من أي شيء يضحك ذلك الأحمـق ؟ » فهاك باطلاً ، وسبباً واهياً متحللا [١] !

فإنْ قلت إنّ الجزء مرتبط بالكل ، فلتأ كل الشوك ، فإن الشوك مرتبط بالورد .

فالجزء ليس من أي وجـه مرتبطاً بالكل ، وإلا لـكان باطلاً بعث الرسل[٢] .

فما دام الرسل قد بُعثوا لربط (الأجزاء بالكل) ، فماذا يربطون ، إنْ كانت الوحدة (قد تحققت) ؟

إن هذا الكلام لا نهاية له ، أيها الغلام ! وقـد تأخر الوقت ، فلتـكمل القصة [٣] .

---

(١) الشاعر يخاطب القارىء بهذه العبارة . (٢) لو كان البشر جميعاً متصلين بخالقهم لما كانت هناك ضرورة لبعث الرسل للإرشاد والهـداية ، والعمل على ربط البشر بخالقهم . (٣) قصة الأعرابي .

كيف قدم الأعرابي الهدية ، يعني إبريق الماء
إلى غلمان الخليفة

٢٨١٥ لقد قدم الأعرابي إبريق الماء ، وغرس في تلك الحضرة بذور الخدمة .
وقال : « احملوا إلى السلطان هذه الهدية ، وخلصوا سائل الملك من الحاجة !
إن الماء حلو والإبريق أخضر اللون جديـد ! الماء من المطر الذي تجمع في الحفرة !
فضحك النقباء من ذلك ، ولكنهم تقبّلوا الهدية ، (معتزين بها) كالروح.
ذلك لأن لطف الملك الطيب الحكيم كان قد أثر في كل أركان دولته .
٢٨٢٠ فطبيعة الملوك تؤثر في رعاياهم ! إنهـا كالسماء الخضراء[1] ، تجعل الأرض مخضرّة يانعة .
اعلم أنّ الملك كحوض للماء ، في جوانبه أنابيب ، يتدفق المـاء فيها إلى حفر السقاية[2] .
فما دامت الأنابيب كلها تحمل الماء من حوض نقي فإنها جميعاً تفيض بماء عذب حلو المذاق .
فإنْ كان الماء في الحوض مالحـاً عكراً ، فإنّ كل أنبوب يأتي بذات الماء .
ذلك لأنّ كل أنبوب متصل بالحوض ، فلتتعمّق في إدراك مدلول هذا الكلام !
٢٨٢٥ ولتتأمـل لطف الروح ملك الملوك ، الذي لا وطن له ، وكيف أثر في البدن كله !

---

(١) السماء الخضراء أي المشتملة على السحاب الذي هو مصدر الخضرة .
(٢) اخترنا لهذا البيت رواية غير تلك التي وردت في طبعة نيكولسون ، نصها :
شه چو حوضي دان وهر سو لولها   آب ازلوله روان دركولها

ولطف العقل ذي الطبع الكريم ، والنسب العريق ، وكيف يلزم الجسد كله حدود الأدب !
والعشق المحبب الذي لا قرار له ولا سكون ، وكيف يحمل الجسم كله على الجنون !
ولطف ماء البحر الذي هو مثل الكوثر ، وكيف يقذف بحجارة كلها من الدرّ والجوهر !
وكل فضل يُعرف به الأستاذ ، فإنّ أرواح تلاميذه تغدو به متصفة .
٢٨٣٠ فالتلميذ الذكي المجتهد يقرأ الأصول على أُستاذ الأصول .
ودارس الفقه يقرأ الفقه على أُستاذٍ فقيه ، ولكنه لا يدرس (عليه) الأصول .
فإذا ما كان الأستاذ نحوياً ، فإن روح تلميذه تصبح نحوية بتأثيره .
أما الأستاذ الذي يكون فانياً في الطريق ، فروح تلميذه تكون فانية في المليك .
وعلم التصوف – من بين العلوم جميعاً – هو خير عدة وزاد ، يوم موافاة الأجل .

حكاية النحوي والملاح

٢٨٣٥ كان أحد النحاة راكباً في سفينة . فاتجه ذلك المغرور نحو الملاح .
وقال : « هل درست شيئاً من النحو ؟ » ، فقال الملاح : « لا »
فقال النحويّ : « لقد ضاع نصف عمرك سدى » .
فانكسر قلب الملاح حزناً ، ولكنه سكت في تلك اللحظة عن الجواب .
وألقت الريح بالسفينة في دوامة ، فعلا صوتُ الملاح مخاطباً النحوي :

« قل لي : هل تعرف السباحة ؟ » ، فقال النحويّ : « لست أعرفها أيها المليح البارع الجواب ! »

٢٨٤٠ فقال الملاح : « فقد ضاع كل عمرك أيها النحوي ! ذلك لأن السفينة ستغرق في هذه الدوامة » .

فاعلم أن المحو هو المطلوب – في هذا المقام – وليس النحو ، فإن كنتَ محواً فاقفز إلى اليمّ بدون خوف .

إن ماء البحر يجعل الميت فوق سطحه . أما من كان حياً فكيف يخلص من البحر ؟

فإن ماتت فيك أوصاف البشر ، فإنّ بحر الأسرار يضعك فوق رأسه[1].

فيا من دعوت الخلق حميراً ، ها أنت ذا قد بقيت الآن فوق هذا الثلج (تتجول) كالحمار !

٢٨٤٥ فإنْ كنت في هذه الدنيا عالم زمانك ، فانظر إلى فناء هذه الدنيا وهذا الزمان !

لقد ربطنا قصة الرجل النحويّ بهذا البـــاب ، حتى نعلّمك « نحو » المحو[2] .

وإنّك أيّها الصديق العظيم لواجدٌ جوهر الفقه ، وجوهر النحو ، وجوهر الصرف ، سبلا مؤدّية إلى النقص .

إنّ إبريق الماء رمز لعلومنا ، وأما الخليفة فهو دجلة علم الله .

وها نحن أولاء نحمل إلى دجلة جراراً ممتلئة بالمـــاء . فلو أنّنا لم نعرف الحمير لحسبنا أنفسنا حميراً .

٢٨٥٠ ولعلّ هذا الأعرابيّ كان معذوراً ، لأنّه لم يكن ذا معرفـــة بدجلة ولا بالنهر .

---

(١) يرفعك إلى مكان عليّ .

(٢) القواعد والوسائل التي تؤدي إلى إفناء الذات .

فلو كان مثلنا عارفاً بدجلة ، لمـــا حمل هذا الإبريق من مكان
إلى مكان !
إنـّه لو كان عارفاً بدجلة ، لألقى بهذا الإبريق فوق إحدى الصخور.

كيف تقبّل الخليفة الهدّية وأمر بالعطاء مع تنزّهه الكامل عن الحاجة إلى تلك الهدية وهذا الابريق

حينما رأى الخليفة الأعرابي ، واستمع إلى قصته ، ملأ ذلك الإبريق
بالذهب حتى فاض منه .
فوهب هـذا الأعرابي خلاصاً من الفاقة ، وأعطاه مِنَحـاً وخِلعاً
فريـــدة .
٢٨٥٥ وقال : « أسلموا هذا الإبريق إلى الأعرابي . وعندما يتجـــه إلى
العودة ، خذوه إلى دجلة .
فلقد جاء بطريق البرّ ، مع أن السفر بطريق الماء (يجعل غايته)
أدنى سبيلاً .
فلما جلس الأعرابي في السفينة ، وأبصر دجـــلة ، خرّ ساجداً ،
وخفض الرأس حياء .
وقال : « ما أعجب لطف هذا الملك الوهّاب ! وأعجب منه أنه
تقبّـل هذا الماء !
فكيف تقبّـل بحرُ الجود منّي – بكل هذا الإسراع – مثل هذا
النقد الزائف ؟»
٢٨٦٠ اعلم – يا بني – أن العالم كله وعاء مليء بالعلم والجمال !
وقطرة واحـدة من دجلةِ حُسْنِهِ ، لا يكاد هذا العالم يسعهـــا
بين جوانبه(١) .

(٢) الترجمة الحرفية للشطر الثاني من البيت هي : « وهذا (العالم) لامتلائه بها لا يسعها تحت جلده » .

لقد كان كنزاً مخفياً لكنه - لغزارته - مزّق (حجب الخفاء) ، وجعل الأرض أكثر إشراقاً من الأفلاك[1] .

لقد كان كنزاً مخفيا فجاش فيضه الغزير ، فجعل الثرى سلطانا يرتدي الأطلس .

فلو أنّ هذا الأعرابيّ أبصر فرعاً من دجلة الخالق ، لحطّم هذا هذا الإبريق وأباده .

٢٨٦٥ فكلّ من أبصروا ذلك ، تولاهم ذهول دائم عن أنفسهم ، فأخذوا - بلا وعي - يضربون الإبريق بالحجارة !

فيا من دفعتك الحميّة إلى أن تضرب الإبريق بالحجر ، فازداد الإبريق بهذا الانكسار كمالاً .

لقد تحطّم الإبريق لكنّ الماء لم ينصبّ منه ! وتحقّقت له من الانكسار مائة سلامة !

وكلّ جزء من هذا الإبريق في رقص ونشوة . لكنّ هذا قد بدا للعقل الجزئيّ محالاً .

وليس الإبريق ولا الماء بظاهر لك في هذه الحال . فتأمل جيّداً ، والله أعلم بالصواب .

٢٨٧٠ إنّك - حين تطرق باب المعنى يفتح لك . فاضرب بجناح الفكر لعلّك ، تصبح مَلِكاً للصقور !

لقد أصبح جناح فكرك ملوثاً بالطين ثقيلاً . ذلك لأنّك تأكل الطين ، وقد أصبح لك بمثابة الخبز !

إنّ الخبز واللحم طين (في أصلهما) ، فأقلل من أكلهما حتى لا تبقى عالقاً بالأرض مثل الطين .

---

(١) يشير الشاعر إلى حديث قدسي رواه الرسول ، نصه : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف». وقوله : « جعل الأرض أكثر إشراقاً من الأفلاك» ، إشارة لخلق آدم - أعظم مخلوقات الله - من ترابها ، وجعلها مقراً لبني الإنسان .

وأنت – حين تجوع تصبح كالكلب ، وتغدو ضاريا سيء الطبع ، خسيس العرق !

وحين تمتلىء بالطعام تصير كالميّت ، فلا تعي ولا تتحرك كأنّك حائط !

٢٨٧٥ فإذا كنت في لحظة ميّتاً ، وفي أخرى كلباً ، فأنّي لك أن تُحسن العدو في طريق الأسود ؟

ولتعلم أن الكلب إنما هو وسيلتك للصيد ، فلا تُلق إليه بكثير من العظام .

ذلك لأنّ الكلب – حين يشبع – يصير عنيداً ، فكيف يجري مندفعاً نحو الصيد الثمين ؟

وها هي ذي الفاقة قد اجتذبت هذا الأعرابيّ إلى هذه الحضرة ، فشهد تلك السعادة !

وقد ذكرنا في حكايتنا إحسان الملك إلى هذا المسكين الذي كان بلا ظهير .

٢٨٨٠ وما نطق العاشق بشيء إلا انطلقت رائحة العشق من فمه إلى مقام العشق .

فلو تحدّث في الفقه جاء كل حديثه زهداً ، وفاحت رائحة الزهد من حديثه العذب !

ولو نطق بالكفر ، فإنّ لكفره رائحة الدين ! ولو تكلم بالشكّ صار شكّه يقيناً !

فالزبد القبيح الذي يظهر فوق بحر الصدق ، ليس إلا ظلمة قد زانها أصلها الصافي !

فلتعلم أنّ هذا الزبد صاف ، ووجوده متوقّع . وما هو إلا كالشتم من شفة الحبيب .

٢٨٨٥ وهو الذي يغدو شتمه غير المطلوب ، حـلواً من أجل عارضه المحبوب !

فإنْ يقل (الصوفيُّ) قولا يَبْدُ مستقيماً . فما أعجب هذا العوج الذي يزين الاستقامة !

فلو أنـّك طبخت السكـّر على صورة الخبز ، يأتيك طعم القند – حين تتذوّقه – لا طعم الخبز .

ولو أن مؤمناً وجد صنماً من الذهب ، فكيف يتركه لعابد (من عبّاده) ؟

إنه ليأخذه ويُلقى به في النار ، ويحطم صورته المزيّفة !

٢٨٩٠ حتى لا يبقى في الذهب شكل الوثن ، ذلك لأنّ الصورة مانعة قاطعة للطريق !

إن ذاته الذهبية ذات ربانية . ومن الزيف تصوير الصنم على النقد الذهبي .

ولا تحرق بساطاً من جراء برغوث ، ولا تضع اليوم لانزعاجك من كل بعوضة .

إنك عابد للصنم لو بقيت أسير الصورة ! فدع صورة الصنم وانظر إلى الحقيقة !

فإذا كنت حاجّاً فاطلب لك رفيقاً من الحجّاج ، سواء أكان هندياً أو تركياً أو عربياً .

٢٨٩٥ ولا تنظر إلى صورته ولونه ، بل انظر إلى عزمه وقصده !

فلو كان أسود اللون فإن له ذات قصدك ، فسمّه أبيض فإنه شريكك في اللون !

إن هذه الحكاية قد ذُكرت بصورة مضطربة ، بلا بداية ولا نهاية كأنها شؤون العاشقين .

فلا بداية لها لأنها أسبق من الأزل ! ولا نهاية لها لأنها وثيقة القربى بالأبـد !

إنها كالماء ، كل قطرة منه رأس وقدم ، وهي في الوقت ذاته لا تملك أيّاً منهما .

٢٩٠٠ حاش لله ! مـا هذه بحكاية ، فتنبّه ! إنها نقد حالي وحالـك ، فأحسن تأملها !

إن الصوفيّ لا يذكر ما كان ماضياً ، لأنـه (دائماً) يكون في كرّ وفرّ !

ونحن الأعرابيّ ، ونحن الإبريق ، ونحن الملك أيضاً . وكلنا (يصدق عليه قوله تعالى) : « يؤفك عنه من أفك[1] » .

واعلم أن الزوج هو العقل ، وأنّ الزوجـة هي الحرص والطمع . وهذان مظلمان منكران ، وأما العقل فهو الشمع (المنير) .

فاستمع الآن إلى أصل الإنكار ، وكيف ظهر . (لقد ظهر) لأنّ للكل أجزاء متنوعة .

٢٩٠٥ والنسبة إلى الكل إنما هي (بقولك) « جزء الكل » ، لا أجزاء الكل . فليس الجزء (هنا) مثل عبير الوردة ، الذي لا جزء من الوردة .

فلطف الخضرة هو جزء من لطف الوردة . وشدو القمريّ جـزء من ذلك الطائر الغرّيد .

فإن أغد - (على هـذا النحو) - مشغولاً بإثارة المشكلات وتوضيحها ، فمتى أستطيع أن أُقدّم الماء للظماء[2] ؟

---

(١) إشارة لقوله تعالى : « إن ما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، والسماء ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ». (الذاريات ، ٥١ : ٤ - ٩).

(٢) لو ظللت على هذا النحو أثير المشكلات العقلية وأرد عليها وأوضحها ، فأي وقت يبقى لي لأقدّم المعاني الروحية لمن هم ظماء إلى الحقيقة .

فإن غمض عليك كل شيء ، وأحسست بالحرج ، فاصبر فإن الصبر
مفتاح الفرج .

ولتمارس الحِمْية من الأفكار[1] ، والامتناع عنها . إن الفكر هو
الأسد وحمار الوحش ، والقلوب هي الآجام .

٢٩١٠ إن الحمية رأس كل دواء . ذلك لأنّ الحك يزيد الجرب .

فمن اليقين أن الحميـــة أصل الدواء . فمارسها ثم انظر إلى قوة
روحـــك .

فليكن « قلبك » مثل الأذن ، متقبلاً هذه الأفكار ، حتى أصنع
لك قرطاً من الذهب[2] .

بل إنك تصبح قرطاً في أذن القمر الصائغ . ويرتفع (قدرك) إلى
القمر وإلى الثريّا !

فاعلم أولاً : أن البشر المختلفين قـــد اختلفت أرواحهم من الألف
إلى الياء .

٢٩١٥ وفي اختلاف الحروف قلق وشك مع أنها — من أحد الوجوه —
واحدة ، من البداية حتى النهاية[3] .

إنها متضادّة من وجه ، متحدة من وجــه آخر . وهي هزل من
جهة ، وجدّ من جهة أخرى[4] .

وفي يوم القيامة — يوم العرض الأكبر — يطلب العرض ذو العظمة
والجلال .

---

(١) المراد بالأفكار هنا الهواجس والوساوس ، وهي تصطرع في القلوب ، ويأكل بعضها بعضاً ، كما يفعل الأسد بحمار الوحش . (٢) في البيت جنـــاس بين كلمة « گوش وار » بمعنى (مثـــل الأذن) « گوش وار » بمعنى (قرط) . (٣) ان الحروف تمثل أصواتاً مختلفة ولكنها معاً متحدة الغاية ، فهي تشترك معاً في التعبير عن المعاني . وكذلك البشر مختلفون من بعض الوجوه في طبيعـــة نفوسهم ، ولكن البشرية تجمع بينهم . (٤) وكما أن بعض الحروف متنافر مع البعض الآخر ، والبعض متوافق مع البعض الآخر ، كذلك البشر .

فمن كان (أسود الوجه) كالهندي لسوء كسبه ، فإن يوم العرض هو أوان افتضاحه .
فما دام لا يملك وجهاً (مشرقاً) كالشمس ، فإنه لا يبتغي سوى ليل يكون له كالنقاب .

٢٩٢٠ وما دامت أشواكه لا تملك ورقة واحدة من الورد ، فقد صار الربيع عدوّاً لأسراره .
فأما من كان – مِنْ رأسه إلى قدميه – ورداً وسوسن ، فالربيع (حبيب إليه) كعينين مبصرتين !
إن الشوك الخاوي من المعنى يريد الخريف ويطلبه ، حتى يطاول بكتفيه بستان الورد !
فإن الخريف يحجب حسن هذا (الورد) ، وعار ذلك (الشوك) ، فلا ترى لون هذا ولا لون ذاك .
فالخريف للشوك ربيع وحياة ! إنه يظهر الحصى والياقوت النقيّ بصورة واحدة .

٢٩٢٥ والبستاني (وحده) يدرك ذلك حتى في الخريف . لكن إبصار الواحد خير من إبصار الدنيا !
ولو كان العالم هو ذلك الشخص وحده لكان عالماً أبله ! إن كل نجم من النجوم جزء من القمر !
ولهذا فإن كلّ نقش وكل صورة (بديعـــة) تهتف : « بشراناً ، بشراناً ! إن الربيع قادم ! »
وطالما بقيت البراعم ملتمعة (كحلقـــات) الدرع ، فكيف تظهر الثمار عقودها ؟
إن الثمار تبرز عندما تسقط البراعم . وكذلك ترفع الروح رأسهـا عندما يتحطم الجسد .

٢٩٣٠ إن الثمار هي المعنى ، والبراعم هي الصورة ! البراعم هي البشرى والثمار هي النعمة .

فحينما سقطت البراعم ظهرت الثمار . وجاءت زيادةُ هذه الثمار نتيجة لنقصان تلك البراعم .

وكيف يمنحُ القوة خبز لم يكسر ؟ أم كيف تعطي النبيذ عناقيد كرم لم تُعتصر .

وكيف يصبح الدواء مقوياً للصحة ، ما لم تُسحق معه الهليلة ؟

في صفة الشيخ المرشد ووجوب طاعته

يا ضياء الحق ، يا حسام الدين ! خذ ورقة أو ورقتين وزدهما على وصف الشيخ (المرشد) .

٢٩٣٥ فمع أن جسمك الرقيق ليس بذي قوة ، فإننا لا نور لنا بدون شمس (روحك) !

ومع أنك قد أصبحت المصباح والزجاجة ، فإنك أنت قائد القلب ، وأنت طرف الخيط !

فما دام طرف الخيط في كفك ، وعلى هواك ، فإن حبات عقد القلب من إنعامك .

فاكتب أحوال الشيخ العارف بالطريق ! واختر الشيخ ، واعلم أنه عين الطريق .

إن الشيخ مثل الصيف ، والناس مثل الخريف ! الشيخ مثل القمر والناس مثل الليل !

٢٩٤٠ لقد سميت بختي الشاب[١] شيخاً . وإنه لشيخ (بمعرفة) الحق لا بمر الزمان .

---

(١) البخت الشاب هو الحظ السعيد . وقد كنى بهذه العبارة عن تلميذه حسام الدين .

إنه شيخ إلى حد أنه لا ابتداء له . وهل هناك قرين للدر اليتيم ؟
والخمر المعتقة تكون أقوى أثراً ، كما أن الذهب القديم يكون أثمن قدراً .
فاختر لك شيخاً مرشداً ، فإن السفر بـــدون المرشد ، كثيراً ما يكون مليئاً بالآفات والمخاوف والأخطار .
وبدون الدليل ، تكون حائراً (حتى) في الطريق التي طرقتها مراراً .

٢٩٤٥ فحاذر ، ولا تمش وحيداً في الطريق التي لم ترها قط ! ولا تحوّل وجهك عن الدليل !
فإنك – أيها الأحمق – إن لم تستظل بظله ، يجعلك صوت الغول (جزعاً) دائر الرأس .
إن الغول يزجّ بك من الطريق إلى الهلاك ! فكثيرون يفوقونك في الدهاء كانوا من قبل بهذا الطريق[1] .
فاستمع إلى ما جاء في القرآن عن ضلال السالكين ، وماذا فعل بهم إبليس الخبيث الروح .
لقد دفعهم في طريق بعيدة عن الجـادة ، مداها آلاف السنين ، وجعلهم عوراً مدبرين .

٢٩٥٠ فانظر إلى عظامهم وشعرهم . والتمس العبرة ، ولا تسق حمارك نحوهم .
بل أمسك برقبة حمارك ، واجتذبه نحو الطريق . نحو الأخيار من حُرّاس الطريق والعارفين به .
حذار ! لا تَدَعْ الحمار ، ولا تُرفع يديك عنه ، ذلك لأنه يعشق الأرض التي يكثر فيها العشب .
فلو أنك غفلت عنه ، وتركته لحظة واحدة ، ، فإنه يمشي فراسخ نحو الأعشاب !

(١) كثيرون مروا بهذا الطريق من قبل – بدون دليل – فهلكوا .

إن الحمار عدوّ للطريق ، لأنه ثمل بالعلف ! فلكم أورد من راكب موارد التلف !

٢٩٥٥ فإذا لم تعرف ، فافعل عكس ما يريده الحمار ، يكن ذلك بحق قصد السبيل !

فشاوروهنّ ، ولكن خالفوهنّ (١) فإن من لم يعصهن مآله إلى التلف .

ولا تكن صديقاً (لداعي) الهوى والشهوة ، فإن ذلك يضلّك عن سبيل الله .

وليس كظل الرفاق شيء يغلب هذا الهوى في الدنيا .

كيف وصى رسول الله علياً كرم الله وجهه (قائلاً) : إن كل إنسان يتقرب إلى الحق بنوع من الطاعات ، فتقرب أنت إلى الحق بصحبة عاقل يكون عبداً من خواص العباد حتى تفوق الجميع

قال رسول الله لعليّ : « يا عليّ ! إنك أسد الله ، وإنك لبطل شجاع !

٢٩٦٠ ولكن لا تجعل كل اعتمادك على الشجاعة . بل التجىء إلى ظل نخيل الأمل .

التجىء إلى ظل ذلك العاقل ، الذي لا تستطيع قوة أن تحوله عن الطريق .

إن ظله على الأرض مثل جبل قــاف ، وروحه كالعنقاء المحلقة العالية الطواف .

(١) إشارة إلى حديث الرسول : « شاوروهن وخالفوهن » .

فلو أنني حدثتك عن نعته حتى القيامة ، فلا تتوقع لهذا الحديث نهاية ولا غاية .

إنه شمس قد اتخذت مظهر البشر ، فافهم ذلك . والله أعلم بالصواب .

٢٩٦٥ يا عليّ ! تخير من جملة طاعات الطريق ظل واحد من عباد الله !

فكل إنسان قد التجأ إلى إحدى الطاعات ، واتخذ له سبيلاً للنجاة .

فاذهب والتجىء إلى ظل عاقل ، حتى تخلص من ذلك العدو الذي يعاندك في الخفاء .

فهاك طاعة هي خير من جميع الطاعات ، وبها تفوز بالسبق على كل سابق !

وحين يقبلك الشيخ المرشد فتنبه ، واستسلم لأمره ، واسلك سلوك موسى وهو رهن حكم الخضر .

٢٩٧٠ واصبر – بدون نفاق – على كل ما يعمله الخضر ، حتى لا يأمرك بالذهاب قائلاً : « هذا فراق بيني وبينك[1] » .

فلو أنه خرق السفينة فلا تنبس بكلمة . وإذا قتل الطفل فلا تقتلع شعر رأسك .

لقد وصف الله يد (العبد المخلص) بأنها مثل يده حين قال : « يد الله فوق أيديهم[2] » .

إنّ يد الحق تميت (الطفل) ثم تحييه[3] . وأي حياة تضفيها عليه ؟ إنها تجعله روحاً خالداً !

والقلة النادرة التي عبرت هذا الطريق وحيدة ، أدركت (الغاية) بعون قلوب الشيوخ المرشدين .

٢٩٧٥ فيد الشيخ ليست بقاصرة عمن غابوا عنه . فما يده إلا يد الله عزّ وجلّ .

---

(١) (سورة الكهف ، ١٨ : ٧٨) . (٢) إشارة إلى قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم » . (سورة الفتح ، ٤٨ : ١٠) .

(٣) عاد الشاعر هنا للإشارة إلى قصة الخضر وقتله للطفل ، فقال إن الخضر قتله بيد الحق .

فإذا كان (الشيوخ) يهبون الغائبين مثل هـذه الخلع ، فلا شك أن الحاضرين أحسن حالاً عندهم .
وإذا كانوا يمنحون الغائبين هذا النوال ، فأية نعم يهبونها للحاضرين ؟
وأين من يكون خارج الباب ممن يمثل في خدمتهم .
فإذا اخترت الشيخ فلا تكن واهي القلب ، ولا تكن رخواً كالماء ولا منحلاً كالتراب !
٢٩٨٠ وإذا كانت كل ضربة تملؤك بالحقد ، فكيف تصبح – بدون صقل – مرآة (لامعة) ؟

كيف (طلب) رجل من قزوين ضرب صورة الأسد باللون الأزرق على كتفه ، وكيف ندم من جرّاء وخز الابرة

استمع من صاحب بيان إلى هذه الحكاية ، عن طريقة أهل قزوين وعاداتهم .
إنهم يضربون الوشم الأزرق بالإبرة على البدن واليدين والكتفين ، بدون (أن يصيبهم) ضرّ .
وذات مرة ذهب رجل من قزوين إلى أحد الدلاكين ، وقال له : « اضرب لي وشماً أزرق ، وأحْسِنْ تصويره » .
فقال الدلاك : « أية صورة أضرب أيها البطل ؟ » فقال الرجل : « اضرب صورة أسد هصور !
٢٩٨٥ إن طالعي (برج) الأسد ، فاضرب صورة الأسد ، وابـذل قصارى جهدك ، وضع الكثير من اللون الأزرق ! »
فقال الدلاك : « وعلى أي موضع أضرب الصورة ؟ » فقال الرجل : « اضرب هذه الصورة الجميلة على كتفي » .

فلما أخذ الدلاك يغرس الإبرة ، حلّ ألمُ الوخز بكتف الرجل ،
فأخذ البطل يئن قائلاً : « أيها العظيم ! لقد قتلتني فأية صورة تضرب ؟ »
فقال الدلاك : « لقد طلبت مني أسداً » . فقال الرجل : « فبأي
جزء من جسمه بدأت ؟ » .

٢٩٩٠ فأجاب الدلاك : « لقد بدأت بالذيل » ، فقال الرجل : « دعك
من الذيل يا حبيبي[1] !
لقد احتبست أنفاسي من ذيل الأسد وعجزه . إن عجزه قد أطبق
بإحكام على مجرى أنفاسي !
فليكن الأسد بدون ذيل ، يا صانـع الأسدُ ! لقد وهن قلبي من
ضربات إبرة الوشم » .
فأخذ الدلاك يضرب بإبرته جانباً آخر ، بدون مجاملة ولا مواساة
ولا رحمة .
فصاح الرجل : « أيّ عضو من الأسد ذلك ؟ » ، فأجاب الدلاك :
« إن هذه أُذنه ، أيها الرجل الطيب » .

٢٩٩٥ فقال الرجل : « لا كانت له أُذن أيها الحكيم ! ألا فلتقطع الأذن
ولتقصّر هذا البساط[2] » .
فبدأ الدلاك يخزه في جانب آخر ، وبدأ القزويني يصرخ من جديد .
وقال : « أي عضو ترسمه على هذا الجانب الثالث ؟ » فقال الدلاك :
« إن هذا بطنه ، أيها العزيز ! » .
فقال الرجل : « لا كانت للأسد بطن ! ما ضرورة البطن لصورة
متشبّعة باللون ؟ »
فذهل الدلاك ، وتولته حيرة عظيمة ، وظل برهة طويلة يعض بنانه .

٣٠٠٠ ثم ألقى هذا الأستاذ بإبرتـه على الأرض ، وقال : « هل جرى
هذا لأحد في العالم ؟

---

(١) حرفياً : يا عيني . (٢) لتختصر هذه الصورة ولا تَبْسُطها .

فمن ذا الذي رأى أسداً بدون ذيل ولا رأس ولا بطن ؟ إن الله ذاته لم يخلق أسداً كهذا ! »

فيا أخي ! صبر على وخز الإبرة ، حتى تنجو من وخز نفسك الكافرة .

فإن هذه الجماعة التي تخلصت من وجودها (الذاتي) يسجد لها الفلك والشمس والقمر !

وكل من ماتت في جسده النفس الكافرة ، تذعن لأمره الشمس والسحاب .

٣٠٠٥ فقلبه إذ تعلم إيقاد الشموع ، لا تبقى للشمس قدرة على إحراقه .

ولقد قال الحق عن الشمس المشرقة إنها كانت « تزّاور عن كهفهم[١] » .

إن الأشواك تصير كلها لطيفة كالورد أمام الجزئي الذي يتجه نحو الكل[٢] » .

فأي شيء يعنيه تعظيم الله وتمجيده ؟ أن تجعل النفس ذليلة (رخيصة) كالتراب .

وما معنى علم توحيد الله ؟ أن تحرق نفسك أمام الواحد !

٣٠١٠ فإذا كنت تريد أن تُشرق مثل النهار ، فأحرق كيانك (المظلم) كالليل .

واصهر وجودك في وجود راعي الوجود ، كما ينصهر النحاس في الإكسير .

إنك قد أحكمت قبضتك على « أنا » و « نحن » ، وما كل هذا الخراب إلا من التثنية[٣] .

---

(١) (سورة الكهف ، ١٨ : ١٧) . وفي قصة أهل الكهف أن الشمس إذا طلعت كانت تميل عن كهفهم ، ولا يقع شعاعها عليه ، وبذلك لم يكونوا يتأذون من حرارة الشمس . (٢) أي أن مصاعب الطريق التي يسير فيها السالك نحو خالقه تهون أمام الإخلاص فتصبح الأشواك وكأنها ورود .

(٣) التثنية هنا ، تأكيد الوجود الإنساني الى جانب الوجود الإلهي .

كيف توجه الذئب والثعلب إلى الصيد في معيّة الأسد

توجه أسد وذئب وثعلب إلى الجبال في طلب الصيد .

وذلك ليتعاون الجميع على إحكام قيد الصيد بالأغلال والقيود .

٣٠١٥ وحتى يمسك ثلاثتهم معاً بصيد كثير وافر ، في تلك البرية العميقة .

ومع أن صحبة الذئب والثعلب كانت عـاراً على الأسد الهصور ،

فإنه أكرمهما ، وأظهر مصاحبته لهما على الطريق .

فمثل هذا الملك يضيق بعسكره ، لكنه صاحبهما ، فالجماعة رحمة .

ومثل هذا القمر يرى العار في صحبة النجوم ، فما ظهوره بينها إلا سخاء منه وكرماً .

ولقد أمر الحق رسوله أن يشاور أصحابه [١] ، مع أنه لم يكن هناك رأي يقارن برأيه .

٣٠٢٠ إن الشعير أصبح في الميزان رفيقاً للذهب [٢] ، وما ذلك لأن الشعير صار جوهراً (ثميناً) كالذهب .

والروح قد صارت الآن رفيقة للجسم . (وبذلك) صار الكلب حارساً للباب برهة من الزمان [٣] .

فلما سعت هذه الجماعة نحو الجبل ، في ركاب الأسد ، ذي الأبهة والجـلال ،

نجحت أُمورها ، فوجدت ثوراً جبليّاً وتيساً وأرنباً سميناً .

---

(١) حرفياً : ولقد جاء إلى الرسول أمر « شاورهم » ، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » ، (آل عمران ، ٣ : ١٥٩) . (٢) كانت حبات الشعير هي وحدات الوزن التي يوزن بها الذهب . (٣) أي صار الجسم الخسيس حارساً للروح طوال إقامتها به .

وكل من يقتفي أثر الأسد المغوار ، لا ينقص عنده الشواء في الليل ولا في النهار .

٣٠٢٥ وحينما حملت الوحوش صيدها من الجبل إلى الغابة ، بعد أن جرّته قتيلاً جريحاً ، يسبح في الدماء ،

طمع الذئب والثعلب في أن تجري القسمة وفق عدل الملوك .

وصدم الأسد خيالُ الطمع بخاطر هذين ، ولكنه أدرك سند هذه الأطماع .

وكل من هو للأسرار أسد وأمير ، فإنه يعرف كل ما يخطر في الضمير .

فحاذر – أيها القلب المطبوع على التفكر – وصن نفسك من أية فكرة خبيثة في حضرته .

٣٠٣٠ فإنه يدركها ، ولكنه يسوق حماره صامتاً ، ويحجب وجهه عنك وراء بسماته .

فالأسد حين علم بما يخالجها من الوسواس ، لم يفصح عن ذلك ، ولزم نحوهما – حينذاك – جانب المراعاة والمداراة .

ولكنه حدّث نفسه (قائلاً) : « لأظهرن لكما ما تستحقان من جزاء ، أيها المتسولان الخسيسان !

أما كان رأيي يكفيكما ؟ أهكذا ظنكما بعطائي ؟

يا من عقلكما ورأيكما (مستمدان) من رأيي ، ومن هباتي ، التي ازدانت بها الدنيا !

٣٠٣٥ أية فكرة سوى (الخير) تحملها الصورة للمصور ، ما دام هو الذي أضفى عليها الفكر والمعنى ؟

أهكذا ظنكما الخسيس بي ، يا من أنتما عارٌ للزمن !

فلأطيحن برؤوس « الظانين بالله ظن السوء[1] » ، الذين هم كالمنافقين .

---

(١) (سورة الفتح ، ٤٨ : ٦) .

ولأخلصن الفلك من عاركما ، حتى تبقى قصتكما هذه (عـبرة) في الدنيا .

وبينما الأسد يقلب هذه الأفكار إذا به يضحك . فلا تركنن إلى بسمات الأسد !

٣٠٤٠ فالمال في هذه الدنيـــا صار مثل بسمات الحق ، فجعلنا سكارى مغرورين متهالكين .

والفقر والألم خير لك أيها السيد ، فبهما يقتلع هذا التبسم أشراكه[١] .

كيف امتحن الأسد الذئب قائلا : « تقدم أيها الذئب واقسم بيننا الصيد »

قال الأسد : « أيها الذئب ! قسّم هذا (الصيد) بيننا ، وجدد العدل ، أيها الذئب الهرم !

وكن في القسمة نائباً عني ، حتى يتبيّن لنا كنهُ جوهرك » .

فقال الذئب : « أيهــا الملك ! إن الثور الوحشي نصيبك ، فهو كبير ، وأنت كبير قوي سريع .

٣٠٤٥ أما التيس فإنه لي ، فهو متوسط الحجم . أما أنت أيها الثعلب فخذ الأرنب ، فما في ذلك من حيف » .

فقال الأسد : « أيها الذئب ! كيف تكلمت ؟ خـبرني ! أحينما أكون موجوداً ، تقول « نحن » و « أنت » ؟

فأيّ كلب يكون ذلك الذئب الذي أبصر ذاتـه في حضرة أسد مثلي ، لا شبيه له ولا نظير ؟ »

---

(١) لا يبقى للمال هذا السحر الذي يخدعك ويضلك .

وناداه قائلاً : « أقبل أيها الحمار الذي أبصر ذاته ! » . فلما دنا منه ضربه بمخالبه ومزّقه .

فالأسد إذ لم ير للذئب لبّاً رشيد التدبير ، عــاقبه فنزع جلده عن رأسه .

٣٠٥٠ وقال : « ما دامت رؤيتك لي لم تذهلك عن ذاتك ، فإن روحاً مثل روحك يجب أن تموت ذليلة !

ولما لم يتحقق لك الفناء في حضرتي ، فقد جــاء من الخير ضرب عنقك » .

« كل شيء هالك إلا وجهه[1] » ، فإن لم تكن في وجهه فلا تطلب وجوداً .

أما من تحقّق له الفناء في وجهنا ، فلا يكون « كل شيء هالك » جزاء له .

فإنه قد أصبح ضمن « إلا » وخلص من « لا » ، وكل من كان ضمن « إلا » فإنه لا يفنى .

٣٠٥٥ وأما كل من يطرق الباب ، « بأنا » و « نحن » ، فإنه يُردّ عن الباب ، ويعلق بالنفي والعدم .

---

(١) (سورة القصص ، ٢٨ : ٨٨) .

قصّة ذلك الشخص الذي طرق باب صديق فهتف الصديق مِنَ الداخل : « من بالباب ؟ » فقال : « أنا » ، فقال الصديق : « ما دمت أنت أنت فلن أفتح الباب ، لأني لا أعرف من الأصدقاء أحداً يقول : أنا »

قدم رجل وطرق باب صديق . فقال الصديق : « من أنت أيها المفضال ؟ »

فأجاب الرجل : « أنا » ، فقال الصديق : « اذهب فالوقت غير ملائم . وليس للغر مكان على مثل هذا الخوان !

وماذا يُنضج الغر سوى نار الهجر والفراق ؟ وأي شيء (سواها) يخلصه من النفاق ؟ »

فذهب هذا المسكين ، وقضى عاماً في السفر . فاحـــترق بشرر من فراق الحبيب .

٣٠٦٠ ونضج هذا المحترق فعاد ، ودار مرة ثانية حول منزل رفيقه .

ثم طرق البابَ بمزيد من التهيّب والأدب ، حتى لا تنطلق من بين شفتيه لفظةٌ خالية من الأدب .

فهتف صديقه قائـلاً : « من بالباب ؟ » فقال الرجل : « أنت بالباب ، يا مليك القلوب ! »

فقال الصديق : « الآن ما دمت أنت أنا ، فادخل يا أنا ! فالدار لا تتسع لاثنين كل منهما (يقول) : أنا » .

فالخيط المزدوج ليس (بملائم) لسمّ الخياط ، ومـا دمت مفرداً ، فلتدخل فيه !

٣٠٦٥ فإنّ للخيط ارتباطاً بالإبرة ، وليس سمّ الخياط على قياس الجمل .

وهل يصبح ضامراً بدنُ الجمل بدون مقراض الرياضات والعمل ؟

وقوة الحقّ ضرورية لذلك - أيها الرجل - فهي التي تقول لكلّ محال « كن » فيكون .

فكل محال يصير بقوتـه ممكناً ، وكل حرون يغدو من هيبتـه منقاداً طيّعاً .

فما الأكمه وما الأبرص ؟ بل وما الميّت أيضاً ؟ إنه يُبعث حياً بدعاء من ذلك (الرب) العزيز .

٣٠٧٠ وذلك العدم - الذي هو أوغل في الموت من الميّت - مُلزَم بالإجابة حين يدعوه إلى الوجود .

فاقرأ : « كل يوم هو في شأن[١] » ، واعلم أنه لا يكون قطّ بدون فعل أو عمل .

وأهون أعماله أنه يسيّر في كل يوم ثلاثة جيوش :

فجيش (يسير) من الأصلاب إلى الأمهات ، وذلك لكي ينبت في الرحم النبات .

وجيش من الأرحام (ينطلق) نحو الأرض ، حتى يحفل العالم بالذكور والإناث .

٣٠٧٥ وجيش من الأرض (يمضي) نحو الأجل ، حتى يشهد كل إنسان (جزاء) حسن العمل .

وليس لهذا الحديث نهاية ، فتنبّه ، وسارع ثانية إلى هذين الصديقين الطاهرين المخلصين .

صفة التوحيد

لقد قال الصديق لصديقه : « ادخل يا من أنت جملتي ! يا من لست مختلفاً عني كاختلاف ورد البستان وشوكه !

---

(١) (سورة الرحمن ، ٥٥ : ٢٩).

إن الخيط أصبح واحداً ، فـلا تخطىء الآن، إن رأيت الكاف والنون[1] حرفين مرتبطين .

إن حرفي الكاف والنون قد جاءا جاذبين كالوهق[2] ، فهما يجرّان العدم إلى عالم الخطوب .

٣٠٨٠ والوهق يجب أن يكون مزدوجاً في صورته ، مع أن هذا الازدواج (الصوريّ) يكون متوحّد الأثر .

والساقان وكذلك السيقان الأربع تقطع طريقاً واحداً . وكذلك المقراض[3] يكون ذا سلاحين ويقطع قطعاً واحداً .

وانظر كذلك إلى القصّارين[4] المتشاركين ، تجد – في الظاهر – خلافاً بين هذا وذاك .

فأحدهما قد ألقى بالثياب في الماء بينما الآخر يعمل على تجفيفها .

ويعود الأول فيبلل ما جفّ . فكأنما هو حاقد يعاند رفيقه .

٣٠٨٥ لكن هذين الضدين اللذين ظاهرهما العناد ، هما – بتراضيهما – قلب واحد ، وعمل واحد .

وكل نبي وكل ولي له سبيله (الخاص) لكنه يوصـله إلى الحق ، فالمسالك كلها واحدة .

لقد جرف الماء أحجار الطاحون حين سلب النعاس يقظة المستمع .

إن مجرى هذا الماء فوق الطاحون ، وما مروره بداخل الطاحون إلا من أجلكم .

فلما لم تعد هناك حاجة إلى الطاحون، عاد فساق الماء ثانية إلى النهر الأصلي.

---

(١) الكاف والنون هما الحرفان اللذان يتكون منهما فعل « كن » . (٢) حبل طرفه على صورة حلقة تطرح من بعيد على الحيوان الشارد للإمساك به . ذلك أن الحلقة إذا استقرت حول رقبة الحيوان أمكن جرّه بالحبـل . (٣) المقراض هو المقصّ . (٤) القصّار غاسل الثياب .

٣٠٩٠ إن القوة الناطقة تحلّ بالفم من أجل التعليم ، وإلا فإن لهذا النطق مجرى منفصلاً .
فهو ينطلق بدون صوت ولا تكرار إلى حدائق وردٍ « تجري من تحتها الانهار[١] » .
يا إلهي ! اكشف للروح ذلك المقام الذي ينبت الكلام فيه بدون حرف .
حتى ينطلق الروح الطاهر ساعياً على رأسه[٢] إلى رحاب العدم[٣] الفساح .
إنها رحاب ممتدة واسعة الأرجاء ، منها يغتذي خيالنا ووجودنا .
٣٠٩٥ والخيال أضيق من العدم ، ولهذا فهو باعث الهم ومسبب الأحزان .
والوجود أضيق من الخيال ، ولهذا تصبح الأقمار فيه مثل الأهلة .
أما الوجود المتجلي في عالم الحس واللون ، فهو أضيق من ذلك .
فهو ليس سوى سجن ضيّق .
وعلة ضيقه إنما هي من التركيب والعدد . فالحواس دائمة الاتجاه نحو التركيب .
فلتميز بين عالم التوحيد وبين جانب الحسّ . وإذا أردت التوحيد فامض نحو ذلك الجانب (الآخر) .
٣١٠٠ إن أمر « كن » ليس سوى فعل وقع في الكلام ، مركّب من الكاف والنون ، ولكن معناه هو الصفاء .
وليس لهذا الكلام نهاية ، فلترجع (لنرى) ما آلت اليه أحوال الذئب في صراعه .

---

(١) وردت هذه العبارة في آيات عديدة تصف الجنة . منها (٦٥ : ١١) ، (٦٦ : ٨) ، (٨٥ : ١١) . (٢) حرفياً : حتى يجعل الروح الطاهر من رأسه قدماً ويسعى .. (٣) العدم هنا هو العالم الغيبيّ الذي لا يتجلى للحواس ، عالم الروح المجرّد من ظواهر المحسوسات .

كيف أدّب الأسد الذئب لأنه أساء الأدب في القسمة

إنّ الأسد الرفيع الهامة قطع رأس الذئب ، حتى لا تبقى رئاستان ولا امتيازان .

فيا أيها الذئب الهرم ! ما دمت لم تكن كالميت أمام الأمير ، (فهاك معنى قوله تعالى) : « فانتقمنا منهم [1] » .

وبعد ذلك نظر الأسد إلى الثعلب وقال : « قسّم الصيد بيننا حتى نفطر ! »

٣١٠٥ فسجد الثعلب وقال : « إنّ هذا الثور السمين طعام إفطارك ، أيها الملك المختار !

وهذا التيس لغداء الملك المظفّر في منتصف النهار !

والأرنب أيضاً عشاء المليك ذي اللطف والكرم ، يتناوله إبّان المساء » .

فقال الأسد : « أيها الثعلب ! لقد أشعلت (مصباح) العدل ! ممن تعلّمت هذه القسمة ؟

وأين تعلمتها أيها العظيم ؟ » فقال الثعلب : « يا مليك العالم ! (لقد تعلمتُ) من مصير الذئب » .

٣١١٠ فقال الأسد : « الآن وقد أصبحت رهن عشقي ، فأمسك بالفرائس الثلاث ، وخذها واذهب !

أيها الثعلب ! ما دام كل وجودك قد أصبح لنا ، فكيف أوذيك ، وقد صارت ذاتك ذاتي !

إنني وجملة الصيد لك ، فضع قدمك على السماء السابعة ، وتسنّم علاهـــا !

---

(١) ورد ذكر الانتقام الإلهي في مواضع متعددة من القرآن ، ومنها قوله تعالى:« فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » . (٤٣ : ٢٥) .

فأنت عندي أسد ، ولست بثعلب ، ما دمتَ قد اعتبرت بذلك الذئب الدنيء !
فالعاقل هو الذي يعتبر بموت الأصحاب ، حين يحلّ البلاء المرتقب » .
٣١١٥فقال الثعلب : « مائة شكر وحمد لذلك الأسد ، لأنه دعاني بعد الذئب .
فلو أمرني بإجراء القسمة في أول الأمر ، فمن ذا الذي كان يخلّص منه روحي ؟ »
فشكراً لله الذي أوجدنا في الدنيا بعد الأولين .
فسمعنا بما أنزله الحق من عقاب بالقرون الماضية ، السابقة علينا .
حتى نزيد من مراقبتنا لأنفسنا ، متعظين كالثعلب بأحوال من سبقنا من الذئاب .
٣١٢٠فلهذا السبب وصفنا الرسول الحقّ الصادق البيان بأننا أمة مرحومة » .
فيا أيها الكبراء ! أنظروا عظام تلك الذئاب وجلودها واضحة للعيان ، وخذوا العبرة منها !
فالعاقل من طرح من رأسه هذا الغرور بالذات والاعتداد ، إذا ما استمع إلى مآل فرعون وعاد .
فإنْ لم يفعل فالآخرون يعتبرون بحاله ، (ومايؤول) إليه بضلاله .

كيف أنذر نوح قومه (قائلا) : أيها المخذولون ، لا تعاندوني فلست إلا حجاباً ، وما أنتم – في حقيقة الأمر – الا معاندين لله وراء هذا الحجاب

قال نوح : « أيها المعاندون ! ليس وجودي بمقصور على ذاتي . فأنا لست سوى نفس فانية ، ولكنّي حيّ بالحبيب !

٣١٢٥ وما دمتُ قد تخليّتُ عن حواسّ البشر[١] فقد أصبح الحقّ لي سمعاً وإدراكاً وبصراً .

وما دامت ذاتي لم تعُدْ ذاتي فإنّ أنفاسي منه . فكلٌّ من جابه هذه الأنفاس بأنفاسه فهو كافر » .

إنّ أسداً قد احتجب في صورة هذا الثعلب . فليس من الجــائز التجرؤ في مواجهته » .

وإنْ أنت لم تؤمن به من ناحية الصورة ، فإنك لن تسمع منه زئير الأسود .

ولو لم يكن نوح أسداً سرمدياً ، فلماذا استطاع أن يخرّب عالماً بأسره ؟

٣١٣٠ إنه كان آلافاً من الأسود في جسد واحد ! لقد كان مثل النار ، وكان العالمُ كالبيدر !

فلما لم يرع البيدرُ حقه في العُشْر ، فإنه أرسل عليه مثل هذه الشعلة .

فكلّ من فغر فاه بتوقّح أمام هــذا الأسد الخفيّ كما فعل ذلك الذئب[٢] ،

فإنه يمزّقه كما مزّق الأسد الذئب ، ويتلو عليه : « فانتقمنا منهم » .

فياله من أحمق ذلك الذي تجرّأ أمام الأسد ! إنه لمتلقّ من ضرباته قدر ما تلقاه ذلك الذئب .

٣١٣٥ وليت هذا الضرب اقتصر على الجسم ، حتى يسلم الإيمان ويسلم القلب .

إنّ قوتي قد وهنت حينما وصلت إلى هنا . ومن أين لي القدرة على أن أذيع هذا السر ؟

---

(١) حرفياً : « مادمت قد غدوت ميتاً عن حواس أبي البشر » . (٢) الذئب الذي ورد ذكره في القصة السالفة .

فأملوا بطونكم أمامه كما فعل ذلك الثعلب[1]، ولا تلعبوا أمامه لعبة الثعالب .
ودعوا في حضرته كل ما يتعلق «بنحن» و « أنا » . إنّ المُلك ملكه ، فأسلموا له الملك .
فإذا ما أقبلتم فقراء على الطريق السويّ ، فإنّ الأسد وصيده ملك لكم .
٣١٤٠ ذلك لأنه طاهر قدسي الصفات ، وليس به من حاجة إلى نُعمى ولا لُباب ولا قشور .
فكل ما يوجد من الصيد ومن الكرامات ، فهو من أجل عباد هذا المليك .
وهو لا مطمع له ، فقد صنع هذا الملك كله من أجل خلقه . فما أسعد من عرف !
وأيّ جدوى من ملك الممالك لمن خلق الملكوت ، وخلق الدنيا والآخرة ؟
فأحسنوا مراقبة قلوبكم في حضرته القدسيّة ، حتى لا تصبحوا من سوء ظنكم في خجل .
٣١٤٥ فإنّ السرّ والفكر والتدبير يتجلّى أمامه ، كما تتجلّى الشعرة في الحليب الصافي .
وكلّ من صفا صدره وخلا من الصور ، أصبح مرآة لصور الغيب !
فسرّنا يصبح عنده يقيناً لا شكّ فيه . ذلك لأنّ المؤمن مرآة للمؤمن .
فهو حين يضع زهدنا على المحكّ قادر على أنْ يعرف اليقين من الشكّ .
وما دامت روحه قد أصبحت محكاً (يختبر به) النقد ، فإنه يميّز القلوب (الصادقة من الزائفة) .

---

(١) الثعلب المذكور في القصة السالفة .

كيف يُجلس الملوكُ الصوفيّة العارفين
في مواجهتهم لتستضيء بهم أعين الملوك

٣١٥٠ إن للملوك مثل هذه العادة — ولعلّك قد سمعتَ بها ، لو أنك تذكر !

فالأبطال يقفون عن يسارهم . ذلك لأنّ القلب معلق في الجانب الأيسر (من الصدر) .

أما الوزير وأهل القلم فعن يمينهم . ذلك لأنّ اليد اليمنى صاحبة الخطّ والإثبات .

وهم يجعلون للصوفية مكان المواجهة . ذلك لأنهم مرآة الروح ، بل (هم لها) خير من المرآة .

لقد صقلوا صدورهم بالتفكر والذكر ، لتستطيع مرآة قلوبهم تقبل الصورة البكر .

٣١٥٥ وكل من ولد من صلب الفطرة جميلا ، فمن الواجب أنْ توضع المرآة أمامه .

فالوجه الجميل عاشق للمرآة ، وهو صيقل الأرواح (وموجب) تقوى القلوب .

كيف جاء ضيف لزيارة يوسف عليه السلام
وكيف طلب منه يوسف تحفة وهدية

إنّ صديقاً محبّاً أقبل من آفاق الأرض ، ونزل ضيفاً على يوسف الصدّيق .

لقد كانا صاحبين في عهد الطفولة ، وكانا معاً متكئين على وسادة المودة .

وذَكّر هذا الصديقُ يوسفَ بجور إخوته وحسدهم . فقال يوسف : « لقد كان هذا قيداً وكنتُ أسداً » .

٣١٦٠ولا عار على الأسد من القيد . ولا شكوى من قضاء الحق .

ومهما كبّلت عنق الأسد بالقيود ، فإنه يظلّ أميراً على كلّ من صنعوا هذه القيود ! » .

فقال الصديق : « وكيف كان حالك في السجن وفي البئر ؟ » فقال يوسف : « كنت كالقمر في المحاق ، وإبّان نقصانه » .

فإذا كان الهلال قد تقوّس في المحاق ، أفلا يغدو في العاقبة بدراً على السماء ؟

وحبّات اللؤلؤ لو أنها سُحِقت ، أفلا تكون نوراً للعين والقلب (وعونا) على بعد النظر [1] .

٣١٦٥إن حبّة القمح توضع تحت التراب ، فتصنع لها من هـذا التراب سنابل .

ومرة أخرى تُسحق بالطاحون ، فتزداد قيمتها وتغدو خبزاً يدعم الحياة .

ثم يمضغ الخبز بالأسنان ، فيصير للعاقل عقلاً وروحاً وفهماً !

وهذا الروح لو صار فانياً في العشق ، يصير بعد الزرع (نباتاً) « يعجب الزراع [2] »

ولا نهاية لهذا الكلام ، فعد (بنا لنرى) ما كان من حديث لهذا

---

(١) كان المعتقد أن الدرّ السحيق لو رُكّب مع العسل كان نوراً للعين ومبعثاً لسرور القلب . (٢) (سورة الفتح ، ٤٨ : ٢٩) . ومعنى البيت أن الروح لو فني في العشق واختلط به اختلاط الحبة بالتراب ، فإن هذا يجعله مثمراً كما تثمر البذور المغروسة في الأرض الطيبة .

الرجل الطيّب مع يوسف .

٣١٧٠ لقد قصّ يوسف قصّته ثم قال : « يا فلان ! ماذا أحضرت لي من الهدايا ؟ » .

إنّ القادم إلى باب أصدقائه بيد خاوية ، كالذاهب بدون قمح إلى الطاحون .

والله تعالى يقول للناس حين الحشر : أين هديّتكم من أجل يوم النشر ؟

لقد جئتمونا فرادى وبدون زاد ، في ذات الصورة التي خلقناكم عليها [١] .

ماذا حملتم في أيديكم من هدايا ليوم النشور ؟

٣١٧٥ أم أنكم لم تكونوا على أمل في البعث ، فبدا لكم ميعاد هذا اليوم باطلاً ؟

فهل أنت لجهلك – منكر كرم ضيافته ؟ إذن لن تنال من مطبخه سوى التراب والرماد !

وإن لم تكن منكراً ، فكيف تقصد باب هذا الحبيب ، وأنت خاوي اليدين ؟

فاقتصد مما تنفقه في النوم والطعام ، واحمل معك هدية لملاقاته .

كن قليل النوم مثل الذين كانوا قليلاً ما يهجعون ، وكن في الأسحار ممن يستغفرون [٢] .

٣١٨٠ وأقلل من الحركة مثل الجنين ، حتى توهب الحواسّ المبصرة .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » . (الأنعام ، ٦ : ٩٤) . (٢) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون » . (الذاريات ، ٥١ : ١٥ – ١٨) .

فإذا ما خرجت من هذا العالم الشبيه بالرحم ، فإنك تخرج من الأرض إلى رحاب واسعة .

واعلم أنّ الذين قالوا : « أرض الله واسعة » (كانوا يشيرون) إلى الرحاب التي دخلها الأولياء .

إنّ القلب لا يضيق بتلك الرحاب الفساح ، فهناك لا يصير النخيل المخضلّ ذابل الغصون .

إنك الآن حاملٌ عبء حواسّك ، ولهذا تغدو متعباً مرهقاً منقلب الرأس .

٣١٨٥ولما كنت في وقت النوم تصبح محمولاً لا حاملاً ، فإنّ الضنى يزول عنك ، وتغدو خالياً من الألم والعذاب .

واعلم أنّ حال النوم لا يعدو أنْ يكون تذوّقا (بسيطاً) أمام حال الأولياء ، حين يُحملون (إلى عالم الروح) .

والأولياء هم أصحاب الكهف ، أيها العنيد ! إنهم في قيام وتقلب ورقود [1].

والحقّ يقلبهم « ذات اليمين وذات الشمال » بدون وعيٍ منهم ولا تكلف في الفعال [2] .

وما « ذات اليمين » ؟ إنها الفعل الحسن ! وما «ذات الشمال» ؟ إنها أفعال البدن !

٣١٩٠وهذان النوعان من الفعل يصدران عن الأولياء بدون قصد ، كما ينبعث الصدى .

فإذا كان الصدى يسمعك الخير والشرّ . فإنّ ذات الجبل لا علم لها بأيّ منهما !

---

(١) ، (٢) في هذين البيتين إشارة إلى قصة أهل الكهف وقوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » . (الكهف ، ١٨ : ١٨) .

كيف قال الضيف ليوسف : « لقد حملت إليك مرآة أهديها إليك لتتذكرني كلما نظرت فيها ، ورأيت وجهك الجميل »

قال يوسف : « هيّا أعطني الهدية » . فتأوّه الضيف خجلا من مطالبة يوسف .

وقال : « لكم فتشت من أجلك عن الهدايا ، فما راقت عيني إحداها !

وكيف أحمل حبّة (من الذهب) إلى المنجم ؟ أم كيف أحمل قطرة (ماء) إلى بحر عمان ؟

٣١٩٥ولو أنني حملتُ إليك قلبي وروحي ، لكنت كحامل التمر إلى إلى هجر[1] .

فليس من حبة لا تكون بهذا المخزن إلا حسنك الذي هو أمر منقطع النظير .

ولقد رأيتُ من اللائق أن أحضر لك مرآة مضيئة كنور الصدر .

حتى ترى فيها وجهك الجميل ، يا من أنت كالشمس شمعة للسماء !

لقد أحضرت لك مرآة أيها النور ، لتذكرني كلما رأيت وجهك » .

٣٢٠٠وسحب مرآة كان يتأبطها . إنّ الجميل لذو تعلق بالمرآة .

فما هي مرآة الوجود ؟ إنها العدم ! فإن لم تكن أحمق فاحمل العدم (ليكون هدية اللقاء) [2] .

فالوجود لا يمكن إظهاره إلا بالعدم . كالغنيّ لا يظهر جوده إلا الفقير[3] .

والجائع هو المرآة الصافية للخبز ، كما أنّ الوقود مرآة الزناد .

---

(١) حرفياً : « لكنت كحامل الكمون إلى كرمان » .

(٢) إن لم تكن أحمق فلتكن هديتك من الطاعات التي تحملها معك يوم النشور إفناء الذات أمام الخالق . (٣) حرفياً : « فالأغنياء يجودون على الفقراء » .

وحيثما ظهر النقصان والعدم ، كانا مرآة الجمال لكلّ فنّ وحرفة .

٣٢٠٥ وكيف يظهر فنُّ الحائك إذا (قدّمت له) ثوباً نظيفاً جيّد الحياكة ؟

وجذوع (الأشجار) يجب ألا تكون محفورة ، ولا مُشكّلة ، حتى يشكّل النجّار الأصلِ والفروع [1] .

وطبيب العظام يذهب إلى حيث تكون الساق المنكسرة .

وكيف يتضح جمال صناعة الطبّ ، حين لا يكون هناك مريض عليل ؟

ومتى كان الإكسير يظهر ، لو لم تذع بين الناس خسّة النحاس وضعته ؟

٣٢١٠ إن النقائص هي المرآة التي تجلو صفات الكمال . كما أنّ الحقارة مرآة العزّة والجلال .

ذلك لأنّ الضدّ يظهر ضدّه يقيناً . فالعسل — إلى جانب الخلّ — بيّنُ الحلاوة .

فكلّ من رأى نقص ذاته وعرفه ، فقد انطلق بجوادين نحو استكمالها .

وليس ينطلق محلّقاً نحو ذي الجلال ، من توهّم ذاته مفعمة بالكمال .

فيا أيها المُدِلُّ بذاته ! إنّ الروح لا تصاب بعلة أسوأ من توهّم الكمال !

٣٢١٥ فلا بدّ من أنْ يفيض قلبك وعيناك بدم كثير حتى يخرج منك هذا العُجْب .

لقد كانت علّةُ إبليس (في قوله) أنا خير (من آدم) . وهذه العلّة كائنة في نفس كلّ إنسان .

فإنْ كان المرء يرى نفسه شديد الانكسار ، فاعلم أنّ هذا هو الماء الصافي الذي يكمن البعر تحته في قاع النهر [2] .

---

(١) يجب أن يقدم الخشب للنجار في صورته الطبيعية حتى يقوم بتشكيله واستخدامه على الوجه الذي يراه والصورة التي يرتضيها فنه . (٢) اعلم أن هذا التواضع الذي يظهر عند بعض الناس قد لا يكون أكثر من مظهر خارجي ، كماء النهر يبدو صافياً ، ولكنه يخفي تحته ما كمن في قاع النهر من أقذار .

فإذا أثارك أحد – على سبيل الامتحان – صار لون الماء في الحال كلون البعر[١] !
إنّ البعر (كامن) في قاع النهر – أيها الفتى – مع أنـّه يبدو لك من السطح صافي الماء !
٣٢٢٠ والشيخ الحاذق الفطن ، العارف بالطريق ، هو الذي يطهّر أنهار النفوس والأبدان [٢] .
فهل يستطيع ماء النهر أنْ يطهِّر البعر ؟ أم هل يستطيع علم المرء أنْ يزيح جهالة نفسه ؟
وهل في إمكان السيف أن يصوغ قبضته ؟ ألا فاذهب واعهد بجرحك هذا إلى جرّاح !
إن الذباب ليجتمع فوق كل الجراح ؛ وإذ ذاك لا يرى قبح جرحه أحد .
وهذا الذباب ليس سوى هواجسك وحالك ، وأما جرحك فهو ظلمة أحوال روحك !
٣٢٢٥ فلو أن الشيخ وضع فوق جرحك هذا مرهماً ، لسكن – في الحال – هذا الألم والنحيب ،
حتى أنك تحسب أن الجرح قد التأم ، (وماذاك إلا) شعاع المرهم وقد لمع فوق الجرح .
فلا تُعرض عن المرهم ، أيها الجريح الظهر ! واعلم أنّ (الشفاء) من شعاع المرهم ، وليس من جوهر ذاتك !

---

(١) فإذا أثارك أحد زال عنك في الحال هذا التواضع والرقة السطحية ، وظهرت في الحال على حقيقتك . (٢) هنا يعود الشاعر إلى الحديث عن ضرورة الشيخ المرشد لتربية المريد .

كيف ارتد كاتب الوحي لأن شعاع الوحي تجلى عليه بإحدى الآيات قبل أن يتلوها الرسول عليه السلام ، فقال : « وأنا أيضاً ينزل عليّ الوحي »

كان للوحي كاتب قبل عثمان . وكثيراً ما أظهر الجد في كتابة الوحي .
فبينما كان الرسول ينطق بالوحي ، كان هذا يسارع فيسجله على الورق .
٣٢٣٠ وكان شعاع هذا الوحي يشرق عليـــه — وإذ ذاك كانت تتجلى الحكمة في باطنه .
(وحدث) أن الرسول كان يملي هذه الحكمة ذاتها . فبهذا القدر
(من الحكمة التي تجلّت له) ضلّ هذا الفضولي .
(فحدّث نفسه قائلاً) : إن هذا الذي ينطق به الرسول المستنير ،
قد تجلّت لي حقيقته في الضمير ! »
وانكشف شعاع تفكيره للرسول ، وحل قهر الحقّ بروح هذا الكاتب .
فترك النسخ وخرج عن الدين ، وصار عدواً مرّ العداوة للمصطفى ودينه .
٣٢٣٥ — فقال المصطفى : « أيها الكافر العنيد ! لو أنّ النور كان منك فكيف أصبحت مظلماً ؟
إنك لو كنت ينبوعاً إلهياً لما فاضت منك هذه المياه السوداء ! »
ولقد أغلق هذا المغرور فمه ، حتى لا يتحطّم غروره أمام هذا وذاك !
لقد أظلم باطنه ، ولهذا لم يستطع أنْ يتوب . فياله من عجب !
وكان يتأوّه ، ولكن التأوّه لم يُجـدِه نفعاً ، حين جاء السيف واحتزّ رأسه .
٣٢٤٠ إن الله قد جعل الغرور (قيداً يزن) مائة منّ من الحديد . وكم هناك من مقيّد بهذا القيد الخفي !
فالكبرياء والكفر يغلقان الطريق على هذه الصورة ، فلا يستطيع المذنب أن يتأوه (ندماً) .

قال تعالى : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ، فهي إلى الأذقان فهم مقمحون[1] » . وليست هذه الأغلال مما يقيّد ظاهرنا .

(وقال أيضاً) : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون[2] » ، وهذا الأعمى لا يبصر السد وراءه ولا أمامه !

فهذا السد الذي قام ، قد اتخذ صورة الصحراء ، (ولهذا) فإنه لا يعلم أن السد (الذي يواجهه) إنما هو سدّ القضاء[3] .

٣٢٤٥ إن محبوبك (الصوري) سدّ يحجب وجه محبوبك (الروحي) ، ومرشدك (الحسّيّ) سد أمام حديث مرشدك (الروحي) .

وكم من كافر مولع بالدين ، ومـا صدّه عنه إلا الغرور والكبر ، وما شابههما .

فهذا قيد خفيّ ، ولكنه أقوى من الحديد ، فقيد الحديد تحطمه الفأس .

وقيد الحديد من المستطاع إبعاده ، وأمـا القيد الغيبي فلا يعرف أحد له دواء .

فلو أن المرء لدغه زنبور بإبرته ، فإنه يخرج من جسمه إبرة هذا الزنبور .

٣٢٥٠ أما إذا كان وخز الإبرة من وجودك ذاته ، فإن الهم يكون قوياً والألم لا يهون !

إن شرح هذه (الأمور) يتوثب من صدري ، ولكني أخشى أن يصبح باعثاً على اليأس .

---

(١) (سورة يس ، ٣٦ : ٨). ولفظة مقمحون ، في الآية ، معناها : « رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم» . (٢) (سورة يس ، ٣٦ : ٩) . (٣) إن مثل هذا السد معنوي ، لا يبدو لعينيه حسياً كالسدود التي يعرفها . الأرض أمامه منبسطة كالصحراء ومع ذلك فإنه لا يرى . الأمور سهلة ميسورة الفهم ومع ذلك يستعصي عليه الفهم لأن سداً نفسياً يقف حائلاً بينه وبين ذلك .

لا ! لا تكن يائساً ، بل كن سعيد النفس . واهتف باستغاثتك أمام هذا المغيث !

(قائلاً) : « يا محبّ العفو ! اعف عنا ، أيها المداوي لعناء جرحنا القديم ! »

إن خيال الحكمة أضلّ ذلك الشقي[1] . فلا تكن مغروراً وإلا جعل منك غباراً سحيقاً .

٣٢٥٥ أيها الأخ ! إن الحكمه منطلقة إليك . وإنها من الأبدال عارية لديك .

إن المنزل[2] لو رأى النور يعم أرجاءه ، فإن هذا النور قد أشرق عليه من جار منير .

فكن شاكراً ، ودع خداع النفس ، ولا تشمخ بأنفك ! وأحسن الإنصات ، ولا تُصَبْ قطّ بالغرور !

فوا أسفاه ! وا أسفاه مائة مرة ، أنّ هذا (الأمر) العارض[3] قد دفع الأمم بعيداً عن الوحدة .

إنني لعبد لهذا الذي لا يعدّ نفسه — في كل رباط — واصلاً إلى السماط[4] .

٣٢٦٠ وما أكثر الربط التي لا بدّ للمرء أن يمرّ بها ، حتى يصل — ذات يوم — إلى مسكنه[5] .

إنّ الحديد — وإنْ أصبح أحمر اللون — فليست الحمرة لونه ، وما شعاعه إلا عارية من نار تصليه .

---

(١) الإشارة هنا إلى كاتب الوحي الذي ارتد . (٢) يرمز بالمنزل هنا إلى قلب الإنسان أو باطنه .

(٣) الغرور. (٤) يقول الشاعر إنه عبد لذلك الرجل المتواضع الذي لا يعتبر نفسه واصلا إلى الحقّ في كل مرحلة من مراحل تطوره الروحي . (٥) ما أكثر المراحل الروحية التي يمر بها الإنسان حتى يتحقق له الوصول .

وإذا امتلأت بالنور نافذة أو دار ، فكنْ على يقين أنه ليس من مضيء سوى الشمس !

فكلّ حائط وكل باب يقول : « إنني مضيء (بذاتي) ولست مستعيراً نور غيري ، بل ذلك نوري !

فتقول له الشمس : « أيها الخالي من الرشد ! إنّ الأمر سيتضح لك حين أغيب » .

٣٢٦٥ والنبات الأخضر يقول : « إنني أخضر بنفسي ! إنني سعيد ضاحك سامق منذ القدم » .

فيقول فصل الصيف : « يا أمم النبات ! سترون أنفسكم حين أذهب ! »

إنّ الجسم يتيه بحسنه وجماله ، أما الروح فقد أخفى جـــلاله ، وقوادمه وخوافيه .

يقول للجسم : « من أنت أيها المزبلة ؟ إنك تعيش بأشعتي يوماً أو يومين !

والعالم لا يتسع لغنجك ودلالك ! (لكن) مهلاً حتى أفلت منك !

٣٢٧٠ فالذين أدفؤوك (بالحبّ) سيحفرون لك قبراً ، ويجعلونك طعمة للنمل والزواحف !

وذلك الذي كثيراً ما قتله عشقك ، سوف يسدّ أنفه من رائحتك المنتنة !

إنّ أشعة الروح هي النطق والعين والأذن ، كما أنّ أشعة النـــار تكون في غليان الماء .

وكما (تشرق) أشعة الروح على الجسد ، فإنّ أشعة الأبدال (تشرق) على روحي .

فإذا ما فارق الروحَ روحُ الروح ، فاعلم أنه يصير مثل جسد بلا روح .

٣٢٧٥ ولهذا السبب أضع رأسي على الأرض (خاشعاً) ، حتى تكون الأرض شاهدي يوم الدين .

ففي يوم الدين – حين تزلزل الأرض زلزالها – تكون هي الشاهد على أحوالها [1] .

فإنها « يومئذ تحدث أخبارها [2] » فينطق بالقول التراب والأحجار .

والمتفلسف منكر لهذا بفكره وظنّه . فقل له : « اذهب ، واضرب برأسك هذا الحائط » .

إنّ نطق الماء ، ونطق التراب والطين ، كل أولئك مما تدركه حواسّ أهل القلوب !

٣٢٨٠ والمتفلسف ، الذي ينكر الجذع الحنّان [3] غريب عن حواسّ أهل القلوب .

إنه يقول إنّ أشعة أحزان البشر تلقي في أذهانهم بكثير من الأوهام .

بل الأمر على عكس فساده وكفره . فإنّ خياله الجاحد قد أثّر فيه .

إنّ المتفلسف ينكر الشيطان ، وهو في الوقت ذاته مُسَخَّر للشيطان !

فإنْ لم تكن قد رأيت الشيطان ، فانظر إلى نفسك . إنّ زرقة الجبين لا تكون بدون جنون .

٣٢٨٥ وكلّ من كان في قلبه شك والتواء ، فهو في هذا العالم فيلسوف مستتر ؟

إنه يتظاهر بالاعتقاد ، لكنّ عرق الفلسفة يسوّد وجهه بين حين وآخر !

فحذار أيها المؤمنون ، فإنّ هذا (العرق) كامن فيكم ، كما أنّ بكم عوالم كثيرة لا تحدّ !

---

(١) ، (٢) إشارة إلى قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها » . (٩٩ : ١ – ٤) .

(٣) إشارة إلى قصة سبق ورودها في المثنوي (انظر الأبيات ٢١١٣ – ٢١٢٠) .

وفيكم جملة الملل الإثنتين والسبعين[1] ، فواهاً لو أنها تمكنت منكم ذات يوم !
فكل من كان له نصيب من الإيمان ، فإنه يرتعد من خوف هذا (الشك) ، كورقة الشجر .

٣٢٩٠ إنك قد سخرت من إبليس والشيطان ، لأنك رأيت نفسك رجلاً طيّباً .
ولو أن نفسك أظهرت دخيلتها[2] فكم من صيحة استنكار تنتزعها من أهل الدين !
ففي الدكان يضحك كل ما اتخذ مظهر الذهب[3] ، ذلك لأن محك الامتحان يكون مختفياً .
فلا تكشف سترنا ، أيها الستّار ! وكن لنا مجيراً يوم الامتحان .
إنّ النقد الزائف ليطاول الذهب في جنح الدجى ، فينتظر الذهب النهار .

٣٢٩٥ ويقول له الذهب بلسان الحال : « مهلاً — أيها المزوّر — حتى ينبثق النهار ! » .
إن إبليس اللعين كان من الأبدال آلاف السنين ، بل إنه كان أمير المؤمنين !
فسوّل له غروره أنْ يضرب بقبضته آدم ، فافتضح كما يفتضح البعر في وقت الضحى .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي ينسب إلى الرسول أنه قال إن الأمة تنقسم من بعده إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهو حديث مشهور يكثر ذكره في كتب الفرق . والاثنتان وسبعون ملة التي ذكرها الشاعر هي الفرق الهالكة . (انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص ٢١) .

(٢) حرفياً : « ولو أن نفسك قلبت ثوبها » . (٣) أي أن المعادن الشبيهة بالذهب ، المعروضة في الدكان ، تبتسم ما دام المحك بعيداً عنها ، فتخدع الناس ببريقها .

كيف دعا بلعم بن باعور الله (قائلا) « يا رب ! ردّ موسى وقومه بدون مرادهم عن تلك البلدة التي حاصروها »

إنّ أبناء الدنيا خضعوا لبلعم بن باعور[1] ، فقد كان كعيسى في زمانه .
فما سجد الناس لأحد سواه . وكان سحره (يردّ) الصحة للمريض !
٣٣٠٠ وقد دفعه الكبر والكمال إلى التهجّم على موسى ، فكان أن صار
حاله إلى مثل ما سمعتَ به !
وكم في الدنيا من ألوف مثل إبليس وبلعم ، سواء منهم من كان
ظاهراً أو مستتراً .
وقد صيّر الله هذين مشتهرين ، ليكونا شاهدين على الآخرين .
لقد علّق هذين اللصين فوق مشنقة عالية ، ولولا ذلك لحلّ قهرُه
بكثير من اللصوص[2] .
لقد جرّ هذين من شعرهما نحو المدينة (مشهّراً بهما) . (ولولا
ذلك) ما استطاع أحد أن يحصي صرعى غضب الله .

---

(١) كان بلعم بن باعوراء أحد علماء بني إسرائيل . وقد ورد ذكره في تفسير قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » . (الأعراف ، ٧ : ١٧٥) . قال بعض المفسرين إن المقصود هنا هو بلعم بن باعوراء الذي دعا على موسى فأوقعه في التيه . فلما سأل موسى ربه عن سبب وقوعه في التيه ، أجابه إن ذلك كان بدعاء بلعم . فقال موسى : « اللهم كما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه » ، فخرجت الحكمة من صدره كحمامة بيضاء . وهناك صور أخرى لهذه القصة عن ابن مسعود وابن عباس في تفسير الطبري وغيره .

(٢) أي أن إبليس وبلعم عوقبا بصورة علنية فاشتهر أمرهما ، ولولا ما اشتهر من هذه العقوبة ، لوقع في الإثم كثيرون من أمثالهم ، ولكن العظة المستفادة من عقوبة كل من إبليس وبلعم كانت رادعاً للكثيرين .

٣٣٠٥إنك وليّ مدلّل في حدودك . فاتّق الله ، ولا تتجاوز حدودك !
فإنْ طعنت في من هو أكثر منك دلالاً ، أنزلك الله إلى حضيض الأرض السابعة !
وما جدوى قصة عاد وثمود ؟ لتعلم أن للأنبياء حظوة (عند الله) .
فهذه العلامات من خسف وقذف وصواعق ، جاءت بياناً لعزّة النفس الناطقة .
فاقتل جميع الحيوانات من أجل الإنسان . واقتل كل البشر من أجل العقل .
٣٣١٠فما العقل (الكلّي) ؟ إنه ذهن كل عاقل . والعقل الجزئيّ يكون عقلاً (أيضاً) ، ولكنّه ضعيف .
إنّ جميع الحيوانات المستوحشة من الإنسان أقلّ قيمة من الحيوانات المستأنسة
فهي إذ لم تجيء قابلة (مسخّرة) لأعمال الإنسان ، فإنّ دماءها حلال له .
لقد سقطت عزّة هذه الوحوش ، لأنها جاءت مخالفة للإنسان .
وأيّ عزة تبقى – يا نادرة الزمان – إذا أصبحت كالحمر المستنفرة [1] ؟
٣٣١٥فالحمار لا يجوز قتله لأنه نافع ، فإذا أصبح وحشيّاً فدمه مباح .
ومع أنّ الحمار ليس له علم يردعه ، فإنه لا يلقى عند الودود عذراً [2].
فإذا استوحش الإنسان (ونفر) من تلك الكلمة [3] ، فكيف يكون معذوراً ، أيها الرفيق النبيل ؟

---

(١) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : « كأنهم حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة » . (المدثر ، ٧٤ : ٥٠ – ٥١) . وهذه الآية تصف الكفار الذين يهربون من سماع كلام الله كأنهم حمير نافرة ، فرّت من أسد يطاردها .
(٢) إن الحمار الأهلي إذا انقلب وحشياً حل بذلك قتله . هذا مع أن الحمار لا عقل له يردعه ويجعله مختاراً فيما يعمل . (٣) الدعوة الإلهية .

فلا جرم أنّ دماء الكفار أصبحت – كدماء الوحوش – مباحة للسهام والرماح .

ونساؤهم وأولادهم كلّهم سبيٌ حلال ، ذلك لأنهم مستوحشون نافرون من العقل الجليل .

٣٣٢٠ فالعقل الذي يفرّ من عقل العقول ، ينتقل من مرتبة التعقل إلى مرتبة الحيوان .

كيف اعتمد هاروت وماروت على ما كان لهما من عصمة وطلبا الاختلاط بأهل الدنيا فافتتنا

مثل هاروت وماروت الشهيرين ، اللذين أصابهما البطر بسهم مسموم .

لقد كانا معتمدين على مالهما من قداسة . وأيّ اعتماد للجاموس على الأسد [1] ؟

فهو يحتال في النطاح بمائة طريقة – ومع ذلك يمزّقه الأسد الضاري إرباً إرباً .

ولو صار مكسواً بالقرون كأنه قنفد ، فإن الأسد لا محالة قاتله !

٣٣٢٥ إنّ الريح الصرصر تقتلع الكثير من الأشجار ، وهي – مع ذلك – تبث النضرة في جميع الأعشاب .

فهذه الريح العاتية ترحم ضعف الأعشاب ، فلا تكن مزهوّاً بقوتك أيها القلب !

وهل تخاف الفأس من كثافة أغصان الشجرة ؟ إنها تحيلها قطعاً مبدّدة .

---

(١) إذا اغتر الإنسان بنفسه ، وظن نفسه مقدّساً معصوماً ، لم ينفعه ذلك أمام جموح الشهوات . فالشهوة تقضي على التدين الغافل ، كما يفترس الأسد الجاموس .

لكنها لا تلقي بثقلها فوق إحدى الأوراق . فحدّها ليس يدق إلا حدّاً (صلبا) .

وأيّ خوف للشعلة من كومة الحطب ؟ ومتى يفرّ القصّاب من قطيع الغنم ؟

٣٣٣٠فما الصورة أمام المعنى ؟ إنها لضعيفة واهية ! وما جعل الفلك منقلباً منكّساً[١] سوى معناه .

فاتخذ من الفلك الدوّار قياساً ! فمن ذا الذي يديره ؟ إنه العقل المدبر !

يابنيّ ! إن الروح المستتر هو الذي يدير هذا الجسم ، الذي هو شبيه بالدرع .

وأما دوران هذه الريح .فمن معناها . فهي مثل العجلة التي تكون أسيرة لماء النهر .

وهذا الجرّ والمدّ ، ودخول هذا النَفَس وخروجه ، مَنْ الباعث عليه ، سوى هذا الروح المفعم بالحماس !

٣٣٣٥وهو حيناً يجعل (هذا النَفَس) « جيماً » وحيناً « حاء » وحيناً « دالاً [٢] » . وحيناً يجعله صلحاً وحيناً جدالاً .

وهكذا كان الله قد أطلق هذه الريح كالتنّين على قوم عاد !

ولكنه جعل الريح ذاتها سلاماً على المؤمنين ورعاية وأمناً !

لقد قال شيخ الدين : « إنّ الله هو المعنى . بل إن ربّ العالمين بحر المعاني ! »

فكل طباق الأرض والسماء ، ليست سوى قش في ذلك البحر الفيّاض.

٣٣٤٠وتدافع القش ورقصه فوق الماء ، إنما يجيء من الماء حين يجيش .

فإذا أراد الماء أنّ يكون هذا القش ساكناً لا يماري ، فإنه يلقي به فوق الساحل .

---

(١) شبّه الفلك بإناء مقلوب . (٢) الحروف المذكورة في الشطر الأول من البيت هي التي يتكون منها الفعل « جحد » .

وحينما يجذبه من الساحل إلى منطلق الأمواج ، فإنه يفعل به ماتفعله الريح الصرصر بالعشب .

وليس لهـــذا الحديث نهاية ، أيها الفتى ! فلنتسرع ثانية نحو قصة هاروت وماروت !

بقية قصة هاروت وماروت وكيف حلت بهما العقوبة والنكال بهذه الدنيا في بئر بابل

حينما أصبحت آثام أهل الدنيا ومعاصيهم ظاهرة لهذين من نافــذة (السماء) .

٣٣٤٥ أخذا – من الغضب – يعضّان على أيديهما ، ولكنّهما لم يبصرا عيبهما .

(فهما مثل) رجل قبيح رأى وجهه في المرآة ، فغضب وحوّل وجهه عنها !

والمغرور إذا رأى شخصاً يرتكب أحدَ الذنوب شبّت بنفسه نار مثل نار جهنّم .

وهو يسمّي هـــذا الكبر حميّة دينيّة ولا يبصر في ذاته النفس المتكبرة .

فحميّة الدين لها ظواهر أخرى . إنّ العالم مخضلّ بنار تلك الحميّة !

٣٣٥٠ ولقد قـــال الحق لهما : إنْ كنتما من النور فلا تنظرا إلى سواد فعل (هؤلاء) الغافلين !

يا جنود السماء وخُدّامها ! كونوا لله شاكرين ، لأنــكم قد نجوتم من الشهوة والفرج .

فلو أنني ركّبت فيكم هذه الطبيعة ، لما بقي لـكم مكان في السماء[1].

---

(١) حرفياً : « لما بقيت السماء متقبلة لـكم » .

فهذه العصمة التي بأجسامكم ، إنما هي ظلّ لعصمتي وحفظي .
حذار ، حذار ! واعلموا أنّ تلك العصمة مني لا منكم حتى لا يغلبكم الشيطان اللعين .

٣٣٥٥ فهكذا كان كاتب وحي الرسول ، الذي أبصر في ذاته الحكمة والنور الأصيل .
لقد حسب نفسه قريناً لطيور الله في ألحانها ، وما كان لحنه إلا صفيراً كالصدى !
فإنْ أنت غدوت مقلّداً ألحان الطيور ، فأنّى لك أن تكون واقفاً على مرادها ؟
وإنْ أنت تعلّمت صفير البلبل ، فأنّى لك أنْ تعرف ماذا يحمل للوردة (من شعور) ؟
وحتى لو عرفت ، فما ذلك إلا من قبيل القياس والظنّ . كما يكون الحدس للصمّ من تحرك الشفاه .

قصة الأصمّ الذي ذهب ليعود جاره المريض

٣٣٦٠ قال أحد الفضلاء لذلك الأصمّ : « إن جارك مريض » .
فحدّث الأصمّ نفسه ، قائلاً : « ما الذي سأسمعه بهاتين الأذنين الكبيرتين من كلام ذلك الشاب ؟
وخاصّة أنه مريض ، وقد ضعف صوته ! لكنّ واجبي أنْ أذهب ، ما من ذلك بدّ !
وحينما أرى شفتيه تتحركان ، أقيس حالهما على حالي .
فإذا قلت له : « كيف حالك أيها (الصديق) الممتحن ؟ » فإنه سيقول : « حالي طيّب أو حسن ! »

٣٣٦٥ فأقول له : « شكراً لله ! وأيّ غذاء تتناول ؟ » فيقول : « شراباً أو عدساً » .
فأقول له : « شراب هنيء ! ومن من الأطباء يعودك ؟ » فيقول : « فلان » .
فأقول له : « إنه مبارك المقدم . وما دام قد عادك فسيحسن حالك .
ولقد جربنا مقدمه ، فهو حيثما ذهب ، صح الرجاء ! » .
وهكذا أعدّ الرجل الطيّب هذه الأجوبة القياسيّة ، وذهب ليعود ذلك المريض .

٣٣٧٠ فقال : « كيف أنت ؟ » فقال المريض : « لقد مت ! » فقال : « شكراً لله ! » ، فامتلأت نفس المريض – من ذلك – ألماً واستنكاراً.
(وحدّث نفسه قائلاً) : « ولماذا هذا الشكر ؟ إن هـــذا الرجل عدّوي » . لقد استخدم الأصمّ القياس فجاء قياسه معوجّاً !
وبعد ذلك قال الأصمّ : « ماذا شربت ؟ » فقال المريض : « سمّاً »
فقال الأصم : « هناء وشفاء » ، فاحتدم غضب المريض .
وأردف الأصمّ قائلاً : « ومن من الأطباء يعودك لعلاجك ؟ » .
فقال المريض : « عزرائيل يعودني، فاذهب عني !» فقال الأصمّ : « إنّ مقدمه لعظيم البركة ، فهنيئاً لك ! »

٣٣٧٥ وخرج الأصمّ سعيداً ، وهو يقول : « شكراً لله ، فقد قضيت في مجاملته برهة من الزمن[1] ! »
أما المريض فقد قال : « إنّ هذا الرجل عدوّ روحي ، وما كنت أدري أنه معدن الجفاء !

---

(١) الشطر الثاني من هذا البيت ، كما ورد في نص طبعة نيكولسون غير واضح المعنى. وقد فضلنا رواية أخرى ورد فيها هذا الشطر بصورة أوضح وأجمل وهي : « شكر كش كردم مراعات آن زمان » .

وكان خاطر المريض ينشد من القول كل سقط ، ليبعث إليه برسالة حوت كل نمط .

فقد كان كرجل أكل طعاماً فاسداً . فهذا الطعام يمعن في إيلام المعدة حتى ترجعه .

وهكذا كظم الغيظ . فلا تدع الغيظ ينبثق من باطنك كالقيء .

وإنك لمُلاق حسن الثناء جزاء لذلك .

٣٣٨٠ إنّ هذا المريض كان نافد الصبر ، فأخذ يتلوّى قائلاً : « أين هذا الكلب ..[١]

حتى أمطره بمثل ما قال لي . إن أسد ضميري كان حينذاك غافياً ! »

فالعيادة هي لبثّ الطمأنينة في القلب . فليست هذه بعيادة ، بل رغبة عدوّ ،

يريد أن يرى عدوه ذابلا ذاوياً ، فيقر بذلك خاطره القبيح !»

فما أكثر النـــاس الذين يؤدون العبادات ، وقد علّقوا قلوبهم بالرضوان والثواب .

٣٣٨٥ فهذه العبادات — في حقيقتها — معصية خفيّة ! إنها كَدَرٌ يظنّ به الصفاء !

ومن هذا القبيل ذلك الأصم ، الذي كان يظن أنه أحسن صنعاً ، فجاء الأمر على عكس ذلك .

لقد جلس سعيداً (وقال) : «هأنذا قد زرت جاري ، وقمت بواجبي نحوه » .

على حين أنه قد أشعل لنفسه في قلب المريض ناراً ، واحترق بها .

فاتقوا النار التي أوقدتموها يا من أمعنتم في المعاصي[٢] !

---

(١) بالغ الشاعر هنا في تصويره الواقعي ، فأورد على لسان المريض سباباً فاحشاً رأينا من المناسب حذفه .

(٢) فاتقوا النار التي أوقدتمو إنكم في المعصية ازددتمو

وقد رأينا نثره مجاراة لأسلوب الترجمة .

٣٣٩٠ فقد قال الرسول لرجل من الأعراب : « صلّ ، فإنك لم تصلّ يافتى ! [١] » .
فمن أجل علاج تلك المخاوف ، جاءت كلمة « اهدنا » في كل صلاة .
(ومعناها) « يا إلهي ! لاتخلط صلاتي بصلاة الضالين ، وأهل الرياء » .
فبهذا القياس الذي اختاره الأصم بطلت صحبة سنوات عشر .
وشر القياس – أيها السيّد – قياس الحسّ الوضيع بذلك الوحي الذي فاق كل الحدود .
٣٣٩٥ فإنْ كانت أذنك الحسيّة قابلة للحروف [٢] ، فاعلم أنّ أذنك التي تستمع إلى الغيب صمّاء .

في بيان أنّ إبليس كان أول شخص عارض النصّ بالقياس

لقد كان إبليس أول شخص أبدى تلك القياسات الواهية أمام أنوار الله .
فقال : « إنّ النار بدون شكّ خير من الطين . وأنا من النار ، وآدم من الطين الكدر .
فإذا قسنا الفرع على أصله ، فهو من الظلمة وأنا من النور المضيء [٣] » .

---

(١) صلى صاحب الرياء في حضور الرسول ، وبعد فراغه قال له : « قم صلّ ، فإنك لم تصلّ » . فظنّ أنه أخطأ فاستأنف معدّلاً الأركان ظاناً إتمامها فقال الرسول عليه السلام : « لا صلاة إلا بحضور القلب » .

(٢) إذا كانت أذنك الحسيّة تلقى بالقبول كلام البشر ، ومـا يخوضون فيه من هراء ، فمعنى ذلك أن أذنك التي تستمع الى الغيب صمّاء .

(٣) إشارة إلى قصة إبليس ورفضه السجود لآدم . وقد ذكرت في آيات عديدة من القرآن منها : « قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » . (الأعراف . ٧ : ١٢) .

فقال الحق : « لا أنساب بينهم يومئذ [1]» . إنّ الزهد والتقوى قد أصبحا محراباً للفضل .

٣٤٠٠ فهذا (الفضل الإلهيّ) لا يُنال بالأنساب كميراث العالم الفاني . إنه (ميراث) روحيّ .

إنه ميراث الأنبياء ، وأما وارثوه فأرواح أهل التقوى .

فابن أبي جهل أصبح مؤمناً واضح الإيمان ، وأما ابن نوح فكان من الضالين .

وها هو ذا سليل التراب قد أصبح منيراً كالقمر ، وأما أنت - يا ابن النار - فامض أسود الوجه .

إن العالم الورع ليستخدم تلك القياسات والأبحاث ، في اليوم الغائم أو في الدجى ليجد القبلة .

٣٤٠٥ ولكن إذا كانت الشمس مشرقة ، والكعبة أمامك ، فلا تنشد هذا القياس ولا ذاك التحري .

ولا تتظاهر بأنك لا ترى الكعبة ! لا تثن وجهك عنها من أجل القياس ! والله أعلم بالصواب .

إنك حينما تسمع صفيراً من طائر الحق ، تحفظ ظاهره كأنما هو درس تعلمته .

ثم تنشىء قياسات من نفسك ، فتضفي الذاتية على خيالك المحض .

ولكن الأبدال لهم مصطلحات لا علم للأقوال (الظاهرة) بها .

٣٤١٠ لقد تعلمت من منطق الطير الصوت (وحده) ، فأثرت[2] مائة قياس ومائة هوس .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . (المؤمنون ، ٢٣ : ١٠١) .

(٢) حرفياً : فأشعلت .

ولقد تألمت منك القلوب ، كما تألم ذلك المريض ، بينما الأصم قد أسكره ظن الإصابة .

وكاتب الوحي – حين سمع صوت ذلك الطائر – ظن أنه شريك له .

فضربه الطائر بجناحه فأعماه ، بل إنه ألقى به في حضيض الموت والألم .

« فحذار ، حتى لا ينزلكما من مقامكما السماوي خيال أو ظنّ .

٣٤١٥ فمع أنكما هاروت وماروت ، ومع أنكما أرفع من كل ملائكة السماء[1] ،

فلا بد لكما من الرثاء لخطايا المخطئين ! وإياكما أن تحوما حول الغرور والأنانية !

حذار حتى لا تدهمكما غيرة الحق ، فتسقطا منقلبيْن إلى قاع الثرى ! »

فأجابا قائلين : « يا إلهنا ! إنك صاحب الأمر . وبدون أمانك أين يكون الأمان ؟

وكيف يأتي السوء منا ونحن نِعْمَ العباد ؟ » . فهكذا كانا يتحدثان ولكن قلبيهما كانا يخفقان (بالهوى) !

٣٤٢٠ إن شوك (الهوى) لم يترك هذين الملكين ، حتى غرس فيهما بذور الغرور .

فأخذا يقولان : « يا أبناء العناصر ، الذين لا علم لهم بطهارة الروحانيين !

إننا سوف ننسج فوق هذا الأفق أستاراً ، ثم نهبط (بها) إلى الأرض ونضرب مخيّماً فوقها .

وهناك نقيم العدل ، ونؤدي العبادات ، ثم نصعد كل ليلة إلى السماء .

---

(١) حرفياً : « ومع أنكما أرفع من كل من هم فوق قمة (نحن الصافون) » . وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن الملائكة : « وما منا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون ، وانا لنحن المسبحون » . (الصافات ، ٣٧ : ١٦٤ – ١٦٦) .

وإذ ذاك نصير أُعجوبة هذا الزمـــان ، ونرسي في الأرض الأمن والأمان ! »

٣٤٢٥ وهذا القياس لحـال الأرض على السماء لا يستقيم ، لأن بينهما فرقاً خفياً !

في بيان أن المرء يجب أن يخفي حاله وسكره عن الجاهلين

إستمع إلى قول الحكيم المستتر[1] : ضع رأسك في المكان الذي احتسيت به الخمر[2] !

فإن الثمل إذا ضلّ السبيل من الحانة ، يصير سخرية للأطفال ولعباً .

وحيثما توجه يسقط في الوحل على هـذا الجانب أو ذاك ، فيهزأ منه كل أبله !

فهو يمضي على هذا النحو والأطفال يتعقبونه ، غير مدركين سكره ولا مذاق الصهباء .

٣٤٣٠ وجميع الخلق أطفال إلا من ثمل بالله ! وليس بينهم من رشيد سوى من تخلص من هواه !

إن الله تعالى يقول : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو[3] » . وإنكم لأطفال ! والله يقول الحق .

---

(١) المقصود بالحكيم المستتر الشاعر الصوفي مجد الدين سنائي .

(٢) إذا سكرت فالزم مكانك ونم حتى تفيق .

(٣) وردت في القرآن آيات كثيرة تتضمن هــذه العبارة التي اقتبسها الشاعر ؛ منها قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » . (الحديـد ، ٥٧ : ٢٠) ، وكذلك (٦ : ٣٢) ، (٢٩ : ٦٤) ، (٤٧ : ٣٦) .

فإن أنت لم تقلع عن اللعب ، فأنت طفل ! وكيف تكون زكيـــاً إن لم تكن طاهر الروح ؟
أيها الفتى ! اعلم أن الشهوة التي ينكب الناس عليها في هذه الدنيا إنما هي كجماع الأطفال !
وما جماع الأطفال ؟ إنه لعب ، إذا قيس بجماع رستم ، أو غـــيره من الأبطال .
٣٤٣٥ وما حروب البشرية إلا كصراع الأطفال ، كلّها تافهة لا معنى لها ولا لبّ .
فهم جميعاً يتقاتلون بسيوف خشبيّة . وجملة أهدافهم ليست بذات جدوى .
وقد أصبحوا ممتطين أعواد الغاب[1] (قائلين) : « هذا بُراقنا أو هذا فرسنا ، الذي يخطو مثل دلدل[2] » .
إنهم حاملون أنفسهم ، ولكنّهم — لجهلهم — يتطاولون ، إذ قد ظنوا أنفسهم محمولين فوق الطريق !
فمهلاً ، حتى يأتي يوم يمرق فيه من يرفعهم الله ، مسرعـين بخيولهم خلال السماوات التسع .
٣٤٤٠ تعرج الروح إليه والملك   من عروج الروح يهتز الفلك[3]
إنـكم جميعاً كالأطفال ، تمتطون ذيول الثياب[4] . وكل منكم قد أمسك بطرف ثوب رفيقه ، كأنه (عنان) جواد .
ولقد قال الله تعالى : « إنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً[5] » ومتى كان مركب الظن يسارع إلى الأفلاك ؟

---

(١) من عادة الأطفال في الشرق أن يمتطوا أعواد الغاب يشبهونها بالخيل .
(٢) « دلدل » اسم بغلة شهباء كانت للرسول ، وقيل اسم فرس عليّ .
(٣) هذا البيت عربي في الأصل .
(٤) إشارة إلى لعبة الأطفال التي فيها يمسك الطفل بذيل ثوب رفيقه ثم يجريان مقلدين الفارس والحصان .   (٥) (١٠ : ٣٦) ، (٥٣ : ٢٨) .

أغلب الظنين في ترجيح ذا لا تماري الشمس في توضيحها [1]

فحينذاك ترون مطاياكم ، (وتعلمون) أنكم قد اتخذتم من سيقانكم مطايا .

٣٤٤٥ألا فلتعلموا أن وهمكم وفكركم وحسكم وإدراككم مثل عود الغاب الذي يمتطيه الطفل !

إن علوم أهل الدين حاملة لهم ، وأما علوم أهل الحس فأحمال فوقهم !

والعلم حين ينزل على القلب فهو صديق ، وأما حين يهبط على الجسم فهو عبء .

قال تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفاراً [2] » . فكل علم لا يكون من الحق فهو عبء .

والعلم الذي لا يكون من الله بدون وسيط ، فهو كأصباغ الماشطة ، لا دوام له .

٣٤٥٠لكنك حين تجيد حمل هذا العبء ، يرفع عنك ، وتوهب لك السعادة .

وكن حذراً ، ولا تحمل عبء العلم من أجل الهوى . إنك بترك الهوى تصبح ممتطياً جواد العلم المنطلق .

فإذا ما أصبحت فارساً فوق جواد العلم المنطلق ، سقطت من فوق كتفيك الأعباء .

وكيف تخلص من الأهواء بدون الكأس الإلهية ، يا من قنعت من « هو » بلفظ « هو » ؟

---

(١) هذا البيت عربي في الأصل .

(٢) (الجمعة ، ٦٢ : ٥) .

فما الذي يتولّد من الصفة والاسم ؟ إنه الخيال . وهذا الخيال المتولد هو الدليل إلى الوصال .

٣٤٥٥وهل هناك عين دليل بدون مدلول ؟ إنه ما لم توجد الجادة فلا وجود للغول[١].

وهل رأيت اسماً قط بدون حقيقة (يدلّ عليها) ؟ أم هل جنيت الورد قط من لفظة « ورد » ؟

لقد نطقت بالاسم ، فاذهب وفتش عن المُسَمّى ! واعلم أنّ القمر في علياء السماء ، وليس في ماء النهر .

فإذا أردت أنْ تتخلّص من الأسماء والحروف ، فخلّص نفسك من الذاتية خلاصاً كاملا .

واخرج عن اللون كما يخرج الحديد المصقول عن لونه ! ولتكن بالرياضة مرآة برئت من الصدأ !

٣٤٦٠راجعـــل نفسك نقيّة من صفات الإحساس بالذات ، حتى ترى ذاتك الطاهرة الصافية .

وترى في قلبك علوم الأنبياء ، بدون كتاب ولا معيد ولا أستاذ .

لقد قال الرسول (ما معناه) : « إنّ من بين أمتي ، من يكون لهم ذات جوهري وهمتي !

وإن أرواحهم لتراني بذلك النور الذي أراهم به[٢] » .

(وتلك الرؤية تكون) بدون صحيحين ولا أحاديث ولا رواة ، وإنما هي عند منهل ماء الحياة .

---

(١) الغول كائن خرافي ورد في الأساطير العربية ، وينسب اليه أنـــه يضل المسافرين في الفيافي .

(٢) روي عن أبي ذرّ أنه قال : قال عليه السلام : « واشوقاه إلى إخواني يكونون من بعدي شأنهم شأن الأنبياء وهم عند الله بمنزلة الشهداء ، ينظر الله إليهم في كل يوم سبعين مرة . يا أبا ذرّ إني اليهم مشتاق» . (المنهج القوي ، جـ ١ ، ص ٦٣٠) .

٣٤٦٥فلتعلم سر « أمسيت كردياً » ، ولتقرأ سرّ « أصبحت عربياً » [١].
وإنْ كنت تريد مثالاً من العلم الخفي فاذكر لنا قصة الروم وأهل الصين .

قصة الجدال بين الروم وأهل الصين حول علمي النقش والتصوير

لقد قال الصينيون : « إننا أجمل نقشاً » . فقال الروم : « بل نحن أصحاب الكرّ والفرّ (في هذا الميدان) » .
فقال السلطان : « أريد أن أمتحنكم في هذا ، لأرى من منكم أهل لتلك الدعوى » .
وتباحث الصينيون والروم ، فصمد الروم في هذا البحث .
٣٤٧٠فقال الصينيون : « فلتخصصوا لنا حجرة ، ولتختصّوا أنتم بحجرة » .
وكان هناك غرفتان باباهما متقابلان ، فأخذ الصينيون واحدة منها ، وأخذ الروم الأخرى .
وطلب الصينيون من الملك مائة لون ، ففتح لهم الملك خزائنه ليأخذوا (ما أرادوا) .

---

(١) إشارة إلى ما كتبه الشاعر في مقدمة المثنوي عن تلميذه حسام الدين وفيه قال : « أبو الفضل حسام الحق والدين ... الأرموي الأصل المنتسب إلى الشيخ المكرم بما قال : أمسيت كردياً وأصبحت عربياً . و « الشيخ المكرم » المشار اليه هنا مجهول . وقد حاول الشراح التعرف عليه وذكروا أسماء لا سبيل إلى التيقن من أن الشاعر يعني أياً منها . والمهم هنا أن الشاعر يشير إلى معجزة وقعت لهذا الصوفي هي أنه كان كردياً وطلب اليه أن يلقي خطاباً وعظياً فدعا ربه فأطلق لسانه بالعربية . وهذا معنى قوله : « أمسيت كردياً وأصبحت عربياً » .

فكان من عطاء الخزينة ، في كل صباح ، حصّة من الألوان للصينيين .
أما الروم فقالوا : « لا لون ولا صبغ يليق بعملنا ، فما هو إلا دفع للصدأ » .

٣٤٧٥ لقد أغلقوا الباب وأخذوا يصقلون ، فصاروا في نقائهم وصفائهم مثل الفلك .
وإنّ من تكاثر الألوان لسبيلا إلى انعدام اللون . إنّ اللون مثل السحاب وأما اللالون فمثل القمر .
وكل ما تراه في السحاب من ضوء والتماع ، فاعلم أنه من الشمس والقمر والنجوم .
وحينما فرغ الصينيون من عملهم ، قرعوا الطبول ابتهاجاً .
فدخل الملك ، ورأى النقوش هنـــاك ، فسلبت لبّه حين وقع عليها بصره .

٣٤٨٠ وبعد ذلك اتجه نحو الروم ، فرفع الروم الأستار الفاصلة .
فانعكس خيال ذلك التصوير ، وتلك الأعمال ، على تلك الحوائط الصافية المصقولة .
فكل ما رآه هنـــاك ، رآه هنا بصورة أبهى ، كادت أن تستلب العين من محجرها !
إنّ الروم — أيها الوالد — هم الصوفيّة . وهم ليسوا بحاجة إلى التكرار ولا الكتاب ولا اللوذعية .
لكنهم صقلوا تلك الصدور ، فطهرت من الطمع والحرص والبخل والأحقاد .

٣٤٨٥ وما صفاء المرآة هذا إلا القلب الخالي من الشك . فإنه قابل لتصاوير لا عداد لها .
إنّ صورة الغيب التي لا شكل لها ولا حدّ ، كانت في جيب موسى بعد أن تلقاها بمرآة قلبه .

مع أنّ هذه الصورة لا يتسع لها الفلك ، ولا العرش ولا الكرسيّ ولا السمك[1] .

ذلك لأن هذه كلها محدودة معدودة . أما مرآة القلب ، فاعلم أنها ليست بذات حدود .

فالعقل في هذا المقام يكون صامتاً ، أو مضلاً . ذلك لأن القلب يكون مع الحق ، أو يكون هو الحق .

٣٤٩٠ وما من صورة – حتى الأبد – يشرق لها خيال ، إلا من القلب ، سواء أكان هذا الخيال متعدداً أو واحداً .

وكل خيال جديد يجيء إليه – حتى الأبد – يتجلى فيه خالياً من (النقص) والقصور .

إنّ أهل الصقل قد خلصوا من الرائحه واللون ، (ولهذا) فإنهم لا يتخلّفون لحظة عن مشاهدة الجمال .

فهم تركوا ظاهر العلم وقشوره ، ورفعوا راية اليقين الحق .

لقد ذهب الفكر فوجدوا النور ، (وأمسكوا) بنحر المعرفة ، واهتدوا إلى بحرها .

٣٤٩٥ إن هؤلاء الناس يهزؤون من الموت ، الذي يخشاه عامة البشر !

وليس يستطيــع إنسان أن ينتصر على قلوبهم ! إن الضرر قد يقع على أصدافهم لا على جوهرهم .

وهم قد تخلوا عن النحو والفقه ، لكنهم حملوا (بدلا منهما) المحو والفقر .

ومنذ أشرقت صور الجنات الثمانية ، وجدت ألواح قلوبهم متقبلة لها .

وإنها لمتلقية مائة انطباع من العرش والكرسيّ والفضاء ! بل ، ماذا تكون هذه الانطباعات ؟ *إنها لشاهدةٌ الله عياناً !*

---

(١) أي السمكة التي تزعم الأساطير أنها تحمل الأرض .

كيف سأل الرسول عليه السلام زيداً (قائلا) :
« كيف أنت اليوم ، وكيف أصبحت ؟ »
وكيف أجابه زيد بقوله : « أصبحت مؤمناً يا رسول الله »

٣٥٠٠ قال الرسول ذات صباح لزيد[١] : « كيف أصبحت أيها الصحابي النقي الطاهر ؟ »

فأجاب قائلاً : « (أصبحتُ) عبداً مؤمناً » . فقال الرسول : « فأين علامة بستان الإيمان إن كان قد تفتح ؟ »

فأجاب زيد : « لقد ظللت أعاني الظمأ أياماً ، وكان العشق ولهيبه يؤرقني خلال الليالي .

فاخترقت (جدار) الأيام والليالي ، كما يخترق الدرع رأس الحربة .

فهناك (وراء الليل والنهار) ، يتساوى المولد وامتداده[٢] ،

وهناك تتساوى مئات الألوف من الساعات بساعة واحدة .

٣٥٠٥ وهناك يتحد الأبد والأزل . والعقل – بتفكره – لا سبيل له إلى هذا الجانب » .

فقال الرسول : « فأين هدية هذا الطريق ؟ أحضرْها ! وهل من مَعْلَم سبيلٍ واحد من تلك الديار الجميلة ؟ »

فقال زيد : « بينما الناس يبصرون السماء ، أرى أنا العرش وأهل العرش !

والجنات الثمانية ، والنيران السبع ظاهرة أمامي ، كالصنم أمام عابده .

---

(١) الحديث هنا مروي بمعناه ، مع تفصيل هذا المعنى بأسلوب شعري . وقد ذكرنا نص الحديث في تعليقاتنا على هذا البيت .

(٢) ما يعقبه من وجود .

وهأنذا أميّز الخلق ، واحداً واحداً ، كما أفرق بين القمح والشعير في الطاحون .

٣٥١٠ فقد تميّز أمامي أهل الجنة ، من الغرباء عنها ، كما يتميّز الثعبان عن السمكة » .

إن يوم (البعث) ، « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه[١] » هو يوم الميلاد (الحق) للروم والزنج ، ولكل جنس[٢] .

وأما قبل ذلك فمهما كانت الروح مليئة بالعيوب ، فإنها تكون مغيّبة عن الخلق طيّ الرحم .

« السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه » ، وكلهم يُعرفون بما وهبهم الله من سمات[٣] .

إن الجسم كالأم ، ، حامل بطفل الروح ، والموت هو ألم المخاض وزلزلته .

٣٥١٥ وجميع الأرواح الغابرة منتظرة لترى كيف يولد ذلك الروح البطر .

فالزنوج[٤] يقولون : « إنه منا » ، فيقول الروم[٥] : « ليس كذلك إنه جميل » .

---

(١)(آل عمران ، ٣:١٠٦) .

(٢) يوم البعث هو اليوم الذي تنكشف فيه الألوان الحقيقية للبشر . فلاعبرة لألوان الوجوه في الدنيا ، وإنما العبرة بما يكون للإنسان من لون نتيجة لأعماله ،فيبعث أبيض الوجه أو أسود الطلعة .

(٣) حديث للرسول اقتبس الشاعر قسماً منه . وقد أوردناه هنا كاملا .أما قول الشاعر: « وكلهم يُعرفون بما وهبهم الله من سمات »،فيشير إلى قوله تعالى :«سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (٤٨:٢٩) ، وكذلك « يعرف المجرمون بسيماهم » ، (٥٥ : ٤١) ، وغير ذلك من الآيات التي وردت عن تمييز الرجال بسيماهم .

(٤) من اسودّت وجوههم بالذنوب .

(٥) من ابيضت وجوههم بالحسنات ورضى الله .

فإذا ما ولد في عالم الروح والجود ، فإنه لا يبقى ثمة خلاف بين البيض والسود .
فإنْ كان زنجيا حمله الزنوج ، وإن كان روميّا سحبه الروم .
وهو – إلى أنْ يولد – مشكل أمام العالم . فالذين يدركون نوع الحمل قلة نادرة .
٣٥٢٠فليس هؤلاء سوى من ينظرون بنور الله ، وإن بصرهم لينفذ إلى ما وراء الجلد !
إنّ ماء النطفة في الأصل أبيض لطيف . ولكنّ ظـــلّ روح كل من الرومي والحبشيّ (كامن فيه) .
إنّه يضفي على أحد الفريقين « أحسن تقويم » ، على حين يردّ الآخر إلى « أسفل سافلين »[١] .
وليس لهذا الكلام نهاية ، فلنعد ثانية حتى لا نتخلّف عن قطار القافلة .
ومن ذا الذي تستوي عنده مهابة الأتراكِ والهنود ، « يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه[٢] » .
٣٥٢٥وفي الرحم لا يتبيّن الهندي من التركيّ . وحينما يولد الطفل يُرى أضعيف هو أم قويّ .
« وإنّني لأراهم جميعاً ماثلين أمامي ، جموعاً من الرجال والنساء ، وكأنّني أشهد يوم الحشر[٣] ! .
فهل أتكلم أم أحبس أنفاسي ؟ ». فعضّ الرسول على شفته مشيراً إلى زيد أن يلزم الصمت .

(١) في البيت اقتباس من قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » . (التين ، ٩٥ : ٤ – ٥) .
(٢) ومن ذا الذي يستوي عنده أهل الإساءة وأهل الإحسان في يوم الحساب ؟
(٣) هنا يستأنف الشاعر رواية حديث زيد بأسلوب شعريّ .

(فقال زيد) : « يا رسول الله ! هل أقول سرّ الحشر ؟ وهل أكشف اليوم بهذه الدنيا أسرار النشور ؟

ألا فلتأذن لي حتى أمزّق الحجب ، وحتى يشرق جوهري كأنه إحدى الشموس !

٣٥٣٠ بل حتى تصاب الشمس بالكسوف (خجلاً مني) ، وإذ ذاك أميز النخيل من الصفصاف [١] .

وأظهر أسرار يوم البعث ، وأبيّن النقد الصحيح من النقد الزائف .

وأكشف أصحاب الشمال [٢] الذين قطعت أيديهم . وأفرق بين لون الكفر ولون السراب (المنير الأبيض) .

وأكشف حفر النفاق السبع ، بنور قمر لا يعتريه خسوف ولا محاق .

وأجلو سربال الأشقياء ، وأُسمع (هدير) طبول الأنبياء .

٣٥٣٥ وأظهر الجحيم والجنان ، وبينهما البرزخ عياناً أمام أعين الكفار .

وأبيّن حوض الكوثر في جيشانه ، يرش بالماء وجوه المؤمنين ، على حين أن خريره في آذانهم .

وهؤلاء الذين يجرون ظماء حول الكوثر ، هل أذكرهم وأسمّيهم واحداً واحداً ؟

إنّ اكتافهم لتحتك بكتفيّ ، وصياحهم يرنّ في أذنيّ .

وأمام عينيّ أهل الجنة ، وكل منهم باختياره قد عانق الآخر .

٣٥٤٠ وكلّ منهم يزور الآخر في مقامه . وهم جميعاً ينهبون القبل من شفاه (الحور) .

ولقد أصمّ أذني هذه صوت تأوّه الأخساء ، وصراخهم « واحسرتاه » !

---

(١) أميز المثمر من غير المثمر . (٢) انظر سورة الواقعة ، ٥٦ : ٤١ .

وما هذه إلا إشارات ، وبوسعي أن أفصل القول ، ولكني أخشى
أن أزعج الرسول » .
هكذا كان يتحدث سكران ثملا ، فجذب الرسول جيب ردائه .
وقال : أفق ، واجذب عنـــان جوادك ، فقـد أسرف في
انطلاقه ، وقد أظـلّك قوله تعالى : « والله لا يستحي من الحق[1] »
فذهب حياؤك .

٣٥٤٥ لقد افلتت مرآتك من غطائها . فكيف تنطق المرآة والميزان
بخلاف (الحقيقة[2]) ؟
ومتى كانت المرآة والميزان يحبسان أنفاسها خشية إيـــذاء حياء
إنسان ؟

فكل من المرآة والميزان محك سني ، (يصدقـان) ولو خدمتها
مائتي عام ،
قائلاً : « ليتكما تخفيان الحقيقة من أجلي ! ليتكما تبديان الزيادة
ولا تكشفان النقص ! »
فيقولان لك : « لا تسفـّه لحيتك وشاربك ! أمرآةٌ وميزان ،
ثم خداع واحتيال ؟

٣٥٥٠ إن الله قد أقامنا ليكون من الممكن أن تُعرف بنا الحقيقة .
فإن لم نكن كذلك ، فماذا تكون قيمتنا ، أيها الفتى ؟ وكيف
نصير مقياساً ومعياراً لوجوه الحسان ؟ » .
« (يا زيد) : ادفع بالمرآة إلى غلافهـــا ، إن كان التجلي قد
جعل من صدرك طور سيناء ! »

---

(١) (الأحزاب ، ٣٣ : ٥٣) .
(٢) حينما أفلتت مرآتك من غطائها ، أي حينما انطلقت روحك من حجاب المادة
تجلت بها صور العالم الآخر . والمرآة تعكس ما تراه بصدق .

فقال (زيد) : فما النهاية ؟ هل يستطيع إنسانٌ قط أن يتأبط شمس الحق أو شمس الأزل ؟

إنها لتمزق الإبط ، وتبدّد الدغل ، ولا يبقى أمامها جنون ولا عقل ! »

٣٥٥٥ فقال الرسول : إنك لو وضعت إصبعاً واحداً فوق عينك ، لأبصرت الدنيا خالية من الشمس[1] !

إن طرف إصبع واحد يغدو حجاباً للقمر . وهذا دليل على ستر الله .

ونقطة واحدة تحجب الدنيا بأسرها . كما أن الشمس يعروها الكسوف بسقطة واحدة[2] .

فأغلق شفتيك ، وانظر إلى غور أحد البحار . إن الله قد جعل البحر طوع حكم البشر .

كما أن عين السلسبيل والزنجبيل رهنٌ لحكم أهل الجنة ، أولي القدر الرفيع .

٣٥٦٠ والأنهار الأربعة التي تجري في الجنة هي طوع إرادتنا ، وما ذلك لقوتنا ، وإنما ذلك أمر الله .

فحيثما نشاء نجريها ، كأنها السحر الذي يجري على مراد السحرة .

وكذلك هاتان العينان الجاريتان[3] ، فهما رهن حكم القلب وإرادة الروح .

(فالقلب) — إن أراد — توجهتا إلى السم والحيّة ، وإن أراد توجهتا إلى المجد .

وإن أراد ذهبتا إلى المحسوسات ، وإن أراد انطلقتا نحو الأسرار المحجبّة .

٣٥٦٥ وإن أراد انطلقتا إلى الكليات . وإذا شاء بقيتا مع الجزئيات .

---

(١) يستمر الشاعر هنا في رواية الحديث بأسلوبه الشعري ، مع كثير من الشرح والإطالة .

(٢) كان المعتقد في زمن الشاعر أن خسوف الشمس يحدث لسقوطها عن مدارها بحيث تحاذي القمر فتكسف .

(٣) يريد عيني الإنسان .

وهكذا الحواس الخمس ، إنها ماضية وفق مشيئة القلب ، كأنها لفافة (الخيط في يد الحائك) .
إن الحواس الخمس تمضي ، مجرّرة أذيالهـا ، إلى كل جانب يشير إليه القلب .
واليد والقدم في الدنيا طوع إرادة القلب ، كتلك العصا في كف موسى .
القلب يريد فتستجيب الساقُ راقصة ، أو تمضي هاربة ، من النقص إلى الكمال .
٣٥٧٠ وإذا أراد القلب ، تحقق الوفاق بين اليد والأصابع لتكتب كتاباً .
إن اليد لفي قبضة يد خفيّة ، وهي في الداخل تحكم ظاهر الجسم !
فلو تشاء (اليد الخفية) تصبح (يد الحس) ثعباناً (ينهش) العدو ، ولو تشاء هذه تصبح تلك عوناً للصديق .
ولو تشاء تجعلها ملعقة للطعام . ولو تشاء تجعلهـا دبّوساً زنته عشرة أمنان[١] .
عجباً ! ماذا يقول القلب (لهذه الأعضاء) ؟ إنها لصلة عجيبة ! إنها لرباط عجيب الخفاء .
٣٥٧٥ فلعل القلب قد وجد خاتم سليمان ، وبـه قبض على أعنّة تلك الحواس الخمس .
فحواس خمس من الظاهر منقادة له ، وحواس خمس من الباطن طائعة لأمره .
فهناك عشر حواس وسبع قوائم ، وغيرها . فلتعُدَّ أنت مـا لم يرد في قولنا .
فيا أيها القلب ! ما دمت أنت – في عظمتك – سليمان ، فلتسلط خاتمك على الجن والشياطين .
فلو أنك برئت في ملكك هذا من الخداع ، لمـا استطاع ثلاثة

---

(١) أي أن اليد الحسية تستخدم في الطعام ، وكذلك في الحرب وفق مشيئة الإنسان .

شياطين أن ينتزعوا الخاتم من يدك .

٣٥٨٠ فبعد ذلك يتملك العالم اسمك ، وتصبح الدنيا والآخرة طوع حكمك كأنها جسمك .

فإن أخذ الشيطان الخاتم من يدك ، فقد ضاع ملكك ، وهلك جدّك .

فتكون الحسرةُ – بعد ذلك – أيها العباد ، حتماً عليكم إلى يوم المعاد .

فإن أنت أنكرت خداعك ، فكيف السبيل إلى أن ُتبعد روحك عن الميزان والمرآة (١) ؟

كيف اتهم الغلمان والرفقاء من الخدم لقمان بأنه أكل الفاكهة النضرة التي أحضروها (لسيدهم)

كان لقمان – أمام سيده – يبدو زري الصورة بين العبيد الآخرين .

٣٥٨٥ وكان السيد يرسل الغلمان إلى البستان ، ليحملوا إليه الفاكهة (متعة) لوقت الفراغ .

وكان لقمان بين الغلمان (بغيضاً) كالطفيليّ ! لقد كان مليئاً بالمعاني ، ولكنه كان مظلم الصورة كأنه الليل .

فهؤلاء الغلمان – بدافع من طمعهم – التذّوا بأكل ما جمعوه من الفاكهة .

وأخبروا سيدهم بأن لقمان أكل تلك الفاكهة ، فصار السيد غاضباً عظيم السخط على لقمان .

---

(١) إذا أنت كابرت وأنكرت خداعك ، فما سبيلك إلى أن تبعد روحك عن الميزان والمرآة ، وهذان يكشفان حقيقتها ، ويعرفان جوهرها وأسرارها .

وحينما استفسر لقمان عن سبب الغضب ، أطلق لسانـــه بالقول معاتباً سيده .

٣٥٩٠ فقال : « يا سيدي ! إن العبد الخائن أمام الله ، لا يكون ممن يشملهم رضاه .

فلتمتحنا جميعاً أيها السيد الكريم ! (اسقنا) ما يملؤنا من الماء الحميم .

وبعد ذلك مرنا بالجري في مرج واسع ، ولتكن أنت راكباً ونحن على الأقدام .

ثم انظر بعد ذلك إلى من ساء عمله ! وتأمل صنيع كاشف الأسرار !

فسقى السيد غلمانه ماء حميماً ، شربوه خوفاً منه .

٣٥٩٥ ثم ساقهم — بعد ذلك — فوق المروج ، فانطلقوا مسرعين بين المزارع .

فأخذوا يقيئون من العناء ، وأخرج الماء الفاكهة من بطونهم .

وبينما كان لقمان يقيء من صميم جوفه [١] ، لم يكن يخرج من بطنه سوى الماء الصافي .

فإذا كان لقمان — بحكمته — يعلم كيف يكشف هذا ، فماذا تكون حكمة ربّ الوجود ؟

يوم تبـــلى السرائر كلهـــا　　　بان منكم كامنٌ لا يشتهى[٢]

٣٦٠٠ إذ سُقوا ماء حميماً قطّعتْ　　　جملةُ الأستار مما أفظعت[٣]

إن النار جاءت عذاباً للكافرين ، لأنها الفيصل في امتحان الأحجار .

وقلبنا الحجري هذا ، كم حدّثناه بلطف فلم يقبل النصح منا !

---

(١) حرفياً : من سرته .

(٢) هذا البيت عربي في الأصل ، وفيه اقتباس من قوله تعـــالى : « يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر » . (الطارق ، ٨٦ : ٩ — ١٠) .

(٣) البيت عربي في الأصل ، فيما عدا كلمة « چون » التي وردت بأوله ، وقـد وضعنا مكانها « إذ » (وفي البيت اقتباس من قوله تعالى « وسقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم » . (محمد ، ٤٧ : ١٥)

إن الجرح إذا خبث لقي العرقُ علاجاً كثيباً . وليس يليق بأنياب الكلب إلا رأس الحمار .

فما أحكم قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين[1] » ، ذلك لأن أهل القبح بعضهم لبعض مجانس وقرين .

٣٦٠٥ فاذهب واقترن بمن تشاء ، وامح (وجودك) لتصبح على صورة الحبيب وصفاته !

فإن كنت تريد النور فاجعل نفسك لائقة بالنور ! وإن كنت تريد البعد فكن مغرورا وابتعد !

وإن كنت تريد مخرجاً من هذا السجن الخرب ، فلا تحول رأسك عن الحبيب ، « واسجد واقترب[2] » .

بقية قصة زيد وما أجاب به الرسول عليه السلام

إن هذا الكلام لا نهاية له ، « فانهض يا زيـد ، وضع قيداً على بُراق نطقك .

فالنطق إذ قد جاء فاضحاً للعيب — فإن من شأنـــه أن يمزق حجب الغيب[3] .

٣٦١٠ إن الحق يريد الغيب بعض الوقت ، فلتبعد قارع الطبل هـــذا ، ولتغلق الطريق !

لا تندفع ! واجذب العنان ، فالستر أجمل ! وخير لكل امرىء أن يسعد بخياله .

---

(١) (النور ، ٢٤ : ٢٦) . (٢) (العلق ، ٩٦ : ١٩) .

(٣) ما دام النطق من طبيعته أن يكشف ، وهو لا يتورع عن كشف العيوب ، فكيف يتورع عن كشف أسرار الغيب ؟

إن الحق يريد ألا يحوّل القانطون وجوههم عن عبادته .
فهم بأملهم في الله يشرفون ، وهم بذلك يجرون بضعة أيام في ركابه .
إنه يريد أن تشرق هذه الرحمة على الجميع ، على الأخيار والأشرار
وذلك لشمول رحمته .
٣٦١٥ إنه يريد أن يكون كل أمير وأسير راجياً خائفاً حذراً .
وهذا الرجاء ، وهذا الخوف ، يكونان من وراء حجاب ، حتى
يعظما وراء ذلك الحجاب .
فإذا مزقت الحجاب ، فأين الخوف والرجـاء ؟ فالغيب هو الذي
يعود إليه الكرّ والفرّ والإبتلاء » .
إن أحد الفتيان كان على شاطىء نهر ، فخطر له ظن (جعـله
يقول) : « ها هو ذا سليمان يصيد لنا السمك !
فإن كان سليمان ، فلماذا هو مستخف منفرد ؟ وإن لم يكن هو ،
فما هذا الشبه بينه وبين سليمان ؟ » .
٣٦٢٠ ولقد ظل في هذا التفكر (موزعاً بين) قلبين ، حتى أصبح سليمان
ملكاً قائماً بالملك .
فذهب الشيطان ، وفر من ملك سليمان وعرشه ، وأراق سيف جد
سليمان دم هذا الشيطان .
ووضع سليمان الخاتم حول إصبعه ، فتجمع جيش الشياطين والجن .
وأقبل الرجال ناظرين ، وكان بينهم ذلك الفتى صاحب الخيال .
فحينما فتح سليمان كفه ، رأى الفتى خاتمـه ، فذهب عنه — في
الحال — تفكره وتحريه .
٣٦٢٥ إن الخوف يكون حيث يكون الحجاب ، وهذا التحري إنمـا
يكون (لكشف) ما استتر .
لقد تضخم في صدره خيال الغائب ، فلمـا أصبح الغائب حاضراً
مضى هذا الخيال .

فإن كانت سماء النور لا تخلو من المطر ، فكذلك الأرض المظلمة لا تخلو من الخضرة .

فلا بدّ لي من عباد « يؤمنون بالغيب[1] » ، ذلك لأنني قد أغلقت نافذة هذا العالم الفاني .

فلو أنني فتحتها ، كما (أفتحها) يوم البعث ، فكيف أقول : « هل ترى من فطور[2] » .

٣٦٣٠ (إنها مغلقة) لكي يتحرى الناس (الصواب) في هذه الظلمة ، وليتوجه كل منهم إلى أحد الجوانب .

فتظل الأمور معكوسة مدة من الزمان ، ويعلق اللصوص رجال الشرطة فوق المشانق .

ويصبح كثيرون من السلاطين ، وأُولي الهمم ، عبيداً لعبيدهم مدة من الزمان .

إن الخضوع للغائب جميل (والله) يستحسن حفظ الغيب من عابديه[3] .

فأين من يمدح السلطان في حضوره ، ممن يكون وجهه ذا حياء منه في غيابه !

٣٦٣٥ إن قائد القلعة التي تكون على أطراف المملكة — وهو بعيد عن السلطان ، وظل السلطنة —

يحافظ على القلعة من الأعداء ، ولا يبيعها بالمال الذي لا حدّ له .

---

(١) الإيمان بالغيب من صفات المتقين . قال تعالى في سورة البقرة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » . (٢ : ٢-٣).

(٢) اقتباس من القرآن الكريم (سورة الملك) . قال تعالى : « الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » . (٦٧ : ٣) .

(٣) يستحسن من عابديه مراعاتهم حقه وعبادته رغم أنهم لا يرونه .

إنه غائب عن الملك إلى جانب الثغور ، لكنه يحفظ له عهد الوفاء
كأنه حاضر معه .
فهو – عند الملك – خير من الآخرين الماثلين بحضرته ، يقدمون
له أرواحهم .
فنصف ذرّة من حفظ حق المخدوم في غيبته ، خـــير من مراعاة
ذلك مائة ألف مرة في حضوره .
٣٦٤٠فالطاعة الآن محمودة ، وكذلك الإيمان ، وأما بعد الموت – حين
تتكشف الأمور – فهما مردودان .
ولما كان الغيب والغـائب والحجاب هي الأفضل . فأغلق فمك ،
فالصمت خير لنا .
أيها الأخ ! لتُحجمن عن الكلام ، فالله ذاته هو الذي يكشف
لنا علمه اللدنيّ .
إن وجه الشمس لشاهد بيّن (على وجودها) . فأي شيء أعظم
لو كان الشاهد هو الله [1] ؟
بل إنني لمتكلم ، ما دام الله والملائكة والعلماء هم قرنائي في الإبانة
عن ذلك .
٣٦٤٥يشهد الله والملك واهل العلوم أنـــه لا رب إلا من يدوم[2]
وإذا شهد الحق فمن تكون الملائكة ؟ وماذا يكون اشتراكها في
الشهادة ؟
إن ذلك لأن التماع الشمس وشهادتهـا البيّنة ، لا تطيق مواجهتها
العيونُ الواهية ، ولا القلوبُ الخربة .

(١) في ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم » . (الأنعام ، ٦ : ١٩) .
(٢) في البيت اقتباس من الآية الكريمة : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . (آل عمران ، ٣ : ١٧) .

فهؤلاء مثل خفاش ، لا يطيق حرارة الشمس ، فيقطع الأمل .

فلتعلم أن الملائكة أيضاً رفقاء مثلنا ، شاهدون على الشمس فوق السماء .

٣٦٥٠يقولون : « لقد قبسنا هـذا الضياء من الشمس ، وأشرقنا به كما يشرق الخليفة على الضعفاء » .

فالهلال الجديد ، وذو الأيام السبع ، والبدر ، كل منها يمثل رتبة ملك في النور والقدر .

ولكل ملك شعاع وفق رتبته ، (ينبعث) من أجنحة نورية ، (مثنى) وثلاث ورباع [١] .

فهذه مثل أجنحة عقول البشر ، التي يكثر التفاوت بينها .

ولهذا فإن قرين كل إنسان في الخير أو الشر ، هو هذا الملك الذي يكون مساوياً له في القدر .

٣٦٥٥والأعمش الذي لا يطيق نور البدر ، تشرق عليه النجوم لتهديه السبيل[٢].

كيف قال الرسول لزيد :
« لا تزد هذا السر إفشاء ، وكن حريصاً على المتابعة »

قال الرسول : « إن أصحابي نجوم [٣] ! إنهم شموع للسالكين ، ورجوم للشيطان ! »

---

(١) قال تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » . (فاطر ، ٣٥ : ١) .

(٢) كل يأخذ من النور على قدر ما يطيق بصره . وهكذا العلم ، كل يأخذ منه القدر الذي يطيقه قلبه وعقله .

(٣) نص الحديث هو : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

فلو كان لكل إنسان هذه العين وتلك القوة ، التي بهـا يقتبس النور من شمس الفلك ،

لما كانت هناك حاجـة إلى القمر ، ولا إلى النجوم ، التي جاءت كالشهود على الشمس .

إن القمر يقول للتراب ، وللسحب والظلال : « إنني بشر ! إنني مثلكم (لكنه) يوحى إليّ [(١)] !

٣٦٦٠ لقد كنت مثلكم مظلم الطبيعة ، ولكن وحي الشمس منحني هذا النور .

إنني مظلم بالقياس إلى الشموس ، لكن لديّ نوراً من أجل ظلمات النفوس .

إنني ضعيف (النور) لتستطيع اقتباس النور مني ، فإنك لست بأهل للشمس المشرقة .

لقد صُنِعتُ كما يُصنع مزيج الشهد والخل . وذلك لكي أجـد سبيلي إلى علة الكبد ».

فإذا ما خلصت من العلة ـ يا من كنت رهناً لها ـ فدع الخل واجعل غذاءك من الشهد .

٣٦٦٥ وإذا أصبح تخت قلبك عامراً ، طاهراً من الهوى ، فاقرأ عليه : « الرحمن على العرش استوى[(٢)] » .

وحينما تتحقق للقلب تلك الرابطة ، فإن الله يحكمه حكماً مباشراً لا وساطة فيه .

وهذا الحديث لا نهاية له ، فأين زيد لأقدم له النصح بألا يسعى إلى فضح المستور .

---

(١) في البيت اقتباس من القرآن الكريم . قال تعـالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد » . (الكهف ، ١٨ : ١١٠) .

(٢) (طه ، ٢٠ : ٥) .

عود إلى حكاية زيد

إنك لن تجد الآن زيداً فقد فرّ ، لقد قفز من موضع صف النعال ، ورمى نعله .

ومن أنت لتجده ، وزيد نفسه لم يجد ذاته ! لقد كان كنجم أشرقت عليه الشمس .

٣٦٧٠ فلن تجد له صورة ولا أثراً . ولن تجد قشة واحدة في الطريق التي سلكها الحاطبون !

إن حواسنا ، وكذلك نطقنا المحدود ، قد أصبحت فانية في علم سلطاننا ومعرفته .

وأما حواس أهـــل الباطن وعقولهم ، فهي أمواج (مؤتلفة) مع أمواج « هم لدينا محضرون[1] » .

فإذا ماجنّ الليل فقد عاد وقت الأعبـــاء ، فالأنجم التي كانت محتجبة تعاود عملها .

إن الحق يعيــد العقول لمن فقدوا العقول . فيأتون فريقاً فريقاً ، والأقراط في آذانهم[2] .

٣٦٧٥ يدقون بأقدامهم ، ويصفقون بأيديهم ، ويخطرون مرحين ، وفي ثنائهم (يقولون) : « ربنا أحييتنا »[3] .

---

(١) قال تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » . (يس ، ٣٦ : ٥٣) .

(٢) وقد تحلت آذانهم بالأقراط ، أي أن آذانهم طربت بما سمعت .

(٣) قال تعالى : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا » . (غافر ، ٤٠ : ١١) .

فهذه الجلود وهذه العظام النخرة قد أصبحت فوارس يثيرون الغبار [1] .

فهم جميعاً محضرون – يوم القيامة – إلى الوجود ، سواء منهم الشكور والكنود .

فلماذا تحوّل وجهك وتتظاهر بالعمى ؟ أو لم تكن قد حولت وجهك في مبدأ الأمر وأنت بعد في العدم [2] ؟

إنك كنت قد ثبت في العدم قدمك (قائلاً) : « من ذا الذي يقتلعني من مكاني هذا ؟ »

٣٦٨٠ أفلا ترى الآن صنع ربك الذي جرّك من شعر رأسك .

وجذبك إلى كل هذه الأحوال المتنوعة ، التي لم تكن في ظنك ولا خيالك .

وإن ذلك العدم لمسخر له على الدوام . فلتفعل ما تشاء ، أيها الجنيّ ! إن سليمان على قيد الحياة .

وإن الجن لصانعون له جفاناً كالجواب [3] ، وليست لهم الجرأة على أن يرفضوا أو يعترضوا .

فانظر إلى نفسك ، كيف أنك ترتعد خوفاً (من العدم) . واعلم أن العدم أيضاً دائم الخوف .

---

(١) هذه صورة رائعة لبعث المؤمنين أشداء أقوياء بعد موتهم وتحلل أبدانهم .

(٢) أو لم تكن وأنت في العدم تنكر إمكان انتقالك إلى عالم الوجود ؟

(٣) قال تعالى : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكراً ، وقليل من عبادي الشكور » . (سبأ ، ٣٤ : ١٢ - ١٣) . وقوله : « جفاناً كالجواب » معناه « صحافاً كالحياض » والجفان جمع جفنة ، والجوابي جمع جابية من الجباية أي الجمع . ويقال إن الجفان التي صنعتها الجن لسليمان كانت كل جفنة منها تكفي لإطعام ألف رجل .

٣٦٨٥وإذا أنت أطبقت بيدك على المناصب ، فما ذاك إلا لخوفك من أن تنتزع حياتك .

وكل شيء سوى عشق الله رب الجمال ، ليس إلا معاناة للنزع ، حتى ولو كان ارتشافاً للسكر .

فما معاناة النزع ؟ إنها الاتجاه نحو الموت ، من غير أن يكون المرء قد اغترف بيده من ماء الحياة .

فالخلق قد ركزوا أعينهم على الأرض والممات ، على حين يعتريهم مائة شك في ماء الحياة .

فاجتهد حتى تصبح المائة شك تسعين شكاً ، وسر في الدجى (نحو ربك) ، فإنك إن أغفيت ضاع منك الليل .

٣٦٩٠وفتش في الليل المظلم عن ذلك النهار . واجعل أمامك هذا العقل الذي يبدّد الظلمات .

فإن في هذا الليل القبيح اللون خيراً كثيراً . وإن ماء الحياة لقرينٌ للظلام .

وكيف تستطيع أن ترفع رأسك من النعاس على حين أنك تغرس مائة نوع من بذور الغفلة ؟

وقد اقترن النعاس الميّت باللقمة الميتة [١] . لقد نام التاجر فأخذ لص الظلام يعمل .

أفلا تدري من هم أعداؤك ؟ إن الناريين [٢] هم خصوم وجودك الترابيّ .

---

(١) النعاس الثقيل قرين للإفراط في الطعام المادي ، وهذا — في ذاته — خلو من الحياة .

(٢) لقد كان إبليس المخلوق من النار عدواً لآدم المخلوق من الطين . وكل ما اتخذ طبيعة النار مثل الشهوات فهو أيضاً من أعداء الانسان .

٣٦٩٥إن النار عدو للماء وأبنائه ، وكذلك الماء خصم لروح النار .
فالماء يقتل النار ، لأنها خصم لأبناء الماء ، وعدوّ لهم .
ويلي هذا ، أن هذه النار هي نار الشهوة ، تلك التي حوت أصل الإثم والزلة .
وإن النار الظاهرة لتطفأ بالماء ، وأما نار الشهوة فإنها تقودك إلى الجحيم .
إن نار الشهوة لا تسكن بالماء ، فإن لها طبع الجحيم في (إيقاع) العذاب .
٣٧٠٠وما علاج نار الشهوة ؟ إنه نور الدين ! فنوركم – (أيها المؤمنون) – هو الذي يطفىء نار الكافرين [١] .
فماذا يطفىء هذه النـــار ؟ إنه نور الله . فلتجعل نور إبراهيم أستاذاً لك .
حتى يتخلص جسمك الشبيه بالعود من نار نفسك الشبيهة بالنمرود .
إن الشهوة النارية لا تتناقص بدفعها ، لكنهـا لا بـد متناقصة بتركها وإهمالها .
وما دمت تضع الحطب على النار ، فكيف تخمد ، وأنت تغذيها بالوقود [٢] .
٣٧٠٥فإذا ما حبست الحطب عن النار ماتت . وهكذا التقوى ، تلقي بالماء على النار .
وكيف يسودّ من النار وجه جميل ، يصطبغ بلون ورديّ من تقوى الفؤاد ؟

---

(١) الشطر الثاني من هذا البيت عربي في الأصل . ونصه :
« نوركم إطفاء نور الكافرين » . روي عن الرسول حـــديث يتضمن مثل هذا المعنى ، ونصه : « تقول النار للمؤمن يوم القيامة جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي » . (المنهج القوي ، جـ ١ ، ص ٦٦٩) .
(٢) حرفياً : « فمتى تخمد وأنت تسحب اليها الحطب ؟ »

كيف وقعت النار بالمدينة في أيام عمر رضي الله عنه

لقد شبت نار في عهد عمر ، كانت تأكل الحجر كأنما هو
خشب يابس .
واندلعت في الأبنية والمساكن ، ثم امتدت بعد ذلك الى أجنحة
الطيور ووكناتها .
لقد اشتعل نصف المدينة بألسنة اللهب ، وكان الماء يخشى هذه
النار ويعجب منها .
٣٧١٠ وكان عقلاء الرجال يلقون بقرب الماء والخل فوق تلك النار ،
ولكن النار كانت تزداد عناداً . لقد كانت تتلقى مدداً من
اللانهاية .
فأقبل الناس مسرعين إلى عمر ، (وقالوا) : « إن نارنا لا تخمد
قط بالماء ! »
فقال عمر : « إن هذه النار من آيات الله . إنها شعلة من نار
ظلمكم !
فدعوا الماء ، وتصدّقوا بالخبز ، وتخلوا عن البخل إنْ كنتم
قومي » .
٣٧١٥ فقال له القوم : « لقد فتحنا أبوابنا ، وكنا أسخياء ، أهل
فتوّة ».
فقال عمر : « لقد جدتم بالخبز وفقاً للرسم والعادة . لكنكم لم
تفتحوا أيديكم من أجل مرضاة الله .
(كان جودكم) طلباً للفخر والتظاهر والغرور ، ولم يكن دافعه
الخوف ، ولا التقوى ولا الضراعة ! »
إن المال كالبذور ، لا تُغرس في كل أرض مالحة ، أو هو كالسيف

لا يوضع في يد قطاع الطرق .
فلتميزنّ أهل الدين من أهل الضغائن . وابحث عـن جليس الله
ثم اتخذه جليسا !
٣٧٢٠إن كل إنسان يؤثر قومه ، وحتى الأبله ، يتصور أنـه — بإيثاره
هؤلاء — قد أتى فعلا عظيماً .

كيف بصق أحد الخصوم في وجه عليّ — كرّم الله وجهه — وكيف ألقى عليّ بالسيف من يده

تعلـّم من علي الإخلاص في العمل . واعلم أن أسد الله كان مطهراً
من الغشّ والخداع !
لقد تغلب في إحدى الغزوات على رجل من الأبطـال ، فرفـــع
السيف مسرعاً ، مندفعاً (للقضاء عليه) .
فبصق هذا الخصم في وجه علي ، الذي كان فخراً لكل نبيّ وولي .
لقد بصق على هذا الوجه ، الذي كان وجه القمر يسجد أمامه ،
حيث يكون السجود .
٣٧٢٥وفي الحال ألقى علي بالسيف من يده ، وتراخى في قتاله .
فغدا المبارز حيران من هذا العمل ، ومن إظهار علي هذا العفو ،
وتلك الرحمة في غير موضعها .
وقال : « كنت قد شهرت عليّ سيفك البتار . فلماذا رميتـــه
الآن وتركتني ؟
وأيّ شيء رأيته خيراً من منازلتي ، حتى تراخيت في اصطيادك لي ؟
ما الذي رأيته فجعل غضبك يسكن على هذا النحو ؟ لقد كان
كبارق بدا ثم احتجب .

٣٧٣٠ما الذي رأيت ؟ إن وقعَ ما رأيت قد اضرم النـــار في قلبي وروحي .
ما الذي شهدته أعلى من الكون والمكان ، وكان عندك خيراً من الروح ، فوهبتني الروح .
إنك في الشجاعة أسد رباني ! أما في المروءة فمن ذا الذي يعرف من أنت ؟
إنك في المروءة كسحاب موسى في التيه ، ذلك الذي نزلت منه مائدة وخبز مالهما من شبيه .
فالسحب تنبت القمح الذي ينضجه الناس بجهدهم ، ويجعلونه حلواً كالشهد .
٣٧٣٥وأما سحاب موسى فقد بسط جناح الرحمة ، فكان يقدّم الطعام ناضجاً حلواً بدون عناء[1] .
لقد رفعت رحمته علماً في الدنيا ، (لدعوة) الطاعمين الى هـذا الكرم السائغ .
وظلّت تلك الوظيفة ، وذاك العطاء أربعين عامـاً ، بدون أن ينقطعا يوماً واحداً عن أهل الرجاء .
حتى قام هؤلاء – لخستهم – فطلبوا كـُرّاثاً وبقلاً وخساً[2] .
فيا أمة محمد ! يا من أنتم من الكرام ! إنّ هذا الطعام باق لكم حتى القيامة .

---

(١) إشارة إلى ما أنزل على قوم موسى من المن والسلوى . وقد ذكرا في مواضع عديدة من القرآن ، منها قوله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى » . (٢ : ٥٧) . وكذلك « وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى » . (٢٠ : ٨٠) .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة حكاية عن بني إسرائيـــل : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » . (٢ : ٦١)

٣٧٤٠ وعندما ذاع (قول الرسول) : « أبيت عند ربي ... » كانت « يطعمني ويسقيني » كناية عن ذلك الغذاء (الروحي) [١] .

فلتقبلن هذا القول بدون تأويل ، حتى يسيغه حلقك ، كالشهد واللبن .

ذلك لأن التأويل الخاطىء يكون رداً للعطاء ، فصاحب هـذا التأويل يرى تلك الحقيقة خطأ .

ورؤية هذا الخطأ إنما هي من ضعف عقله ، فالعقـل الكلي هو اللبّ ، وأما عقلنا فمثل القشور .

فأوّل نفسك ، ولا تؤوّل الأخبار [٢] . وسبّ عقلك ولا تسبّ بستان الورد !

٣٧٤٥ يا علي ! يا من كلّك عقل وبصر ! حدّثنا عن قليل مما شهدت .

إن سيف حلمك قد مزّق روحنا ! وماء علمك قد طهّر أرضنا .

ألا فلتحدّثنا ، فإني أعلم أن تلك أسراره ! فهو الذي قد دأب على أن يقتل بدون سيف .

إنه الصانع بلا آلة ولا جارحة [٣] . بل إنه الواهب لتلك الهدايا الرائجة .

وهو الذي يسقي العقل آلافاً من الخمور ، لا تدري بهـا العينان ولا الأذنان .

---

(١) في هذا البيت إشارة لحديث عن الرسول روي في البخاري ومسلم عن أبي هريرة جاء فيه : « إياكم والوصال ، إنكم لستم في ذلك مثلي . إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فاكلفوا من العمل ما تطيقون » . (المنهج القوي ، جـ ١ ، ٦٧٣) .

(٢) الأخبار الصحاح المروية عن الرسول .

(٣) إن الخالق يصنع بدون آلة ولا جارحة ، ومع ذلك فهو الذي وهب الناس هذه الهبات الغالية من آلات وجوارح .

٣٧٥٠ألا فلتتكلم يا باز العرش ، يا صاحب الصيد الوفير ! ماذا رأيت من الحق في تلك الآونة ؟
إن عينك قد تعلمت إدراك الغيب ، على حين أن أعين الحاضرين تكون مغلقة » .
فمن الناس من يرى القمر عيانا . ومنهم من يرى العالم مظلماً !
ومنهم من يرى ثلاثة أقمار مجتمعة . وهؤلاء الأفراد الثلاثة يجلسون معاً في موضع واحد .
وأعين هؤلاء الثلاثة مفتوحة ، وآذانهم مرهفة ، وكلها متعلقة بك ، هاربة مني .
٣٧٥٥عجباً ! أهذا سحر العين ، أم هو لطف خفي ؟ لقد كان إزاءك متخذاً صورة الذئب واتخذ إزائي صورة يوسف [١] .
فلو كانت العوالم ثمانية عشر ألفاً أو أكثر من ذلك ، فليست هذه العوالم بمنقادة لكل عين [٢] .
فلتكشف السر يا علي ، أيها المرتضى ! يا من أنت حُسن القضاء بعد سوء القضاء !
فإما أن تحدثني بما أدركه عقلك ، أو أحدّثك أنا بما أشرق علي .
إن ما أشرق علي منبعث منك ، فكيف تخفيه ؟ وإنك كالقمر ، تفيض نوراً من غير قول .
٣٧٦٠لكن قرص القمر — لو أنه ينطق — لسارع إلى هداية المسافرين في ظلمات الليل .

---

(١) يخاطب الفارس علياً مبدياً عجبه كيف أن بصقه في وجهه قد جعله يتراجع عن قتله ، فيقول : « ما أراه الآن من هذا الصفح ، هل هو خداع العين أم هو لطف خفي ؟ إن ما حدث مني نحوك كان كفعل الذئاب وأما ما حدث منك نحوي فكان كفعل يوسف » .
(٢) ليست كل عين قادرة على مشاهدتها .

وإذ ذاك يصبحون في مأمن من الخطأ والذهول . فصوت القمر — لا محالة — يغلب صوت الغول .
فما دام القمر ينير السبيل بدون قول ، فإنه — حين يتكلم — يكون ضياء فوق ضياء .
وما دمت أنت باب مدينة العلم ، وكذلك شعاع شمس الحلم .
فلتكن منفتحاً — أيها الباب — أمام الباحث عن الباب ، حتى يتحقق بك وصول القشور إلى اللباب .
٣٧٦٥ يا باب الرحمة ! كن منفتحاً إلى الأبد . فإنك أنت السبيل إلى من « لم يكن له كفواً أحد[١] » .
إن كل هواء ، وكل ذرّة هي في حد ذاتها منظر (للتأمل) .
فاذا لم ينفتح السبيل إليها فمتى يقال : « ها هنا باب ! »
وما لم يفتح الباب حارس الباب ، فانه لا يتحرك قط في الباطن هذا الخيال .
فإذا ما انفتح الباب أصبح (المشاهد) حائراً ، وتنمو فوق خياله أجنحة ، فيحلق بها .
لقد عثر غافل — فجأة — على كنز في الخراب ، فكان بعد ذلك يندفع مسرعاً نحو كل خرابة !
٣٧٧٠ فإنْ أنت لم تجد الجوهر عند أحد الصوفية ، فكيف كنت تبحث عنه عند صوفيّ آخر ؟
إن الظن لو جرى على قدميه سنين ، فإنه لا يستطيع أن يتجاوز فتحتي أنفه .
فهل أنت مبصر شيئاً قطّ سوى أنفك ؟ ألا فلتجب ! وكيف تبصر إذا شمخت بأنفك ؟ ألا فلتخبرنا !

---

(١) (الإخلاص ، ١١٢ : ٤) .

كيف سأل هذا الكافر علياً – كرّم الله وجهه – قائلاً : « لما كنت قد أصبحت مظفراً على مثلي فلماذا رميت السيف من يدك ؟ »

قال : « تفضل بالقول يا أمير المؤمنين ، حتى تتحرك روحي في الجسم مثل الجنين » .

فبينما يكون الجنين محكوماً بالنجوم ، إذا به يتجه نحو الشمس[1] .

٣٧٧٥وحينما يجيء الوقت الذي يتخذ فيه الجنين روحاً ، فانّ الشمس تصبح عوناً له حينذاك .

إن الجنين يبـــدأ في التحرّك بفعل الشمس ، فهي التي تسارع فتهبه الروح .

وقبل أن تشرق الشمس على الجنين ، لا يتلقى من الأنجم الأخرى شيئاً سوى الصورة .

فمن أيّ السبل تعلق – وهـو كامن في الرحم – بتلك الشمس البهية الطلعة ؟

إنّ هذا يتحقق من طريق خفية ، بعيدة عن حواسنـا . وإن لشمس الفلك لكثيرا من الطرق !

٣٧٨٠فطريق يتلقى الذهبُ منه غذاءه . وطريق يصير به الحجر ياقوتاً .

---

(١) في نسخ المثنوي الأخرى ورد هذا البيت على النحو التالي :

هفت أختر هر جنينرا مدتي   ميكنند أي جان بنوبت خدمتي

ومعناه : (يا روحي ! إن الكواكب السبعة تتناوب خدمة كل جنين مدة من الزمان) . وكان الشائع في زمن الشاعر أن الكواكب تتحكم في الأجنة . فالأشهر الثلاثة الأولى يتحكم فيها زحل والمريخ والمشتري على التوالي . أما الشهر الرابـــع فهو للشمس التي تبث في الجنين روح الحياة .

وطريق يجعل الياقوت أحمر اللون ، وطريق يهب نعل الجواد بريقاً .
وطريق يحدث نضج الثمار ، وطريق يهب الجبان قلباً[1] .
« فلتتكلم أيها الباز المتمع الجناح ! يا من تلقيت العلم من المليك وأنت على ساعده !
لتتكلم أيها الباز الملكي ، الذي يصيد العنقاء ! يا من تهزم جحفلا بذاتك ، لا بجيشك !
٣٧٨٥ لتتكلم فإني قد أصبحت صيداً لبازك ! يا من أنت أمة وحدك ، وواحد بمائة ألف !
لماذا هذه الرحمة في موضع الانتقام ؟ ومن ذا الذي يبيح سبيله مدّ الأيدي للثعابين ؟ »

كيف أجاب أمير المؤمنين (مبينا) سبب إلقاء السيف من يده في تلك الحال

قال : « إنني أضرب بالسيف في سبيل الله ! إنني عبدالله ولست عبداً لجسدي !
إنني أسد الحق ، ولست أسد الهوى . وإن فعلي لهو الشاهد على ديني .
إنني في الحرب مصداق (قول الحق) « ما رميت إذ رميت

(١) مما هو ملحوظ أن الليل يبث الخوف في ضعاف النفوس ، فإذا ما طلع النهار وأشرقت الشمس زال عنهم الخوف .

ولكن الله رمى[1] » . فأنا كالسيف ، وأما الضارب به فشمس الحقيقة !

٣٧٩٠لقد أبعدتُ متاع النفس عن طريقي ، وألفيت ما سوى الحق عدما .

إنني ظـلّ ، ولا سيد لي إلا الشمس ! إنني من حُجّاب بابه ولست حجاباً دونه .

إنني سيف مرصع بجواهر الوصال . فأنا أحيي الرجال ، ولست أميتهم في القتال .

إن الدماء لا تغطي جوهر سيفي . وكيـف تستطيع الرياح أن تبدّد سحبي[2] ؟

أنا لست عوداً من القشّ ، بل أنا جبل من الحلم والصبر . فكيف تقتلع الجبل الرياحُ العاصفة ؟

٣٧٩٥إن القمامة هي التي تدع مكانها حين تعصف بها الرياح . وما أكثر ما يهب من الرياح المعاكسة !

فريح الغضب ، وريح الشهـوة ، وريـح الطمع ، تعصف بمن لا يكون من أهل الصلاة .

إنني جبل ، والحق هو الذي أرسى كياني . فلو غدوت قشة فلا ريح تحركني إلا ريحه .

فليس يتحرك لي ميل إلا بريحه ، ومالي من قائد سوى عشق الأحد .

فالغضب سلطان على الملوك ، ولكنه غلام لنا . وهأنذا قد قيدته بسيطرة اللجام .

---

(١) (الأنفال ، ٨ : ١٧) .
(٢) وكيف تستطيع رياح الغضب أن تعصف بسحب سخائي وكرمي .

٣٨٠٠وإن سيف حلمي قد أطاح برقبة غضبي ! فغضبي للحق جـاء على شاكلة الرحمة .

إنني غريق النور رغم أن سقفي خراب ، وقد أصبحت روضاً مع أني « أبو تراب » [١] .

فحينما دخل بيننا ما هو غير الله ، فقد أصبـح من اللائـــق إغماد السيف .

حتى يكون حبي خالصاً لله ، ويكون ميل هواي للبغض أيضاً في سبيل الله [٢] !

ويكون جودي عطاء لله ، ويكون وجودي إمساكاً لله [٣] .

٣٨٠٥فأنا في البخل والعطاء أنشد (مرضاة) الله وحـده . ووجودي كله لله ، ولست لإنسان .

وذلك الذي أعمله في سبيل الله ليس تقليداً ، وليس تخيـلاً ولا ظناً . فما هو إلا عيان ومشاهدة !

لقـد خلصت من الاجتهـاد ومن التحـري ، وتعلقت [٤] بأهداب الحق .

فإن كنت أطير ، فإنني أبصر مجـال تحليقي ، وإن كنت أدور فإنني أرى مداري .

---

(١) « أبو تراب » لقب لعلي بن أبي طالب قيل إن الرسول أطلقه عليه حين رآه – ذات مرة – نائماً فوق التراب . (٢) حرفياً : حتى يكون اسمي (من أحب لله) وحتى يكون ميلي (من أبغض لله) . هذا البيت والذي يليـه مبني على حديث للرسول ، نصه : « المؤمن إذا أحب أحب لله وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا أعطى أعطى لله وإذا أمسك أمسك لله فهو من الله ولله وبالله » . (٣) حتى يكون جودي خالصاً لوجه الله ، وتمسكي بالوجود لكي أجاهـد في سبيل الله ، وأجعل وجودي وقفاً على ذلك . وفي البيت اقتباس من الحديث الذي ذكرنا نصه في حاشية البيت السابق .

(٤) حرفياً : « وربطت كمي » .

وإذا حملت عبئاً فإنني أعرف إلى أين أحمله . إنني أنا البـدر ،
والشمس أمامي دليل[1] .

٣٨١٠ولا وجه لمكاشفة الخلق بأكثر من ذلك ، فليس في (مجرى)
النهـــر متسع للبحر .
إنني لأتحدث حديثاً متواضعاً على قدر العقول ، ولا عيب في هذا ،
فقد كان دأب الرسول .
وأنا حر من الغرض ، فاستمع إلى شهادة الحرّ . إن شهادة العبيد
لا تساوي حبتين من الشعير .
ففي الشريعة ، لا قدر لشهادة العبيد عند الدعوى والقضاء .
فلو شهد لك آلاف من العبيد ، فإن الشرع لا يقبل شهادتهم (ولا
تزن عنده) مثقال قشة .

٣٨١٥وعبد الشهوة – عند الحق – أسوأ من العبيد والغلمان المسترقين .
فالعبد المسترق يصبح حراً بكلمة واحدة من سيده ، وأما عبـد
الشهوة فيحيى حياة حلوة ، ويموت ميتة مرة !
وعبد الشهوة لا يجد لنفسه من خلاص ، إلا بفضل الله وإنعامـه
الخـاص .
لقد وقع في بئر لا قرار لها ، وتلك خطيئته ، وليست جـبراً
إلهياً ولا جورا .
لقد ألقى بنفسه في بئر لا أجد رسناً يوازي عمقها .

٣٨٢٠فلأكتفين بهذا الحديث ، فإنني لو استرسلت به ، لأدمي الصخور ،
فما بالك بالأكباد ؟
فإذا كانت هذه الأكباد لم تدم ، فما ذاك لصلابتها ، وإنما لحيرتها ،
وانشغالها ، وسوء طالعها .

---

(١) البدر يتبع الشمس ، وليس هناك مجال لخروجـه عن مداره وضلاله في أجواز الفضاء .

ولسوف تدمى يوماً لا تكون دماؤها فيه ذات جدوى . فلتصبح دماً في وقت لا يكون فيه الدم مردودا !
ولما كانت شهادة العبيد غير مقبولة ، فإن (الشاهد) العدل هو الذي لا يكون عبداً لغول (الشهوات) .
ولقد جاء في الذكر (قوله تعالى) : « إنا أرسلناك شاهداً [1] » ، ذلك لأن الرسول كان – (أمام استعباد) الدنيا – حرّاً وابن حر .

٣٨٢٥ وما دمتُ حراً فكيف يأسرني الغضب ؟ فهنا ليس لدينا سوى صفات الحق . فادخل معنا !
ادخل فإن فضل الحق قد جعلك حراً ، وإن للحق لرحمةً سابقة على غضبه .
لتدخلن الآن ، فإنك قد نجوت من الخطر . لقد كنت حجراً فجعلتك الكيمياء جوهرا !
لقد خلصت من الكفر ومن منابت أشواكه . فتفتح الآن مثل الورد في بستان سرو الخالق .
فأنت أنا ، وأنا أنت أيها العظيم ! لقد كنتَ علياً ، فكيف أقتل ذاتي ؟

٣٨٣٠ لقد ارتكبت معصية هي خير من كل طاعة ! وها أنت ذا قد ذرعت السماء في لحظة واحدة .
فلكم كانت مباركة تلك المعصية التي ارتكبها الرجل ! أو ليست أوراق الورد تنبثق من الأشواك ؟
وإثم عمر وترصده للرسول ، أو لم يجتذبه إلى جانب القبول ؟

---

(١) قال تعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا » . (الأحزاب ، ٣٣ : ٤٥) .

وكذلك السحرة ، أفلم يقربهم فرعون من أجل سحرهم ، فأصبح الجد الصاعد عوناً لهم ؟

فلو لم يكن سحرهم وجحودهم لموسى ، فما الذي كان يقربهم من فرعون العنيد ؟

٣٨٣٥ومتى كانوا يرون العصا والمعجزات ؟ فهـا هي ذي المعصية قد انقلبت إلى طاعة ، أيها القوم العصاة !

لقد ضرب الله عنق اليأس ، حينما انبثقت الطاعة من الجرم والعصيان .

فهو حين يبدل السيئات ، يجعلها طاعات ، على الرغم من الوشاة .

وبهذا أصبح الشيطان الرجيم مرجوماً . وقد انفطر من الحسد ، وانشق نصفين .

إنه يسعى ليربي الإثم فينا . وبذلك الإثم يدفعنا إلى الهاوية .

٣٨٤٠وحينما يرى أن هذا الإثم قد أصبح طاعة ، تمر به ساعة لا بركة فيها .

يقول : « ألا فلتدخل ، لقد فتحت الباب من أجلك ! إنك تبصق عليّ وأنا أتحفك بهدية !

فإن كنت أعطي مثل هذا لصاحب الجفاء ـ (وأنت ترى) على أية صورة أضع رأسي عند قدمه اليسرى ـ

فماذا أنا واهبٌ صاحب الوفاء ؟ ألا فلتعلم أني أهبه الكنوز والملكوت الدائم » .

كيف همس الرسول – عليه السلام – في أذن سائس جواد أمير المؤمنين عليّ قائلا : « إني أخبرك أن مصرع عليّ سيكون على يديك »

إنني رجل لا يتحول رحيق لطفي إلى إبرة تنفث سم الانتقام ، حتى إزاء قاتلي [1] !

٣٨٤٥ لقد همس الرسول بأذن خادمي (قائلا) ، إنه ذات يوم سيحتزّ رأسي عن عنقي !

لقد أذاع الرسول من وحي الحبيب أن هلاكي يكون في عاقبة الأمر – على يدي خادمي .

فكان الخادم يقول لي : « بادر بقتلي ، حتى لا يقع مني هذا الخطأ المنكر » .

وأنا أقول له : « إذا كان موتي على يديك فكيف أستطيع أن أسعى للاحتيال على القضاء ؟ »

إنه يرتمي أمامي (ضارعاً) : « أيها الكريم ! بحق الله شقني نصفين .

٣٨٥٠ حتى لا تحيق بي تلك العاقبة السيئة ، وحتى لا تحترق روحي على (من هو) روحها » .

وأنا أقول له : « اذهب ، فقد جف القلم [2] ، وكم بهذا القلم قد دُك من علم .

إن روحي لا تنطوي على بغض لك قط ، ذلك لأنني أعلم أن هذا الأمر ليس منك !

(١) الكلام هنا على لسان علي .
(٢) هذا القضاء قد كتب ولا مجال لتغييره .

إنك آلة الحق ، وأما الفاعل الحقيقي فيد الحق . فكيف أوجه الطعن والضرب لآلة الحق ؟

فقال : « فلماذا إذن يكون القصاص ؟ فقال علي : « إنه من الحق ، وهو سر خفي ! »

٣٨٥٥ فهو إذا أبدى الاعتراض على فعل ذاته ، ينبت الرياض من هذا الاعتراض .

وهو صاحب الحق في الاعتراض على فعله ، ذلك لأنه الواحد في قهره ولطفه .

إنه الأمير هنا ، في مملكة الحوادث ، وهو مالك التدبير في الممالك .

وإنه ما كسر أداة من أدواته إلا عاد فأصلح تلك الأداة .

فلتفهم أيها العظيم مغزى الآية : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها[1] » .

٣٨٦٠ فكل شريعة نسخها الله كانت عشباً ، وجاء بالورد عوضاً عنه .

إن الليل ينسخ شغل النهار ، فتأمل هذا الجمود الذي ينير العقل .

ثم ينسخ نور النهار (ظلام) الليل . فيحرق هذا بلظاه جمود الظلام .

ومع أن هذا النوم والسبات ظلمة ، أليس ماء الحياة داخل الظلمات ؟

أفلا تتجدد العقول بتلك الظلمة ؟ أوليس السكوت هو ذخيرة الصوت ؟

٣٨٦٥ إن الأضداد يظهر بعضها بعضاً ! ولقد خلق الله النور الدائم في السويداء .

وحروب الرسول قد صارت مدار الصلح . فصلح آخر الزمان هذا إنما كان من تلك الحروب .

---

(١) (البقرة ، ٢ : ١٠٦) .

فهذا الحبيب قد قطع آلاف الرؤوس ، وذلك لكي تجد الأمان رؤوس أهل الدنيا .
والبستاني يستأصل الأغصان الضارة حتى تسمق النخيل بقاماتها وتخضل .
وذلك الخبير يقتلع من البستان تلك الحشائش حتى يتجلى جمال البستان والثمار .

٣٨٧٠ والطبيب يقتلع الأسنان التالفة حتى يخلص (مريضه) الحبيب من العلة والألم .
فكم من زيادات ينطوي عليها النقصان . وإن حياة الشهداء لفي فنائهم !
فحينما قطعت حلوقهم التي يتناولون بها الرزق ، صارت الأرزاق الروحية سائغة لهم[1] .
وكلما قطع حلق الحيوان طبقاً للشريعة ، نما به حلق الإنسان وزاد بذلك فضل (الحيوان[2]) .
فلو قطع حلق الإنسان[3] فماذا يتولد (من ذلك) ؟ ألا فلتتنبه ، ولتتأمل ، ولتقس هذا على ذلك .

٣٨٧٥ إن حلقاً ثالثاً يولد ، يكون راعيه شراب الحق وأنواره .
فهذا الحلق المقطوع[4] يتناول الشراب ، لكنه يكون قد خلص من النفي ومات في الإثبات .
فإلى متى تستمد من الخبز حياة روحك ؟ حسبك (هذا القدر) يا وضيع الهمة ، يا قصير البنان !

---

(١) حرفياً : أصبح مضمون قوله تعالى : « يرزقون فرحين » سائغاً لهم . وفي البيت اقتباس من قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله » . (٣ : ١٦٩ - ١٧٠) .
(٢) لأن الحيوان الذي يتخذه الإنسان غذاء يصبح جزءاً من الكيان الإنساني .
(٣) يريد بقطع حلق الإنسان إماتته .
(٤) كناية عن الإنسان الذي فارق بالموت هذه الحياة الدنيا .

إنك عديم الثمار كشجرة الصفصاف ، لأنك أرقت ماء وجهك من أجل الخبز الأبيض .
فإن كانت نفسك الحسية لا تصبر عن هذا الخبز ، فلتمسك بالكيمياء ولتحوّل النحاس إلى ذهب .
٣٨٨٠ فإذا كنت — أيها المرء — تريد غسل ثيابك ، فلا تحوّل وجهك عن محلة الغاسلين .
ومع أن الخبز أزال صيامك ، فلا تتعلق إلا بجابر الكسور ، ولتسمون إلى العلا .
ولما كانت يده هي التي تجبر الكسور ، فإن الكسر الذي تحدثه يكون ـ بدون شك ـ جبراً .
وأما أنت فإنك إذا كسرت شيئاً يقول لك : « تعال واجعل ما كسرت صحيحاً ! » ، ولا يد لك إذ ذاك ولا قدم !
فالكسر إذن حق له وحده لأنه هو الذي يعرف كيف يجبر الكسور .
٣٨٨٥ إن الذي يعرف كيف يحيك يعرف أيضاً كيف يمزق . وكل ما قد باعه فقد اشترى خيراً منه .
إنه يهدم الدار عاليها وسافلها ، وفي ساعة واحدة يعيدها أكثر عمرانا .
وهو إذا أطاح برأس واحد عن البدن ، فإنه ينبت في ذات اللحظة آلافاً من الرؤوس .
فلو لم يأمر بالقصاص من الجناة ، ولو لم يقل : « ولكم في القصاص حياة [1] » ،
فمن ذا الذي كان يجرؤ على أن يضرب بالسيف ـ من تلقاء نفسه ـ من هو أسير حكم الحق ؟
٣٨٩٠ فكل من فتح الله عينيه (للحقيقة) ، يدرك أن ذلك القاتل

(١) (البقرة ، ٢ : ١٧٩) .

كان مسخّراً للقدر .
وكل من صار مقيداً بهذا التقدير ، فإنه لا محالة ضارب بالسيف ، ولو أصاب رأس ابنه .
فامض ، واخش الله ، وأقلل من تناول الآثمين بالطعن . وكن مدركاً لعجزك أمام حكم القضاء .

كيف عجب آدم – عليه السلام – من ضلال إبليس ، فأظهر بذلك الغرور

نظر آدم ـ ذات مرة ـ باحتقار وازدراء إلى إبليس الشقي .
لقد اغتر بنفسه ، واعتد بذاته ، فسخر من فعل إبليس اللعين .
٣٨٩٥ فهتفت به غيرةُ الحق (قائلة) : « أيها الصفي ! إنك لا تدرك خافي الأسرار .
فلو أنّ الله عكس الآية [١] ، لاقتلع الجبل من أصله وأساسه .
ولمزّق في الحال قناع مائة آدم ، ولقاد مائة إبليس إلى حظيرة الإسلام ! »
فقال آدم : « يا إلهي ! إنني تبت إليك من هذا النظر . ولن أتفكر بعد بمثل تلك الجسارة .
يا غيـاث المستغيثين اهـدنا لا افتخار بالعلوم والغنى [٢]
٣٩٠٠ لا تزغ قلبـاً هديت بالكرم واصرف السوء الذي خط القلم [٣]
وأبعد عن روحنا سوء القضاء ، ولا تقطعنا عن إخوان الرضى !

---

(١) حرفياً : « فلو أنه قلب الفراء على ظهره » ، وهذا كناية عن إظهار الغضب في مكان الرحمة .
(٢) ، (٣) هذان البيتان عربيان في الأصل .

فليس هناك ما هو أمرّ من فراقك . وبدون ملجئك ليس لنا
سوى الحيرة والضلال .
إنّ متاعنا (الحسيّ) يسدّ الطريق أمام متاعنا (الروحيّ) !
كما أن أجسامنا تعري من الثياب أرواحنا .
فإذا كانت يدنا تأكل قدمنا ، فكيف يستطيع إنسان أن ينقذ
روحه ، بدون أمانك ؟
٣٩٠٥ولو أنه أنقذ روحه من هذه الأخطار العظمى ، فلعله لا يكون
قد أنقذ إلا ذخيرة من الإدبار والخوف .
فالروح – إن لم تكن متصلة بالحبيب – فهي إلى الأبد – منطوية
على نفسها عمياء تعسة [١] .
فلا حياة للروح إن لم تفسح لها سبيلا إليك ، لأنّ الروح لا تحيى
إلا بك ، حتى ولو أنقذها صاحبها .
فلو أنك وجهت الطعن إلى عبادك فإن ذلك يحق لك ، أيها
المستجاب الرغاب !
ولو أنك قلت إنّ الشمس والقمر جفاء ، أو قلت إنّ قدّ
السرو معوجّ .
٣٩١٠أو وصفت العرش والفلك بالحقارة ، أو نعت المنجم والبحر بالفاقة ،
فذلك كله حق بالنسبة إلى كمالك ، فإن لك الملك (القادر) على
إكمال ما يفنى .
إنك لبريء من الخطر ، ومن العدم . وإنك لموجد المعدومات
وواهبها الغنى !
فذلك الذي أنبت يعرف كيف يحرق ، لأنه كما يمزّق يعرف
كيف يرتق [٢] .

(١) حرفياً : زرقاء . وفي هذا اللون كناية عن التعاسة وسوء الحال .
(٢) إن الذي أنبت النبات يعرف كيف يبيده لأنه حينا يبيده قادر على إيجاده من جديد .

فهو في كل خريف يحرق البستان ، ثم يعود فينبت به الورود التي تصبغه بالألوان .

٣٩١٥ قائلا : « أيها الذابل المحترق ! اخرج الآن ، وعد إلى نضرتك ، وكن مرة أخرى جميلا مليح الذكر[1] !

لقد عميت عينُ النرجس فأعاد إليها تفتحها . وقطع حلق الناي ثم عاد فدلله .

ولما كنا مصنوعين ولسنا صانعين ، فلا سبيل لنا إلا أن نكون ضعفاء قانعين .

إننا جميعاً حسّيّون نضطرب بهذه الحسّية ، فلو لم تدعنا إليك ، لكنا جميعاً من الشياطين .

وما نجونا نحن من الشيطان إلا لأنك قد اشتريت أرواحنا من العمى (وخلصتها) .

٣٩٢٠ إنك أنت الدليل لكل كائن حي . فمن هو هذا الأعمى الذي يكون بلا عصا وبلا دليل ؟

وكل ما سواك – سواء أكان حلواً أو غير حلو – محرق للإنسان بل هو عين النار .

وكل من صارت له النار ملجأ وظهيراً فقد أصبح مجوسياً ، وغدا زردشتياً .

كل شيء ما خلا الله باطل   إن فضل الله غيم هاطل

عودٌ إلى قصة أمير المؤمنين عليّ ، كرم الله وجهه ، وصفحه عن قاتله

الآن عد إلى حكاية علي وقاتله ، وكرمه وتساميه إزاء هذا القاتل !

---

(١) حرفياً : مليح الصيت أو السمعة .

٣٩٢٥قال (عليّ) : « إني أرى القاتل بعينيّ في النهـــار وفي الليل ، ولكني لا أشعر نحوه قط بالغضب !

فالموت قد أصبح لي حلو المذاق كأنــه المنّ . إنّ موتي قد دقّ لي بشائر البعث[1] .

فالموت بدون موت (الروح) حلالٌ لنا ، والرزق الذي ليس من الزاد (المادي) نوال لنا .

فهو في الظاهر موت ولكنه في الباطن حيـاة ! وهو في الظاهر انقطاع ولكنه في الباطن خلود !

إنّ ميلاد الرحم نقل للجنين (من حال الى حال) . أما جنين الدنيا فميلاده ازدهار جديد[2] .

٣٩٣٠ولما كنت أستشعر عشق المنيّة وهواها ، فـإن النهي في (قوله تعالى) : « لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة[3] » يتوجه إليّ .

والنهي يكون عن الثمرة الحلوة ، وأما الثمرة المرة فما الحاجة إلى النهي عنها ؟

فالثمرة التي تكون مرّة اللباب والقشر يقوم بالنهي عنها مرارتها وكريه طعمها .

وثمرة الموت قد أصبحت – عندي – حلوة المذاق وها هو ذا ثواب الشهداء قد اقتفى أثري[4] !

---

(١) حرفياً : « إن موتي قد دق لي صنج البعث » .

(٢) جنين الدنيا هو الإنسان وميلاده هو موته ، لأن الموت عند الصوفية ميلاد الروح وفاتحة للحياة الحقة في العالم الروحيّ .

(٣) (البقرة ، ٢ : ١٩٥) .

(٤) حرفياً : وها هوذا قوله تعـــالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . (آل عمران ، ٣ : ١٦٩) .

اقتلوني يا ثقاتي لائما إنّ في قتلي حياتي دائما [1]

٣٩٣٥ إنّ في موتي حياتي يا فتى كم أفارق موطني حتى متى [2]

فرقتي لو لم تكن في ذا السكون لم يقل إنا إليه راجعون [3]

فالراجع هو الذي يعود إلى المدينة ، ويتجه إلى الوحدة (متخلصاً) من دوران الدهر .

كيف جاء تابع عليّ – كرم الله وجهه – (قائلا) : « بحق الله ، اقتلني ، وخلصني من هذا القضاء ! »

إن تابع عليّ قد عاد إليه (قائلا) : « يا عليّ عجّل بقتلي ، حتى لا أشهد هذه اللحظة ، ولا ذلك الوقت المرير .

لقد أحللت لك دمي ، فأرقه ، حتى لا ترى عيناي هذا اليوم (المروّع) كالقيامة » .

٣٩٤٠ فقلتُ [4] : لو أنّ كلّ ذرّة أصبحت قاتلا ، وقصدتك حاملة بيدها الخنجر ،

ما استطاعت أنْ تقطع طرف شعرة منك ، ما دام القلم قد كتب عليك مثل هذا القدر [5] .

فلا تحزن فإني أنا شفيعك . إني سيد لروحي ، ولست عبداً لجسدي !

فهذا الجسم لا قيمة له عندي . وبدون هذا الجسم أنا الفتى وابن الفتى !

---

(١) ، (٢) ، (٣) هذه الأبيات عربية في الأصل .

(٤) الكلام هنا على لسان عليّ .

(٥) ما دام القلم قد قدّر عليك قتلي .

إنّ الخنجر والسيف قد أصبحا ريحاني ! والموت قد صار لي مجلس أنس ، وبستان نرجس !

٣٩٤٥ وكيف يحرص على الإمارة والخلافة من يجعل الجسم مجرّد أثر ، على هذا النحو ؟

إنه يبذل جهده في (النهوض) بالسلطان والحكم ، وذلك ليبين للأمراء سبيل (العدالة) والحكم (الصالح) .

فيبثّ في الإمارة روحاً أخرى ، ويجعل نخيل الخلافة حافلاً بالثمار .

في بيان أن طلب الرسول – عليه السلام – فتح مكة وغير مكة لم يكن لأنه أحب ملك الدنيا فقد قال عنها : « الدنيا جيفة » وإنما كان ذلك الفتح بأمر (من الله)

وهكذا جهد الرسول لفتح مكة . وكيف يكون الرسول متهماً بحب الدنيا ؟

وهو الذي أغلق عينيه وقلبه – يوم الامتحان – عن خزائن السموات السبع .

٣٩٥٠ لقد حفلت آفاق السموات السبع بالحور والجان الذين احتشدوا لمشاهدته ،

وكل منها قد اتخذ زينته من أجله . وأنى تكون له عناية بغير الحبيب ؟

لقد أصبح مفعم القلب بإجلال الحقّ ، إلى الحدّ الذي لم يدع للمقربين إلى الحق سبيلاً إلى قلبه .

لا يسع فينا نبي مرسل والملك والروح حقاً فاعقلوا [1]

إنّ (بصرنا) ما زاغ عن (سبيل الروح) ، فلسنا كالغراب [2] (ننشد الجيف) . نحن سكارى بمن صبغ البستان ، ولسنا سكارى بألوانه !

٣٩٥٥ ولما كانت خزائن الأفلاك والعقول قد بدت (عديمة القيمة) كالقشّ أمام عين الرسول ،

فماذا تكون مكة والشام والعراق، حتى يظهر في سبيلها الصراع والحرص؟

فهذا التصوّر والظنّ إنما هما للمنافق ، الذي يتخذ من روحه الشرير قياساً .

إنك لو جعلت أمام وجهك زجاجة صفراء ، ترى جملة نور الشمس أصفر اللون .

فلتكسرن تلك الزجاجات ذات اللون الأزرق والأصفر ، حتى تتبيّن الغبار والرجل (المحتجب وراءه) .

٣٩٦٠ إن الغبار قد تصاعد برأسه حول الفارس ، فظننت هذا الغبار رجل الله .

لقد رأى إبليس الغبار فقال : « كيف يتفوق سليل الطين هذا عليّ ، أنا الناريّ الجبين ؟ »

فما دمت ترى الأعزاء (من الأنبياء والقديسين) بشراً (كعامة الناس) ، فاعلم أن نظرك هذا إنما هو ميراث إبليس اللعين !

---

(١) هذا البيت عربي في الأصل . ويلحظ فيه ضعف عبارته . وقوله : « لا يسع فينا » يقصد به « لا نتسع ، أو لا مجال عندنا » . والمعنى الكلي للبيت : « ليس هناك مجال عندنا لنبيّ مرسل ولا ملك ولا روح ، وإنما نحن مع الله وحده » . وفي هذا البيت والبيت السابق له إشارة إلى حديث نبوي نصه : « لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل » .

(٢) في البيت إشارة إلى قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » . (٥٣ : ١٧) ، وفيه جناس بين كلمة « زاغ » في الآية ، وكلمة « زاغ » الفارسية بمعنى « غراب » .

فلو لم تكن سليل إبليس – أيهـــا العنيد – فكيف وصل إليك ميراث ذلك الكلب ؟

وإني لست بكلب ، بل أنا أسد الحق ، الذي يعبد الحق . ومـــا أسد الحق إلا من خلص من الصورة .

٣٩٦٥إن أسد الدنيا ينشد الصيد والغذاء ، وأمـــا أسد المولى فينشد التحرر والموت !

فهو حينما يرى في الموت مائة وجود ، فإنه يحرق وجوده مثل الفراشة .

لقد أصبح حب الموت قرين الصادقين ، ولقد كانت هذه الكلمة امتحاناً لليهود [1] .

لقد قال تعالى لليهود في القرآن (ما معناه) : « يا قوم اليهود إن الموت للصادقين كنز وربح [2] .

فكما أن أمل الربح كائن (في قلوب البشر) ، فإن أمـل الفوز بالموت خير من هذا الأمل .

٣٩٧٠أيهـــا اليهود ! لتجروا على ألسنتكم ذلك التمني ، حتى تفوزوا بشرف الإنسانية [3] .

فلم يكن ليهودي هذا القدر من الشجاعة ، حين رفع محمد علم (الدعوة) .

فقال : « إنهم لو أجروا هذا القول على ألسنتهم ، لمـــا بقي في العالم يهودي واحد [4] » .

---

(١) ، (٢) ، (٣) : إشارة إلى قوله تعالى : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » . (٦٢ : ٦ ، ٧) .

(٤) يروى عن الرسول أنـه قال : « لو تمنى اليهود الموت لم يبق يهودي على وجه الأرض » . (المنهج القوي) . وقد أورد البيضاوي هذا الحديث في تفسيره لقوله تعالى : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بمـــا قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » . (٢ : ٩٤ ، ٩٥) .

ولقد حمل اليهود المال والخراج (إلى الرسول) قائلين : « لا تفضح
أمرنا ، أيها السراج ! »
وليس لهذا الكلام نهاية ظاهرة . فلتعطني يدك ، ما دامت عينك
قد أبصرت الحبيب .

كيف قال أمير المؤمنين عليّ – كرم الله وجهه – لخصمه : « إنك حينما بصقت في وجهي ، تحركت نفسي فلم تعد مخلصة في عملها ، وقد صار هـــذا مانعاً لقتلك »

٣٩٧٥قال أمير المؤمنين لذلك الشاب : « إنه في وقت القتال ، أيها البطل .
حينما بصقت في وجهي ، تحرّكت نفسي ، ففسد طبعي .
فأصبح نصف (قتالي) من أجل الحق ، ونصفه من أجل الهوى !
وأنت من تصوير كف الخالق . إنك من صنع الخالق ، ولست
من صنعي .
وكسر تصوير الحق ، لا يكون إلا بأمر الحق وحده . وضرب
زجاجة الحبيب ، لا يكون إلا بحجر الحبيب [1] .
٣٩٨٠لقد سمع المجوسي هذا (القول) ، فتجلى النور في قلبه ، فمزّق زناره .
وقال : « لقد كنت أغرس بذور الجفاء ، وكنت أحسبك نوعاً
آخر (من البشر) !
على حين أنك كنت ميزان صفة الوحدانية ! بل إنك كنت اللسان
المعبر عن كل ميزان .

---

(١) حرفياً : « فاكسر تصوير الحق بأمر الحق وحده ، واضرب زجاجة الحبيب بحجر الحبيب » .

إنك كنت جنسي وأصلي وصاحب قرباي ! إنك كنت النور الذي ينبعث من شمع عقيدتي !
فأنا عبد لذلك السراج الذي يبحث عن العين ، ذلك السراج الذي اقتبس النور منه سراجك .

٣٩٨٥ إني عبد لأمواج ذلك البحر من النور ، الذي دفع مثل هذا الجوهر إلى الظهور .
فلتعرض عليّ الشهادة ، فإني قد رأيتك مفخرة الزمان » .
واتجه نحو الدين بمحبة واشتياق قرابة خمسين من ذوي قرباه وقومه .
فعليّ - بسيف حلمه - قد اشترى من السيف كثيراً من الرقاب ، لكثير من الخلق .
وإن سيف الحلم لأحدّ من سيف الحديد ! بل إنه لأقدر على تحصيل الظفر من مائة جيش !

٣٩٩٠ فوا أسفاه أن لقمة أو لقمتين قد أكلتـــا . فتجمد من تناولها جيشان الفكر .
إن حبة من القمح قد كسفت شمس آدم كما أن (سقوط) الذنب[1] يكون خسوفاً لالتماع البدر .
فتأمل لطف القلب ، وكيف يصير بَدْرُه بقبضة من الطين متقطع النور كأنه أنجم الثور[2] .
فحينما كان الخبز معنوياً ، كان تناوله نافعاً ، ولكنـه حين أصبح صورياً أثار الجحود !

---

(١) عقدة الذنب وعقدة الرأس هما النقطتان اللتان يتلاقى عندهما مدار كل من الشمس والقمر . ويحدث الكسوف والخسوف عند أية نقطة من هاتين النقطتين .

(٢) مجموعـــة من النجوم الصغيرة تبدو وهي مجتمعة على صورة الثور ، وتمثل منزلاً من منازل القمر . فمعنى البيت أن المطامع المادية تبدد نور القلب فتجعله يبدو مشتتاً كتلك الأنجم الصغيرة المبعثرة بعد أن كان كالبدر مجتمع النور .

فهو مثل الأشواك الخضراء التي تأكلها الجمال ، فتجد في تناولهـــا مائة نفع ولذة .

٣٩٩٥ فإذا ما ذهبت خضرتها وجفت ، فإن الجمال حين تأكلها في الصحراء ، تمزق أفواهها وأشداقها . فواأسفاه أن هــذا الورد المغذي[١] قد أصبح سكيناً .

فالخبز ـ حينما كان معنوياً ـ كان شبيهاً بذلك الشوك الأخضر .

فلما أصبح صورياً فإنه الآن يابس غليظ !

وأنت على تلك العادة : فكما كنت قد أكلته من قبل ، أيهـــا الـكائن الرقيق !

فإنك تأكل اليوم ذلك اليابس ، (وفي أنفك) ذات الرائحة ، بعد بعد أن امتزج المعنى بالتراب .

٤٠٠٠ لقد أصبح (خبزك) مختلطاً بالتراب ، يابساً يمزق اللحم ، فلتعف الآن عن ذلك العشب (اليابس) ، أيها الجمل !

إن الكلام يجيء وهو شديد التلوث بالتراب ! وها قد تعكر الماء ، فلتغلقن فوهة البئر .

حتى يعيده الله ماء صافياً عذباً . وإن الذي عكره ليجعلنه صافياً .

والصبر هو الذي يحقق الأمل ، لا التسرع . فكن صابراً ، والله أعلم بالصواب .

تمت ترجمة الكتاب الأول من المثنوي

---

(١) يقصد الشوك الأخضر الذي كان طعاماً سائغاً نافعاً للإبل .

شُرُوح وَدِرَاسَات

تمهيد

كنت قد ألحقت بنص الترجمة حواشي وتعليقات رأيت أنها ضرورية لايضاح النص . وفي الصفحات التالية أقدم للباحثين شروحاً ودراسات حول الكتاب الأول من المثنوي ، وهي الشروح التي وصفتها بإيجاز في مقدمة الكتاب . وتشير الأرقام في هذه الشروح إلى أرقام الأبيات في الترجمة . وآمل أن أكون – بهذه الشروح – قد أضفت الى جهود السابقين ما يسهم في بيان معاني الكتاب ، وجلاء أسراره .

محمد كفافي

(١ ـ ١٥) افتتح جلال الدين المثنوي بالحديث عن الناي . لقد كانت هذه الآلة الموسيقية محببة إلى نفس الشاعر ، كان يستطيع العزف عليها كما كان هو ورفقاؤه يحبون الاستماع إليها في مجالسهم . والناي من الآلات الموسيقية التي يمكن أن تعبر أنغامها عن الحنين والأسى بعمق وإبداع . وقد اتخذ الشاعر من حنين الناي منطلقاً لمنظومته الكبرى . فالناي رمز للنفس الإنسانية . أنغامه حنين إلى أصله ، حيث منابت الغاب التي اقتطف منها ، قبل أن يُشكل على تلك الصورة ، ويصبح من آلات الموسيقى . وكذلك النفس الإنسانية تحن إلى أصلها الذي انفصلت عنه ، قبل أن تهبط إلى هذه الأرض ، وتحلّ في هذا الجسد . وقد استطاع الشاعر أن يستخرج من هذا المعنى صوراً شعرية رائعة ، كما سنرى في تعليقاتنا على بعض هذه الأبيات .

(٢) لا يقتصر التأثر لأنغام الناي على الرجال وحدهم أو النساء وحدهن بل الناس جميعاً يتأثرون ، وكلهم يبكون لبكاء الناي . وفي هذا إشارة إلى تشابه الرجال والنساء في أصلهم الإلهي ، واشتراكهم في الحنين إلى هذا الأصل . وقد درج الشاعر في مواضع كثيرة من أشعاره على تأكيد الشبه بين الرجل والمرأة .

(٣) يروي الشاعر عن الناي أنه ينشد صدراً مزقه الفراق ليشرح له ألم الاشتياق ، فليس كل مستمع إلى الناي يتأثر به وإنما يجب أن يكون ذا نفس شاعرة ، تفقه الأنغام وتنفعل بها . والإنسان الذي يعاني التجارب يستطيع أن يدرك مشاعر رفيقه إذا مر بذات التجارب ، وإلا فهو في واد ورفيقه في واد ، يصدق عليهما قول القائل : « ويل للشجي من الخلي » .

(٥) الناي قرين للبائسين والسعداء ، لأن كل فريق من هؤلاء يستمع إليه ، ويتأثر به ، على مقتضى الحالة النفسية التي يكون عليها ، فإن كان سعيداً طرب له ، وإن كان حزيناً ، تولاه الأسى .

(٦) كل إنسان قد ظن أنه تذوق أنغامي ، وأصبح مدركاً لها ، ولكن لم يفتش أحد من هؤلاء عما كمن في باطني من الأسرار ، ولا عما تعنيه أنغامي ، وما ترمز إليه هذه الأنغام من معاني محتجبة .

(٧) الناي يحث مستمعيه على محاولة إدراك سرّ أنغامه ، ذلك السر المرتبط بالأنغام ذاتها ، لكنه لا يتجلى إلا للحواس المدركة ، التي تغوص وراء الأسرار .

(٨) ينتقل الشاعر من حديث الناي ببراعة إلى تأكيد وجود الروح في الجسم الإنساني . الروح ليس بمستور عن الجسم ولا الجسم بمستور عن الروح . لكن مشاهدة الروح بصورة حسية لا تتاح لإنسان .

(٩) صوت الناي بما يعبر عنه نار ، وليس مجرد هواء ينفخه العازف بتلك الآلة الموسيقية ، فيولد هذه الأنغام . والمهم هو جوهر الأنغام ، لا مادتها ووسيلتها .

(١٢) صور متقابلة للناي . إنه سم وترياق ، يثير الأحزان بأنغامه ، وفي ذات الوقت يشفيها . وهو رفيق مشتاق . يكون دائماً في صحبة الناس ، وهو مع ذلك في حنين دائم واشتياق .

(١٣) الطريق الذي ملأته الدماء ، هو طريق المحبة الذي يكثر حديث الصوفية عنه . فالناي يصور هذا الطريق ، ويحدّث الناس بالعشق وقصصه ، التي منها قصة المجنون وليلى . والصوفية قد اتخذوا من قصص الحب العذري التي شاعت أخبارها ، مادة للتعبير عن المحبة الصوفية . وقد نظم كثيرون من الصوفية قصة ليلى والمجنون وملؤوها بالمعاني الصوفية العميقة ، وأجروا على لسان هذين العاشقين ألواناً من الحوار الرائع ، لا يمكن أن تكون قد خطرت لهما على بال . ومن

أشهر من فعل ذلك نظامي الكنجوي ، وعبد الرحمن الجامي .

(١٦) لا يبالي الشاعر بذهاب الأيام وانقضائها . والمهم أن يبقى له ذلك الحب الإلهي ، الذي لا نظير له في الطهر والنقاء .

(١٧) المعاني الروحية لا يشبع منها من كانوا ذوي إدراك لها وإحساس بها . فهؤلاء مثل السمك الذي لا يشبع من الماء . أما من لم يكن من جنس هؤلاء فهو غريب عن تلك المعاني الروحية غربة سكان اليابسة عن الماء . وكل من كان بدون رزق روحي ، يطول به اليوم في انتظار رزق لا يتحقق .

(١٩) القيود هي حب الذهب والفضة والتعلق بالمال .

(٢٠) الطامع النهم يريد أن يحصل على كل ما يقع تحت حواسه وإدراكه . والطمع وحده هو الذي يدفعه إلى ذلك . فهو كمن يحاول اغتراف البحر بكوز . وأي مقدرة للكوز على اغتراف مـاء البحر ؟ وأي مقدرة للكيان الإنساني على الإفادة من كل ما يقع تحت الحواس مما يثير الأطماع .

(٢٢) العشق الصوفي هو الذي يطهر النفس الإنسانية مما يقيدها من حرص مادي ، وما يشيع بها من عيوب أخرى ترتبط بذلك . فالعاشق الصوفي يكون كل كيانه متجهاً لحقيقة واحـــدة يهون إلى جانبها كل شيء .

(٢٤) العشق الصوفي دواء للغرور والكبرياء . فالعاشق يتجـه بكل كيانه إلى معشوقه ، فتخرج من نفسه كل تلك الأحاسيس المرتبطـــة بالأنانية كالغرور والكبرياء . فهو طبيب للنفس كأفلاطون ، وطبيب للجسم كجالينوس .

(٢٥) إشارة إلى قصة جبل الطور ، وكيف دك حين تجلى الله لموسى . وقد عزا الشاعر دكّ الجبل إلى أنه أصبح عاشقاً لربه فخفّ كيانـــه

الغليظ . قال تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّا ، وخر موسى صعقا » . (٧ : ١٤٣) .

(٣٠) إن إحساس العاشق بوجوده الخاص يجعله غافلا عن حقيقة المعشوق . فهذا الإحساس الذاتي حجاب للرؤية الحقيقية . العاشق ميت ، ما لم يفن وجوده في ذات المحبوب الحي الخالد .

(٣١) رعاية العشق للعاشق ، أن يحل في قلبه ، فيطهره وينقيه من الأنانية والغرور . فإذا لم يحدث هذا فإن الإنسان يبقى تعسا كطائر بلا جناح ، يريد أن يحلق لكن وسيلة التسامي لا تكون متوفرة له . وحب الخالق ينبع من الخالق . فكل من لم تضطرم نفسه بهذا الحب ، فقد حرم أسمى الهبات .

(٣٢) نور الحبيب هو نور الله . والعقل لا يدرك ما يحيط به إلا إذا أضاء السبيل له نور الحق .

(٣٤) إن النفس الصافية كالمرآة الصافية ، تعكس ما يتجلى فوق صفحتها . أما النفس الكدرة فهي كالمرآة التي علاها الصدأ .

(٥٠) المؤمن بالإرادة الإلهية ، تكون روحه مقترنة بمفهوم عبارة « إن شاء الله » ، وهو سواء نطق بهذه العبارة أم لم ينطق بها ، فإن أعماله تكون مبنية على هذا الاعتقاد .

(٥٧) لجّة الفناء هي لجة إفناء الذات ، وذلك بالتخلص من كل إحساس ذاتي . ويتحقق هذا للصوفية بأن تنصرف كل جارحة من جوارحهم إلى الخالق ، وتنفصل عما يربطها بدنيا المحسوسات والعالم الظاهري .

(٧٠) يرى الصوفية أن هذا العالم خيال . ويربط الجيلي في كتابه الإنسان الكامل بين هذه الفكرة وبين حديث مرويّ عن الرسول نصه :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا [1] » .

(٨٠) في هــذا البيت إشارة إلى المنّ والسلوى اللذين أنزلهما الله على قوم موسى [2] .

(٨١) إشارة إلى قوله تعــالى رواية عن بني إسرائيل : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا ممــا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » . (٢ : ٦١) .

(٨٣) قصّ القرآن الكريم أن الحواريين طلبوا إلى عيسى أن يدعو الله لينزل لهم مائدة من السماء ففعل . « قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إني منزلها عليكم .. » (انظر سورة المائدة ، ٥ : ١١١ – ١١٥) .

(١١١) إذا كان العشق للجمال الدنيوي (هذا الجانب) ، أو لجمال العالم الروحي ، فإنه يقودنا آخر الأمر إلى عالم الروح . فكل جمال في هذا الكون مستمدّ من جمال خلاق الوجود ، فهو المرجع والمقصد الأسمى لكل محبّ للجمال .

(١١٧) هذا العالم المادي ليس إلا ظلا ، ومن ورائه تكمن الحقيقة الكبرى . وقد رمز الشاعر لها بالشمس . ولكن هذه الشمس الخالدة ليست كالشمس التي نراها في هذه الدنيا ، فنورها أزلي خالد لا يغيب .

(١١٨) وهذا الظلّ ، أي العالم المادي يجيء بالنوم . والمراد بقوله : « يجيء بالنوم » أنه يجعل الإنسان غافلا عن الحقيقــة العظمى المستترة وراء هذا الكون كله ، فهو يلهي الإنسان ، كما تلهيه الأسمار والمجالس . ولكن حين تشرق على القلب شمس الحقيقة ، يبدد نورها كل نور وهمي

---

(١) الجيلي : الإنسان الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٧ . القاهرة ، ١٢٩٣ .

(٢) قرآن ، ٢ : ٥٧ ، وكذلك ٧ : ١٦٠ .

مستعار ، فالشمس حين تشرق ، ينشق القمر . وانشقاق القمر مقترن بالبعث ، وكذلك إشراق الحقيقة على البشرية بصورة واضحة شاملة ، فيه بعث للروح من غفلتها .

(١٢٣) شمس الدين المقصود هنا هو شمس الدين التبريزي . وقد كان هذا صوفياً متجولاً نزل بقونيه . ولقيه جلال الدين هناك ، فوجد فيه الإنسان الكامل ، والمثل الأعلى لما يمكن أن يطمح إليه البشر . وقد أهمل الشاعر تلاميذه – بعد لقاء هذا الرجل – وتفرغ لصحبة هذا الصوفي ، مما أثار غضب هؤلاء التلاميذ فأخرجوا هذا الدخيل على أستاذهم من قونيه ، وطاردوه . وقد حزن جلال الدين كثيراً لفراق هذا الصديق ، ونظم كثيراً من غزلياته الصوفية التي تخلص فيها باسمه ، ونسب إليه في النهاية ديوانه المشتمل على أشعاره الغزلية ، فأسماه ديوان شمس تبريز . وقد قتل التبريزي في النهاية ، فحزن عليه جلال الدين أعمق الحزن . ومما قاله في رثائه :

« من ذا الذي قال إن شمس الروح الخالدة قد ماتت ؟
ومن الذي تجرأ على القول بأن شمس الأمل قد تولت ؟
إن هذا ليس إلا عدواً للشمس وقف تحت سقف ،
وربط كلتا عينيه ثم صاح : ها هي ذي الشمس تموت ! »

(١٢٥) ذكر شمس الدين قد نبّه روح الشاعر ، وأيقظ فيه أحاسيسه ومشاعره الروحية ، فكأنه قميص يوسف الذي أيقظت رائحته في يعقوب مشاعر الحب والحنان . وقد عبر عن وسيلة التنبه الروحي بصورة حسية ، إذ قال إن نفس شمس الدين جذب ذيل رداء روحه .

(١٢٨) الفناء الصوفي هو التخلص من الذات الإنسانية ، والاتحاد بالذات الإلهية . وهو يختلف عند الصوفية عن عقيدة نفي الذات عند الهنود ، وتعرف هذه بالنرفانا . فالفناء عند الصوفية المسلمين حالة إيجابية قرينة في مدلولها للبقاء ، فالإنسان يفنى ليبقى ويخلد . والشاعر

يقول إنه في حالة الوحدة كلت أفهامه أمام ما يشهده ، وما يستشعره ، فأصبح غير قادر على أن يحيط بأوصاف الثناء . وفي قصة المعراج أن الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أثن عليّ » ، فأجاب الرسول قائلاً : « لا أحصي ثناء عليك » . فالشاعر كتب هذا البيت وفي ذهنه هذا الحديث .

(١٣٥) الصوفية يؤمنون بكتم أسرارهم . وهم لا يبوحون بمكنون قلوبهم إلا لمن بلغوا شأواً عالياً في التصوف . يقول القشيري : « ويطلق لفظ السر على مايكون مصوناً مكتوماً ما بين العبد والحق سبحانه في الأحوال ، وعليه يحمل قول من قال : « أسرارنا بكر لم يفتضّها وهم واهم . ويقولون صدور الأحرار قبور الأسرار » . (الرسالة ، ص ٤٥) .

(١٣٩) لو تجلّت حقيقة الذات الإلهية لإنسان لما استطاع الصمود أمامها . ومن أمثلة ذلك بالنسبة للجماد قصة جبل الطور الذي اندك حين تجلى عليه الخالق .

(١٤٩) يروي جلال الدين هنا قصة معروفة ، رواها ابن سينا في كتاب القانون (ص ٣١٦ – عن الحبّ) . ورواها كذلك – بصورة مختلفة بعض الاختلاف – نظامي عروضي سمرقندي في كتابه « المقالات الأربع » (ص ٧٨ من النص الفارسي ، طبعة لندن) . وقد روى الشهرستاني هذه القصة في حديثه عن طبيب اليونان « بقراط » . ولم يكن الطبيب الذي قام بالعلاج في القصة سوى بقراط نفسه . أما بطل القصة فأمير « عشق جارية من حظايا أبيه ، فنهك بدنه واشتدت علته ، فأحضر بقراط فجس نبضه ، ونظر إلى تفسرته ، فلم ير أثر علة . فذاكره حديث العشق فرآه يهشّ لذلك ويطرب ، فاستخبر الحال من حاضنته فلم يكن عندها خبر . وقالت : ما خرج قط من الدار . فقال بقراط للملك : مر رئيس الخصيان بطاعتي ، فأمره بذلك . فقال :

أخرج عليّ النساء ، فخرجن ، وبقراط واضع إصبعه على نبض الفتى . فلما خرجت الحظية اضطرب عرقه وطار قلبه ، وحار طبعه ، فعلم بقراط أنّها المعنية لهواه » . (الشهرستاني ، ج ٢ ، ص ١١٨ – القاهرة ، ١٩٥٦) . ورواية الشاعر تختلف في بعض تفاصيلها عن الروايات السابقة عليه ، كما أنّ الشاعر – على عادته – يستخدم تفصيلات القصة أساساً لحكم كثيرة استنبطها من ثناياها .

(١٥٠) لا يترفع الشاعر على العادات والتقاليد الشائعة بين الناس ، فهو يذكرها في شعره ، لو كانت لها قيمة إيضاحية . وهو يصور في هذا البيت الطريقة التي يخرج بها العاميّ – الذي يسير حافي القدمين – شوكة أصابت قدمه . ولكنّه ينتقل من هذا ليتحدث في البيت التالي عن الأشواك التي تصيب القلوب ، وهي الهموم والوساس والأوهام .

(١٦٥) الخبز والملح ، كناية عن العشرة ، كما هو معروف . فمعنى البيت أنّ الجارية حدّثت الطبيب عن الأماكن التي عاشت بها ، والناس الذين عاشرتهم في تلك الأماكن .

(٢٠٦ – ٢٢٧) الحسن الظاهريّ قد يكون سبباً لهلاك الروح . ويضرب الشاعر لذلك أمثلة معبِّرة في بعض هذه الأبيات .

(٢٢٢ – ٢٢٤) يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن القصة ومغزاها . وعنده أنّها ليست قصة جريمة . فهذا القتل الذي وقع على الرجل حدث لأنّ هذا الرجل قد قتل بجسده روحَه ، فاستحق الجسدُ الموت من جراء ذلك . وهناك أنواع من القتل لا تدخل في عداد الجرائم ، ومن أمثلة ذلك قتل الخضر للغلام ، وقد ذُكرت في القرآن الكريم قصة ملاقاة الرجل الصالح (الذي يقال إنه الخضر) لموسى ، وقتله الغلام على مرأى منه . قال تعالى في سورة الكهف : « فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً » . (١٨ : ٧٣) .

(٢٤٠) يُروى عن الرسول حديث بهذا المعنى نصه : « إذا مُدح الفاسق غضب الربّ واهتز لذلك العرش » .

(٢٤٥) الخالق واسع الكرم إزاء عباده ، فهو – إذا جرّدهم من حياة تافهة ، وهبهم عوضاً عنها حياة عامرة عظيمة ، تعدل مائة حياة مما اعتادوا عليه . ومما روي في الحديث القدسيّ عن الرسول : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢٤٦) الواجب على الإنسان ألا يقيس كل أمر بمقياسه الخاص ، وألا يتخذ من نفسه ميزاناً لتقدير كل الأمور حتى ما كان منها خارجاً عن مدركاته .

(٢٨٨) المروزي هو المنسوب إلى مدينة مرو وأما الرازي فهو المنسوب إلى الري ، وهذان يتصاحبان على الطريق ، لكنهما في النهاية يفترقان ، إذ يمضي كل منهما إلى مدينته .

(٢٩٦) « أم الكتاب » ذكرت مرات عديدة في القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . (١٣ : ٣٩) . والتفاسير السنية – في أغلب الأحوال – تذكر أن أم الكتاب هي « اللوح المحفوظ » الذي سُجّل فيه ما كان وما يكون . وقد عبر الجيلي – في كتابه الإنسان الكامل – عن معنى « أم الكتاب » بعبارات فلسفية صوفية إذ قال : « اعلم أن أم الكتاب عبارة عن ماهية كنه الذات المعبر عن بعض وجوهها بماهيات الحقائق ، التي لا يطلق عليها اسم ولا نعت ، ولا وصف ولا وجود ولا عدم ، ولا حق ، ولا خلق ، والكتاب هو الوجود المطلق الذي لا عدم فيه ، وكانت ماهية الكنه أم الكتاب لأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف في الدواة » . (الإنسان الكامل ، جـ ١ ، ص ٧٥) . ويفرق الجيلي بين « أم الكتاب » وبين « اللوح المحفوظ » . يقول عن « اللوح المحفوظ » :

« اعلم – هداك الله – أن اللوح المحفوظ عبـــارة عن نور إلهي حقي متجل في مشهد خلقي ، انطبعت الموجودات فيه انطباعاً أصلياً ، فهو أم الهيولى لأن الهيولى لا تقتضي صورة إلا وهي منطبعة في اللوح المحفوظ ... » (جـ ٢ ، ص ٦) .

(٢٩٧) المؤمنون والكفار يعيشون معاً في هذه الدنيا ، وكل من هذين الفريقين لا يمتزج بالآخر ، فهما كالبحر العذب والبحر الملح بينهما برزخ لا يبغيان تجاوزه وتخطيه .

(٢٩٨) الخالق أصل كل شيء ، ولا يكون في الكون شيء بدون مشيئته أو رغم إرادته .

(٢٩٩) المحك هو العرفان الصوفي ، فهو الذي يجعل الإنسان قادراً على تمييز الحق من الباطل . وهذا العرفان المبني على الكشف هو المحـــك الصادق عندهم . أما العقل والحواس فغير قادرة على هذا التمييز . وفي البيت التالي (رقم ٣٠٠) إيضاح لهذا المعنى .

(٣١٣) يتحدث الشاعر هنا عن لون من الحيرة ليس مصدره الجهل وإنما هو مبني على الحب والإعجاب . وهـذا الحب والإعجاب – حينما عظما وتزايدا – أصبحا بمثابة الحيرة والعجب . فالحيرة هنا حيرة العالم أمام روعة ما يعلم وليست حيرة الجاهل العاجز عن إدراك الأشيـاء ، كأنما هو قد ولاها ظهره .

(٣١٦) يميل بعض شراح المثنوي إلى أن يفسروا هذا البيت على أنه يشير إلى المبايعة المعروفة عند الصوفية ، والتي تقترن بالمصافحة بالأيدي بين الشيخ والمريد . ولكن صيغة البيت يمكن أن تنطبق على العلاقات العادية بين الناس ، تلك التي تفرض على كل إنسان ينشد السلامة والأمان ألا يتعامل مع كل من يعرض له من الناس ، وإنما يختار من يستطيـع الركون إليهم ، وإلى صدق وفائهم .

(٣٢١) كان من المعتاد أن بعض المتسولين يصنعون من الصوف تماثيل للأسود يستخدمونها في تسولهم .

(٣٢٥) جوهر الرسالات السماوية واحد . ولقد جاء كل رسول في أحد الأدوار الزمنية ، وحمل إلى البشر رسالة السماء . وما دام الجوهر واحداً فلا ينبغي التفريق بين الرسل .

(٣٢٦) هذا الملك كان مصاباً بحول عقلي ، جعله يرى الجوهر الواحد جوهرين فيفرق بين الرسل الذين سلكوا جميعاً أقوم السبـل وأهداها .

(٣٢٧ – ٣٣٢) كانت هذه القصة معروفة قبل جلال الدين . وقد ذكر نيكولسون النص التالي من « أسرار نامة » للعطار :

يـكي شاگرد أحول داشت أستاد مگـر شاگرد را جـايي فرستاد
كه ماراـ ايك قرابه روغن آنجاست بياور زود آنـ شاگرد برخاست
چوآنجا ـ شد كه گفت او ديده بگماشت
قرابه چون دو ديد أحول عجب داشت
براستاد آمـد گفت أي پـير دو ميبينم قرابه من چه تدبـير
زخشم استاد گفتش أي بداختر يكي بشكن دگر يك را بيـاور
چو او در ديدن او شك نميديـد بشد اين يك شكست اين يك نميديد

وترجمة النص كما يلي :

« كان لأستاذ تلميذ أحول ، فأرسله إلى أحد الأماكن (قائلا) :

« إن لي زجاجة هناك ، فسارع بإحضارها » . فقام التلميذ ،

وحينما وصل إلى حيث أمره أستاذه ، أرسل الطرف ، فلما رأى الزجاجة اثنتين ، عجب الأحول !

فذهب إلى أستاذه وقال : « أيها السيد ! إني أرى زجاجتين ، فما التدبير ؟ »

فقال الأستاذ غاضباً : « أيهـا السيء الطالع ! اكسر واحـدة وأحضر الأخرى ! »

فهذا الأحول — إذ لم يشك في إبصاره — كسر إحدى الزجاجتين
فلم ير الأخرى ! »

وليس معنى هذا أن جلال الدين اقتبس القصة من « أسرار نامه » . ذلك لأنها كانت من القصص الشعبية التي استخدمها الشعراء ، واستخلصوا العبرة منها ، كل على طريقته . وجلال الدين يستخدمها لينطلق منها إلى الحديث عن الميل مع الهوى الذي وصفه بأنه حول عقلي يعمي عن الحق .

(٣٣٣) « الغضب والشهوة يجعلان الرجل أحول » . هذا القول ينطبق على حقيقة مشهودة هي أن الغضب لا يتيح للإنسان أن يرى الأشياء على حقيقتها . وكذلك الشهوة . فهذان يفعلان بالعقل ما يفعله الحول بالعين .

(٣٣٨) عبر الشاعر عن مقدرة الوزير على الغش والخداع بأنه كان يستطيع أن يربط في الماء عقداً .

(٣٤٠) الدين المستقر في القلب لا يمكن أن يُعرف ، وليس كالأفعال الظاهرة يمكن إدراكه ، ومحاسبة الناس عليه .

(٣٦٦) الغول هو ذلك الكائن الأسطوري الذي ورد في أساطير العرب . وقد صوروه بأنه يظهر للناس في الصحراء ويحاول أن يضلهم السبيل ويقودهم إلى التهلكة . والنفس الغول هي النفس التي بأهوائها تقود صاحبها إلى الهلاك بعد أن تخرج به عن سبل الصدق والاستقامة ، وتذهب به كل مذهب .

(٣٧٠) يتجلى ذلك في مبالغة بعض الصحابة في التعبد ، واتهام النفس ، بصورة جعلت الرسول يدعوهم إلى إلتزام الاعتدال ، حتى في النسك والعبادة .

(٣٧٣) الدجال هو الذي يكون ظهوره — على ما يُروى — من

علامات اقتراب الساعة . وسوف يحكم أربعين يوماً ثم يقضي عليه المسيح عيسى بن مريم .

يقول الجيلي في كتاب الإنسان الكامل (جـ ٢ ، ص ٥٥) : « ومن أمارات الساعة الكبرى خروج الدجال ، وأن تكون له جنة عن يساره ونار عن يمينه . وأنه مكتوب بين عينيه كافر بالله ، وأنه يعطش الناس ويجوعون حتى لا يجدوا مأكلا ولا مشربا ، إلا عند هذا الملعون . وأن كل من آمن به فإنه يسقيه من مائه ويطعمه من طعامه ، ومن أكل من ذلك أو شرب منه لا يفلح أبدا . وأنه يدخل المؤمن به جنته ، ومن دخل جنته قلبها الله عليه ناراً . وأنه يدخل من لا يؤمن به ناره ومن دخل ناره قلبها الله عليه جنة . وأن من الناس من يأكل من حشيش الجزر إلى أن يرفع الله عنه هذا الضر . وأن اللعين لا يزال يدور في أقطار الأرض إلا مكة والمدينة فإنه لا يدخلها . وأنه يتوجه إلى بيت المقدس ، فإذا بلغ رملة لدّ وهي قرية قريبة من بيت المقدس ، بينها مسيرة يوم وليلة ، أنزل الله عيسى عليه السلام على منارة هناك ، وفي يده الحربة ، فإذا رآه اللعين ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فيضربه بالحربة فيقتله » .

(٣٧٤ – ٣٨٠) في هذه الأبيات صوّر الشاعر ضعف الإنسان أمام مغريات الحياة ، وكيف أنها تقوده إلى الوقوع في أحابيل المعاصي . وهناك قوة الخير تخلصه كل مرة ، ولكنه يعود فيقع من جديد في تلك الشباك . ويرسم الشاعر بصوره الفنية الوسيلة التي تؤدي إلى سدّ الثغرات التي يتطرق منها الهوى إلى نفس الإنسان .

(٣٧٧) القمح رمز للأعمال الصالحة التي يعملها الإنسان . فهو يجتهد في الإتيان بهذه الأعمال ويبذل جهده ، ولكنه رغم ذلك لا يجد حصيلة كبيرة ، لأن السيئات تذهب بالحسنات ، فلا يجد له رصيداً كبيراً ، رغم توهمه أنه قد تملك مثل هذا الرصيد .

(٣٧٨) الفأر هنا رمز للسيئات ، والقمح رمز للحسنات . فالسيئات تفعل بالحسنات ما يفعله الفأر بالقمح .

(٣٧٩) « منذ وجد الهوى سبيله إلينا ، قضى على ما قدمناه من حسنات » .

(٣٨٠) اعملي أيتها النفس على مقاومة الهوى ونزواته ، ثم اجتهدي بعد ذلك في إتيان الحسنات .

(٣٨٧) قوة الله الخيرة تجعل الإنسان في مأمن مهما أحاطت به خدع الشيطان وفخاخه .

(٣٨٨) النوم يحرر الروح من سلطان الجسد . والشاعر في الشطر الأول من البيت يشبه الجسد بفخ يمسك بالروح . أما اقتلاع الألواح الذي ذكره الشاعر في الشطر الثاني من البيت ففي رأيي أنه صورة ثانية لتحرير الروح من سجن الجسد . ففي النوم تقتلع ألواح هذا السجن ، وتنطلق الروح . فالجسم الذي تجتلى إرادته في الحواس ، يصبح عديم الإرادة حين النوم ، ولا يبقى له سلطان على الروح . فالعين لا لا تبصر والأذن لا تسمع والأنف لا يشم وهكذا . وطبيعي أن هذا الفهم مرتبط بفهم الأقدمين للأحلام وطبيعتها . وقد تغيرت مدلولات الحلم بصورة جوهرية بعد أن أعلن فرويد نظرياته في تفسير الأحلام . وقد ذهب نيكولسون في ترجمته إلى أن الألواح هي العقول الواعية ولست أوافقه على ذلك .

(٣٩٢) العارفون نائمون عن هذه الدنيا ، فهم – حتى في يقظتهم – منصرفون عنها كأنهم نيام . وهم في ذلك يشبهون أهل الكهف ، الذين ناموا السنين الطوال ، وكانوا يتقلبون في النوم فيبدون أيقاظاً وهم رقود .

(٣٩٣) العارفون لا يحتاجون إلى النوم ليصرفهم عن أحوال الدنيا ، فهم نائمون عنها بالليل وكذلك بالنهار ، وقد تخلصوا من إرادتهم ،

واستسلموا لخالقهم استسلاماً كاملاً ، وكأنهم قلم في قبضته .

(٣٩٥) عامـــة الخلق لا يغلب حواسهم ، ولا يخلصهم – بعض الوقت – من سيطرتها عليهم ، سوى النوم .

(٣٩٧ – ٤٠٠) عند النوم تنطلق الروح من الجسد لكنهـــا تعود إليه عند اليقظة . وهي تفارقه مفارقة كاملة عند الموت . فالله يقبض الأرواح عند النوم ثم يرسلها فتعود إلى أجسادها . قال تعالى في سورة الزمر : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . (٣٩ : ٤٢)

(٤٠١) شبّه الأرواح المنطلقة ساعة النوم بجيـــاد ترتعي في مرج واسع ، وقد رُبطت أقدام كل منها بوثاق طويل ، فهي منطلقة ولكنها في ذات الوقت مقيدة . وقد قال طرفة في معلقته بيتاً ينطوي على مثل هذه الصورة عن الإنسان ومصيره المحتوم .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخي وثنياه باليد

(٤٠٥) وكثيرون هم الذين ناموا عن أحوال الدنيا ، فلم يعد لهـا تأثير عليهم ، ولجأوا إلى كهف روحي عصمهم من الشهوات .

(٤٠٦) لا يستطيع أحد أن يدرك أحوال هؤلاء العارفين إلا إذا كان شبيهاً بهم . أما من يكون غارقاً في الحسّ ، فـلا جدوى له من وجود هؤلاء إلى جانبه ، فمثله – بالنسبة للمدركات الروحية – كمن ختم الله على بصره بالنسبة للمدركات الحسيّة .

(٤٠٧ – ٤٠٨) اتخذ الشاعر من قصة ليلى والمجنون مثـالاً للعشق الصوفي . فالحب هو الذي يجعل المجنون ينظر إلى ليلى بكل هـــذا الإعجاب ، حتى يخرجه حبها عن عقله ، على حين أن هذا لم يحدث لغيره ، لأنه لم يتملكه هذا الحب . وحب المجنون هنا رمز للتنبــه الروحي ، أما سؤال الخليفة فدليل على الوقوف عند الحس ومدركاته ، وهذا مـا

جعله يتساءل عما جعل المجنون يفقد عقله من أجل مثل هذه المرأة التي لم تكن تتميز بجمال ظاهري خاص .

(٤١٠) عندما لا تكون الأرواح مستيقظة للحق ، فإن اليقظة تكون مثل قضبان السجون ، لأنها - حينذاك - تكون يقظة حسية تحبس الإنسان في نطاقها ، وتجعل السبيل مستغلقاً أمام الروح ومدركاتها .

(٤١٧) طائر السماء يمثل الوجود الحقيقي ، بينما الظل يمثل الخيال والوهم . فالأبله يسعى جاهداً وراء هذا الخيال حتى تنفد قواه ، ولا يحقق من وراء ذلك شيئاً .

(٤٢٢) لو أن مرشداً كاملاً رعى هذا الغافل لخلصه من الخيال ، وما يلقيه في نفسه من أوهام .

(٤٢٥) أشار الشاعر في هذا البيت إلى قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا » . (٢٥ : ٤٥ - ٤٦) . والشاعر يفسر الظل هنا بأنه صورة أولياء الله . والظل يتبع الشمس ، وكذلك هؤلاء الأولياء ، يتبعون شمس الحقيقة ، وهم الدليل المنبىء عن وجودها كما أن الظل دليل على وجود الشمس .

(٤٢٦) على الطالب أن يسترشد في سيره بدليل يكون من رجال الحق المخلصين . وهذا الدليل يجب ألا يكون من الآفلين ، بل يكون مستمداً نوره من النور الخالد الذي لا يخبو . وفي البيت إشارة إلى قصة الخليل المروية في القرآن الكريم . « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين » . (٦ : ٧٥ - ٧٦) .

(٤٢٨) حسام الدين هو حسن حسام الدين تلميذ الشاعر وصديقه .

وكان جلال الدين يملي عليه المثنوي . وقد أشاد به في المقدمة المنثورة للمثنوي ، وكذلك في الأبيات الأولى من كل جزء من المنظومة ما عدا الجزء الأول . وقد أصبح حسام الدين شيخاً للطريقة المولوية بعد وفاة جلال الدين عام ٦٧٢ هـ ، وبقي كذلك حتى توفي في عام ٦٨٣ هـ .

(٤٢٩) يحذّر الشاعر تلاميذه من الحسد . وقد كان هؤلاء التلاميذ يغارون من أصدقاء جلال الدين وتلاميذه المقربين إليه ، من أمثال شمس الدين التبريزي وحسام الدين . وقيل إنّ شمس الدين قد ذهب ضحية لهذا الحسد .

(٤٣٣) يقصد هنا جسد الأنبياء والأولياء .

(٤٣٤) يشير هنا إلى ما أمر به الله إبراهيم وإسماعيل من تطهير الكعبة من الأصنام . والظاهر أنّ الشاعر قد اتخذ من ذلك رمزاً لتطهير القلب من أوثان الهوى والشهوات . وإذا طهر القلب طهر الجسد أيضاً . فالجسم مستقرّ القلب والروح ، والمنطوي على النور وإن كان سره في التراب .

(٤٤٠) الإدراك الروحي يقود الإنسان إلى عالم الروح المفعم بأريج المعرفة ، فمن أفقد نفسه مثل هذا الإدراك فلا سبيل له إلى تلك الديار .

(٤٤٢) من وهب المعرفة الروحية ثم لم يقم بالشكر عليها ، فهو فاقد للحواس ، غير أهل لتلقي مثل هذه المعرفة .

(٤٤٣) الشاكرون ، هم رجال الله المقدّرون لنعمة المعرفة الروحية الشاكرون ربهم على تلقيها .

(٤٦٣ ـ ٤٩٩) الأقوال المذكورة في هذه الأبيات تتناول مبادىء عامة عن الإنسان وموقفه من الخالق . وكلها مبادىء متناقضة تمثل إتجاهات ومواقف مختلفة . وقد نسبها الشاعر إلى الوزير المخادع الذي علّم كل فريق من النصارى مبدأ يناقض ما علّمه للفريق الآخر ، ليوقع الفتنة بين أتباع المسيح . وقد ذكر نيكولسون في التعليق على هذه الأبيات أنها تتضمن آراء إسلامية ، وإن كان لا يستبعد أنّ هذه الآراء تأثرت في أوائل عهدها بالمسيحية فكراً وعملاً . ولست أرى أنّ هذه

الآراء قابلة لأن تنسب إلى الإسلام دون المسيحية ، فكلها مبادىء عامة في السلوك الإنساني وموقف الإنسان من الله ، وليست ذات طابع مذهبي محدد .

(٤٦٥) الرياضة هي مقاومة الإنسان لغرائزه ورغباته . والجوع إحدى الرياضات . وقد جعله الوزير ـ في أحد منشوراته ـ شرطاً للتوبة والرجوع إلى الله .

(٤٦٧) قوله : « إن جوعك وجودك إشراك منك بمعبودك » ، يراد به أن كل عمل من أعمال العبادة يشعر الإنسان بوجوده الذاتي في مواجهة خالقه ، لا يعدو أن يكون من قبيل الشرك .

(٤٧٠ ـ ٤٧١) يعبّر الشاعر في هذين البيتين عن فكرة الجبر وأن كل أعمال العباد مفروضة عليهم . وليست أوامر الله ونواهيه ممكنة الاتباع وإنما هي لبيان عجز الناس أمام الله .

(٤٧٢ ـ ٤٧٣) في هذه البيتين إثبات لقدرة الإنسان على خلق أعماله ودعوة له إلى اعتبار هذه القدرة نعمة وهبها الخالق للإنسان .

(٤٧٤) لا تنظر إلى ذاتك ، ولا إلى قدرتك وعجزك ، وعليك ألا ترى شيئاً سوى الخالق . وكل ما اتسع له بصرك بعد ذلك فهو وثن .

(٤٧٥) انظر إلى ما حولك ، ولا تغفل عما يحيط بك . فالبصر هو الذي ينير لك السبيل للتأمل الباطني .

(٤٧٧ ـ ٤٧٩) في هذه الأبيات دعوة إلى الانصراف عن الدنيا . فكل من تخلى عما حوله من المرئيات ونام عنها ، وهبه الله نور الباطن الذي يجعله ينعم بآلاف المشاهد الروحية . ومع هذا ، تقبل عليه الدنيا ، لأنها كالمرأة المحبوبة تقلع عن دلالها ، وتسعى إلى حبيبها ، حينما تلمس فيه الصبر على هجرانها .

(٤٨٠ ـ ٤٨١) في هذين البيتين دعوة إلى أن ينطلق الإنسان على طبيعته ، يلذّ بما يجد مذاقه سائغاً ، ولا يقاوم رغبات نفسه .

(٤٨٢) يتضمن هذا البيت دعوة إلى مقاومة النفس وميلها ، فهو على نقيض البيتين السابقين .

(٤٨٥ – ٤٨٧) في هذه الأبيات دعوة إلى حياة القلب والروح وإلى نبذ حياة المادة والحس . فحياة القلب هي الحياة الحقيقية وأما حياة الحس فلا حاصل لها ولا ثمرة .

(٤٩٠ – ٤٩٢) دعوة إلى اتخاذ مرشد يكون وسيلة إلى الهداية وعاصماً من الزلل . وتعزو هذه الأبيات ضلال الأمم إلى أنها اتبعت هواها ، ولم تستعن في سلوكها بالمرشدين من أهل السداد والكمال .

(٤٩٣ – ٤٩٤) على النقيض من الأبيات السابقة دعا الوزير في هذين البيتين إلى نبذ المرشد والاعتماد على النفس اعتماداً كلياً .

(٤٩٥) في هذا البيت تعبير عن مذهب وحدة الوجود . فكل ما في الوجود يرمز إلى كل واحد وإلى حقيقة واحدة .

(٤٩٦) يسخر الوزير في هذا البيت من فكرة وحدة الوجود ، على عكس ما فعل في البيت السابق ، إذ جعلها أساساً لإحدى دعاويه .

(٥٠٠ – ٥٠١) يربط الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء[1] بين عيسى في صباه وبين صناعة الصباغة . يقول : « قال عطاء : سلمت مريم عيسى – بعد أن أخرجته من الكتّاب – إلى أعمال شتى ، فكان آخر ما دفعته إلى الصباغين ، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه ، فاجتمع عنده ثياب مختلفات ، فعرض للرجل سفر ، فقال لعيسى : إنك قد تعلمت هذه الحرفة ، وأنا خارج في سفر ، لا أرجع إلى عشرة أيام . وهذه ثياب مختلفات الألوان . وقد علمت كل واحد منها على اللون الذي يصبغ به فأحب أن تكون فارغاً منها وقت قدومي . ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جباً واحداً على لون واحد . وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال

(١) طبعة القاهرة (مكتبة الجمهورية المصرية) ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

لها : « كوني بإذن الله على ما أريد منك » فقدم الصباغ والثياب كلها في جب واحد . فقال : « يا عيسى ! ما فعلت ؟ » قال : فرغت منها . قال : أين هي ؟ قال : في الجب . فقال : كلها ؟ قال : نعم . قال : كيف تكون كلها في جب واحد ؟ لقد أفسدت الثياب . قال : قم فانظر ، فقام فأخرج عيسى ثوباً أصفر وثوباً أخضر وثوباً أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التي أرادها . فجعل الصباغ يتعجب ، وعلم أن ذلك من الله عز وجل » .

وليس مفهوم هذه المعجزة المنسوبة إلى عيسى بمنطبق على بيتي جلال الدين . ولكنّ جبّ الصباغة الذي استخدمه المسيح ـ كما تذكر هذه هذه المعجزة ـ وعاء عجيب ، والشاعر متفق مع القصة في ذلك .

وهذان البيتان يعبران بطريقة رمزية عن رسالة عيسى المبنية على المحبة ، والتي عبرت عن جوهر قد تختلف صوره بين عيسى وغيره من من الرسل ، ولكنه يظل واحداً عند من يتجاوزون الصور الظاهرية إلى الجوهر الحقيقي . ورسالة عيسى إنما هي محاولة لتوحيد البشرية في ظل عقيدة واحدة تطبعهم بطابع جوهري واحد، مهما اختلفت أصولهم وأجناسهم.

(٥٠٣ ـ ٥٠٤) السمك لا يمل اللون الواحد أو اللالون الذي يعيش به وكذلك الصوفية ، لا تلفت أنظارهم تلك الألوان العديدة التي تحفل بها الحياة المادية ، بل يفرون إلى عالم الروح ، عالم الوحدة اللونية ، فهو الذي يجمع الحقائق التي تجردت من الظاهر المادي ، والصورة اللونية . وفرارهم من المادة إلى عالمهم كفرار السمك من اليابسة إلى اليمّ .

(٥٠٥) ذكر القرآن الكريم في مواضع عدة أنّ كل شيء يسبح بحمد الله ، ومن ذلك قوله تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا » . (١٧ : ٤٤) ، وغير ذلك كثير .

(٥١٧) يقول الشاعر إنّ ثناءه على الخالق — على تلك الصورة —

خطأ ، لأنّه يدل على إحساسه بوجود ذاتيّ له ، إلى جانب وجود الخالق ، مع أنّ الأولى هو أن تكون ذاته فانية في ذات الخالق ، فلا يبقى هناك عابد ومعبود ، بل محبّ فني في ذات المحبوب .

(٥١٩) يعزو الشاعر جمود العالم الماديّ إلى غفلته عن الخالق . ولو أنّه أبصر الخالق وعرفه لما بقي له وجود منفصل عنه .

(٥٢٥) العالم الماديّ سجن الروح . أما العالم الروحيّ فهو عالم رحب لا يقاس به هذا العالم الماديّ مهما بدا لنا كبيراً فسيح الجنبات .

(٥٢٧ – ٥٢٩) يذكر الشاعر هنا معجزات الأنبياء كدليل على قدرة الله ، تلك التي لا تقارن بها قدرة إنسان مهما عظم . فقدرة الله جعلت عصا واحدة بيد موسى تتغلّب على كل رماح فرعون . وجعلت نَفَسَ المسيح يبرىء ما يعجز عنه طبّ جالينوس . وجعلت محمداً يعجز العرب بالقرآن الذي أنزل عليه مع أنهم كانوا أهل الفصاحة وأساطين البيان .

(٥٣٧) يتحدّث الشاعر هنا عن الصراع بين الروح والجسم . الروح تميل إلى الصعود والتسامي على حين أنّ الجسم يميل إلى الهبوط إلى عالم المادة ، عالم الماء والطين ، وما يرتبط به من متع حسيّة .

(٥٣٨) إنّ من انطوى كيانه على تلك الروح – ومع ذلك غفل عنها ، ومال إلى ما هو دونها من المادة – قد هبط بنفسه من مقامه العالي ، مقامه الروحي الذي هو فوق وهم العقول إلى مقام ماديّ متواضع ، فإنّه بذلك قد مسخ نفسه .

(٥٤١) آدم الذي خلقه الله على صورته ، وعلّمه الأسماء كلها ، وأمر الملائكة بالسجود له لا ينبغي أنْ يكون أبناؤه على هذا المستوى من الحطّة فيما يتعلق بمقام الروح .

(٥٤٢ – ٥٤٣) يسخر الشاعر من غرور الإنسان وتجبّره وطغيانه . فهذا طاغية يتولاه الكبر والغرور ، فتسول له نفسه أنّه قادر على

امتلاك الدنيا وبسط سلطانه عليها . وإنّ لفتة واحدة من الخالق تقضي على كل هذا السلطان ، وما ارتبط به من طغيان . ومهما ساد هذا الطغيان ، وملأ الدنيا ، فليس يعدو أن يكون كالثلج الذي يغطّيها في فصل الشتاء ، فتجيء الشمس ، وبلفحة واحدة منها تبدّده وتقضي عليه ، وعلى كل ما اقترن به من برد واكتئاب .

(٥٤٧) عندما حطّم إبراهيم الأصنام ، أُلقي في النار بأمر النمرود ، ولكنّ الله حفظه وجعل النار عليه برداً وسلاماً . قال تعالى : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إنْ كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » (٢١ : ٦٨ ، ٦٩) .

(٥٤٨) الصوفيّ لا يرى في الوجود فاعلاً سوى الله . أما الأسباب والوسائل التي تقترن بحدوث الأشياء فهي ما تطلبه عقول الناس في هذه الدنيا . فإذا ما انعدمت الأسباب ، وحدثت الأمور من غير أنْ تكون مقترنة بها ، فإنّ العقل تتولاه الحيرة ، وإذ ذاك يمعن في الخيال ، باحثاً عن الأسباب ، ملتمساً الدواعي والمبررات فترد عليه ألوان مختلفة من التفسيرات ، كلها متضاربة غير مقنعة ، ويصل الإنسان – من جراء ذلك – إلى موقف يشبه موقف السوفسطائية ، الذين عُرفوا بأنّهم لم يكونوا يتحققون من شيء .

(٥٦٦) لا تستسلموا إلى حواسكم الدنيوية وملذاتها . تخلّصوا من هذه الأحاسيس ، التي تصرفكم عن التأمل الباطني ، وتشكّل حجاباً كثيفاً أمام أرواحكم .

(٥٦٩) ما دمتَ غارقاً في أمور هذه الدنيا ، مشغولاً بخطوبها ، فكيف يتسنّى لك أنْ تلمّ بلمحة من عالم الروح ، ذلك الذي لاينكشف إلا لمن نام عن هذه الدنيا ، وصرف حواسه وقلبه عن التعلق بها .

(٥٧١) من المعجزات المنسوبة إلى المسيح أنّه مشى على الماء .

(٥٧٢ — ٥٧٣) يذكر جلال الدين البحر في مواضع كثيرة من شعره ويتخذ منه رمزاً لعالم الروح . فالبحر عنده مظهر للوحدة الصورية واللونية ، يظهر للعين متشابهاً ، لا أول له ولا آخر . وغموضه شبيه بالغموض الذي يكتنف عالم الروح ، على حين أن اليابسة تمتاز بتعدد الألوان والأشكال ، فيها السهل والجبل ، والصحراء ، والخضرة والجفاف . فهي عالم الصور المتعدّدة ، والمظاهر الماديّة المتنوعة . وهي على عكس عالم الروح الذي تسوده البساطة ، النابعة من الوحدة .

(٥٧٤) ماء الحياة ، هو الماء الأسطوري الذي قيل إنّ الإنسان لو شرب منه لتحقّق له الخلود . وقد اقترن ذكره بالخضر ، الذي يقال إنّه شرب من ماء الحياة فتحقّق له الخلود . وهذا الماء قد اقترن بالقصص الأسطورية التي نُسجت حول شخصية الإسكندر المقدوني . فقد ذكر في هذه القصص أن الإسكندر هلك وهو يبحث عن ماء الحياة . وقد ذكر ماء الحياة كثيراً في الشعر الفارسي الصوفيّ . يقول سعدي :

زكار بسته مينديش ودل شكسته مدار

كه آب چشمهء حيوان درون تاريكست

(لا تفكر في الأمر العصيّ ولا تكن كسير القلب ، فإنّ ماء نبع الحياة في داخل الظلمات) . (الگلستان ، القصة ١٧ من الباب الأول . ص ٣٢ ، طبعة نفيسي ، طهران ، ١٣٤١) .

فالوزير هنا يقول لأتباعه : إنّ من قضى عمره متعلّقاً بهذه الأرض ، مفتتناً بها ، لا يتسنى له أنْ يجد السبيل إلى ماء الحياة . فلا بدّ لذلك من السعي والبذل والعناء .

(٦٠٣) بيّن نيكولسون في تعليقه على هذا البيت كيف أنّ جلال الدين كان يرى هذا النوع من الأعلام في الإمارة السلجوقية التي كان يعيش فيها . فالأمير غياث الدين بن علاء الدين السلجوقي (٦٣٤ — ٦٤٥ هـ) حينما تزوج بابنة ملك جورجيا ، ضرب نقوداً فضية

تحمل صورة أسد تعلوه الشمس . وقد نقل نيكولسون أيضاً نصوصاً تاريخية تثبت أنّ أعلام هذا الأمير كانت تحمل صورة الأسد . (انظر الجزء الأول من تعليقاته على المثنوي ، ص ٥٦) .

(٦٠٦) الله هو الموجود الحقيقي الأوحد . ولقد خلق كل شيء من العدم . فهذا العدم غدا ملتذاً بالوجود بعد أن أصبح عاشقاً للخالق الموجد . ويرتبط بهذا فكرة الصوفية عن المحبة الإلهية . فالإنسان الذى تحقق له الوجود البشري ، يُفني هذا الوجود في ذات الخالق ليتحقّق له الخلود . إن العدم ينقلب إلى وجود بقوة الخالق . والفناء في الخالق هو سبيل الخلود . وكل شيء منه وإليه .

(٦١٠ – ٦١١) إنّ لطف الله هو الذي جاء بالخلق من عالم الإمكان إلى عالم الوجود . فليس للإنسان اختيار في وجوده ، وإنما لطف الله هو الذي يهب هذا الوجود . والإنسان يتلقى وجوده على الوجه الذي يريده الخالق ، ولا حيلة للإنسان في ذلك ، فهو كالصورة بين يدي المصور ، أو كالطفل في الرحم .

(٦١٦ – ٦٢٥) يعود الشاعر هنا إلى حديث الجبر والاختيار . وهو يؤمن بالموقف الوسط بين الجبر والاختيار . ويُعتبر أبو الحسن الأشعري أول من نادى بهذا الرأي . كان هذا في أوائل القرن الرابع الهجري بعد أنْ طال الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة . يقول المعتزلة بأنّ الإنسان خالق أفعاله وموجدها . أما أهل السنة فيقولون إنّ الله وحدههو خالق كل شيء ولا يد لإنسان في إيجاد عمل من الأعمال . ويقف الأشعريّ موقفه الوسط بأن يقول إن الله يخلق الأعمال ويوجدها حين يريدها الإنسان . فالإرادة الإنسانية الحرة يقترنبها خلق الله للأفعال وإيجادها . ويسوق جلال الدين الأدلة على ذلك . ففي غزوةبدر كان الله هو الذي رمى الكفار وليس الرسول والمؤمنون . وذلّ الإنسان وخضوعه لربّه هو دليل الجبر ، ولكنّ الخجل من الآثام هودليل الاختيار . ومن أدلة الاختيار زجر الأساتذة

للتلاميذ ، وذلك ليحسن اختيارهم لأعمالهم ، وكذلك انصراف خاطر الإنسان عن رأي يكون قد عقد العزم عليه . وإذا مرض الإنسان استيقظ ضميره ، فيتجلّى له قبح الإثم ويزمع العودة إلى الطريق السويّ .

(٦٣٥ — ٦٣٦) هنا يسخر الشاعر من نفاق البشر . فالمرء إذا عمل عملاً يعجبه ويعتزّ به باهى بمقدرته ، وفاخر بما اقتدر على إنجازه . لكنّه إذا أتى أمراً نكرا نسب ذلك إلى ربه ، واعتذر عن إتيانه بأنّ هذا هو ما أراده له الله .

(٦٣٧) الأنبياء بزهدهم في هذه الدنيا وانصرافهم عنها ، كأنّهم مجبرون على الإقامة فيها ، هكذا أراد لهم ربهم ، لأداء رسالتهم . أما الكفار فمجبرون فيما يتعلق بأمور الآخرة . فاختيارهم إنما هو للدنيا ومتاعها ، أما الآخرة وحسابها فمفروضة عليهم ، ولو تركوا واختيارهم لاختاروا الخلود في الدنيا .

(٦٧٤ — ٦٧٥) « من نظر إلى جوهر الرسالات السماوية وجد أنّها واحدة ، فليس من موجب للتفريق بين رسل الله ، فهم حملة رسالة جوهرها واحد ، وإرادتهم هي إرادة الله . وعلى هذا الأساس يرى الصوفية ألا موجب للتفريق بين الله وبين الرسل . فالرسل بإرادتهم قد فنوا في الخالق وتلاشى وجودهم في وجوده . فمن فرق بين الله ورسله يكون قد جرى على مقتضى الصورة الظاهرة ، لا على مقتضى الحقيقة ، فهو من أتباع الشكل لا الجوهر . فلا جدال في أن الرسول يختلف عن الخالق من حيث الصورة ، فالفاني ليس كالأزلي ، لكن رسالة الرسول هي بذاتها رسالة إلهية ، وهي باقية بالله » .

ويستند الصوفية في ذلك إلى آيات ، منها : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » . (٤٨ : ١٠) ، « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . (٨ : ١٧) ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . (٤ : ٨٠) .

(٦٧٦ — ٦٨١) قدم الشاعر صوراً توضيحية لوحدة الرسل . فالإنسان

يبصر بنور العينين . ولكن نور كل عين لا يتميز عن نور الأخرى ساعة الإبصار . والمكان قد يضاء بعشرة مصابيح تختلف في صورها الظاهرية . لكنه لا يمكن تمييز النور المنبعث من كل من هذه المصابيح . وثمار السفرجل إذا عصرت تحولت كلها إلى طبيعة واحدة متشابهــة ، بعد أن كانت ثماراً تختلف في صورها . وفي هذا التوحد والانسجام لا يمكن أن يتميز ماء ثمرة عن ماء الأخرى .

(٦٨٢ – ٦٨٣) يشير الشاعر في هذين البيتين إلى تشبث أكثر الناس بما يقع تحت حسهم ، وعجز أكثرهم عن التجريد ، والنظر إلى ما وراء الصور الظاهرة .

(٦٨٦ – ٦٨٧) لعل في هذين البيتين إشارة إلى نظرية الفيض المعروفة عند الصوفية . فقبل أن تفيض الكثرة عن الواحد ، كان الناس في عالم الروح متحدين ، ولم تكن الأرواح قــد حلّت في الأجساد ، واتخذت تلك الصور البشرية . كان الناس جوهراً واحداً كالشمس ، وكانوا متجانسين في صفاء كالماء . وقد ذكر جلال الدين في موضع آخر من المثنوي أنّ روح المؤمنين واحد ، وأنه في إشراقه على الأبدان كالشمس إذ تشرق على المنازل . ففي كل مــنزل قدر من ضوء الشمس ولكن إذا هُدمت الجدران التي تفصلها فإنّ أضواء هذه المنازل تتحد معاً . وهكذا الأجساد البشرية ، فهي حينما تتحطم ، تصبح أرواح المؤمنين روحاً واحداً [١] . أما تشبيه عالم الروح بالماء أو بالبحر فكثير الورود في المثنوي وذلك لما في الماء من تجانس واتحاد في المظهر ، ولما في البحر من اتساع وعمق وغموض .

(٦٩٠) لا يريد الشاعر أن يفيض في شرح آرائــه الصوفية ويطيل الحديث عن عـــالم الروح خشية أن يستمع إلى ذلك من لا يكون ذا مقدرة على فهمه ، فتكون النتيجة على غير ما يُراد . وهذا اتجاه يكاد يكون عاماً عند مفكري الصوفية .

---

(١) المثنوي ، ج ٤ ، ٤١٥ – ٤١٨ .

(٦٩١) إنّ الفكر الصوفي العميق يفهم على غير وجهه حينما لا يكون عند متلقيه الاستعداد الملائم . وقد تؤدي إساءة الفهم إلى القضاء على العقيدة .

(٧٠٦ - ٧١٠) تحطيم الجوز رمز للقضاء على الجسد ، فالأجساد التي تضم أرواح الطاهرين هي كالجوز الذي يكون ذا لبّ . والموت يزيح القشر عن هذا اللب . أما الأجساد التي تضم أرواحاً خبيثة ، فلا جدوى لخلاص تلك الأرواح منها . بل إن ذلك يكشف حقيقتها ، ويقودها إلى مصيرها .

(٧١٢ - ٧١٣) تشبيهٌ للروح الخالية من المعني بسيف خشبي في الغمد . فما دام هذا السيف في غمده فحقيقته مستورة ، فإذا خرج من غمده تكشفت هذه الحقيقة . وهكذا الروح الخبيث ، تتجلى حقيقته بعد مفارقة الجسد .

(٧١٤) الاستعداد لما بعد الموت كالاستعداد للذهاب إلى الميدان . فالمرء لا يستطيع أن يسعى إلى الميدان حاملاً سيفاً خشبياً . وكذلك الحال بالنسبة ليوم الحساب . على المرء أن يستعد له فيلقى ربه بروح طاهر تحلى بمقومات الكمال . أما من يلاقي ربه بروح خاوٍ من المعنى فهو كمن يحمل سيفاً خشبياً إلى ميدان القتال .

(٧١٦ - ٧٢٦) يتحدث الشاعر هنا عن الأولياء المرشدين . ويبيّن أهمية الاتصال بهم واتخاذهم قدوة لسلوك أقوم السبل .

(٧١٨) إن اخترت مرشداً ، فليكن واضح الإيمان سليم العقيدة ، يتجلى في أقواله نقاء قلبه وصدق سريرته .

(٧٢٠) زهرة اللاله (شقائق النعمان) المتفتحة سوداء الباطن . فتفتحها يكشف عن باطنها . وهكذا المنافق يكون انطلاقه على سجيته هو السبيل إلى إدراك كنهه واكتشاف سريرته .

(٧٢١) إن اجتماع المؤمنين الذين ازدهرت قلوبهم بالحقيقة يضفي البهجة على المكان والزمان .

(٧٢٥) القلب هو الذي يقود صاحبه إلى هؤلاء المرشدين . فعليه أن يتبع قلبه ، ويغذيه بصحبتهم كما أن عليه أن يقاوم جسده الذي يسعى للهبوط به حتى يجعله أسيراً لسجن المادة ، وما يرتبط بها من نزعات وشهوات .

(٧٢٧) من المعروف — عند المسلمين — أن الكتب السماوية السابقة على الإسلام بشرت بمحمد ، وأخبرت عن رسالته . ويذكر ذلك القرآن الكريم. قال تعالى : «وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » . (٦١ : ٦) .

(٧٤٦) البشر تجري في عروقهم دماء الصلاح والاستقامة أو دماء الفساد ، حتى ينفخ في الصور .

(٧٤٨) كل ضراعة يتوجه بها الصالحون إلى ربهم ليست إلا أشعة من شمس النبوة بمعنى أنها انعكاس لسيرة الرسول وتعاليمه التي أشعلت في في قلوبهم محبة الخالق .

(٧٤٩) هؤلاء الصالحون دائرون في فلك الحقيقة المحمدية . فهم كالأشعة التي تدور مع الجوهر ، وتتجه إلى حيث يكون .

(٧٥٠) وكما أن الشمس تنتقل من برج إلى برج ، فيتبعها النور وينتقل في أثرها ، كذلك النور المحمدي ، يشرق على البشر في مختلف البقاع .

(٧٥١ - ٧٥٩) في هذه الأبيات يذكر الشاعر بعض الكواكب وما كان يتصل بها من أفكار عن أحكام النجوم ، وتحكم كل كوكب فيمن يرتبط طالعهم به . ولكنه ينتقل من ذلك إلى الحديث عن آفاق الروح ، التي تشرق بها كواكب قد خلت من النحس ، كواكب راسخة في وهج أنوار الله ، تكون طوالع سعد لمن بلغوا تلك الآفاق الروحية ، ونقمة على أعدائهم .

(٧٥٩) النور الغالب هو نور قلب المحب الواصل . وهذا النور

يكون آمناً من النقص ، فالظلمة لا تستطيع النفوذ إلى قلب أصبح بين إصبعي الحق .

(٧٦٠) يُنسب إلى الرسول عليه السلام أنه قال : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ عن سواء السبيل » .

(٧٦٢) كل من كتب له أن يكون محروماً من نعمة المحبة الإلهية فقد حُرم من ذلك النور الذي نثره الله على العباد .

(٧٦٣) إنّ العشق هو المحرّك للأجزاء ، يدفعها إلى كلها الذي صدرت عنه ، كما أن العشق هو الذي يحرك البلابل فيجعلها تبثّ الورود أشواقها .

(٧٦٤ ـ ٧٦٥) هذان البيتان من أروع ما كتب جلال الدين . فهو يذهب إلى تقدير الناس ـ لا بحسب ألوانهم الظاهرة ـ وإنما وفق قيمتهم الحقيقية ، فاللون الحقيقي هو لون الباطن ، لون القلب والضمير ، لا لون الجلد . واللون الجميل هو لون الصفاء والصدق والاستقامة وأما اللون القبيح فهو لون الشرور والآثام .

(٧٦٦) اللون اللطيف هو لون قلوب المؤمنين والعارفين . فهو صبغة الله التي صبغ بها هذه القلوب . أما اللون الكثيف المظلم الذي اصطبغت به قلوب الكفار والجاحدين فتفوح منه لعنة الله .

(٧٦٧ ـ ٧٦٨) إنّ الأرواح في الأصل فاضت عن الواحد . وهي لا بد عائدة إليه ، منطلقة نحوه ، يدفعها إليه الحب والحنين . وشبيه بذلك تلك الأمواج التي تصدر عن البحر ثم تعود إليه في نهاية الأمر .

(٧٦٩ ـ ٧٧٠) إن الملك اليهودي المذكور بهذه القصة ، تطابق أوصافه وأفعاله يوسف ذا نواس ملك حمير الذي أحرق النصارى بنجران في أخدود أشعل به النار ، فسمّوا أصحاب الأخدود . ولكن من المشاكل التي تحتاج هنا إلى تفسير أنّ الشاعر وصف الملك بأنه يهودي ،

ولكنه عاد فنسب إليه أنّه نصب إلى جانب النار صنماً ، وأمر الناس بالسجود له . وليس من اليهودية في شيء عبادة الأصنام . فهل كان هذا الملك الحميري غير متعمق في دينه ، فأبقى على بعض مظاهر الوثنية ؟ ومن الممكن أيضاً أنْ يكون الصنم المقصود هنا رمزاً للهوى الذي سيطر على الملك ، فحاول أن يخضع الناس له . وهذا المعنى الرمزي يتضح في البيت التالي (٧٧١) وفيه يقول : « إنّ الملك – لما لم يوقع بصنم النفس ما هو أهل له من الهلاك – تولّد من صنم نفسه صنم آخر » . وقبل ذلك قال القشيري : « وصنم كل إنسان نفسه فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة » . (الرسالة ، ص ١٠٣) .

(٧٧٢) النفس هي أم الشرور والآثام . هي التي تصنع للإنسان الأصنام وتدفعه إلى تقديسها . ومن الأصنام ما هو ماديّ ، ومنها ما هو معنوي . وكلها لا خطر لها لولا تعلّق النفس بها .

(٧٧٣–٧٧٤) في هذين البيتين صورة جميلة تبين انبثاق الشرور من النفس. فقد شبّهها الشاعر بالحجر والحديد اللذين تتولد النار من احتكاكهما . فالشرر المنبثق يمكن اطفاؤه بالماء . ولكن هل يستطيع إنسان أنْ يطفىء النار الكامنة في كل من الحجر والحديد ؟

(٧٧٥) الصنم قدر محدود من الشر يمكن القضاء عليه ، أما النفس فنبع يفيض بالشرور ، فهي التي صنعت الصنم وما شاكله .

(٧٧٨) يصل الشاعر هنا إلى النتيجة التي قدّم لها في أبياته السابقة على هذا البيت ، وهي أنّ الصنم يمكن التخلص منه . ولكنّ الصعوبة هي في السيطرة على النفس وإخضاعها . (انظر ما كتبه الجيلي عن النفس في كتاب الإنسان الكامل ص ٣٩) ، وقد قدم لحديثه عنها بقوله : « إنّها محتد إبليس ومن تبعه من الشياطين من أهل التلبيس » .

(٧٧٩ – ٧٨٠) ينتقل الشاعر هنا إلى الحديث عن أثر النفس بعد أنْ تكلم عن طبيعتها . إنّها مهلكة كجهنم ذات الأبواب السبعة . ولها في

كل لحظة مكر يهلك مائة فرعون مع أتباعهم . وفي هـذا إشارة إلى قصة فرعون مع موسى ، ومحاولته القضاء على موسى ، وهـلاكه هو وأتباعه من جراء تلك المحاولة التي دفعته إليها نفسه المتكبرة ، العنيدة الكافرة .

(٧٨٥ – ٨٠٥) جاء في قصة أصحاب الأخدود ما يلي ، « وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك أترجعين عن دينك ، وإلا ألقيتك أنت وأولادك في النار ، فأبت ، فأخذ ابنها الأكبر فألقي في النار ، ثم أخذ الأوسط ، وقال لها ارجعي عن دينك ، فأبت ، فألقي أيضاً في النار ، ثم أخذ الرضيع وقال لها ارجعي فأبت ، فأمر بالقائه في النار ، فهمت المرأة بالرجوع . فقال لهـا الصبيّ الصغير : يا أماه ! لا ترجعي عن الإسلام فإنـك على الحقّ ، ولا بأس عليك ، فألقي الصبيّ في النـــار وأمه على أثره » . (قصص الأنبياء للثعلبي ص ٤٩٦) .

والقصة كما رواها جـلال الدين تختلف عن ذلك . فحوادث القصة عند جلال الدين تقتصر على إلقاء الصبيّ في النـــار . ولكنّ الشاعر أجرى على لسان الصبيّ – بعد أن أُلقي في النار – مجموعة من الأبيات الرائعة ، حافـــلة بالصور والعاطفة الجيّاشة المعبرة عن روعة الفداء ، وجمال التضحية في سبيل العقيدة والمبدأ .

وقد اتخذ الشاعر من الاحتراق بالنار هنا رمزاً لإفناء الذات . فهذا قد يبدو صعباً عسير المنال ، مخوفاً ، ولكنّه في نظر الصوفية سعادة لا تعدلهـا أيّة سعادة دنيوية . فكما أنّ الرحم يكون عالم الجنين قبل أن يولد في هذه الدنيا الواسعة ، فكذلك هذه الدنيـــا – إذا قيست بعالم الروح الذي ينتقل إليه الأصفياء بعد الممات – تعد سجناً ضيّقاً ، شبيهاً بالرحم إذا قيس بهذه الدنيا الواسعة .

(٧٩٤) الفناء عن الذات وروابطها المادية كشف له عالماً رحباً فسيحاً حافلا بالحياة .

(٧٩٥) هذا العالم الذي تكشّف له – بإفناء الذات – يبدو لأهل الدنيا عدماً ، مع أنّه هو الوجود الحقيقي . وعلى العكس من ذلك تخدع الدنيا من يتمسكون بها فيحسبون أنّها هي الوجود الحقّ ، وليست من ذلك في شيء . إنّها مظهر خادع لا دوام له لأنّ مآلها إلى الفناء .

(٧٩٦) إنّ الخروج من الدنيا ليس في حقيقته مؤلماً كما يبدو في الظاهر لأبنائها ، المتعلّقين بها .

(٨٠٠) إنّ الله قد أعدّ السعادة والنعيم لمن خلصوا من وجودهم الدنيوي وأقبلوا إلى الخالق بقلوب صادقة ، ونفوس راضية مطمئنة ، وأرواح متعشّقة لجماله .

(٨١٢) يقول البلاذري : « وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري ، وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده ، وفي أحد الحديثين زيادة على الآخر ، فسقتها ، ورددت بعضها على بعض : إن الحكم بن أبي العاص بن أمية عم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، كان جاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية ، وكان أشد جيرانه أذى له في الإسلام ، وكان قدومه المدينة بعد فتح مكة ، وكان مغموصاً عليه في دينه فكان يمر خلف رسول الله فيغمز به ويحكيه ، ويخلج بأنفه وفمه ، وإذا صلى قام خلفه وأشار بأصابعه فبقي على تخليجه وأصابته خبلة » . (أنساب الأشراف ، حـ ٥ ، ص ٢٧ ، ١٢٥ ، القدس ، ١٩٣٦ » .

وقد بقي منفياً من المدينة طيلة حكم أبي بكر وعمر ، ثم عاد إليها في خلافة عثمان .

وقد هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري مروان بن الحكم بقوله :

إن اللعين أباك فارم عظامه   إن ترم ترم مخلّجا مجنوناً

(٨١٧ ـ ٨٢٢) عقد القشيري بابا للحزن في رسالته . وقد أورد فيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية عن الحزن . وبيّن أنّ الصوفية يعدون الحزن لوناً من الخشوع والإيمان . ومما ذكره القشيري من أقوال الصوفية أن رابعة العدوية سمعت رجلاً يقول : « واحزناه » ، فقالت : « قل واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس ! » وقال سفيان بن عيينة : « لو أن محزوناً بكى في أمة لرحم الله تعالى تلك الأمة ببكائه » .

والحزن عند الصوفية من أهم الرياضات التي يجب أخذُ النفس بها . يقول الترمذي :

وفي الجملة ينبغي أن يتفقد (الإنسان) كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار ، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء ، فيقطعه عنها ، وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به ، فينبغي أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها . فيمنعها من تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها ، حتى تسكن تلك الفورة ، وينغّص عليها ، ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً ويوقرها هماً ، لأن من شأنها إذا حبس عنها الفرح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال ، فكأنه يصيرها في سجن ، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها ، فيجعل الله عز وجل ثوابه نوراً على القلب .. » (الرياضة وأدب النفس ، ص ٦٢) .

وقد غلبت طبيعة الحزن على كثير من الفنانين . ومن أحزان هؤلاء شهد العالم كثيراً من روائع الفن العالمي .

وقد أبدع أوسكار وايلد التعبير عن ذلك في كتابه « من الأعماق » De Profundis ومن أقواله في ذلك :

« فحيثما يكون الحزن فهناك حرم مقدّس . وسوف يعلم الناس ذات يوم مدلول هذا القول . ولن يحيطوا علماً بشيء في الحياة مالم يعرفوا ذلك ».

(Oscar Wilde : De Profundis, P. 16, Methuen & Co. , London) .

(٨٢٥) المجوسي يعبد النار ولكنها مع ذلك تحرقه لو أنه اقترب منها .

وشبيه بهذا ما قاله سعدي في الگلستان (الباب الأول ، القصة ١٦) :
اگرصد سال گبر آتش فروزد چو يك دم اندرآن افتاد بسوزد
ومعناه : « لو أن المجوسي يشعل النار مائة عام ، فإنها ـ رغم ذلك ـ تحرقه لو وقع فيها لحظة واحدة » .

(٨٣٤) النار التي تبعث الغم في النفس ، وتحرقهـا هي نار الحقد والشهوات والأهواء الدنيوية .

(٨٣٥) النار التي تبعث السرور في النفس هي نار المحبة ، وهي عند الصوفية مصدر السعادة ، فكلما ازدادت حدّتها زاد اقترابهم من هدفهم المنشود.

(٨٣٨) سبق للشاعر أن تحدّث عن إدراك الجماد (انظر البيتين رقم ٥١٢ ، ٥١٣) .

وقد ذكر الشاعر قصصاً يدلل بها على أن الإدراك ليس مقصوراً على الإنسان منها قصة الريح التي أهلكت الكفار من قوم عاد ، على حين أنها لم تؤذ من آمن منهم . (البيتان ٨٥٤ ، ٨٥٥) ، وكذلك قصة الجذع الحنان (الأبيات ٢١١٣ - ٢١٢٠) .

(٨٤٠ ـ ٨٥١) يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن الأسباب المباشرة وهل هي محدثةُ الأفعال أم أنّ وراء تلك الأسباب الظاهرة الخـالق مسبب الأسباب . ويرى الشاعر أنّ الخالق هو مسبب جميع الأسباب . وقول الشاعر هذا يتصل ببحث كلامي ظهر عند المعتزلة واختلفوا حوله ، ويتعلق هذا المبحث بالسبب المباشر والسبب غير المباشر . وقد قادهم إلى ذلك بحثهم في أفعال العباد ومسؤوليتهم عن تلك الأفعال . فالمعتزلة بوجه عام قد آمنوا بخلق الإنسان لأفعاله ، وعلى هذا آمنوا بمسؤوليته الكاملة عن كل مـا يفعل ، ولكنهم اختلفوا حول صلة الإنسان بالأحداث التي تتولد عن أفعاله . فإذا رمى عليّ زيداً بسهم فقتله ، فالعمل الذي قام به عليّ هو الرمي . ولكن من الذي أحدث القتل الذي قضى على زيد ، هل هو رامي السهم أو الله ؟ وقد ذهب بشر بن المعتمر (توفي ٢١٠ هـ)

إلى أن ما تولد من أفعال الإنسان يعتبر من خلقه ، على حين ذهب أبو الهذيل العلاف (١٣٥ ـ ٢٣٥ هـ) إلى التمييز بين الأفعال المولدة ، فما كان الإنسان عالماً بكيفيته فهو من فعله ، وما لم يكن عالماً بكيفيته فليس من فعله . فالألم الحادث عن الضرب من فعله لأنه يعلم كيفية وقوعه . أما الإحساس بالحلاوة الناشئة عن أكل السكر مثلاً فمن فعل الله ، لأن الإنسان لا يدري كيفية إحداث هذا الإحساس .

أما النظّام (توفي ٢٢١ هـ) فكان يرى أن الإنسان لا يفعل سوى الحركة . أما ما يتولد عن الحركة فليس من فعله ، بل هو من فعل الله . وهناك آراء عديدة أخرى في هذا الموضوع يمكن الرجوع إليها في كتب الفرق ، ومن أهمها مقالات الإسلاميين للأشعري .

ويذكر جلال الدين في هذه الأبيات الأسباب الروحية ، وفي رأيه أنّ هذه الأسباب كامنة وراء الأسباب الظاهرة ، التي يألفها عامة البشر .

(٨٤٩) يحذّر الشاعر هنا من اعتبار الفلك علة لأحداث هذه الدنيا . فالعلة الحقيقية هي مدير الفلك . فمن الملحوظ أن الشاعر ـ شأنه شأن علماء عصره ـ لا ينفي صلة الفلك والكواكب بالأحداث ، ولكنه يقول إن هذا الدوران ـ وهو السبب المباشر ـ يخفي وراءه السبب الحقيقي وهو الخالق ، مدير الأفلاك ، ومسبب الأسباب .

(٨٥٠) المرخ خشب سريع الاحتراق .

(٨٥٤ ـ ٨٥٥) قصة هود مع قوم عاد ذكرت في القرآن الكريم (١١ : ٦١) . يقول الثعلبي في قصص الأنبياء (ص ٦٤) . « فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي دائمة متتابعة ، فلم تدع أحداً من عاد إلا أهلكته . وكان هود ومن معه قد اعتزلوا في حظيرة ، ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم ، وتلذ به الأنفس ، وإنها من عاد لطعن ، فتحملهم ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا » .

(٨٥٦) شيبان الراعي ، أبو محمد الدمشقي ، كان صديقاً لسفيان

الثوري . وكان هذا الرجل من الزهاد العباد ، وقد ترك الدنيا وعكف على رعي الأغنام في جبل لبنان ولهذا لقب بالراعي . وقد ذكره القشيري في رسالته (ص ١٨١) بقوله : « هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما ، فجاء شيبان الراعي ، فقال أحمد : « أريد يا أبا عبد الله أن أنبّه هذا على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم ». فقال الشافعي : « لا تفعل » . فلم يقتنع . فقال لشيبان : « ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة ، ولا يدري أي صلاة نسيها : ما الواجب عليه يا شيبان ؟ » فقال شيبان : « يا أحمد ! هذا قلب غفل عن الله تعالى ، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد . فغشي على أحمد ، فلما أفاق قال له الشافعي : « ألم أقل لك لا تحرك هذا ؟ » وشيبان الراعي كان أمياً منهم . فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم ؟ » .

(٨٦٠) عندما ينزل الموت بالعارفين ، لا تجزع نفوسهم لذلك ، بل يُلاقون الموت بقلوب راضية ، مطمئنة إلى مصيرها بعد الموت ، ولهذا يكون الموت بالنسبة إليهم أمراً يسيراً يرحبون بملاقاته .

(٨٦٣) قصة موسى مع فرعون ، وكيف فلق موسى البحر حتى عبر هو وقومه ، فلما تبعهم فرعون وأتباعه غشيهم البحر وأغرقهم ، من القصص المعروفة . وقد أشار إليها القرآن الكريم بقوله : « وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . (٢ : ٥٠) .

(٨٦٤) قصة قارون أيضاً من قصص القرآن الكريم . وقد رُويت في سورة القصص ، قال تعالى : « إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » . (٧٦:٢٨) وقد ذكر القرآن زهوه بماله حتى تمنى الجهلاء منهم لو أن لهم مثل ما أوتي . وتكبر بماله وتجبر فحاق به عقاب الله . قال تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض

فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .
انظر سورة القصص ، ٢٨ : ٧٦ – ٨١) .

وقد ذكر الثعلبي في قصص الأنبياء تفصيلات متعددة لقصة قارون مع موسى وقومه (ص ٢٣٢ – ٢٣٦) . ومن بين ما ذكره أنّ قارون حاول أن يكيد لموسى ، لأن موسى فرض عليه الزكاة على أمواله ، فلما وجد أن الزكاة المفروضة تبلغ قدراً كبيراً من المال دبر لموسى كيداً فضحه الله . ودعا عليه موسى فابتلعته الأرض .

(٨٦٦) الإنسان – وهو الذي فطر جسمه من الماء والطين – يسبّح لخالقه . فهذا التسبيح المتصاعد من بني البشر هو بخار الماء والطين . ولكن هذا البخار يصير طيوراً في الجنة ، ذلك لأن قلب المؤمن الصدوق قد نفخ فيه أنفاسه .

(٨٦٧) نور موسى هنا هو نور الله الذي أشرق على موسى في سيناء . وقد دك الجبل حينما تجلى هذا النور . وهذا الدك هو الذي عبّر عنه الشاعر بالرقص ، فالجبل حينما شهد تلك الأنوار تعشقها كأنه صوفي .

(٨٧٩) الماء المحتبس في الحوض كالروح في الجسد . تخلّصه الريح من هذا الحبس لأن الماء من العناصر الأولية . وكذلك الروح ، تتصاعد من الجسد ، لأنها غريبة عنه غربة الماء عن الوعاء الذي يحتويه . وكأنما الريح هنا ترمز إلى التسبيح والدعاء الذي يتصاعد من قلب المؤمن . وقد ترمز إلى انقضاء العمر .

(٨٨٢) في هذا البيت اقتباس من قوله تعالى : « من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . (٣٥ : ١٠) .

(٨٩٩) قصة كليلة ودمنة التي اقتبسها الشاعر هنا هي قصة « الأرنب التي صرعت الأسد » ، وهي قصة صغيرة خلاصتها أن أسداً كان يعيش بالقرب من أحد المروج ذات الماء والعشب الكثير ، وأن ذلك المرج كان

مرتعاً لكثير من وحوش البرية ، تعيش فيـــه مستمتعة بمائه وعشبه . ولكن الأسد كان يفسد عليها عيشها بمهاجمتها لاقتناص غذائه . وقد رأت هذه الوحوش أن تخلص من شرّ الأسد بأن تقدم له كل يوم فريسة يأكلها على أن يكف الأسد عن مهاجمتها . وكانت الفريسة التي تُرسل إلى الأسد تختار بطريق الاقتراع . وذات يوم أصابت القرعـــة أرنباً ليذهب إلى إلى الأسد ، فلم يقبل الذهاب ، وأخذ يعمل الحيلة للقضاء على الأسد . فتأخر عن الموعد الذي اعتاد الأسد أن يتلقى فيه فريسته ، ثم ذهب إلى الأسد بعد ذلك ، وأخبره بأنـــه تأخر ، لأن أسداً آخر اعترض طريقه ، وأخذ منه غذاء الملك ، وكان أرنباً آخر سميناً أرسله إليـــه الوحوش . ودعـا الأسد إلى أن يطهّر الطريق من ذلك الأسد الدخيل حتى يصله طعامـه دون تأخر . فطلب الأسد من الأرنب أن يدله على مكان ذلك العدو . فأخذه الأرنب إلى بئر تطلع فيها ، فرأى خياله ، فظنه عدوه ، فوثب إليه ليقاتله ، فغرق في البئر وخلصت الوحوش من شره . (كليلة ودمنه ، ص ١١٦ ، ١١٧ . المطبعة الأميرية القاهرة ، ١٩٣١) .

وقد اتخذ الشاعر من هذه القصة — التي استغرقت رواية وقائعها خمسين بيتاً — هيكلاً صاغ حوله الكثير من آرائه وأفكاره . فتناول موضوعات كالجبر والاختيار ، والاجتهاد والتوكل ، وعالم الروح ، وعالم الظاهر ، وطبيعة الشر وغير ذلك . واستغرقت القصة بكل ما أداره حولها من حوار فلسفي خمس مائة من الأبيات .

(٩٠٥ — ٩٠٦) الشاعر في هـذين البيتين يبيّن كيف أن الإنسان يمكن أن يكون ضحية لغدر سواه من بني البشر . ولكن عليه أن يتنبه لغدر نفسه . فالنفس بطبيعتها ذات أهواء وميول قد تودي بصاحبها .

(٩٠٨ — ٩١١) عبر الشاعر في هذه الأبيات — التي أجراها على لسان الوحوش — عن مبدأ التوكل الكامل على الله . وأن على الإنسان ألا يبذل أي جهد في الحياة ، بل يعبرها كالميت تاركاً كل أموره لخالقه ، يفعل

بها ما يشاء . وهذا القول بالامتناع الكامل عن بذل الجهد في الحيـــاة يتمشى مع مفهوم التوكل عند بعض الصوفية السلبيين . ومن أمثلة من عبر عن هذا المفهوم سهل بن عبد الله ، فقد روى عنه أنـه قال : « أول مقام في التوكل أن يكون العبد بـين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير » . (انظر رسالة القشيري ص ٧٦) . ولكننا نجد أقوالاً أخرى منسوبـة إليه تفيد أن السعي سنة النبي . قال : « التوكل حال النبي والكسب سنته ، فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته » . (القشيري ، ص ٧٧) . وللصوفية أقوال كثيرة حول هذا الموضوع ، تشغل أبواباً واسعة من كتبهم . ومما يتفق ومعنى الحديث « اعقلها وتوكل » ما روي من قول عمر للرسول عليه السلام :

« يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أعلى أمر قد فرغ منه ، أو أمر مبتدأ ؟ » فقال : « على أمر قد فرغ منه » ، فقال عمر : « أفلا نتكل وندع العمل ؟ » فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . (الكلاباذي : التعرف لمذهب أهـل التصوف – القاهرة ، ١٩٦٠) .

(٩١٢ ـ ٩١٤) يدافع الشاعر هنا بلسان الأسد عن مبدأ بذل الجهد والسعي في الحياة ، وأن مثل هذا لا يتنافى مع مبدأ التوكل على الله . وهذا الفهم للتوكل هو ما يتمشى مع عقيدة أهل السنة . ويعبر القشيري عن ذلك المعنى بقوله : « واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب ، بعد مـــا تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعـــالى ، وإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن اتفق شيء فبتيسيره » . (رسالة القشيري ، ص ٧٦) . وهذا هو المفهوم الأصوب لفكرة التوكل عند أهل السنة . وممن قال بهذا المعنى الجنيد الذي عرّف التوكل بأنه « اعتماد القلب على الله » . (أبو نصر السراج : اللمع ، ص ٧٩ . القاهرة ، ١٩٦٠) .

(٩١٩ ـ ٩٢٠) إشارة إلى قصة فرعون مع موسى في طفولته . فقد

كان يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل خشية أن يظهر من بينهم من يزلزل ملكه . ولكنه ـ مع ذلك ـ أبقى على موسى ، وهو الطفل الذي كان مقدراً له أن يقضي على ملك فرعون . قال تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » . (٢٨ : ٧ ـ ٩) .

فحذر فرعون ـ الذي دفعه إلى قتل كل من وُلد من الذكور لبني إسرائيل ـ لم يُنجه مما كان يخشاه ، بل كان هو الذي رعى في المهد موسى ، فكان زوال ملكه على يديه .

(٩٢١ ـ ٩٢٢) الإنسان لا يستطيع أن يدرك الأسرار ، ولا أن يرى الحقائق ببصيرته وحدها . ولا بد له ـ لكي يكتمل إدراكه ـ أن يفني بصره في بصر الحبيب . وعند ذلك يصبح بصر الحبيب بصراً له ، فيحسن إدراك المبصرات ، وتقدير الأمور ، ولا يقع له ما وقع لفرعون بنظره القاصر ، وإدراكه الباطل .

(٩٢٥) أرواح البشر قبل حلولها في الأجساد كانت منطلقة في جو الصفاء .

(٩٢٦) وعندما صارت الأرواح أسيرة الأجساد ، بعد أن قضى الله على بني البشر أن يهبطوا إلى هذه الأرض ، صارت هذه الأرواح مسخرة لما يعتلج في نفوس البشر من غضب وحرص ورضى .

(٩٣٠) الطمع الساذج هو ذلك الطموح المبني على غير أساس .

(٩٣١) على الإنسان أن يفيد من الوسائل والأسباب . فالله قد وهبه هذه الجوارح المختلفة ليستخدمها .

(٩٣٨) ينتقل الشاعر هنا ببراعة من موضوع التوكل والسعي إلى الجبر

والإختيار . فالسعي لشكر النعمة قدرة ، وأما إنكار النعمة فهو جبر .. والنعمة المشار إليها هنا هي تلك الجوارح التي تُقدر الإنسان على السعي .

(٩٤١) فسر بعض شراح المثنوي « الشجرة المثمرة » المذكورة في البيت بأنها رمز للمرشد ، فهو وحده الذي يجب على المرء أن يسلم إليه إرادته . ولعل الأصوب أن تُفهَم « الشجرة المثمرة » على أنها رمز لقدرات الإنسان التي تعود عليه بمختلف الثمار . فعلى الإنسان أن يؤمن بالتوكل — وهو ما يرمز له هنا بالنوم — ولكن يجب أن يكون هذا التوكل مقترناً بالسعي المثمر .

(٩٤٤) التعالي على أوامر الخالق ونواهيه ليس من علائم القوة والشجاعة التي يرمز إليها بالرجولة ، بل هو عنوان الضعف والحماقة . فقوله : « فأنت لو تحققت الأمر امرأة .. » معناه : « لو تحققت الأمر فإنك ضعيف أحمق .. » ذلك لأن القوة هي في المقدرة على الاستجابة لأوامر الله . أما التخلي عنها ، والتهرب منها فهو الضعف ، وإن خيل لمرتكبيه أنه قوة .

(٩٥٦ ـ ٩٦٨) هذه القصة التي تروى عن عزرائيل يمكن أن تعد الآن إحدى القصص الشعبية . فهي معروفة للعامة في وقتنا هذا ، ولكنها لا يعرف لها مصدر محدّد ، ولا مؤلف معين . وقد وردت في مصادر عدة ، إلى جانب المثنوي . ذكرها البيضاوي في تفسير قوله تعالى : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت » (٣١ : ٣٤) . كما ذكرها محمد عوفي في « جوامع الحكايات » . ولا تزال هذه القصة تروى في معرض الحديث عن الأجل المحتوم ، وكيف أنه محدد الزمان والمكان بالنسبة لكل إنسان ، ولا مجال لأن يقع به أدنى تغيير أو اختلاف .

(٩٧٨) يسخر الشاعر من الجبر فيخرج به عن معناه الفكري المعروف ويصرفه إلى أحد معانيه الحسية ، وهو جبر الكسور . فيخاطب القارىء قائلاً : « إنك لست مكسور الرأس فلا تعصب رأسك » .

(٩٨٥) المال إذا سيطر على الإنسان وتملك قلبه وحواسه كان سبباً لهلاكه . فإذا نجح الإنسان في أن يتعالى على سلطان المـال ، واعتبره عرضاً ، يفيد منه فيما ينفع ، كان المال دعامـة له وسنداً ، يغنيه عن الناس ، ويمكنه من أن ينفق فيما ينفع الناس .

(٩٨٦) النبي سليمان مثال للغنى والقدرة ، ومـع ذلك ، لم تُبطره كثرة المال ولا عظم المقدرة ، بل ظلّ يعدّ نفسه مسكيناً ، لأنه لم يدع الغرور بالمال والجاه ينسيه ضعفه أمام خالقه . وفي سيرة سليمان – كما يصورها صاحب قصص الأنبياء – أنه كان يجـالس المساكين . يقول : « وكان خاشعاً متواضعاً يخـالط المساكين ويجالسهم ويقول : مسكين يجالس مسكيناً » . (ص ٣٢٥) .

(٩٨٨) المسكنة هنا هي إحساس الإنسان بضعفه وضآلته أمام الله .

(٩٩٠) أخرج من قلبك حب الدنيا والافتتان بهـا ثم املأه بهواء الكبرياء والتعالي المنبعث من عالم الملكوت .

(١٠٠٤) النبي قـد يظهر ضعيف الجسم في أعين معانديه ، لكن عظمته تخفى عليهم ، لأنهم لا يؤمنون بتلك القوة الهائلة التي يؤيده بها ربه .

(١٠٠٨) الفضل ليس بالصورة الظاهرة ، ولا هو يتبع ضخامـة الأبدان . فقد يتحقق منه للضعيف مـا لا يتحقق للقوي . وقد أورد الشاعر أمثلة متعددة لذلك في الأبيات التالية ، وخلص من كل ذلك إلى أن الإنسان يجب عليه أن يفتش عن جوهر الأشياء ، ويقيس الأمور على أساس تقديره لحقيقتها وجوهرها ، وليس على أساس نظراته السطحية إلى تلك الأمور .

(١٠١٤) في رأيي أن في هذا البيت إشارة إلى أثر إبليس على آدم ، ذلك الأثر الذي أدى إلى سقوطه . فهذا الزاهد خـلال آلاف السنين (عزازيل ، الذي أصبح بعد سقوطه معروفاً بإبليس) ، لم يكتف بعصيان ربه ، بل هو قد عمل على إضلال آدم وظل دائباً على السعي لإضلال ذريته من بعده . هذا الأثر الذي كان لإبليس على آدم هو أنه أقنعه بتأويل

الأمر الإلهي الصريح ، الذي نهى به الله آدم عن أكل ثمار الشجرة المحرمة . فهذا النهي سر إلهي ، وقد كان صريحاً ، ولا سبيل لتأويله . فالتساؤل الذي وسوس به الشيطان لآدم ، كان سبب الخطيئة . فسقطة آدم كانت نتيجة للنظر العقلي إزاء نص صريح . وقد أصبحت هذه رمزاً لكل نظر عقلي ، بني على معارف الحس ، وأنكر الوحي والإلهام ، فناقش صريح الأمر ، والتمس في نقاشه العلل والأسباب ، وهذه تعجز عن إدراك الخفايا والأسرار الكامنة وراء صريح الأمر . ولهذا عبر الشاعر عنها بأنها أصبحت خطاماً على فم البشر يعوقهم عن ارتشاف لبان علم الدين . واستخدم العجل رمزاً لآدم ، وقصد بذلك أنه كان حديث الميلاد ، ساذج القلب بالقياس إلى إبليس الذي ظل آلاف السنين ملكاً من كبار الملائكة ، ثم ضل في النهاية ، نتيجة لتأويله صريح الأمر الإلهي بالسجود لآدم . وها هوذا قد وسوس لآدم بما جعله يسلك ذات السبيل إزاء الشجرة المحرمة . ويجب ألا ننسى هنا أن الصوفية يعدون النظر العقلي عاجزاً عن إيصال البشرية إلى العلم اليقيني . فسقطة آدم رمز لتمسك البشرية واعتدادها بالنظر العقلي وحده ، وإنكارها الروح وما يوحى إليها .

(١٠١٦) هذه العلوم العقلية البحتة ، صرفت الناس عن الإيمان بالعلم الروحي ، ذلك العلم الذي يكشفه الله لحبيبه . فأصبحت هذه العلوم الحسية خطاماً وقيداً ، يعوقهم عن الإنطلاق في ميادين المعرفة الروحية .

(١٠١٧) هذه الجوهرة هي مركز الإيمان في القلب الإنساني ، يشع منها ، فيغمر الكيان الإنساني ، ويجعل الإنسان وهو في هيكله المادي مرتبطاً بعالم الروح .

(١٠١٨) الصورة رمز للمادة ولكل ما هو حسي . وعابد الصورة هو الذي يعتد بالمادة اعتداداً كلياً ، ويكاد لا يرى للروح شأناً بالقياس إليها . وقد يبلغ بالإنسان اعتداده بالمادة أن يدعها تطغى على روحه وتكبلها بالقيود .

(١٠٢٠) لو كانت المادة وحدها هي كل مـــا يُعتقد به في الوجود لكان أي تصوير للإنسان مساوياً للإنسان ذاته .

(١٠٢٢) عندمــا أراد الله ، صار كلب أصحاب الكهف الذي ارتبط بهؤلاء الصلحاء أعظم من كل أسود الدنيا .

(١٠٢٤) حــين يبعث الإنسان برسالة إلى إنسان آخر فإنه لا ينعته إلا بصفاته المعنوية كأن يصفه بأنه عالم أو عادل . فالمعتاد في المراسلات ألا يخاطب إنسان صديقــه بقوله : « صديقي الوسيم الوجه » أو « صديقي الطويل القامة » بل هو يخاطبه بقوله : « صديقي العالم أو الفاضل » .

(١٠٢٥) ومثل هذه الصفات لا تتجسد لأنها معان مطلقة .

(١٠٢٨) « الأذن الحمــارية » هي أذن الحس التي لا تقدر على إدراك الرموز والاستماع إلى الأسرار .

(١٠٣٣) ممــا هو شائع حتى الآن بين العامة أن الجن والشياطين تسكن شواطىء البحار النائية والبقاع الخربة . وهذا من بقايا أوهام القرون الوسطى .

(١٠٣٥) هواجس الشيطان والنزوات والأوهام تطرق باب القلب ، وتحاول أن تتملكه . وهذه الهواجس لا ترى بالعين ، ولكنها مع ذلك محسوسة الأثر .

(١٠٣٩) تستطيع حــين يتبدل حسك المــادي ، ويتحقق لك الحس الروحي أن تدرك كنه هذه الهواجس والأوهام ، وتستطيع التغلب عليها ، وتتمكن من إقصائها عن قلبك وروحك . وإذ ذاك تحل مشكلتك ، ويتضح لك السبيل .

(١٠٤٠) وحين تبلغ هــذا الحد من الإدراك الروحي ، تعلم حقيقة من خالفتهم من أنبياء ومرشدين روحيين ، ويتضح لك جوهر من كنت توليهم قيادك قبل أن تبلغ هذه المنزلة من الإدراك الروحي القويم .

(١٠٤٩) يتضمن هذا البيت مصراعاً من بيت عربي شائع هو :

كل علم ليس في القرطاس ضاع كل سر جاوز الاثنين شاع

وينسب هذا البيت أحياناً إلى علي بن أبي طالب .

(١٠٥٠ ـ ١٠٥١) الإشارات إلى منطق الطير وتسبيحها متعددة في القرآن الكريم ، وخاصة فيما يتصل بقصص داوود وسليمان . ومن الإشارة إلى ترابط الطير قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » . (٦ : ٣٨) .

(١٠٦١) قد يضيع عمر الإنسان في الاستماع إلى ألفاظ حلوة الوقع ، لكنها لا طائل وراءها . والأولى به أن ينفق هذا العمر في تحري الحقائق ، وترقية النفس وتهذيبها .

(١٠٦٤) اللوح الحافظ – على ما يبدو – يعني هنا العقل المفعم بالمعارف ، فإذا أصبح العلم بالنسبة لطالب الحكمة « لوحاً محفوظاً » فمعنى ذلك أنه قد بلغ أسمى مراتب المعرفة الروحية ، ففي اللوح المحفوظ علم كل شيء كان ويكون . وأما قوله : « وعقله يغدو ذا حظّ من الروح » فمعناه أنّ المعرفة لا تقف عند حدّ العقل ومدركاته ، بل تصبح الروح مصدراً للمعرفة ، ومنبعاً لها ، تمدّ العقل بما تتلقاه من كشف وإلهام .

(١٠٦٥) حينما يبدأ المريد في ارتقاء سلّم المعارف يكون العقل بالنسبة له هو المعلّم والمرشد ، لكنّه حين يصبح من الواصلين ، فإنّ المعارف تأتيه عن طريق الكشف والإلهام ، فيتجلى للعقل حينئذ ما لم يكن له سبيل إلى فهمه بالفكر المجرّد .

(١٠٦٦) في هذا البيت إشارة إلى عروج الرسول إلى السماء في صحبة جبريل . وقد وردت الإشارة إلى هذا في قوله تعالى : « ثم دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ،

عند سدرة المنتهى ، عندهـــا جنة المأوى » . (٥٣ : ٨ ـ ١٥) .
وسدرة المنتهى – كما يقول الجيلي – « هي نهـــاية المكانة التي يبلغها المخلوق في سيْره إلى الله تعـالى ، وما بعدها إلا المكانة المختصة بالحقّ تعالى وحده ، ليس لمخلوق هناك قدم ، ولا يمكن البلوغ إلى ما بعد سدرة المنتهى لأنّ المخلوق هناك مسحوق ممحوق ... وإلى ذلك الإشارة في قول جبريل عليه السلام للنبيّ : لو تقدمت شبراً لاحترقت (الإنسان الكامل ، جـ ٢ ص ٨) .

(١٠٦٨ – ١٠٧٠) إنّ الإيمان بالجبر إحساس بالعجز ، واستسلام كامل يصرف صاحبه عن بذل أيّ جهد . فهو عند الشاعر حـــالة مرضية ، يتجلّى فيها ضعف النفس ، ذلك الضعف الذي يقضي عليها في نهاية الأمر . إنّ اعتقاد الجبر شبيه بالتمارض ، لأنّه اعتقاد بأنّ الإنسان لا قدرة له . فهذا الاعتقاد يؤدي بالضرورة إلى انعدام القدرة ، أي أنه يصبح مرضاً حقيقياً ، ينتهي بصاحبه إلى العجز الكامـــل ، الذي هو موت محقق .

(١٠٧٣) لا بـــد من بذل الجهد في الحياة . فإذا أدى الإنسان واجبه وأخلص في أدائه ، فإنه لا بد مدرك غايته رغم ما يلاقيــه من صعاب . .

(١٠٧٤ – ١٠٧٥) المرء بتركـــيزه على بذل الجهد في تنقية النفس وتنزيهها عن الخطايا ، وفي سعيه إلى خالقـه بقلب محب مخلص في محبته ، يصبح من الواصلين . وبعد أن يكون حاملاً أعبــاء السعي والجهاد لتنقية النفس ، يصل إلي مقـام تكون فيه إرادته هي إرادة الله . وبعد أن كان يتلقى الأوامر الإلهية ويعمل على مسايرتهـا ، أصبحت إرادته متمشية مع تلك الأوامر ، وأصبح هو الذي يحملها إلى الناس ويدعوهم إليها .

(١٠٧٦) من اتحـــدت إرادته مـع إرادة الله لا يبقى للكواكب

سلطان عليه . وكان المعتقد في القرون الوسطى أن الكواكب تتحكم في مصائر الناس . ولا يزال أثر ذلك الاعتقاد باقياً إلى اليوم .

(١٠٩٨) العبرة ليست بالظاهر ، بل بالحقيقة والجوهر ، فالظاهر الحسن قد يكون وراءه باطل ، وقد يكون وراءه حق .

(١٠٩٩) إذا كان عمل الإنسان مجرد ظاهر لا حقيقة له ذهب هباء .

(١١٠٥) كانت النقود الإسلامية تحمل شهادة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . فكان اسم الرسول يطبع دائماً على النقود رغم تغير أسماء الملوك .

(١١١٠ — ١١١١) يصور الشاعر البشر في هذا العالم بكؤوس طافية فوق بحر الوجود المطلق ، تبقى طافية ما دامت خاوية الجوف ، فإذا ما امتلأت بمائه غرقت فيه . والظاهر أن الشاعر كان مولعاً بهذا التشبيه ، ففي أحد أحاديثه المجموعة في كتاب « فيه ما فيه » شبه البشر بالكؤوس فوق صفحة الماء . قال : « إننا مثل كأس فوق صفحة الماء . وليست حركة الكأس فوق الماء مما تتحكم به الكأس ، بل إن الماء هو الذي يحكم هذه الحركة » . (ص ١٥٣ ، طبعة فروزانفر) . وقد أراد بهذه الصورة أن يبين أن الخالق هو المحرك للبشر ، وإن كان الظاهر أنهم متحركون بإرادتهم .

(١١١٢) العقل هنا هو العقل الكلي ، وهذا من المصطلحات التي يرمز الشاعر بها أحياناً إلى الخالق . فهذا العقل الكلي لا يرى ، أما ما نراه فهو هذا العالم المادي ، الذي هو فيض من أشعة شمس العقل الكلي ، أو موج ورذاذ من بحره . وهذا تعبير عن مذهب وحدة الوجود .

(١١١٥ — ١١١٩) قدم الشاعر هنا صورة لغفلة الإنسان عن الروح ، على الرغم من أن كل حياته مقتبسة منها ، فكأنه يمتطي حصانا ويحثه على الانطلاق به ، وهو مع ذلك غافل عن وجود هذا

الحصان ، رغم أن الحصان يحمله ويمضي به مسرعاً فوق الطريق .

(١١٢١) الروح تملأ كيان الإنسان ، وبعض الناس لا يعلم شيئاً عنها ، فهذه الغفلة تجعل الإنسان شبيهاً بإبريق امتلأ جوفه بالماء ، على حين أن حلقه قد جف ، فلا خبر له عما به من الماء .

(١١٢٢) لا سبيل إلى الوصول إلى الحقائق ، وإدراك تفصيلاتها ، ما لم يتوفر للإنسان أساس هذه المعرفة الحقيقية ، وهو عند الصوفية الكشف والهداية الإلهية . فحين يتوفر هذا للإنسان يصبح سبيله إلى المعارف المحققة . أما الانشغال بالجزئيات قبل التحقق بأساس المعرفة الأول فلا يؤدي إلى علم يقيني . فالهداية الإلهية كالنور ، وهي الوسيلة لتمييز الألوان . والألوان هنا ترمز إلى تفصيلات المعارف ، ولا سبيل إلي التيقن منها بدون النور ، أساس الهداية الأول .

(١١٢٦) الإنسان الذي أضاء بالمعرفة قلبه ، يكون نور عينيه مستمداً من نور قلبه . وبهذا يفترق نور العين عند الإنسان العاقل عن نور العين عند الحيوان الأعجم . فالحيوان يبصر ولكنه لا يميز تميز العقلاء ، ولكن الإنسان يبصر ، ويدرك معنى المبصرات بنور قلبه .

(١١٢٧) الشاعر يفرق هنا بين نور القلب ، وبين نور الحس ونور العقل . فنور القلب هبة يلقيها الله في قلوب الملهمين من عباده . والغزالي لا يفرق بين نور القلب ونور العقل حيث يقول : « واعلم أن في قلب الإنسان عيناً هذه صفة كمالها ، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني ، ودع عنك العبارات ، فإنها إذا كثرت أوهمت عند ضعيف البصيرة كثرة المعاني ، فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون . ولنسمه عقلا متابعة للجمهور » . (مشكاة الأنوار ، ص ٤٣) .

(١١٢٩) عرّف الغزالي النور بقوله : « النور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس » . (مشكاة الأنوار ، ص ٤٢) .

(١١٣١) إنّ الله هو الكل لا ضد له ، ولا ندّ ، ولهذا لا يمكن إدراكه على ذات الوجه الذي تدرك به المحسوسات، تلك التي تتميز للناس بضدها.

(١١٣٣) يشير الشاعر في هذا البيت إلى أنّ التمييز الحقيقيّ لا بدّ أن يكون مبنياً على الإدراك الواعي ، لا على مجرد الإحساس بالأشياء . فقوله : « كل ضد يبيّن ضدّه في الصدور » إيماء إلى أنّ المعرفة الحق هي ما يدركه العقل والقلب ، وبهذا يفترق إحساس الإنسان العاقل عن إحساس الحيوان .

(١١٤٨) إنّ الله يخلق الزمن بسرعة تفوق تصور الآدميين ، فيبدو الزمن أمامهم متطاولاً ، وهو لا يعدو أن يكون لمحة من قدرة الله الخالقة . ومقاييس الزمن – بالنسبة لسكان الأرض – اعتبارية محضة ، يحكمها دوران الأرض حول الشمس مرة في كل أربع وعشرين ساعة . ولهذا تغيرت هذه المقاييس بالنسبة لمن رحلوا إلى الفضاء الخارجي ، وخرجوا من مجال الجاذبية الأرضية . أما فكرة الزمن ذاته فقد شغلت الفلاسفة على مرّ العصور ، ولسنا نرى مجالاً هنا لمثل هذا البحث .

(١١٨٩) إشارة إلى هلاك النمرود بن كنعان ، الذي يُذكر أنه كان من الملوك الجبابرة الطغاة ، أصرّ على الكفر ، وادعى لنفسه الألوهية . وقد ذكر المفسرون أنه هو المقصود في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأُميت . قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » . (البقرة ، ٢ : ٢٥٨) . وقد ذكر الثعلبي في قصص الأنبياء قصة هلاكه بقوله : « فبعث الله إليه بعوضة فدخلت في منخره حتى وصلت إلى دماغه ، فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه بالمطارق ، فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه . وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه ، ثم إن البعوضة أكلت دماغه ، وأهلكه

الله سبحانه وتعالى » . (قصص الأنبياء ، ص ٩٧) .

(١١٩١) اقترن اسم هامان بفرعون في القرآن الكريم قال تعالى : « ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . (القصص ، ٢٨ : ٦). وقال : « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . (القصص ، ٢٨ : ٨) وقد ذكر المفسرون أنّ هامان كان وزيراً لفرعون .

(١١٩٩) إنّ الذين ركنوا إلى الدنيا وعدّوها وجوداً حقيقياً خالداً ، هم في واقع الأمر ضالون ، أسكرهم قهر الحق ، فظهر لهم العدم وجوداً فعاشوا في هذا الوهم منصرفين عن الحق .

(١٢٠٢ – ١٢٢٠) قصة الهدهد وسليمان وردت في القرآن الكريم . وقد رُويت في عدد من الآيات في سورة النمل . قال تعالى : « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » . (٢٧ : ٢٠ – ٢٢). وقد وُضعت لهذه الآيات تفسيرات كثيرة تبيّن سبب اهتمام سليمان بالهدهد . يقول الثعلبي : « وسار (سليمان) نحو اليمن ، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً بيضاء حسنة تزهو بخضرتها ، فأحب النزول بها ليصلي ويتغدّى فطلبوا الماء فلم يجدوه ، وكان الهدهد دليله ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده ، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه . ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب ، يستخرجون الماء . قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق : كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ إذا غطي بقدر إصبع من تراب ؟ قال : ويحك ! إذا جاء القدر عمي البصر . وروى قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أنهاكم عن قتل الهدهد فإنه كان دليل سليمان على الماء » . (قصص الأنبياء ، ص ٤٣٧) .

(١٢٣٤) يتجلى في هذا البيت تمجيد الشاعر للإنسانية كلها في شخص آدم . يقول ابن عربي عن خلق آدم (فصوص الحكم ، الفص الأول ، ص ٤٩ ، ٥٠ ، طبعة عفيفي ، ١٩٤٦) . « فسُمي هـــذا المذكور إنساناً وخليفة . فأما إنسانيته فلعموم نشأته وحصره الحقائق كلها . وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين ، الذي يكون به النظر ، وهو المعبر به عن البصر ... فهو الإنسان الحادث الأزلي ، والنشء الدائم الأبدي ، والكلمة الفاصلة الجامعة ، قيام العالم بوجوده ، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم .. » ويقول أيضاً (ص ٥١) : « وعند آدم من الأسماء الإلهية ما لم تكن الملائكة عليها ، فما سبّحت ربها بها ولا قدسته عنها تقديس آدم وتسبيحه » . انظر أيضاً : (المثنوي ، جـ ١ ، الأبيات ١٢٤٥ - ١٢٤٩) .

(١٢٣٧) ذكر الثعلبي من خصائص آدم أنه « المميز للأرواح الخبيثة من الطيبة » . (قصص الأنبياء ، ص ٤٩) .

(١٢٤٨) يعاود الشاعر هنا تمجيد آدم والاعتداد به كرمز للإنسانية كلها .

(١٢٥١) قال الثعلبي : « واختلفوا في هذه الشجرة التي هي شجرة الجنة ، ما هي ، فقال علي : « هي شجرة الكافور ، وقال قتادة : هي شجرة العلم ، وفيها من كل شيء علامة ، وقال محمد بن كعب ومقاتل : هي السنبلة ، وقيل : هي الحنطة ... » . (قصص الأنبياء ، ص ٣٢) .

(١٢٥٨ – ١٢٦٠) الشاعر كثير التفاؤل في شعره . وهو هنا يطلب إلى الناس ألا ينظروا إلى قسوة القضاء وحدها ، وإنما عليهم أن ينظروا أيضاً إلى حسن فعل القضاء .

(١٢٨٩) الإنسان مكون من العناصر الأربعة وهي : المـــاء والهواء والنار والتراب . وهو قابـــل للاعتلال والفناء . فليست الموجودات الأخرى ، المكونـة من تلك العناصر بقادرة على البقاء . وعلى الإنسان أن يدرك حالها من خلال حاله .

(١٢٩٤) رمز الشاعر بالأسد وحمار الوحش للعناصر المتضادة التي تدخل في كيان كل موجود .

(١٢٩٧) الأسد في هذا البيت يطلب من الأرنب ألا يتحدث عن الأسباب والعلل الكامنة وراء مظاهر الكون ، وكل ما يريده هو أن يذكر له السبب المباشر لتخلفه .

(١٣١٢) لا تحط نفسك بذنوبك وظلمك فتكون كدودة الحرير تنسج حول نفسها ما يقضي عليها ويكون فيه هلاكها .

(١٣١٩) يجب ألا ينظر الإنسان إلى الناس من خلال نفسه الشريرة . فكثيراً ما يسوء ظنّ الرجل بالناس نتيجة لسوء ظنه بنفسه . وما أقرب هذا من قول الشاعر العربي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

(١٣٣١) لعل هذا البيت يشير إلى الحديث الذي ينسب إلى الرسول قوله : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

(١٣٥٠) قد يفهم هذا البيت على أنه ينطوي على تعريض بفخر الدين الرازي الذي كان خصماً لوالد الشاعر أيام إقامته في بلخ .

(١٣٥٢) في هذا البيت تعريض بالمتمسكين بالعلل العقلية ، الذين استغرقهم هذا اللون من التفكير ، وتركوا النفس ، فلم يعنوا بتطهيرها من نوازعها الشريرة ، وأهوائها وشهواتها .

(١٣٨٥) الدعوة إلى الاستقامة كثيرة في القرآن . ومنها قوله تعالى : « فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . (هود ، ١١ : ١١٢) .

(١٣٩٤) لما كان عمر – كما ذكر الشاعر – يتلك قصراً روحياً لا مادياً فلا سبيل إلى مشاهدة هذا القصر إلا لمن كان له قلب نقي خلا من شوائب المادة ، وبريء من نوازع الحرص . فمثل هذه الشوائب تؤذي بصيرة القلب ، كأنها الشعر الذي ينبت في العين ، فيغشي بصرها .

(١٣٩٩) في قول الشاعر : « وكل من فتح له باب في صدره » إشارة إلى الكشف الذي يؤمن الصوفية بأنه سبيل العلم اليقيني .

(١٤٠١ – ١٤٠٢) الشاعر في هذين البيتين يرى أن احتجاب العالم الروحي ليس دليلاً على انعدامه . وهذا الاحتجاب ناشىء من أن النفس الأمّارة بالسوء تحجب قوة الكشف عند الإنسان ، فكأنها تضع إصبعاً على أعين تلك القوة ، فتحجب عنها ما يمكن أن تشاهده . ومثله على ذلك هذا العالم المادي . فالإنسان لو وضع إصبعين فوق عينيه لما شاهد منه شيئاً . وليس معنى هذا الاختفاء الناشىء عن احتجاب البصر في العينين أن العالم أصبح عدماً .

(١٤٠٧) وُهب الإنسان القدرة على الإبصار الحسي والروحي لكي يعرف خالقه ويهتدي إليه . فإن لم ينفعه في ذلك بصره وبصيرته فلا جدوى منهما . والحبيب الحق هو هدف المشاهدة الحق ، أما الحبيب الفاني ، وهو ما يتعلق به قلب الإنسان من ملاذ هذه الدنيا الفانية فمن الخير للإنسان ألا يجعله هدفه ومبتغاه ، ومحط نظره ومستقر قلبه ووجدانه .

(١٤٢٩ – ١٤٣١) إن عبارة « لا تخافوا » الواردة في قوله تعالى : « إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا » . (٤١ : ٣٠) ، هذه العبارة تبعث السكينة في قلب المؤمن الذى يخشى الله ، فهو حين يستمع إليها يطمئن قلبه ، ويهدأ خاطره . أما الكافر الذي لا يخشى الله ، فلا تنفعه مثل هذه العبارة ، ولا جدوى له من سماعها .

(١٤٣٤) المقامات والأحوال : المقام – في تعريف القشيري – ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب مما يُتوصل إليه بنوع تصرف ، ويُتحقق به بضرب تطلب ... وشرطه ألا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإنّ من لا قناعة له لا يصح له التوكل ،

ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ... » (الرسالة ، ص ٣٢) . أما تعريف الحال – عند القشيري – فهو أنه « معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو قبض أو انزعاج أو هيبة أو احتياج ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب .. » (المصدر السابق) . وفي كتاب اللمع لأبي نصر السراج (ص ٦٥ وما يليها) تعريفات للمقامات والأحوال مع تعريف بكل مقام وكل حال . والمقامات التي ذكرها السراج هي التوبة ، والورع ، والزهـــد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل والرضا . أما الأحوال فهي المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس والطمأنينة ، والمشاهدة واليقين .

وغني عن الذكر أن كلمتي « مقام ، وحال » لم تكونا تحملان هذه المعاني الصوفية في عصر عمر .

(١٤٣٨) الشاعر هنا يشيد بأصحاب المقامات . والمقامات (كما يتبيّن في الشروح التي ذكرناها في حاشية ١٤٣٤) تقتضي بذل الجهد لتحقيق درجات معينة يرتقي فيها السالك درجة بعد درجة . وقد وصفها القشيري بأنها مكاسب ، أما الأحوال فهي مواهب ، لا تحتاج إلى بذل جهد . وجلال الدين يؤمن دائماً بضرورة السعي والعمل وبذل الجهد . والتصوف عنده سلوك قويم وعمل بنـّاء .

(١٤٤٠) يصف الشاعر هنا عالم الروح ، ذلك العالم الذي كانت الأرواح منطلقة فيه قبل أن تحل بالأجساد ، وتصبح حبيسة عالم المادة .

(١٤٤١) العنقاء هنا ترجمة لكلمة « سيمرغ » الفارسية ، وهي تعني طائراً خرافياً شبيهاً بما تعنيه كلمة العنقاء عند العرب . وقد استخدم هذا الطائر الخرافي كثيراً في الشعر الصوفي الفارسي . وموطن « العنقاء » وكذلك « سيمرغ » جبل قاف وهو موطن خرافي أيضاً لا يعرف مكانه على وجه التحديد .

(١٤٥٩) لا تغلق أُذن الروح عن نداء الغيب بما تشغلها به من مشكلات العالم المادي .

(١٤٦٠ – ١٤٦١) لا بد من تنقية الروح والوصول بها إلى حالة الصفاء ، وذلك لتكون قادرة على إدراك أسرار العالم الروحي ، وتتحقق لها المعرفة اليقينية عن طريق الكشف والإلهام .

(١٤٨٠ – ١٤٨٣) الظاهر أن مذهب الكسب في تفسير أعمال العباد ، وهو ما قال به أبو الحسن الأشعري ، قد لقي قبولا عند الصوفية منذ وقت مبكر من تاريخهم .

قال الكلاباذي : « أجمعوا أنهم لا يتنفسون نفساً ، ولا يطرفون طرفة ، ولا يتحركون حركة ، إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم ، واستطاعة يخلقها الله لهم ، مع أفعالهم ، لا يتقدّمها ولا يتأخّر عنها ، ولا يوجد الفعل إلا بها ...

وأجمعوا أنّ لهم أفعالاً واكتساباً على الحقيقة ، هم بها مثابون ، وعليها معاقبون ، ولذلك جاء الأمر والنهي ، وعليه ورد الوعد والوعيد » . (التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٤٦ ، ٤٧) .

(١٤٨٨ – ١٤٩٣) تكلّم جلال الدين عن سقوط إبليس وسقوط آدم بهذا الأسلوب في كتابه المنثور « فيه ما فيه » . قال : « عندما لعن الله إبليس وطرده لجرمه ومعارضته ربّه وجداله معه ، قال : أواه ، يارب ! إنّك فعلت كل هذا ، وكانت هذه فتنتك ، وأنت الآن تلعنني وتبعدني .

وحينما اقترف آدم الخطيئة ، أخرجه الله من الجنّة . وقال الحقّ لآدم : يا آدم ، إنّني قدّرت ذلك عليك ، ثم زجرتك على هذا الجرم الذي اقترفته ، فلماذا لم تُسائلني في الأمر ، ولك الحجة في ذلك ؟ إنّك لم تقل : إنّ كل شيء منك ، وأنت صانعه ، وكل ما أردته يتحقق في العالم ، وكل ما لم ترده فلا سبيل إلى وقوعه . لقد كانت

لك هذه الحجة البيّنة الصادقة ، فلماذا لم تقلها ؟ فقال آدم : يارب ! كنت أعرف ذلك ، ولكني لم أتخـــلّ عن الأدب في حضرتك ، ولم يترك لي العشق مجالاً للعتاب » . (مترجمة عن النصّ الفارسيّ ، فيه ما فيه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، طبعة فروزانفر ، طهران ، ١٣٣٠ شمسي).

(١٤٩٧ — ١٤٩٩) من الأعمال ما لا يكون من فعل الإنسان كالارتعاش مثلاً ، ومنها ما يكون من فعله — عن طريق الكسب — وهي الأعمال التي يُحاسب عليها الإنسان . ومن هنا قال الشاعر (بيت ١٤٩٩) :

« إنك لتندم على فعل أتيته بإرادتك ، ولكن كيف يكون الإنسان نادماً على فعل لا إرادة له فيه ؟ » وشبيه بهذا ما قـاله الكلاباذي : « ومُجْمَعٌ على أنّ حركة المرتعش خلق الله ، فكذلك حركة غيره ، غير أنّ الله تعالى خلق لهذا حركة واختياراً ، وخلق للآخر حركة ولم يخلق له اختياراً » . (التعرّف لمذهب أهل التصوف ، ص ٤٦) .

(١٥٠١) إنّ البحث العقـــليّ — في أرفع مستوياته — لا يمكنه الوصول إلى مستوى البحث الروحيّ .

(١٥١٧ — ١٥١٨) يبين عمر لرسول الروم سرّ احتباس الأرواح في الأجساد . ويضرب لذلك مثلاً تلك المعاني العميقة التي كان رسول الروم يسأل عنها . فهي معان مطلقة تتعلق بالروح وطبيعتها ومع ذلك فقد عبر عنها بكلمات محدودة مسموعة . فهو بهذا قد جعل المعنى المطلق أسيراً لكلمات محدّدة . وهو قد فعل ذلك لفائدة منشودة . فـــلا عجب أنْ تكون هناك فائـدة من وراء حبس الأرواح في الأجساد ، وخاصّة لأنّ هذا قد حدث بأمر الله .

(١٥٢١) هناك آلاف الفوائد ، ولكن لا يمكن أنْ تُقـاس أية منها بالفائدة التي نجمت عن اجتماع الروح والجسد .

(١٥٣٥) الوجود الحيّ في هذا البيت هو الإنســـان الكامل أو الصوفيّ الكامل .

(١٥٣٦) الميت هنا هو الإنسان الماديّ الغارق في ماديّته ، الذي

ليس له نصيب من حياة الروح .

(١٥٣٩) إذا قرأت القرآن بدون أن تمتزج روحك بمعانيه فأنت كمن شاهد الأنبياء ولكنّه اكتفى بالمشاهدة ، فلم يهتد بهديهم ، ولم يعمل على سلوك سبيلهم الذي دعوا إليه .

(١٥٤٠) إذا قرأت القرآن متقبلاً معانيه ، محيطاً بمفهوماته متذوّقاً لها ، فإنّ الروح حينذاك تشعر بضيقها في حبس الجسد ، ويشوقها الانطلاق من هذا الجسد .

(١٥٤٣) قول الشاعر : « فمن الخارج يأتيك صوتهم » يعني أنّ صوت الأنبياء يناجي الناس من عالم الروح ، مبيناً لهم طريق النجاة .

(١٥٤٤) إن الدين كان وسيلتنا للخلاص من أسر المادة . ولا سبيل سواه يؤدي إلى هذا الخلاص .

(١٥٤٥ – ١٥٤٦) يمهد الشاعر بهذين البيتين للقصة التالية ، « قصة التاجر والببغاء » ، وتدور حول الشهرة ، وما توقعه بالخلق من مضار .

(١٥٦٥ – ١٥٦٦) كل ما يفعله الحبيب يتقبله المحب ، ويكون به سعيداً راضياً . والمحب يسعد في عذابه وآلامه ، ما دامت هذه إرادة الحبيب .

(١٥٦٧) إذا كانت هذه حلاوة جفائك ، فكيف يكون جمال وصالك ؟ وإذا كانت الآلام التي تعترينا من أجلك حبيبة إلى نفوسنا ، فكيف تكون السعادة التي يبعثها فينا قبولك ورضاك ؟

(١٥٧٢) هذا البلبل الذي هو رمز للمحب العاشق يأكل الشوك مع الورد ، أي أنّه يجد الآلام في الحب لذيذة سائغة ويتقبلها بذات الرضى الذي يستشعره حين ينعم بسعادة الحب .

(١٥٧٣) إنّه عملاق ناريّ يلتهم كل ما يعترض سبيله ، ويقف حائلاً بينه وبين المحبوب . وقد أصبح كل ألم يلاقيه في سبيل ذلك حلو المذاق سائغاً ، لأن العشق جرده من الذاتية ، فلم يعد له من هدف

سوى المحبوب ، وهان في سبيله كل ألم .

(١٥٧٤) إنّ العشق قد بلغ به حالة الفناء في المعشوق ، فأصبح بذلك عاشقاً لذاته . يقول الغزالي في وصف تلك الحال : « العارفون – بعد العروج إلى سماء الحقيقة – اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحقّ . ولكن منهم من كان له هذه الحال عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذلك حالاً ذوقياً . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستوفيت فيها عقولهم ، فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضاً . فلم يكن عندهم إلا الله ، فسكروا سكراً دفع دونه سلطان عقولهم ، فقال أحدهم : « أنا الحق » ، وقال آخر : « سبحاني ، ما أعظم شاني ! » وقال آخر : « ما في الجبة إلا الله » . وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يُحكى . فلما خفّ عنهم سكرهم ، ورُدّوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه ، عرفوا أنّ ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل شبه الاتحاد .. » (مشكاة الأنوار ، ص ٥٧ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤) .

(١٥٧٥) ببغاء الروح هنا رمز للعقل الإلهيّ الذي جعل الشاعر منه عنواناً للأبيات .

(١٥٧٥ – ١٥٨٥) صنف الغزالي الأرواح البشرية النورانية إلى أنواع خمسة لكل منها مرتبتها . وخامس هذه الأنواع وأسماها هو « الروح القدسيّ النبوي ، الذي يُختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقليّ والفكريّ » . (مشكاة الأنوار ، ص ٧٧) .

(١٥٧٩) من المعروف أنّ كثيراً من الصوفية قد رُموا بالكفر ، وحوكموا ، ومنهم من قُتل . وهؤلاء الذين اتهموا بالكفر هم عند

الصوفية أمثلة عالية للإيمان . والشاعر يقول هنا إنّ كفر هؤلاء أصدق وأحقّ من كل إيمان يعتنقه خصومهم . وقد تناول السراج في كتابه اللمع (ص ٤٩٧) مسألة اتهام مشايخ الصوفية بالكفر ، وقال إنّ القائلين بذلك نوعان من الناس ، « منهم قوم لم يفهموا معاني ما اشاروا إليه في كلامهم من غامض العلم وجليل الخطب ، ولم يكن لهم زاجر من العقل ، ولا وازع من الدين أن يستبحثوا عن المعاني التي أشكلت عليهم ويسألوا ذلك من أهلها ، وقاسوا ما يسمعون من ذلك بما علموا من العلوم المبثوثة بين عوام الناس حتى هلكوا ... ومنهم من علم مقاصدهم ومعانيهم فيما قالوا ، أو قد صحبهم برهة من الدهر فلم يصبر على حالهم ، ودعاه شيطانه وهواه إلى طلب الرياسة ، وجمع الدنيا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فجعل المعاداة والمنافاة معهم ، والطعن والوقيعة فيهم ، والسفاهة والإنكار عليهم ، سلماً إلى جمع الدنيا وسبباً إلى قبول قلوب الجهلة من العامة له » .

(١٥٩٤ — ١٥٩٥) لا تُلق الكلام بدون تقدير لأثره وعواقبه ، فأنت لا تدري ما حولك ، وقد تُلقى كلمة واحدة جزافاً فتحدث من الأضرار والفتن ما لم يكن قائلها يدرك مداه .

(١٥٩٧) من الكلمات ما يكون سبباً للكثير من الأضرار ، ومنها ما يكون بالغ النفع والجدوى .

(١٥٩٨ — ١٥٩٩) الأرواح في الأصل خيّرة كلّها ، وهي كنفس عيسى تهب الحياة ، ولكنّها — حين تجسّدت وعلقت بالمادة — أصبحت متأرجحة بين الخير والشر . وهي إذا خلصت من أثر المادة وتحرّرت منها ، عادت لها طبيعتها الأصيلة وأصبحت خيّرة ، ولم ينبثق منها سوى الصلاح .

(١٦٠٣ — ١٦١٠) في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن كرامات الأولياء . وقد كتب في ذلك كثير من المؤلفين عن التصوف ، وأثبت

أكثرهم إمكان وقوع الكرامات على يـد الأولياء . (انظر : رسالة القشيري ، ص ١٥٨ — ١٦٠ ؛ اللمع للسراج ، ص ٣٩٠ — ٤٠٥) .

يقول ابن الفارض في تائيته الكبرى :

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من   أولي العزم منهم آخذ بالعزيمة
بعترته استغنت عن الرسل الورى   وأصحابه والتابعين الأئمـة
كراماتهم من بعض ما خصّهم به   بما خصهم من إرث كل فضيلة
. . . . .
وللأولياء المؤمنين بـه ولم   يروه اجتنا قرب لقرب الأخوة
وقربهم معنى له كاشتياقه   لهم صورة فاعجب لحضرة غيبة

(١٦٠٥) أيها الطالب الذي لا يزال رهن طلب الرزق . أفق ولا تعاند مطلوباً ، والمطلوب هو الشيخ الذي خلص من الحرص على الدنيا فأصبح مطلوباً لربه .

(١٦٠٦) إنك لم تتخلص بعد من نفسك الحسية ، فلست أهلاً أن تضع نفسك في موضع رجال الله ، الذين طهّروا قلوبهم من طغيان الشهوات ، فأصبحوا قادرين على مواجهتهـا بغير خوف منها . فالنار المذكورة في البيت رمز للشهوات . وهذه لا يستطيع مواجهتها إلا من تخلّص من نفسه الحسية ، وجعل الروح متحكمة في كيانه .

(١٦٤٢) قال الغزالي في كتاب « الأربعون في أصول الدين» (ص٦٣) : « اعلم أن طيّب المطعم له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة » .

(١٦٤٤) ذكر الغزالي حديثاً منسوباً للرسول عليه السلام جاء فيه : «من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه ، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبـه ولسانه » . (المصدر السابق ، ص ٦٢) .

(١٦٦١ — ١٦٦٨) يبيّن الشاعر هنا رأيه في الأفعال المولدة وهو موضوع سبق أن أثاره . وقد علّقنا عليـه من قبـل ، (٨٤٠ — ٨٥١) . والشاعر هنا يزيد رأيه إيضاحاً فيترك الرمز ويذكر بصريح

العبارة أن الأفعال المولدة إنما هي من خلق الله .

(١٦٧٠) من أمثلة ذلك – عند الصوفية – أن الوليّ إذا دعا على إنسان ثم ندم ورجع عن هذا الدعاء، يستجيب الله لرجوعه، ولا يقع من جراء دعائه ضرّ ولا أذى .

(١٦٧٩) يقول ابن عربي عن الإنسان : « وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر، المعبّر عنه بالبصر . فلهذا سُمي إنساناً، فإنه به ينظر الحق إلى خلقه فيرحمهم » . (فصوص الحكم ، ص ٥٠) .

(١٦٨٠) « أصحاب الصدارة » في هذا البيت ربما تعني أقطاب التصوف . وقد تعني الأنبياء . ومهما يكن ، فالصوفية يؤمنون بالامتناع عن ذكر الأسرار لمن لا يكونون أهلاً لتلقيها . وفي مشكاة الأنوار للغزالي (ص ٤٠) حديث منسوب إلى الرسول عليه السلام وتعليق عليه للغزالي جاء فيه : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله . فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرّة بالله ، ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأستار على وجه الأسرار » .

(١٦٨١ – ١٦٩٠) تناول الشاعر في أبيات سابقة (انظر ٣٨٨ – ٤٠٢) النوم وأثره على الإنسان . وهو في هذه الأبيات يصور الإنسان منفصلاً عن أفكاره وخبراته ساعة النوم . ومع هذا تعود إليه الأفكار والخبرات والطباع ذاتها حين يستيقظ ، كما يعود الحمام الزاجل إلى موطنه مهما أُبعد عنه .

(١٧٠٠) اللسان يتكلم بالخير وكذلك بالشرّ . والشرّ الذي ينطلق من اللسان يقضي على ما ينطق به من خير ، كما تقضي النار على البيدر .

(١٧٠١) يتحدث الغزالي عن أثر اللسان على القلب فيقول : « إن الجوارح كلها تؤثر أعمالها في القلب ، ولكن اللسان أخصّ به لأنه يؤدي عن القلب ما فيه من الصور ، فيقتضي كل كلمة صورة في القلب محاكية لها ،

فلذلك إذا كان كاذباً حصل في القلب صورة كاذبة ، واعوج به وجه القلب ، وإذا كان في شيء من الفضول مستغنى عنه اسودّ به وجـــه القلب ، وأظلم حتى تنتهي كثرة الكلام إلى إماتة القلب.. » (الأربعون في أصول الدين ، ص ١٠٦) .

(١٧٠٣) إن اللسان يخدع القلوب كما يخدع الصفير الطيور .

(١٧٠٤) السيطرة على اللسان تعدّ من الأمور العسيرة التي لا تتحقق إلا لمن أوتوا عقلاً راجحاً وحلماً كبيراً . أما الإنسان العاميّ فلا سيطرة له على لسانه ، مهما سعى إلى ذلك .

(١٧٠٦) يخاطب التاجر لسانه بقوله : « أجبني ، أو كن منصفاً فلا تتحدث بما يسيء إليّ ، أو انطق بما يكون سبباً لسروري ، كذكر الله والتحدث بالخير » .

(١٧١٠) انتقل التاجر من وصف حزنه على فراق طائره المحبوب ، إلى الحديث عن حزن روحه لفراق عالمها الأعلى ، فهناك كانت خالية من الآلام ، نقية بريئة من أدران المادة .

(١٧١١) هذه الآلام التي يعانيها العاشق مبعثها خيـــال المحبوب ، وما تعانيه الروح لانفصالها عن وجودها الحقّ ، ووقوعها أسيرة للمادة في هذه الدنيا .

(١٧٢٣) القمر هنا رمز للروح . والسحاب رمز لماديات الحياة الدنيا . فهذه الماديات قد حجبت الروح كما يحجب السحابُ القمر .

(١٧٢٦) إن العشق المضطرم لا يكون من المستطاع السيطرة عليه .

(١٧٢٧) الحبيب هنا قد يكون إنساناً . ومن الممكن — عند الصوفية — حدوث اتحاد روحيّ بين إنسانين بلغا مرتبـــة رفيعة من المحبّة والصفاء الروحيّ . والحبيب هنا يدعو الشاعر ألا ينشغل عن الجمال بالألفاظ التي يقولها في وصفه .

(١٧٢٨—١٧٢٩) هنا يُؤكد الشاعر لمحبوبه أنـــه مصدر انسجام

تفكيره وتوازنه ، وأن الألفاظ لا أهمية لها ، فليست هذه إلا إطاراً يحيط بالمعنى ، كما تحيط الأشواك بالكروم .

(١٧٣٠) يريد الشاعر أن ينطلق من التحدّث مع محبوبه بالألفاظ إلى التحدّث معه حديثاً روحياً ، لا يقيده لفظ ولا صوت .

(١٧٣١) الإنسان الكامل عند الصوفية هو الجامع لأسرار العالم . والشاعر هنا يقول إنه سيبوح له بكلمة خفيت على آدم ، وهذه الكلمة هي « سر الاتحاد » الذي يقول به الصوفية . يقول ابن الفارض في التائية الكبرى :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى ناطق بأبوّتي
ونفسي على حجر التجلي برشدها ... تجلّت وفي حجر التجلي تربت

(١٧٣٢-١٧٣٣) يمكن أن يُفسر هذان البيتان على ضوء ما قاله ابن الفارض في تائيته الكبرى :

وفي المهد حزبي الأنبياء وفي عنا ... صري لوحي المحفوظ والفتح سورتي
وقبل فصالي دون تكليف ظاهري ... ختمت بشرعي الموضحي كل شرعة

وفي أبيات جلال الدين وابن الفارض حديث رمزي عن « التجلي » ، وهو – عند الصوفية – كاشف لجميع الأسرار التي سعى الأنبياء إلى كشف جانب منها لعامة الخلق .

(١٧٣٥) لقد أدرك معنى الوجود الحق حينما تخلص من إحساسه بذاته ، وفني في حبّ الخالق ، فكانت اللاذاتية سبيله إلى الذاتية الحق .

(١٧٤٤) ماذا يضيرني لو هلك الجسد ، ما دامت الروح – وهي جوهر الإنسان – ستفترق عنه مكتملة بالمحبة ، ساعية إلى عالمها العلويّ .

(١٥٤٧-١٥٤٨) في سبيل الحبيب ينبغي أن يكون الألم حلو المذاق ، وعلى المحبّ أن يتلقى الشقاء في الحب بذات الرضا الذي يتلقى به سعادة الحب . فليس المهم في العشق الصوفيّ رغبة العاشق ، وإنما يتوقف

كل شيء على ما يريده الحبيب .

يقول ابن الفارض :

وكل أذى في الحب منك إذا بدا جعلتُ له شكري مكان شكيتي

نعم وتباريح الصبابة إذ عدت عليّ من النعماء في الحب عدّت

ومنك شقائي بل بلائي منّة وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة

(١٧٤٩) النجوم في هذا البيت قد تكون رمزاً للتجليات الإلهية . أما الهلال فقد يكون رمزاً لنور العقل أو للوجود الإنساني . فالشاعر يقول إنّ لمحة واحدة من تجليات الحق تفوق في قيمتها مائة عقل أو مائة كيان إنساني .

يقول ابن الفارض :

إذا ما أحلت في هواها دمي ففي ذرا العزّ والعلياء قدري أحلت

(١٧٥٠) ثمن الدماء هو ما خصّ الله به محبيه من عناية جعلتهم يضحون بوجودهم الدنيوي في سبيل وجود أسمى يسارعون إليه بقلوب مطمئنة .

يقول ابن الفارض :

وما هو إلا أن ظهرت لناظري بأكمل أوصاف على الحسن أربت

فحليت لي البلوى فخليت بينها وبيني فكانت منك أجمل حلية

(١٧٥١) شبيه بهذا البيت قول ابن الفارض :

هو الحب إن لم تقض، لم تقض مأربا من الحب فاختر ذاك أو خلّ خلتي

(١٧٥٢—١٧٥٦) في هذه الأبيات يصور الشاعر الحب الصوفي الذي يقتضي من المحب فناء كاملاً عن ذاته ، وقد وصف الشاعر من أبصر ذاته إلى جانب الحبيب بأنه ثنائي الرؤية . ولابن الفارض أبيات تعبر عن المعنى ذاته قال فيها :

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

وقد آن أن أُبدي هواك ومن به ضناك بما ينفي ادعاك محبتي

حليف غرام أنت لكن بنفسه   وإبقاك وصفاً منك بعض أدلتي
فلم تهوني ما لم تكن فيّ فانيا   ولم تفن ما لا تجتلى فيك صورتي
فدع عنك دعوى الحب وادع لغيره   فؤادك وادفع عنك غيّك بالتي

انظر أيضاً تعليقنا على البيت ٥١٧ .

(١٧٥٩) « حينا أنفي ذاتي فالمراد من ذلك إثبات ذات الله » . وفي البيت اقتباس من لفظ شهادة التوحيد « لا إله إلا الله » .

(١٧٦٠ – ١٧٦٢) إن الصوفي يخفي عن الناس ما قد يتكشف له من تجليات وأسرار وراء قناع من الصمت والتحفظ . وليس مما يجيزه الصوفية أن يبوح أحدهم بسرّ تكشف له ، وخاصة إذا حدث هذا أمام من لا يعدُّون – في اعتبارهم – أهلاً لتلقي مثل هذا السر .

(١٧٦٣) غيرة الحق هي أنه يريد من عباده ألا يكون لهم تعلق بأحد ولا بشيء سواه .

ويقول القشيري : « الحق تعالى غيور ، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه » . (الرسالة ، ص ١١٦) .

ويقول الغزالي : قال عليه السلام : « أتعجبون من غيرة سعد ، أنا والله أغير منه ، والله أغير مني » . ولأجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . (الإحياء ، ٢/٤٦) .

وانظر أيضاً : ابن عربي ، فصوص الحكم ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(١٧٦٥) كل من أصبح موقن الإيمان ، يعبد ربه كأنه يراه ، لا يليق به أن يعود إلى إيمان العوام ، وما يشوبه من شوائب الغفلة والجهل .

(١٧٧٣) القلوب العشرة رمز للتجليات المتباينة من رضى وسخط وقبول وإعراض وما إلى ذلك . ومنها أمور يشعر بها الصوفية ، ويتحققون بها ، ويعدّونها أحوالاً . والأحوال عندهم مواهب لا يد لهم في تحقيقها .

(١٧٧٧ ـ ١٧٧٨) آلام العشق محببة إلى نفس العاشق ، يتلقاها سعيداً راضياً بها . يقول ابن الفارض :

وما حلّ بي من محنة فهو منحة   وقد سلمت من حلّ عقد عزيمتي
وكل أذى في الحب منك إذا بدا   جعلت له شكري مكان شكيتي

(١٧٨١) قريب من معنى هذا البيت قول ابن الفارض :

ولم أحك في حبّيك حالي تبرّما   بها لاضطراب بل لتنفيس كربتي

(١٧٨٢) يذكر الشاعر أنه سخر من قلبه الذي شكا من آلام المحبة ، لأنه يعلم أن هذه الآلام من ضرورات المحبة .

(١٧٨٤) في حضرة الله ينعدم الزمان والمكان ، ولا يكون هناك من وجود سوى وجوده . يقول ابن عربي :

« فاعلم أنك خيال ، وجميع ما تدركه مما تقول فيه « ليس أنا » خيال. فالوجود كله خيال في خيال ، والوجود الحق إنما هو لله خاصة من حيث ذاته وعينه .. فما هو عينه هو الحق ، وما هو غيره هو الحق المتخيل الذي كنا بصدده . فسبحان من لم يكن عليه دليل سوى نفسه ، ولا ثبت كونه إلا بعينه . فما الكون إلا ما دلت عليه الأحدية ، وما في الخيال إلا ما دلت عليه الكثرة . فمن وقف مع الكثرة كان مع العالم ، ومع الأسماء الإلهية وأسماء العالم . ومن وقف مع الأحدية كان مع الحق من حيث ذاته الغنية عن العالمين » . (فصوص الحكم ، ص ١٠٤) .

(١٧٨٧) في هذا البيت إشارة إلى الحديث القدسي المشهور عند الصوفية ، الذي يروي أن الله خلق الخلق ليُعرف . يقول ابن عربي : « وصور العالم لا يمكن زوال الحق عنها أصلاً . فحد الألوهية له بالحقيقة لا بالمجاز ، كما هو حد الإنسان إذا كان حياً . وكما أن ظاهر صورة الإنسان تثني بلسانها على روحها ونفسها والمدبر لها ، كذلك جعل الله صورة العالم تسبّح بحمده ، ولكن لا نفقه تسبيحهم لأنا لا نحيط بما في

العالم من الصور . فالكل ألسنة الحق ، ناطقة بالثناء على الحق . ولذلك قال : « الحمد لله رب العالمين » . أي إليه يرجع عواقب الثناء ، فهو المثني والمثنىَ عليه » . (فصوص الحكم ، ٦٩) .

(١٧٨٩) يا صاحب الأمر ! أظهر لنا ذاتك حتى تفنى ذواتُنا ولا يبقى لنا وجود حسّيّ . أما « التنزيه عن الكلام » الذي ذُكر في هذا البيت ، فالمقصود بـــه أنّ الخالق منزّه عن اللفظ الحسّيّ الذي يألفه البشر .

(١٧٩٥) الروح الممزّق ، هو الروح الذي أضناه العشق .

(١٧٩٧) قول الشاعر « وقد أحللت له دمي ، وهو يهرب مني ». يشير إلى ما يعانيه الصوفية في المجاهدة سعيا لإفناء الذات الإنسانية في ذات الخالق ، ومع هذا يصعب عليهم تحقيق الفناء . فالصوفيّ « يحل للحبيب دمه » أي يطلب الفناء في الحبيب ، لكنّ هذا لا يتحقّق له بصورة دائمة .

(١٨٠٦) في هـــذا البيت نظر إلى قوله تعالى : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون » . (مريم ، ١٩ : ٤٠) .

(١٨٠٧) قول الشاعر « لقد أطلّ الصبح » يمكن أنْ يُحمل على وجهين . أولهما أن النهار قد بدأ يلوح ، وكان من عادة الشاعر أن يملي أشعاره على حسام الدين طوال الليل ، ولا يتوقف عن ذلك إلا عند بزوغ الفجر . فهو هنا يرجو الله أن يلتمس له العذر عند حسام الدين . وأما الوجه الثاني فيمكن أنْ يفهم منه بزوغ الصبح على أنه إشراق نور الله . وفي ديوان شمس تبريز بيت يعاون على هـذا الفهم . يقول فيه الشاعر :

صبح سعادت دميد ، صبح نه نور خداست

(لقد بزغ صبح السعادة . لا ، إنه ليس بصبح ، بل هو نور الله) . فيكون المعنى أن الشاعر حين تجلّى له نور الله عجز عن المضي في

إملاء أشعاره . فالتمس من الله الذي ملك عليه حسّه أن يمهد له عذره عند حسام الدين . ويروى عن الشبلي ما يوضح هـــذا المعنى قال : كتبت الحديث والفقه ثلاثين سنة حتى أسفر الصبح ، فجئت إلى كل من كتبت عنه وقلت : أريـــد فقه الله تعالى فما كلمني أحـــد (اللمع ، ص ٤٨٧) .

(١٨١١) إن الخمرة المعتقة التي تجيش في دنها لا تعدُّ شيئاً إذا قيس بنا جيشانها ونشوتها . فنحن في نشوة وطرب ، تجيش أرواحنا بصورة تتمناها الخمر . والفلك الدوار الذي يدبّر الكون لا يدنو عقله وتدبيره من عقلنا وتدبيرنا . وكان أبناء القرون الوسطى يعتقدون أن للأفلاك عقولاً تدبّر أمور هذا العالم الدنيوي .

(١٨١٢ – ١٨١٣) يميـــل كثير من الشراح إلى اعتبار هذين البيتين تعبيراً عن قدرة الرجل الكامل ، الذي كان الوساطة في خلق الكائنات. ومنهم من يقول إن أجسام البشر خلقت من آدم وأما أرواحهم فخُلقت من روح محمد . ولما كنا قـــد أخذنا أنفسنا بألا نناقش شروح الغير – لأن ذلك يقتضي إطالة لا نرى لها كبير جدوى – فسنكتفي بذكر هذين التفسيرين .

ورأيي أن إدخال فكرة الإنسان الكامل ، أو آدم والروح المحمدي هنا مما لا يقتضيه شرح النصّ . والتفسير الأدبي هو أن الخمر لا وجود لنشوتها ما لم يستخلص منها الإنسان الحيّ هذه النشوة . فالخمر لا أثر لها على الموتى ولا الجمادات ، وإنما الإنسان الحيّ الحساس هو الذي يجعل لها هذه الصفة ، ويظهرها لها . وكذلك قول الشاعر : « إن الجسم اتخذ وجوده منا .. الخ » فهذا يشير إلى أن الوجود الحق للإنسان هو الروح التي ينطوي عليها كيانه . أما وجوده المادي فخيال زائل ، لا بقاء له بدون الروح . والروح التي هي الحياة الحق تبني الجسم وتُنميه ، وإن افترقت عنه تحلل كيانه .

(١٨١٩) مما يجعل الإنسان موضعاً لرضى الله ، أن يعمل وأن يبذل في الحياة قصارى جهده . وحتى اليائس يجب ألا يقعده اليـــأس عن السعي والكفاح .

(١٨٢٢) في هذا البيت يدعو الشاعر إلى السعي إلى الكمال ، ويطالب الإنسان بألا يتوانى لحظة واحدة في هذا السعي ، وأن يكرس له كل نفس من أنفاس حياته .

(١٨٤٠) من فرّوا إلى كنف الحق من الأنبياء والأولياء تحققت لهم معجزات باهرة ، منها أن الله جعل الماء والنار طوع إرادتهم . وقـــد ضرب لذلك أمثلة في الأبيات التالية ، ذكر فيها بعض الأنبياء ومنهم نوح الذي أغرق الكفار بالطوفان ، وموسى الذي انشق له البحر وابتلع أعداءه ، وإبراهيم الذي لم تمسسه النار بأذى .

(١٨٤٩ — ١٨٦٢) قصة الببغاء التي رواها الشاعر يتجلى مغزاها في هذه الأبيات . فهي تعالج مضار الشهرة وما يترتب عليها . وقد سبق أن ذكر الشاعر ، في أبيات سابقة — على لسان الببغاء — أن الإنسان يجب عليه أن يفرّ من الشهرة ، ولا يعرض حسنه في المزاد (انظر الأبيات ١٨٣٠ ـ ١٨٣٥) . وهو هنا يبيّن الأثر السيء الذي يحدثه الملق في نفس الإنسان ، ويقول : إن الدليل على مضرّة الملق أن الإنسان لو هُجي لأحدث ذلك في نفسه أثراً مؤلماً . ورغم أن الإنسان يعلم أن سبب الهجاء هو الحقد الذي يضطرم في نفس صاحبه ، فإنه يتألم ، ويبقى أثر الهجاء في نفسه زمناً طويلاً . وضرر الملق شبيه بذلك ، فالملق ينبعث عن غرض في نفس صاحبه ومع ذلك لا ينفع في إبعاد ضرره أن يكون متلقيه عارفاً بكنهه ، وبالغرض الكامن وراءه .

(١٨٤٩) إنّ الجسم سجن للروح . وهذا السجن يزداد إيلامه للروح إذا كثر اختلاط المرء بالناس وانشغاله بهم . فهذا يصرفه عن تأملاتـــه الروحية ، ويجعله فريسة لغشّ الناس وخداعهم .

(١٨٥٢) « صاحب العالمين » أي صاحب العالم المـــادي ّ والعالم الروحي ّ .

(١٨٥٩) قول الشاعر : « وأن طمعه فيك قد أصبح ضرراً لك » يعني أن الطمع يجعل الإنسان مغرضاً فيميل مع الهوى ، ويرتكب الأذى .

(١٨٦١) بيّن الشاعر هنا الأثر النفسي ّ للملق . فهو يكون مصدراً لتكبر الروح وانخداعها ، وهو ما يحدث لكثير من الناس فيحجب عنهم الحقائق ، ويؤدي إلى هلاكهم في نهاية الأمر .

(١٨٦٧) شبيه بمعنى الشطر الأول من هذا البيت قول شاعرنا العربي خليل مطران .

كل ّ قوم صانعو نيرونهم قيصرا قيل له أم قيل كسرى

أما الشطر الثاني ففيه دعوة إلى التواضع . وأقوال الصوفية حافلة بذلك . ومن أمثلة ما روي عنهم قول الجنيد : « (التواضع) خفض الجناح وكسر الجانب » . وقول رويم : « (التواضع) تذلل القلوب لعلام الغيوب » . (الكلاباذي : التعرف ، ص ٩٧) .

(١٨٩٠) النوم بحر عميق يغرق أفكار الناس وعقولهم كل مساء .

(١٨٩٣) يتضمن هذا البيت صورة فنية رائعة . فالغراب بريشه الأسود يقف في الخريف فوق الغصون التي تعرّت من أوراقها ، وينعق فكأنه قد ارتدى ثياب الحداد ، وأخذ ينعي جمال الرياض التي عصفت بها عواصف الخريف .

(١٨٩٦) ينتقل الشاعر هنا انتقالاً رائعاً من تأمل أحوال الدنيا إلى تأمل أحوال القلب ، ويدعو الإنسان إلى تأمل ما يعتريه من ازدهـــار يشبه الربيع ، أو ذبول يشبه الخريف .

(١٨٩٩) هـذا الكلام الذي يحدّثك به المثنوي منبعث من العقل الكلّي ّ ، وهو يحمل إليك شذى بستان العالم الروحي ، بما حفل به من سرو وسنبل .

(١٩٠١) هـــذا الشذى الروحيّ الذي تتنسمه هو الدليل الذي يقودك ، فتقتفي أثره ، حتى تصل إلى الخلد والكوثر .

(١٩٠٢) هذا الشذى الروحيّ ينير عـــين القلب ، فيجعلها بصيرة قادرة على التأمل ، كما فعل شذى قميص يوسف ببصر يعقوب .

(١٩٠٣) قد تكون « الرائحـــة النتنة » المذكورة في البيت رمزاً للشهوات الدنيويّة التي تعمي بصيرة القلب .

(١٩٠٤) إنْ لم تكن أنت صاحب الجمـــال مثل يوسف ، فكن طالب الجمال مثل يعقوب ، وكن في حرصك عليه ، وافتقادك له حليف الأسى والشجى مثل يعقوب .

(١٩٠٦ – ١٩٠٧) هذان البيتان مقتبسان بنصها من ديوان سنائي . وقد ذكر الشـــاعر ذلك ، وبيّن نيكولسون في تعليقه عليها نصّ قول سنائي .

(١٩٠٨) فلا تؤكّـد ذاتك وتُظهر الغرور أمام المحبوب . ولا يكنْ منك سوى الضراعة والحزن والأشواق .

(١٩٠٩) الضراعة مع إفناء الذات في المحبة هي المعنى الذي أدركه الببغاء وعمل به ، فأنقذ بذلك نفسه من الحبس .

(١٩١٠) بالضراعة والتأمل تتلقى نفحـة إلهيّة تبثّ في روحك الحياة ، وتنفض عنها ما غشيها من تراب الموت في ظلمة المادة .

(١٩١١) « الحجر الصلد » رمز للعنـــاد والكبر والغرور . وأما التراب فرمز للتواضع . والشاعر هنا يقول إنّ الربيـــع لا يؤثر على الحجر الصلد ، لكن أثره يمتدّ إلى التراب فيجعله بستاناً بديع الألوان ، عامراً بالورود والأزهار .

(١٩١٣) تبدأ بهذا البيت قصة عازف الصنج ، وقد ساقها الشاعر ليبيّن أهمية التواضع والضراعة .

(١٩١٦) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القـــيامة فيبعث الموتى .

(١٩١٧) « رسايل » معناها هنا « أنغام » . وقد جـاء في القاموس أنّ الترسيل في القراءة هو الترتيل . فهذه الأنغام الروحية تجعل الجسم الغليظ الثقيل خفيفاً ، لا تُزهق الروح تحت وطأتة ، بل تكون قادرة على أن تحلـّق به .

(١٩١٩) للأنبياء أيضاً أنغام في باطنهم وهي الوحي الإلهيّ . وهذا الوحي يمدّ طالبيه بحياة روحية ، هي فوق أن تُقدّر قيمتها بثمن .

(١٩٢٠) الصوفيـّة والأولياء هم القادرون وحدهم على تلقي مثل هذا الوحي ، وأما الغارقون في الحسّ فلا سبيل لهم إلى سماعه .

(١٩٢١) بين المتعلقين بالروح والمتعلقين بالحس تبـاين كتباين الإنس والجن فكما أن الإنس لا يفهمون الجن ، كذلك لا سبيل إلى فهم المعاني الروحية لمن هم غارقون في ملاذ العالم المادي .

(١٩٢٥) « يا أجزاء النفي والعدم » معناها « أيها الجزئيون المتعلقون بكل ما يؤول إلى الفناء والعدم » .

(١٩٢٧) « المنحلون في عـــالم الكون والفساد » هم الذين ركنوا إلى العالم المادي ، وذهلوا عما سواه .

(١٩٢٨) قول الشاعر « لرفعت الأرواح رؤوسها من القبور » أي « لتنبهت الأرواح الدفينة في أجساد كالقبور » .

(١٩٢٩) اجعل أذنك قريبة من الأنغام الروحية ، فأنت — بالتأمل والسعي — قادر على الاستماع إليها . لكني لن أنقلها إليك ، لأن هذه الأنغام لا تُعزف لمن لا يكون مستعداً لتلقيها .

(١٩٣٤) إشارة إلى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم » . (الشورى ، ٤٢ : ٥١) . وكذلك إلى قوله تعالى :

« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » (الأنبياء ، ٢١ : ٩١) .

(١٩٣٥) « يا من تطرق الفناءُ إلى قلوبهم لتعلّقها بالماديات ، التي هي لا محالة فانية ! عودوا من العدم إلى حياة الروح فالحبيب يناديكم » .

(١٩٣٦) فهذا نداء من الله أجراه على لسان رجل من عباده المخلصين .

(١٩٣٨) قول الشاعر : « إنك أنت السر » يشير إلى عقيدة « الإنسان الكامل » عند الصوفية . يقول ابن عربي : « فهو الإنسان الحادث الأزلي والنشء الدائم الأبدي ، والكلمة الفاصلة الجامعة ، قيامُ العالم بوجوده .. فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل ». (فصوص الحكم ، ص ٥٠) .

(١٩٣٩) إشارة إلى حديث يروي عن الرسول أنه قال : « من كان لله ، كان الله له » .

(١٩٤٠) إشارة إلى عقيدة الصوفية أن الإنسان الكامل هو مجلى الذات الإلهية .

يقول ابن عربي : « فوصف نفسه لنا بنا ، فإذا شهدناه شهدنا نفوسنا ، وإذا شهدنا شهد نفسه . ولا نشك أنّا كثيرون بالشخص والنوع ، وأنّا وإن كنا على حقيقة واحدة تجمعنا فنعلم قطعاً أن ثم فارقاً به تميزت الأشخاص بعضها عن بعض ، ولولا ذلك ما كانت الكثرة في الواحد » . (فصوص الحكم ص ٥٣) . وكلام ابن عربي هذا يفيد أن الإنسانية كلها مجلى للذات الإلهية ، وهو جانب من مذهبه في وحدة الوجود .

(١٩٤٢) « الظلمة التي لم تبددها الشمس » هي ظلمة الجهل والإثم والخطايا .

(١٩٤٣) يقول ابن عربي عن آدم : « فظهر جميع ما في الصورة الإلهية من الأسماء في هذه النشأة الإنسانية فحازت رتبة الإحاطة والجمع

بهذا الوجود » . كما سبق أيضاً ذكر قوله : « وعند آدم من الأسماء الإلهية ما لم تكن الملائكة عليها ، فما سبّحت ربها بها ، ولا قدّسته عنها تقديس آدم وتسبيحه » . (فصوص الحكم ، ص ٥٠ ، ٥١) .

(١٩٤٥) « الكأس المباركة » رمز للإنسان الكامل .

(١٩٥٠) كل الأنبياء والأولياء قد اغترفوا علمهم من معين واحد هو العلم الإلهيّ .

(١٩٥٥) : « النفس النارية » هى النفس المشتعلة بنار الشهوات . يقول الترمذي : « إن النفس بلهاء ، فإذا مرت في الحلال وتمكنت منه سلست في الحرام ، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام ، ويقويها حتى لا تسلس . وقوة القلب من النور ، فإذا جاهد العبد ، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدّبها » . (كتاب الرياضة وأدب النفس ص ٤٤ ، ٤٥) . أما الروح الميتة فهي الغافلة عن حقيقتها ، الواقعة تحت سلطان المادة .

(١٩٥٨) نقل صاحب المنهج القوي – عن نجم الدين الكبرى – تفسيراً صوفياً لقوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات .. الآية » ، جاء فيه :

« وحقيقة الأمانة الكبرى التي عبر عنها بالفوز العظيم ، وقد فسر بالفناء في الله والبقاء بالله . وهو عبارة عن قبول الفيض الإلهي بلا واسطة ، وهي المحبة ... واختص الإنسان بقبولها من سائر المخلوقات لاختصاصه بإصابة رشاش النور الإلهي ، فكان مستعداً لقبولها بلا واسطة فكان العرض عاماً وحملها خاصاً للإنسان لأن نسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص ، فالعالم شخص وقلبه الإنسان ... والظالم من يظلم غيره . والظلوم من يظلم نفسه ، وكذا الجهول ، فظلمه لنفسه بحمل الأمانة ، لأنه وضع شيئاً في غير موضعه ، فأفنى نفسه فيها . وأما جهله بنفسه أنه يحسب أنه هو هذه البيهمة التي تأكل وتشرب وما علم أنها قشر

ولبّه روحه ، وروحه أيضاً قشر ولها لبّ وهو المحبوب الحقّ ... »
(المنهج القوي ، جـ ١ ، ص ٣٦١) .

(١٩٦٠) الإقبال على الطعام حال بينه وبين تلقي هذه النفحة الروحية المقبلة من الغيب .

(١٩٦١) في القرآن سورة باسم لقمان . وفي هـــذه السورة آية تصفه بالحكمة ، وبضع آيات تروي بعض حكمه . قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » . (٣١ : ١٢) . وهناك خــلاف حول شخصه ، أكان حكيماً أم كان نبياً ، وأغلب الروايات المنقولة عن الرسول والصحابة تفيد أنه كان حكيماً . كما أنّ أغلب الروايات أيضاً تفيد أنه كان عبداً أسود من السودان أو الحبشة . (انظر الثعلبي — قصص الأنبياء ، ٣٩١ ، ٣٩٣) .

(١٩٦٢) « وخز الأشواك » كناية عن الشهوات الحسية . أما قول الشاعر « أخرجوا الشوكة من كف لقمان » فمعناه : « أنقذوا الروح الطاهر مما يؤذيه من شهوات الحس » .

(١٩٦٣) والحقيقة أن هـــذه الحسيات التي تخز الروح ليست ذات وجود حقيقي ، وما هي إلا خيال تتعلقون به ، لكن حرصكم عليه جعلكم مجردين من التمييز .

(١٩٦٧ — ١٩٦٨) الانسان غافل عن الروح متعلق بالمادة . فهو كالجمل الذي فوق ظهره الورد (وهو رمز للروح ومباهجها) ، ومــع ذلك لا يحرص إلا على شوك الرمال (وهي رمز لملاذّ الحس) .

(١٩٦٩) يا من تفتش عن السعادة الحقيقية ، سعادة القلب والروح ، من غير أن تسلك سبيلها ، إلى متى تتساءل « أين مقر هذه السعادة ؟ أين ؟ » .

(١٩٧٠) فما دمت لم تتخلص من وخز الشهوات ، فإبصارك مظلم ، ولا أمل لك في أن تهتدي إلى قصد السبيل .

(١٩٧٢) « الحميراء » لقب أطلقه الرسول على زوجه عائشة نظراً لأنها

كانت ذات وجه أبيض مشرب بحمرة . وقد ذكر الغزالي أن الرسول كان يقول : « كلميني يا عائشة » لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٠١) .

(١٩٧٤) الروح في العربية كلمة تُذكر وتؤنث ، ويغلب عليها التأنيث.

(١٩٧٧) ليست الروح هي الحياة الجسدية أو الطاقة البدنية التي تنمو بتناول الطعام ، وتختلف أحوالها بين حين وآخر .

(١٩٧٨) الروح مصدر الخير ، وهي ذاتها خيّرة ، بل هي عين الخير ، ولن يتحقق للإنسان خير حقيقي إلا ما يكون روحياً .

(١٩٧٩) السعادة الباطنية تكون دائمة ، وليست متوقفة على عوامل خارجية . الإنسان الذي يكون سعيد الروح تدوم سعادته . أما الإنسان الذي يكون سعيداً بأسباب مادية ، فإن سعادته تزول بزوال هذه الأسباب .

(١٩٨٢) العقل الجزئي هو العقل الذي يتمتع به أفراد البشر . وهو في العادة منكر لما لا يقع تحت الحس . ولهذا لا يتقبل القول بالمحبة الإلهية .

(١٩٨٣) الشاعر لا ينكر فضل العقل الإنساني ، فيقول عنه « إنه ذكي عالم » ، ولكنه يأخذ عليه أنه ليس منتفي الذات . وفي هذا نقد لفكرة الاعتداد بالعقل على أنه — دون سواه — مصدر المعارف اليقينية . أما قول الشاعر « والملك إن لم يكن منتفي الذات فهو شيطان » ، فمعناه أن الغرور يجعل الملك شيطاناً . وأوضح الأمثلة على ذلك إبليس الذي كان ملكاً فأصبح بغروره شيطاناً .

(١٩٨٤) إن العقل الإنساني رفيق للإنسان في أقواله وأفعاله الظاهرة ، لكنه لا وجود له بالنسبة للحياة الروحية (الحال الباطني) لأنه منكر لذلك .

(١٩٨٥) العقل الإنساني — بغروره واعتداده — غير قادر على إدراك المعارف اليقينية . وهذا العقل ، لو لم يتخل عن الغرور والاعتداد

طوعاً ، فما أكثر مـــا يعرض له من المواقف التي تظهر عجزه ، وتجعله يدرك مدى قصوره .

(١٩٨٦) الروح – في مقابل العقل – تمثل جانب الكمال في الإنسان . وكل ما صدر عنها من نداء ، فمنبعث من كمال طبيعتها . ولهذا كان الرسول يدعو بلالاً للأذان بقوله : « أرحنا يا بـلال » ، أي « أرحنا بذلك النداء الروحي (وهو الأذان) من هذا العالم الحسي وما فيه » . يقول الغزالي : « وكان لا يطيق الصبر مـــع الخلق إذا جالسهم ، فإذا ضاق صدره قال : « أرحنا يا بلال » (الإحياء جـ٣ ، ١٠١) .

(١٩٨٨) في هذا البيت إشارة إلى مذهب الصوفية في الحقيقة المحمدية وأنها أول شيء خلقه الله . يقول الجيلي : « إن الله لما خلق محمـــداً من كماله وجعله مظهراً لجماله وجلاله ، خلق كلّ حقيقة في محمد من حقيقة من حقائق أسمائه وصفاته ، ثم خلق نفس محمـد من نفسه . وليست النفس إلا ذات الشيء ... ثم لما خلق الله نفس محمد على ما وصفناه ، خلق نفس آدم نسخة من نفس محمد .. » (الإنسان الكامل ، جـ ٢ ، ص٢٩) .

(١٩٩١) عبّر الشاعر – على طريقة الصوفية – عن معانيه بأسلوب رمزي . فرمز بالعروس لذلك التجلي الذي شهده الرسول ، وقال إن روح الرسول حظيت بتقبيل يدها أي أنها حظيت بنعمة القرب منها .

(١٩٩٣) يرد الشاعر على من قد يعترض عليه لاستخدامه كلمة « عروس » في هذا المجال ، فيقول : إن المعشوق والروح كليهما محتجبان عن الأنظار فلا مجال لأي تفسير حسي ، ومن هنا لا يعاب استعمال كلمة « عروس » .

(١٩٩٦) هناك مقاييس إنسانية يقاس بهـا عيب الإنسان وفضله . وليس يعيب الخالق ما يكون في تقدير الآدميين عيباً .

(١٩٩٨) وبالنسبة للإنسان ، فإنه لا يكون موصوفاً بالعيب لو كانت له نقيصة واحدة إلى جانب مائة من الفضائل . فإن هذه النقيصة تكون

بين فضائله كالقشة في سكر النبات ، فلا يؤاخذ عليهـــا ، ما دامت محاطة بكل هذه الفضائل .

(١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠) كما أنّ سكر النبات والقشة يوزنان بميزان واحد كذلك الروح والجسم إذا غلب الخير على الجسم . لهـــذا لا يكون من جزاف القول ما قال به بعض العارفين من أنّ أجساد الطاهرين صافية نقية كأرواحهم .

(٢٠٠٢) الروح التي لم تبلغ حالة الصفاء والنقاء لا فضل لهـا على الجسم الماديّ الصرف ، وليس لها من خصائص الروح إلا اسمها ، فهي عديمة الجدوى ، كأنها حجر زائد في لعبة النرد .

(٢٠٠٥) هذا الملـح ، وهو صفات الطهر والكمال بقي في تركة الرسول . أما وارثوه فهم ورثة الحقيقة المحمّدية ممن بلغوا مرتبة الكمال الإنساني .

(٢٠٠٦) أهل الكمال من الأوليـــاء قد يكونون أمامك ، ولكنك لا تدركهم ولا تشعر بهم ، لأنّ هؤلاء مستترون عن الجهلاء الغـارقين في الحس . ولا بد لك أنْ تبلغ مرتبة الوجود الحق ، وهو التنبه والوعي الروحيّ ، وبذلك تستطيع إدراك وجودهم .

(٢٠١٠) يا من أنت بوجودك الحسي زائل ، مآله إلى الفناء ! هل بعد فنائك تبقى مرتبطاً بهذه الجهات النسبية ؟

(١٠١٤) الأشجار كائنات حية خرجت من جوف الثرى ، فهي كنزلاء التراب من البشر ، وسوف يخرجون أيضاً . وللشاعر بيت في ديوان شمس تـــبريز يشبّه فيه دفن الموتى بغرس البذور ، في قصيدته التي يبدؤها بقوله :

بروز مرگ چو تابوت من روان باشد
گمان مبرکه مرا دل درين جهان باشد

وفيها يقول :

وأية حبة طواها الثرى ثم لم تنبت ؟

فلماذا تحمل مثل هذا الشك عن ذات الإنسان ؟

(انظر : محمد كفافي : جلال الدين الرومي ، شاعر الصوفية الأكبر ، ص ٦١ . جامعة بيروت العربية ، ١٩٦٣) .

(٢٠١٥) هذه الأشجار كائنـــات حية خرجت من باطن الأرض ، وهي دليل لمن أوتي البصيرة على أن الله قادر على أن يخرج الموتى من قبورهم .

(٢٠١٦) اللسان الأخضر هو الأوراق ، وأما اليد الممدودة فهي الغصون .

(٢٠٢٠) المنكرون الذين يشير إليهم الشاعر هنا هم المـــاديون الطبيعيون الذين يقولون بقــدم العالم . يصف الشهرستاني هؤلاء بقوله : « فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي ، والدهر المفني .. » (الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ، القاهرة ١٩٥٦).

(٢٠٢١ – ٢٠٢٢) لقد كشف الله لقلوب أحبائـه حقيقة وجوده ، وما يرتبط بها من حقائق روحية ، فأخذ هؤلاء يفصحون عن الأسرار التي تلقتها قلوبهم ، ويفضحون هؤلاء المنكرين .

(٢٠٢٣) هذه المعارف التي تكشفت للأنبياء والعارفين سرعان ما انتشر أريجها في الدنيا ، ووجدت سبيلها إلى الناس على الرغم من المنكرين .

(٢٠٢٦) الأبصار الزائغة ليست أبصاراً حقاً ، وأمـــا البصر الحق فهو الذي يرشد صاحبه إلى مكان الأمان . والمقصود بمكان الأمان عند الصوفية الإيمان ، وسلوك سبيل المحبة التي توصل الإنسان إلى أسمى الغايات .

(٢٠٣٦) عالم الروح لا يظهر إلا للخواص ، الذين يؤمنون به ، وأما من ليسوا كذلك فهم أهل الشك والريب الذين بلغ بهم الشك حـــد إنكار البعث .

(٢٠٤٤) استعملنا كلمة « رياح » كترجمة للكلمة الفارسية « باد » ولم نستعمل « ريح » اقتداء بالقرآن الكريم الذي استعملت فيه كلمة

« ريح » في مواقف الشر ، على حين استعملت كلمة « رياح » في مواقف الخير . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » (٥١: ٤١-٤٢) ، وقوله : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر» (٥٤: ١٩). وكذلك قوله: « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » (٧: ٥٧) ، وقوله : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات ، وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٣٠: ٤٦). (انظر الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ . المكتبة التجارية ، القاهرة) .

(٢٠٤٥) من كان ذا روح مدرك لما ينهل على البشر من نفحات الغيب كانت هذه النفحات أغلى عنده من روحه .

(٢٠٥٣) العقل الكلي هو الذي يسيطر على النفس الجموح ويخضعها لإرادته . وكذلك المرشد ، هو للمريد كالعقل الكلي بالنسبة للنفس .

(٢٠٥٩) عود الخلال هنا رمز للشيء الصغير .

(٢٠٦٣ — ٢٠٧٠) فسر نيكولسون هذه الأبيات تفسيراً نراه بعيداً عن مضمونها . فقد قال إن الشاعر يعتبر الغفلة بركة على هذه الدنيا لأنها تبقيها على حالها ، فتتيح المجال لبلوغ الكمال الروحي ، وتقي أجساد الصوفية من الفناء العاجل تحت وطأة الحب . ولسنا نرى في معاني هذه الأبيات ما يؤيد هذا التفسير ، ولو على وجه التأويل .

(٢٠٦٣) إنّ هذه الأمطار كانت لطفاً خفياً أنزله الله على الجنس الآدمي لتسكين آلامه في هذه الدنيا .

(٢٠٦٤) فلو أن البشر طال عيشهم في ظل هذه الآلام لحل بالأرض كثير من الخراب .

(٢٠٦٥) لولا هذا اللطف الإلهي لحل الخراب في هذه الدنيا ، ولانطلقت نوازع الحرص من نفوس البشر ، فكان فيها القضاء عليهم .

(٢٠٦٦) إن الغفلة عن العالم الروحي ومباهجه هي دعامة هذا العالم ،

لأن هذه الغفلة تجعل الناس متعلقين بـه حريصين عليه . كما أن اليقظة الروحية آفة لهذه الدنيا ، لأنها تجعل الناس ينبذونها ، ويتخلوّن عنها .

(٢٠٦٧) اليقظة الروحية هبة تُقبل إلى الانسان من العالم الآخر . فحين تصبح الغلبة لهذه اليقظة ، فلا بقاء لهذا العالم .

(٢٠٦٨) فاليقظة تقضي على الحرص الذي يسيطر على الناس في هـــذه الدنيا ، كما تذيب الشمس الثلج ، أو كما يغسل الماء الوسخ .

(٢٠٦٩) هذه الألطاف الغيبية التي تصل إلى هذا العالم — من آن إلى آخر — تحدّ من اندلاع لهيب الحرص والحسد في هذه الدنيا .

(٢٠٧٩) نفخ الصور بالنسبة للأولياء هو النداء الذي يوقظ الأرواح من سباتها ، وينبه القلوب من غفلتها .

(٢٠٨٠) إن ما يتكشف لقلوب الأولياء من أسرار إلهية ، هو الذي يجعل قلوب النـــاس ثملة بحب الله . كما أن إفناءهم الذات في حبّ الله ، هو الذي يرشدنا إلى أن نهتدي لحقيقة وجودنا الروحي ، فنعمل على إدراكه .

(٢٠٨١) لابن عربي رأي في الولاية قال فيه :

« واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ، ولهذا لم تنقطع ، ولها الإنباء العام . وأما نبوّة التشريع والرسالة فمنقطعة . وفي محمد (ص) قد انقطعت ، فلا نبيّ بعده : يعني مشرعاً أو مُشرّعاً له ، ولا رسول وهو المشرع ... فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو وليّ وعارف ، ولهذا مقامه من حيث هو عـــالم أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع . فإذا سمعت أحداً من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة ، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه . أو يقول إن الولي فوق النبيّ والرسول فإنه يعني بذلك في شخص واحد . وهو أن الرسول عليه السلام — من حيث هو ولي — أتمّ من حيث هو نبيّ رسول ، لا لأن الوليّ التابع له أعلى منه ، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً

فيما هو تابع له فيه ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً » (فصوص الحكم ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

وخلاصة قول ابن عربي أن كل نبي ورسول وليّ ، وليس كل وليّ نبياً . وجانب الولاية في النبيّ أو الرسول أعلى وأكمل من جانب النبوة أو الرسالة .

ولعل أول من تكلم في الولاية بصورة مفصلة،وحدّد لها مفهومات وقواعد وأصولاً ، هو أبو عبد الله الحكيم الترمذي (من رجال القرن الثالث الهجري). وقد أورد ابن عربي ثبتاً بأصول المسائل التي تناولها الترمذي في بحثه عن الولاية . (انظر : الرياضة وأدب النفس ـ مقدمة الناشرين المحققين أ . آربري، A. J. Arberry ، علي حسن عبد القادر ، ص ١٦ وما يليها) .

(٢٠٨٧) كان الحرير يستخدم في صناعة أوتار الآلات الموسيقية ولهذا توجه المطرب إلى الله طالباً ثمن الحرير .

(٢٠٩٦) معنى قوله : « وأضحى نبع أيوب له شراباً ومغتسلاً » ، أنه خلص من الآلام وبرىء منها ، وهو ما حدث لأيوب حين اغتسل في العين فزالت عنه جميع العلل .

(٢١٠٢) كان الأمر يأتيه قائلاً : أما وقد وهبت هذه الهبات ، ودخلت إلى رحاب العالم الروحي ، وبرئت من آلام الجسد ، فزال عنك وخز أشواكها ، فلا تطمع فيما هو أكثر من ذلك ، وارجع إلى عالم الدنيا ، حتى يتاح لك أوان الانتقال النهائي .

(٢١٠٩) بل أي حاجة لذكر البشر بأجناسهم ، ما دامت الأحجار والأخشاب وغيرها من الجماد قد سمعت نداء الحق ؟

(٢١١٠) العالم متجدد على الدوام بأمر الله . وقد سبق للشاعر أن عبر عن ذلك في مواضع عدة . ومنها قوله : « ففي كل لحظة ـ يا رب ـ قافلة وراءها قافلة ، تسير من العدم إلى الوجود » . (البيت ١٨٨٩) .

(٢١٢٤) لو لم يكن في الدنيا عارفون يعلمون بقلوبهم قدرة الله الخالقة ،

التي تخلق ما تشاء من العدم ، لما كان هناك مجال لتصديق ذلك .

(٢١٢٧) العقل قابل للانخداع بما يثيره الشيطان من شبهات .

(٢١٢٨) الاستدلال العقلي البحت طريق ضعيف في الوصول إلى الحقيقة ، فهو في هذا السعي كأنه ساق خشبية .

(٢١٢٩) أما قطب الزمان ، وهو الإنسان الكامل ، فهو وحده صاحب المعرفة اليقينية ، وهو الذي أوتي من العلم الراسخ مـا تذهل لرسوخه الجبـــال .

(٢١٣١) « أرباب البصر » هم العارفون ، الراسخون في العلم .

(٢١٣٢) قد يكون أهل الظاهر – من المؤمنين بالعقل وحده – قادرين على أن يبلغوا قدراً من الهداية ، يشبه اهتداء الأعمى بعصاه . لكن جميع هؤلاء في رعاية العارفين الملهمين ، كما أن العميان جميعاً في رعاية المبصرين ، برغم اقتدارهم على درجة محدودة من الاهتداء .

(٢١٣٥) هذه الأدلة العقلية التي تعتد بها ، إنما هي هبة من الله ميّز بها الإنسان على غيره ، وهو قادر على تبديدها ، لكنه أبقاها للبشرية ، رحمة منه وإشفاقاً .

(٢١٣٧) ما دامت هذه الأدلة والقياسات العقلية ، قد أصبحت مصدراً للخلاف والنزاع ـ وقد بلغ الأمر ببعض المتفلسفين أنهم استخدموها لمناقشة وجود الله نفسه ـ فقد وجب عليك أن تحطمها ، أيها الانسان ، لأن مهمتها الأصلية هي أن تكون وسيلة للهداية كالعصا للأعمى .

(٢١٣٨) لقد وهبك الله هذه القدرة على التفكير العقلي لتهتدي بها إليه ، وتتقدم نحوه ، فإذا بك تستخدمها في التهجم عليه .

(٢١٣٩) لا بد للناس من هاد مبصر ، يرشدهم بما يكشف الله له من علمه .

(٢١٤٠) « دامن أو گير » . آثرنا في ترجمتها « ولتعتصموا بحبل من... » بدلاً من الترجمة الحرفية « ولتتمسكوا بأهداب من ... »

(٢١٤٢) « پنج نوبت » وترجمتها « خمس مرات » وقد فسرها نيكولسون على أنها تشير إلى قرع الطبول أو عزف الموسيقى خمس مرات كل يوم في بلاد المشرق ، كعلامة للملك . ورأيي أنه لا صلة لهذا البيت بتلك العادة ، وإنما المقصود بالمرات الخمس مواقيت الصلاة . والجذع الذي كان يستند إليه الرسول ، وهو رمز لإدراك الجماد لخالقه ، يحن كل يوم خمس مرات في مواقيت الصلاة .

(٢١٤٣) لو لم يكن هذا الذوق الغيبي فوق تصور أهل الحسّ لما كانت هناك حاجة إلى إظهار المعجزات .

(٢١٤٤) كل ما كان في مستوى التفكير العقلي ، وعلى قدر طاقة هذا التفكير ، فإن العقل يقبله ، ولا تكون هناك حاجة لاتخاذ المعجزات حجة لإثباته ، ودليلاً عليه .

(٢١٤٥) مهما بدا لك طريق الإلهام الإلهي ، والمحبة الإلهية ، مما لا يتقبله العقل — لأنه طريق بكر — فإن هذا الطريق ذاته حبيب إلى قلوب العارفين الملهمين ، الذين كتبت لهم السعادة ، فهم وحدهم الذين يسلكونه .

(٢١٤٧) إن البحث الفلسفي لم يكن يلقى قبولاً في زمن الشاعر . والظاهر أن المتفلسفين كانوا يتسترون ولا يجسرون على البوح بآرائهم ، وبخاصة ما كان منها باعثا على بثّ الشكوك في الدين .

(٢١٥١) إن المتفلسف المنكر (لمعجزة الجذع الحنان) ، يجد جوارحه ، كاليد والرجل ، وهي من الجماد ، مطيعة أمر روحه ، تعمل بما توحيه لها ، وفي هذا ما يدحض إنكاره .

(٢١٥٢) ومع أن المنكرين ينطقون بالتهم التي تثير الشك في إمكان إدراك الجماد ، فإن أيديهم وأرجلهم سوف تشهد عليهم يوم القيامة ، مع أنها من المادة التي لا تنطق .

(٢١٥٤—٢١٦٠) ساق الشاعر هذه القصة لإثبات قدرة الجماد على

النطق ، بإرادة الله . ولم أجدها منسوبة إلى أبي جهـــل في أي من المصادر التي رجعت إليها .

ولكن هذه المصادر تبيّن كيف دأب أبو جهل على أن يطلب من الرسول عمل المعجزات . يقول البلاذري : « وذكروا أن أبا جهل قال : يا محمد ، ابعث لنا رجلين أو ثلاثة من آبائنا ممن قد مات ، فأنت أكرم على الله ، فلست بأهون على الله من عيسى فيما تزعم ... (أو) تسخر لنا الريح تحملنا إلى الشام في يوم وتردنا في يوم ، فإن طول السفر يجهدنا فلست بأهون على الله من سليمان » . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، القاهرة ١٩٥٩) .

(٢١٩٦) إشارة إلى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم مـــا توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . (ق ، ٥٠ : ١٦) .

(٢١٩٨) إن الله يمدك في كل لحظة بعطائه وكرمه ، فهو كمن يعد لك الذهب ، ولما كنت تنسى نفسك أمام إنسان يلوّح لك بالعطاء ، وتتجه ببصرك إليه ، فكيف تغفـــل عن الله واهب كل شيء ولا تلتفت إلا إلى نفسك ؟

(٢١٩٩—٢٢٠٠) الإحساس بالذات ينفي تحقق الفناء الصوفي . (انظر تعليقنا على الأبيات ١٧٥٢—١٧٥٦) .

(٢٢٠٢) فلتشعل النار في ماضيك ومستقبلك حتى لا تبقى مليئاً بالعقد منهما كأنك عود من الغاب . فالإنسان الذي يكون أسيراً لماضيه ومستقبله لا يستطيع أن يرى سوى ذاته .

(٢٢٠٣) إن الغاب الذي لا تُزال منه العقد لا يكون صالحاً لأن يصبح ناياً تعزف عليه أعذب الأنغام . وهكذا الإنسان الذي لم يتخلص من عقد الماضي والمستقبل ، لا يكون قادراً على تلقي الأسرار الإلهية .

(٢٢٠٤) إن من ركز نظره حول نفسه ، ولم يستطع أن يطوف إلا حولها ، شبيه بسائح طاف بالدنيا ، وامتلأت عيناه بمشاهدها . فحين عاد

إلى داره بقيت هذه المشاهد مسيطرة عليه تملأ جوانب نفسه . فعازف الصنج – حين رجع إلى الله – بقي مشغولاً بماضيه ومستقبله ، وما كان فيهما من أحداث ملأت عليه نفسه .

(٢٢٠٥) مهما حصّل الإنسان من معارف ، فلا قيمة لها إذا لم يعرف مانح المعرفة . فهذا هو الأساس الأول للعرفان الحق . وتوبة مثل هذا أقبح من ذنبه ، لأنها مبنية على خوف العقاب وليست منبعثة من حب الله . فالذاتية هي الدافع إلى مثل هذه التوبة ، وليست المحبة والعرفان . وقد وردت تعريفات للتوبة في كتب الصوفية . ويمكننا أن نقتبس هنا بعض ما أورده عنها أبو نصر السراج : « وأما ما أجاب الجنيد عن التوبة : أن ينسى ذنبه ! أجاب عن توبة المتحققين : لا يذكرون ذنوبهم ، لما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ، ودوام ذكره ... كذلك سئل ذو النون عن التوبة فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة » . (اللمع ، ص ٦٨) .

وفي رسالة القشيري (ص ٤٥ – ٤٨) فصل عن التوبة نقل ما جاء في كتاب اللمع عنها ، وذكر أقوالاً كثيرة إلى جانبه .

(٢٢٠٦) « سئل رويم بن أحمد عن التوبة فقال : التوبة من التوبة ». (اللمع ، ص ٦٨) .

(٢٢١٤ – ٢٢١٥) إن الله يريد أن يُظهر حقيقته ، وهو يدفع العقل الإنساني للإفصاح عن هــذه الحقيقة . قال الشاعر (بيت ١٩٤٣) : « فهو بذاته علّم آدم الأسماء ، ثم كشف بآدم الأسماء للآخرين » . وكلما ازداد تأثر العقل الجزئي بالعقل الكلي ، يعبّر العقل الجزئي عما تلقاه من إلهام ، فيصل إلى العالم الدنيوي – من هذا السبيل – أمواج من بحر الروح .

(٢٢١٧) قول الشاعر « بقي في فمنا نصف هذا المقال » ، معناه أنه لم يبح بكل ما آل إليه أمر هذا المطرب الشيخ .

(٢٢٢١) يلتمس الشاعر من الله أن يفيض على العــالم من نور علمه

ورحمته ، فيجدّد بذلك هذا العالم الذي شاخ في جهله وغفلته .

(٢٢٢٢) يعزّز الشاعر دعـــاءه في البيت السابق ، بقوله : إن كل ما يتجلى في الوجود الآدمي من حياة نفسية حيوانية ، وحياة روحية ، إنما هو منساب إليه من عالم الغيب كما ينساب الماء الجـــاري من منبعه إلى مصبه .

(٢٢٢٦) قد يكون الإمساك – في بعض الأحيان – خيراً من الإنفاق فينبغي ألا ُيعطى مـال الله لمن لا يستحقونه ، وإلا كان ذلك لوناً من الإسراف الذميم .

(٢٢٣٠) هذا البيت قلق في موضعه ، كما بينا في حواشي الترجمة . ولكنه يعني أن الإنفاق للصدّ عن سبيل الله ، يكون فاعله كعبد أراد أن يتصرف في مال مليكه بعدالة ، فأعطى هذا المال لمن ثاروا عليه . فالمال كله مال الله . فيجب ألا يعطى لمن يصدّون عن سبيل الله .

(٢٢٣٣) هذا البيت يقدم صورة للتعبد الذي لا يقصد به وجه الله ، وإنما ُيراد به الصدّ عن سبيل الله . فهؤلاء الكفار كانوا يقدّمون القرابين للأصنام لعلها تنصرهم على الرسول .

(٢٢٣٦) قول الشاعر « وإن قدمت الروح في سبيل الله ، أُعطيت روحاً » ، يعني أن الصوفي الذي تفنى روحــه في خالقها ، ُيثاب على ذلك بالخلود ، إذ أنه بهذا الفناء يتحقق له البقاء .

(٢٢٤٢) « الروح المالح المر » هو الروح الحيواني ، وأما « الروح الحلو » فهو الروح الإنساني .

(٢٢٤٤ ، وما يليه) هذه قصة استغرقت بضع مئات من الأبيات . وليس معنى ذلك أن وقائع هذه القصة قد استغرقت كل هذه الأبيات ، فالشاعر على عادته قد اتخذ من القصة إطاراً لفلسفته وحكمته .

وقد وردت هذه القصة بصورة مختلفة بعض الاختـــلاف في كتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » الذي أكمل محمد عوفي تأليفه في

عام ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م . وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً . وقد نُشرت في إيران منتخبات منه ، لكنها لم تحو إلا قسماً صغيراً من هذا الكتاب الكبير . وليست قصة « الخليفة والبدوي » من بين مـــا شملته هذه المنتخبات .

وقد لخص نيكولسون قصه الخليفـــة والبدوي من مخطوط لكتاب جوامع الحكايات في مكتبة المستشرق الشهير إدوارد براون . وفيما يـلي ترجمة لخلاصة القصة ، كما وردت في تعليقات نيكولسون (ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، جـ ١ من شروحه على المثنوي) :

« يروى أنه حين ولي المأمون الخلافة ، ذاعت شهرة سخائه في جميع أرجاء العالم . وكان بدوي في ذلك الوقت يعيش في بادية جرداء . ولم تكن قبيلته تملك من الماء إلا غديراً ملحاً . أما الماء الذي كان يتساقط من الأمطار ، فسرعان ما كان يغدو ملحاً بسبب ملوحة التربة .

وحدث أن هـــذا البدوي اضطر إلى الهجرة من دياره إذ اعتراها جفاف ومجاعة . وقد اعتزم الرحلة إلى بلاط الخلافة مؤملاً في العطاء . وحينما تجاوز مضارب قبيلته ، عثر ببئر ركدت فيه المياه ، فاجتذبت الأرض منها ملوحتها . وحينما تذوق البدوي ماء البئر عرته دهشة عظيمة لأن المسكين لم يكن قد تذوق الماء العذب ، ولا عرف أن مثل هـذا موجود في الدنيا . فحدث نفسه قائلاً : « والله إن هذا لا يوجد إلا في الجنة . ولقد أرسله إليّ خالق الوجود ليخفف من كربتي . فلأجعلن بعضاً منه في قربة ، ثم لأحملنه هدية إلى الخليفة . ولما كان لم يتذوّق ماء مثل هذا ، فسوف ينعم عليّ بخلعة ، وبعطاء سنيّ » .

وحمل البدويّ بعض هذا الماء ثم مضى على الطريق . وكان الخليفة ومعه موكب من الفرسان يتصيّد في ضواحي الكوفة ، حين أقبل هذا البدوي . فأمر بأن يُحضر البدوي إليه ، وسأله من أين جاء . فقال البدوي : « جئت من الصحراء » . ولما سأله إلى أين يقصد ، أجاب

البدوي بأنه يقصد قصر الخلافة . فسأله المأمون : « وماذا أحضرت معك ؟ » فأجاب البدوي : « ماء من الجنة » . فأدرك المأمون : — بحكمته التي لم تكن تخطىء — حقيقة ما حدث ، وقـــال : « دعني أتذوق هذا الماء » . وحينما قُدمت له القربة ، أمر أنْ يُفرغ ما بها في زجاجة ، وتناول رشفة صغيرة من هذا الماء ثم أبدى عجبه قائلاً : « لقد قلت الحق أيها البدوي ! وماذا تطلب ؟ » فأجاب البدوي : « أيها الأمير ! إن الجـاعة والفقر قد دفعا بي بعيداً عن وطني . ولست أعرف مكاناً أقصده إلا باب قصر الخـلافة » . فقال الخليفة : إني مجيب سؤالك ، شريطة أن تعود الآن من حيث أتيت ، ولا تمضي إلى أبعد من هذا المكان » . وقبل البدوي ، فأمر الخليفة أن تُملأ القربة بقطع من الذهب ، وكلف أحد حراسه بأن يصحب البدوي حتى يسلك طريق الصحراء . وحين أبدى رجال الحاشية عجبهم لما فعله المـــأمون ، وحرصهم على معرفة الحكمة في ذلك ، أخبرهم المأمون بأنه لو تقدم هـــذا البدوي قليلاً بعد هذا المكان ، لرأى نهر الفرات ، ولأصابه الخجل من جراء هديته التافهة . وأتبع ذلك بقوله : وإني لأخجل لو أن رجلاً جاءني بهدية ، ثم انصرف من حضرتي مهاناً مشيعاً بالعار ! »

والقصة — كما رواها جـــلال الدين — لا تعين شخص الخليفة الذي قصده البدوي . وتذكر أن البدوي قصد قصر الخـلافة في بغداد . كما أنها تذكر أن الخليفة أمر بأن يُعاد البدوي إلى وطنه بطريق البحر — على عكس ما ذكرته رواية عوفي . وأضاف الشاعر إلى القصة شخصية لا تظهر في رواية عوفي ، هي زوجة الأعرابي ، وأجرى بينها وبـين زوجها صفحات متعددة من رائـــع الحوار . وقد جعل الشاعر امرأة الأعرابي رمزاً للنفس الحسية (الحيوانية) وجعل الأعرابي رمزاً للنفس الناطقة . كما اتخذ من الخليفة رمزاً لله .

(٢٢٥٨) السامري هو الذي أغرى اليهـــود بعبادة العجـــل .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . (٢ : ٥١) . سأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل ، وصعدوا الجبل ، وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ، فعدوا ـ فيما ذكر المفسرون ـ عشرين يوماً وعشرين ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا موعده ، فاتخذوا العجل ، وقـــال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى . فاطمأنوا إلى قوله » . (تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ، طبع دار الكتب المصرية) . وكان جزاء السامري أن نُبـذ من الناس فكان لا يمس أحداً ولا يمسه أحد .

(٢٢٦٢) وأي عطاء نقدمه ونحن نلجأ إلى أخس الوسائل لنتجنب الجـــوع ؟

(٢٢٦٨) في بعض المخطوطات وردت كلمة « يشم » (بمعنى خرز) بدلاً من « يشم » (بمعنى صوف) . وإذا كانت هذه الرواية صحيحة فمعناها أنه يضع في العيون الخرز السحيق . وكان من المعروف أن اللؤلؤ السحيق يزيـــد نور البصر . فيكون المقصود أن الرجل يغش فيضع مسحوق الخرز ، بدلاً من اللؤلؤ السحيق .

(٢٢٧٢) « ومع أنه أبعد من أن يعقد أي صلة بينه وبين ربه ، فإنه يدعي لنفسه صفات الأنبياء الصادقين » .

(٢٢٧٥) أبو يزيد البسطامي عند الصوفية قطب من الأقطاب العظام . أما يزيد بن معاوية ، فقد أصيب بسوء السمعة في التاريخ الإسلامي نظراً لما حدث في عهده من انقسامات ، وما أريق من دمـاء . ومن أهم حوادث عصره مقتل الحسين ابن علي وآل بيته ، ووقعة الحرة التي أبيحت فيها المدينـة بضعة أيام . وقد لا تقع على يزيـد كل المسئولية في تلك الحوادث ، ولكن وقوعها في عهده قد أساء إلى سمعته في التاريخ .

(٢٢٧٧) « إنني نائب الحق ، أنا ابن خليفته » ، معنـــاها « إنني أنا

الإنسان الكامل ، والوريث الروحي لآدم ، خليفة الله في الأرض » .

(٢٢٧٩) من الناس من وقف على باب هذا المزور يوماً بعد يوم ، باسطاً لنفسه طريق الأمل ، في أن يصل على يديه إلى مقام روحي مرموق ، ولكنه يضيع وقته وعمره هباء .

(٢٢٨١) إذا ما اكتشف المريد أنه قد أضاع عمره على شيخ مزوّر ، فلا جدوى من ذلك ، و كل هذا الوقت قد ضاع منه هباء .

(٢٢٨٦) فهذا المدّعى يعاني ـ في الحقيقة ـ من فقر روحي ، وبرغم ذلك يتظاهر بالفقر المادي ، وهو شعار الصوفية الصادقين الذين نبذوا المادة وأهملوها في سبيل الروح .

(٢٢٨٧) فلماذا ننافق ، ونتظاهر بغير حقيقتنا كما يفعل هذا المدعي ؟ الأولى بنا أن نظهر على حقيقتنا ، ولا نزهق أرواحنا من أجل شرف مزوّر . فالتظاهر بغنى الروح يُلقي على المدعي تبعات لا قبل له بها، ولاقدرة له عليها .

(٢٢٩٠) السيل المندفع ليس مورداً ميسوراً للشرب ، فالبحث في صفائه أو اعتكاره ليس مما يجدي .

(٢٢٩٨) إن الآلام الحسية في هذه الدنيا جزء من الموت ، الذي هو أعظم ما يخيف أهل الحس ويرهبهم .

(٢٣٠٠) « إنْ كنتِ لا تبالين بآلام الحس ، فاعلمي أنك تستطيعين مواجهة المصير المحتوم متقبلة راضية » .

(٢٣٠٢) كل من تعلق بملاذ الحياة ومتعها المادية ، كان الموت أقسى عليه ، فيتجرعه كأساً مريرة المذاق . أما من صرف وجهه عن ملاذ الدنيا ، وتعلقت روحه بعالم الروح ، فالموت بالنسبة له لا يعدو أن يكون انتقالا من حال إلى حال خير منه . يقول الغزالي : «المحب لا محالة مشتاق، ومعنى الشوق في المحسوسات استكمال الخيال بالترقي إلى المشاهدة . فإن المشتاق إليه مُدْرَكٌ لا محالة بالخيال ، وغائب عن الأبصار ، وأحوال الآخرة وجمال الحضرة الربوبية مدرك كل ذلك للعارف ، يعرفه كأنه نظر من وراء ستر رقيق ، في وقت الإسفار وضعف النور ، فهو مشتاق إلى استكمال ذلك بالتجلي

والمشاهدة ، ويعلم أن ذلك لا يكون إلا بالموت . فلذلك لا يكره الموت لأنه لا يكره لقاء الله تعالى » . (الأربعون في أصول الدين ، ص ٢٧٥) .

(٢٣٠٣) يرى نيكولسون أنّ هذا البيت مقارب في معناه لقول الشاعر العربي:

الموت نقاد على كفّه   جواهر يختار منها الجياد

وأرى أنه لا صلة لهذا البيت العربيّ ببيت شاعرنا . فالجياد في في البيت العربي تعني الأخيار ، وعلى هذا تكون الجودة في هذا البيت معنوية وليست جسدية .

وأما بيت جلال الدين فمعناه أنّ ضخامة الجسم كانت سبباً في هلاك الأغنام . فلا غرابة في أن تكون في الإنسان سبباً لهلاكه . ذلك لأن الإنسان الذي يُعنى بجسده ويتعلق به ، يكون ذلك منه على حساب روحه التي تتضاءل ، فلا يبقى لها كيان ، فيكون ذلك بمثابة هلاك لها في الدنيا ، وكذلك في الآخرة . وقول الشاعر في البيت السابق : « وكل من عبد جسمه فما حمل روحاً » ، مرتبط بهذا البيت ، وهو يزيد معناه وضوحاً . فالإنسان الذي يعبد جسده ، يتضاءل فيه الروح الإنساني ، إلى درجة تجعله يبدو مجرداً من هذا الروح .

(٢٣٠٧) صانعو الحبال يتراجعون إلى الوراء وهم يصنعونها . ولا يزال هذا مشهوداً عند من يصنعون الحبال بطريقة يدوية .

(٢٣٣٣) إن طالب الدنيا يسعى إليها بكل الوسائل، والدنيا كذلك تبدي له مغرياتها فتزيده تعلقاً بها .

(٢٣٣٤) فلو لم يكن هو الذي يسعى إلى الدنيا بكل الوسائل لما كانت الدنيا تستولي عليه ، وتصرفه عما عداها .

(٢٣٤٢) « الفقر فخري » عبارة ذات مدلول صوفي . فالفقر عند الصوفية مقام لا بد من تحقيقه . ولا يكاد يخلو من ذكره كتاب من كتبهم ، (انظر الكلاباذي : التعرف ، ص ٩٥ ؛ أبو طالب المكي : قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٨ ؛ السراج: اللمع ، ص ٧٤ ؛ القشيري: الرسالة ، ص ١٢٢) . واعتداد الصوفية بالفقر ، لأنه يصرفهم عن التعلق بهذه الدنيا ، فيجعلهم بذلك

فقراء إلى الله ، وحينذاك يصبحون أغنياء بالله . والفقر عندهم محك لصدق الإيمان وكرم الأخلاق . فالفقير الصوفي لا يطلب من أحد شيئاً ، ويعطي ما يستطيع برغم فقره ، ويقول الحق ، ولا يجعله الفقر مداهناً يلتمس رضى الأغنياء . وأرفع الفقراء رتبة عندهم – على مـــا يقول السراج – « من لا يملك شيئاً ، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا ينتظر من أحد شيئاً ، وإن أعطى شيئاً لم يأخذ ، فهذا مقامـــه مقام المقربين » . (اللمع ، ص ٧٤) .

وعد نصر بن الحمامي الفقر « أول منزلة من منازل التوحيد » . (اللمع ص ٧٥) على اعتبار أن الفقير لا يجد ما يشغله عن الله ، فهو مستغن عن الناس وما يملكون .

وخلاصة ما يفهم من أقوالهم أن الفقر هو الانصراف عن المـــادة ، ويتجلى هذا في الامتناع عن الحرص عليها سواء بطلبها ، أو الاحتفاظ بها إن وجدت لدى الإنسان ، ثم بالحاجة إلى الله وحده ، وهذا المعنى الأخير يمثل انتقالاً من السلوك العملي إلى التأمل الروحي . وحين يتحقق لأحدهم الإحساس الكامل بالافتقار إلى الله يصبح غنياً بالله .

(٢٣٤٥) رجل الحق مثل العين المبصرة ، فالأولى به ألا يغشي قلبه باديات الحياة لأن هذه تحجب بصيرة قلبه ، كما يحجب الغطاء نور العين .

(٢٣٥٧) رُوي عن إبراهيم بن أحمد الخواص أنـــه قال : « الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ومنبّه المريدين ، وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين ... » (السرّاج : اللمع ، ص ٧٤) . وجاء في « قوت القلوب » لأبي طالب المـكي (ج ٢ ، ٤٠١) أقوال عن اعتزاز الفقراء بأنفسهم منهـــا قول ابن المبارك : « من تواضع الفقير أن يتكبر على الأغنياء » ، وقول المكي نفسه : « ومن فرائض الفقر ألا يسكت الفقير عن حق ، ولا يتكلم بهوى ، لأجل دوام العطاء من أحد ، ولا لاجتلاب نفع » .

(٢٣٥٨) « صائد الإخوان ، وماسك الثعبان » . وتعني هذه العبارة من يتصيد الإخوان بأن يخدعهم بعبارات تنمّ عن الصلاح والتقوى ، فيوقعهم في حبائل مكره ، فكأنما هو يتصيد حيّات فيتلو عليها رقى وتعاويذ حتى يتمكن منها .

(٢٣٥٩) قد يُفهم من هذا البيت معنى رمزي ، هو أنــه يجتذب المريدين ، فيزيل من نفوسهم أهواءها الدنيوية ، وبذلك يخلصها مما يجلب لها هلاكاً محققاً . وهو كذلك يفعل بالثعبان الذي يتصيده ، فيقتلع أنيابه حتى لا تكون سبباً في القضاء عليه .

(٢٣٧١) « تحرّي زنانه » ترجمنا هذه العبــارة « بالجشع النسائي » . فالتحرّي ينطوي على البحث والطلب ، وهذه المرأة كانت تطلب المــال وتحرص عليه . ولهذا نرى أن فهم « التحري » على هذا الوجه ، خير من تفسير نيكولسون له بأنه « الشك واضطراب الفكر » . فمشكلة المرأة هنــا هي الطمع ، وهو الذي يغشّي على بصرها ويجعلها غير قادرة على مشاهدة الأمور على حقيقتها . فالزوج يدعوهــا إلى ترك الطمع لتراه على حقيقته ، ولا تزدريه لفقره .

(٢٣٧٢) « إن اجتذابي للمريدين ليس لطمع فيهم . فهــذا الحرص عليهم قد يبدو طمعاً فيهم ، ولكنه ليس إلا رحمة ، لأني أقودهم إلى طريق الحق » .

(٢٣٧٨) الحقائق الروحية لا تتكشف إلا لمن كان طالباً لهــا ، حريصاً عليها .

(٢٣٨١) إن الحقائق الروحية تحتجب ولا تتكشف إذا كان طالبها غريباً عنها ، غير حريص على تلقيها .

(٢٣٨٢) وأما من كان موضعاً لسرّ الغيب فإن هذه الحقائق تتكشف له ، وتتجلى لقلبه .

(٢٣٨٣) كلّ ما كان جميلاً رائق الحسن ، فقد صُنع من أجــل

الإحساس السليم ، الذي يدركه ويتذوقه . وكذلك الأسرار الإلهية لا تتجلى إلا للروح التي تكون قادرة على إدراكها وتذوّقها .

(٢٣٨٩) يسأل الأعرابي امرأته قائلاً : « هل تزينت ذات يوم من أجل رجل أعمى ؟ » وهذا استفهام إنكاري يرمز إلى أن الأسرار الإلهية لا تتكشف إلا للقلب المهيأ لها ، القادر على إدراكها .

(٢٣٩٠) لا جدوى من عرض الحكمة على من لم يكن أهلاً لها ، ذلك لأنها لا تجد سبيلاً إلى قلبه .

(٢٣٩٢) « إنني لا أريد أن أشغل نفسي بهذه الدنيا ، وما فيها من خير وشرّ . بل إن قلبي لينفر حتى من خيراتها » .

(٢٤١٢) « أما وقد جعلت لي من عفوك نوراً يرشدني إلى طريق الندم ، المؤدي إلى رضاك فقد تبت » .

(٢٤٢٧) رستم بن زال أحـــد الأبطال الذين اشتهروا في الأساطير الإيرانية . وقد شغلت سيرته آلافاً من أبيات الشاهنامه التي تروي وقائع العصر الكياني .

أما حمزة المذكور هنا فهو حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، وكان من أعظم أبطال العرب .

(٢٤٢٨) « الحميراء » هي عائشـــة زوج الرسول . (انظر البيت ١٩٧٢ وتعليقنا عليه) .

(٢٤٤٤) « إن من شاخ في كفره يستطيع اعتناق الإسلام لو صحت منه التوبة والرجوع ، وندم على مـا أضاع من عمره في الضلال . ومـا دام الكفر — وهو أكبر الذنوب — يغتفر بالتوبـــة ، فقد حقّ عليك غفران ذنبي » .

(٢٤٤٦) كل ما في الوجود من أضداد مرتبط بالخالق الموجد ، وليس في الوجود شيء يخرج على أمره . وفي القصة التي تتلو هذا البيت ، يصوّر الشاعر موسى وفرعون ــ وهما يمثلان الكفر والإيمان ــ قاصدين ربهما ، إلا أن واحداً

منهما اهتدى ، وأما الآخر فضلّ السبيل. ويتحدث الجيلي عن ذات الله الجامعة للأضداد فيقول : « ظهر في كل ذات بكل خلق ، واتصف بكل معنى في كل خلق وحق ، جمع بذاته شمل الأضداد ، وشمل بوحدانيته جميع الأعداد » . (الإنسان الكامل ، ج ١ ، ص ٢ ، ٣) .

(٢٤٤٧) قول الشاعر: إن فرعون كان يقصد الحقيقة، لكنه ضلّ السبيل - تعبير عن مذهب الصوفية ، بأن كل متعبد يقصد وجه الله ، حتى ولو كان ظاهر تعبده أنه لغير الله . يقول ابن الفارض :

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء بالأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا عقد نية

ويقول ابن عربي : « فالناس على قسمين : من الناس من يمشي على طريق يعرفها ويعرف غايتها فهي في حقه صراط مستقيم . ومن الناس من يمشي على طريق يجهلها ولا يعرف غايتها ، وهي عين الطريق التي عرفها الصنف الآخر » . (فصوص الحكم ، ص ١٠٨) .

(٢٤٤٩) يقول فرعون : « يا رب ، لولا أن الكفر مقدّر علي منذ الأزل، لما كان هناك غل يطوقني، ويصرفني عن الإيمان، وأكون أمام الناس ما أنا عليه الآن».

(٢٤٥٢) « إن القمر - وهو أعظم من النجوم - يعتريه الخسوف ، فما حيلتي إذا أصاب الخسوف نجمي ؟ »

(٢٤٦١) « إنني حين أكون وحدي ، فأنا في وفاق مع الله ، لأني أحد مظاهر إرادته ، ومشيئته ، ولكني حين أواجه موسى أشعر أنني على خلاف ذلك . فموسى ضدي ، وهو يظهرني على صورتي المضادة لصورته ، وإن كنت في الحقيقة لا أعدو أنْ أكون منفذاً لإرادة الله التي صدرت عنها الأضداد ، وكل مظاهر هذا الوجود » .

(٢٤٦٢) إن ظهور الحق في الدنيا على أيدي الرسل قد كشف ما كان يسودها من زيف. وهكذا الذهب الزائف لو تُرك وشأنه لظن ذهباً ، ولكنه إذا وضع

في النار تكشفت حقيقته . وفرعون — لو لم يظهر موسى — لبقي له رواء ملكه ومظهره الخادع .

(٢٤٦٧) حينما تحوّل الخلق من عالم الوحدة الروحية ، إلى عـالم الدنيا ، عالم التعدد والتعين ، وقع الصدام بينهم . فالخلق جميعاً يرجعون إلى حقيقة واحدة ، ويجمعهم لون متجانس ، ولكن حلول الأرواح في الأجساد جعلها تبدو مختلفة متباينة .

(٢٤٦٨) حينما يخلص الناس من عالم المادة ، وما فيه من ألوان متعددة ، يسود الوفاق بينهم جميعاً ، ولا يكون هناك أثر لهذا التضاد الذي يتجلى في ضدين متباعدين مثل موسى وفرعون .

(٢٤٧٠) هذا التعدد اللونيّ في العالم المادي ، صادر عن لون واحد متجانس هو العالم الروحي . وهـــذا اللون المتجانس (أو اللالون ، كما يحلو للشاعر أن يصفه ، تشبيهاً له بالماء) هو الأصل في جميع الألوان التي يزخر بها العالم المادي ، فكيف يمكن تفسير صراع المادة مع الروح ؟

(٢٤٧٤) مظاهر الصراع بين المادة والروح ، أو بين العالم المادي والروحي ، قد تكون مصدراً لحيرة الإنسان . وهذه الحيرة شبيهة بخربة ، ولكن هــذه الأرض الخربة قد تكون منطوية على كنز . هذا الكنز هو العرفان الصوفي الذي يجب أن يهتدى به في إدراك اليقين حول مثل هذه الأمور .

(٢٤٧٥) هذا البحث العقلي ، الذي تركز حول المظاهر الخارجية قـــد استولى على اهتمامك ، فظننت أنه جوهر المعرفة . ولكن هذا الذي توهمته جوهر المعرفة ، صرفك عن المعرفة الحقيقية ، وأضاعها منك .

(٢٤٧٦) الإصرار على الأوهام والآراء لا يتفق مـــع نفي الذات ، وهو المقدمة التي يجب أن تتحقق لطالب المعرفة الروحية ، قبل أن يتقـــدم في سبيلها خطوة واحدة . أما من تمسك بمثل هذه الآراء والأوهــام ، فهو كمن تمسك بالمادة وطلب الروح ، أو كمن يحث عن كنز دفين في منطقة آهلة بالسكان .

(٢٤٧٧) « المناطق العامرة » تعبير عن الدنيا وضجيجها وصخبها الذي يطغى على الروح . وحياة هذه الدنيا لون من الوجود ، ولكن الفناء الصوفي لا يرى هذا وجوداً يُعتد به ، فهذا الفناء الصوفي خير منه لأنه سبيل البقاء ومفتاح الخلود .

(٢٤٧٨) ليس المتعلق بالوجود المادي هو الذي يعرض عن الصوفي الذي ينشد الفناء ، بل إن الصوفي هو الذي يعرض عنـــه ، فالتصوف ينطوي على التحرر من سلطان المادة ، والمتعلقين بها .

(٢٤٧٩) « لا تقل إنني هارب من مثـل هذا الفناء عن الدنيا ، فهذا الفناء هو الذي يهرب منك ، لأنك لم تُؤت من الهبات الروحية ما يجعلك تسلك سبيله وتسعى إليه » .

(٢٤٩٠) بدفع هذا العالم الدنيوي والعالم الروحي لأهل الظلم ، بقي هؤلاء محرومين من كلا العالمين .

(٢٤٩٢) « إن لديهم قوة روحية أفاضها عليهم الخالق . فلو أنهم أظهروا تلك القوة لك ، لكان لهم من الأثر عليك مثلما يكون للكهرباء على القش . (من المعروف أن أحجار الكهرباء تجتذب القش) .

(٢٤٩٧–٢٤٩٨) إن العقل يقود الإنسان كما يقود الجمّال الجمل . والأولياء يقودون العقول كما تقود العقول الأجسام .

(٢٥٠٠) ما الحاجة إلى توضيح الأمر بتشبيه القطب بالدليل والجمّال ؟ إنه كالشمس لمن كان ذا مقدرة على الاهتداء به .

(٢٥٠٢) يوازن الشاعر هنا بين جسم الولي وروحه . فهو باعتبار الجسم ذرّة ، ولكنه باعتبار الروح شمس . وهو في ظاهره حمل ، ولكنه في حقيقته أسد .

(٢٥٠٧) كان أهل الغفلة يظنون الرسل أفراداً ضعافـاً . وكيف يكون ضعيفاً من توثقت صلته بربه حتى جعله خليلا وصفياً !

(٢٥٠٩) انظر قصة صالح وقومه في « قصص الأنبيـاء للثعلبي »

(ص ٦٦—٧٢) .

(٢٥١٤) يقال إن بلدة الحجر ، الواقعة شمالي المدينة ، كانت مقر ثمود ، قوم صالح ، ولا تزال إلى اليوم تعرف بمدائن صالح . وقد روى أبو الزبير عن جابر بن عبدالله قال : « لما مر النبي عليه السلام بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد هذه القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا معذبين ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم . ثم قال : أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة .. » (قصص الأنبياء ، ص ٧١،٧٢) .

(٢٥١٨) روى الثعلبي أنّ الكفار حاولوا إيذاء صالح مرات عدة ، ولكنّ الله كان ينجيه من كيدهم .

(٢٥١٩) لا يستطيع الكفار أن ينالوا من روح أحد الرسل . وكل ما استطاعوه لم يَعْدُ إيقاع بعض الأذى بجسمه . فجلب عليهم هذا العدوان الذي اقترفوه غضب الله ونقمته . أما نبيّ الله المرسل فلم ينل منه أذاهم .

(٢٥٢١) إنّ رسول الله يمثل قوة روحية عظيمة ، وقد جعل الله هذه القوة متعلقة بجسم ، وذلك ليستطيع أبناء هذا العالم شهودها ، والاهتداء بها .

(٢٥٢٢) جسم الوليّ بالنسبة لروحه ، كالناقة بالنسبة لصالح . ولقد كانت الناقة في خدمة صالح كما أن جسم الوليّ مسخّر لروحه . فالروح بالنسبة للوليّ هي العنصر الأقوى ، ولذلك فإنّ الجسم يكون خاضعاً لها . والشاعر يدعو في هذا البيت إلى الابتعاد عن إيذاء الأولياء والصالحين ويحث الناس على أن يخدموهم ويرعوهم ، وإن كان يرى أن هؤلاء مهما اجتهدوا فإنهم لا يستطيعون إزاءهم سوى الرعاية الجسدية .

(٢٥٢٣ — ٢٥٣١) بعد أن عُقرت ناقة صالح أقبل عليه القوم يعتذرون فقال لهم صالح : « انظروا هل تدركون فصيلها (وليدها) ، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما

رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل فتطاول في السماء حتى ما تناله الطير ... فقال صالح : لكل أمة أجل فتمتعوا في دياركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ، ذلك وعد غير مكذوب ... قالوا : وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح — حين سألوه عن وقت العذاب وآيتـه — إنكم تصبحون غرة مؤنس (الخميس) وجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة (الجمعـة) ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شبار (السبت) ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول (الأحـد) ، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة . . . فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أنّ صالحاً قد صدقهم . . . فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم . . . فلما أمسوا فـإذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار . . . فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة . . . فقطعت قلوبهم في صدورهم فـلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك . . . » (قصص الأنبياء ص ٧٠ ، ٧١) .

(٢٥٣٢) مضى الشاعر هنا في تفسيره الرمزيّ لقصة الناقة وفصيلها ، فقال إنّ فصيل الناقة رمز لخاطر الوليّ . وكان قـد ذكر في بيت سابق (٢٥١٥) أن الناقـة رمز لجسم النبيّ أو الوليّ ، وأما صالح فرمز للروح .

(٢٥٥٩ — ٢٥٦٠) إن عصيان قوم صالح ، وطغيانهم الذي استوجب العقاب لم يمنعـا هذا الرسول الكريم من أن يأسى عليهم ، ويبكيهم بدموع الرحمة والرثاء .

(٢٥٧٠ — ٢٥٧٣) يتحدث الشاعر في هذا البيت وما يليه عن اختلاط الخير والشر في هذه الدنيا . ويذكر أنه ، برغم هذا الاختلاط البادي في الحياة بين الأخيار والأشرار ، هناك فارق يباعد بين كل فريق منهما . ومما يشبه تلك الحال ذهَبُ المنجم الذي يكون مختلطاً بالتراب ، أو العقد الذي يضم حبّاتٍ

من الدرّ النفيس وأُخرى من النحاس . فهذا التقارب لا يعني الامتزاج ، فكل عنصر يبقى محتفظاً بطبيعته رغم اختلاطه بغيره .

(٢٥٨٣) « العين التي تبصر الحظيرة » هي العين الحسية التي لا شأن لها بالمعنويات . والحظيرة هنا ترمز إلى عالم الحس .

(٢٥٨٤) كم في الكون من مغريات تبدو حلوة المذاق ، مع أن السم كامن فيها . وينطبق هذا على الماديات ، وكذلك على المعنويات . فالملق مثلاً يبدو لذيذاً سائغاً لمن يجد في طبعه ميلاً إلى تلقيه ، ولكن عاقبته تكون وخيمة في نهاية الأمر .

(٢٥٨٥) من الناس من أوتي قدرة على التمييز قبل معاناة الأمر ، ومنهم من لا يستطيع ذلك إلا حين يقترب منه بعض الشيء .

(٢٥٩٢) كان من المعتقد في زمن الشاعر أن العقيق يكتسب لونه وبريقه من نور الشمس .

(٢٥٩٨) قد يكون السم والحية هنا رمزاً لمتع الحياة . فهذه المتع تصبح سائغة مباحة لمن يعرف كيف يقف عند حد في تقبلها ، ومن أوتي من قوة الروح ما يجعله آمناً من سمومها ومخاطرها. يقول الترمذي عن المريد : « فينبغي أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى . فإذا وصل إلى ربّه عزّ وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً ويقيناً ، فكل شيء مدّ إليه يداً من دنيا أو آخرة لم يضره لأنه منه يقبل ، فاذا قبله منه حمده عليه وشكره ، وكانت جوارحه مستقيمة حافظة للحدود ». (الرياضة وأدب النفس ، ص٦٣).

(٢٦٠٢) يقول الترمذيّ في حديثه عن المريد الواصل : « فإذا فرح بشيء من الدنيا فإنما يفرح ببرّ الله تعالى له بذلك وتقديره وتدبيره ولطفه .. فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً فامتلأت عروقه منه ، فإن مدّ يده إلى حية أو عقرب لم يضره سمّها ، لأنه لم يجد السمُّ مسلكاً إلى عروقه ، فإذا لم يجد الترياق وجد السمّ مسلكاً إلى العروق، فجمد الدم الذي في العروق ، من ذلك السمّ فمات ». (الرياضة وأدب

النفس ، ص ٦٣) .

(٢٦٠٩) المرء يحتاج إلى قوة روحية عظيمـــة ، ليستطيع الصمود أمام مغريات المادة . وقد رمز الشاعر لمثل هذه القوة الروحية « بهمّة سليان » .

(٢٦١٩) صور الترمذي الصراع بين النفس (التي تمثّل الشهوة والهوى) والقلب (الذي يمثل الحكمة والتعقل) بقوله : « وإنّ المؤمن قد ابتلي بالنفس وأمانيها ، وأُعطيت (النفس) ولاية التكلّف بالدخول في الصدر . والنفس معدنها في الجوف وموضع القرب ، وهيجانها من الدم وقوة النجاسة ، فيمتلىء الجوف من ظلمة دخانها ، وحرارة نارها . ثم تدخل في الصدر بوسوستها ، وأباطيل أمانيها ابتلاء من الله إياه ، حتى يستعين العبد بصدق افتقاره ودوام تضرعه لمولاه » . (بيان الفرق بين الصدر والقلب ، والفؤاد واللبّ ، ص ٤٠ ، القاهرة ١٩٥٨) .

(٢٦٢٤ — ٢٦٢٦) الصورة والمعنى يكمل كلّ منهما الآخر . الصورة هي الشكل الظاهريّ ، والمعنى هو المضمون الباطنيّ . وللحقيقة صورة ومعنى ، كل منهما يكمل الآخر . ولو كانت الأهمية للمعنى وحده ، لكان خلق هـــذا العالم الدنيوي باطلاً ، ولما كانت هناك حاجة للصور المعبّرة عن المحبة والولاء ، سواء في العلاقة بين الإنسان وربه ، أو بين أفراد الجنس البشريّ . فالصلاة مثلا لها مدلولها الروحيّ ، ولكنها أيضاً تتم بصورة معينة . وعاطفة المحبة بين الناس يمكن التعبير عنها بصورة ماديّة ، كتبادل الهدايا .

(٢٦٢٩) يفرق الشاعر هنا بين الصور التي تعبر عن معان حقيقية صادقة ، وبين الصور التي لا معنى لها . فالنوع الأول تعبير عن المحبة والاخلاص ، وأما النوع الثاني فمحض تظاهر ورياء .

(٢٦٣٤) في البيت إشارة إلى حديث ينسب إلى الرسول أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

(٢٦٣٥) إذا لم يشهد الإنسان الصور الدالة على المعنى ، فإنه قد يستدلّ على هذا المعنى بأسباب تحققه . فإذا كانت هناك رابطة قربى بين إنسانين ، فهي — في العادة — مدعاة لافتراض المحبة ، وإن لم يتجلّ من المظاهر ما يؤكد ذلك .

(٢٦٣٦) كل هذه المعارف المبنية على المظاهر والأسباب لا تعدو أن تكون افتراضية . ولا سبيل إلى اليقين ، الذي يجعل الإنسان مستغنياً عن الأثر والسبب إلا بالكشف الإلهيّ .

(٢٦٤٠) من اعتبر الصورة والمعنى شيئاً واحداً كان خاطئاً . فالصورة قريبة من المعنى ، لأنها تعبر عنه ، لكنها بعيدة عن المعنى ، لأن له طبيعة أخرى ، ولأنه هو الجوهر المقصود . فمن اقتصر على صورة الصلاة وجهل معناها كانت صلاته باطلة لا جدوى منها. ومن كان حبه مجرد ابتسام وإظهار المحبة، من غير إحساس بها ، فهو من المرائين المخادعين ، وليس من المحبين .

(٢٦٤٨) ذكر الجرجاني في تعريفاته أنّ هناك أربعة ألواح : لوح القضاء ، ولوح القدر ، ولوح النفس الجزئية السماوية ، ولوح الهيولى .

(٢٦٥٠) راجع ما سبق أن نقلناه عن ابن عربي من نصوص تتعلق بآدم ، وتبيّن فضله على الملائكة . وقد ذكر جلال الدين في مواضع أخرى من شعره أن الإنسان في صورته الكاملة أعظم من الملائكة . ومن ذلك قوله في ديوان شمس تبريز .

خود زفلك برتريم واز ملك افزونتريم
زين دو چرا نگذريم ، منزل ما كبرياست
(إننا أعلى من الفلك ، وأعظم من الملك !
ولم لا نفوقهما ، ومنزلنا الكبرياء ؟)

(٢٦٥٧) للعرش تفسير صوفي ذكره الجيلي . قال : « هو المظهر الأعلى ، والمحل الأزهى ، والشامل لجميع أنواع الموجودات . فهو في الوجود المطلق ، كالجسم للوجود الإنسانيّ ، باعتبار أنّ العالم الجسماني شامل للعالم الروحاني والخيالي والعقلي إلى غير ذلك .. » (الإنسان الكامل ، ج ٢ ، ص ٤) . ولسنا نريد أن نفترض هذا المفهوم في بيت الشاعر . ويمكن أن يفسر – بدون تأويل بعيد – على أساس أن آدم أهمّ مخلوقات الله . فالعرش ذاته لا يبلغ

مكانة روح آدم ، لأنه — برغم نوره واتساعه — لا يبلغ مبلغ الروح في اتساعها لخالقها .

(٢٦٥٩ — ٢٦٦١) يشير الشاعر هنا إلى أن الملائكة تعلقوا بالأرض وأحبوها وأكبروها قبل خلق آدم وأنهم عجبوا لهذا التعلق ، فطبيعتهم السماوية مختلفة عن طبيعة التراب . ولكن السبب في هذا أن الله كان قد أودع في التراب سراً هو آدم ، الذي خُلق من هذا التراب ، فكان أعظم مخلوقات الله . أما التعلق بالأرض فقد يشير إليه ما جـــاء في القرآن حكاية عنهم حين أخبرهم الله بخلق آدم : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قـالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » . (البقرة ، ٢ : ٣٠) .

(٢٦٦٣) تخاطب الملائكة آدم قائـلة ، إنها قد تعلقت بالأرض لأن الله كان قد جعل بها سراً عظيماً من أسراره ، ثم ما لبث أن أظهره لها بعد أن خلق من ترابها آدم .

(٢٦٦٧) « صارت أفواهنا مرّة ... » معناها أن الملائكة حزنوا وتـــألموا .

(٢٦٧٥) أبدع الشاعر في التعبير عن الحلم الالهي — وهو الرحمة التي يسبغها الله على عباده ـ بقوله إن مائة أب ومائة أم تولد من هذا الحلم في كل لحظة .

(٢٦٧٦) « وما حلم هؤلاء .. » الإشارةُ هنا إلى حلم الآباء والأمهات .

(٢٦٧٧) إن حلم الإنسان — إذا قيس بحلم الله — ليس إلا رشاشاً واهياً من هذا الفيض الإلهي العظيم .

(٢٧١٠) شبّه الجسم الإنساني بإبريق ، له خمس أنابيب تصب فيه ، هي الحواس الخمس . ويتضمن البيت دعـــاء لله أن يطهر الحواس حتى يسلم الجسم من كل نجس .

(٢٧٢٦) المحو والسكر والانبساط :

المحو – في تعريف السراج – هو « ذهاب الشيء إذا لم يبق له أثر ، وإذا بقي له أثر فيكون طمساً . وقال النوري : الخاص والعام في قميص العبودية ، إلا من يكون منهم أرفع ، جذبهم الحق ، ومحاهم عن نفوسهم في حركاتهم ، وأثبتهم عند نفسه .

قال الله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » .

معنى قوله جذبهم الحق : يعني جمعهم بين يديه ومحاهم عن نفوسهم يعني عن رؤية نفوسهم في حركاتهم ، وأثبتهم عند نفسه ، بنظرهم إلى قيام الله لهم في أفعالهم وحركاتهم » . (اللمع ، ص ٤٣١) .

وتكلم السرّاج عن السكر فقال إن معناه « الغيبة » غير أن السكر أقوى وأتم وأقهر من « الغيبة » أما شرحه للغيبة ، فهي أنها « غيبة القلب عن مشاهدة الخلق بحضوره ، ومشاهدته للحق بلا تغيير ظاهر للعبد » . (اللمع ص ٤١٦) .

وأما الانبساط فهو الذي يعرف بالبسط . ويُذكر البسط مع القبض . يقول عنهما السراج إنهما حالان شريفان لأهل المعرفة . وفسرهما على أن القبض هو أن يقبض الله العارف عن المباحات من أكل وشرب وغيرهما ، فلا يبقى له من فضل سوى المعرفة . وأما البسط فهو أن يبسط الله العارف لهذه المتع الحسية ، ولكنه يصونه من الإغراق فيها « حتى يتأدب الخلق به » . ويُروى عن الجنيد أنه قال إن القبض والبسط يعنيان الخوف والرجاء . « فالرجاء يبسط إلى الطاعة ، والخوف يقبض عن المعصية » . (اللمع ص ٤١٩ ، ٤٢٠) .

(٢٧٣٩) هذا الرجل الكامل عم كرمه البشرية جمعاء . ولم يكن يفرق بين إنسان وآخر ، فكأنه الشمس أو المطر . بل هو – في تحقق النعيم على يديه – كان كأنه الفردوس .

وهناك رواية أخرى تجعل « ني » بدلاً من « بل » في عبارة الشاعر

« بل چون بهشت »

وشبيه بهذا ما قاله شوقي في العصر الحديث :

ألم تر أن نور الشمس يغشى حمى كسرى كما يغشى اليبابا
وأن الماء تروى الأسد منه ويشفي من تلعلعها الكلابا

(٢٧٥٠) الذين يسألون الحق هم الذين يظهرون للناس جوده . أما الذين خلصوا من وجودهم الذاتي ، فلم يستشعروا لذواتهم وجودا أمام الحق ، فهؤلاء هم الجود المطلق .

(٢٧٥١) من لم يكن ممن يسألون الله ، ويشعرون بالحاجة إليه ، فهو ميت ، لأنه فاقد للروح عديم الإحساس . وكذلك من لا يكون مع الحقّ ، بل يؤكد وجوده الذاتي ويبلغ به حبه للمادة وتعلقه بهذا العالم الماديّ أن يتوهم لنفسه وجوداً منفصلاً عن الخالق . فمثل هذا أيضاً يكون ميتاً لأنه تعلق بما يفنى ، وأعرض عن الحي ، الواهب للحياة .

وأما قول الشاعر : « إنه ليس من أهل هذا الباب »، فمعناه أن مثل هذا الشخص لاصلة له بعالم الروح، « وما هو إلا صورة فوق ستار » أي أنه لا يعدو أن يكون صورة لا حياة فيها .

(٢٧٥٧) ليس حب الذات الإلهية وهما ، وخيالا عن الأسماء والصفات ، بل إحساس جارف يتملك الروح ، ويسيطر عليها ، ويجعل صاحبه عاشقا للذات ، لا أسير وهم وخيال .

(٢٧٦٠) لو كان عاشق الأوهام (الذي ينبثق علمه من أوهامه ، فيتعلق بهذا العلم ، ويحسبه من اليقين) ، لو كان مثل هذا صادق النية في بحثه عن الحقيقة ، لهداه صدق نيته إلى الحقيقة .

(٢٧٦٢) لا يليق عرض الفكر الصوفي على من لا يكون أهلاً له ، لأن هذا يفهمه على غير وجهه ، ويخرج منه بمائة خيال باطل .

(٢٧٦٥) ليس الإنسان مجرد صورة . ولا شأن له بأسرار العرفان الروحي ، لو لم يكن قويّ الروح ، فصورة السمكة لا شأن لها بالبحر

أو اليابسة . ولون الهندي ليس من فعل الأصباغ ، ولا هو مما يزال بالغسل . فطبيعته راسخة ، لا سبيل إلى تغييرها . وهكذا من رسخ في قلوبهم التعلق بالمادة ، وإغفال الروح ، لا سبيل إلى تغييرهم .

(٢٧٧٠) كلمة « نقشها » (النقوش) في هذا البيت قد أوهمت الشراح أن المقصود هنا تلك النقوش التي كانت تصوّر على جدران الحمامات . والظاهر أن هذه النقوش كانت شائعة ، وقد عدّها الغزالي من المنكرات وأوصى بإزالتها أو تشويه وجهها لإبطالها إن كانت لبشر . كما أنه نهى عن تصوير الحيوان وأجاز صور الأشجار وسائر النقوش . (الإحياء ، ج ٢ ، ص ٣٣٩) . وقد زاد الأمر تأكيداً للشراح أن الشاعر في الأبيات السابقة على هذا البيت كان يتحدث عن التصوير والصور . ولكن فهم النقوش هنا على معناها التصويري ، يؤدي إلى استحالة فهم البيت ، وربطه بما يليه . والظاهر أن الشاعر انتقل هنا على عادته من الصور ، إلى الحديث عن الأجساد ، وهي لا تعدو – عند الصوفية – أن تكون شبيهة بالصور . وقد استعمل الشاعر كلمة « نقش » في مواضع عديدة بمعنى الجسم . يقول :

گاه نقش خويش ويران ميكند ازپى تنزيه جانان ميكند

(المثنوي ، ٢ / ٦٠) .

فالأجسام خارج غرفة خلع الثياب تتخذ صور الثياب ، لكنها في الداخل ، أي حين تتعرى تظهر على حقيقتها . وكما أن الثياب تخفي حقيقة الأجساد ، كذلك الأجساد تخفي حقيقة الروح ، فلكي يعرف الإنسان حقيقة الجسد ، عليه أن يخلع الثياب ، ولكي يعرف حقيقة الروح ، عليه أن يتخلص من الجسد .

(٢٧٧١–٢٧٧٢) لا سبيل إلى إدراك حقيقة الروح ما دامت متلبسة بالجسم . فإذا ما انطلقت من الجسم ، ودخلت عالمها الروحي ، تجلت حقيقتها . فالحمام هنا رمز للعالم الروحي ، والثياب رمز للجسم الذي

يحجب الروح . ذلك لأن الثياب تخفي حقيقة الجسم ، وكـذلك الجسم يخفي حقيقة الروح . فلا سبيل لإدراك حقيقة الجسم ما دام المرء خارج الحمام . وكل ما يرى حينذاك هو مظهر الثياب ، ولا صلة لهذه بحقيقة الجسم الذي تغطيه وكذلك الجسم في هذه الدنيا ، يحجب الروح ، فلا يمكن إدراك حقيقتها ما دامت منطوية فيه .

(٢٧٨٧) هذا الأعرابي سحب الماء من البئر وذهب به إلى الخليفة ــ وهو هنا رمز للإنسان الكامل ــ فكان جزاؤه أن لقي هذا الخليفة ، وسعد بلقائه . فهو كأفراد القافلة التي كانت منطلقة في الصحراء ، فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، فكان نصيبه أن شهد طلعة يوسف .

(٢٧٩٥) قد يثير هذا البيت مشكلة تاريخية لو ُفهم على معنـاه الحرفي . فالمثنوي قد بدأ نظمه بعد وفاة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين . فقـد ذكر الشاعر في مقدمة الجزء الثاني أنه تأخر في النظم بعض الوقت،وذكر تاريخ شروعه في نظم هذا الجزء وهو عـام ٦٦٢ هـ . أما الجزء الأول فقد نظم قبل الثاني بعامين أي في عام ٦٦٠هـ. وكان قتل المستعصم على يد المغول عام ٦٥٦ هـ. لكن الخلافة العباسية استمرت بصفة إسمية في القاهرة،حيث وليها عم المستعصم الذي اتخذ لقب المستنصر بعد سقوط بغداد بثلاثة أعوام . فهل معنى ذلك أن الشاعر بدأ نظم المثنوي بعد قيام الخلافة العباسية من جديـد بهذه الصورة الإسميـة ، وانتهى من نظـم الجزء الأول في عـام واحد أي في عـام ٦٦٠ هـ ؟

ومن الممكن أن الشاعر لم يرد هنا أن يروي وقائع التاريخ،وإنما روى حديث الأعرابي الذي قصد الخليفة . والمعروف أن الخليفة الذي تدور حوله القصة هو المأمون ، وكان عصره عصر ازدهار ، يكاد يوحي لمن شهده أن دولة بني العباس باقية إلى آخر الدهر. وكان العباسيون أنفسهم يشيعون هذا عن دولتهم. ويروى عن داود بن علي ــ عم السفاح والمنصور ــ أنه ذكر في خطبته التي ألقاهـا يوم بيعة السفاح أن هذا الأمر باق في بني العباس حتى يسلموه إلى المسيـح

عيسى بن مريم عندما يعود قبيل قيام الساعة . (ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٣٢٦) .

ومن المستبعد أن يؤمن جلال الدين – وهو المدرك لأحوال الدنيا ، المؤمن بهوانها ، والمستخف بسلطانها ، بأن ملك الدنيا باق على الدوام في قبضة إحدى الأسر ، مهما كانت مكانة هذه الأسرة .

(٢٧٩٧) « وقد قمت بقدر من صالح الأعمال ، راجياً من وراء ذلك حسن الجزاء ، فإذا بي أظفر – لقاء ذلك – بأرفع درجات المثوبة والقرب من الله » .

(٢٨٠١) الخالق هو الكل . وهو غير قابل للتجزئة . أما المخلوقات التي توصف بالأجزاء فهي ظواهر فاضت منه ، ومآلها أن تعود إليه . ومن يتعلق بمثل هذه الأشياء الزائلة ، فقد تعلق بفان لا سبيل له إلى الاحتفاظ به .

(٢٨٠٢–٢٨٠٤) كل مخلوقات هذا الكون ترجع إلى خالقها ، فمن تعلق بأي منها فقد تعلق بما لا سبيل إلى استبقائه . فالمخلوق ضعيف . وهو يندفع عائداً إلى أصله بدون اعتبار لمن يتعلق به من المخلوقات . وكل مخلوق تعلقت روحه بمخلوق مثله شبيه بغريق تشبثت كفّاه بضعيف .

(٢٨٠٥) لا تتعلق إلا بمن كان مالكاً لأمره . أما المخلوقات الضعيفة فلا جدوى من التعلق بها .

(٢٨٠٦) خير ما في المخلوقات وهي الأرواح تعود إلى خالقها ، وتترك وراءها الأجسام الفانية ، وهذه كالأشواك التي لا جدوى منها .

(٢٨٠٩–٢٨١٠) الصياد الذي يتصيد الظل رمز لمن يجري وراء الأوهام. وكذلك الرجل الذي أطبق كفه على ظلّ طائر ، فهو إنسان قد تعلق بخيال باطل .

(٢٨١١) إن قلتَ إن المخلوق مظهر من مظاهر الخالق ، فمحبته محبة للخالق ، كنت كمن يقول إن الشوك من الورد . فهل ترضى بأ كل

الشوك ؟ » .

(٢٨٢١) إن المرشد الكامل كحوض مليء بالماء النقي . أما المريدون فهم كالأنابيب التي تنقل الماء من هـذا الحوض إلى حفر السقاية . ويمكن أن تكون هـذه رمزاً لمصادر المعرفة التي ينهل منها عامـة الناس . فالماء النقي ، هو العرفان الصادق ، الذي يفيض من المرشد الكامل ، وينتقل إلى الناس عن طريق مريديه .

(٢٨٢٣) المعلم الذي يكون خبيث النفس ، لا يؤثر عنه إلا كل ما هو خبيث .

(٢٨٣٤) من الأحاديث التي ذكرها الغزالي في باب العلم أن الرسول قال : « العلم علمان ، علم على اللسان فذلك حجـة الله تعالى على خلقه ، وعلم في القلب ، فذلك العلم النـافع » . (إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٥٩) .

(٢٨٣٥ – ٢٨٥٢) يتنـاول الشاعر في هـذه الأبيات من أسمـاهم الغزالي « علماء الآخرة وعلماء السوء » ، ويوازن بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة .

يقول الغزالي : « فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علمـاء الدنيا وعلماء الآخرة . ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعّم بالدنيا ، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها . قال صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . (إحيـاء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ٥٩) .

(٢٨٣٥ – ٢٨٣٦) يشير الشاعر هنا إلى نوع من العلمـاء ، يعتريهم الغرور بما حصّلوه من العلم . أمـا علم النحو هنا فرمز لأوضح أنواع العلم الظـاهري ، فهو علم يهتم بالصورة واللفظ أكثر من اهتمامه بالمعـاني والمفهومات .

(٢٨٣٩) السباحة هنا رمز للسلوك الروحي الذي ينقذ من أخطار العالم

الدنيوي ومهالكه .

(٢٨٤١) « اعلم أن المعرفة الروحية هي المنقذ للإنسان ، وليس العلم الدنيوي . فمن استطاع أن يتخلص من غروره النفسي،عبر الحياة بدون تعرض لأخطارها ، التي تتمثل في مغرياتها ، وما تؤدي إليه من انحرافات » .

(٢٨٤٢) إن الحياة خضمّ لجب ، لا يستطيع أن ينجو فيه إلا من تغلّب على رغباته الحسية ، وقتل غروره النفسي .

(٢٨٤٣) فإن تحقق له الفناء عن صفات البشر ، وما يسودها من جهل وغرور ، دخل بحر الأسرار ، وسبح فوق قمة أمواجه .

(٢٨٤٥) مهما عظمت علوم هذه الدنيا فهي فانية ، لأنها تتعلق بما هو فان وتدور حوله ، لهذا يجب ألا يصاب الإنسان بالغرور ، إذا بلغ درجة عالية في هذه العلوم .

(٢٨٤٨) إبريق الماء الذي حمله الأعرابي رمز لعلوم الدنيا ذات الطابع المحدود ، أما المعرفة الروحية التي تتاح للرجل الكامل ، فلا حدود لها .

(٢٨٦٤) لو أن هذا الأعرابي أدرك طرفاً من علم الله ، لهان أمامه ما يعرف ، ولعدّه من الوهم الذي يجب القضاء عليه .

(٢٨٦٦) لو أن كيان الإنسان المادي (الجسم) تحطم ، ما أصاب حقيقته وجوهره ضرٌّ من جراء ذلك . بل ربما ازدادت روحه كالاً لخلاصها من الجسد .

(٢٨٦٧) إذا تحطم الجسم بقيت الروح سالمة ولم تخسر شيئاً من جوهرها، فهي ليست كالماء الذي يراق إذا انكسر وعاؤه ، بل إن جوهرها يزداد نقاء بخلاصها من الجسد .

(٢٨٧١) لقد أصبحتَ غير قادر على التحليق في أجواء الروح ، لأنك أغرقت نفسك في لذّات الحس ، فأصبح جناح فكرك مثقلاً بالمادة ، غير قادر على حملك إلى تلك الأجواء الروحية العليا .

(٢٨٧٣) من عود نفسه على الإسراف في الطعام والشراب ، أصبح نهما ، ونمت فيه غرائزه الحيوانية ، فلا يكاد يطيق الجوع ، وحين يشعر به ، يصير مثل الكلب الضاري .

(٢٨٧٤) الصورة المقابلة للجائع النهم ، هي صورة ذلك الآكل النهم الذي يسرف في تناول الطعام ، فيصل به الإسراف إلى مدى يجعله كالميت ، لا قدرة له على الحراك .

(٢٨٧٥) كيف ينفسح مجال التأمل الروحي أمام إنسان يقضي وقته بين التلهف على الطعام وبين معاناة التخمة ؟

(٢٨٧٦) من المعروف أن كلب الصيد - إذا شبع - لا ينطلق وراء الفريسة ، ويصبح كسولا متراخيا . والجسد - بالنسبة للروح - بمنزلة الكلب للصائد ، فالروح تسعى للسيطرة على الجسد ، وتدفعه للسير في دربها . ولو أن الجسد اندفع في طريق الشهوات ، لاستسلم للذات الحس ، ولم يعد للروح سلطان عليه .

وقـــد شبّه الشاعر الجسم بالكلب في موضع مقبل من المثنوي . قال في البيت رقم ٣٠٢١ :

« والروح قد صارت الآن رفيقة للجسم ، (وبذلك) صار الكلب حارساً للباب برهة من الزمان » .

(٢٨٨٢) يشير الشاعر بهذا إلى شطحات الصوفية . وهذه الشطحات يعدها أعداء الصوفية كفراً . أما الصوفية أنفسهم فيقولون إنها تدل على عمق الايمان ، ويؤوّلونها بصرفها عن معانيها المباشرة إلى معان أخرى . وقد نسب إلى مشاهير الصوفية - وبخاصة من يُعرفون منهم بأهـــل السكر - كثير من هذه الشطحات . وفي كتاب اللمع للسراج باب كامل عن هذا الموضوع ، تناول فيه «تفسير الشطحيات والكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم » (ص ٤٥٣) . وقد تناول الغزالي موضوع الشطح في كتاباته وحمل عليه في الإحياء (جـ ١ ، ص ٣٦ - ٣٨) . ولكنه عاد فأبدى

شيئاً من تقبله على سبيل التأويل ، وبخاصة مـــا نُسب منه إلى بعض مشهوري الصوفية الذين لا يشك في صدق إيمانهم .

وقد عرف السرّاج الشطح بقوله : « معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته » . (اللمع ، ص ٤٥٣) .

أما الغزالي – وهو من منكريه – فيصنفه إلى نوعين : « أحدهـــا الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله ، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب . . .

والصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيهـــا عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله ، وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني . . . » (إحياء علوم الدين ج ١ ، ص ٣٦) .

لكن الغزالي عاد فغير موقفــه بعض الشيء إزاء بعض هؤلاء الصوفية الذين نسبت إليهم الشطحات ، وعُدّت من الكفر . وقد سبق أن نقلنا نصاً يبين ذلك قال فيه : « العارفون – بعد العروج إلى سماء الحقيقة – اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق . لكن منهم من كان له هذه الحال عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذلك حالاً ذوقياً . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة . . . ولم يبق فيهم متسع ، لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضاً ، فلم يكن عندهم إلا الله ، فسكروا سكراً دفع دونه سلطان عقولهم ، فقال أحدهم : « أنا الحق » ، وقال الآخر : « سبحاني ، ما أعظم شاني » ! (مشكاة الأنوار ص ٥٧) .

(٢٨٨٧) « الشطح الذي ينطق به الصوفي المؤمن ، قد يبدو خروجـــاً على الدين لمن لا يفهم مغزاه . لكنه – وقد صدر عن قلب مؤمن ، لا يمكن إلا أن يكون إيماناً . فالسكر لو جُعل على صورة الخـــبز لا يغير ذلك من مذاقه . وكذلك أقوال هؤلاء ، لو فُهمت على خلاف ما يُتوقع من الصالحين ، فما هـــذا

إلا لخطأ في فهم مغزاها » .

(٢٨٨٨ – ٢٨٩٠) يهاجم الشاعر بهـــذه الأبيات الشكل الظاهري الذي يستعبد أصحابه ، ويصرفهم عن الجوهر . فهؤلاء الصوفية الزهاد ُرموا بالكفر ولم يُنظر في ذلك إلى حقيقة حالهم ، بل حُـكم عليهم بناء على عبارات تفوهوا بها . فهذا الخضوع للشكل دون الجوهر عبادة للصورة . وينبغي على المرشد أن يخلص النـــاس من ذلك . فالأولى أن تحطم الصورة ، حتى لا تحجب الجوهر ، وتخفي حقيقته عن الناس .

(٢٨٩٢) أعتقد أن الشاعر لا يزال هنـــا يدافع عن الصوفية الذين ُرموا بالكفر لعبارة تفوهوا بها . فقد ُنسيت حقيقتهم وأُدينوا بكلمـــات . وشبيه بذلك إحراق بساط لأن برغوثاً علق به ، أو إضاعة يوم في مطاردة بعوضة ، ونراه في الأبيات التالية ينتقد أسارى الشكليات الذين يحكمون بظاهر الحال ، لا بحقيقته .

(٢٨٩٤ – ٢٨٩٦) هذه الأبيات يمكن أن ُتمثل دعوة حارة لنبذ العنصرية التي تفرق بين الناس على أساس اللون . فاللون ليس سوى مظهر شكلي لا قيمة له ، ويجب أن يكون الاعتبار في الحكم على الأفراد لحقيقتهم وجوهرهم .

(٢٨٩٧) يقصد بالحكاية هنا حكاية الأعرابي وامرأته .

(٢٨٩٨) المعاني التي ترمز لها القصة قديمة قدم الأزل ، باقية بقاء الأبد . وهذه المعاني هي الصراع بين العقل والنفس ، وحنين الأرواح إلى خالقها . وقد ذكر الشاعر صراحة في البيت **٢٩٠٣** أن الزوج في القصة رمز للعقل وأمـــا المرأة فرمز للحرص والطمع .

(٢٨٩٩) إنها كقطرة الماء ، لا تعرف لها بداية أو نهـــاية . أو كالدائرة ، لا يعرف من أين تبدأ أو أين تنتهي .

(٢٩٠١) هذا البيت قريب المعنى من قول الشاعر في بيت سابق (رقم ١٣٣) : « الصوفي ابن الوقت أيها الرفيق » . انظر التعليق على هذا البيت .

(٢٩٠٤ – ٢٩٠٦) لما كان الانسان قد صدر عن الله ، والله قـد خلقه على

صورته ، فلماذا هذا التضاد في ذات الفرد الواحد ، ذلك التضاد الذي يتمثل في صراع النفس والعقل ، أو الجسم والروح ؟ ولماذا هـذا التضاد بين أفراد النوع البشري ؟

إن الشاعر يجيب عن ذلك بقوله إن هـــذا التضاد نشأ لأن للكل أجزاء متنوعة . وليس قوله « إن للكل أجزاء متنوعة » يعني أن الخالق يقبل التجزئة وإنما الأجزاء هنا تعبير عن الصفات المختلفة، والتجليات المتنوعة . فهذه التجليات المتنوعة ليست متصلة به اتصال الجزء بالكل . فهي ليست مثـــل عبير الوردة الذي هو جزء من الوردة ، ولا مثل شدو القمري الذي هو جزء من القمري. إن صفات الخالق قد يضاد بعضها بعضاً ، كالرحمـة والرضى ، والسخط والغضب . فصفات الله وأسماؤه يختلف بعضها عن البعض الآخر . وهكذا مظاهر تجلياته . ومع أن كل شيء قد صدر عنه ومآله في النهاية إليه ، إلا أن هذا لا ينفي أن يقع التنوع بين الأشياء ، المؤدي إلى تضادها .

ومما يساعد على هذا الفهم نظرية ابن عربي في صفات الله وأسمائه ، ويرى أن كل اسم من الأسماء ، وكل صفة من الصفات له مدلوله الخاص القائم بذاته . يقول: « فهذه مفاضلة في الصفات الإلهية ، وكمال تعلق الإرادة وفضلها وزيادتها على تعلق القدرة . وكذلك السمع والبصر الإلهي . وجميع الأسماء الإلهية على درجات في تفاضل بعضها على بعض » . (فصوص الحكم ، جـ ١ ، ص ١٥٣)

(٢٩٠٨) فإن غمضت عليك الحقيقة ، وأحسست بالحرج ، فاصبر فلعل الله يكشف لك السر الذي غمض عليك .

(٢٩٠٩) إن الأفكار تصطرع في القلوب ، ويفترس بعضهـا بعضا ، فهي تلعب دور الأسد وحمار الوحش . وأما القلوب فهي شبيهة بالآجام .

(٢٩١١) وما دامت هذه الأفكار والوساوس مصدر قلق لك ، فأقلع عنها واصرفها من قلبك . وليكن لك احتماء منها كاحتماء المريض من الطعام .

(٢٩١٢) « فليكن قلبك مستمعاً إليّ كأنه أذن ، حتى أُلقي إليك بحكمة روحية غالية كريمة الجوهر » .

(٢٩١٣) قول الشاعر : « تصبح قرطاً في أُذن القمر الصائغ» معناه «تصبح رفيع المكانة عند العارف المستنير » .

(٢٩١٩ – ٢٩٢٠) من ساءت فعاله في الدنيا ، لا يريد يوماً تُكشف فيه السرائر ، بل يتمنى لو خلد في هذه الدنيا . فهو كالأسود القبيح الوجه ، الذي لا يطيق النهار لأنه يكشف قبحه ، أو كالشوك الذي يبقى مزدهراً وحده في الخريف ، فيتمنى لو دام الخريف ، لأن الربيع –الذي يحفل بالأزهار والورود– يظهر ما كان خافياً من قبحه إبان الخريف .

(٢٩٢١) أما الورود والأزهار فالربيع حبيب إليها لأنه يحييها ، ويبرز جمالها . وكذلك العالم الآخر حبيب إلى الأرواح الطاهرة التي تجملت بحسن الفعال ، وأشرقت بالمحبة والصفاء .

(٢٩٢٢) أبناء الدنيا المنعمون فيها ، المغرورون بها ، يودون البقاء في هذه الدنيا ، وهم فيها يتيهون على من زهدوا في متعها وانصرفوا عنها .

(٢٩٢٣) ومثل الحياة الدنيا كمثل الخريف ، يزدهر فيه الشوك ويحتجب الورد . فيظهر الشوك وكأنه الخضرة الوحيدة التي تزين الأرض ويكون غياب الورد سببا في خفاء قبح الشوك على من كان غير خبير بالورود والأشواك .

(٢٩٢٥) وليس ينفع الشوك أنه يخدع كثرة الناس في الخريف ، بازدهاره وحده ، فهناك شخص واحد يدرك قبحه حتى في الخريف ، لأنه يعرف جمال الورود ، ولو كانت مختفية عن الأبصار . ذلك هو الإنسان الذي بلغ درجة عالية من العرفان الروحي .

وإدراك هذا الواحد خير من إدراك الدنيا كلها ، وتمييزه أهم من تمييز كافة أبنائها . والذين تعلقوا بالدنيا ، وتاهوا بأبهتها ورونقها ، يمكنهم أن يخدعوا آلاف الناس بهذا الرونق ، ويستولوا على إعجابهم ، ولكنهم لا يستطيعون خداع خبير برونق هذه الدنيا ، يدرك حقيقته ، ويعرف

قيمته ، لو قيس بما للعالم الروحي من رونق وبهاء .

(٢٩٢٦) هـذا البيت غامض المعنى . ويمكن أن يخضع لتأويلات متعددة . وأعتقد أن أقرب تفسير له هو أن الشاعر يستدرك على ما قاله في البيت السابق : « إن البستانيّ وحده هو القادر على إدراك القيمة الحقيقية للشوك حتى في الخريف » ، فيقول في هذا البيت : « ولو أن العالم اقتصر الإدراك السليم فيه على شخص واحد لكان عالما أبله » . فالعارف يتلاقى مع أمثاله من العارفين ، وهؤلاء معا يتعاونون في كشف الحقائق ،وكلهم يستمدون نور العرفان من الحقيقة العليا . إنهم كالنجوم ، يُلقي كل منها بضوئه مع وجود القمر المنير الذي يكشف الظلمات . ولعلّ في هذا البيت استيحاء للحديث الذي يروي عن الرسول قوله : « أصحابي كالنجوم ، بأيهّم اقتديتم اهتديتم » . فالرسول — في هدايته — كالقمر . والعارفون من أصحابه كالنجوم ، يحمل كل منهم قبسا من نوره . أمـــا المشكلة الفلكية التي يثيرها قوله : « إن كل نجم من النجوم جزء من القمر » ، فهي مما لا يحاسب عليه الشاعر وفقا لمعارفنا الحديثة .

(٢٩٢٧—٢٩٣٣) يتحدث الشاعر في هذه الأبيات ـ بصورة رمزية — عن عالم الروح ، وما ينتظر الإنسان فيه بعد الموت .

(٢٩٢٧) كلّ روح طاهرة نقية تستبشر بالانتقال إلى عالمها ، وترى أن حياتها هناك شبيهة بحياة الورود في ظل الربيع .

(٢٩٢٨) طالما بقيت البراعم مزدهرة فلا ثمار . وطالما بقيت الأجساد مزدهرة منطوية على الأرواح فهناك جمود لهذه الأرواح ، يمنعها من بلوغ غاية نضجها ، وهو ما يتحقق لها حين تنطلق من الجسم إلى عالم الروح .

(٢٩٢٩) في هذا البيت توضيح للرمز في البيت السابق . فالبراعم رمز للأجساد . والثمار رمز للأرواح . والأرواح تنطلق من الأجساد كما تنبثق الثمار من البراعم . فلا انبثاق للثمار ما لم تسقط البراعم .. ولا انطلاق للارواح ما لم تفن الأجساد .

(٢٩٣٠) البراعم هي الصورة ومعناها الحقيقي هو الإثمار . فهي – في ذاتها – لا قيمة لها ، ولكن قيمتها بمعناها . وحياة الجسد في هذه الدنيا ليست إلا بشرى بما يعقبها من نعمة كبرى هي حياة الروح في عالمها ، بعد انفصالها عن الجسد .

(٢٩٣٢) « الخبز الذي لم يكسر » رمز للجسد الذي بقي متماسكاً (على افتراض إمكان ذلك لمن يحرصون عليه) . فالخبز الذي يُكسر ، يؤكل ويتحول في جسم الكائن الحيّ إلى طاقة تهبه القوة . والجسم الذي يتحطم يجعل الإنسان روحاً قوياً منطلقاً . والعنب في عناقيده ، لا يصير نبيذاً ، ولكنه يصبح كذلك حين تعصر هذه العناقيد ، وهكذا الروح لا تتحقق لها نشوتها إلا بعد خلاصها من الجسم .

(٢٩٣٥) رقة الجسم لا تقف حائلاً دون قوة الروح .

(٢٩٤٠) « إنه شيخ بما حققه من عرفان لا بما مرّ عليه من سنين » . فهو قد حصل من الحكمة والعرفان ما لا يتحقق إلا للشيوخ الحكماء .

(٢٩٤١) « لقد بلغ درجة من العرفان ألهمه الله إيّاها ، فتحققت له هذه المكانة الروحية من غير أن يضيع السنين في تحصيلها . وقد أفاض الله عليه من فيض علمه ما لا أوّل له ولا آخر » .

(٢٩٤٦) الغول من الكائنات الخرافية ، التي تذكر الأساطير العربية أنها كانت تعترض سبيل المسافرين في البيداء ، وتضلّلهم عن الطريق . يقول المسعودي : « ويزعمون أن رجليها رجلا عنز ، وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون ويقولون :

يا رجل عنز انهقي نهيقا   لن نترك السبسب والطريقا

وذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات ، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها ، وتتيههم . وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد . وكانت العرب قبل الإسلام تزعم أن الغيلان توقد

بالليل النيران للعبث والتحيّل ، واختلال السابلة .. » (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ١٥٧) .

والغول في هذا البيت ، والبيت الذي يليه رمز لشهوات الحسّ التي تضلّ الروح ، وتنحرف بها عن قصد السبيل .

(٢٩٥٠) « اعتبر بمن اتبعوا شهوات الحس فهلكوا ، ولا تسلم نفسك لشهواتك ورغائبك الحسّية ، حتى لا تقودك إلى ذات السبيل التي سلكها هؤلاء الهالكون » .

(٢٩٥١) قوله : « بل أمسك برقبة حمارك » ، معناه « سيطر على جسدك ، ولا تسلم قيادك لشهواتك الحسيّة » .

(٢٩٥٤) يستخدم الحمار هنا رمزاً للنفس الحسّية ، التي تعشق اللذات ، وتندفع وراء الشهوات .

(٢٩٥٥) « إذا لم تكن من العارفين المدركين لطريق الروح ، فافعل عكس ما تطلبه نفسك الحسية ، وإذ ذاك تكون ممن لزموا قصد السبيل » .

(٢٩٥٦) يشير في هذا البيت إلى حديث الرسول المتعلق بمشاورة النساء ، وفيه يقول : « شاوروهن وخالفوهن » . وفي قصة الأعرابي وزوجه جعل الشاعر المرأة رمزاً للنفس الحسّية . فكأن الشاعر يدعو إلى مشاورة النفس ، مع عدم الالتزام بما تشير به . وقوله هذا يحمل ذات المعنى الذي يرمز إليه قوله : « فافعل عكس ما يريده الحمار » . حيث اتخذ الحمار رمزاً للنفس الحسّية . (انظر التعليق على البيت ٢٩٥٥) .

(٢٩٥٧) قال تعالى : « يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . (سورة ص ، ٣٨ : ٢٦) .

(٢٩٦٧) « العدوّ الذي يعاند في الخفاء » هو النفس الحسّية التي تصرف

الإنسان عن سبيل الروح .

(٢٩٦٩) قصة موسى مع الخضر وردت في تفسير آيات من القرآن الكريم (سورة الكهف ، ١٨ : ٦٥ – ٨٢) . والخضر لم يذكر بالاسم في هذه الآيات ، لكنه ذكر في التفسير ، حيث قيل إنه هو العبد المقصود من قوله تعالى : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » . (١٨ : ٦٥) وقد ذكر الثعلبي قصة موسى مع الخضر بكثير من التفصيل . (قصص الأنبياء ، ص ٢٣٨ – ٢٥٣) .

(٢٩٧١) من العجائب التي صنعها الخضر أمام موسى أنه خرق إحدى السفن وقتل غلاماً . وكان ذلك لحكم خفيت على موسى فأخذ يسائله ويحاوره ، ولم يصبر – كما أمره الخضر – عن السؤال والاستفسار ، مما جعل الخضر يبوح له بتأويل أفعاله ثم يفارقه .

قال تعالى : « فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً » . (١٨ : ٧١ – ٧٥) .

(٢٩٧٣) الطفل هنا رمز للمريد المبتدىء ، الذي يكون خاضعاً لغرائزه كالأطفال . والمرشد يعمل على تخليصه من الأهواء ، فيقتل في المريد نزوات الجسد وأهواءه ، ويحيي بذلك روحه . وحياة الروح هي الحياة الخالدة .

(٢٩٧٤) من لم يتعلم من المرشد تعلماً مباشراً ، وإنما يجتهد وحده في سلوك سبيل الروح ، قد يصل إلى غايته بعون المرشدين ، الذين يمثلون القدوة . وهؤلاء يتوجهون بقلوبهم إلى الله ليسدّد خطى البشرية ، وبدعائهم يتحقق الهدى للساعين إليه .

(٢٩٧٦) « إذا كان المرشدون يمتدّ أثرهم على هذا النحو إلى من لم يرتبطوا بهم ويأخذوا عنهم ، فما بالك بمن لزموهم ، واختاروا الخضوع لإرشادهم وتعليمهم ؟ » .

(٢٩٧٨) « وأين من يكون بعيداً عنهم ممن ظفر بالقرب منهم ، ومثل بخدمتهم ؟ » .

(٢٩٨٠) من أجل بلوغ حالة الصفاء الروحي يجب أن يكون المريد قوي التحمل ، لا ترهقه الآلام الحسية . فالمريد كالمرآة ، وهذه لا تبلغ حالة الصفاء إلا بعد أن يتلقى حديدها كثيراً من ضربات المطارق. وقد ذكر الشاعر بعد هذا البيت قصة تحثّ على الجلد ، وتدعو إلى تحمل الآلام في سبيل الهدف المنشود .

(٣٠٠٩) « علم التوحيد » يطلق على الدراسات التي تتعلق بذات الله وصفاته ، وما يرتبط بها من الموضوعات . ويسمى هذا العلم أيضاً « علم الكلام » . والصوفية لا يميلون إلى هذا النوع من البحث الذي يثيره المتكلمون . والشاعر هنا يقول : إن علم التوحيد ينبغي أن يكون هو العلم الذي يبيّن للإنسان كيف يفني ذاته أمام خالقه .

(٣٠١٢) قول الشاعر « وما كل هذا الخراب ... » معناه : « وما كل هذا الضلال والخطأ إلا من تأكيد الإنسان لذاته وجوداً منفصلاً عن خالقه » . والقصة التي تلي هذا البيت تبيّن – بأسلوب رمزي – وخامة الاعتداد بالذات والأنانية أمام الخالق .

(٣٠١٣) هذه القصة التي يقصها الشاعر في الأبيات التالية من القصص المعروفة . لكن الشاعر أضفى عليها مغزى صوفياً جعلها تتخذ طابعاً مختلفاً ، وتعبّر عن معانيه الصوفية بصورة رائعة . وممن ذكر هذه القصة أبو الفرج بن الجوزي . قال : « زعموا أن أسداً وثعلباً وذئباً اصطحبوا فخرجوا يتصيدون ، فصادوا حماراً وظبياً وأرنباً . فقال الأسد للذئب : اقسم بيننا صيدنا . فقال : الأمر أبين من ذلك ، الحمار لك ، والأرنب

لأبي معاوية ، والظبي لي . فخبطه الأسد فأطاح رأسه . ثم أقبل على الثعلب، وقال : قاتله الله ! ما أجهله بالقسمة ! هات أنت يا أبا معاوية : فقال الثعلب : يا أبا الحارث ! الأمر أوضح من ذلك : الحمار لغدائك ، والظبي لعشائك ، والأرنب فيما بين ذلك . فقال الأسد : قاتلك الله ! ما أقضاك ! من علمك هذه الأقضية ؟ قال : رأس الذئب الطائح عن جثته » .

والشاعر قد صرف هذه القصة عن معناها الظاهر وأضفى عليها مغزى صوفياً .

(٣٠٢٩) الاستقامة لا تقف عند حدّ الأعمال ، ولكن لا بدّ من نقاء الفكر ، وصفاء الروح .

(٣٠٣٥) كيف يظن الإنسان بالله ظنّ السوء مع أنه هو الذي وهبه الصورة والفكر ؟

(٣٠٤٠) الجاهل ينخدع بكثرة ماله فيظن ذلك من علامات رضى الله عنه .

(٣٠٥٠ — ٣٠٥١) في هذين البيتين يتضح مغزى القصة. فوجود الإنسان يجب أن ينتفي أمام الخالق .

(٣٠٥٢) السبيل الوحيد للبقاء هو الفنـاء في الله . فمن فني في الله تحقق له البقاء . وقد قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » . فليس لأحد سبيل إلى البقاء إلا إذا كان ضمن هذا الوجه .

(٣٠٥٣) من تحقق له الفناء في الله فهو ليس من الهالكين ، لأنه يصبح حياً باقياً خالداً .

(٣٠٥٤) قوله : « فإنه قد أصبح ضمن إلا .. » معناه : « أصبح ممن ينطبق عليهم الاستثناء من الهلاك ، الذي أخبر بـه الله في قوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، وبهذا يخلص من الهلاك ، ويتحقق له البقـاء » .

(٣٠٥٥) « أما كل من يقصد باب الله ، بدون أن يتخلى عن اعتداده بذاته

الإنسانية ، فإن هذا الاعتداد لا يجديه نفعاً، لأن مثله لا يقبل ، فيكون جزاؤه الفناء المحقق .

(٣٠٦٣) هذه القصة تدور حول معنى القول الصوفي المشهور :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

(٣٠٦٤) من سعى إلى الاتحاد وهو محتفظ بأنانيته ، مؤكد ذاتيته ، شبيه بخيط مزدوج يراد إدخاله في سم الخياط . العشق وحده هو سبيل الاتحاد ، وليس العشق مصحوباً بالأنانية .

(٣٠٦٥) في البيت اقتباس من قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » . (الأعراف ٧ : ٤٠) .

(٣٠٦٦) القوة الحسية الطاغية ، التي تحجب الروح ، لا يمكن التخلص من طغيانها بدون الرياضات ، والسعي الحثيث لإخضاعها ، وبذلك يتوصل الإنسان للسيطرة عليها .

(٣٠٦٩) إشارة إلى معجزات جرت على يد المسيح، بقدرة الله، فاستعظمها الناس مع أنها ليست سوى أُمور يسيرة بالقياس إلى إمكانات القدرة الإلهية .وقد جاء في القرآن الكريم أن عيسى قال : « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » . (آل عمران ، ٣ : ٤٩) .

(٣٠٧٨ – ٣٠٨٠) إن ارتباط روحين مؤمنين يجعل منهما وحدة متماسكة، فالكاف والنون (الحرفان اللذان يتكون منهما الفعل الذي ينطق به الخالق عند إرادة الخلق) ، حينما يرتبطان يصبحان وحدة ، يكون أثرها انتقال الكائنات من عالم الإمكان إلى عالم الوجود.فكأن هذه الكلمة وهق جذب هذه الكائنات وأدخلها عالم الخطوب ،وهو العالم الدنيوي الحافل بمختلف أنواع الصراع . وهذا الوهق المعنوي الذي يجذب المخلوقات من عالم الإمكان إلى عالم الوجود شبيه بالوهق الحسي (وهو عبارة عن حبل مزدوج يطرح على الحيوان الشارد ،

للإمساك به) . ومع أن الوهق حبل مزدوج إلا أنه يؤدي عملاً واحداً .

(٣٠٨٧ — ٣٠٩٠) انتقل الشاعر هنا إلى تنبيه مستمعيه إلى وجوب اليقظة لاستماع أقواله والتنبه لمعانيها. وقد شبه اللسان الناطق بالحكمة الروحية بحجر الطاحون . فهذا اللسان ينطق بحكمة أوحى بها العقل الكلي . ومـاء النهر هنا رمز للعقل الكلي . فهذا الماء يدخل في الطاحون ليحركه وكذلك العقل الكلي يُنطق اللسان. ودوران الطاحون يهيء الغذاء الحسي، أما نطق اللسان بالحكمة فهو وسيلة لإمداد الناس بغـذاء روحي . وكما أن مرور ماء النهر بالطاحون لمصلحة خاصة ، هي إدارة الطاحون وإنتاج الدقيق ، فكذلك مرور الحكمة العلوية على اللسان، الهدف منه تيسير هذه الحكمة الروحية لمن لا سبيل لهم إليها. ولولا هذه المصلحة لكان الطبيعي أن يجري ماء النهر في النهر لا في الطاحون ، وأن تظل الحكمة الروحية كامنة في العقل الكلي ، لا جارية على اللسان . فإذا لم يتنبه أصحاب الطاحون لإدارته ، بل غفلوا عنه، فلا سبيل لمرور ماء النهر فيه . وكذلك إذا لم يلتمس الناس الحكمة الروحية من المرشدين ، ولم يوجد من يستمع إليها ، فلا سبيل إلى جريانهـا على اللسان . لقد أُجريت على اللسان من أجل الحريصين عليها من طلابها ، وإلا فإنها تبقى في مجراها الأصلي حيث كنوز الحكمة الروحية المكنونة ، في عالمها المنفصل عن عالم الحس .

(٣٠٩١) حديث الحكمة الروحية ، له عالمه الروحي المجرد ، بما يشيع فيه من جمال وبهـاء ، وهناك ينطلق هذا الحديث من غير أن تكبله الحروف والأصوات ، ويُستوعَبُ بدون حاجة إلى شرح ولا تكرار ، لأنه هناك لغة مفهومة واضحة .

(٣٠٩٢ — ٣٠٩٣) « يا إلهي » أظهر للروح ذلك العالم الروحي الذي احتجب عنها أثناء مقامها في هذه الدنيا . فهنـاك الكلام المطلق ، الذي تجرّد من الحرف والصوت . فالروح حين تشهد مباهج هذا العالم لن تتوانى عن السعي إلى رحابه .

(٣٠٩٤) عالم الروح ممتد واسع الأرجاء ، ومنه يغتذي خيالنـا ، حين ينطلق إلى رحابه ، وهناك يخلص من قيود الواقع الحسي . وكذلك يُستمد منه

وجودنا ، لأن الروح صادرة عنه ، وهي التي تشكل وجودنا الحقيقي .

(٣٠٩٥) الخيال أضيق من عالم الروح . ومن جرّاء هذا الضيق الذي يعانيه يكون الخيال مسبباً للهموم والأحزان . وضيق الخيال ناشىء من أن الواقع المحسوس يقيده بصوره وتجاربه فيحد من انطلاقه .

(٣٠٩٦) عالم الوجود الممكن أضيق من عالم الغيب المجرّد . ولهذا يعتري النقص بعض إمكاناته . ويكون ما يتحقق منه في الوجود المحسوس أقل مثالية مما يمكن أن يتصور .

(٣٠٩٧) أما الوجود المادي المحسوس فهو أضيق من الوجود الممكن . وهو – في نظر الشاعر – لا يعدو أن يكون سجناً ضيقاً . وقد صور الشاعر هذه المعاني بأسلوب رائع في الأبيات التالية :

لو أن إنساناً قال لجنين في الرحم : « إن خارج هذا المكان عالماً بديع التنسيق :

أرضاً بديعة ذات عرض وطول ، حافلة بالنعم والكثير من المآكل !

وجبالاً وبحاراً وسهولاً ، وبساتين عطرة وحدائق ، وحقولاً حافلة بالغراس !

وسماء عالية مشرقة بالضياء ، وشمساً وقمراً وكثيراً من النجوم !

عجائبها لا يحيط بها الوصف . فلماذا أنت في هذه الظلمة أسيرُ المحن ؟

تحتسي الدماء وقد صُلبت في هذا المكان الضيق ، يرهقك الحبس والنجس والعناء ! »

لكان الجنين – بحكم طبيعته – منكراً هذا القول ، معرضاً عن هذا الحديث ، كافراً به .

فعنده أن هذا الحديث محال وخداع وغرور ، ذلك لأن الأعمى لا خيال له !

وفي عالمنا هذا حين يتحدث العارفون إلى عامة الخلق قائلين :

إن هذا العالم بئر شديد الظلمة والضيق ، ولكن خارجه عالماً خلا من اللون والرائحة .
لا يصغي إليهم الجهلاء . فإن الطمع يقف أمامهم سداً منيعاً هائلاً ، كالجنين الذي كان حرصه على الدماء التي يغتذي بها في مقره الخسيس ، حجاباً له عن إدراك العالم الخارجي ، لأنه لم يعرف غذاء سوى الدماء ».
(المثنوي ، ج ٣ ، ٥٣ — ٦٨) .

(٣١٠٠) إن أمر « كن » لا يعدو أن يكون فعلاً ، من الناحية اللفظية ، لكنه — مع ذلك — يعني قدرة الله الخالقة . فهذا الفعل المكون من حرفين وسع من المعنى مالا يحد .

(٣١٢٠) إشارة إلى الحديث الذي ينسب الى الرسول قوله : « أُمتي هذه أُمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة » .

(٣١٢٤) « إنني في الظاهر لا أختلف عن أي إنسان فانٍ ، لكني أستند إلى قوة الله الذي اختارني وبعثني رسولاً » .

(٣١٢٥) يشير الشاعر هنا إلى مفهوم الحديث القدسي الذي يروي عن الخالق تعالى قوله : « ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء فرائضي ، وإن عبدي ليتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع ، وبصره الذي به يبصر ، ويده التي بها يبطش ، ورجله التي بها يمشي ، ولسانه الذي به ينطق ، وفؤاده الذي به يعقل » . وهو حديث كثير الورود في كتب الصوفية ويروى بأسانيد مختلفة . انظر : (الترمذي : الرياضة ، ص ١١٠) — (السراج : اللمع ص ٤٦٣) — (ابن عربي ، فصوص ، ص ١٠٧) . وقد سبق أن ذكرنا هذا الحديث بصورة تختلف قليلاً عن هذه الرواية . (انظر نص الترجمة ، رقم ١٩٣٧ وحاشيته) .

(٣١٢٦) « وما دمت قد تخليت عن ذاتي ، وأصبحت ناطقاً بأمر الله فكل من حاربني فقد حارب الله » .

(٣١٢٧) إن قوة إلهيّة قد احتجبت وراء هذا المظهر البشري المتواضع .

(٣١٢٨) لكي يستطيع الإنسان أن يدرك رسالات الله ، لابدّ له أن يصدق جملة هذه الرسالات . فهذا التصديق مقدّمة لابدّ منها لسماع كلمات الله .

(٣١٢٩) ولو لم يكن نوح منطوياً على قوة هائلة ، أيده بها الخالق ، لما استطاع بدعائه أن يغرق العالم بطوفانه .

(٣١٣١) لما لم يراع له الناس ما هو أهل له من الطاعة ، سلط عليهم الطوفان الذي أغرقهم . « والعشر » المذكور في البيت هو الخراج الذي كان يُجبى لبيت المال على نوع من الأراضي الزراعية . وكذلك على الواردات من بضاعة غير المسلمين . ويرمز بالعشر هنا إلى ما كان لنوح من حق على الناس .

(٣١٣٧) « تخلوا في حضرته عن شهوات الحس ، ودعوا طباع الثعالب كما صنع ذلك الثعلب المذكور في القصة السالفة » .

(٣١٤٦) الإنسان الكامل الذي صفا قلبه من الصور الحسية ، وتوجه بروحه إلى عالم الغيب ، يصبح وكأنه مرآة تنعكس عليها صور الغيب .

(٣١٤٨) ذلك الإنسان الكامل نافذ البصيرة ، وهو ببصيرته النافذة قادر على أن يميز الزهد الصادق من الرياء .

(٣١٥١) القلب موطن الشجاعة ، وهو في الجانب الأيسر من الصدر ، لهذا كان الملوك يوقفون الأبطال عن يسارهم .

(٣١٥٣) قوله : « ذلك لأنهم مرآة الروح ، بل (هم لها) خير من المرآة » ، يعني أن الصوفية لا يقف أثرهم عند بيان حقيقة الروح ، بل هم يعملون على صقلها .

(٣١٥٤) « الصورة البكر » هي الوحي الأصيل الذي يهبط على قلوبهم .

(٣١٥٥) كلّ جميل الروح صافيها يعشق من كان مثله جميل الروح ، فيكون كلّ منهما مرآة يرى صاحبه فيها حقيقة حاله .

(٣١٥٦) هذا التعاطف والتلاقي بين العارفين ناشىء من أن كلا منهما جميل الروح ، ينشد عند صاحبه مرآة لحقيقة حاله ، كما أنه يشهد من جمال روح صاحبه ما يزيد روحه صفاء وقربا من الله .

(٣١٦١) مهما آذيت الجسد ، فإن الروح يبقى متعاليـــاً مستعصياً على الأذى .

(٣١٦٣–٣١٦٤) إن ما يصيب الظاهر من الأذى لا يغير من الحقيقة والجوهر .

(٣١٦٥) فحبّة القمح التي توضع تحت التراب ، ليس يضيرها هذا ، بل إنها تنمو وتصنع من هذا التراب سنابل .

(٣١٦٦–٣١٦٧) وتُطحن حبات القمح فتزيد بذلك قيمتها ، إذ تغدو خبزاً يغذي الكائن الحيّ ، ثم يمضغ الخبز ، فلا يقضي ذلك على جوهره بل يزداد هذا الجوهر وضوحاً ، إذ يتحول إلى طاقة وحياة في جسم الكائن الحي .

(٣١٦٨) والروح لو تلاشت في العشق ، وغُرست في رحابه ، كما تغرس حبة القمح في الأرض ، فإنها تنمو وتزدهر وتصبح كالزرع اليانع الذي يعجب الزراع نباته .

(٣١٧٢) اتخذ الشاعر من الهدايا التي يحملهـــا الناس إلى الأصدقاء والأحباء عندمـــا يتوجهون لزيارتهم ، رمزاً للعمل الصالح الذي يحمله المؤمن معه ، ويلاقي به ربه يوم الحشر .

(٣١٧٣) « لقد جئتمونا مجرّدين من الأعمال الصالحة ، ولم تتزودوا للقاء يومكم هذا ، فكأنكم لم تنتفعوا بشيء من حياتكم الدنيوية ، بـــل خرجتم منها كما دخلتموها ، وجئتمونا على هذا النحو » .

(٣١٧٥) أم أن هذا التراخي من جانبكم ، في القيام بصالح الأعمال

كان نتيجة الشك في البعث وملاقاة الله » .

(٣١٧٨) إن حياتك ثروة في يديـــك ، فلا تنفقها كلها في النوم والطعام ، بل اقتصد من هذه الحياة ما تنفق في صالح الأعمال ، فيكون هذا كالهدية ، تحملها إلى الله يوم ملاقاته .

(٣١٨٠) « لا تكثر من الانغماس في خطوب الحياة المادية ، واسكن إلى حياة التأمل والتفكر حتى توهب الحواس المبصرة » . والجنين في الرحم يكون في الأشهر الأولى ساكنا ، فإذا ما بدأ في الحركة كان ذلك دليلاً على اكتسابه الحواس .

(٣١٨١) أنظر التعليق على البيت ٣٠٩٧ .

(٣١٨٢) وردت عبارة : « أرض الله واسعة » في عدد من آيات القرآن الكريم. فمما ورد من ذلك قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » . (النساء ، ٤ : ٩٧) . والذين قالوا « أرض الله واسعة » ، في هذه الآية هم الملائكة . ولعل الشاعر يعني أن الملائكة أشاروا بقـــولهم « أرض الله واسعة » إلى رحـــاب الله الواسعة التي يدخلهـا الأولياء .

ووردت عبارة « أرض الله واسعة » في قوله تعالى : « قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (الزمر ، ٣٩ : ١٠) .

والقول هنا جاء ضمن خطاب الله لعباده . وتأويل المعنى على طريقة الصوفية هو أن « الأرض الواسعة » ، تعني رحاب العالم الروحي الذي لاتحده الحدود، كما هو الحال بالنسبة للعالم الحسي .

(٣١٨٤) المتيقظ لأحوال العالم الحسي حامل أعباء حواسه ، لأن كل جارحة من جوارحه متعلقة بمستلزمات هذا العالم .

(٣١٨٥) يقول الشاعر في هذا البيت إن النوم يمثّل لونا من تذوّق

حياة الروح ، حيث تفلت الأرواح من أسر الجسد ساعة النوم . ولهذا فإن النائم لا يشعر بالآلام التي ترهق حواسه في ساعات اليقظة . يقول الشاعر في أبيات أخرى :

« لقد بقيت آلاف السنين أحلق هنا وهناك — بدون مشيئة — مثل ذرات الهواء .

فإن كنت قد نسيت هذا الزمن وتلك الحال ، فإن رحلتي ساعة النوم تعود بها إلى ذاكرتي .

ففي ساعة النوم أنطلق من هذا الصليب ذي الشعب الأربع [1] ، وأقفز من هذا القيد إلى سهوب الروح الفساح » . (المثنوي ج ٦ ، ٢٢٠ — ٢٢٢) .

وقد عبر الغزالي عن مثل هذا المعنى بقوله : « وأما انفتاح باب (القلب) إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علماً يقيناً بالتأمل من عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ٢١) .

(٣١٨٨) هؤلاء الأولياء تخلّصوا من إرادتهم تخلصاً كاملاً في جميع أفعالهم ، فلم يبق لهم من محرّك سوى إرادة الله .

(٣١٩٠—٣١٩١) أصبح هؤلاء الأولياء — لفناء إرادتهم في إرادة الله — مجرّد صدى لتلك الإرادة . إن الإرادة الإلهية تتجلى فيهم ، فلا شأن لهم بما يصدر عنهم مما قد يسرّك أو يسوءك ، شأنهم في ذلك شأن صدى الصوت المنعكس فوق الجبل ، يتردّد على هذا النحو أو ذاك من غير أن يكون للجبل دخل فيما يحمله الصدى من المعنى .

---

(١) الصليب ذو الشعب الأربع هو وجود الإنسان الحسي ، ويتمثل هذا في جسده المكون من العناصر الأربعة .

(٣١٩٥) « لو أنني قدمت إليك قلبي وروحي لما كان تقديمها إليك بالأمر الكبير ، فهما لا يعدّان شيئاً إذا قيسا بجمال قلبك وروحك » .

(٣٢٠١) الوجود المقصود هنا هو الوجود الحقّ . ومرآة هذا الوجود ، التي تجلوه وتظهره ، هي العدم . فعليك أن تفنى عن ذاتك الحسية لتصبح مجلى للوجود الحق . ولتكن الهدية التي تتزود بها للقاء الحقّ ، هي أن تلقاه وقد نفيت من روحك كل إحساس بالذاتية .

(٣٢٠٢–٣٢١٢) يقدم الشاعر هنا نماذج من المتناقضات والأضداد التي يظهر بعضها بعضاً . والفكرة الأساسية التي تدور حولها مظاهر التضادّ – في هذه الأبيات – النقص والكمال . وينطلق الشاعر من هذا إلى القول بأن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ الكمال إلا اذا عرف جوانب النقص في ذاته ، وعمل على التخلص منها . وكل من أدرك بحق جوانب النقص ، فإنه لا محالة مندفع في سعيه ، باذل جهده لاستكمال نفسه .

(٣٢١٣–٣٢١٥) من توهم بنفسه الكمال – من غير أن يبذل أي جهد لتحقيق ذلك – فإن هذا يقعده عن السعي نحو خالقه . إن مثل هذا يكون مصاباً بالغرور ، وهذا أكبر علة تحلّ بالروح . وللتخلص من هذه العلة لا بد من الرياضات الكثيرة وإدامة التفكر والحزن ، وغسل العينين والقلب بدموع الندم .

(٣٢٢٣–٣٢٢٤) كثيراً ما ينشغل المرء بماله وبأسبابه الدنيوية عن تأمل حقيقة روحه التي تكون معتلة مريضة . فالمال والمتاع الدنيوي حجب عنه علته الروحية ، كما يحجب الذباب جرحاً عن بصر صاحبه ، فيتوارى قبح الجرح ، لكنه يزداد سوءاً بتراكم الذباب عليه . ومثل هذا العليل بحاجة إلى طبيب روحي هو المرشد الكامل .

(٣٢٢٨–٣٢٣٩) قصّ الشاعر في هذه الأبيات حكاية كاتب الوحي

الذي ارتد لغروره . وقد جعل من هذه الحكاية منطلقاً إلى الحديث عن الغرور وبيان أضراره العظيمة .

ويروى أن كاتب الوحي الذي ارتدّ هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح . وقد ذكر ذلك البيضاوي في تفسيره لسورة المؤمنين . وتذهب الرواية إلى أن النبي كان يملي آيات من سورة المؤمنين ، هي قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر » . (المؤمنون ، ٢٣ : ١٢ – ١٤) .

فنطق كاتب الوحي من تلقاء نفسه ، قبل إملاء النبي : « فتبارك الله أحسن الخالقين » . فقال النبي : « اكتب ، هكذا نزلت » . فكان أن تولاه الغرور ، وارتد ، وعاد إلى قريش يؤازرها في حرب الرسول . وكان يقول : « إني كنت أصرف محمداً حيث أريد » .

ويروى أن النبي – حين دخل مكة – أمر بقتل عبد الله بن سعد هذا ، ولكن عثمان بن عفان شفع له ، وكان عثمان أخاً له في الرضاعة . والمعروف أن عبد الله بن سعد قد علا أمره في الإسلام ، وأصبح حاكماً لمصر في عهد الخليفة عثمان .

يقول البلاذري : « وكان محمد بن أبي بكر بن قحافة ومحمد بن أبي حذيفة خرجا إلى مصر عام مخرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها ، فأظهر محمد بن أبي حذيفة عيب عثمان والطعن عليه ، وقال : استعمل عثمان رجلاً أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح ونزل القرآن بكفره حين قال : « سأنزل مثل ما أنزل الله » . (أنساب الأشراف ، ج ٥ ص ٤٩ ، ٥٠ ، القدس ، ١٩٣٦) .

والقصة كما رواها جلال الدين لم يُذكر بها اسم كاتب الوحي المرتد . وذُكر أن هذا الكاتب المرتد قد قُتل . ولعل الشاعر لم يكن يريد أن يذكر القصة بصورتها التاريخية . أو لعله اطلع على بعض الروايات المتأخرة

التي ذكرت أن كاتب الوحي المرتد قد قتل بعد فتح مكة . ومن أمثلة ذلك ما ذكره محمد بن طيفور السجاوندي (من رجـــال القرن السادس الهجري) في تفسيره المسمى « عين المعاني في تفسير السبع المثاني » . وقد لخّص نيكولسون ما كتبه شراح المثنوي عن ذلك في تعليقاته على هذه القصة .

(٣٢٤٠) تصوير رائع للغرور ، فهو القيد الثقيل الذي لا يُرى – ومع ذلك – يكون في سيطرته على صاحبه ، وتقييده لأعماله ، أكبر أثراً من قيد حديدي زنته مائة منّ .

(٣٢٥١ – ٣٢٥٢) يبيّن الشاعر الصعوبات التي تواجه من يحاول أن يتخطى عقبات الحسّ ، ويتغلب على نوازع الكبر والغرور . ولكنه يقول إنه يخشى الإفاضة في شرح هذه الصعوبات ، خشية أن يؤدي ذلك إلى إيقاع اليأس بالنفوس . ثم لا يلبث أن ينتهي إلى التفاؤل ، فيؤكد أن باب الأمل مفتوح ، فعلى الإنسان أن يكون دائم البشر بهذا الأمل ، وأن يلتجىء إلى الله ، فهو المغيث لكل من لجأ إليه .

(٣٢٥٥) « يمكنك أن تقتبس الحكمة من أهـــل الكمال الروحي . فهؤلاء لا يبخلون على أحد بالإرشاد . ولكن عليك أن تكون يقظاً حتى لا تصاب بالغرور ، وتحسب أن هذه الحكمة نابعة من نفسك ، وتنسى أنك قبستها من سواك » .

(٣٢٧٣ – ٣٢٧٤) إن أشعة روح المرشد الكامل تشرق على أرواح المريدين ، كما يشرق الروح على الجسد ، فيبعث فيه الحياة . فإذا افترقت أشعة أرواح المرشدين عن أرواح المريدين أصبحت هذه كأنها أجساد خلت من الروح ، وفارقتها الحياة .

(٣٢٧٧) اتخذ الشاعر من الآيات التي أشار إليها دليلاً على إمكان نطق الجماد .

(٣٢٨١) ينسب إلى الفلاسفة أنهم يقولون إن المخاوف والأحزان

تلقي في نفوس الناس بكثير من الأوهام ، فيعتقدون بوجود كائنات لا وجود لها .

(٣٢٨٢) إن خياله الجاحد قد سيطر عليه ، وجعله غير قادر على إدراك الحقائق .

(٣٣٠٨) « النفس الناطقة » هي نفس النبي المرسل .

(٣٣٠٩) إن البشر الذين خرجوا عن حدود الإنسانية ، أصبحوا كالحيوانات المتوحشة . وعلى هذا الأساس جاز قتلهم . وقد زاد الشاعر هذا المعنى إيضاحاً في البيتين (٣٣١٩ - ٣٣٢٠) ، وفيهما قال : « إن دماء الكفار أصبحت- كدماء الوحوش- مباحة للسهام والرماح...وذلك لأنهم مستوحشون نافرون من العقل الجليل » .

(٣٣١٥) في هذا البيت إشارة إلى حكم الشريعة ، الذي يحرّم أكل الحمار الأهلي ، ويجيز أكل حمار الوحش .

(٣٣٢١-٣٣٥٤) قصّ الشاعر هنا قصة هاروت وماروت ، واتخذ منها إطاراً لبث آرائه عن مضارّ الغرور ، والاعتداد بالذات . وخلاصة هذه القصة ، كما رواها الثعلبي ، « أن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة ، وذلك في زمن إدريس النبي ، عيّروهم بذلك وأنكروا عليهم ، وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم ، فهم يعصونك . فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لفعلتم مثلما فعلوا . قالوا سبحانك ربنا ، ما كان ينبغي لنا أن نعصيك . قال الله تعالى : « اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض . فاختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم .. فركّب فيهما الشهوة التي ركّبها في بني آدم ، وأهبطهما إلى الأرض وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحقّ ، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا وشرب الخمر .. فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما ، فإذا ما أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قتادة : فما مرّ عليهما شهر حتى افتتنا ، وذلك أنه

اختصم إليهما ذات يوم الزهرة ، وكانت من أجمل النساء .. فلما رأياهـا أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك . فقالت لا ، إلا أن تعبدا مـا أعبد ، وتصلـّيا لهذا الصنم ، وتقتلا النفس ، وتشربا الخمر . فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء ، فإن الله قد نهى عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر ، وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها ، فراوداها عن نفسها فأبت ، وعرضت عليهما ما قالت بالأمس . فقالوا : الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر . فشربا الخمر فانتشيا ، ووقعا بالمرأة فزنيا بها ، فرآهما إنسان فقتلاه .. وسجدا للصنم ،فمسخ الله الزهرة كوكباً ..» (بتصرف عن : قصص الأنبياء ، ص ٥١) .

(٣٣٢٥) إن الجبروت الإلهي يحطم الطغاة والمستبدين ، على حين هو يرحم المتواضعين ، المدركين لضعفهم البشري أمام خالقهم . بل إن الله يزيد هؤلاء المتواضعين قوة وتأييداً . ومثل هؤلاء الطغاة كمثل الأشجار العاتية ، تعاند الريح ، فتقتلعها الريح من أصولها . أما المتواضعون فهم كالأعشاب ، تنحني للرياح فتزيدها هذه نضرة وازدهاراً .

(٣٣٣٠) كل هذا الكون بمظاهره المتعددة ، لا يعد شيئاً مذكوراً أمـــام قدرة الله . وهذه القدرة هي التي جعلت الفلك يبدو منقلبـاً منكـّساً .

(٣٣٣١) اجعل من هذا الفلك الدوار مثالاً تقيس عليه حالك . فهذا الفلك يديره العقل المدبر ، الذي خطّ مقادير هذا العالم .

(٣٣٣٢) وهكذا يدير الروح الجسم . وقد احتجب الروح في الجسم كما يحتجب المحارب وراء المجنّ ، على حين أنه يديره إلى حيث يشاء .

(٣٣٣٣) ولكن هذه الروح الشبيهة بالريح المتحركة ، من ذا الذي يديرها ؟ إن طبيعتها التي أضفاها عليها خالقها هي التي تجعلها متحركة ، ومع ذلك ، فحركتها مقتبسة من الخالق ، محرّك الأرواح . فهي كالدولاب

في مجرى النهر ، يكون دائم الحركة لاستدارته من ناحية ، ولجريان ماء النهر من ناحية أخرى .

(٣٣٣٥) إن الروح هي التي تنطق اللسان بما تشاء ، وتحرك الجسم كيفما أرادت . فحيناً تجعله ميالاً إلى الوئام ، وحيناً تجعله مندفعاً نحو الشقاق والخصام .

(٣٣٣٦-٣٣٣٧) عادٌ هم قوم هود . وقد أهلكهم الله بريح هبّت عليهم . لكن هذه الريح لم تؤذ هوداً ولا من آمنوا (انظر المثنوي ، جـ ١ ، رقم ٨٥٥، ٨٥٦) . ولعل الشاعر قد استخدم الريح هنا رمزاً لأعمال البشر . فمنهـا ما كانت حركتها للخير والسداد ، ومنها مـا كانت حركتها للشر والعنـاد .

(٣٣٣٨) شيخ الدين هو العارف الكامل . وقد حاول بعض الشراح أن يذكر شخصاً معيناً على أنه المقصود من قول الشاعر « شيخ الدين » . وممن ذكر في هذا الصدد صدر الدين القونوي ، الذي كان تلميذاً لمحيي الدين ابن عربي . وكان صدر الدين صديقاً لجلال الدين، وتوفي بقونيه في عام ٦٧٣ هـ ، بعد جلال الدين بفترة وجيزة . وتعيين شخص معين مما لا يستلزمه شرح هذا البيت ، لأنه لا ينطوي على رأي خاص .

(٣٣٣٩ — ٣٣٤٠) في هذين البيتين تعبير عن وحدة الوجود ، حيث تشبّه الذات الإلهية ببحر فياض ، وكل مظاهر هذا الوجود لا تعدو أن تكون قشاً سابحاً في هذا البحر . فكل حركة لهذا القش مصدرها البحر ، أما القش فليست له حركة ذاتية .

(٣٣٤٨) وردت في بعض نسخ المثنوي روايتان هما « نفس گبررا » أو « نفس گبرما » بـدلاً من « نفس كبريا » . ومعناهما « النفس الكافرة » أو « نفسنا الكافرة » . وعلى هذا تكون ترجمة البيت : « وهو يسمي هذا الغرور حمية دينية ، لكنه لا يبصر في ذاته النفس الكافرة » .

(٣٣٥٠) للشطر الثاني من البيت رواية نصّها :

« درسيه كاران مغفّل منگريد » والمعنى : « فلا تنظروا بغفلة إلى هؤلاء الذين اسودّت فعالهم » . وفي هذا دعوة للملائكة — الذين استقبحوا أعمال البشر — إلى البحث عن العلل الكامنة وراء ارتكاب أهل الدنيا للمعاصي والآثام . وهذا ما يبيّنه الشاعر في البيت التالي . (انظر رقم ٣٣٥١ من الترجمة) .

(٣٣٧٩) دعا الله إلى كظم الغيظ في قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين ». (آل عمران ، ٣ : ١٣٣ — ١٣٤) .

(٣٣٩٦) كان إبليس أول من استخدم القيـــاس ، حين كانت الحقائق واضحة ، تجلوها أنوار الله ، المنبثقة من وحيه ، وصريح أمره .

(٣٤٠٢) إشارة إلى إسلام عكرمه بن أبي جهل (وقد مات شهيداً في إحدى وقائع الشام) ، وإلى ضلال ابن نوح ، وهلاكه في ضلاله وكفره . وقد ذكر القرآن قصته في قوله تعالى، « ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » . (هود ، ١١ : ٤٢ — ٤٣) .

(٣٤٠٤) إن العالم الورع يستخدم القياس حين لا يكون هناك أمر إلهي صريح .

(٣٤٠٧—٣٤٠٨) إنك قد تستمع إلى وحي إلهي ، فتحفظ ظاهر لفظه من غير أن تدرك كنهه وجوهره . وعلى أساس هذا الإدراك الظـــاهري تنشىء القياسات ، التي لا صلة لها بجوهر الوحي ، بل هي قد انبثقت من خيالك المحض » .

(٣٤١٠) لقد تعلمت من الوحي الإلهي ظاهر لفظه ، ولم تفطن إلى حقيقته ، فدفعك هذا إلى أن تلتمس في القياس وسيلة لإدراك ما استغلق

عليك فهمه » .

(٣٤١١) القياس الفاسد يؤذي . وقصة الأصم الذي ذهب ليعود المريض مثال يوضح ذلك .

(٣٤١٢) يشير الشاعر إلى قصة كاتب الوحي الذي ضلّ . (انظر الأبيات ٣٢٢٨ – ٣٢٣٩ ، وتعليقاتها) .

(٣٤٢٢) « إننا سوف نعدّ لأهل الأرض نظاماً سماوياً ، ثم ننزل إلى الأرض لنقرّه فيها ، ونرسي بذلك قواعد الأمن بين الناس » .

(٣٤٢٥) لقد تجلى خطأ هاروت وماروت حينما سعيا لإقرار ما يليق بالملائكة بين أبناء العالم الدنيوي . فقد كان هذا من القياس الفاسد ، فكانت نتيجته وبالا عليها . ولعل الشاعر يهدف من وراء ذلك إلى القول بأن المعرفة الروحية يجب ألا يقصد بها الجهلاء ، الذين لم يعدّوا لتلقيها ، ولم يصبحوا أهلا لتذوقها . والعارف الذي يفعل ذلك يكون شبيها بهذين الملكين اللذين قاسا أحوال أهل الأرض بأحوالها .

(٣٤٢٦) ذكر نيكولسون في تعليقه نص بيت سنائي ، الذي أشار إليه جلال الدين ، وفيه يقول :

بر مدار از مقام مستي پى سرهمانجا بنه كه خوردي مي

(لا تنقل قدمك من مكان سكرك ، وضع رأسك في المكان الذي احتسيت به الخمر) .

والشاعر يوجه هذه النصيحة إلى الصوفية ، الذين يغلبهم الوجد ، فيجري على ألسنتهم من الشطح ما يكون مصدراً لسخرية الناس بهم ، واتهامهم بالمروق ، وتعريضهم للأذى والاضطهاد » .

(٣٤٤١–٣٤٤٢) الشاعر يشبه الناس – الذين أوهمهم الجهل والغرور أنهم يسلكون سبيل اليقظة الروحية – بأطفال يمسك كل منهم بذيل الآخر ، ويتوهمون بذلك أنهم يمتطون الجياد . ومثل هذا الظن لا يغني من الحق شيئاً ،

ولا يمكن أن يوصل إلى أي هدف .

(٣٤٤٣) إن الشمس هي التي تجلو الظلام على أكمل وجـــه ، وكذلك الكشف الروحي هو الذي يزيل الظنون ويجلوها .

(٣٤٤٤) حين تتكشف لكم الحقائق سوف تعلمون أنكم لم تكونوا منطلقين نحو عالم الروح ، ويتضح لكم أنكم كنتم ملازمين لعـــالم المادة وقد علقت به أقدامكم ، على حين أنكم توهمتم الانطلاق – من غير سعي – نحو عالم الروح .

(٣٤٤٥) « الوهم والتفكير العقلي المجرد والحسّ وما يرتبط به من إدراك ، كل أولئك وسائل لا توصل إلى اليقين ، فأنتم باعتمادكم عليها في السعي لإدراك اليقين ، شبيهون بأطفال امتطوا أعواد الغاب ، وهـــذه لا تنقلهم إلى أي مكان » .

(٣٤٥٠) إذا أحسن الإنسان استخدام علمه الدنيوي ، وأخلص في نفع النـــاس به ، متجرداً عن الهوى ، وهبه الله العلم اليقيني الكامل .

وفي الإحياء حديث يعبر عن هذا المعنى ، يروي عن الرسول قوله : « من عمل بما علم ، ورّثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار » . (الغزالي : إحياء ، ج ٣ ، ص ٢٣) .

(٣٤٥١) من تجرّد في علمه من الهوى أصبح علمه الدنيوي سبيلاً إلى المعرفة الروحية .

(٣٤٥٣) وكيف السبيل إلى الخلاص من الهوى بدون المحبة الإلهية ؟ إنه ليس يكفي المرء أن يقنع بمعرفة أسماء الله وصفاته ، بل عليه أن يسلك سبيل المحبة الإلهية .

(٣٤٥٤) الصفات والأسماء مخبرة عن الله ، وهي تبعث في الإنسان الخيال الذي يجعل الإنسان متعلقاً بخالقه ، وعلى الإنسان حينذاك أن يتخذ من التعلق بالخالق

ومحبته سبيله إلى الوصال .

(٣٤٥٦) لا تقف عند حدّ الاسم . بل اجعل من معرفة الاسم مجرّد بداية تنطلق منها إلى معرفة الحقيقة والجوهر .

(٣٤٥٧) يقول الغزالي : « ومهما أقبل (القلب) على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ... كما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس ، لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ٢١) .

(٣٤٥٨) إذا أراد الإنسان أن ينطلق من العلم الحسي المحدود ، إلى العلم الروحي الذي لا حدود له ، فلا بد له أن يكون قادراً على الخلاص من الذاتية . ويتمثل ذلك في قطع روابطه بما يكدر صفاء قلبه من علائق الدنيا وهمومها ومغرياتها .

(٣٤٦٠–٣٤٦١) يقول الغزالي : « فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، فمن كان الله ، كان الله له » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٩) .

(٣٤٦٤) يقول الغزالي : « فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنّفه المصنّفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقويم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٩) .

(٣٤٦٦) القصة التي يذكرها الشاعر في الأبيات التالية ، وردت في كتاب الإحياء للغزالي . وقد ذكرها لبيان الفرق بين عمل العلماء ، وعمل الأولياء .

قال : « حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعـة النقش والصور ، فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صُفـّة لينقش أهل الصين منها جانباً ، وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ، ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر. ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه. فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً ، فعجب الملك من قولهم ، وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ . فقيل : وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم . ارفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل ، فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل . فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجـلائه وتزكيته وصفائه ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين . وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم ، وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم ». (الإحياء ، جـ ٣ ، ص٢٢)

ونلحظ أن الغزالي جعل الصينيين أهـل الصقل (وهم الصوفية) ، وجعل الروم أهل النقش والصبغ وهم العلماء . وعلى العكس من هـذا نرى جلال الدين يجعل الروم أهل الصقل ، ويجعل الصينيين أهل الصبغ والنقش . ولا غرابة في ذلك فجلال الدين رومي الوطن ، أحسن الظن بقومه ، الذين عاش بينهم . ونجد جلال الدين يأخذ جانب الروم من أول القصة حين يقول : « وتباحث الصينيون والروم ، فصمد الروم في هذا البحث » . (بيت ٣٤٦٩) .

(٣٤٧٦) إن الضوء يسقط على المرئيات فيظهر بألوان شتى . ولكنـا إذا جردناه من هذه المرئيات المتعددة ، ونظرنا إليه في منبعه ، وجدناه لوناً واحداً متجانساً .

(٣٤٨٥) قال الغزالي : « فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه . وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب . أمـا الآثار المحمودة التي ذكرناها ، فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ، ونوراً وضياء ، حتى يتلألأ

فيه جلية الحق ... وأما الآثار المذمومة فإنهـا مثل دخان مظلم ، يتصاعد إلى مرآة القلب ، ولا يزال يترا كم عليه مرة بعد أُخرى إلى أن يسوّد ويظلم، ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى » . (الإحياء ، جـ ٣ ، ص ١٢) . ويقول أيضاً : « فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها » . (المصدر السابق ، ص ١٣) .

(٣٤٨٦ — ٣٤٨٨) إن قلب موسى قد اتسع لصورة الغيب ، مع أن هذه الصورة لا يحيط بها الفلك ولا العرش ولا الكرسي .

وقد تناول الغزالي هذا الموضوع بقوله : « وفي الخبر : قال تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمـــائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع ... ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه ، فـيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جملتها فأكـــثر سعة من السموات والأرض ، لأن السموات والأرض عبارة عن عـــالم الملك والشهادة ، وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت — وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار ، المخصوصة بإدراك البصائر — فلا نهاية له » . (الإحياء جـ ٣ ، ص ١٥) .

(٣٤٨٩) القلب الذي صفا وأصبح خالياً من الشوائب يتجلى به الله كما تتجلى الصورة في المرآة ، والمرآة إذا تجلت بها الصورة ، أصبحت عين الصورة . وفي هذا تعبير عن استغراق قلب الصوفي العارف في محبة الله بصورة لا تدع مجالاً لغير الله .

(٣٤٩٢) انظر التعليق على البيت ٣٤٨٥ .

(٣٤٩٣) يشير الشاعر هنـــا إلى انصراف الصوفية عن علوم الدنيا . وانشغالهم بتصفية القلب ، وتلقي ما يبثه الله فيه من اليقين . ويرى الغزالي أن الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة « لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء المؤيّدون بروح القدس ، المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق

فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا ، انصرفت عن الآخرة ، وقصرت عن الاستكمال فيها » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٨) .

(٣٤٩٩) ذكر الغزالي أن عمر بن الخطاب قال : « رأى قلبي ربي » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٥) . وروي عن ابن عمر : « قيل لرسول الله ، يارسول الله ، أين الله ؟ في الأرض أو في السماء ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين » . (انظر المصدر السابق) .

(٣٥٠٠) يشير الشاعر هنا إلى حديث عرف باسم حديث حارثة ، ذُكر في النهاية (ج ٣ ، ص ١٥٩) . وقد ذكره الهجويري في كشف المحجوب ، والكلاباذي في كتاب التعرف . وكل من هذين أجرى الحديث على لسان حارثة . فالحديث لم ينسب صراحة إلى زيد بن حارثة ، وإنما نسب إلى حارثة .

وقد يكون من الغريب حقاً ألا يُذكر في الحديث اسم زيد ، فيعرف باسم حديث حارثة ، مع أن اسم زيد ذكر في القرآن ، وعرف الرجل باسم زيد بن حارثة ، أو باسم زيد وحده . ولعل الشاعر التبس عليه الأمر ، فاعتبر حارثة هذا زيد بن حارثة ، وتبعه في ذلك شراح المثنوي .

ونص الحديث كما نقله الكلاباذي في التعرف (ص ٢٣) جاء على الوجه الآتي :

« وقال حارثة حين سأله النبي ﷺ ما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت بنفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعادون » ... وقال النبي ﷺ : « من أحب أن ينظر إلى عبد نوّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة » .

ولعل إجماع المصادر التي ذكرناها على الإشارة إلى هذا الحديث باسم حديث حارثة يجعلنا نعتقد أن المقصود به حارثة بن سراقة . وقد كان حارثة بن سراقة هذا أحد شهداء بدر من الأنصار . وقد روي هذا الحديث متعلقاً به . يقول صاحب السيرة الحلبية : « كان حارثة سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له بالشهادة فقد جاء أنه قال لحارثة يوماً وقد استقبله ، كيف أصبحت يا حارثة . قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً . قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة . قال: يا رسول الله ، عزلت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، فكأني

بعرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنـة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعادون فيها . قال : أبصرت فالزم عبد ، أي أنت عبد بذر الله الإيمان في قلبه . قال : فقلت ادع الله لي بالشهادة ، فدعا رسول الله بذلك » .

(علي برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ، جـ ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ . القاهرة) .

(٣٥١٢) وأما قبل البعث ، فإن حقيقة الروح لا تكون معروفة ، فحالها في الدنيا يخفي على عامة الخلق .

(٣٥١٥) جميع أرواح الغابرين – في فترة الانتقال بين الموت والبعث – تستقبل الأرواح التي تنطلق من الأجساد .

(٣٥١٩) ما دام الإنسان نزيـلاً لهذه الحياة الدنيا ، فإن أكثر الناس لا يعرفون طبيعة روحه ، ولا مكانها من الخير والشر ، ذلك لأن القادرين على مثل هذا التمييز قلة نادرة . فالروح في الجسم كالجنين قبل الوضع .

(٣٥٢٠) هذه القلة النادرة من النـاس هم الذين أُوتوا الفراسة ، ويروي الصوفية أن الرسول أشار إليها بقوله : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله [1] » . (انظر السراج : اللمع ، ص ١٧١) .

(٣٥٣٣) « حُفَر النفاق السبع » – كما أجمع شراح المثنوي – تعبير عن سبع من الخصال القبيحة ، يقابل كل منها باباً من أبواب الجحيم السبعة . وهذه الخصال – كما يقول صاحب المنهج القوي – هي الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات . (المنهج القوي ، جـ ١ ص ٦٤٠) . وهـذا – بطبيعة الحال – اجتهاد . ولا يمكن الجزم بأن الشاعر قصد هذه الخصال أو سواها بالذات . ومما يسند هذا الشرح ما ذكره المفسرون في بيان أبواب جهنم السبعة .

---

(١) هذا الحديث كثير الورود في كتب الصوفية . وقد أخرجه الترمذي والطبراني .

(٣٥٥٢) قوله : « إن كان التجلي قد جعل من صدرك طور سيناء » . معناه « إن كان صدرك قد شهد من التجلي ما شهده موسى حين تجلى له الخالق في طور سيناء » .

(٣٥٥٣ — ٣٥٥٤) هل يستطيع إنسان أن يطوي قلبه على ما تكشف له من نور اليقين ؟ إن هذا النور ليبدد القلب الذي يطويه ، وليس ينفع في إيقاف ذلك جنون ولا عقل .

(٣٥٥٥ — ٣٥٥٦) إن الله يحجب عن النـاس الكثير من الأسرار ، وفي ذلك خيرهم . فهم لا يعلمون آجالهم . ولا يعرفون كنه مصيرهم يوم الحساب ، وبذلك يعيشون على أمل الغفران والثواب . وهذا الستر الإلهي دليل على أن الله أراد لعباده ذلك . فعلى العباد أيضاً ألا يبوحوا بما يُكشف لهم من الأسرار الغيبية . وكما أن الإنسان قادر على الستر الحسي ، فهو كذلك قادر على الستر المعنوي . فهو يحجب الشمس أو القمر بطرف إصبعه . وهو أيضاً قادر على أن يحجب أسرار القلب بشيء من الإرادة وضبط النفس .

(٣٥٥٨) لقد فضل الله الإنسان على كافة مخلوقاته . فهذا البحر الشاسع البعيد الأعماق طوع حكمه . أفلا تكون نفسه طوع حكمه ؟

(٣٥٥٩ — ٣٥٦١) وكما سُخّرت للإنسان مخلوقات هذه الحياة الدنيا ، كذلك سُخّرت له ينابيع الجنة وأنهارها ، يجريها كما يشاء ، فتعنو لمراده .

(٣٥٦٢) ينتقل الشاعر هنا من الحديث عن الإنسان ، وسيطرته على سائر المخلوقات ، إلى الحديث عن القلب ، وسيطرته على جوارح الإنسان وملكاته .

(٣٥٦٦ — ٣٥٧٥) يتحدث الشاعر هنـا عن سيطرة القلب على الأعضاء والملكات الإنسانية . وهذا موضوع كتب عنه الغزالي ، وشبه القلب بملك له في الكيـان الإنساني جنود وأعوان تطيع أمره . قال : « وللقلب جندان ، جند يُرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر . وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان . فهذا معنى الجند : فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها

خادمة للقلب ومسخّرة له . فهو المتصرف فيها والمردد لها . وقد ُخلقت مجبولة على طاعته ، لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرداً . فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم . وكذلك سائر الأعضاء » . (الإحياء ، جـ ٣ ، ص ٥) .

وانتقل الغزالي من الحديث عن الأعضاء إلى الحـــديث عن قوى الإنسان وملكاته ، فقال : « فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثـــة أصناف صنف باعث ومستحث . . . وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة .

والثاني هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد وُيعبر عن هـــذا الثاني بالقدرة : وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء ، لا سيما العضلات منها والأوتار .

والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهي مبثوثـــة في أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك .

ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة ،هي الأعضاءالمركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أُعدت آلات لهـــذه الجنود . فقوة البطش إنما هي بالأصابع ، وقوة البصر إنما هي بالعين ، وكذا سائر القوى » . (المصدر السابق ، ص ٦) .

(٣٥٧١) « اليد الخفية » التي تحرك اليد الظاهرة هي القلب .

(٣٥٧٦) الحواس الخمس الباطنية هي : الحس المشترك ، والتخيل والتفكر والتذكر والحفظ . (الغزالي : الإحياء ، جـ ٣ ، ص ٦) .

(٣٥٧٨) أيها القلب ، ما دمت تملك هذه القوة ، فلتكن قوياً صامداً لما يطرق بابك من الهواجس ، قديراً على الاحتفاظ بنقائك وطهرك . وليكن لك من سلطانك ما تقهر به وساوس الشيطان ، وتقصيها عن ساحتك .

(٣٥٨٤ – ٣٥٩٧) القصة التي حكاها الشاعر عن لقمان وردت بإيجاز في قصص الأنبياء للثعلبي (ص ٣٩٣) . قال :« أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينوري عن عكرمة قال : كان لقمان أهون مملوك على سيده . قال : فبعثه مولاه مع

رفقة إلى بستان له ليأتوه بشيء من ثمره . فجاءوا وليس معهم شيء ، وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان . فقال لمولاه : إن ذا الوجهين لا يكون عند الله أميناً. فاسقني وإياهم ماء حميماً ، ثم أرسلنا لنقذفه . ففعل فجعلوا يتقيئون الفاكهة وجعل لقمان يتقيأ ماء نقياً فعرف صدقه من كذبهم » .

(٣٥٩٩) في يوم الحساب، يوم تُبلى السرائر، لا يبقى هناك سر لا ينكشف أمام الخالق ، فحينذاك يتضح العيب الذي كان الإنسان يحسب أنه قد نجا منه ، بعد أن استطاع إخفاءه في الدنيا .

(٣٦٠٠) لعل هذا البيت العربي محرّف . فالشطر الثاني منه لا يكاد يرتبط بأوله . ولعل الصواب أن نضع كلمة «الأحشاء» أو «الأمعاء» بدلاً من «الأستار» فيكون المعنى مقتبساً من الآية القرآنية المشار إليها وهى : « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » (٤٧ : ١٥) . ويجوز أن يفهم البيت على أساس أن الماء كشف سرهم فمزّق أستار النفاق ، وأظهر ما كانت تخفيه .

(٣٦٠١) وصف الله قلوب العصاة من بني إسرائيل بقوله : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة » . (البقرة ، ٢ : ٧٤).
ولما كانت قلوب الكفار كالحجارة ، فقد استحقت عذاب النار . ذلك لأن النار هى الفيصل في امتحان الأحجار .

(٣٦١٠) إن الله أراد أن يكون هناك غيب محجّب، طيلة بقاء هذه الدنيا، فلا تهتف بإعلان ما تكشف لك من الغيب ، ولا تفتح هذا الباب .

(٣٦١١) لا تندفع بإعلان السر . وتحكم في قلبك ولسانك . فالستر في هذه الدنيا أجمل . وخير لكل امرىء أن يسعد بما يتخيله عن حقيقة حاله .

(٣٦١٢) فقد يؤدي كشف حقيقة الحال بالنسبة لبعض الناس إلى قنوط هؤلاء من رحمة الله ، وانصرافهم عن عبادته .

(٣٦١٦) الحجاب يزيد المهابة بالنسبة لأهل هذه الدنيا . فيجب أن تظل حقائق العالم الغيبي خافية عليهم لتزداد مهابة الغيب في نفوسهم .

(٣٦١٧) الشريعة تستثير في قلوب الناس الخوف والرجاء ، وعالم الغيب

المحجّب عن الأنظار هو الذي يجعل الناس يتحركون في مختلف الاتجاهات ، رجاء وخوفاً . وهو الذي يكون الإيمان به ابتلاء للعباد ، ومحكاً لمعرفة مدى تصديق أرواحهم لما بُلغوا من رسالات السماء .

(٣٦١٨ — ٣٦٢٤) يشير الشاعر هنا إلى قصة سليمان حين سرق أحد الشياطين خاتمة فضاع بذلك ملكه ، وأصبح فقيراً ضعيفاً ، يحمل للصيادين السمك من البحر إلى السوق لقاء سمكتين ، كان يأكل إحداهما ويبيع الأخرى . وقد ظل في هذه المحنة أربعين يوماً ، وذات يوم شق سمكة ليتعشى بها فوجد خاتمه في جوفها . وكان هذا الخاتم قد سقط من الشيطان في البحر ، فابتلعته هذه السمكة . وما أن وضع سليمان خاتمه حول إصبعه حتى عاد إليه ملكه . وقد رُويت هذه القصة بصور عديدة ذكر بعضها الثعلبي (قصص الأنبياء ، ٣٦٠ — ٣٦٥) . وقد تردّد ذكرها في تفسير قوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » . (ص ، ٣٨ : ٣٤) .

ولم يرد في أيّ من الروايات التي اطلعت عليها إشارة إلى الفتى الذي ذكر الشاعر أنه رأى سليمان يصيد السمك على شاطىء البحر ، فحار في أمره ، وساءل نفسه : « أهذا سليمان العظيم يصيد السمك ؟ وإن لم يكن هو فما هذا الشبه بينه وبين سليمان ؟ » ، حتى إذا عاد لسليمان ملكه شهده على عرشه فانقلب الظن عنده إلى يقين .

ومغزى القصة أن هناك من الغيب ما يتحرى الإنسان عنه ، فيهتدي — في نهاية الأمر — إلى حقيقته ، ويصبح ظنه يقيناً . فسليمان على شاطىء البحر كان وهماً في خيال الفتى . وسليمان على عرشه — والخاتم في إصبعه — كان يقيناً لا شك فيه .

(٣٦٢٥) وردت في إحدى نسخ المثنوي كلمة «وهم» بدلاً من « باك »، ومعناها الخوف . فتكون ترجمة البيت « إن الوهم يكون حيث يكون الحجاب ... »

(٣٦٢٧) إن الخيال مشتق من الحقيقة . فالسماء قد تبدو خالية من المطر ،

ولكن المطر يكون كامناً فيها . والأرض قد تبدو خالية من الخضرة ، ولكن الخضرة كامنة في طبيعتها . فالخيال هنا جزء من اليقين .

(٣٦٢٨) عامة الخلق في الدنيا لا يطلعون على الغيب ، ذلك لأن الله حجبه عنهم . فلا بد لهم من الإيمان بالغيب ، لكي يصدقوا رسل الله . وإن لم يفعلوا ذلك فلا مجال لهذا التصديق .

(٣٦٢٩) لو أنني فتحت أمام الخلق نوافذ في السماء يطلون منها على الغيب ، لما كنت أخاطبهم قائلاً : « الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » . (٦٧ : ٣) . فعالم الغيب محتجب عن شهود الخلق حتى يوم البعث .

(٣٦٣٠) وهذا الحجاب إنما جعل لامتحان الخلق . وقد جعلهم هذا الحجاب في ظلمة ، لا يعرف أي منهم ما خُبيء له ، فهم يعيشون في الدنيا بين الخوف والرجاء ، ومنهم من يهتدي ويسلك سواء السبيل ، ومنهم من يضلّ وينحرف عن الجادة .

(٣٦٣١) وفي هذه الحياة الدنيا تنعكس الأمور ويعلّق اللصوص رجال الشرطة على المشانق . وقد يكون اللصوص هنا رمزاً للجهلاء ، ورجال الشرطة رمزاً للعارفين . وربما يكون الشاعر هنا يشير إلى واقعة محددة من وقائع اضطهاد الصوفية كمصرع الحلاج .

(٣٦٣٢) تنعكس القيم في هذه الدنيا ، ويسود الجهلاء ، ويذلون العارفين والحكماء .

(٣٦٣٤) أين من يعبد الله بعد أن يلقاه ، ممن يعبده خاشعاً في هذه الدنيا ، قبل أن يراه ؟ فمثل هذا يستحي من الله لأنه عرفه ، « والمعرفة توجب الحياء والتعظيم » . (القشيري ، ص ١٤٢) .

(٣٦٣٥ - ٣٦٣٦) مثل الوفاء للسلطان ممن يكون بعيداً عنه ، كمثل الإخلاص لله في الدنيا ، وقبل ملاقاته في الدار الآخرة . فحافظ الثغر يرعى

حق الملك وهو بعيد عنه ، والعارف يرعى حق الله في هذه الدنيا ، وقبل أن يدخل رحابه في العالم الآخر .

(٣٦٤١) لما كان الغيب والغائب والحجاب أفضل للخلق في هذه الدنيا ، وجب الإبقاء على قناع الأسرار . وعلى العارف أن يتجنب البوح بما يتكشف له.

(٣٦٥١) الملائكة أيضاً يتفاوتون كالبشر ، ولكل ملك نوره ومنزلته التي تتفق ومدى إشراق هذا النور .

(٣٦٥٦) انظر اللمع للسراج (كتاب الصحابة ، ص ١٦٦) . وقد استشهد هذا المؤلف – في بيان فضل الصحابة – بقوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » . (التوبة ، ٩: ١٠٠) ، وكذلك بالحديث الذي أشار إليه الشاعر ، ونصه : « أصحابي كالنجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » .

(٣٦٥٧ – ٣٦٥٨) لو كان كل إنسان قادراً على أن يتلقى الوحي من الله ، لجاز لنا أنْ ننكر الحاجة إلى رسل الله ، وإلى من سار على نهجهم من الهداة والمصلحين . فهؤلاء جاءوا شهوداً لله على خلقه .

(٣٦٥٩) في هذا البيت اقتباس من آية أمر اللهُ رسوله أن ينطق بها ، وذلك قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » . (١٨ : ١١٠) . فقد يكون القمر هنا رمزاً للرسول ، أما التراب والسحب والظلال فرموز لكل من يهتدي به ، ويستضيء بنوره ، على اختلاف طبائعهم ، ومراتبهم الروحية ، وقدراتهم على اقتباس النور .

(٣٦٦٠) لولا الوحي الإلهي لما اختلف الأنبياء عن عامة البشر .

(٣٦٦١ – ٣٦٦٢) إنني – بالقياس إلى الصفات الإلهية – خافتُ النور . ولكن نوري يمثل مدى الإشراق الذي يقدر على التطلع إليه عامة البشر ، فيتلقون منه الهداية . فهم لا يستطيعون تلقي النور الإلهي بصورة مباشرة ، وفي نور النبوة ما ينير نفوسهم ويخلصها من ظلمات الجهل .

(٣٦٦٣) كان مزيج الخل والعسل يعتبر دواء لعلاج الكبد .

(٣٦٦٥) حينما يصبح القلب الإنساني طاهراً من الهوى، ويتخلص من كافة العلائق المادية ، والآفات الحسية ، يكون مثلُ هذا القلب أهلاً لأن يتجلى به الخالق ، بل يصبح القلب وكأنه عرش الله . وفي الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد رُوي عن الرسول أنه قال : « قلب المؤمن عرش الله » .

(٣٦٦٨) قوله : « لقد قفز من موضع صف النعال ، ورمى نعله » ، معناه أنه ترك هذه الدار الفانية ، التي لا تعدو أن تكون ممراً وضيعاً بالنسبة لما يجيء وراءها ، كما يكون موضع صف النعال بالنسبة للمسجد أو الدار . ورَمْيُ النعل كناية عن الانصراف عن الدنيا ، ونبذها . فلن تكون له عودة إلى موضع صف النعال (الدنيا) ليلتقط نعله ، بل هو قد تخلى عن هذه العودة ودواعيها .

(٣٦٧٠) إن العارفين الذين سلكوا سبيل الفناء ، لن تجد لهم سبباً يربطهم بهذه الدنيا ، مهما كان هذا السبب واهياً .

(٣٦٧٢) في البيت اقتباس من آية كريمة تشير الى البعث . ولكن الشاعر استخدم مفهوم البعث هنا للدلالة على البعث الروحي ، الذي يؤمن به الصوفية ، وفيه تتجه حواسهم وعقولهم إلى الخالق ، فتكون كالأمواج التي تعود إلى البحر الذي انطلقت منه .

(٣٦٧٣ – ٣٦٧٤) إذا أقبل ليل الوعي الحسي ، وزال نهار التجلي ، أعاد الله عقول أهل الكشف إلى وعيها ، وأخرجها من نشوتها ، لتحمل من جديد أعباء هذه الحياة . فهذه العقول كنجوم أشرق عليها النهار فاحتجبت ، فلما جنّ الليل عادت إلى الظهور . وهي لا تكاد تحل في الأجساد حتى يعود إليها وعيها وإدراكها الذي كانت عليه .

(٣٦٧٦) فهذه الأجساد الخاوية من العقول والأرواح ، قد أصبحت فرساناً يثيرون الغبار حين رد الله عليها العقول والأرواح ، وكذلك الحال بالنسبة لمن ماتوا من المؤمنين وتحللت أجسادهم ، يعيدهم الله يوم القيامة أقوياء أشداء . وهنا ينتقل الشاعر من البعث الروحي بمعناه الصوفي إلى البعث بمعناه الاصطلاحي ، وهو إعادة الموتى إلى الحياة يوم القيامة .

(٣٦٧٩) في هذا البيت إشارة إلى استحالة إحداث الوجود من العدم . فبموجب هذا القول الذي ينطبق مفهومه على الكائنات جميعاً ، يكون إيجاد المعدوم محالاً ، أو يكون المعدوم – على حد تعبير الشاعر – مستعصياً على الوجود ، يستنكر إمكان اقتلاعه من حاله التي هو عليها . ولكن هذا المبدأ لا ينطبق على الخالق ، الذي يخلق من العدم ما يشاء بإرادته .

(٣٦٨٠) يصور الشاعر إحداث الموجودات من العدم بقدرة الله ، بأن الخالق جرّها من شعرها فأخرجها من حالها التي كانت عليها في عالم الإمكان إلى ما أصبحت عليه في عالم الوجود .

(٣٦٨١) بانتقال المعدوم من عالم الإمكان إلى عالم الوجود ، دخل في دنيا لم تكن أحوالها ولا خطوبها تخطر له على بال .

(٣٦٨٢) إن العدم لمطيع أمر ربه فيما أراد ، ولا سبيل له إلى أن يستعصي على قوة الله الخالقة . ومهما كانت له من قوة سلبية كقوة الشياطين فأنى للشياطين أن تستعصي على إرادة سليمان .

(٣٦٨٤) إن الموجود يخاف العدم . وكذلك العدم ، يخاف أن ينتقل من حاله إلى حال الوجود . وكل من العدم والوجود لا يملك لنفسه أمراً أمام إرادة الله ، التي تستطيع أن تنقله من حاله إلى عكس تلك الحال .

(٣٦٨٥) ينتقل الشاعر هنا إلى الحديث عن ازدياد خوف الإنسان من العدم بازدياد حظه من متاع الدنيا . فهذا يزيده ارتباطاً بها ، وحرصاً على البقاء فيها .

(٣٦٨٦) ليست هناك حياة حقيقية إلا بمحبة الله . أما محبة الدنيا والإقبال عليها ، مهما بدت لذيذة لعشاقها ، فليست إلا معاناة للنزع ، لأنها احتضار للروح يؤدي في النهاية إلى هلاكها .

(٣٦٨٧) يعرف الشاعر معاناة النزع هنا بأنها اتجاه المرء إلى الموت قبل أن يتحقق له ارتشاف ماء الحياة . وماء الحياة هنا تعبير رمزي عن المحبة الإلهية ، وهي عند الصوفية سبيل البقاء . فإذا قضى الإنسان عمره في تعلق بالحس ورغائبه ، فقد جعل من حياته فترة احتضار روحي ، وكان باستطاعته أن يتجه نحو ماء الحياة فيكتب له الخلود .

(٣٦٨٨) الناس في هذه الدنيـــا لا يتفكرون إلا فيها ، ولا يخشون إلا الخروج منها ، وقد صرفهم هذا عن سبيل المحبـــة الإلهية ، واعترتهم إزاءها الشكوك ، مع أنها سبيلهم الوحيد إلى البقاء .

(٣٦٨٩) قوله : « وسر في الدجى نحو ربك ، فإنك إن أغفيت ضاع منك الليل » معناه : « ولا تضع ليل الحياة في غفـلة وسبات ، بل اقطع هذا الليل ساهراً متنبهاً ، لعلك تهتدي إلى ما يحقق لك حياة الخلود . أما من غلبه النوم في هذا الليل ، فقد فاتته الفرصة ، وضاعت حياته سدى . يقول الغزالي : « وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يُجـاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة » . (الإحياء ، ج ٣ ، ص ٥) .

(٣٦٩٠) فتّش في هذه الحياة المادية المظلمة عن حيـــاة الروح الصافية المشرقة ، واتخذ من العقل الكليّ هادياً لك في تلك الظلمات .

(٣٦٩١) أنظر البيت ٥٧٤ والتعليق عليه .

(٣٦٩٢) « وكيف تستطيع الخلاص من هذه الغفلة ، وأنت الذي تغرس قلبك فيها ، وتجلب على روحك دواعيها ؟ » .

(٣٦٩٣) هذه الغفلة الثقيلة جلبها عليك إغراقك النفس في متاع الحياة الدنيا . فقد كنت كتاجر غفـــل عن بضاعته ، وهي أيام عمره المحدودة ، فأخذ الشيطان يسرق منه تلك الأيام ويعطيه لقاءها مـــا يشغله به من مغرياته الرخيصة . وصرفتك هذه المغريات عن إدراك الضياع الذي أصابك .

(٣٧٠١) « نور إبراهيم » هو نور الإيمان بالله ، الذي جعله ينجو من الاحتراق بنار الكافرين .

(٣٧٠٢) النفس الأمـــارة بالسوء تحرق الجسم كما تحرق النار عود الحطب . وليس سوى الإيمان يطفىء لهيب النفس المضطرم كنـــار النمرود .

(٣٧١٨) إن المال في يد الخاطئين كبذور غرست في أرض مِلْحة ، فهي لا تزكو ولا تثمر . أو هو كسيف في يد قاطع الطريق ، لا يتحقق منه سوى الغدر والإيذاء .

(٣٧١٩-٣٧٢٠) من الواجب أن يميّز الإنسان بين أهل الدين وأهل الضغائن ، وأن يكون دليله في اختيار رفقائه ما يكون عليه هؤلاء من قيمة ذاتية ، وليس ما يربطه بهم من قرابة أو نسب . فالتعصب لذوي القربى لا يحتاج إلى حكمة ولا إدراك رفيـع ، فهذا أمر لا يخفى على أحد ، ولو كان من أهل الغفلة .

(٣٧٢١) يبدأ الشاعر هنا سرد قصة معروفة عن علي بن أبي طالب ، خلاصتها أنه كان ينازل أحد الرجال ، وتغلّب عليه فطرحه أرضاً ثم جثم على صدره ليقتله ، فبصق الرجل في وجه عليّ . وإذ ذاك ألقى عليّ بالسيف من يده وأعرض عن قتله . فلما سُئل في ذلك ، قال إنه فعل ذلك لأنه خشي أن يكون من أسباب هذا القتل غضبه لأن الخصم قد بصق في وجهه . وهو لم يُرد قتله لهوى في نفسه ، وإنما كان ذلك من أجل مرضاة الله . وقد ذكر نيكولسون بعض المصادر التي وردت بهـا هذه القصة ، ومنها رسالة القشيري ، وكتاب الفخري . (انظر تعليقاته على الجزء الأول ، ص ٢١٣) .

وقد أضفى جلال الدين على القصة من فنّه مـا جعلها حافلة بألوان رائعة من الحكمة ، وعلى عادته ، جعل من حكاية صغيرة ، عملاً أدبيـاً ينبض بالحياة .

(٣٧٢٩) ما الذي تجلى لك من صور الغيب ، فسكن غضبك بهذه السرعة ؟

(٣٧٤٠) قال الرسول هـــذا الحديث ، ناهياً أصحابه عن مواصلة الصوم (انظر الحديث في تعليقنا على هذا البيت مع ترجمتــه) . وقد روي الحديث بصور مختلفة ، لكنها تحمل المعنى ذاته . وللحديث تفسير

صوفيّ في كتاب اللمع للسراج (ص ١٣٢ ، ٢٩٤) .

(٣٧٤١) يجب أن تتقبل الروح مثل هذا القول من الرسول ، بدون تأويل ، وتكون متذوقة له كما يتذوّق الحلق الشهد واللبن .

(٣٧٤٢) فالتأويل الذي يصرف هذا القول عن معناه يكون رفضاً لهذا الكشف الإلهي الذي نقله الرسول إلينا . وتأويل القول على هذا النحو ينطوي – بصورة عامة – على اعتقاد بخطئه .

(٣٧٤٣) الذي يرى الخطأ في كشف إلهي ، أو خبر صادق مأثور عن الرسول فإنما فعل ذلك لأنه ضعيف العقل ، ولا مقدرة له على استيعاب مثل هذه المعاني الروحية . فلقد فاضت هذه من العقل الكليّ ، والعقل الكليّ هو لبّ الحكمة ، وأما العقل الجزئي الذي يعتد به الإنسان فليس سوى قشور .

(٣٧٤٤) « إذا لم تتذوق مثل هذه الأخبار الصحاح فابحث في نفسك عن الخطأ ، ولا تحسبه في هذه الأخبار فتعمل على تأويلها . والأولى بك أن تُلقي اللوم على عقلك إزاء ما لا تفهم منها ، لا أن تتناولها بالنقد والتجريح » . وقوله : «وسبّ نفسك ولا تسبّ بستان الورد » يحمل ذات المغزى الذي يشير إليه قول المتنبي :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزلالا

(٣٧٤٧) إن صفح عليّ قد قتل الغرور والاعتداد في نفس خصمه . والحقّ يقتل رغبات الحسّ ويخلص الإنسان من طغيانها ، وبهذا يبثّ في روحه الحياة الخالدة .

(٣٧٥٠) قوله : « يا باز العرش ، يا صاحب الصيد الوفير » معناه : « أيها الباز الذي حلـّق في سموات العالم الروحي ، وظفر منها بالصيد الوفير » . والصيد الوفير كناية عما ظفر به في سياحاته الروحية .

(٣٧٥٢–٣٧٥٤) يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى مختلف درجات الكشف الروحي . فأهل العرفان يكون لهم من الشهود والعيان ما تؤهلهم له

قواهم الروحية ونفاذ بصيرتهم المتجهة إلى عالم الغيب .

(٣٧٥٤) يخاطب الكافر علياً بقوله : « هؤلاء العارفون — على اختلاف درجاتهم — متجهون إليك ، وقد تعلقت أبصارهم وآذانهم بصنيعك ، لما تجلى فيه من جمال الكشف الروحي . فهذا الصفح قد أظهر أمامهم مثلاً رائعاً من الحلم وضبط النفس . وهم — في الوقت ذاته — منصرفون عنّي ، لم تلفت أنظارهم شناعة عملي ، لأن مبعثه الحقد والبغضاء والميل مع الهوى ، وهؤلاء لا صلة لقلوبهم بهذه الأحاسيس » .

(٣٧٦٠-٣٧٦٢) المرشد يشرق نور هدايته — الذي يتجلى في سلوكه وأفعاله — فيهدي السالكين . ولكنه إذا تكلم كان أكثر هداية لهم ، وكانت أقواله تزيد أفعاله وضوحاً ، فيسهل على مريديه الاقتداء به . وقد قدم ابن عربي لحديثه عن الأولياء المرشدين بقوله :

ومن عجب أني أحنّ إليهمو وأسأل عنهم من أرى وهمو معي

وترصدهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

(الفتوحات المكّية ، جـ ١ ، ص ١٧٨) .

(٣٧٦٣) في هذا البيت إشارة إلى الحديث الذي ينسب إلى الرسول أنه قال : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها » .

(٣٧٦٤) قوله : « حتى يتحقق بك وصول القشور إلى اللباب » ، معناه « حتى تكون هادياً لمن هم أسارى عالم الحس الظاهر إلى عالم الروح»،وهو الهدف الأسمى لوجود الإنسان في هذا العالم .

(٣٧٦٧) ليس للقلب سبيل إلى الانطلاق من عالم الحس إلى عالم المعنى ما لم يفتح له الباب مرشده وراعيه .

(٣٧٦٨) لو انفتح أمام القلب باب يشاهد منه العالم الروحي ، لبهره جمال ما يشهد ، وكان هذا الجمال مثيراً لخياله ، باعثاً له على الانطلاق محلّقاً بأجنحة شداد في عوالم من التأمل الروحي العميق .

(٣٧٦٩-٣٧٧٠) المرشد الروحي بما يكون عليه من التواضع والزهد

والتقشف يبدو للسالك مظهراً لا خير وراءه . والسالك قد يقصده فيجد عنده كنوز المعرفة على غير توقع منه ، كما قد يجد بعض الناس كنزاً في الأرض الخراب . وإذ ذاك ينجذب السالك إلى كل مرشد روحي ، كما يندفع مكتشف الكنز نحو كل أرض خراب . ولو لم يجد السالك ما يسعده من جواهر الحكمة عند أحد المرشدين الروحيين ، لما قاده ذلك إلى أن يطلب صحبة رجال التصوف ، وينشد الارتباط بهم .

(٣٧٧١-٣٧٧٢) الإنسان المعتدّ بنفسه ، المبتعد عن رجال الحقيقة ، يعيش أسير ظنونه ، ولا سبيل له إلى إدراك اليقين . فالمعتدّ بنفسه لا يستطيع أن يفيد معرفة من غيره ، كمن شمخ بأنفه فلم يعد يبصر شيئاً سواها .

(٣٧٧٥) كان من المعروف أن الشمس هي التي تبث الروح الحيواني في الأحياء .

(٣٧٨٤) قوله « الباز الذي يصيد العنقاء » معناه « يا من أنت قادر على الظفر بأعمق حقائق العرفان التي تستعصي على الآخرين » .

(٣٧٩٤) « الرياح العاصفة » هنا رمز للأهواء والشهوات التي تذهب بثبات الرجال وتعصف بهم .

(٣٧٩٧) الشطر الثاني من البيت يمكن أن يقرأ على النحو التالي : « ورشوم چون كاه بادم ياد اوست » .

ومعناه : « ولو صرت كالقشة فلا ريح تحركني إلا ذكره » . والقراءتان — في نظرنا — مقبولتان .

(٣٨٠٦) قوله « فما هو إلا عيان ومشاهدة » يعني أن اليقين يحل بالقلب النقي فيكون صاحبه صادراً في عمله عن يقين تكشّف له ، وليس دافعه حينذاك التقليد ، ولا الظن والخيال .

(٣٨١٠) يتحدّث الشاعر هنا حديثاً مباشراً فيقول إنه لا يجوز أن تُكشف الأسرار الروحية لعامة الخلق إلا بمقدار ، فعقولهم لا تتسع لها ،

كما أن مجرى النهر لا يتسع لماء البحر .

(٣٨١٨) إن الذي يتتبع الشهوات لا يستطيع الخلاص من سيطرتها عليه . فكأنما هو قد ألقى بنفسه في بئر عميقة القرار . والشاعر يؤكد هنا إيمانه بمسئولية الإنسان عن أفعاله ، فليس ارتكاب الذنوب جبراً إلهياً ، بل هو خطيئة إنسانية .

(٣٨١٩) « البئر التي لا رسن يوازي عمقها » كناية عن الخطايا والشهوات التي يصعب الخلاص منها على من أصبح أسيراً لها .

(٣٨٢١) إن الأكباد التي لا تتأثر بمثل هذا النداء الروحي ، وبهذا التحذير من الحسّ وشهواته ، لم يكن فعلها هذا ناشئاً عن صلابتها وقدرتها على الصمود أمام روعة هذا النداء ، وإنما كان بسبب غفلتها وحيرتها وانصرافها عن سبيل الحق . فهي لا تسمعه ، ولهذا لا تتأثر به .

(٣٨٢٢) قوله : « فلتندمَ في وقت لا يكون فيه دمك مردوداً » . معناه : « فلتبادر إلى الإصغاء لنداء الحق والعمل به قبل أن يأتي وقت لا ينفعك فيه الندم ، ولا يفيدك إدراك الحقيقة بعد فوات الأوان » .

(٣٨٢٤) إن الرسول قد أُرسل شاهداً على الخلق . وإنه لأعظم الناس أهلية لهذه الشهادة ، لأنه قد تحرر من استعباد المادة تحرراً كاملاً . وعبد المادة والشهوة — كما ذكر الشاعر — أمعن في العبودية من العبد الرقيق . (انظر ٣٨١٥ ، ٣٨١٦) .

(٣٨٢٥) عاد الشاعر هنا إلى إجراء الحديث على لسان عليّ .

(٣٨٢٦) في البيت إشارة إلى حديث قدسي نصّه : « إن رحمتي غلبت على غضبي » .

(٣٨٣٠) إن المعصية التي ارتكبها خصم عليّ كانت سبباً في اهتداء هذا الخصم . ذلك لأنها كشفت حلم عليّ وتجرده من الغرض أمام هذا الخصم ،

فتجلى له اليقين ، وحمله الإيمان إلى أعلى سمواته .

(٣٨٣٢) كان عمر بن الخطاب قاصداً قتل الرسول ، فلقيه على الطريق من نهاه عن ذلك ، ونبهه إلى الالتفات إلى أهل بيته حيث أن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو قد أسلما . فذهب قاصداً أخته وزوجها ليؤاخذهما على اتباع دين محمد . وكانت معهما صحيفة من سورة طه ، قرأها عمر فاهتدى إلى الإسلام ، وذهب إلى الرسول ثم أعلن إسلامه. (انظر القصة برواياتها المختلفة في سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٥ ، طبعة الحلبي . القاهرة ، ١٩٣٦) .

(٣٨٣٦) إن انبثاق الطاعات من المعاصي على هذا النحو الذي وصفه الشاعر يدل على أن باب الأمل مفتوح على مصراعيه أمام الناس . إن الله قد ضرب عنق اليأس ، وأراد لعباده أن يتحرروا منه .

(٣٨٣٧) يشير الشاعر هنا إلى قوله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً » . (٢٥ : ٧٠) . والتوبة هنا هي البداية الجديدة لحياة من الإيمان وصالح الأعمال تجبّ ما قبلها من حياة العصيان . وفي القرآن آيات كثيرة ذكرت التوبة وبينت أنها وسيلة لغفران الذنوب . ومن هذه الآيات قوله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » . (١٩ : ٦٠) وقوله : « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . (٧ : ١٥٣) . وللتوبة الحق شروط لا مجال لذكرها هنا .

أما قول الشاعر « على الرغم من الوشاة » فمعناه أن الله يقبل التوبة ممن يصح عزمه على الصلاح وترك العصيان ، وذلك على الرغم من قول المتشائمين ، الذين يذهبون إلى استحالة قبول التوبة من العاصي ، ويغلقون بذلك باب الأمل المفتوح أمام الناس .

(٣٨٤١ – ٣٨٤٣) يقدم الشاعر في هذه الأبيات تصويراً لمحاولة الشيطان إغراء الناس وإيقاعهم في الخطايا ، وتربية الإثم في نفوسهم .

(٣٨٤٤) عاد الشاعر هنا إلى إجراء الحديث على لسان عليّ . وقد ذكر في الأبيات التالية قصة عن علي خلاصتها أن الرسول كان قد أخبر خادم علي أن هلاك سيده يكون على يديه ، وأن علياً برغم علمه بذلك لم يقرب خادمه بسوء . وفي القصة عناصر لا يُعرف لهـا أصل ، وفيها عناصر يمكن أن تُرد إلى أصولها . فأما وصف عبد الرحمن بن ملجم بأنه كان خادم علي ، فهذا ما لم أعثر عليه في أي من المصادر التاريخية التي رجعت إليها . لكن هناك ما يشير في المصادر إلى أن علياً كان يعرف قاتله ، وكذلك أن الرسول تنبأ سلفاً بمقتل علي . وممـا ذُكر من ذلك « أن علياً كان يخطب مرة ويذكر أصحابه ، وابن ملجم تلقـاء المنبر فسُمع وهو يقول : والله لأريحنهم منك . فلما انصرف علي إلى بيته أُتي به ملبباً ، فأشرف عليهم فقال : ما تريدون ؟ فخبروه بما سمعوا . فقال : ما قتلني بعد ، فخلوا عنه » . (الكامل للمبرد ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة) .

وخوطب علي في شأن ابن ملجم فقيل له : « كأنك قد عرفته ، وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف أقتل قاتلي ؟ » (المصدر السابق) .

وفيما رواه ابن طباطبا ما يشبه ما ورد في كتاب الكامل . ولكنه يضيف إليه قوله : « وهذا يدل على أن رسول الله أعلمه بذلك في جملة ما أعلمه به » . (تاريخ الدول الاسلامية المعروف بالفخري ، ص ٩٩ ، بيروت ، ١٩٦٠) .

(٣٨٥٣ — ٣٨٥٤) القاتل ليس إلا أداة من الأدوات التي يستخدمها الحق في إماتة الناس . فهو وحده الذي يحيي ويميت . ولكن إذا كان هذا القتل من فعل الله ، فلماذا يكون القصاص ؟ ويجيب الشاعر على ذلك بأن هذا القصاص من الأسرار الإلهية ، ولكنه مع ذلك لا يخرج عن كونه صورة من الصور التي يتجلى فيها التضاد الظاهري فـيما ينبثق عن الصفات الإلهية التي استوعبت الكون بكل مظاهره .

(٣٨٥٥) إن ما قد يظهر في الكون من قهر إلهي ، يعقبه لطف يمحو آثار هذا القهر ، ويشيع في مكانه الرحمة والرضى .

(٣٨٦٠) كل شريعة أنزلها الله كانت أكمل مما سبقها . ولهذا فإن الخالق ما حطم شيئاً إلا صنع ما هو خير منه .

(٣٨٦١) مظهر القهر قد يستر وراءه خيراً ولطفاً ، كالليل يحجب نور النهار بظلامه ، ويلف الخلق جميعاً بسكونه ، ومع ذلك ، ففي هذا الظلام والسكون ما يمكّن العقول من التأمل والتفكر فتشرق عليها أنوار المعرفة .

(٣٨٦٣) قوله « أليس ماء الحياة داخل الظلمات ؟ » يعني أن الشدة قد تنطوي على الخير ، كما يحيط الظلام بماء الحياة . (انظر البيت ٥٧٤ والتعليق عليه) .

(٣٨٦٥) إن الشر في هذه الدنيا يظهر الخير ، والآلام تظهر المسرات . وكل ضد يظهر ضده في الوجود . وليس للنور الدائم مقر إلا سويداء القلب .

(٣٧٧٤) إن موت الإنسان بداية لحياة جديدة أعظم من حياته على الأرض. وقد يكون قطع الحلق هنا رمزاً لإماتة الشهوات الحسية ، مما يجعل الروح قادرة على الانطلاق من إسار الجسد إلى عالمها الرحب .

(٣٨٧٥) « الحلق الثالث » هنا رمز لقدرة على التذوق من نوع آخر ، وتلك هي الذوق الصوفي . والصوفية بهذا الذوق ، « يحتسون النور ، وينهلون شراب الحق » كما يقولون .

(٣٨٧٦) إن من قُتلت فيه شهوات الحس ونزواته ، يولد له ذوق روحي ، فيكون فناء الحس سبيله لتحقيق البقاء ، ويكون نفي الذات طريقه إلى الخلود .

(٣٨٧٧) قوله : « إلى متى تكون بالخبز حياة روحك ؟ » معناه « إلى متى تعتبر طعام الحس سر حياتك ، وتحسب أن هذه الحياة ارتكزت على متاع الدنيا وملاذها ؟ » .

(٣٨٧٨) إنك أرقت ماء وجهك للحصول على المتع الحسية ،

واعتبرت ذلك هدفاً لك في الحياة ، ولهذا فإنك لم تثمر ، فكأنك شجرة صفصاف .

(٣٨٧٩) « فإن كنت غير قادر على التحرر من سلطان الحس فاتخذ شيخاً مرشداً ، فإن هذا المرشد قادر على أن يرتفع بنفسك من طبيعتها الحيوانية إلى طبيعة أسمى من تلك ، وأثره عليك يكون كأثر الإكسير على النحاس .

(٣٨٨٠) فإن كنت تريد غسل قلبك ، وتنظيفه مما علق به من شوائب المادة ، فلا تحوّل وجهك عن هؤلاء الخبراء بتنظيف القلوب وتطهيرها .

(٣٨٨١) مع أن الخبز لذيذ يزيل آلام الجوع (والخبز هنا رمز لمتع الحس التي ترضي النفس الحيوانية) ، فإن خير الإنسان يكون في تعلقه بخالقه ، وإعراضه عن شهوات الحس ، مهما شق عليه هذا الإعراض .

(٣٨٨٢) كل ما يصدر عن الله فهو خير . وقد يظهر للناس بعض ذلك مؤلماً ، ولكن صدوره عن الخالق يستلزم أن يكون منطوياً على الخير .

(٣٨٨٤) لعل الشاعر يشير هنا إلى تحريم قتل النفس ، إلا بالحق . والحق هو ما تنص عليه الشريعة الإلهية ، فالإنسان الذي يقتل ، لا يستطيع أن يحيي ، لكن الله يحطم حياة الجسد ، ويهب حياة أكمل منها هي حياة الروح . وإذا أخرج إنساناً من هذه الدنيا ، فهو قادر على أن يخلق من بعده كثيراً من البشر . ويؤيد هذا التفسير ما قاله الشاعر في البيتين رقم ٣٨٨٨ ، ٣٨٨٩ .

(٣٨٨٨ - ٣٨٨٩) لو لم يأمر الله بالقصاص من القاتل ، لما كان لإنسان أي حق في أن يقتل إنساناً آخر ، ذلك لأن الإحياء والإماتة هما من حق الله وحده .

(٣٩٠٠) في البيت اقتباس من قوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . (آل عمران ، ٣ : ٨).

(٣٩٠٤) الإنسان عدو لنفسه ، وكثيراً ما يجلب عليها الأضرار والمتاعب ولا سبيل إلى إنقاذ الروح مما يوقعه بها صاحبها ، إلا بلطف إلهي . وهذا اللطف هبة من الله يؤتيها من يشاء من خلقه .

(٣٩٠٥) لو أنه أنقذ روحه من شهوات الحس، فليس معنى ذلك أنه وصل بها إلى غايتها من الكمال . فالروح تخلص من إسار المادة ، لكي ترقى درجات الكمال حتى تبلغ في هذا السبيل أقصى الغايات . فإذا اقتصر الجهد على محاربة الأهواء والشهوات ، وبقيت الروح راكدة في ظل إحساسها الذاتي ، لا تستشعر الحنين إلى خالقها وموجدها ، كانت هذه الروح مسخرة للخوف ، مدبرة حيث كان ينبغي لها الإقبال . فانطواء الروح على إحساسها الذاتي يحول بينها وبين السعي إلى خالقها .

(٣٩١٦) قوله « وقطع حلق الناي ثم عاد فدلله » ، معناه أنه جعل الغاب يُقطع من منبته ويثقب ليصبح آلة للعزف ، فلما صار كذلك كرّمه بأن جعله قريناً لمجلس السماع ، حيث يشغل الصوفية بذكر الله .

(٣٩٢٣) الشطر الأول من البيت قراءة محرّفة للشطر الأول من بيت مشهور للشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة يقول فيه :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(٣٩٢٤) يقول صاحب الفخري (ص ٩٩) : « وكان علي – عليه السلام – دائماً يحسن إلى ابن ملجم » .

(٣٩٢٥) انظر حاشية البيت ٣٨٤٤ .

(٣٩٣٠) قوله : « أستشعر عشق المنيّة وهواها » ، معناه : « أشتاق إلى خلاص الروح من الجسد حتى تصعد إلى خالقها » .

(٣٩٣٤ – ٣٩٣٥) في هذين البيتين اقتباس من قول الحلاج :

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

(٣٩٣٦) « لو لم يكن في المقام بهذه الحياة الدنيا فرقتي عن عالم الروح ، لما

كان يُقال « إنا لله وإنا إليه راجعون » . (البقرة ، ٢ : ١٥٦) والمؤمنون يرددون هذه العبارة القرآنية حينما تصيبهم مصيبة ، أو يمر بهم ما يذكرهم بالموت ولقاء الله .

(٣٩٤٤) ينسب إلى علي أنه قال :

السيف والخنجر ريحاننا أُف على النرجس والآس

(٣٩٤٥) عُرف علي بالزهد والتقوى . والشاعر يصوره هنا منصرفاً عن جاه الدنيا ، وقد غلبت حياة الروح عنده على متع الجسد .

(٣٩٤٩) شبيه بمعنى هذا البيت قول البوصيري :

وراودته الجبال الشمّ من ذهب عن نفسه فأراها أيمـا شمم

(٣٩٥٤) « إن متاع الدنيا لا يستطيع أن يصرفنا عن طريق الروح التي أخذنا أنفسنا بالسعي اليها ، كما أن جمال الخلق لا يحوّل قلوبنا عن محبة الخالق المبدع » .

(٣٩٥٨) إن الغرض يلوّن الحقيقة بطابعه في بصيرة الانسان ، كما يحدث حين ينظر المرء إلى نور الشمس من خلال زجاجة ملوّنة .

(٣٩٥٩) « الزجاجات الملونة » هنا رمز للأهواء المختلفة التي تصبغ الحقيقة بألوانها . وكسر هذه الزجاجـات كناية عن التخلص من تلك الأهواء حتى لا تكون مدعاة لخطأ البصيرة . فالإنسان الذي يتخلص من الغرض والهوى يصدق حكمه على الناس وعلى أفعالهم . وقوله : « حتى تتبيّن الغبار والرجل » معناه : « حتى تتكشف لك حقيقة الرجل الصالح ، فلا تقيس أحواله بأحوالك وتحكم عليه من خلال مـا غشي بصيرتك من ضباب الشهوات والأهواء » .

(٣٩٦١) مثل الذي يستهزىء برجل الله كمثل إبليس الذي نظر إلى ظاهر آدم ، ولم ينظر إلى حقيقته . فهيكل آدم الذي صُنع من الطين خدع إبليس عن حقيقة آدم فاستهان به ، وحسب نفسه خيراً منه .

(٣٩٦٥) الأسد ملك الحيوانات وأقواها يمثل الحس المادي في أقوى صوره ، هذا الحس « الذي ينشد الصيد والغذاء » وهما يرمزان هنا إلى

الحرص واللذة ، أما « أسد الحقّ » وهو الرجل الكامل الذي انطلق بروحه نحو خالقه ، فلم يعد للجسد ، بكل لذّاته الحسّية ، سلطان عليه . وسبيله الذي ينشده هو التحرر الكامل من طغيان الجسد .

(٣٩٧٣) « السراج » وصف للرسول جاء في قوله تعالى : « يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » . (٣٣ : ٤٥-٤٦) .

(٣٩٧٩) قوله : « وكسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب » ، معناه أنه لاحق لإنسان في أن يميت إنساناً آخر . فالله وحده هو الذي يميت ، سواء أكان ذلك بفعل مباشر ، أو بأمر واجب الاتباع مما نصّت عليه الشريعة .

(٣٩٨٤) « السراج الذي يبحث عن العين » هو الذي يهدي القلوب التي تنشد الهداية . والعبارة كلها كناية عن الرسول . ويؤكد هذا المعنى وصف الشاعر لهذا السراج في الشطر الثاني من البيت بأنه هو الذي أمدّ سراج عليّ بالنور . فهديُ عليّ مقتبسٌ من هدي الرسول .

(٣٩٨٥) هديُ الرسول بحر من النور ، وقد كان سبباً في ظهور كل هذه الأفعال النبيلة على يد أتباعه . ومنها سلوك عليّ إزاء ذلك الكافر .

(٣٩٩٠) ذكر بعض الشراح أن الشاعر يشير بهذا البيت إلى حادث معيّن ، أوقف نظم المثنوي عند نهاية الكتاب الأول . والمعروف أن هذا الحادث – على ما يُذكر في سيرة الشاعر – كان وفاة زوجة حسام الدين ، تلميذه المحبوب ، الذي كان يكتب ما يمليه الشاعر من أبيات المثنوي .

ولكني اعتقد أن الشاعر يتناول في هذا البيت أثر المادة على الروح بوجه

عام . فالتمتع الحسيّ ، يوقف جيشان الفكر وانطلاقه .

(٤٠٠١–٤٠٠٣) يبدو في هذه الأبيات طابع من الحزن ، ولعل الشاعر هنا يشير إلى مأساة تلميذه حسام الدين بفقد زوجته . فهـــذه المأساة قد عكـّرت صفاء التلميذ ، وجعلته غير قادر على المضي مع أستاذه في العمل . وهنا رأى الشاعر أن نبع الشعر قد اعتكر ، وأنه لا بدّ من الوقوف عند هذا الحد إلى أن يعود الصفاء من جديد .

تمت شروح الكتاب الأول من المثنوي

فهارس الكتاب

المراجع

أولاً : كتب باللغة العربية

ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد : الكامل في التاريخ (٩ أجزاء) . القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٨ .

ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن : كتاب الأذكياء . بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر .

ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي : الإصابة ، في تمييز الصحابة (٤ أجزاء) . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٩ .

ابن حزم ، أبو محمد علي :

١ — الفصل ، في الملل والأديان والنحل . القاهرة ، ١٩٢٨ .

٢ — طوق الحمامة . بيروت ، مكتبة الحياة .

ابن خلدون : كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون ، ٧ أجزاء) . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ .

ابن خلكان ، أحمد بن محمد : وفيات الأعيان (٦ أجزاء) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٤٨ .

ابن الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري : مشارق أنوار القلوب ، تحقيق ريتر . بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٩ .

ابن سعد : الطبقات الكبرى . بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٧ .

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات (جزءان) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥١ .

ابن طباطبا ، محمد بن علي : تاريخ الدول الإسلامية . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

ابن عبد البر القرطبي ، يوسف بن عبدالله : الاستعياب ، في أسماء الأصحاب . (مطبوع مع الإصابة لابن حجر العسقلاني) . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٩ .

ابن عربي ، محيي الدين :

١ – ترجمان الأشواق . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

٢ – ديوان ابن عربي . بغداد ، مكتبة المثنى .
(مصور عن طبعة بولاق ، ١٨٥٥) .

٣ – الفتوحات المكية . القاهرة ، طبعة بولاق وكذلك طبعة الحلبي .

٤ – فصوص الحكم . تحقيق وشرح أبو العلا عفيفي . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ .

ابن الفارض ، عمر : ديوان . القاهرة ، مكتبة القاهرة ، ١٩٥٦ .

ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد : السنن . (جزءان) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ .

ابن المقفع ، عبد الله : كليلة ودمنة . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٣١ .

ابن هشام : السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وآخرين . (٤ أجزاء) القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٣٦ .

أبو داوود السجستاني : سنن أبي داوود . (جزءان) . القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٥٢ .

أبو طالب المكي : قوت القلوب . (جزءان) . القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٦١ .

أبو العلا عفيفي : التصوف . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣

أبو نعيم الإصفهاني : حلية الأولياء (١٠ أجزاء) . القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
الأشعري ، أبو الحسن علي بن اسماعيل :
١ – الإبانة في أصول الديانة . حيدر آباد ، ١٣٢١ هـ .
٢ – مقالات الإسلاميين . (جزءان) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٠ .
الأشعري ، أبو خلف سعد بن عبد الله : المقالات والفرق . تحقيق محمد جواد مشكور . طهران ، عطائي ، ١٩٦٣ .
أفلاطون : الأصول الأفلاطونية ، فيدون . ترجمة ودراسة لنجيب بلدي وعلي النشار وعباس الشربيني . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ .
البخاري ، محمد بن اسماعيل : صحيح البخاري (٩ أجزاء) . القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٣٧٧ هـ .
البغدادي ، عبد القاهر :
١ – أصول الدين . استنبول ، ١٩٢٨ .
٢ – الفرق بين الفرق . القاهرة ، ١٩١٠ .
البلاذري ، أحمد بن يحيى : أنساب الأشراف .
جـ ١ : القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ .
جـ ٤ : (القسم الثاني) ، جـ ٥ : بغداد ، مكتبة المثنى (عن طبعة القدس ، ١٩٣٦ – ٣٨) .
الترمذي ، أبو عبد الله محمد بن علي (الحكيم) :
١ – بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب . تحقيق نقولا هير . القاهرة ، عيسى الحلبي ، ١٩٥٨ .
٢ – الرياضة وأدب النفس . تحقيق آربري ، وعلي عبد القادر . القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٤٧ .
الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى :
١ – الجامع الصحيح ، (المعروف بسنن الترمذي) . تحقيق احمد شاكر .

القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٣٧ .
٢ – الاتحافات الربانية . تحقيق وشرح الدومي . القاهرة ، المكتبة التجارية .
الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد : فقه اللغة . القاهرة ، المكتبة التجارية .
الثعلبي ، أبو اسحق أحمد بن محمد : قصص الأنبياء . القاهرة ، مكتبة الجمهورية المصرية .
الجويني ، عبد الملك (إمام الحرمين) : الإرشاد ، تحقيق لوسياني . باريس ، ١٩٣٨ .
الجيلي ، عبد الكريم بن إبراهيم : الإنسان الكامل . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٣ هـ .
حسن عثمان : ترجمة الكوميديا الإلهية . (الجحيم والمطهر) . (انظر : دانتي أليجييري) .
الحلبي ، علي برهان الدين : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) . القاهرة .
الخياط ، عبد الرحيم : الانتصار . تحقيق نيبرج . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٢٥ .
دانتي أليجييري : الكوميديا الإلهية – الجحيم . ترجمة حسن عثمان . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ؛ المطهر – ترجمة حسن عثمان . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .
الدميري ، كمال الدين : حياة الحيوان الكبرى (جزءان) . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٣ .
دي بور ، ت . ج : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧ .
الرازي ، فخر الدين : الأربعون في أصول الدين . حيدر آباد ، ١٣٥٣هـ.

السراج ، أبو نصر : اللمع . تحقيق عبد الحليم محمود وطـه سرور . القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ .
السلمي ، أبو عبد الرحمن : طبقات الصوفية . تحقيق نور الدين شريبة . القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ .
السهروردي ، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد : عوارف المعارف ، (ملحق بكتاب الإحياء للغزالي ، جـ ٥) . القـاهرة ، المكتبة التجارية .
السهروردي ، شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش : هياكل النور . تحقيق أبو ريان . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٧ .
الشعراني ، عبد الوهاب بن أحمد : الطبقات الكبرى (المعروف بلواقح الأنوار) . جزءان . القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ١٩٥٤ .
الشهرستاني ، محمـد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، (جزءان) تحقيق فتح الله بدران . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦ .
الطبري ، محمد بن جرير :
١ – تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٩ .
٢ – جامع البيان (تفسير الطبري) . القاهرة ، ١٣٢١ هـ .
عبد الرحمن بدوي : أفلوطين عند العرب (نصوص) . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .
عبد العزيز صاحب الجواهر :جواهر الآثار في ترجمة مثنوي مولانا (جـ ١ ، ٢) طهران ، جامعة طهران .
عبد الوهاب عزام :
١ – محمد إقبال . القاهرة ، ١٩٥٤ .
٢ – الأدب الفارسي (في قصة الأدب في العـالم ، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود ، جـ ١) . القاهرة ، ١٩٥٥ .

٣ – فصول من المثنوي. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦ .
الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد :
١ – إحياء علوم الدين (٥ أجزاء) . القاهرة ، المكتبة التجارية .
٢ – الأربعون ، في أصول الدين القاهرة ، المكتبة التجارية .
٣ – أيها الولد . بيروت، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية، ١٩٥١ .
٤ – فرائد اللآلي ، من رسائل الإمام الغزالي (يتضمن : معارج السالكين ، ومنهاج العارفين ، وروضة الطالبين) . القاهرة ، فرج الله الكردي ، ١٣٤٤ هـ .
٥ – مشكاة الأنوار . تحقيق أبو العلا عفيفي . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ .
٦ – معارج القدس ، ومدارج معرفة النفس ، القاهرة ، فرج الله الكردي ، ١٩٢٧ .
٧ – المنقذ من الضلال . تحقيق جميل صليبا ، وكامل عياد . الطبعة السادسة ، دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ .
فنسنك ، ا . ي . : مفتاح كنوز السنة . ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة ، لجنة دائرة المعارف الإسلامية ، ١٩٣٣ .
القرشي ، عبد القاهر بن محمد : الجواهر المضية في طبقات الحنفية . حيدر آباد ، ١٣٣٢ هـ .
القرطبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن . القاهرة ، دار الكتب المصرية .
القسطلاني ، شهاب الدين أبو العباس : إرشاد الساري ، شرح صحيح البخاري . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٤ – ١٣٠٦ هـ .
القشيري ، أبو القاسم عبد الكريم : الرسالة في علم التصوف . القاهرة ، مكتبة صبيح .

الكلاباذي ، أبو بكر محمد : التعرف ، لمذهب أهل التصوف . تحقيق
عبد الحليم محمود ، وطه سرور . القاهرة ، عيسى الحلبي ، ١٩٦٠ .
الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية .
تحقيق حامد الفقي ، القاهرة ، مكتبة الحلبي ، ١٩٣٨ .
المسعودي ، علي بن الحسين : مروج الذهب (٤ أجزاء) .
تحقيق محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٨ .
مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم بشرح النووي .
(١٨ جزءاً) القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٣٤٩ هـ .
محمد أحمد جاد المولى ، وآخرون : قصص القرآن . الطبعة السابعة .
القاهرة ، المكتبة التجارية .
محمد عبد السلام كفافي : اتجاهات إنسانية في شعر الصوفية . بيروت ،
جامعة بيروت العربية ، ١٩٦٢ .
محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحب الالهي . القاهرة ، ١٩٤٥ .
المولوي ، يوسف بن احمد : المنهج القوي لطلاب المثنوي .
القاهرة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) .
نلّينو ، كرلو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى .
روما . ١٩١١ .
النووي ، أبو زكريا يحي بن شرف : رياض الصالحين ، من كلام سيد
المرسلين . شرح مصطفى عمارة . القاهرة ، عيسى الحلبي .
نيكولسون ، رينولد :
١ — الصوفية في الإسلام . ترجمة نور الدين شريبة . القاهرة ،
الخانجي ، ١٩٥١ .
٢ — في التصوف الإسلامي وتاريخه . ترجمة أبو العلا عفيفي .
القاهرة ، ١٩٤٧ .

ياقوت الحموي : معجم البلدان (٥ أجزاء) . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٣ .

ثانيا : كتب فارسية وتركية

أبو سعيد بن أبي الخير : رباعيات – تحقيق سعيد نفيسي . طهران ، ١٩٥٥ .
الأنصاري ، عبد الله : مناجـــاة . تحقيق محمد حسين بلگرامي . برلين ، ١٩٢٤ .
الأنقروي ، إسماعيل : فاتح الأبيـــات (شرح المثنوي بالتركية) . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٥١ هـ .
بابا طاهر : ديوان . تحقيق آزاد همداني . طهران ، ١٩٢٧ .
دشتي ، علي : سيري در ديوان شمس . طهران ، ١٣٣٧ .
دولت شاه : تذكرت الشعراء . تحقيق براون . لندن ، ١٩٠١ .
الرومي ، جلال الدين محمد :
١ – ديوان شمس تبريز . تحقيق جلال همائي . طهران ، ١٩٥٦ .
٢ – رباعيات . إصفهان ، ١٩٤١ .
٣ – طبعات المثنوي .
٤ – فيه ما فيه . تحقيق فروزانفر . طهران ، ١٩٥١ .
سعدي : گلستان . تحقيق نفيسي . طهران ، ١٣٤١ .
سنائي : حديقة الحقيقة . تحقيق مدرس رضوي . طهران ، ١٩٥٠ .
شمس قيس الرازي : المعجم في معايير أشعار العجم . تحقيق براون ، وميرزا محمد قزويني . لندن ، ١٩٠٩ .

العطار ، فريد الدين :
١ – إلهي نامه . تحقيق ريتر . ليبزج ، ١٩٤٠ .
٢ – پند نامه . تحقيق وترجمة دي ساسي . پاريس ، ١٨١٩ .
٣ – تذكرت الأولياء . (جزءان) . تحقيق نيكولسون . لندن ، ١٩٠٥ – ١٩٠٧ .
٤ – منطق الطير . پاريس ، ١٨٥٧ .

عوفي ، محمد : لباب الألباب . (جزءان) . تحقيق براون وميرزا محمد قزويني . لندن ، ١٩٠٣ – ١٩٠٦ .

الفردوسي ، أبو القاسم : شاهنامه . تحقيق محمد رمضاني . طهران ، ١٩٣٢ – ١٩٣٤ .

فروزانفر ، بديع الزمان :
١ – خلاصهء مثنوي . (مختارات من الكتابين الأول والثاني من المثنوي ، مع بعض الشروح) . طهران، ١٣٢١ هـ. ش. (١٩٤٣).
٢ – رسالة در تحقيق أحوال وزندگاني مولانا . طهران ، ١٣٣٣ هـ. ش. (١٩٥٥) .
٣ – مآخذ قصص وتمثيلات مثنوي . طهران ، ١٩٥٤ .

گوهرين ، سيد صادق : فرهنگ لغات وتعبيرات مثنوي ، (جـ ١ ، حرف الألف) . طهران ، جامعة طهران ، ١٣٣٧ هـ. ش. (١٩٥٩) .

محمد نحيفي بن سليمان : نص المثنوي وترجمته نظماً إلى التركية . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٦٨ هـ (١٨٥١) .

نثري ، موسى : نثر وشرح مثنوي (٦ أجزاء) . طهران ، ١٣٢٧ هـ. ش.

نظامي عروضي سمرقندي : چهار مقاله . تحقيق ميرزا محمد قزويني لندن ، ١٩١٠ .

ثالثاً : كتب باللغـــات الأوروبية

Abdul-Hakim, Khalife. The Mytaphysics of Rumi. Lahore, 1932.

Ansari, Abdullah. The Invocations of Sheikh Abdullah Ansari. Tr. by Sir Jogendra Singh. London, 1959.

Arberry, A. J. Classical Persian Literature. London, 1958.

Arberry, A.J. The Legacy of Persia. Oxford, 1953.

Arberry, A.J. Sufism. London, 1956.

Arberry, A.J. Tales from the Mathnavi, London, 1961. More Tales from the Mathnavi, London, 1963.

Browne, E.G. A Literary History of Persia. 4 vols. Cambridge, 1928.

Davis, Hadland. The Persian Mystics. Jalalud - Din Rumi, London, 1907.

Iqbal, Afdal. The Life and Thought of Rumi. Lahore, 1956.

Lane — Poole, S. The Mohammadan Dynasties, London, 1894.

Nicholson, R. A. Selected Poems from the Divani Shamsi Tabriz. Cambridge, 1898.

Nicholson, R.A. Tales of Mystic Meaning. London, 1931.

Nicholson, R.A. Rumi, Poet and Mystic. London, 1950.

Nicholson, R.A. A Literary History of the Arabs. London, 1907.

Nicholson, R.A. The Mystics of Islam. London, 1914.

Kafafi, Muhammad. The Development of Persian Narrative Poetry. (Reprint from the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ., Vol. XIX, pt. 1, May, 1957).

Richter, G. Persiens Mystiker Dschelal - eddin Rumi. Breslau, 1933.

Rumi, Jalal-ud-Din : The Mathnawi. ed. & tr. by R. A. Nicholson. 8 vols. London, 1924 — 40.

Rumi, Jalal-ud-Din : Mesnewi oder Doppelverse des Scheich ... Rumi, ... übertragen von Georg Rosen.

Rumi, Jalal-ud-Din : The Mesnevi of Mevlana ... er Rumi, Book the First ... (with selections from the Manaqib of Aflaki).

Tr. & versified by J.M. Redhouse. London, 1881.

Rumi, Jalal-ud-Din : Masnavi-i Ma'navi. Tr. & abridged by E. H. Whinfield. London, 1887. 2nd ed., 1908.

Rumi, Jalal-ud-Din : The Masnavi ..., Book II, translated .... with a commentary, by C.E. Wilson. London, 1910.

Rumi, Jalal-ud-Din. Discourses of Rumi. Tr. by A.J. Arberry. London, 1961.

Rumi, Jalal-ud-Din. Ruba'iyat, (Selections).Tr. by A.J. Arberry. London, 1949.

رابعاً : موسوعات ودوريات

Blom, Eric. Grove's Dictionary of Music and Musicians. 10 vols. 4th. ed. London, 1954, Sup. 1961.

Encyclopaedia Britanica. Chicago, 1962

Encyclopaedia of Islam. 4 Vols. Leiden, 1908 — 1938.

Encyclopaedia of Religion and Ethics. Edinburgh, 1925 — 26.

Revue de l'histoire des Religions.

كشاف الأعلام والجماعات والأماكن

أ

و

ي

كشّافُ المَوضُوعات

١ ـ يضم هذا الكشاف الموضوعات والمصطلحات الواردة في ترجمة الكتاب وشروحه .
٢ ـ الارقام في الكشاف تشير الى أرقام الابيات في الترجمة .
٣ ـ الارقام المسبوقة بحرف ش تشير الى أرقام الشروح والدراسات الملحقة بالترجمة .

ا

ب

ت

د

ذ

ر

ز

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية ، برغم مـــا بذل من جهد في طبع الكتاب وتصحيحه . وكنا نود إغفال ذكرها ، نظراً لأنها مما لا يخفى على فطنة القارىء ، لولا أن قليلا من هذه الأخطاء المطبعية مس كلمات قليلة في بعض النصوص القرآنية الكريمة . ولقد اثبتناهـــا هنا ليقوم القارىء مشكوراً بتصحيحها قبل قراءة الكتاب ، وعمدنا إلى إبراز الأخطاء التي وقعت في طباعة الآيات بالحرف الأسود ، زيادة في التنبيه إليها .

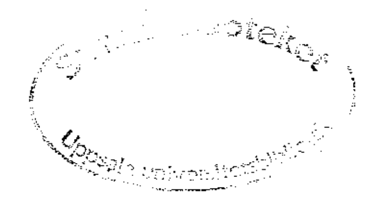
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٥	البلخيّ	البلخيُ	٦١	٢	فيعني	فيعنى
٦	١٦	ها هي	ها هي ذي	٧٠	٦	الحنان	الجنان
٦	١٧	التبربزي	التبريزي	٧٩	٢	تقضي	تقضى
٢٠	٤	استطاغ	استطاع	٨٥	٩	أفهامي	افهامي
٢٠	١٣	فرزانفر	فروزانفر	٩٤	حاشية ١	**يبايعون الله ورسوله**	**يبايعون الله**
٢٠	حاشية ٢	فررزانفر	فروزانفر				
٢٩	١٢	إلأ	إلا	٩٧	١٤	جمله	جملة
٣٥	٢٠	المثوي	المثنوي	١٠٠	١٣	بينها	بينهما
٤٦	٩	بالتفس	بالنفس	١٠٠	حاشية ١	**يلتقيان برزخ**	**يلتقيان بينهما برزخ**
٥٤	حاشية ١	George	Georg	١٠٣	١٠	أيّا	أيّاً

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٩	٤	فيطفؤوها	فيطفئها	١٨٦	٥	إعطاك	أعطاك
١١٠	حاشية٢	يحدثة	يحدثه	١٩٥	٥	المزاق	المذاق
١١٢	١	والزوال	الزوال	١٩٥	٧	ناشيء	ناشىء
١١٣	٣ ، ٧	دون	من غير	١٩٨	٢٣	فإنّ	فإنْ
١١٣	حاشية٢	**رأى كوكباً فلما أفل**	**رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل**	٢٠٠	حاشية١	**شطنه**	**شطأه**
				٢٠٢	٢١	**فتقول**	**وتقول**
١٣٢	١٤	سحابة	سحابه	٢٠٧	حاشية١	**تنزل**	**تتنزل**
١٣٥	١٢	تطلب تطلب	تطلب	٢١٠	٢٤	مملي	مملى
١٣٧	١٥	كلَّ	كلٌّ	٢١١	١	سحايا	سحابا
١٤٠	٥	يَعُدُ	يَعْدُ	٢١٤	١٠	راعي	راعى
١٤٣	حاشية٣	**الكتاب الذي**	**الكتاب الذين**	٢١٥	٢	١٥٠	١٥٠٠
١٤٦	٤	يطفؤه	يطفئه	٢٣٨	١٤	واحد	واحداً
١٤٩	١	دون	بدون	٢٣٨	حاشية١	شاطيء	شاطىء
١٥٤	١٥	سوي	سوى	٢٤٥	١٢	أني	أنى
١٥٥	٧	وهاهم	وهاهم أولاء	٢٤٥	١٦	يصحبان	يصبحان
١٥٥	١٥	بينها أنت	وأنت	٢٥٦	٨	أحل	أجل
١٥٥	١٩	أطياب	اطياب	٢٥٦	١٧	شبيهة	شبيه
١٥٥	٢٠	بالمنتقي	بالمنتقى	٢٦٨	٨	كظهره	كظهر
١٥٦	١٠	إلا ما	الا ما كان	٢٧١	١٧	قد فهمته	فهمته
١٥٧	١٣	مكمنة	مكنه	٢٧٣	حاشية٢	مقدوة	مقدرة
١٥٩	١١	ليلقي	ليلقى	٢٧٤	حاشية٢	فتلحطمها	فلتحطمها
١٦١	٧	العقبي	العقبى	٢٧٩	٣	تقضي	تقضّى
١٦٤	٣	نطرت	نظرت	٢٨١	٢٢	حيونيا	حيوانيا
١٧٣	٣	يينها	بينها	٢٨٣	٢٢	المجد	المجلد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٧	حاشية٢	روخاً	روحاً	٣٨٠	١٦	السنبن	السنين
٣١١	حاشية١	ناقة وسقياها	ناقة الله وسقياها	٤٠٤	٢١	المحجبّة	المحجبة
٣١٦	حاشية١	٥٥ ، ٢٠	٥٥ : ١٩ – ٢٠	٤٢٣	١٧	خرابة	خربة
٣١٧	١٥	ينبؤه	ينبئه	٤٥٦	١١	الوساس	الوساوس
٣٢٩	حاشية٢	٣٤	٢٤	٤٥٧	٢	غصب	غضب
٣٣٠	١٦	تتخلض	تتخلص	٤٥٧	٩	حتي	حتى
٣٣٤	١٥	الدينوي	الدنيوي	٤٦٣	١٤	المرخي	المرخى
٣٣٥	١١	منّ	من	٤٦٦	١٣	هذه	هذين
٣٣٧	٥	كالملاك	كالملك	٤٦٨	١٠	هذه المعجزة	المعجزة
٣٣٨	٧	مطلوبة	مطلوبه	٤٦٨	١٣	من الرسل	الرسل
٣٣٩	١	يعثي	يعني	٤٧٥	٨	المعني	المعنى
٣٤٣	٦	هذا الإبريق	الإبريق	٥٢٦	١٩	١٠١٤	٢٠١٤
٣٤٤	٥	فأني	فأنّى	٥٣٧	٥	عجيه	عجبه
٣٤٨	١٩/٢٠	بشراناً بشراناً	بشرانا بشرانا	٥٥٦	٢٠	المكن	الممكن
٣٥٥	٣	صبر	اصبر	٥٩٢	٦	يخفي	يخفى
٣٧٨	١٢	نعيش	تعيش	٥٩٦	٥	خاتمة	خاتمه
٣٧٩	١٧	؟	!				

وهناك هفوات قليلة أخرى أوضح من أن تحتاج إلى ذكر .

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٣



THE MATHNAWI
OF
JALAL-UD-DIN RUMI

BOOK ONE

TRANSLATED WITH AN INTRODUCTION & COMMENTARY

BY

MUHAMMAD A. KAFAFI, PH. D.

Professor of Islamic Literatures, Cairo University.
Delegated Professor, Beirut Arab University.

AL - MAKTABAH AL - ASRIYYAH
Sidon — Beirut
1966

THE MATHNAWI

OF

JALAL - UD - DIN RUMI